المجموعة الكاملة

الإمام

علي بن أبي طالب

عبد الفتاح عبد المقصود



منشورات مكتبة العرفان - بيروت


مكتبة الروضة الحيدرية

الإمام

علي بن أبي طالب

الجزء الأول

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت



هذا البَيْت

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ، وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

١

ايام خزاعة راحت مع التاريخ .. مات سيدهم حليل فانتهى بهذا شرفهم في العرب . وابتــدأت دولة في الناس شمسها تبزغ ، وتملأ بنورها المستفيض رباع مكة .

واشرابت اعناق القبائل الى الملا تنظر وتدير الأعين بين قصى ومن ظاهره من بطون قريش ، وبين اولئك المغلوبين على امرهم واحلافهم من بني بكر .

ماذلت خزاعة حتى تدع البيت لهذا الصهر الذى عدا على حقها فاستلبه ، وان فيها من هو اولى بها منه ، وأوثق صلة بأجيال من آبائها توارثوا حجارة الكعبة والقيام على شأن حجيجها من رفادة وسقاية . وان دون فوز هذا الفتى من مضر لصبغ هذه البطاح باللون القانى !..

ذاك راى خزاعة وقد تجنت !.. فما عدا الأمر — اذ اصبحت مفاتيح الــكعبة في يد قصى — ان ارتد الحق الى اهله . وانمــا كانت ولاية البيت قبلها في مضر ، ثم بنيه من بعده ، فلما بغت قبيلة اياد في الحرم واخرجها المضريون منه ومن مكة ، عمد بعضها ذات ليلة الى الحجر الأسود فاقتلعه ثم دفنه في الأرض حتى يذهب باختفائه هذا الشرف الذى تستطيل به مضر في بلاد العرب .

واصبح القوم والبيت غير البيت ، والكعبة غاب عنها الحجر مناط التقديس ومهوى الأرواح والنفوس .. وارسلوا البصر ثم حملقوا ولم يصدقوا . واقبل كل على اخيه لا يقوى على كتمان ما بنفسه من هم غالب .

وفي مثل اللمح طار النبأ واستشرى كالنار . وغشيت الكآبة مكة ولدا وشــيخا كيفما اختلفت فيهــا البطون والافخاذ .. ان الحجر الأسود كان رمز ايمانها جميعا ، وكان الثراء والنعمة لأهليها ، بما يجذب نحوها من حجيــج يطوون النجاد والوهاد ، ويحملون اليهــا متجرا او يبذلون مالا تنفق بهما السلع او تروج الأسواق .

غشيت الكآبة مكة كلها الا نفسا ظلت وحدها هادئة بين هذه الآلاف لا يملأها القلق ولا يغمها الحزن الذى عم الجميع . بل بقيت ، كلما لاقت من هم الناس ، تشــيح عنهم حتى لا يروا في عينيها ومضــة

الهدوء ، ولا على ثغرها بسمة السخر والرثاء .. تلك كانت امرأة شاء لها حظها أن تعلم وهم في بيداء حدسهم يضربون .

واقبلت على قومها في نجوة من غيرهم تهتف :

« يا بني خزاعة !.. » .

فالتفوا بها . وتسابقوا يسألون :

« فيم هذا الهتاف يا أمة الله ؟ » .

« في عز الدنيا وشرفكم بين العرب ، وان كليهما لفي كفى هاتين! » .

***

وكان حديثها نصيحة وقصة . اما القصة فقد أطرب جرسها الأسماع وافاءت على النفوس السكون . وأما النصيحة فقد ادخرتها لسادة القبيل دون العامة . افضت بها اليهم في حديث خافت كالمناجاة ثم راحت من بعد تحضهم وتقول :

« فاملكوا أمركم بينكم فلا تستطيل عليكم بعدها مضر ابدا .. » .

اجل وانه لكما أوصت . وان الحظ الذى ساقها تلك الليلة الى الخروج لبعض شأنها للذى واتى خزاعة فسودها بولاية البيت الحرام .

كانت المراة تدلج على مقربة من الحرم في ظلال كثيفة من الظلام ، فاذا أشباح رجال يدلفون من البيت في خطى المستريب ، في ايديهم قد احتملوا شيئا .. ووقفت الخزاعية في عجب تنظر ، وتصطنع الحذر قدر الجهد حتى لا يروها . ثم راحت تتأرهم البصر وقد حجبتها عنهم الظلال ، ورأتهم يقربون بعيرا ، ثم ينيخونه ، ثم يحملونه .. فما اعجب ان رزح لتوه على الرمال لا ينهض كأنما قد حملوه جبلا او شد الى أديم الأرض !.. وحاول القوم أن يستنهضوا الدابة فذهبت محاولتهم مع الريح ، فالتمسوا عنها ثانية أقوى أودعوا ظهرها ما ناء به ظهر أختها من قليل ، ثم ضربوا آباطها الى غايتهم . ولكنها رزحت كسابقتها وشد بطنها الى صفحة الرمال ما شد الاولى من اصابع المجهول . وعجب القوم . وعالجوا البعير بالحيلة وبالعنف وبالجهد فأعياهم ما بذلوا من حيلة وعنف وجهد .. وكانت المراة واقفة " تبرح من حيرة ومن ذهول . وترسل نظراتها خلال الظلمة الى ثالثة الدواب رازحة على الرمال كالأخريين تحت حملها الصغير فلم تملك الا الاقتراب مستخفية بستر الليل عساها تقف على ما ملأ قلبها توجسا وخوفا .

وكانما ايس أصحاب الليل ان يستعملوا ظهرا ، او استبدت بهم فزعة، او خشوا ان يفجأهم في مكانهم نور الفجر . فسارعوا الى الوسق يدفنونه في طوايا الرمال .

في هذه اللحظة تبينت الخزاعية الأمر كله اذ التمعت أمام عينيها صفحة الحجر الأسود تنم عنه ، وتكشف عما دعا بني اياد الى اخفائه. لقد علمتهم قوما موتورين ، وجدوا على ولد مضر فأرادوا ان يحرموهم ما رفع هامهم على قبائل العرب اجمعين ... وضمت المرأة على السر شفتيها كما انضمت على مكنونها هذه الرقعة من الارض ، ثم ذهبت مع الصباح الى قومها تقص الخبر وتزجى النصح لاشياخهم ان يساوموا مضر على رد الحجر لو نزلت لهم عن مفاتيح البيت الحرام يتولونه دونها . واخلق بخزاعة ان يطير بهذا شأنها في القبائل .

***

ما كان قصى لينسى هذه الأحدوثة التى سمعها صغيرا ، ثم وعاها كبيرا ، ثم أبت من بعد أن تبرح ذهنه كلما طاف بالبيت فراى شيخ خزاعة يقوم به ويدفع بابه للحجيج من وفود الجزيرة لقضاء حق ربهم فيه . وكان قصى ذكيا أريبا ، نما في قلبه على الأيام حب هذا السؤدد الذى انساب من يدى قومه بمكيدة امراة كما تنساب حفنة مياه من بين أصابع قابض عليها . وأخذ طوال ما فات من سنيه يدبر لاستعادة المجد الذاهب . فاذا بلغ مبالغ الرجال كانت حجابة البيت امنية حياته . ولمن كانت له مثل عزماته وقوة قلبه تتداعى الصعاب وتنهار حتى لتصبح رواسيها الشم في يديه رملا هشا ماله من قوام .

واجال قصى فيما حوله بصره : هذا حليل بن حبشية سيد خزاعة يشرف به العمر على غايته أو يكاد ، ويلعب الوهن بجسمه حتى تهجره القوة فلا يستطيع دفع الباب كما اعتاد وهو شاب مفتول عامر بالحياة، بل يرى في الحجابة جهدا فيسلم المفاتيح الى هذا يوما والى ذاك يوما يقومون بالعمل عنه ... ثم يسلمها اياما واياما الى ابى غبشان سليم ابن عمرو وارث الشرف من بعده في القبيل . ثم هذا ابو غبشان صاحب زق وخمر ، لا يكاد أن يرى الا مخمورا . وما على شاكلته يكون سادن بيت الله الحرام ، وما لمثله يستجيب الناس ان اراد القيام فيهم بأمر دينهم او دنياهم .

دبر قصى الحساب فما فاته الصواب ، واصبح عليه صباح مشى فيه الى دار حليل ، يضرب بابه ويستاذن .

وقال الفتى بعد أن استقر به المقام وخاض من الحديث فيما لم يبق بعده الا صفوة الكلام :

« ذكرت اليك حبى يا بن حبشية » .

فرمقه الشيخ برهة ثم سأله :

« لك أنت يا زيد ؟ » .

« نعم وعساك ترضى » .

« مرحبا وأهلا » .

وكان هذا الزواج صفقة رابحة في نظر الشيخ فتهللت اساريره وتاه زهوا بصهره الذى ينتهى اليه أمر قريش سيادة وأصلا ووفرة مال . وانتقلت حبى الى حياة جديدة ودار كسبت لها السمو على كل دار . ولكن احدا من رجال خزاعة لم يجل بذهنه وقتئذ أن ولاية البيت قد أفلتت منهم الى سواهم . لقد اخذ تفكير حليل يسير في منحى سوى منحاه راحت به مفاتيح الكعبة في كف حبى ثم في كف زوجها يقوم عنها اكثر الأوقات بما هو أجمل بالرجل أن يقوم به . وكلما طالت الأيام طال قيام قصى بحجابة البيت ، وكلما اضطلع بعمله هذا اطبقت أصابعه على المفاتيح شدا . وكلما مر الزمن نبه ذكره وعظم خطره وزاد ولده فزاد بهم قربا من قلب حليل .

ثم ما لبثت اللحظة التى انتظرها بيقين الواثق أن جاءته . فقد احتضر كبير خزاعة . وانه لعلى فراشه يجود بنفسه فيطلب ابنته . ويطلب ولدها وزوجها يملأ من طلعاتهم عينيه ويلقى عليهم نظرات الوداع . ثم تأخذه صحوة فيهم ناهضا من فراشه ما وسعه ، وقد اتكأ على حشيته بذراع . ويخاطب سيد قريش في صوت خافت خفيض :

« يا بنى ... انك على امرى من بعدى ... »

قال قصى يسأل وان لم يفت عن ذكائه الجواب المرجو :

« وسليم ؟ » .

« مالى ولسليم ؟ : هذا امر ليس يقيمه صاحب خمر » .

« فان أبت خزاعة ؟ »

فصاح به الشيخ كالمستنكر وهو يشير الى احفاده :

« خزاعة !... وهل خزاعة الا هؤلاء ؟... انما ولدك بنو ابنتى — ولدى — وانت أحق بامرى حتى يخلفوك » .

وقد تم هذا حقا .. رسمته الوصية ثم ادعمته من بعدها الدماء.

ابت خــزاعة وظاهرتها بنــو بكر ، وابى قصى عليهم ذلك الاباء وظاهره قوم ابيه قريش وكنانة وقوم امه من ربيعة قضاعة .

واقتتل الفريقان قتالا مرا اهلك منهم الخيل والرجل ، وحصد عديدهم حصدا .

واشفقت العرب من عقبى الحرب فمشت بينهما تحضهما على الصلح وفض النزاع حتى قبلا أن يحكما في الأمر يعمر بن عوف .

وقال يعمر يقضى بعد سماع الحجة من كلا الخصمين :

« يا بنى خزاعة اراكم جرتم فانه والله لبيت أبيه .. الا فما كان من دماء رجاله ففيه الدية ، وما كان من دمائكم فاني اضمه !... »

وكذلك انتصر صاحب الحق القديم واستعاد تراثه . اما خزاعة فقد نفاها عن البلدة واخرجها منها ، واما قريش فقد الفها حوله ، وجمعها وكانت قبله مزقا وحلولا متفرقة ، ثم اقطعها بلدة البيت .

وراحت ايام خزاعة من التاريخ ، وبدات دولة في الناس شمسها تبزغ وتملأ بنورها المستفيض رباع مكة ...



شرف قصى حتى تسنم الذروة . وكان رجلا فيه هيبة ، وفيه حزم ، وفيه فيض ، فأتته الأقوام منقادة ، عن رهبة او عن رغبة . واحسن امساك الزمام ، فما تفلتت منه توافه الأمور ، هو الذى تعلم أن يصانع العظائم حتى تستقيم له ...

واصبحت له مكة ملكا وان قل له أن يصير ملكا . فكان للناس ابا وسعهم حنانه قبل أن يضمهم سلطانه .

وفي الحق لم تر تلك الرقعــة من الأرض رجــلا مثله تداعت له السيوف والقلوب ، لا يأتمر كلاهما بامر سواه . وان القوم ليهمون بالحرب فلا يعقد لواءها لهم الا قصى . وان الرجل ليتخذ شريكة حياته بعد أن يرضى عن زواجهمــا قصى . وان الراحل لا يرحــل والعائد لا يعرف الطريق الى داره حتى يمرا اولا بدار قصى ... قوة لا يحدها سلطان ، وسلطان اشبه بايمان لا يملك أن يعصيه انسان .

واقبلت عليه في ملكه الأيام ، ثم تداولته الأعوام حتى شعر أن قد امهل له في عمره ما لم يبق معه بقية امهال ، فانطلق بفكره يتزود من

هذه البقاع الحبيبة الى النفس ، ويتدبر فيمن عسى ان يبقى لها من بعده عزها وعز ولده . حمداً لله فليس ينقصه المال ولا كثرة الرجال!. وهؤلاء قومه قد جمعهم ولفهم حول آله لفا . وهؤلاء بنوه قد شرفوا أمام عينيه واستطال مجدهم . وهم فتية . فايهم تولى امر هـذه الأقوام ، قام به فأحسن القيام .

في دخيلة نفسه احب لو أوصى لولده عبد مناف اذ خبر فيه عزما وهيبة وفيضا كأنما نحله كل ما فيه دون بقية بنيه . ولكن قصيا على قوة قلبه كان امرءا ذا طيرة ــ شأنه في هذا شأن الكافة من سكان الجزيرة الذين غلبت عليهم الأوهام واستعبدت عقولهم ايما استعباد في ذلك الزمن الغابر ... وهن جلده ولم تهن ذاكرته ، فاستطاع أن يرتد القهقرى بخياله ليرى ما حدث ذات ليلة في دار ولده المفضل .

... كانت عاتكة الكبرى بنت مرة قد جاءها ما يجيء النساء عندما توشك أن تنسلخ عنهن حياة جديدة ، واقتعد نسوة البيت حولها ينتظرن . وراح عبد مناف بلا قرار يجوب الحجرات في انتظار ما تأته به زوجه من أخ لبكره المطلب يعز به في الناس نفرا .

واشتد بعاتكة الألم حتى إعتصرت عينيها ، واشتد بالزوج القلق حتى ذهب ذهنه في اليأس كل مذهب ... لم تكن هكذا حالها حين وضعت وليدها الأول ، ولم تلق كهذا العسر . فلما طال اليوم عليها أمرها وحزب ، خشي زوجها المغبة وراح في حرارة يبتهل .

ودخل اذ ذاك قصي ، مديدا فارعا موفور القوة كمن له نصف عمره ، فاتجهت نحوه الأبصار ــ وملأتها ــ اذ بدت طلعته ــ نظرات فيها هدوء وقرار ... ان اليمن لفي محياه ، وان البركة لبين يديه ، وان الخير لأينما حل ، فليس اذن ما يخشونه على الأم .

وقد صـدقت حقا فراسـتهم اذ كان ميمون الطلعـة مباركا ، ما استوى مجلسه حتى تيسر لعاتكة امرها وجاء البشير بأنها وضعت حملها واستراحت .

لم تعدل فرحة عبد مناف بنجاة زوجه الا الفرحة التى هزت قلبه وهو يرى وليديه قد خلصا من امهما وهمت ان تتلقفهما أيدي النسوة . ولدت له عاتكة توأمين .. ذكرين كانا !.. وان في هذا عزا له ما بعده عز في بلد استحيى ناسها الابن وكرهوا الابنة حتى ليودعونها بطن الأرض ولما يستقر على ظهرها هيكلها الغض . واسرع الرجل تحمله الفرحة ، وسبقه الشيخ الى الوليدين يريد أن يملأ بهما عينيه كما امتلأ ــ قبل

النظر اليهما ـ فؤاده . ولكنه مامد اليهما كفيه حتى تقبضتا دونهما رهبة،ثم استرسلتا الى‌جواره وعيناه توليان الصغيرين دهشة‌وحيرة.

وحق لقصي ان يدهش ، وان تأخذه الحيرة وهو يلمح في الوليدين شذوذا دفع اليهما الأبصار تنتهبهما انتهابا ... كانا متصلين على غير المألوف في التوائم ، لا من جنب ولا من بطن ولا من ظهر ، بل لصقت بجبهة احدهما قدم الآخر كأنما هي منها قطعة .

واسرع القوم اليهما يعالجونهما حسبما اسعف كلا جنانه . وكثرت فيهما الآراء وتشعبت نواحيها . ولكن رأيا واحدا لم يلم على جانب من التوفيق . وما أجدت المحاولات شيئا .

وأقبل عجوز من خزاعة له كهانة وله علم ، كانوا قد استقدموه ليستخبروه ما جهلوا : قلب الوليدين في يده برهة يفحصهما ؛ ثم قال بهدوء :

« ما ارى الا ان ينفصلا عن دم » .

فسأله عبد مناف بلهفة :

« ولا خطر » .

فكان الى العمل منه الى الجواب أسرع ، فما لبث الطفلان أن انفصلا كلا الى ناحية ، جبهة من أسموه عبد شمس تشخب دما ، وقدم توامه عمرو خضيبة بذلك الدم .

وقال الكاهن ، وهو يهم أن يبرح ، وعلى شفتيه بسمة خابية ، وفي عينيه سهوم كمن كان يستوحي المجهول :

«الا انها والله لآية لمن علم ، وليكونن بين ولديهما خصومة ودم ! »

وكان من هذه الكلمات لقصي طيرة ... وفي مجلسه بداره ذلك الصباح منطويا على نفسه ذكر نبوءة الكاهن وما كان من شأن الطفلين.

وقام الى الندى يمشي الهوينا ، خافض الراس مشغول البال . ما له في أمره اذن من خيار . وما عليه ليجنب قريشا مصارعها ، وليبعد الشر عن الوقوع في آله ، الا أن ينأى بعبد مناف عن تولى الامر من بعده ، حتى لا تشب الفتنة بينه وبين توامه عبد شمس ان ورث الأول ونفس الثاني على اخيه الشرف الموروث .

وبقي الأمر محصورا في عبد الدار ، بكر قصي ، وان عرفه لا يقوم مثل مقام اخويه . ولكنه رأى ان يوليه شأن القوم حتى لا يستطير الشر ويستشري في بنيه أو يملأ بدمائهم ارجاء مكة .

وقام الرجل يوصي بما قر رأيه عليه وفي باله ان وصيته مجنبة اهله ويل المقدور ، ووقف ينادي ، على مشهد من بنيه ومن اشراف قومه :
« يا آل فهر .. يا آل غالب .. يا آل لؤى .. يا آل كعب .. يا آل كلاب .. » .

فلما اجتمع له الناس من كل جانب يحيطون به ، التفت الى بنيه يهتف :

« يا بنى قصى » .

فنادوا جميعهم :

« لبيك ! » .

قال الرجل وهو يشير الى بكره :

« فانى اشهدكم بأنى أوصى لابنى هذا ... »

وادار عينه الفاحصة فما راى الا الموافقة والاقرار . ما كان لهم بعصيانه طاقة ولا عن طاعته محيص .

وقال الشيخ لوصيه أمام بقية ولده بعد أن انفض الناس :

« انما شرف عبد مناف . وذهب في زمانى كل مذهب . وارتحل عبد العزى وحل فاصاب من الدنيا واصابت منه ، وتخلفت انت يا بنى ... اما والله لالحقنك بالقوم : لا يدخل رجل الكعبة حتى تكون انت تفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء حرب الا انت بيدك . ولا يشرب أحدبمكة الا من سقايتك . ولا ياكل احد من اهل الموسم طعاما الا من طعامك . ولا تقطع قريش امرا من امورها الا في دارك ... »

ونهض فحف به بنوه يمشون بين يديه . ولم ينس وهو يغادرهم ان يلقيها اليهم كلمة فيها جماع امره :

« الا قد بلغت !... »

٣

حتى اكتهل عمرو ، واتبع خطوه في طريق العمر توامه عبد شمس، وشب لهما من الولد ما لكليهما مناط فخره ، ظلت نبوءة كاهن خزاعة جنينا في بطن الزمن لم يبزغ عليه نهار .

وتداولت قريشا أحداث شتى فيها حلو وفيها مر ، وعبد الدار ولى بيتها وندوتها . وما اتصل بهذه أو بتلك من شئون . لم تقرع ضعفه قارعة تدعوه الى استنباط قوة ليست فيه ، بل سارت له

الأمور مستانية يحفها هدوء ولين ، يقوم بما وكل اليه فيسدن ، ويرفد ، ويسقي ، ويعقد ويشير ، وقومه جميعا من خلفه — كما أوصى قصي — لا ينفسون ولا ينقمون ، استجابة منهم لأمر سيدهم الذى طواه التراب ، ووقفت عاجزة دون طي ذكره الأحقاب .

وورث بنو عبد الدار فخر أبيهم فاستطالوا بما في أيديهم عزا . ولم يقصر عن مجد بنى عمهم عبد مناف بل لعله بلغ شأوهم ثم زاد رفعة . فقد ذهب عبد شمس يجوب الآفاق متجرا فيصيب خيرا ويصيب حنكة ودراية بالناس . وهو باتجاره هذا يشبع نفسه المطبوعة على المداورة وبعد الغور والدهاء . ونبه ذكر عمرو كما لم ينبه لأحد من بنى ابيه ذكر حتى سوده القوم عن غير وصية سابقة من صاحب سلطان ... كان الله قد جبله من خلق متين ثابت الأركان وأورثه من جده قصي صفته وان لم يورثه عرضه ، فراح اسمه في الآفاق قصيدة طيبة الروى . ابياتها سماحة وفيض وقوة جنان ، لا يمل ترديدها لسان ، ولا يدانى شأوها في أقوامه انسان .

هنا لعبت حنكة الأيام بالرجل الذى جبلته الدنيا على المداورة وبعد الغور والدهاء ... نظر عبد شمس الى الأمور نظرة تاجر لايفوته في صفقاته التزام الحساب ، فوجد بنى عبد الدار اقل ولد جده خطرا . ولولا أن كانت لهم ولاية البيت وما تبعها مما اوصى به قصى ما بزوا امرءا من عامة قريش . أفتراه يتركهم يفضلونه امام الخاصة والسوقة بهذا الفخر الذى لم يأتهم عن عزم او قوة او فضل بل اتاهم منة من كريم وهم بنو الضعيف الواهن المهيض ؟

اذن ففيم كان له الدهاء لو ترك لهم ولاية البيت وما يلحقها من الشرف الموروث ؟ وهل ترى يكبو ذكاؤه دون بلوغ مآرب نفسه ؟ . ان الرجل قد عنى ذهنه أن يكدح ليفوز بما يعلو به فوق بنى عمه شرفا . وكانت فيه نزعه للسيطرة جامحة الى جوارها مداورة تفل من حد جموحها أن يبين ، فلم ينس انه ليس بخير بنى عبد مناف في عيون قومه ما بقى فيهم توامه حيا يأسر الناس فيضه ، على أن الكرم ليس بما يعسر على عبد شمس أن يصطنع له من جنسه ما يذيع ذكره ويعطف النفوس اليه ، ولم يكن هو معدما ولا مقلا وان لم يبلغ من الثراء مبلغ عمرو . لم يكن بالأضال حسبا اذ كلاهما من عبد مناف ، ثم ليس بعد هذا بالأقل او الأذل ولدا .. وكفاه ان قد انجب امية الذى لاح — مذ اكتملت فتوته — كبير المطمع نزاعا الى العلياء .

وكذلك بدا عبد شمس ينسج خيوطه فراح يتألف حوله ذويه . ثم راح يجتمع بأشياخ قومه يحدثهم في اخراج الأمر من بنى عبد الدار . فلا ينكرون عليه سعيه وهم يقرون بعلو عبد مناف على عبد الدار . ثم اتى اخيرا عمرا متألفا آونة مداورا اخرى حتى مال وسكنت اليه نفسه. فلما اكتمل له رضا الاكثرين انبث بين اسد وزهرة وتيم والحارث يبذر فكرته حتى اقبلوا معاقدين معاهدين أن يخرجوا الحجابة والرفادة والسقاية واللواء والندوة جميعا من بنى عمه الى الأعزين : بنى عبد مناف بن قصى سادة الناس واولاهم بشئون حرمهم بيت الله .

واجتمع له القوم الى جوار الكعبة بينهم جفنة ملئت طيبا غمسوا فيها الأكف ثم مسحوها بأستار الكعبة وهم يقسمون على النصر والوفاء بالعهد .

ورد بنو عبد الدار ومن والاهم على حلف المطيبين هؤلاء بحلف آخر فاجتمعوا الى جفنة دم يتعاقدون عليها . ومن خلف اولئك وهؤلاء وقفت العرب ترقب ما عسى أن تأتي به الأحداث بين بنى هذا البيت الذين فرقت بينهم عروض الحياة حتى صاروا أصحاب طيب أو لعقة دماء .

ثم سلت السيوف واشرعت الأسنة وكادت الحرب ان تشب فتأكل نارها من القوم أو تذر ، فاذا بلغت الفتنة غايتها وادرك التأهب مداه مشى من ذوى المروءة بين الفريقين من سمعوا له فتداعوا الى الصلح ابقاء على قريش .

وهكذا حكموا بينهم من ارتضوا فحكم بأن يترك لبنى عبد الدار من تراثهم حجابة البيت والندوة وعقد اللواء . ويعود بنو عممهم بالسقاية ورفادة الحاج .

واجتمع المطيبون في دار عبد شمس يتشاورون فيما اصابوه من ثمار فقام صاحب الدار فيهم يقول :

« يا بنى عبد مناف هذه غنيمتكم قد احتلبناها من بنى عبد الدار احتلابا واني والله .. » .

فقطع عليه حديثه من قال :

«بل عاد الينا بعض ماترك قصى ، ولنحن أهله ، ولم نبتز احدا حقه»

قال عبد شمس :

« فهذا . وهلموا امركم بينكم فانظروا . » .

نعاد محاوره ثانية يقول :

« انه لأمر بين . قوموا فادفعوا بهما الى خير قصى » .
ثم التفت الى عمرو يهتف به :
« فما ترى يا أبا يزيد ؟ » .
« روا رأيكم .. » .
ولم يزد . وتلبث القوم يتفكرون برهة . اما عبد شمس فقد امتلأ بالثقة قلبه أن لن يعدل المجتمعون به سواه . أليس هو مؤلب الناس حولهم ، والمشير عليهم بالانتقاض على بنى عمومتهم ، والداعى الى ثورتهم حتى باءوا بعد بالذى غنموه ؟
لكنه حساب اخطأ وتقدير كبا دون الغاية . فما هو الا قليل حتى تبدى على وجهه الذهول وقد نمى الى سمعه صوت يقول :
« يا بنى عبد مناف . ألا تهتدون وفيكم عمرو ! »
فكأنما هى الصخرة التى حولت التيار .. نادى رجل :
« يا عمرو الحيا انت لهما ، فوالله ما طعمت مكة ولا سقيت من يدين ابسط من كفيك !.. »
قال عمرو تواضعا وكرما :
« بل هذا اخى ابو امية ادفعوا اليه الأمر .. »
ولكن كبيرهما المطلب سارع يقول :
« وما لعبد شمس وهذا الأمر ؟.. انه قام فينا فأحسن القيادة وأسلسنا المقادة . وانما الأمر اليوم لصاحب دار بلا باب ، وفيض بلا حساب ، وانه والله لأنت !... »

٤

ولاية صادفت أولى الناس بها في حساب الجميع ، وان كانت اخطأت وليها ، مذكى فتنتها ، والساعى الى فخرها في حساب عبد شمس .
وكان لابد ان يتألم الرجل ، وان يبرم ، وان يضيق برأى قومه فيه ضيقه برأيهم في أخيه . ولكنه صانع وداور ، وتحلب مر الهزيمة وهو يكظم حنقه في قاع نفســه البعيدة المهوى ، وما له عن هذا معدى ولا محيص .
وجلس يتربص بالأيام عســاها أن تعود نتهبه النصف أو يقع فيها على فرجة ينفذ منها بحنكته الى اقتناص ما فاته .

حكمة داهية اريب . ذاق من الدنيا وذاقت منه ، لا يسعه الا ان يبطن حين لا يضيره أسرار ولا يجديه اظهار .

ولكن الأيام لم تقبل مطلقا عليه وفي وفاضها الفرصة التى منى النفس أن يجرب فيها ثانية دهاءه ، وان كانت قد أقبلت على توأمه توسع له وتوثق من نظرة قومه فيه ...

كل ما أصابت مكة من خير كان عن عمرو ، وكل شر أصيبت به لم ينفضه أو يكفكف من حدته عنها سيد سواه .

كان هو الرجل الذى لم يخطىء فيه تقدير الناس ، لأن الاقدار شاءت له أن يصيب . وكفاه جدارة بما أصاب أن قريشا كانت تسمع له وتلتف به ، وسلطانها ما زال في يد غيره من بنى عبد الدار .

ولم يكن هذا أكبرها سنا ، ولا أكثرها ولدا ، ولا أعزها اهل بيت بعد أن مالت عنه نفوس عبد شمس وبنيه ومن صانعهم وصانعوه ، وانما كان أكبرها قلبا ، واسمحها كفا ، وأعزها خصالا وطيب خلال .

وفي سنى الجاهلية كانت المكرمة الواحدة تشغل شاعرا أو راوية ، فما بالك بهذا الذى لم يكن ليعز عليه اتيان أية مكرمة من المكرمات؟..

***

كان ملاك نفس عبد شمس بيده ، لأنه مداور داهية استطاع ان يصطبر ولكن ملاك امية ابنه أفلته لأنه عجز امام سطوة الحسد ان يمسك بزمام نفسه .

وكان هذا أولى به لأنه كان فتيا ، فيه خفة ، وفيه نزق وحدة واندفاع ، وفيه ولع بالمجد الذى اخطأ طريقه ابوه . ثم هو بعد هذا لم يخل قلبه من بغض لمن ظنه نافس أباه في ميدانه وحاز السبق من دونه . فقام يلعب الدور الذى جلس عبد شمس طويلا ينتظر عبثا أن تهيئه له الأيام .

سقى عمرو فسقى امية ، واطعم فاطعم ، وأعطى فاعطى ، لا يدع وسيلة الا تذرع بها كي يفعل كفعله عسى أن يطير في الملأ ذكره كذكر عمه أو يزيد رفعة .

ولكنه كان دائما الصورة الخرساء للأصل الناطق . قلد وليس بوسعه الاحسان فأخطاه الاتقان !.

ثم كبا به فجاة عندما ضاق بالجود ماله المحدود .

وكان هذا حينما أصابت مكة سنة شديدة ، اذابت الشحم وبرت العظم واكلت اللحم . لم ينج من شرها حضر ومس ضرها الوبر . فذاق ذو الترف الطوى ، واضنك كل ذى سعة حتى لم يسمه الا أن يقبض كفه .

وجرى امية في السخاء شوطا ثم اقصر واقفز منه الميدان . ثم بقى عمرو وحده ملاذ البلدة الحرام ، لا يغلق باب داره دون الناس ولا يمسك راحته عنهم .. حتى اذا اشتد القحط بمكة أيما شدة ولم يعد في خيرها ذماء ، زم الرجل عليه دثاره ، وحمل ماله ، وشد رحاله وخرج بليل يضرب في الأرض الى مكان .

وأصبح الناس يسعون الى بيته فلا يجدونه فكأنما استلبتهم الدنيا ما بقى لهم من مأمل في الحياة . فلقد كانوا يدراون الجوع بجفانه والرزء بحنانه والشدة بايمانه .. أما وقد غاب عن عيونهم محياه فقد انطووا على انفسهم في ذلة ، طاوين . ينتظرون مصارعهم والاملاق يشد على الخناق ، والامحال ينذر بشر حال .

ثم فتحوا أعينهم ذات صباح ، وكلهم هزيل معروق ، لاصق البطن ، منهوك الذهن ، فاذا عير قيد الأبصار قد انتشرت على حد الأفق حتى لتوشك أن تملأ فراغه . واستبقوا اليها راجين ان يكون الله قد ساق لهم فيها خيرا . وراحت الابل في سيرها الوئيد ، تطوى ما بينها وبينهم مخلفة وراءها طريق الشام ، الكعبة مقصدها وغايتها ، وقد بدا ، يقود أولها بخطمه ، رجل ما وقعت عليه الأنظار حتى تصايح القوم من كل مكان فرحين :

« الفيض ! » .

« هذا ابو يزيد ! » .

« انه عمرو ورب الكعبة ! »

ثم التفوا به يتواثبون كالصبية حول أب بار عاد بعد طول غيبة ، ولم يتلبث هو بهم ليسالوه أو يستخبروه شأنه ، بل مضى سريعا الى الوسق فانزله . والى الغرائز التى احتملتها ابله يحلها ، والى الخبز الذى كان حشوها يهشمه ، ثم أمر بالجفان فملئت ، وبهذه الابل كلها فنحرت ، واشتغلت في طهيها الطابخات اياما لا تخبو لهن نار .

***

عرفت مكة الشبع بعد الطوى والجوع ، وانجابت عنها غمة الأيام السالفة فتجاوبت نواحيها منة هذا الكريم الذى أحتمل امواله جميعا الى الشام فاشترى بها طعاما لناسه وما أبقى درهما لنفسه . وسرى ذكره في الآفاق حتى خبت امام جذوة اسمه الوهاج لمعة اسماء غيره من الأسخياء . قريش كلها تحدثت به بطاحها وظواهرها ، ثم الجيرة المتاخمة من القبائل ، ثم الاعراب في بواديهم والرعاة في مناخ دوابهم على الكلأ في الوديان والشعوب ، ومن وراء كل هؤلاء الجزيرة من طرفيها ما سار فيها ظاعن يتنقل معه الذكر اينما حل من بلادها في مكان .

لم يحدث مطلقا ان تحدثت الناس بمثل ما قالوا عن عمرو : نحلوه أحسن النعوت والصفات التى تعنى بسطة الكف ما وسعتهم أعرب اللغات ، فلما قصرت عن مرادهم الألفاظ اتخذوا له من فعله علما جديدا كانما قد أحبوا — اذ يدعونه به — ان يذكروا صنيع يديه حين هشمت لهم خبزه ليطعموا ، فكان « هاشما » مذ انعم لهم قدوره وجفانه حتى تلتئم في مستقبل الدنيا رقعة الأرض والسموات .

رجل تجسد كرما . وكرم جرى كلاما . وكلام انتظم سطورا طارت في جوانب الآفاق قصيدة طيبة الروى على كل لسان ، ندية الوقع في المسامع وفي الآذان .

ولكنه لم يسعد مطلقا بما اصاب من فخر وطيب ذكر ، وهو لا يفتأ يرى بعين خياله اشباح القحط تحوم دائما حول مكة ، وتهم ان تجتاحها مرة أو مرات .. انها بلد غير ذى زرع ، حبيس جبال وشعاب ، يستجدى الحيا أن يصيبه لماما حتى يبتل أوام أرضه فتنبت . فاذا أقلعت سماؤه انقطع ماؤه وراح نهبا للجدب وان يسر على أهله الحال احتملوا من سلعهم القليلة الى الجيرة من البلدان فساوموا وباعوا ثم عادوا ببعض ما ينفعهم وهو الكفاف أو ما لا يدانى الكفاف .

كان هذا حال البلدة الحرام في تلك الايام ، بينما على تخوم الجزيرة أمصار اوسع لها في الرزق وسهل عليها العيش . ولم يكن العسير على قوافل مكة أن تسير الى الشام أو اليمن او سواهما فتبيع وتبتاع وتصيب من الخير ما يستطاع . ورأى هاشم بثاقب نظره ان وقوع بلدته على الطريق بين شمال الجزيرة وجنوبها ، يهيىء لها مكانة مرموقة ، فلو جعل منها مجازا لتجارة الشام واليمن كلاهما الى الاخرى لأصبحت سوقا تجارية لا تدانيها بلدة عربية في الرواج .

ولهذا شد رحاله الى الشام فدخل على عاهلها يعرض أن يتبادل البلدان تجارتيهما ، وهو الضامن الا تعدو أعراب الطريق على قوافلهما المزجاة . وكان لهاشم عنـد قيصر الروم منزلة يسرت له أمره عند الحاكم ، فاقر عرضه ، وعقد واياه حلفا تجاريا . وعاد سيد قريش راضيا من الشمال ليتبع رحلته هذه بأخرى الى الجنوب ، ويعاقد أقيال اليمن على مثل ما تم من معاقدته هرقل الشام .

فلما اينع له سـعيه واثمر . رأى أن يزيد قومه خيرا ، فأركب البحر اخاه المطلب ، رسولا منه الى نجاشي الحبشة ، ليربط بين البلدين بحلف تجارى آخر .

وراح اهل مكة بعد هذه المعاقدات يختلفون بسلعهم وسلع تلك البلدان الى الشمال والجنوب في الصيف والشتاء . واصبحت مكة سوقا تجارية عامرة ، يزيد ناسها على الأيام غنى وثروة ، بما اضفت عليهم رحلتا الايلاف .

٥

في احدى رحلاته قافلا الى مكة ، نزل امية بعيره على ماء في الطريق يستقى ويستريح . وكان متكرما لا يمسك كفه سعيا من وراء نباهة الذكر وحسن الأحدوثة ، فما استقر به ركبه حتى نحر واطعم وتفضل على أهل الماء بما اطلق السنتهم بمستفيض الثناء .

وجلس الرجل يسمر بين صحبه ، وقد التف بهم أصحاب الدارة يذكرون صنيعه فيزهى بمديحهم ويود في خاطره لو حضره عمه فرأى بعينيه ما لابن عبد شمس من مكانة في كلا الصحاب والأعراب ، رفعته الى شأوها كف ندية ، لعل بسطتها ـ فيما ذهبت اليه نفسه ـ لا تقل عن كف عمرو وان جرت بذكر هذه انهار السطور ووعت جودها البطون والصدور .

وأحب أعرابي من القوم أن يجزى امية عن فضله حمدا ، فهداه خياله الى التزام اسـلوب من الحديث فيه مسـحة من وقار الكاهن وفراسة الملهم . قال الأعرابي وهو يتفرس في أمية هنيهة :

« فيك من أجواد العرب والله لسمات » .
فابتسم له هذا يسأل :
« فمن أجوادها ؟ » .
« قريش » .
« فمن خير قريش ؟ » .
« أصحاب البطاح ، جيرة الحرم ، منابع الكرم » .
فازدهى أمية الفخر وسره ان يطول بينه وبين الأعرابى الحديث ، وقال مؤمنا :
« أصبت . أصبت » .
« فمن أيها ؟ » .
« من قصى » .
« صاحب البيت واللواء ؟ » .
« وثلاث أخر » .
« فمن أى ولده ؟ » .
« من عبد مناف » .
« أعفهم لسانا ، واعلاهم بيانا ، وأقواهم جنانا » .
« وكان هذا وغيره للشيخ » .
« فأنت اذن أوسط قريش دارا ، واعزها جارا ، واذكاها نارا : هاشم وخلاك دم ! » .
فكأنما قد لسعت امية نار !.. هب واقفا من مكانه يحاول جهده أن يستر ما به ويدارى غيظه ، ثم سارع على عجل الى العير ، يلأم الركب للعودة ، وهو يهمس من بين اسنانه :
« تعس أمه !.. اخطأ الاحسان واصاب الاساءة ! » .

***

ثم استحث عيره ، فلما أقبلت به على مكة كان قد عاوده ما ذهب عنه الى حين من نفسه على هاشم وعظم حسده اياه . فما تريث الا بقدر أن حط على الاباعر حملها ثم راح يمنح بيمين وشمال . وتلفت الناس ماخوذين لهذا الكرم الذى جاوز المعهود في ابن عبد شمس

وعهدهم به العطاء بحساب . ولكنه بادرهم من لدنه بالجواب حتى انبرى يفخر او يدس بين المجالس من ذويه من يترنم بسماحته التى يحسبها تجب ما قبلها من سماحة الاولين . ثم زاد انسياقه لهواه ، فمضى يفاخر عمه ولا يثنيه عن هذا حق قرابة ، ولا وقار سن ، كأنما الجواد من كرمت كفه ، وان خست نفسه . وما كان لعربى ان يقطع الا لولا ان تكون موجدته قد بلغت به ابعد مدى واقصاه .

وراح هـذا الفخر يفعل فعله في نفوس أهل البيتين ومن انحاز اليهما من احلاف واتباع . واستمرت ناره واحتدم اواره . اما الفتية من آل عبد شمس فقد اغرقوا فيـه ، وانحرفت بهم الألسن حتى جاوزت المفروض من توقير أخي أبيهم وسيد آلهم والقوم اجمعين . واما هاشم فظل كعهده الكريم نفسا . هان عنده ما صنعوا فلم يلق الى مهـاتراتهم بالا . واما النـاس ــ وهم يعرفون من أمر الرجلين ما يعرفون ــ فقد عجبوا لقزم حاول أن يفرع ويستطيع على المارد الجبار طولا فتناولوه بالدعابة والتندر حتى امتلأت بحديثه المسامر .

واغضبه هـذا أشد الغضب ، واعماه الحنق حتى مشى الى عمه يدعوه ان يتنافرا ويقيما بينهما من يحكم لايهما انتهى اليه الجود . وأغضى الشيخ عن غضبة الغلام ، واتسع لسخفه حلمه فما زاد هذا أمية الا زهوا وتصعير خد . واشفق آل هاشم ومن تابعهم أن يسرى في العرب اغضاء سيدهم فيفهمه البعض كأنه احجام ويظن الجاهلون الظنون به ، فألحوا وتمـادوا في الحاحهم على هاشـم ليضع سـفيه عبد شمس عند حد محدود .

وما كان الناس اجمعين بحاجة الى من يرشدهم الى الأعلى بين الرجلين وان أصر اميـة على أن يقف امام عمـه في ميدان مفاضـلة وترجيح . وبحسـبهم ان خبروا الأول فراوا فيه خلقا هو صـورة خلقه ، بما اجتمع له من صفات لا تتصل بالحسن والوسامة ، وعرفوا الثانى مثلا لما يمكن أن تسمو اليه طبائع الانسان .

اصر أمية على منافرة عمه ، وبات لا يسكت له لسان ولا تنقطع مفاخرة ولا مباهاة . ولا يلقى رجلا من قوم الا صـور اغضاء هاشم وتعففه في صـورة النكوص خوف الخذلان ، فلما لج وابى الا ركوب شططه ، دعاه عمه ذات ليلة فقال له ناصحا معاتبا :

« يا ابن اخى ، ان لى سنا ، وان لى عليك حقا ، وقد بلغنى ما أحب أن أدفعه عنك ، فاتق الله في قالتك عنى .. » .

فلم تعطفه رقة الحديث بل قال ينطقه صلفه :

« ما تكلمت الا حقا ! » .

فابتسم الرجل الحليم وأجابه :

« انما شرفي شرفك ، وان تمسه لا تعز » .

« تعزنى كفى هذه ، وقد والله فعلت ! » .

ولوح بيده كأنما ينتهى اليها الجود ، فسارع هاشم يقول له :

« على قدرها يابنى ! » .

« وانها لخير الأكف » .

« في بنى ابيك ! » .

فما وسع ابن عبد شمس أمام لسع السخرية الا ان يغضب ويصيح :

« وفي عبدمناف ، فنافرنى » .

قال له الشيخ بهدوء :

« افعل » .

« فاختر حكما » .

« اختر لى ولك ، وانى لراض » .

وكذلك انتهى الأمر بين الرجلين الى الاحتكام ، وسارا ، القمىء الضئيل ينفخه كبره ويكاد من زهوه الا تثبت تحت قدميه الأرض ، والكريم المديد يملأه — الى جانب الثقة بنفسه — رثاء لهذا المكابر العنيد .

وقال سيد قريش ناصحا لابن اخيه وقد أوفيا على الحكم :

« يا ابن اخى ، انك تأبى الا المضى لما استبطنت ، وانى والله ما دعوت وما رضيت ، ولكننى لا آخذك بما قلت ، فان شئت ان ترجع .. » .

فقاطعه غير متريث :

« ما لهذا اتيت » .

« فشأنك . وانى اذن انافرك على ثلاث » .

« فقل » .

« انافرك على خمسين من الابل سود الحدق » .

« رضيت » .

« وانافرك على الا يأخذها احدنا بل تذبح ببطن مكة ويخلى بينها وبين الناس » .

« وهذه » .

« وانافرك على ان تخرج عنا عشر سنين ، لا تراك البلدة الحرام ولا تراها ان نصرت عليك » .

فلاح كأنما قد حال لون امية وغاض من وجهه معين الدم . هذا ما لم يدر له مطلقا في بال وما لم يحسب التحدى يصل الى مداه ؛ ولكنه امعن في الاساءة فحق عليه ان يجرع كأسه .

وقال هاشم بصوت رتيب لم تخف من نبراته رنة تهكم :

« فان احببت فشانك ، وان احببت ان ترجع عما دفعتنى اليه فانى والله لا آخذك بما قلت .. » .

فيالها من دعوة كريمة الى الاقرار بالهزيمة !..

واجاب امية وقد سد امامه طريق النكوص :

« بل اقبل » .

وما اسرع أن خسر بهذا القبول ، فقد حكم عليه واصابه الخذلان.

وخسر في التو ابله الخمسين ، سود الحدق ، ثم رآها تنحر امام عينيه ببطن مكة ويتغذاها الناس وهو يهيىء نفسه للرحيل .

وخسر الفخر الذى طالما استطار به وامضى السنين الطويلات في رفع ذراه .

ثم خرج بعد هذا خافض الراس ، مقهورا الى منفاه ، وفي قلبه يعتمل الحقد على عمه ريفور ، وخلف مكة خلفه تتحدث بما كان من خزيه ويسير منها نبؤه مع الركبان .

وحط رحاله بالشام نفيها من قبل كان اتجاره وفيها من بعد قامت دولة عريضة الجاه والسلطان من بنيه . وكان مثابرا دءوبا ، فلم ينس لحظة واحدة مطمعه السالف ، بل جعل شغله أن يصطنع ما عسى أن يعود به فيفاخر هاشما ويبرز عليه ثم يحتلبه ذلك الشرف المرموق . وفي حساب امية كان المال سلمه الى الغاية فيه يتالف اقلوب الناس ما عرفت كفه الانفاق . وان امامه ها هنا في هذا البلد

لعشر سنوات طويلات أحر به أن يجمع خلالها ثروة ترفعه فوق هام قريش والعرب أجمعين .

وهكذا سارت به الأيام في دار غربة ما لبثت أن غدت دار صحبة ، كان حديث الناس فيها عنه مقياس بذله . وكلما تقلص الزمن زاد ثروة ثم زاد منعة ثم فوق هذا وذلك زاد حفيظة ومر حقد على ذلك الواتر القريب البعيد . .

***

ثم حسم الموت ما أثارته الحياة بين الرجلين من نزاع ، فقد مضى هاشم لسبيله ، على أعناق قومه ، الى منزل في الثرى نزله قبله ابوه ونزله جده ، وأصبح مثلهما على افواه الناس حديثا .

وعض امية غضبا على ناجذيه والبريد يحمل اليه مع خبر وفاة هذا العم الكريم المبغوض نبأ تولى عمه المطلب الأمر من بعده ، وعادت ذاكرته الى موقف هذا الوارث الجديد يوم احتلب بنو عبد مناف رفادة الحاج والسقاية من بنى عبد الدار ، وراحوا يتشاورون فيمن هو أولى بها فيهم . ذكر أمية هذا وذكر خذلان ابيه ذلك المساء لأن المطلب اشار بأن تكون لهاشم ، فما استطاع الا أن يمتلكه الحنق ويقول:

« المطلب ! رد عمرو عليه شطره ! » .

وقطع من بعد شوطه في الدنيا ثم طوته الأرض . ولكن الأيام لم تطو معه الحقد لان جذوره كانت قد امتدت الى القاع واثمر تراثا من الأضغان في قلوب بنى هذا الرجل على بنى خاذل ابيهم وجدهم أمر خذلان . فاذا دار الزمن وخلف شيبة بن هاشم عمه على امر أبيه ، فلقد أوشك اذن أن تسطع من سلالته شمس تضيء العالم ، ويعم نورها القلوب قبل الابصار ، وتأتلف حولها الارواح رويدا رويدا الا ارواح اولئك الحاسدين الذين أبى حقدهم الا التألب على نورها يريدون أن يطفئوه .

٦

مكة أصبحت لا تستطيع صمتا .. في كل ناحية جمع لعبت في حلوقهم الألسن فساد الهمس ثم علا كلاما . كل كلمة تتحدث عن عبد المطلب أو تطوف حوله وحول نذره . وقد كان القوم بدأوا أحاديثهم عابثين أو متندرين بشيخ قريش حتى رأوا العزم في وجهه فانقلب تندرهم جدا يغلب عليه الخشية والاشفاق . وبحسبهم أن رأوه يسوق أمامه أحب بنيه الى الحرم وقد أمسكه بيد وامسك بالأخرى نصلا ، ولم يبق على ايفاء نذره وتحقيق ما وعد به ربه الا أن تمر السكين على رقبة الغلام .

وتألب الناس من كل فج . وتهاتف الصبية ، واستنكر الرجال ، وصاحت النساء ، ولكن عبد المطلب أبى الا المضى بشأنه ساكن القسمات طاويا في قلبه أساه . الا لو ان عبد الله عصى أو عارض لوجد الشيخ « مشيئة » قد توقفه أمام نذره !. ولكن الغلام كان راضيا ، طائعا ، شديد الرضوخ لينا في كف أبيه كالطين لو احب أن يحيله كيفما شاء ما استعصى . وكان هذا الرضا اقرارا منه بحق عبد المطلب عليه ، ورغبة لا يشوبها طيف شك في ان يصل ما بين أبيه وبين ربه ولو كان هذا بوجاً عنقه .

ها هى ذى قصة تتكرر ، أعاد فيها التاريخ نفسه ، ونشر من صحائفه صحيفة مطوية سطرها الماضى ثم كررها الحاضر كأنما قد دبت الحياة ثانية في أبطال الغابر .

يتقدم عبد المطلب الى احب ولده واقربهم الى قلبه فيقول :

« يا عبد الله ، انى نذرت لو استحيى رب هذا البيت لى عشرة من ولدى لأذبحن أحدهم له في بيته .. وانك انت يا بنى نذرى » .

فلا يزيد الفتى على ان يقول :

« يا أبت افعل ما ترى ولن تجدنى الا طائعا صابرا » .

فكأنما هذه كلمات اسماعيل عادت تتردد في اجواء مكة لأبيه ابراهيم بعد هذه الحقب المتلاحقة من السنين .

وكأنه تصنيف من القدر ان يعيد الصورة على هيئتها الاولى في

نفس البيت بين ولد وابيه كلاهما حفيـــد لباني البيت وابنه الذى فداه الله .

ولكن الذى فدا اسماعيل وقد همت به السكين شاء ثانية أن ينقذ سليل بيته الطاهر الكريم على نحو آخر من الفداء ..

مشي الى عبد المطلب أشراف قومه ، ومشى اليه آله ، ومشى اليه أخوال ابنه من بني النجار يعرضون أن يدع الفتى حتى لا يكون ذبح الأبناء من بعده سنة في العرب ، ولآلهته بعد هذا ما ترضاه من فداء .

وتردد الشيخ حتى أفتاه كهان الدين بصحة ما يطلبون .

ورمى بالقداح على فتاه وعلى عشر من الابل هى دية النفس كما تواضع عليه أهل تلك الأيام .

وخرج قدح عبد الله فضاعف الدية عسى ان يرضي ربه .. ثم ظل يضاعف الابل مرة فمرات حتى بلغت المائة فبرز قدحها دون قدح الغلام .

ولكن الشيخ لم يقطع بصحة الفداء ولا برضاء ربه حتى رمى ثلاث مرات استوثق بعدها من نجاة عبد الله فنحر الابل ببطن مكة وترك لحمها لقى للناس أو لوحش السماء .

وأكرم الله من بعد ذكرى عبد الله فسن الاسلام دية الانسان مائة بعد أن كانت عشرة .

وعاد عبد الله بين اخوته الى بيته معافى . لأن الله اراد أن يستأخره لأمر عظيم .

***

اما الناس فقد اعظموا عبد المطلب غاية الاعظام اذ خبروا فيه تألها لا يخسر ميزانه ، وان كان حبه الولد جاء في كفة أمام حبه دينه .

وقديما راوا فيه من هــذا التأله علامات سمت بهــا روحه على مثيلاتها وشفت كأنها ماء الصخور صفاء ورقة .

كان الرجل ذا ورع وتقية ، يابى الدنية ويعاف الصغار ، حتى لقد كاد أن ينسلخ بعذب صفاته مما عرف من خلال قومه الموغلين في الآثام . وكان يركب نفســه دائما بالزهد ، ويروضها على ما لا تحتمله الأنفس سواها ، استجابة منه لنزعة فيها ، لا تميل به وفرة المال ولا صحبة

الضلال . ولقد طالما ضمته المسامر فأغرق السمار في عبثهم فما انحاز اليهم ، وفي خمرهم فما ذاقتها شفتاه . وفشا الخنا فعزف عنه تعففا ، وذاع الفجور فتحصن .. وبغى القوى — وهو الأقوى — فأمسك كرما ، ثم ذهب يتلمس السبيل الى ضعيف يرعاه ويأخذ له ؛ أو جبار يقمعه ويأخذ منه ؛ وهو بعد هذا كله أحنى على الناس منهم على أنفسهم ، يسير فيهم سيرة هاشم أبيه حتى لم تجف على أرض مكة دماء الذبائح التى كان ينحرها طعاما للجائع الفقير ، ويحتمل منها الى الجبال ماكلا للوحش وجارح الطيور .

***

واما عبد المطلب فان روعه سكن ثابت نفسه وهو يرى رب البيت قد احله من نذره وابقى عليه احب بنيه .

واسرع بعد قليل الى داره يستقبل فتاه ، فلما لقيه شاعت في قلبه الفرحة حتى أضاء محياه ، وقال :

« يا بنى تهيأ فانا نرحل » .

« الليلة ؟ » .

« الليلة . وتخفف ، فلن يطول بقاء » .

وترك الفتى يتهيأ ، وراح وهو ينعم بحلم جميل طالما رقص في أخيلته .

ان كان ربه قد ابقى له عبد الله فلأمر يضمره أبقاه ، ولخير . وان عبدالمطلب مع صفاء روحه صفاء يشفى بها علىمراتب الالهام لاتستطيع بصيرته أن تنفذ الى الغيب المكنون . ولكن نفسه ما فتئت تحدثه عن خير قريب مذ عاد من رحلة اليمن بعد سماعه نبوءة كاهن حمير ..

كان هذا ذات يوم غير بعيد وقد نزل عبد المطلب على صاحب له عظيم من عظماء حمير . وان مجلسه لما يستو به حتى اقتحم عليهما المكان غريب سدد خطاه الى سيد قريش كأنما كان مسوقا نحوه بقوة دافعة . وجلس عبد المطلب يرقب الرجل ساكنا ، فيراه يطيل التأمل فيه ، والتطلع الى وجهه ولمس شعره وملامح محياه ، حتى فاض عجبه وضاق ذرعه ، فصاح برب البيت :

« ما للشيخ المفتون ولى ؟ » .

واجاب المضيف في هدوء وعلى ثغره ابتسامة :

« هذا كاهن من اليمن قرا كتب الاوائل وله علم ، وما احسب الا له شأن واياك .. » .

فانفثأ غضبه وقال ضاحكا :

« سأنظر .. » .

ثم التفت الى الكاهن يسأله :

« فما ترى يا أخا حمير مما حدثتك عنى كتبك ؟ » .

قال الرجل بصوت أجوف عميق ، ولا زالت عينه على جبين عبد المطلب :

« أرى .. ملكا » .

فرد صاحب الدار :

« ما هذا علينا بجديد فانه سيد قومه » .

« .. وارى نبوة » .

« نبوة ؟ » .

فهز راسه مؤمنا وهو يتم لسيد قريش :

« نعم . وانها لفيك أو في احد بنيك » .

« فايهم يا رجل ؟ » .

« في صاحب الغرة ، أو في المصهر الى زهرة » .

وخلف لهما المكان .

وكانت لعبد المطلب في راسه شيبة ، دعى بها في طفولته وكانت علما عليه ، بيضاء في منبت شعره من فرق الجبهة بين سواد شعره ، لعل الكاهن عناها بقوله . فان كانت الاولى فما عدا شيخ حمير ذو العلم ما تحدث به الناس لفرط ما عرفوا من تقوى سيد بنى عبد مناف حتى كانوا دائما يقولون :

« لو كان نبى على عهد عبد المطلب لكان نبى العرب » .

وان كانت الاخرى فما اقرب اليه من يثرب ، بلدة أمه ، ولن تعجز الابل أن تدركها فيصهر الى زهرة نفسه ، ولاحب ولده حتى لا يفوت احدهما هذا الخير .

ولهذا سرى بهما الركب على درب يثرب .

ولم يطل بهما هناك بقاء ، ثم عادا ولعبد الله آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة ، ولأبيه ابنة عمها هالة بنت وهيب .

ثم دار الزمن ينثر على النـاس ما في وفاضـه . وحملت هالة وحملت آمنة . ووضعت كلاهما غلاما ذكرا .

أما عبد المطلب فقد تلقفت كفاه وليده حمزة . واما عبد الله فقد شاء له ربه ان يطويه مثواه وطفله الحبيب جنين في بطن امه لما يكتمل نموه فلم تشهد طلعته مطلقا عيناه .

ولو انه امتد به اجله او استأخر شهورا قليلة لقرت عينه بغلام لم تمتلىء اعين البشر من قبل ، ولن تنعم من بعد بمثله ملاحة وحسن سمت وطلاقة محيا .

ولو انه استأخر أعواما لشهده فتى تلتئم قبائل العرب برأيه الرجيح وهى تمسك بأطراف برده بعد أن كادت تمزقها آراء شيوخها وسادتها .

ثم لو استأخر بعد هذا قليلا لعرف أى فتى في الرجال انجب ، ولطار به فخره كل ناحية وهو يرى ولده — بعد ان ضم العرب — يلم الدنيا حوله من أطرافها كثوب ، ويحتويها في كفه ، لا بحد السيف وشفرة السنان ، وانما بقوة اليقين وسطوة الايمان .

٧

ضجت العرب لو كان ينفع الضجيج أصحابه ، ثم جزعت ، ثم اجتمعت في نديها تتحدث وتقلب بينها الأمر . وما عسى يفيد الحديث في خطب واقع ما له من دافع ؟.. هذه الحبشة اقبلت من اليمن ، بعد اذ اذلت عزتها تنتشر جنودها كالجراد وهى تيمم بلدة البيت العتيق .

الا لو انها أقبلت غازية لهان على قريش الكرب ولشمرت للحرب سراعا . ولكن ابرهة انما جاء قاصدا المسجد يريد أن يسوى بناءه بالأرض هدما ، بعد أن فشل عن تحويل وجوه العرب عنه الى معبده الجديد : القليس .

وانتظر القوم على مثل الجمر عودة عبد المطلب وفي قلوبهم تتراوح الآمال . لقد ذهب الى لقاء الغازى العاتى عسى يستطيع بحسن تدبيره أن يصالحه على ما يبقى لهم بيت ابراهيم ، وجلسوا يتهامسون في صوت خفيض وهم يحدسون . واذا سيد قريش قد طلع عليهم وعلى وجهه عبسة توشك أن تنطق بان الشر لا معدى عنه ولا مناص . والقوا اليه

الأسماع والأبصار وهو يشق طريقه في الجمع ، ساكتا لا ينبس حتى أعداهم صمته ، فجمدت على أفواههم كلمات هموا ان يستنبئوه بها ما تم في اللقاء . واتخذ بينهم مجلسه ، ووقفوا حوله متلهفين للانصات أو الكلام بعد ان ران السكون على النفوس ، وثقل عليها كالصخر .

وقال هو بعد قليل ، بصوت فيه رهبة وحزن :

« يا قوم . ما ارى الا ان تخرجوا عن مكة الى الشعاب » .

فأجفلوا وانطلقت عيونهم تدور بينهم ، ذهبت ريحهم اذن وقضى الأمر وما هى الا ساعات حتى يجدوا الحبشة في ديارهم مصبحيهم .

ولكن الحمية ، أو ارادة الخلاف ، اخذت حرب بن امية فصاح :

« فالحرب والله اجدى يا أبا الحارث » .

قال عبد المطلب بنبرات هادئة لم تغب عنها السخرية والتهكم :

« قول هين وهلك أهون ! » .

وقام عنهم . فاذا بهم يلاحقونه ويلتفون به كأنما كان لهم صخرة النجاة وكان حريا بهم أن يثوبوا اليه بعد اذ خبروه زمانا فعرفوه صادق النظرة نفاذها الى عقبى الأمور كمن يتحدث ويصدر في أعماله عن وحي. اما وقد قال قوله فلم يبق لهم الا احدى اثنتين : اما طاعة واما فناء .

وقال لهم ورجله خارج الباب :

« الا انى لكم نذير من كربة يوم عظيم ، فما لكم بصاحب الفيل طاقة » .

فسأله رجل منهم :

« فما قلت له وما قال لك ؟ » .

« ما قلت ولا قال ؛ ولكنى طلبت ابلا لى أصابها في مرعاها ، فأعطانيها » .

فكأنما لمس عصب الغضب فيِنفوسهم ، وتصايح الكثيرون ولغطوا ، وانبرى له من بينهم حرب يسخر .

« تمنع الابل وتدع الحرم ؟ .. يا أبا الحارث ما كنت رشيدا ! .. » .

« اما والله لم يفتني الرشد .. ابلى أنا ربها ، امنعها ، وقد فعلت. أما البيت فله ربه يمنعه ! » .

***

واستمع القوم له ، وعملوا بما اشار به فما لبثت جموعهم أن خرجت الى شعاب مكة تمتنع فيها من الغزاة ، واخرج عبد المطلب آله وماله وساروا جميعا الى الجبال .

وخوة البلدة ولكن شيخها لم يدعها حتى جاس خلالها يستحث المتخلفين على ان يبرحوها . فلما لم يبق بها ساكن اعتلى شعبا اشرف منه على نواحيها وراح يتطلع الى يمين ويسار ، ويمعن النظر فيما يبدو امامه وفي همه ان يعرف من أى فج سوف يدهمها عدوها . ولم تغمض للرجل عين طوال ليلته ، ولم تسكن حركته لحظة - ثم بدا في أفقها الصباح ينشر بياضه ومعه انتشر على مدى البصر سواد يتحرك ويقترب رويدا حتى كاد أن يبلغ أطراف مكة . وسارع عبد المطلب فنزل يهرول ، وانحدر كالسيل منطلقا صوب البلدة الى البيت العتيق يمسك حلقة بابه فيقرعها بقوة وهو يرفع الى السماء عينين فيهما دموع يسيل صيبها على وجنتيه ويبل لحيته ، والرجل يردد على دوى الدقات .

لا هم ، ان العبد يمنع حله ، فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم ، غدوا محالك
ان كنت تاركهم وقبلتنا .. فأمر ما بدالك !

ثم عاد مهرولا كما جاء الى مكانه من الشعب وقد كادت أن تطأ طليعة الجيش أطراف ثوبه .

***

ووقف الناس ، من عل ، ينظرون معقولي الألسن . لقد نصحهم حقا سيدهم فما لأحد من العرب بمثل هذا الجيش قبل ، وما منهم واحد راى فيلا ، قبل يومه هذا ، يجيش ويتخذ عدة حرب . وهذه الحبشة قد جيشت فيلة ضخاما ، اقبلت تدب أمام الرجال فتهتز لسيرها الأرض ، وعلى راسها دابة منها هى أعظمها جثة وانفسها ثوبا ، كانت مركبا لأميرهم أبرهة الأشرم .

ثم وقف الناس ، من عل ، ينظرون ثانية معقولي الألسن . ما للفيلة تحجم ولا تقدم ؟ وما للجند يتهافتون وتكل تحتهم الأرض فيسقطون على الأديم صرعى بغير سيف ولا مرماة ؟ وما للجيش كله

ينتفض بعضه على بعض ويسوده هرج لا يعرف مأتاه ؟ في مثل اللمح امتلأت الاجواء بصرخات الجرحى المفزوعين والارض بأشلاء القتلى المجندلين من جيش الغزاة ، وفي مثل اللمح التوى الأمر على اجناد الحبشة وقادتهم كما التوت اعنة افراسها وفيلتها حتى ارتدت مولية بينهم تطأهم سنابكها وتحصدهم حصدا .

وامسك أهل مكة انفاسهم تهيبا . وقفت شعورهم رهبة بادىء الامر ؛ ولكنهم لم يلبثوا حتى تصايحوا فرحين اذ منع الله بيته ، ومنع بلدته . وارسل من لدنه جنودا لم يتبينوا منها الا كمثل الحصى يأتي على جناح الريح من ناحية البحر ، ولا تصيب حصاة منه رجلا الا كفأته هامدا أو نفذت من بعض بدنه ، ثم تركته يحشرج . وتسابق القوم من بعد الى عبد المطلب يلتفون به ويقبلونه . وقد تقدمهم اليه حرب بن امية ينطق بما ينطقون ويقول :

« صدقت والله يا أبا الحارث فقد منع الله بيته .. »

وقد صدق أبو الحارث حقا وتحقق في هذه المرة ايضا حدسه الموفي على الالهام ، فعاد الى مكة جأشها وبقي بيتها في الأوابد ، منعه ربه أن تمتد اليه يد بسوء ليكون في قابل الأيام مطاف خيرته من أهل الايمان ، وان الذين اقاموا بالشعاب خلال ليلة الخطب تلك عساهم لم يلقوا الأبصار الى وليد في ثاني شهوره كان بين جموعهم المستعصمة بالجبال . ولو رأوه لحسبوه وليدا كأى وليد ، ولكنهم لو استطاعوا قراءة الغيب لعرفوا أن وجوده بينهم كان رحمة من عند الله . وان بقاءهم بعيدا عن متناول أكف الأعداء ذلك اليوم العصيب كان أثرا من آثار يمن الصغير . وان ربهم شاء لهم هذا لأنه اراد أن يستأخرهم ليوم معلوم يشب فيه الوليد وينطلق بهداية الله داعيا الى نهج جديد قويم لم يأت بمثله انسان سواه من قديم ، ولن يبعث بمثله احد غيره ما بقيت الأرض والسموات . حتى اذا رنت اليه الاعين واصاخت الاسماع ، استطاع بقوة قلبه أن يؤلف حوله هؤلاء الاعراب الجفاة ، ويدفعهم في شعاب الأرض يحملون عنه مشاعل رسالة تضيء طرائق الحياة ...

***

ولئن بلغ ابن هاشم بعد هذا مبلغه من الهيبة في قومه ورفعة الشأن ، فان نعمته كانت جديرة بحسد الحاسدين . ولن يعجز التاريخ ان يكشف عن حاسد لعبد المطلب ما بلغه ، حاقد على مكانته في الناس ما دامت نواة الحسد له ولآبائه قد نمت دوحة في بنى عمومته حتى فرعت . فكما وقعت البغضاء في الأصول دبت ديدانها في الفروع والأغصان . وللوراثة دائما في النفس . كمثله في ملامح الأبدان . وما عبدالمطلب الا من هاشم ، وما حرب الا من امية وعبد شمس !..

وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه .. ان امية لم يبلغ وطره من عمه، الذى اخرجه منفيا من مكة ، ولم يبلغ ثأره . ولكنه خلف لبنيه تراثا من الأحقاد وفع حربا الى التوسل بالتوافه لمخاصمة عبدالمطلب . وكما ذهب امية يستطيل على هاشم ويستعلى ثم يستنفره ان ينافره ، فكذلك ذهب أيضا حرب يسير في سبيل ابيه . ولم يكن هذا عن ايمان بعلوه او ثقة بفضله ولكنه كان ارضاء لقلبه المفعم بالحقد الموروث .

ولكنك لن تجد للمبطل منصفا في ذى انصاف . ما مشى الرجلان الى نفيل بن عبد العزى يحكمانه بينهما حتى صاح بحرب صيحة المغيظ الغاضب :

« يا أبا عمرو ، اتنافر رجلا هو اطول منك قامة . وأعظم منك هامة ، واوسم منك وسامة ، واقل منك لامة ، وإكثر منك ولدا ، واجزل منك صفدا ، وأطول منك مذودا ؟ اما والله انك لمبطل كما كان أبوك » .

فما استطاع ذاك الحاسد المغلوب الا ان يقول :

« فدع ابى عنك يا نفيل فانه ليس بشر من أبيه .. » .

« هيهات ان يقرنا ، او تقرنا ..

ابوك معـــاهر وابوه عف   وذاد الفيل عن بلد حرام »

فانتفض حرب مقهورا، وهو يهمس من بين اسنانه اذ يغادر المكان:

« ان من انتكاث الزمان ان جعلناك حكما ! » .

كأنما لم يكن من انتكاث الزمان ان يطاول عبدالمطلب او يحسبه ندا !

ومع ذلك فقد كان في هذا الفرع من عبد مناف اجتراء على الحق حتى لا يدفعهم عن امعانهم في الابطال دافع . وانهم ليرون دائما في باطلهم حقا وفي حق غيرهم نهبا هم الاحقون باستلابه . ولسوف نراهم

يركبون كل مركب الى أهدافهم ولا يقعدهم عن التماس غاياتهم لوم الناس ، بل سيشهرون السيف ويعقلون الألسن ويمضون قدما الى زمان غاب منصفه وكثر مرجفه فنصبوا فيه حكما هم اعلم بحكمه لهم قبل نطقه به . ولن يكون هذا رجلا كنفيل وانما رجالا او صور رجال جبلوا هم طينتهم كما شاءت لهم أهواء النفوس وصاغوا منهم دولة عاتية بين قرنى الشمس . وحتى تؤذن تلك الفترة سنراهم دائما سباقين الى رى دوحة الحقد التى كانت نواة لتظل مورقة ابدا شائكة ابدا ... ولتصيبن اشواكها حتى ذلك الوليد الذى سطع ضياؤه في الأزل قبل خلق السموات ، ولتدمينه وان تقدم اليهم ببرهان الله لأنه لم يكن مثلهم من عبد شمس وانما من هاشم !.

٨

أكانت تلك مكرمة اخرى من القدر آثر بها آل هاشم دون غيرهم من بيوتات العرب في الجزيرة فأضاف بها الى مفاخرهم ، أم هى الصدفة وحدها لعبت دورا ؟.. في كل ما فات بالدنيا من افرادهم نرى صفحات من الحياة ، تلتمع امام البصائر التماعا : رجالهم في الرجال سادة تهوى اليهم الأنفس وتستظل من محامدهم باورف ظل . فيهم الشريف الماجد . والكريم الرافد ، والتقى العابد الى أشواط لا تبلغ غايتها افراس السجايا عند سواهم من خيار الناس ... ونساؤهم في النساء أعلام الصفاء وصحائف النقاء . لم يخض مطلقا في ذكرهن لسان الا بثناء في أيام كان جل نسوتها متهمات مشوبات السير والأعراض بغير تحيز ولا اغراق ، وان في هذا كله لسرا لن تلبث أن تكشف عنه حياة فرد منهم اصطفاه ربه لينحدر من اصلابهم ومنهن فاختارهم جميعا — من اجله — اعفاء مطهرين ، جديرين بانجاب سيد الخلق أجمعين .

ولكن المكرمة الجديدة صافت رجلا من بنى هاشم ليس بالموسر فيعزه ماله ، ولا بالمنجب فيحمله عياله ، بل كان الى الحاجة اميل منه الى الثراء . لا يملك الا نسبا وطيب خلة ، ولا يستطيع — لو اراد — أن يستطيل على قريش او يسبقها وفي أيدى الكثيرين منها عدة من عرض

الدنيا ونشبها ترجح عدته ، ليس يعوز قوما تيسر لديهم المال أن تنسى لهم خفضة النسب أمام الناس ، ما استطاعت أموالهم أن تعطف عليهم النفوس وتملك الحواس .

أجل لقد واجه ابو طالب دنياه فقيرا ، ومات عبد المطلب عنه وهو بعد في نحو من السن لم يكن كدحه قد افاء عليه من الخير ما يشتهيه . ولم يورثه أيضا سيادة القوم لأنه أوصى لآخر من بنيه هو الزبير . فلئن اقبلت الدنيا على هذا الفقير فحبته بمكرمة هى آية المكرمات فقد كان هذا من القدر غاية المرتجى عند ذي رجاء .

***

كان اقدس الأرض عند العرب مكة . وكان اقدس مكة بيتها العتيق . وكان اقدس حرمها هذا الكعبة لا يطوف بها من القوم الا محلق مغتسل طاهر مع ما كانوا فيه من الامعان في الضلال والمباهاة بسوء الخلال . وقد مضت عليهم الأحقاب تتلاحق — مذ ابتناه ابراهيم — وهم لا يعدلون ببيتهم شيئا حتى لينحرزوا ان يذكروه بغير اعظام في ذات أنفسهم سرا ومناجاة وهم يأمنون على أذهانهم السميع الرقيب . ولو احبوا لأمر من امورهم نفاذا لأبرموه فيه أو بجوار استار كعبته ، كأنما يشهدونها على خلوص النية وصدق العزم على المضى في انفاذه لأنهم قد اكسبوه من قداسة ذلك المكان . فكل ما جاور الكعبة مقدس أو حرام أو هو موف على غاية التقديس والاعظام .

كذلك كان الشأن لدى العرب لا فرق فيهم بين خاصة ودهماء . وانهم جميعا ليحملون الأمور على معانيها قبل مبانيها ، وعلى جواهرها قبل مظاهرها ، فاذا تم لأبى طالب الفقير المعسر بعض امره في جوار كعبة الحرم ، فان امره هذا لجليل في عيون القوم لانه اكتسب ابلغ شرف بأشرف جوار في اقدس دار ، فكيف لو تم له امره ذاك بغير سابق ترتيب منه ، بل بصدفة هى عند أولئك الناس منة من الله وحظوة أراد أن يشرف بها ابن عبد المطلب كما لم يشرف بمثلها قبله أو بعده من الرجال كثير ولا قليل ؟

***

تلك ليلة فذة في الليالى ، اضاء نجمها على الدنيا مرة ثم لم يقدر بعدها لضوئه ان يبزغ ثانية كمثل بزوغه لأن مثيلاتها لا تعود . ولكن ضياء اشد لمعانا من نور النجم توهج ، ثم سطع ، ثم فاض بنوره على الآفاق سيرة كوجه الشمس رفافة الاشراق .. سيرة ان فاتها ان تنفرد وحدها بالمبنى الساحر فقليل سواها ضم ما كان لها من معنى قاهر ، بل اقل القليل ، بل الأندر منه . ولو انك استطعت ان تتحلل من شباك الزمن وتنفض خيوطها عنك ، وسبحت عائدا الى الماضى لرأيت ابنة أسد — فاطمة — تجول بالبيت الحرام تلتمس البركة ، لأنها سيدة تجمعت فيها مزايا آلها الكرام وامتلأ — كمثلهم — قلبها طهرا . ثم لرأيتها تأتى الكعبة فتطوف بها مرة فمرات متمسحة بأستارها آونة مقبلتها اخرى . ولكنك لا تلبث حتى تشهدها وقد أوشك أن يصيبها اعياء تكاد أن تنوء به ، وتنكر هى — بادىء الأمر — ما تحسه ، ثم تمضى متجلدة تستحث نفسها وتستنهضها . ولكنها رغم هذا لا تقوى ، ولا تستطيع أن تقوم عودها . واذا هى تتشبث أصابعها بأستار الكعبة تستعين بها وقد اخذت تحس شيئا غاب عن ذهنها ، وتقف مجهودة لا يستقر بها موطىء القدمين ، كمن على طرف كثيب رخو من الرمال . وتجيل فيما حولها عينا حائرة لعلها تبصر زوجها أبا طالب يسعى هنا أو هناك فتجد لديه عونا على ما تلقى ، ولكنها لا تراه لأن ما حضرها في هذه اللحظة غاب عن حسابه ..

ثم لعلك تتبعها وقد خشيت هى ان تلقفها الأبصار المتطلعة ممن حضر من اناس كان دابهم الاجتماع في اروقة البيت وفي افنائه فاذا رايتها قد انحازت ناحية ، ودلفت الى أستار الكعبة فتوارت خلفها عن عيون القوم فكفاك ما شهدت . وقف منها على ملقط السمع دون مرمى العين لأنها شاءت أن تتخذ من الستر المقدس ردءا . واسمع بعد هذا حسيسا خافتا يأتيك من لدنها . وانينا يحكمه الجلد واصطناع الاحتمال ، وصرخات مكتومة تكاد ان تصلها الاذن كانها تأتى من مهوى سحيق بعيد القرار . ثم اسمع نبرة بكاء تخالط هذه الصرخات ، لها غير جرسها وغير رنتها ، رقيقة ، رنانة في غير حدة ، كأنها شدو طائر تفتحت عيناه على شعاع فجر اسفر او اوشك على اسفار . وقد يأخذك العجب ، وتملكك الدهشة ، ولكنه عجب قصير اجله ، ودهشة

لن يطول بك مداها ما دامت فاطمة قد بدت ثانية لناظريك ، واهنة ، واشد ضعفا مما رأيتها من قبل ، كسا وجهها الشحوب ومشت في اوصالها رجفة الاعياء ، وقد احتملت ـ مدثرا بستر الكعبة الشريف ـ وليدها بين صدرها وكفيها .

***

تلك ولادة لم تكن قبل طفلها هذا الوليد ولم يحز فخرها بمده وليد اكرمه بها الله واكرم امه وأباه ، فكان تكريما لفرعى هاشم الذى انحدر منه الطفل عن فاطمة وعن أبى طالب حفيدى الأصل الثابت الكريم .

واقبل القوم ــ حين انتبهوا ــ يستبقون الى السيدة ، يعاونونها : ويأخذون بيدها ، ويملأون الأبصار بطلعة ذاك الذى كان بيت الله مولده ، وستر الكعبة ثوبه ، كأنما اوسع له في الشرف باجتماعه في كلا المولد والمحتد وهم لو استطاعوا أن يسبقوا زمانهم كما تأخرت انت لراوه ايضا يجتمع له نفس هذا الشرف حين يقبل عليه الموت فيلقاه في بيت الله يهم أن يقوم بالصلاة ...

اما فاطمة فقد احبت ان تحى في وليدها اسم أبيها فدعته بمعناه وان لم تدعه بلفظه ، وقالت لزوجها وهى تحاوره :

« هو حيدرة » .

واما أبو طالب فقد كان اكثر توفيقا حين اختار . راى وليده قد علا شرفا بمكان مولده كما علا من قبل بأصله الرفيع فقال :

« بل على » .

وبدات عند هذا حياة الرجل الذى ساير اخطر الاحداث في هذه الدنيا ، وعاشر اطهر الخلق وسيد النبيين ، واحتمل نصيبه من عبء كبير القاه الله على مختاره الأمين ، الذى خصه بوحيه ورسالته الالهية لهداية العالم .

وعاش على عمره لغيره من المثل ومن الرجال ، فكان في صباه القريب المفتدى ، وفي شبابه الصديق المقتدى بالنبى الكريم ، وبين هذا وذاك من أطوار العمر وما جاء في أعقابها من فترات ، التزم غايات الكمال في الفعال والخلال ، فلما انطوى بعض اجله ، ومضى من الدنيا وعن هاديه ، كان المعقب له وقد ذهب المعقب . واجل من اخذ عنه فأجاد ، وركب جادته فما حاد .

شروق

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » .

١

الفتى حائر الفكر ، بين كفيه امسك راســا يحسب فيه من الخواطر ما يملأ كل هذه الفجاج لو تركها تنثال على رقعة الرمال المبسوطة امام ناظريه عن يمين وشمال .

ثم رفع الى السماء بصره . ليته بها يستهدى ـ هذه الأنجم الزهر التي يتخذها راكب البيد دليلا ... ولكنهــا بدت خابية . وحالت الألوان فيها الى مثل الفضة كساها من الترب كساء . فلقد بدا له نور المشرق كما انفتحت كوة في القبة فوقه واندفع منهــا الضياء وئيدا وئيدا نحوه ، تلمع تحت سيله مكة ويغمرها منه غامر الحياة .

وكان صاحي اللب ، ما انتبه حتى تحولت عينه الى هذا المبنى المقدس الذى بان له من قريب ، شامخ العمد ، فسيح الرحبة ، في اوسطه الحجر الأسود الذى وضعه محمد حيثما وضعه من قبل جده ابراهيم .

ها هنا كان قديما محراب الله ، فكيف أصبح ليراه محــراب العزى ، أو اللات ، او ايما اسماء نحلها قومه حجارة لا تنفع ؟ .. أو لم يصدقه محمد ؟ الا ان محمدا عنده غير متهم ، شادت بصدقه العرب جمعاء حتى أصبح « الامين » عليه علما ، وسرت ـ كلما سار ـ بين القوم همسات اكبار واعجاب ليحسبها الفتى تند عن تاج يزدان بمفرقى ذلك الصادق الحبيب لو جمع أناسه في الزمان ملك مدعم . ولكن محمدا كان عزوفا ، قام ليله وعاف الرقاد زلفى الى رب جده باني البيت . وعمل نهاره من أجل صغاره ومن أجل هذا الربيب الذى ضاق به طوق ابى طالب فاحتمله فضله . وانه ليخصف نعله ويخيط ثوبه بيديه لا يغريه بالدنيا عرض أو مأرب . وانه ليكدح كدح السامة ولو كان له مندوحة من مال خديجــة ، وانه لتمر به الايام لا يتزود فيها بسوى تمرات جافة تقيمه وتعينه على القيام بأمر ربه ... نأى بنفسه عن ترف القوم وخمرهم ولهوهم الى غار

في الجبل أعواما ، صادفا بها عن جهالات قريش وأربابها المقدودة من حجارة صماء الى رب واحد ما له من شريك .

ما كانت دعوة محمد بغريبة عن قلب الفتى ولا بالتى يعاف جرسها سمعه . فانه ، وان يك لم يتجاوز حلمه الا قليلا ، قد كان يشعر في قراراته أنه غريب في معبد الأصنام ! .. انه لم يول وجهه شطرها مرة ، ولم يتولها بالتقديس كما فعل ذووه ، ولم يطف بساحتها طوفة أو الم بهيكلها من قريب أو من بعيد . ولم يدر أكان هذا الهاما من الله أم هو جرى في اتباعه مجرى ابن عمه مربيه .. ولعل الثانية أرجح . لأنه يذكر ما يأخذ به نفسه بين الفينة والفينة من تقليد محمد حتى لأصبح من فرط تعلقه به واتخاذه قدوة يصوره أصدق التصوير في الكثير من الفعال والحركات .. يهش ويفرج عن ثناياه ولا يلقى الناس عبوسا — تماما كما تضيء البسمات وجه ابن عمه — ويسير على نمط سيره فيتكفأ في مشيته وهو يسرع كأنما لا يحده في انصبابه حد .. فلعله اذن ما نأى عن أصنام القوم الا اقتداء منه بهذا الكافل العظيم .

وعاودته في مكانه ذكرى الليلة التى أصبح عليها صباحها الآن فما ملك الا ان يبسم متعجبا من شأن نفسه . كيف أباح لفكره أن يرجىء تلبيته دعوة الحق التى اليها دعاه النبى بحجة أنه سيشاور أباه ؟ .. الا لقد أخطأه التوفيق وضل نهاه وهو الحرى بأن يسبق بالاستجابة تلك الدعوة الى عبادة رب ابراهيم .

... كان قد دخل الحجرة كما اعتاد ان يفعل ليأنس بجلسة الى ابن عمه بين خديجة الرءوم وفاطمة الصغيرة ، فما راعه وهو يدفع الباب الا أن رآهما يركعان ويسجدان والطفلة تتابعهما بالمحاكاة . وتوسم فيما يأتيان خشوعا ، وتوسم عملا غير مألوف ، فوقف في مكانه لا يبرح . ومضت الى سمعه قراءة ساحرة ، يرتلها محمد بصوت عذب ، ما سمع مثل طلاوتها ، ولا رنتها ، ولا بلاغتها من قبل . واخذته من الكلمات نشوة لفت مشاعره فلم ينتبه الا وكف ابن عمه على كتفه تلمسه لمسا رقيقا وتعيده الى نفسه . وعاد هو من عجبة الى الاستفسار يستوضح محمدا ويستزيده مما سمعه . وانست روحه للترتيل . وامتلأ قلبه بما فاض به الآى الحكيم من روعة

معنى وحسن بيان ، وهو بعد هذا ينتقل مع الآيات الى آفاق جديدة فيها هداية ونور . الا قد صدق محمد حقا . وما كانت هذه الآيات بالتى يستطيعها بشر بل هى من كلام اله .

وابتسم ثانية استحياء اذ تذكر هذا وتذكر ما قاله حين دعاه محمد الى متابعته ونبذ عبادة الاحجار الصم الى عبادة واحد قهار ؛ يسمع ويبصر ولا تدركه الأبصار ... ابتسم استحياء لأنه ذكر جوابه وما كان أعجبه من جواب .

قال كما اعتادت أن تقول ألسنة امثاله من الصغار :

« أمهلنى أشاور أبا طالب » .

فابتسم له ابن عمه بسمة حانية كلها عطف ، وربت كتفه راضيا ، ثم تركه عساه أن ينطلق الى أبيه فيتزود منه بالراى قبل ان يفصل في مصير دينه بقرار .

***

ولكنه لم يغادر البيت وان ترك الحجرة ، ولم يشاور ابا طالب ، وانما قضى ليله كالمحموم ، تحت السماء يقلب الأمر في عقله ، اما وقد استبان له الرشد الآن كما بان ضوء الفجر الوليد في أطراف الأفق الادكن ، فان به لشوقا أن يقتحم على محمد حجرته فيطلب منه ان يقبله في الدين الجديد عابدا جديدا .

ونهض على وسار يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبى . وأشرف على الحجرة فمنعه حياؤه أن يدخل . ولم يجد بدا ان يصرف عن نفسه الحاح الشوق الى حين ؛ فبرح الدار وضرب هنيهة أمامها ثم انثنى الى الدرب فاذا صحبة من فتية قريش تبرز في غبشة الصبح يرونه فيهتف احدهم به :

« حيدرة ! » .

فلا يطيب له سماع الاسم الذى خلعه عن نفسه من قديم ، ولا يطيب له أيضا أن يعتكر خواطره الصافية حديث . ولكنه لا يستطيع أن يجد منفلتا من الصبية وقد قاربوه وسأله منهم سائل:

« بكرت يا ابن ابى طالب وانه للسعى الى البيت ؟ » .

فيوجز - متبرما - الجواب :

« ما اليه ! » .

« فهلم معنا ، ما لم يحبسك حابس ، فانا سنطوف به » .

« لك شأنك دونى » .

وكان صاحبه يعلم انه لن يفوز منه الا بهذا الخطاب . فضحك معاتبا وقال :

« عجبا لك يا ابن ابى طالب ! تضعك امك في حرم الاصنام » .

فأسرع يقطع حديثه ويقول :

« في حـرم أبى ابراهيم ، أما صواحبكم تلك فأكرم عن مرآها وجهى ! » .

وود في تلك اللحظة لو استطاع ان يفتح عيون هؤلاء العمى ليروا النور الذى أخذت تباشيره تبزغ من افق محمـد ، ويحدثهم بهذا الدين الجـديد الذى علم به ليلة الأمس عسى ان يتبعـوا الهـدى والصواب . ولكنه أمسك لانه ليس بعد في حل من ان يفشى على ابن عمه أمره .

وانثنى عن الطريق مخلفا أصحابه لشأنهم ليعود الى الدار . فاذا محمد يهم أن يبرح . واسـتقبله النبى الكريم هاشا ، يمد نحـوه ذراعيه ، وفي عينيه من ضياء حنانه فيض ، وتوقف الفتى امامه برهة اخذه فيها الحسر حتى لا يعرف بأى الكلمات يبدأ الحديث . وترفق به محمد لا يسأل ولا يتعجل : بل يدعه حتى يجمع شتات ذهنه .

ويقول الفتى وقد هدأ جاشه :

« يا ابن عمى ، انى سمعت واجبت . وانى اشهد بشهادة الاسلام أن لا اله الا الله ، وانك لرسوله » .

فانما كان بهذه الكلمات سحر . ما ان جاوزت شفتيه حتى احس بذاته خفيفة رقيقة لها لطف النسمـة . تكاد تعلو به الى الطباق وتسرى محلقة في الآفاق .

وابتسم له محمد ، ومسح بكفه على رأسه وعلى صدره . وخشى على في هذه الآونة ان يطوف بظن نبيه انما كان اسلامه بمشورة ابيه فسارع يضيف :

« يا رسول الله ما كنت لأسمع لابى طالب او اشاوره في دينى ،

فقد خلقني الله ولم يشاوره في خلقي ! .. آني هديت يا رسول الله بك الى ربي فلأعبدنه ابتغاء وجهه ... »

❋ ❋ ❋

وانبسطت للفتى رقعة الدين الجديد وما كان ليقصر عنها باعه وهذا باسطها دائما أمامه . ورويت بفضائل الاسلام روحه من نبع محمد . فما تنفس صبح الا تلمس وجهة النبي ، وما جن ليل الا ادلج خلفه كظله ، وهو في هذا لا يملك الا أن يكون مستخفيا بدينه عن قومه على سنن صاحبه . ما كره أن يعلم عنه انضواؤه تحت راية الاسلام وانما خشي أن يذيع عنه ما لم يرد محمد له بعد أن يذيع ... وكتم في نفسه أمره وهي جياشة به ، حنانة الى اشهاره عسى أن يهدى الله به من يعرفه الى مثل ما هداه . ولكنه كان دائما يمسك عن الحديث كلما اراد اخوانه أن يستخبروه بعض ما شاع من الشائعات حول محمد ودينه الجديد . واكتفى سنوات ثلاثا طويلات الأيام والليالي بألا يكشف عن سره الا لحراء حين يتبع اليه صاحبه في الأمسيات مع من سار كنهجه من أوائل المسلمين حين يقضون حق ربهم بمنأى عن عيون المتربصين ... حتى أبو طالب نفسه كان بعيدا ايضا عن ذات نفسه بعد قومه ، لا يعلم عنه الا ما تتلقفه الأسماع وتردده الشفاه حدسا .

ولكن السر الذى حرص طويلا على كتمانه آن له أخيرا أن يذيع . ولم يتوجس على خيفة من هذا بل اشتملته الفرحة وطابت به نفسه . انه كان دائما فخورا بأمه التي تفتح قلبها للدين الجديد تفتح الزهرة لندى الصباح . فخورا بسبقها بنات جنسها الا واحدة ، الى تلبية نداء الله ، فضلا عن سبقها نساء بيتها ، حتى صارت الأولى اسلاما في بيت هاشم . ولكم أحب الفتى هذه السيدة الفضلى !... أحبها حبين : حب الابن للأم ، ثم حبا بحبها محمدا الذى لم يحبب هو مثله في الوجود أحدا . ولقد انشرح صدره لاسلامها لأنه أمل ان تصيب اباه منها عدوى الايمان ، وتلبث تلك الفترة من الأعوام لا يفتر أمله ، ويداعب خياله حلمه الجميل . فلما كر ذات ليلة قافلا من حراء وصادف اباه على مقربة من الغار ، سره أن يقبل عليه الشيخ مستفسرا عن سبب وجوده بهذه الناحية التي لا يطرقها الا القليل .. سره هذا

لانه كان يوقن ان الحديث سيتمخض في النهـاية عن تحقيق رجائه المنشود .

قال له ابو طالب :

« يا بني اين كنت وليس لك الشعب بملعب ؟ »

اجاب :

« به يا ابت » .

« وفيم ؟ » .

« اقضى به حق ربى » .

فهز الشيخ متمهلا راسه وهو يقول :

« اصبت ، لو اصبت ! » .

فرد عليه بحماس :

« تبعته في صواب ، وما عرف الناس عنه الا حقا » .

« امحمدا عنيت ؟ » .

كان الرجل قد سرى اليه همس الناس .

وقال على :

« هو يا ابت ، وانه لرسول الله » .

« فحدثني بما يمشى به عنه الناس . ما هذا الدين الذى اسمع انه يدين به ؟ »

« دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسـله . دين ابينا الخليـل ابراهيم » .

« وما لابن اخى به ؟ » .

« بعثه الله به رسولا الى الخلق كافة » .

فتفرس الشيخ برهة في عينى ولده ؛ ثم قال

« يا بنى اراك اتبعته » .

« آمنت بالله ، وآمنت برسوله ؛ وصدقت بما جاء به » .

وطاطأ ابو طالب راسه برهة يفكر وقد عجب لهذا الحماس الذى يراه قد اشتمل فتاه . وبدا حلم على يتجمع في خياله ؛ ثم يتحرك ، ثم يكاد ان يبرز حقيقة سافرة وهو يلمح السطور التى خطها التفكير على جبين ابيه . يا ترى هل آن للشيخ أن يصيب هداه ؟

واسرع في لهفة يستحث الرجل ويدعوه :

« اى إبت !.. انه والله للحق وانت احق من استمع اليه واعان عليه . اى ابت فهلم اليه ! » .

ولكن ابا طالب بدا كمن لم يستمع الى ندائه وان قال :

« اى بنى !.. اما أنه لم يدعك الا لخير ، فالزمه .. » .

ومضى عنه .

٢

لم يطل بالفتى بعد هذا انتظار ، فقد اوشك ان يشتهر دين الله بين الناس فيعرف من حدس مدى الصدق في حدسه ثم يعلم القوم ان كان محمد قد صبأ — كما ظنوا — عن دين آبائه عنتا واعراضا ، ام اتاهم حقا من لدن ربه بالهدى والنور .

وامتلأت الدار الصغيرة حركة . وامتلأت نفوس أصحابها القلائل بشتى خلجات : فيها ثقة ، وفيها قلق ، وفيها اشفاق . لن يلبث الاقربون من الآل أن تضمهم وليمة محمد ثم يستمعوا الى حديثه عن رسالة الله . أما خديجة فقد ظلت هادئة النفس يملأ قلبها اليقين بأن الله ناصر صاحبها . لم ترتب في هــذا أقل ريب ولم يعتورها شك ، بل بقيت لها نفس الثقة التى شعرت بها ليلة عاد اليها زوجها من حراء خائفا فزعا أول ما تنزل عليه وحى السماء . واما محمد فلم يستطع ان ينزع عنه خشيته وهؤلاء ادنى العشـــيرة ، ان جاءوا فســـمعوا ثم اعرضوا عنه لا يلبون ، فقد مالت اليهم دونه قلوب العرب فكذب واشتد عليه بعدها الأمر .. وأما على فقد لعب به القلق آونة ولعب به الرجاء آونات . وكان ذهنه لا يقع الا على ابيه ، ولا تلتئم خواطره الا عنده مذ رأى فيه ذلك التسامح الفذ يوم أقره على الدين الجديد ولم يلوه عنه . كان هذا التسامح من الشيخ معقد رجاء الفتى ومناط آماله . لان ابا طالب راس آله وصاحب الكلمة فيهم ، وحرى بالقوم ، ان راوه استمع الى محمـــد فأحسن الاستماع ثم جنح الى اتباعه ، ان يستجيبوا هم أيضا الى نداء الاسلام .

وامتلأت الدار ببنى عبد المطلب وبني هاشم وغيرهم من رجالات

الأسرة وذوى الكلمة فيها . فلما اكتمل الجمع ، أشار النبى الى على وقال :

« هلم طعامك ! » .

فسارع يصدع بالأمر ، وتقدم الى الضيوف بالطعام فوضعه امامهم : ثريدة ان كان الرجل ليأكل مثلها وحده فلا تكفيه : وتهامس الحاضرون ، وتبادلوا بينهم نظرات ساخرة وان لم يسعهم الا أن يمدوا أصابعهم الى الثريدة فيصيبوا منها . وأصابوا ، ثم اصابوا منها ، ولا تكاد أن تنقص في صفحتها . واخذهم العجب ، وخفت همسهم وان دارت عيونهم دهشة وأحسوا بطونهم لا تطلب مزيدا فامتلأوا حيرة بعد ان امتلأوا شبعا .

وسرى صوت محمد ثانية يقول للفتى :

« أسقهم » .

فطاف عليهم باناء هو رى أحدهم شربوا منه جميعا ولم يوف على نقصان .

هنا كانت الحيرة قد سدت مسالك التفكير عند ابى لهب فتمتم من بين أسنانه موجدة وحقدا :

« سحركم والله محمد » .

فلم يلق اليه النبى بالا . انه ليعلم مأتى حقده على كل حال ، لأن النساء وحى الأزواج ، وما كان أبو لهب ليتخذ غير موقفه هذا وزوجه أموية هى ام جميل ابنة حرب بن امية ، وما كان لتبقى له هاشميته وقد نام مع سليلة الأضغان في فراش !

اغضى محمد عن وخز عمه ، وقام عن مكانه ليحدث ضيوفه عن رسالة ربه . وود على في هذه اللحظة الحرجة لو كان له على لسان أبيه سلطان . ولكنه جلس صامتا — كالآخرين — يسمع ونفسه نربة رجائه وقلقه . وتكلم النبى ، فلم تنفذ كلماته من اذنى الصبى ، بل اتخذت طريقها الى قلبه . وانه ليحس بروحه قد فنيت في ابن عمه فناء . ويحس مشاعره قد خرجت عن نطاق عزمة وقدرته ولم يعد لها كيان خاص . ويحس ذاته جميعا معلقة بما يقول الرسول او اسلس قيادا . كانها بعض كلمه الذى تنطق به شفتاه .. كان سحرا ما قال محمد او هو اقوى اثرا في النفوس من السحر ، وان أولئك الذين

ضمهم المجلس ذلك اليوم ليشعرون كمثل شعوره . وليعلمون رنة الصدق في الحديث وان ابت يد الضلالة الا أن تشتد على قلوبهم وتضرب اكنتها . وانهم ليرون انفسهم مسوقة وحديث النبى خلفها كالسيل . يجرفها تياره القهار . فينأى بها رويدا رويدا الى دنى جديدة فياضة بالسمو والطهر ، بعيدة كل البعد عما اعتادوا من أفكار دينهم ودنياهم ، وان بقيت اغلال العادة تربطهم بماضيهم .

ولكن للشقاوة سطوتها ايضا ، ولها سلطانها ، ولها شيطانها الغلاب على مراض القلوب . ولقد شاء ابليس ان يتخذ له من بين أولئك الجلوس عونا ، فآثر أن يكون حليفه اموى القلب !.. أجل آلى الشيطان ينزغه عبد العزى بن عبد المطلب • ابا لهب . فاذا الرجل تركبه العزة بالاثم فينتفخ نحره ، ويتلون وجهه الأبيض الوانا رسمها غضب الحنق والحقد والضغينة . ويستبد به غضبه حتى يكاد ان ينبثق من وجهه الدم . ويلعب في عينيه انسان مجنون فلا يتريث . ولا ينتظر ان يتم ابن أخيه حديثه الذى دعاهم له ، بل ينتفض واقفا والكلمات تندفع كالرغوة من فيه :

« أتأتينا يا بن عبد الله بقالة من لدنك — ان هى الا رئى — تزعم أن ربك أدلاها اليك من السماء ثم تحسب انا مصدقوك ! » .

فلا يغضب محمد ، ولا يصيبه من جراء هذا الهجوم حسر ، بل يقول بمألوف حلمه في صوت هادىء رقيق :

« ما أعلم انسانا في العرب آتي قومه بأفضل مما جئتكم به .. » .

فيصيح ثانية ذاك الصاخب الزارى :

« جئتنا باله واحد ولنا دونه ما يكثرونه ، آلهة شتى خير منه ! » .

« قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة » .

« فهذا لك ندعه يا محمد » .

ويحسب أن سخريته تلك قد اغنت عنه فينطلق ضاحكا يقهقه . ولكنها كانت على أى حال علامة الفصل اذ اغرت الاكثرين بالابتسام وتركتهم لا ينصتون . وسرت الهمهمة في الحضور ، وسرى الهمس فاذا بهم بين مكذب وهازىء .. حتى أولئك الذين تابعوا محمدا على دينه فيما اقبل من الايام كالعباس وحمزة ، فاتهم ان يتبينوا — في تلك اللحظة — حد الرشد وحد الغى . ثم علا الهمس فاستطار كلاما ، سافرا ساخرا لاذع الوقع . وظل ابو طالب في مكانه صامتا لا ينبس .

وهو يقلب ناظريه كأنما لم يع بعد ما يدور . أو كأنما قد أشفق أن يرجح احدى الكفتين على أختها برأى يسوقه خلال هذا النضال الروحى المرير . أو كأن اجيالا من ضلال الغابرين وقفت دونه ودون آية الحق كالسد الحائل ..

وتململ علي في مكانه . واخذ الغضب يملأ قلبه وهو يرى اباه في موقفه هذا ، وكاد — أن استطاع — أن يمقت الشيخ ويملأ نفسه بالحقد عليه . ان أبا طالب وحده كان في مقدوره أن ينصر الرسول أو يشد ازره أو يثبت قدميه في أول محنة بكلمة تصديق واحدة يلقيها أمام القوم . ولم يكن هذا بالعسير على الرجل ، ولا بالذى يأباه ضميره اذ كان أعلم الناس بمحمد صبيا ورجلا . لم يعرف عنه الكذب مرة وعرف له الصدق خلة هى احدى كرائم الخصال فيه ، ومن لا يكذب على الناس لا يكذب على الله . وكانت لهذا اليتيم سمات في حداثته، من النبل والقداسة عرفها ابو طالب وجعلته والكثيرين من ذوى العلم في الناس يتوقعون لابن عبد الله بين العرب مكانة لن يبلغ شأوها في أقوامهم بالغ ، ولكن الشيخ ، مع هذا ، تجلل بالصمت وجلس ينظر . وان هى الا شقاوة شاءها له طالع سوء . به على الشر كبا ، وعن الخير نبا .

وصاح زوج أم جميل ابنة حرب ثانية ، يقطع ما يلقيه محمد على عشيرته صدوعا بأمر ربه :

« يا محمد ان لحديثك هذا لسحرا ، وان له لموقعا في الافهام واثرا على الأحلام . ولكنه — والله — ما يغلبنا على ديننا سحر »

وترك مقعده وهو يلتفت الى الجمع ويقول :

« قد سمعتم أيها الناس فقوموا لا يفتننكم الغلام ! » .

فلما راى النبي أنهم كادوا يبارحونه ولما تصب رسالته من نفوسهم مكانا ، قام فأقبل عليهم ، باسطا نحوهم ذراعيه ، يهيب بهم ، ويستحثهم ويتوسل اليهم ان ينصروه فينصروا الله بنصره ، وان يثبتوا أقدامه بين الناس ، وان يظاهروا دعوته حتى يذيع في الآفاق دين الهدى والنور :

« قد أمرنى ربى أن أدعوكم اليه .. فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ، وان يكون أخى ووصيى ، وخليفتى فيكم ؟ » .

فلم يلب الدعوة منهم أحد ، وانتقل عنه ابو لهب جانبا وهو يسخر :

« تزعم ان قد بعثك الله وتطلب منا النصر ؟. الا كف عنا دينك وربك فانا لا نجيبك ! » .

هنا لم يعد في طاقة علي حبس لسانه وراء شفتيه وان كان احدث الحاضرين سنا واحمشهم ساقا ، فقام مسرعا صوب الرسول يمد اليه يديه ويهتف به .

« لا يحزنك والله اعنات القوم فعليهم ضلالتهم . واني انا يا رسول الله عونك .. انا حرب على من حاربت ! » .

والتفت في هذه الآنة الى ابي طالب من قال :

« يا أبا طالب الا ترى ابنك ؟ » .

فأجابه الرجل :

« دعوه . فقد عرفت انه لن يألو ابن عمه خيرا » .

ولكنهم رغم هذا راوا في حماس الفتى مادة جديدة للتندر والاستهزاء فقال احدهم ورجله على الباب :

« كفاك الغلام ، فطب به يا محمد ! » .

٣

في الأعوام القلائل التالية بمكة ، لم يجد في حياة علي الا ما جد في حياة الدعوة الاسلامية حتى ليمكن أن يؤرخ لاحداهما بتاريخ الاخرى فلا تكاد أن تختلف فيهما الأحداث . شهدها صبيا يهم ان يخلع عذار صباه فكان أول معتنقيها من الناس بعد خديجة . لم يتاخر عن سبقها الا بقدر ما ينتقل سر الرجل بعد امراته الى اقرب اهله ومحبيه . وصحبها فتى بادي العنفوان وقد اوشك ان يصير لها كيان معلوم بين الناس لما اذاع صاحبها امره . ثم سايرها شابا حديد الباس فذاق من عائبها كاس عنت دارت على أوائل المسلمين فجرعوها وان اختلفت أنصبتهم من صابها المرير . ولقد كان له في أبيه ردء يحد ايذاء قريش ويمسك اكفهم عنه وعن محمد وان لم يقف بهم دون صحبه وازع من اناس ولا من ضمير .. فما أسرع ما تبدلت مكة وانقلبت اتونا قاسي اللهيب على اولئك الذين كرسوا حياتهم لنشر الدين وحمل مشاعل

الهدى يستنير بها في احناء الجهالة كل عاقل بصير . وتوالت الايام عليهم تباعا لا ينقضي منها شديد حتى يخلفه أشد بالغ البأس عصيب . ولكن الشدة لم تكن شرا بقدر ما كانت اختبارا للنفوس يمتحن الصبر وقوة العزم واليقين . وانها لقياس الاحتمال وبوتقة الرجال انصهر فيها أصحاب النبي ، وكانوا من قبل كقطع الحديد المتناثرة ، فاذا بهم يصيرون ذوبا ائتلفت فيهم وتماسكت حتى أصبح لها كيان واحد .

***

وقدمت قريش رءوسها واعيان بيوتها حشدا مجيشة تناجز رسالة السماء لم يتقدم منهم واحد بحجة بالغة ولا واهية تؤيد بقاءه على جاهليته وان تقدموا جميعا بسلاح العاجز المغلوب في صراع العقول والقلوب ... تقدموا بالبذاءة والأكف والسيوف . يصارعون رجالا لا سلاح لهم سوى كلمة الله ويركبونهم بكل ايذاء ونكال ، وغدت مكة مسرحا للتعذيب . ضحاياه تلك الحفنة التى تألفت منها أولى كتائب الايمان . ولقد شهد على من هذا التعذيب مشاهد قف لها شعره واختلج جلده وسالت عيناه شئونا . وانه ليرى ببطحاء مكة حبشيا ألقى على رمضائها ساعة الظهيرة ويدعوه سيده امية بن خلف الى الشرك وقد ركز على صدره صخرة عظيمة يكاد ثقلها ان يذهب بالعبد في الارض ..

يقول السيد المغرور العاتى :

« لا والله يا بلال ... لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى كما نعبد » .

فيجاهد المعذب المكدود ليجيب على هذه الدعوة الخاسرة بكلمة واحدة هى رمز التوحيد :

« أحد .. احد ! » .

فيطير هذا الاصرار صواب سيده ، ويدفعه الى الافتنان في التنكيل بعبده . ويشهد ذات يوم هذا الثبات ورقة بن نوفل ، فتاخذه روعة الايمان وقوته في قلب بلال فيقبل على ابن خلف يقول :

« احلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذنه حنانا » .

يمر على ذات يوم الى جوار رسول الله فاذا عمار بن ياسر بين

ابويه قد اتقد عليهم لفح الهاجرة واجتمع بنو مخزوم يلهبون ظهورهم بالسياط ولا يكفون عنهم او يفتنوا عن دين الله . ويلمح عمار النبى فتضيء عيناه ويرفع بصره الى محمد ويقول :

« يا رسول الله ! » .

فيسارع النبى اليه يشدد عزمه وهو لا يملك له غير الرثاء والحنان :

« صبرا أبا اليقظان » .

ولكن الرجل المتوسل يملأ بالحسرة قلبه الا يجد مخلصا لأمه سمية من جلاديها ، وقد نسى أمام محنتها ما يصيبه من عذاب ، فيعود الى المناجاة :

« يا رسول الله بلغ العذاب من أمى كل مبلغ ... » .

وقد بلغ بها العذاب حقا أوجه وهى مستمسكة بدينها مستهينة بما تلقى في سبيل الله ، وليس لمحمد في حالها تلك سبيل سوى أن يرفع يديه الى السماء ويجأر الى ربه بالدعاء :

« اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بالنار ... » .

فتطيب نفوسهم برثاء الرسول لهم وبدعائه ، وينسون النكال المصبوب على أجسادهم ما داموا قد افادوا طهر الأرواح ؛ وان العذاب لشهى ، والايذاء ليلقى منهم الترحيب ولا تنفرج الشفاه عن كلمة شرك وان امعن في التنكيل بهم هؤلاء الطغاة ، وان هدد ابو جهل أن يخترم المرأة برمحه امام الولد وأبيه ، وان أردف التهديد بالتنفيذ فألقاها على الرمال جثة شوهاء فارقتها الحياة ...

يمر على بهؤلاء وبغيرهم كثيرين البسوا أدراع الحديد وحميت تحتهم النيران ، كصهيب وخباب وسواهما من المستضعفين من العبدان والاماء الذين لاذوا بمحمد ودين الحق الذى جاء به رحمة للناس من لدن ربه . يمر بهؤلاء جميعا ويشهد ما يلقون من ضيق على أيدى رجال من قريش لم يرعوا فيهم ضعفا ولم يعرفوا رحمة ، فيعصر عينيه اسى ، وتفيض نفسه هما ، ويمتلىء قلبه كمدا لأن محمدا يدع قريشا سادرة في بغيها ولا يوفيها عنها صاعا بصاع ؛ ويراود الفتى نفسه على الصبر ، ويملكها أن يخرج بها الغضب عما رسم النبى لدعوته من انتهاج السلم دون العدوان ، ثم يسير كاظما غيظه وهو يعلم أن الزمان لا بد سيأتيه بفرجة ينفذ بها الى الاقتصاص .

ثم لم يعد ثمة رده لمحمد يقيء هو الآخر مما لقى على يدى قريش صحبه ...

يموت ابو طالب الرجل الذى وقف دائما في صف ابن اخيه يحميه من بغى قومه ويدفع عاديهم عنه .

ويقبل على يحمل النبأ . انه لم ينس مطلقا موقف أبيه ذلك اليوم حين كان بوسعه أن ينصر محمدا بلسانه فمنعه اخلاصه العميق لجاهليته العمياء أن يلفظ كلمة واحدة قد كانت كفيلة بتمهيد الطريق الشائكة تحت أقدام الرسول . لم ينس على ان اباه تخلف عن الايمان بمحمد وهو أولى الناس بالمسارعة الى هذا الايمان . ولئن كان ابوطالب قد ذاد الناس عن ابن أخيه . فلغير وجه الله ولغير دينه ، وانما لوشائج القربى وصلة الدم .

يقبل على وفي خاطره كل هذا فيلقى رسول الله ويفضى بالنبأ اليه بكلمات قصار ، صريحة ، لا مواربة فيها ولا مداجاة وان آذى بها اباه :

« يا رسول الله ، ان عمك الشيخ الضال قد مات » .

وكذلك وسع قريشا أن تسفر عن احقادها وضغائنها بعد أن خلا طريق الايذاء من الصخرة الكأداء ، وأبيح لهم بعد موت الشيخ ما لم يكن يباح ، فانطلقوا يصبون من اعناتهم وطغيانهم على محمد جامات وجامات .

ولم يكن هذا لأنهم أنسوا من دينه زيغا عن الحق أو ميلا مع الهوى ، ولم يكن لأنهم لمسوا في خلق النبى مغمزا يغريهم به ، ولكن لأن الأهواء لعبت بنفوسهم الضعيفة فمالت بها الى عصبية الجاهلية قبل الغضب لدين الآباء .

كانوا يرون في محمد رجلا يهم أن يحمل اللواء بين قبائل العرب ، زعيما ، نافذ الكلمة مستطير السلطان حرى ان تذهب بظهوره ريحهم وتخبو عظمتهم فقاموا يناجزونه قبل أن يستفحل أمره ، ليحفظوا على انفسهم ما لها من مكانة في الناس ، وليحولوا بين احد بنى هاشم وبين الاستعلاء عليهم كما استعلى قبله ذووه ...

ذات يوم ذهب الأخنس بن شريق الى أبى سفيان بن حرب يقول :

« يا أبا حنظلة اسمعنى رايك ... » .

« فيم ؟ » .

« في الذى سمعت بالأمس من محمد » .

وكان الرجلان بالأمس قد جلسا مجلسا انصتا منه لرسول الله وهو يتلو بعض آى الكتاب .

واجاب أبو سفيان وهو لا يستطيع ان يخفى اعجابه .

« يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت اشياء اعرفها واعرف ما يراد بها ، وسمعت اشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ... »

« وانا والذى حلفت به كذلك ... »

ثم يدعه الى زميل ثالث في الانصات هو الحكم بن هشام ، يسأله :

« وانت فقل يا أبا الحكم . ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ » .

فيلوى الرجل شفتيه استياء وموجدة ، ويأبى عليه حقده الا ان يقول :

« ماذا سمعت !... تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : اطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، واعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ... فمتى ندرك مثل هذه ؟... والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه » .

وهكذا كانت نظرة القوم الى الاسلام كفخرتهم أن تستعلى به اسرة على الجميع فحق أن يلقى الداعى اليه كل خذلان !... فاذا قيل شنآن قريش بما فيها من بطون وأفخاذ ، وقيل شنآن بنى مخزوم كما بدا من كلمات سيدها أبى جهل الحكم بن هشام ، فكيف يستطاع هذا الشنآن لأحد بنى عبد مناف من احد بنى عبد مناف ؟... ولكن أبا سفيان استطاعه على اى حال . ودعا اليه الناس وحضهم عليه ثم البهم عداة مناوئين مع المؤلبين الكثيرين من قريش ... ذلك لأنه كان من عبد شمس قبل عبد مناف فغفر لأبى جهل حسده اذ استجاب له ما في قلبه هو وقلوب آله . وبحسبه ان راى في سيد بنى مخزوم ظهيرا يعينه على ارواء حقده القديم بمناجزة سليل هاشم الكريم .

٤

... ماذا بقى بمكة بعد هـذا لعلى ؟.. اولئك الذين احبهم ملء فؤاده مضوا عنها . طوى القبر اباه فخلف دنياه ونأى بخيره وشره ، ولئن اخذ الفتى عليه استمساكه بضلالة الأوثان حتى توسد في لحده فانه لم ينس له مطلقا حق الوالد على ولده . ثم ان الأحداث ليست ببعيدة عنه وقد طالما راى في الشيخ درعا واقيا لمحمد يرد عوادى الناس والزمان عنه ... ومضت خديجة ايضا ـ تلك السيدة التى عرفها دائما اما وقد تربى في حجرها قبل أن تحتضن وليدا من أولادها ؛ ولقد كانت نكبته بها نكبتان : رزء الربيب ، واسى الحبيب لأجل الحبيب ... اجل فلم يفته ان يلحظ كيف خط الالم في جبين محمد سطوره بعد اذ سطا الموت على الزوج الفضلى وغيبها عن ناظريه . لكأنما كانت لرسول الله كل عالمه وما ضمت بين رحابها آفاق دنياه ، حتى اذا ذهبت فرغ عليه الكون لولا مسكة من الصبر أودعها الله قلبه الكبير . وكان في هذا أفدح الألم لعلى كلما القى بصره على حبيبه المختار فطالعته في وجهه أطياف حزن عميق ، ليس يقوى على اخفائها تجلد واصطبار .

ثم ذهب ايضا جعفر وقد كان له أخا دم وأخا دين ... خرجا سويا من صلب أبى طالب ، ولكن الاسلام سبق النسب بالحب الى القلب . وان أولئك الذين اشربت أرواحهم شرع محمد لجديرون بأن تمتلىء قلوبهم بهذا الاعزاز الذى يحسونه لاخوانهم في الاسلام ولا تكاد أن تبلغ مبلغه العواطف الناشئة عن صلات الأرحام ... كان ايمان فاطمة امه ـ في البدء ـ خير عزاء لعلى عن ضلال ابيه ، فلما ذهب جعفر ، ذات يوم ، الى رسول الله يبايعه على الاسلام ، وصل الفرح بعلى حد الفخر ، ولولا أن تلكأ بعدهما أخوهما عقيل ولم يسارع الى الهداية مثلهما لكان سرور ابن أبى طالب قد بلغ الشأو . ولكنه اليوم بمكة يقلب بصره فلا يقع على أبى طالب بعد ان اكتنفه التراب ، ولا يقع على خديجة وقد تقطعت بها من الحياة الأسباب ، ولا يقع على

جعفر وقد لاذ بالحبشة فرارا الى جوار الغريب من جور القريب .. اما عمه العباس ، واما عمه عبد العزى ابو لهب . واما ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فكل أولئك وسواهم من آل بيته لم تكن صلته بهم الآن لتعدل لحظة واحدة يقيمها بمكة بينهم بعد أن وصل العنت من بعضهم والتخاذل من البعض الآخر ، الى الحد الذى لم يترك لمحمد معدى عن الخروج بليل ، مخلفا وراءه بلدته ، هاجرا داره فرارا مما كاد ان يلحق به من ائتمار اصحاب الضلالة ، ليضرب في قفار الجزيرة نحو يثرب كي يلوذ فيها بمن صدقوا وآلوا امام ربهم على أن ينصروه .

اجل ، لم يبق لعلى بمكة مقام وقد نزح عنها رسول الله ، وتسلل أصحابه واحدا اثر واحد : منهم من سبقه ومنهم من تبعه . وراجع الفتى نفسه قبل أن يخرج هو الآخر ضاربا في الصحراء ، فلما أيقن أن قد نفذ ما أوصاه به محمد ، ورد للناس ودائع كانوا قد ائتمنوا عليها النبى ، قام يسعى على درب يثرب يسبقه اليها شوقه .

ولم يكن له مركب ولا ظهر ابل ، وانما سخر قدميه وامعن بهما في الرمال مستخفيا عن الاعين ، ولم يكن له في رحلته صاحب ، ولكنه تألف خواطره حتى لزمته ، ان أشرق الصبح توارى يتعبد أو جن الليل تفكر وتدبر فيما يقع تحت ناظريه من جلال خلق الله . ولقد ظل في رحلته تلك ليالى اربع عشرة وحيدا يسبح في بحر لجى من الرمال تحتــه ومن الأنجم والكواكب فوقه . ولعل هــذه الآونة كانت اكثر الآونات في حياته اثرا وابعدها غورا حتى طبعت نفسه بطابعها مدى ما عاشه بعدها من سنيه . وان الامام الذى صاره هذا الفتى فيما اقبل من الايام لهو حقا وليد تلك الليالى التى اكتنفتها الوحدة بدءا ونهاية : منبسط النفس كرقعة السماء ، جلد القلب والجنان ، حديد العزم كالسنان ، يعزف عن اللهو الى التأمل ، ويصـدف عن اللغو الى التصوف والتبتل . وهل كان لمن اخذ نفسه بهذه الرحلة ليشق مجاهل الصحراء وحده ويعانى من اخطارها كل شدة الا ان يصحب فكره فيجلو بالتأمل بصيرته ، ويروض صبره فيرهف بالصبر عزيمته ؟

***

كذلك مضى على يركب البيــد ، وتنثال خواطره امامه ، تسبقه وتؤلف له من نفسها قافلة شوقه حاديها .. تماما . ولو اسـتطاع

ان يتخذ حنينه الى محمد ظهرا لقطع به وحدات الزمن جميعها في طرفة عين . ولكنه ، مع ذلك ، نعم بتذكر ما فات من لياليه مذ شب على يدى النبى حتى بدأ عنفوانه ... افكانت آصرة الدين وحدها مثير هذا الحنين ؟.. ما كان على ليستطيع ان يدلى في هذا برأى قاطع لان مدى ما يذكره من هذا الأمر انه لم يشعر مطلقا — مذ ولدته أمه — انه كان على غير دين محمد يوما واحدا من ايام عمره ؛ ولعل هذا لانه عاشر الرجل من الطفولة فجذبه الى شخصيته الغلابة القاهرة جاذب سرى من الجنان الى الجنان قبل أن تسرى الى سمعه ترتيلة الايمان .

وكذلك نسى في رحلته لفح الهجير ولسع الزمهرير ، ومضى قدما صوب يثرب .. وطبيعى أن متاعب الطريق وما لقيه من صعاب لم تكن لتستطيع أن تلقى من نفسه حرفا من انتباهة وهو الذى لم يلق — قبل رحيله بثلاث ليال — بالا الى عصبة التفوا بداره ، في ايديهم الأسياف القواطع ، يحومون حول فراشه على مبعدة خطوات فلا يعصمه من بطشهم عاصم الا ايمانه .

***

الا ما اعزلها ليلة بين لياليه ، ما اعزلها ليلة تفضل كل لياليه !. ها هو ذا على فراش الرسول ، مسجى ببرده الأخضر حتى لا يستطيع أن يرى اتقدم القوم نحوه خطوات أم ما زال عن اسلحتهم بمنجاة . ولكن اصواتهم كانت تسرى دائما الى سمعه ، هامسة كأنها طنين نحل، تطوف به همهمتها مخافتة . وكان صافي الذهن حاضره ، صاحى العين لم يطف بعينه نوم ... اترى وجد في اليقظة متعة فراض نفسه على السهر ليشهد كيف تستقبل هذه الطغمة فشلها حين تتبين فرار محمد ؟ ... كان هذا بعض ما جال بذهنه ، واما بقيته فارتقاب طعنة الموت يتلقاها من سنان حانق . لن يسر القوم أن يلعب الفتى لعبته فيفقدهم صيدهم وهم على حافة النصر ، وليس بمستبعد اذن ان ياخذوا الفادى الحاضر بالمفتدى المهاجر .

ولعب على شفتيه طيف بسمة ، نصفها رضا ونصفها سخرية . ان الموت كان غاية المأمول من حياته لانه الوسيلة الى حياة عقيدته ، وليكونن في مقتله لقريش والعرب قارعة اى قارعة ، لان دماءه لن

تذهب لقى ، بل سوف تدعو من بين قومه اناسا للثأر له انتصارا لحرمة الدم . ولئن كانت قريش قد أجمعت أمرها على قتل محمد ، فقد تذرعت لجرمها هذا بأن رسول الله شق عصاها وبذر بدعوته الجديدة في صفوفها الفرقة . اما ابن أبي طالب فلن تنهض لقريش حجة امام ذويه على قتلها اياه .

***

ولكن عنقه لم يمسسه السيف المأمول !...

كان القوم ، خارج الدار ، قد اخلدوا الى السكينة مطمئنين الى نجاح المؤامرة التى دبروها لاغتيال محمد . في اكفهم التمعت شفرات السيوف تحت اشراقة انجم الصحراء ، وانعكس بريقها على وجوه لم تخف البسمات الساخرة ما انطوى في قلوب أصحابها من احقاد . وكانوا جميعا كرجل واحد ارهاف حس وحضور ذهن ونفاذ عين . سبق الغل ابصارهم الى الباب حتى لا تفوتها النملة ان دبت آتية منه . هذه ليلتهم حقا ، ساعتهم المرتجاة .. اللحظة الحاسمة في تاريخ الجزيرة التى عبثت بها مدى اجيال عبادة الاصنام : وكانوا هم مختارى قريش وممثلى اسرها جميعا لأداء رسالة هذه الأصنام !...

اجل قد اجتمعت فيهم كلمة قريش ، ولم تجتمع لها قبل اليوم كلمة منذ اجيال .. هذه الأسرة الوثيقة القربى كانت محلولة العرى مفككة الأوصال حتى لطالما وقف منها البيت أمام البيت يحتكمون جميعا الى لسان السيف .. ولكنها الآن التأم منها ما تفرق ، واتحد فيها الأشراف والأوشاب ، واجتمعت على القدر قلوبها وايديها ، لتمزق محمدا قطعا بقدر ما يمسك أولئك المتربصون به من قطع السلاح ، فاذا انت لحظتهم ، ضربوا ، وادوا عن آلهم حق الأصنام ، وذهب دم الرجل في القبائل كلها فلا يطيق ذووه أن يعادوا من أجله قريشا كافة .

ذلك كان اجماعهم وما حسبوه ومن وراءهم احكام تدبير . ولكنه اجماع مفضوض وتدبير خاسر ... ولن يلبث أن يتبين لهم بعد اعوام كم كانوا في ليلتهم تلك عمى القلوب والبصائر وان حدت منهم العيون والنواظر . فلم يكن محمد ليبغى ملكا ، ولا جاها ، ولا مالا . ولم يأتهم

ليسلبهم ما بأيديهم من تراث وانما ليمنحهم من لدن ربه تراثا تلتئم به أقطار الأرض كلها كعقد حول اجيادهم ، ثم يجتمع بهم مالم يحلموا به من ملك وجاه ومال . ولكن الضغن آفة الحكم . ولو كانوا قد استطاعوا أن يتجردوا من أضغانهم لحظة طوقوا داره لما اشرعوا في أيديهم رمحا الا من أجله وفي سبيل دعوته ، ولاجتمعوا حوله ولم يجتمعوا عليه . ولذكر الكثيرون منهم ان هذا الرجل ، الذى لموا شعثهم لمناهضته والقضاء عليه ، هو الشاب الذى جعلهم ذات يوم سالف يغمدون أسيافهم ويبقون - بفضل رأيه - على جمعهم أن يتمزق ويذهب بددا . ولعل فيهم الآن من يعرف لمحمد هذا الفضل المأثور ويعرف قصته . ورواها لغيره من الناس بعد أن رواها له غيره أوشهد فصولها بنفسه ... هذا حدث ليس تنساه الأذهان وما كان اختلاف الزمان بالذى ينسيه . وما من واحد في العرب الا يذكر كيف اختلفت قبائل مكة ، حين أعادت بناء الكعبة ، على أيها يحوز شرف وضع الحجر الأسود في مكانه حيث وضعه من قبل ابراهيم الخليل . ولقد بلغ اذ ذاك الخلاف أشده حتى أدنى القبائل من مهوى الحرب ، ولكن شابا واحدا حسم الأمر ، طلع عليهم في هذه الآونة العصيبة محياه الأصبح فطرد أمامه شيطان الشر واستطاع بكلمة واحدة نطقها وهو بعد في أولى مراحل الشباب أن يطفىء ما كادت أن تسعره حماقة الشيوخ . نشر أمامهم ثوبه ووضع الحجر عليه ودعا برءوس العشائر المختلفين أن يأخذ كل من الثوب بطرف ويرفعوه الى مستوى الكعبة ، فلما فعلوا وسد الحجر بيده موضعه فولى الخلاف وأغمدوا السيوف .

ولكنهم اليوم عمى القلوب والبصائر وان حدت منهم العيون والنواظر ، بل انهم ما لبثوا ان فقدوا أيضا حدة البصر وحضور الذهن حين اخترق محمد جمعهم ومر بالنطاق الذى ضربوه حول الدار . وكان على في مرقده ، واجف القلب اشفاقا على الرسول ، يرى بلحظ الخيال دون رأى اللحظة ، اليه يسرى ترتيل محمد : اذ يسير مخلفا المكان ، خافت الرنين رافع اليقين : « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

وحقت كلمة الله فلم يره منهم راء ولم يسمع خطوه سميع . واطمأن قلب على وسكنت نفسه حين تلاشى رويدا رويدا جرس الآيات وراح في السكون . ثم أغرقت البسمة شفتيه ، ناطقة بفرحة قلبه لنجاة محمد ونفاذه من بين عدوه كسريان النسمة ، ترعاه عين الله وتظله رعايته ،

وتحوطه يد عنايته الالهيــة وهى توجه خطوه خارج مكة ، صــوب الشمال ، الى يثرب .. ارض النصر !

***

تلك كانت أولى لحظات الفتى بالخلود ، شعر ساعتها بالسعادة كما لم يشعر بمثلها مطلقا قلب انسـان . ولم يكن هذا لنجاة محمد فحسب، لانها كانت في قلب على راسخة رسوخ اليقين وان شق عليه أن يرد الماة من جزع طافت به وهو يرهف سمعه لخطو النبى اذ يسير مجتازا باب الدار وحلقة الثوار . ولم يكن من اجل انتقال الدعوة الاسلامية من بلدة شائنة جاحدة الى أرض طيبة صالحة للحياة والنماء فهو وطيد الايمان بالمستقبل المسطور لدين الله في لوحة القضاء ... لا لهذا أو ذاك غمر الفتى من سعادته ورضاه ما ملأ أجواء دنياه . ولكن لأنه رقد يرتقب أن يمس عنقه سيف تحركه يد حانق من القوم ويجهز عليه به ، لأن موته العاجل ها هنا فيه نصرة لدينه وعزة لنبيه وخدينه . لقد استخلص الفتى هذا بعد أن فكر وقدر وما كان ذوو قرباه من قريش ليغفروا لقاتليه قطرة دم تراق منه ، بل سيجتمعن على الثأر له : قاصيهم ودانيهم ، حاضرهم وغائبهم ؛ ولن يتخلف منهم عن تلبية نداء الدم عباد اصنام واتباع اسلام .

كذلك فكر على وقدر فأصاب . ولم يكن مبالغا ، بل كان يستخلص النتائج بقياس حدثه على غيره من احداث . فلقد تطلع بذاكرته الى يوم من الماضى قريب ، وقع فيه مثل ما رجا أن يقع له وان كانت المشابهة بين الواقعتين في أضيق نطاق ... كان ذلك حين ادلهم الخطب على النبى وصحبه واخذت قريش لا ترعى حرمة فتركب محمدا بالعنت آونة وبالايذاء آونات . فيذات امسية من ذلك العهد وقد مضى النهار الا اقله ، ومالت الشمس الى مرقدها في المغرب ، وجلس العلية كدأبهم يسمرون عند الكعبة ، بدا للقوم حمزة بن عبد المطلب ، فارعا مهيبا ، في خطوه اعتداد يكاد ان يجنح به الى حد الفخر ، قد زين قلنسوته بريشات تماوجت مع انسام الغروب ، وتمنطق بقوسه ، وتدلت من كتفه جعبة السهام لم يتكلم ، ولم يلق الى الجالسين بسلام ، ولم يطف بالكعبة كما اعتاد كلما عاد من رحلة صيد ، بل ارسلها نظرة عجلى

خلال القوم ، ثم ارتد . واوجسوا اذ رأوه ، فلأمر ما مشت غضبة الليث في عينيه وفارقه المعهود من بشره ... اما هو فقد تركهم يوجسون ويحدسون ما شاءوا ، واندفع كاندفاع السيل الى دار ابى جهل بعد أن افتقده في السامر فلم يقع عليه .

وضرب الباب فبرز اليه الرجل يتلقاه بالترحاب .

« أبو عمارة ؟ مرحبا وادخل ... »

فلم يهش ، ولم يدخل ، بل بادره يقول :

« تعدو على ابن اخى فتلطمه وانا بين الناس حى ! »

فأجفل العادى أمام غضبة خصمه وقال يتلمس المعذرة بأسلوب لين ناعم :

« ما كنت لأفعل يا أبا عمارة ، ولكنه عاب آلهتنا ، وسبها ... »

« وانا اعيبها ، واسبك ، وارد عليك لطمتك ! » .

وسبقت يده الكلمات فاذا حديدة قوسه ترتطم بجبهة ابى جهل في ضربة قاسية شجتها شجة منكرة يتفجر منها الدم . ووقفحمزة هنيهة يرقب فريسته ويتهيأ لها ، ولكنها كانت اذل من أن ترد عليه ضربته أو تنضح عن نفسها بمعابة لسان او بلفظ استهجان .

وشهد الجالسون الى جوار الكعبة تلك الأمسية حمزة يعود ثانية ، يسبقه اليهم غضبه ، ثم يقترب منهم حتى يصبح مشرفا على النطاق وعلى بقية الملأ القريبين ، فيرفع فيهم صوته ويقول :

« أيها الناس !... انى اخلع الآن رداء كفرى ، وانى على دين ابن اخى وانى لناصره بلسانى وسيفى ... الا فليتقين سفيهكم غضبتى !.. »

اى ربح هذا الذى ربحه دين الله من وراء لطمة ، واى ربح ذاك الذى كان لا بد ان يربحه من وراء دم !.

***

ولكن أولئك الذين عصف الغضب بجوانحهم حين حسروا الغطاء فلم يروا محمدا تحته ، عرفوا كيف يملكون سورتهم عند حد ، فلم يفز الفتى بأمنيته ـ لم يقتل !... لم ترفرف روحه في الفضاء تدعو آل عبد المطلب وآل هاشم ومن تابع هؤلاء وأولئك الى الثأر له والانضواء

تحت لواء واحد قد كادوا أن يجتمعوا تحته تلبية لنداء الدم ... ولئن افلتت من على هذه الفرصة فلسوف تواتيه الأيام وشيكا بغيرها من فرص سانحات . ولن يلبث أولئك الذين تركوه ولم يضرجوا الفراش بدمه أن يندموا لانهم تلك الليلة ، ابقوا على حياته فأحيوا فيه شبح الموت الذى ظل يلاحقهم بعدها مدى أعوام وأعوام !...

٥

كان على منجل الموت الذى أخذ يلاحق رءوس قريش من اعداء دين الله فيقطفها قطفا ويخطفها خطفا .. تسقط تحت سيفه كالثمر وتتراكم عند قدميه في عدد المدر . وذاك الفتى الذى كان في صباه سباقا الى الدين أصبح اليوم — في فجر شبابه — سباقا الى ضرب الهام وشق الأجسام . وفي كلا ناحيتى شجاعته المعنوية والمادية كان المؤيد دائما برسول الله ، المقرب اليه ، المرموق منه بعين الحب والرعاية. لم تفت به فرصة واحدة مذ دخوله المدينة الا اجتباه الرسول دون سواه من قادة الاسلام فآثره بفخر يرفع من قدره فوق ارتفاع ، ويشرف به على جلة الصحابة والاتباع . لئن كان أبو بكر من نبى الله وزيره الصادق فان عليا كان منه الظل اللاصق ، لم ينأ عنه ، ولم يبعد الا كلما أرسله محمد ليكون له على أعدائه عينا أو لرجاله طليعة . حتى في بدء ذلك الوقت ، الذى أخذ رسول الله يكون فيه ملكه الصغير ويربط بين المهاجرين والأنصار بالمدينة ، لم يفته أن يؤثر باخائه عليا دون الباقين .. آخى بين صحبه الخارجين من ديارهم معه وبين أصحاب البلدة الذين آووا ، فتخير ان يكون على أخاه في الدين . لم يؤاخ ابا بكر ، ولم يؤاخ عمر ، ولم يؤاخ حمزة أسده وأسد الله ، ولكنه اصطفى لهذه الأخوة المعنوية بعد أخوة الدم فتاه الربيب فآثره على كل حبيب بعيد وقريب . ولا شك انها كانت من النبى لفتة كريمة لها في النفوس ما قد تثيره من ايحاء يكاد أن يفصح عن التقريب والاجتباء ، وكانت حياة على بعد هذا مناط الكثير من كريم اللفتات . حتى في ساعة الحرب ، والنفس البشرية مشغولة عن دنياها جميعا بلحظة

الطعان المنتظرة ، كان النبى حين سعى الى بدر بجيوش المسلمين ، يسير آونات الى جوار بعيره ويدعه مطية لابن عمه ليخفف عنه بعض مشقة الطريق ..

***

ولم يكن هذا وحده دليل التقدير الفرد الذى توج به محمد هامة صفيه ومجتباه ، بل كانت صفحات حياة الرسول كلها آيات متلاحقة من التقدير والتفضيل . طبيعى أن تعطفه صلات القربى اليه . ولكن ادنى الأقربين من آله لم يلقوا منه مثل ما لقى ابن أبى طالب ، صغيرا وكبيرا ، من صادق اعزاز ، كان في السلم يختصه بالرفقة حتى أصاب الفتى من ينبوع النبوة والحكمة ما شاء ، وكان في الحرب يقدمه لأنه خبر فيه صلابة العزم وصدق البلاء .. حتى اذا داخل نفسه الكريمة على رجاله خالج اشفاق ، سبق خوفه على فتاه خوفه على الجمع من الصحب والأعوان فود أو جعله عن رماح الأعداء في حرز حصين ، ثم كان الحرص ، كلما تقدمت بالنبى السن ، يزيد على على الى ان بلغ أقصاه بعد استشهاد جعفر بن أبى طالب بمؤتة ، حتى لم يعد محمد بعدها يرسل صفيه في وجهة من وجوه القتال الا رفع يديه الى السماء يبتهل الى ربه أن يبقى له عليه ويقول :

« رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين » .

وكذلك عند صمت الموت ، واستواء الكافة من الناس على حافة اللحود لم يعدم محمد فضلا آخر في جعبة الايثار يختص به ربيبه المحبوب ويزيده به قربا الى النفوس والقلوب . وكان ذلك عند وفاة فاطمة ابنة أسد ، زوج أبى طالب وام على ، وأسبق نساء العالمين الى الاسلام بعد خديجة الطاهرة .. فاطمة الفضلى التى لم يسبقها في الدنيا الى اعتناق دين الله الا غلام ، وامرأة ، وثمانية رجال . تقدم الرسول فألبسها فوق كفنها قميصه ، ثم نزل الى القبر فسواه بيده الكريمة ، واضطجع الى جوارها فيه .. وعجب الناس لهذا الصنيع الذى لم يروا محمدا من قبل يوليه احداً من أقرب خاصته ومريديه فراحوا يسالونه :

« ما رايناك صنعت ، يا رسول الله ، بأحد ما صنعت بهذه ؟ » .

فكان جوابه أن قال :

« انه لم يكن احد بعد ابى طالب ابر بى منها .. وانما البستها القميص لتكسى من حلل الجنة ، واضطجعت معها ليهون عليها ضغطة القبر » .

وكم من اموات المسلمين قبلها ضمتهم اللحود ووارى التراب اجسادهم فلم يفوزوا من نبيهم من هذا الصنيع بقليل ولا كثير . ولكنه اسدى لها في موتها ابلغ تعظيم ، واسدى بهذا لابنها في حياته اجل تكريم .

***

... وكانت بدر كلها نصرا هو فاتحة النصر المبين لراية الدين ، بل كانت المنفذ الذى اجتازه هواء الحياة الى رئة الاسلام . جازت محنتها الفئة القليلة فغلبت الفئة الكثيرة باذن الله . ولئن كان النصر سبقت انباؤه الى لوح القضاء طعان الأبطال ، فان عليا كان الأسبق يدا وسيفا الى اعناق الأعداء . لم يكن في المسلمين اسنهم ، ولا اشدهم ساعدا ولا أبعدهم صيتا في مجال الكفاح يوم خاض غمار هذه الواقعة البعيدة الأثر في تاريخ الانسان . ولم يكن قط مارس من الحرب ما مارست الكثرة من صحابة المسلمين ، اذ كان بعد بالدنيا حديث عهد ، لم يجاوز العشرين الا بقليل . ولكنه كاد أن ينفرد بجنان ثبت وقلب جلد لا يستطيع ان يطرقه خوف أو تطوف بساحته رهبة . ولم يكن فوق هذا وذاك كأولئك الشجعان الذين ينسون في معمعان المعركة كيانهم ، ويفنون فيها فناء يحجب عن ابصارهم سيرها ، وانما كان مرهف الحواس متمالك الجأش ، يقظا غاية اليقظة أمام كل صغيرة وكبيرة تبدو اثناء الصراع من مناجزيه حتى كأنما جسمه كان عيونا تنظر . وما من شك في انه لم ينفرد وحده بالصيال ولكن الثابت ثبات اليقين انه وحمزة عمه كانا فرسى رهان .. وكانا دائما سباقين الى رءوس الكفر واشياخ قريش الضالين يضربان الهام كأنما تخيرا ذلك اليوم ان يحفرا قبور الأصنام . أما حمزة فكانت له في المعركة غضبة الليث ودفعة السيل ، الرهبة دائما تسبق سيفه يتلوها الموت وان كان حماس الصراع يستغرق حواسه ويملك منه الزمام فيندفع كلسان النار بين الأعداء وهو لا يكاد ان يرى سوى فريسته التى آلى اصطيادها والاجهاز عليها . ولقد علم أعداء الاسلام في أسد الله هذه

الدفعة فاستغلوها في الكيد له ، ولم يكد يتكامل الحول حتى عرفوا كيف يثأرون لانفسهم منه ويكفون رقابهم حد سيفه بأن دفعوا اليه يوم احد عبدا حبشيا من عبيدهم تربص له حتى اذا رآه قد ران على عينيه غضبه ، وعبست أساريره ، وفنيت ذاته في حماس الصراع قفز اليه العبد بحربته فأراده ..

وأما على فقد تهيب الناس فيه صدق حمله وحد نصله ، فكانوا ان آثروا الثبات لا يملكون الا الوقوع صرعى تحت قدميه ، او فضلوا السلامة ادبروا يفرون او ارتدوا ينكصون بعدا منه ، ثم كان يبعثهم كربهم أحيانا على اصطناع الحيلة كيلا يعمل في اقفيتهم سلاحه فيكشفوا عن عوراتهم اذ علموه يربأ بناظريه ان يريا سوأة . وكانت يقظته لا تغادره لحظة مهما تأجج لهب الحرب ، بل يظل أبدا متمالك الأعصاب يتحرك كمن في نزهة فلا تفوته من صفوف مناجزيه اجمعين لفتة أو حركة وقد بقيت يقظته هذه الدرع الواقية والحصن الذى حال طوال حروبه بينه وبين اعدائه المتوالين ان ينالوا منه وان رصدوا له العيون والأرصاد وكتلوا بين يديه وخلفه حشدهم بالمرصاد .

* * *

كانت بدر نصرا كلها للدين وللمسلمين رفع لواءه عاليا على ، وباء بالخذلان أئمة الكفر الذين أفلتوا من السيف والسنان . وهكذا ثبت الله قدم نبيه واعز امره ، وصدقت رؤيا عاتكة !.. أجل صدقت رؤيا عاتكة ابنة عبد المطلب وتحققت واقعا ملموسا تراه العيون . وان اولئك الذين سخروا منها أمس بدر لهم أشد الناس ايمانا بصدقها غب الوقعة . فلقد أصبحت مكة على غير ما تعودت ان تصبح .. فارقها كبرها ، واشرها ، وفخرها ، وهى تنظر الى فلول جيشها المهيض الجناح عائدة تجر الخزى في أعقاب هزيمة مرة . وتلفتت عيون السادة الذين تخلفوا بالبلدة عن المعركة الى الآيبين منها .. اين سيدهم الحكم بن هشام أبو جهل ؟.. اين أمية بن خلف ؟ اين عتبة بن ربيعة راس بنى عبد الدار وصاحب اللواء ؟ .. اين أخوه الوليد واين ابنه شيبة ؟.. اين كل اولئك وغيرهم ممن غادروا مكة بالامس دارعين مزهوين ، اقلهم املا كان لا يستطيع ان يكبح نفسه عن العودة من المعركة الا وراس محمد في كفه ؟.. كلهم راح لقى هناك على ثرى بدر ومن عليهم محمد بالمضجع وبئس المضجع !.. كلهم طواه

القليب تستوى فيه الأشراف والأوشاب ورنت في آذانهم – موتى – صرخة محمد وهو يناديهم من مثاويهم ويقول :

« يا أهل القليب ، بئس عشـيرة النبى كنتم لنبيكم ! كذبتمونى وصدقنى الناس ، واخرجتمونى وآوانى الناس . وقاتلتمونى ونصرنى الناس !.. هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فانى وجدت ما وعدنى ربى حقا ؟.. » .

ولكنهم سمعوا وما استطاعوا أن يقلبوا في التراب جنوبا . وخلفوا الدنيا التى غرهم فيها الجاه وغرتهم الـكثرة وكانوا يستعلون فيها ويستطيلون كبرا . وعاد الحثالة من اقوامهم الى دورهم وبقوا هم حبيسى الأرض .. عادت الحثالة من اقوامهم الى مكة توارى اساها وقد فرت دون مواراة قتلاها . وان في قلب كل رجل من قريش كلما حرام على عينيه بعده ان تنام ان لم تشهد ثأرها في محمد وصحبه . وان في كل بيت لنائحة بين اليتامى وبين الأيامى .. في كل بيت فلقة من الصخرة التى راتها عاتكة في رؤياها فلم يبق لهم بد من ان يصبحوا مصدقين وكانوا منها امس ساخرين .

كانت عاتكة قد نزعت ليلة بدر الى اخيها العباس تقول :

« يا أخى .. » .

فسارع نحوها وقد لمح على محياها الخوف :

« لبيك !. ما أفزعك ؟ » .

« انى رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى .. » .

« وما رأيت ؟ » .

« وانى اتخوف ان يدخل منهـا على قومك شر ، فاكتم عنى أحدثك » .

« أفعل » .

« رايت راكبا اقبـل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : الا انفروا يا آل غدر لمصارعكم !. فأرى الناس اجتمعوا اليه .. ثم اخذ صخرة فارسلها فاقبلت تهوى ، حتى اذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار الا دخلتها منها فلقة » .

وسمع اخوها فتجهم ولكنه لم يكتم !. وسار نبا الرؤيا من لسان الى آذان حتى وصل أبا جهل فانطلق الى العباس ساخرا يقول :

« يا بني عبد المطلب . أما رضيتم ان يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم » .

ومع هذا فقد صدقت رؤيا عاتكة يوم بدر . ويا ليت ابا جهل يستطيع الآن ان ينطق ليحدثنا بأثر صدقها فيه ، وفي ناصريه !.

ولكن ذهب الى الأرض كما ذهب الآحرون . وخلفه الأحياء من قومه لمصرعه ، كما خلفوا معه سادة سواه كانت دنيا قريش بأمرهم تدين ، وفروا ناجين بن أسياف حداد اعملت آونة في هام الكثيرين وآونة في أقفية الباقين حتى خلصوا بجلودهم مدحورين .

وكذلك كانت بدر نصرا كلها وان أفلتت الدائرة ابا سفيان بن حــرب وغيره الذين من أجلهم نزحت حشود المسـلمين الى ساحة القتال ... ولكن ابا سفيان لم يكن كل قريش ، ولم يكن خيرا من اولئك الذين حصدتهم رحى السيوف أو لم يكن شرا منهم !.. بل لقد خسر في المعركة زيادا ابنه أسيرا وحنظلة قتيلا لحق شرف مصرعه بسيف علي كما لحق به شرف جز رقاب سواه من بني عبد شمس واصهارهم من عبد الدار . وان الذي يأخذ نفسه باحصاء من جندلهم ابن ابي طالب في بدر ، ثم فيما تلاها من وقائع ، ليعجب أشد العجب ويتساءل أكانت المصادفة وحدها هي السبب في ان تكون كثرتهم من ذلك البيت الذي اشتهر بامتلاء قلوب آله بالحقد على هاشم وسلالته أم ترى كان ينتقي عامدا غرماءه من بينهم ثم يعمل في رقابهم نصاله !. كان عجيبا حقا غاية العجب أن يتفق له في بدر قتل حنظلة بن ابي سفيان والعاص بن سعيد بن العاص بن امية ، والوليــد بن عتبة صهرهم اخا هند زوج ابي سفيان . ثم عقبة بن ابي معيط والد الوليد اخي عثمان لأمه والذي بفرع عبد شمس تربى ... ثم بعدهم غيرهم من احلافهم ومن لاذ بهم بنسب أو بسبب .

وكانما كان هذا الفتى منجل الموت المسنون الذي ارهفه على رقاب اولاء ولعلهم ندموا لانهم ليلة الهجرة خلوا بين علي وبين الحباة ولم يقتلوه في فراش الرسول ولكنه ندم ليس بنافعهم اليوم فتيلا ولا بدافع عنهم ضره في كلا جاهليتهم واسلامهم لانهم رضعوا من ثدى أمهاتهم مقته ومقت آله صــغارا فاصطفوا يناجــزونه كبارا ، ولم يتحروا — اذا فعلوا — ان يكونوا له المناجزين الاكفاء .

٦

انجلى النقع ، وانجابت الغبرة ، وعادت قريش وفي عيونها دموع وفي قلوبها صدوع . وعاد علي في صحبة النبي يتوثب فرحا ، لا يبالي ان انضمت جوانح بني امية على ضغن جديد يجتمع الى ذخيرة أضغانها على بني هاشم . ما كان الفتى ليبالي شيئا اليوم ما دامت بدر قد أفاءت عليه من خيرها ما يبلغه الوطر من اماني حياته ... لقد طالما سخر من النشب ولم يعرف قيمة للمال الا أن يرد به جوع جوعان او عرى عريان . لم يتخذ لنفسه منه ذخرا ، ولم يجمعه ، ولم يبق مطلقا على درهم جاءه في صباح الى يوم تال . بل كانت كفه كالمصفاة أسبق الى البذل والعطاء منها الى الحفظ والابقاء . بلغت ثروته ذات يوم اربعة دراهم فكره من أجلها نفسه ، وسعى سعيه بالليل والنهار حتى انفقها على ذوى حاجات فجاءه جزاء هذا الاحسان من عند الله آية كريمة نزلت فيه وخلدت صنيعه وسماحة كف هي أحوج الى السماحة من أن تكون مسماحة :

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار . سرا وعلانية ... »

كان يحرم دائما نفسه من كسب يده التى ورثت الجود عن أجواد ... عمل مذ دخل المدينة في زراعة يهود حتى يقي نفسه « ضيافة » الأنصار ، فكان يسقي هذه الزراعة حتى تمجل يداه ، حتى اذا انتهى النهار ونقدوه أجره دفعه او دفع أكثره الى سائل أو محروم ثم لا يأبه ان كان يبيت هو على الطوى . لم يستهوه مطلقا بهرج الصبا ولا زهو الشباب بل عاش فيهما كعابد في محراب . وكان قوته دائما الخبز الجاف، واحيانا البر ، وغطاؤه الوبر وثوبه مرقعة قصيرة من ليف واهاب ، لأن غايته من دنياه ركوب نفسه بالاذلال والحرمان لتخلص له نقية بلا شائبة .

ولكنه اليوم ، وقد عاد من بدر ، أحس بالسعادة اذ أفاء الله عليه بعض مغنم . ولم تكن سعادته بالاقتناء لذات الاقتناء ، بل لأنه

الوسيلة الى بلوغ مقصده . انه يستطيع الآن ، وقد ملك شيئا ذا بال ، أن يتقدم الى رسول الله متحدثا اليه في شأن كتمه عنه طويلا في ذات نفسه . كم طالما هفت روحه وقد بلغ مبالغ الرجال ، الى ان تكون له أسرة ويسكن الى زوج . وتلك الأعوام ، التى انقضت مذ تفتحت عيناه في هذه الحياة ووعى ما يراه ، علمته الا يستوعب ذهنه أو تتطلع عينه لغير صورة واحدة من بنات حواء ... صورة واحدة منهن، حملها وليدة ، ولاعبها طفلة ، واكن لها صبية بعض ما كان يكن لابيها العظيم من خالص الحب والولاء .

انه يستطيع الآن أن يتحدث الى رسول الله بما ملأ عليه آفاق التفكير ، ولكنه ما لبث وقد أشرف على باب محمد ، أن أخذته الرهبة ولعب بخطوه التردد ... كيف نسى أن أبا بكر — وله في قلب النبى ما له من مكانة — جاء رسول الله يطلب منه فاطمة فلم يفز منه بغير ان أجاب : « انتظر بها القضاء ! » وكيف نسى أن عمر بن الخطاب تقدم بعد الصديق الى الرسول يطلب فاطمة لنفسه عساه ان يفوز بخير مما أصابه صاحبه فلم يسمع هو أيضا الا نفس الجواب : «انتظر بها القضاء » ... ؟ أفابى على محمد لين طبعه وترفقه بصاحبيه الا أن يجيبهما بمثل كلماته القصار التى توحى بصريح الرد والاباء وان غلف اللفظ الناعم الجواب الحاسم ؟... وما عسى سوف يلقى على من ترفق النبى ؟ ... ان ثقة الفتى بنفسه لم تخنه أبدا . ولم تقعد به ، حتى في أهول المواقف وأكثرها شدة لم تخنه . وانه ليعلم قربه من قلب محمد قربا يتقدم به سواه من الأقران والرفاق . ولكنه في هذه اللحظة تردد ونكص على عقبيه بعد أن كاد يمضى قدما ، وولى ظهره للباب قبل أن يجتازه وفي خاطره أن الفرصة لعلها غير مواتية الآن ، وان جواب النبى لصاحبيه قد يتكرر ... ثم سار ، حائر الفكر ، موزع القلب بين احجام واقدام ، يذرع الأرض في خطو متمهل وئيد .

ولقيه بعد هنيهة صاحب انكر منه ما بدا على وجهه من سهوم بعد تطلق وبشر ، فأقبل عليه متسائلا يقول :

« ما بدا لك يا بن أبى طالب ؟ »

فتريث قليلا قبل ان يجيب :

« خاطر بشر ، وخاطر نفر ! »

فضحك صاحبه وقال يداعبه :

« هلا تطلقت ، بالله فاني اراك قد أسهم لك ... ؟ »

« فيئى هذه الدرع » .

« ولا تراها كفاء ؟ » .

« حتى تثبن غزوة » .

« او خطبة ! » .

ورمقه صاحبه يستنبيء مدى اثر الكلمة فيه فقد كان يعلم بأى الامور هو مشغول . وصمت على يتطلع كالمتوجس ولا يجيب ، اما الآخر فقد عاود ما كان فيه من حديث :

« فهلم يا بن أبى طالب فانها كفاء ... وانطلق » .

« لاين ويحك ! » .

« الى رسول الله تذكر عنده الزهراء ! » .

فغض الطرف ، وهمس :

« ايها عنك ! » .

« فهلم ! »

« بعد ابى بكر . وبعد عمر ؟ » .

« نعم . فان لك عليهما ــ والله ــ لسابقة » .

وتريث ليسمع منه فلما وجده ممعنا في صمته ، يبدو تردده على محياه ، عاد يستحثه ويقول :

« لانت أول الناس اسلاما ، واقربهم من رسول الله رحما : ولد عم ، وابن ضم ، واخو دم . فاى الرجلين في هذا يعدل مكانك ؟ » .

* * *

لم يكن هذا الراى على ذهن على بجديد . انه عالم به ، مؤمن اشد الايمان بمعناه ، واثق تمام الوثوق من المنزل الذى يحتله الآن بقلب راعيه .

بل لقد استطاع ان يعرف طوال عشرته لمحمد انه كان دائما منه خيرا مما قاله الناس عنه . ولكنه في هذه اللحظة بدا له راى صاحبه بكرا لم تنفرج عنه قبل اليوم شفتان ، وبدا قبسا من نور بدد غياهب التردد . فما لبث ان انطلق لتوه ، يسرع الخطا ، منصبا كالسيل ،

متقلعا في مشيته على نحو ما اعتاد ان يفعل دائما ، متشبها بمشية نبيــه .

ولم يطل به المقام في حضرة الرسول الا بقدر أن تمالك جاشــه ووسعه ان يمسك اضطراب نفسه .

قال له محمد باسما ، يستفسر :

« ما حاجة ابن أبى طالب ؟ » .

فغالب حياءه برهة ، ثم أجاب :

« ذكرت فاطمة يا رسول الله » .

« مرحبا واهلا » .

* * *

بهذا اليسر تمت خطبة على . وبمثله وبأيسر منه تم زواجه الذى كان اغلى امنيات الحياة عنده ، بعد أن لقى لدى فاطمة قبولا . وحمل الشاب درعه التى افاءتها عليه بدر فباعها بســوق المدينة بدراهم دفعها الى رسول الله مهر ابنته . وأرسل النبى بلالا فاشترى طيبا بجانب من الصداق ، وارسل أم سلمة فاشترت بعض حوائج العروس.

واجتمع في دار النبى ، ليلة الزفاف ، أهله ، والكثرة من صحبه المهاجرين والأنصار ، يحتفلون ، فقام رسول الله فيهم يخطبهم بما اقتضاه المقام .

وقال في ختام حديثه :

« ان الله تعالى امرنى ان ازوج فاطمة من على . واشهدكم انى زوجت فاطمة من على ، على أربعمائة مثقال فضة ، ان رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ... »

وانتهى بهذه الكلمات امر العقد ، وشهد الحضور واقبلوا على العروس مهنئين ، وكان حلواء الحفل بعض التمر اتى به النبى في وعاء فقدمه اليهم وهو يقول :

« تخاطفوا » .

فتخاطفوا . وانفض السامر .

وبقى ان يعرس على بأهله فلم يجد الا منزلا مستاخرا بالمدينة عن منزل رسول الله ، فاتخذه دارا لأسرته الجــديدة .وكانت فرحة

العمر تملأ قلبه تلك الليلة وهو جالس ينتظر بين هنيهة واخرى ان يحضر النبى فيبارك له ولزوجه . وكانت فاطمة يطويها الاستحياء وأم ايمن الى جوارها تخفف بحديثها من بعض هيبتها حين دقت الباب يد رفيقة .

وانفلتت ام ايمن من مجلسها تفتح ، ثم ما لبثت أن سمعها الزوجان تهتف بصوت فياض بالبشر :

« رسول الله ! » .

قال لها النبى يسألها :

« اثم اخى ؟ »

وملكت الدهشة نفس المرأة :

« بأبى انت وامى يا رسول الله !... فمن اخوك ؟ »

« على بن ابى طالب »

« وكيف يكون أخاك وقد زوجته ابنتك ؟ » .

« هو ذلك يا ام ايمن » .

ودخل فنهض له الزوجان اجلالا وترحيبا . ودعا هو بماء في اناء فتوضأ فيه ، ثم نادى عليا فجلس الشاب متهيبا بين يديه . ونادى فاطمة فأقبلت بغير خمار تتعثر في ثوبها من الحياء . وراح رسول الله يأخذ من الماء فينضح به على الفتى آونة وعلى الفتاة اخرى وهو لا ينى يرفع صوته بالدعاء الى الله :

« اللهم بارك فيهما .. وبارك عليهما .. وبارك لهما في نسلهما .. » .

ولما غادر المكان وهم أن يجتاز الباب الى الخارج ، كان حنان الاب وعطفه وشدة تعلقه بفتاته المحبوبة ، وحرصه على اسعادها غاية الحرص ، تتجمع كلها في رقة نظراته وهو يلتفت اليها اذ يودعها ويقول :

« والله ما الوت أن زوجتك خير أهلى ... »

ثم ترك بينهما الوفاق والوفاء وبركة الدعاء ...

٧

لم يطل مقام فاطمة بهذا الزواج بعيدا عن ابيها ، لانه لم يطق صبرا على ان يفصلها عن بيته اكثر من جدار ... فلم يكن يمضى قليل حتى سار به حبه اليها ...

قال لها :

« انى أريد أن احولك الى ... »

فتفكرت هى هنيهة عسى ان تذكر حلا يرضى رغبة هـذا القلب الرءوف الرحيم ، ويرضى شغف قلبها هى الأخرى بأن تكون دائما الى جواره الكريم . ان هناك اذن بيت حارثة لا يكاد يفصله عن دار رسول الله شيء ، فلو انه حدثه ...

وقالت له وهى تكاد تتهيب الكلام :

« فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى ... »

ذلك انها كانت تعلم ان هذا على أبيها شـديد لفرط ما افسح حارثة في بيوته لرسول الله . ولقد جاءها رد النبى مصـداق ظنها حين قال :

« قد تحول حارثة عنا حتى قد استحييت منه !... »

ومع ذلك فقد شاء الله ان يحقق لنبيه هذه الرغبة الصغيرة . فما اصبح صباح حتى تحـول حارثة عن الدار المرموقة وجاء يقول لرسول الله :

« يا رسول الله ، انه بلغنى انك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازلى وهى اسقب بيوت بنى النجار بك ، وانما انا ومالى لله ولرسوله ... والله يا رسول الله المال الذى تاخذ منى احب الىّ من الذى تدع » .

وكذلك تحولت فاطمة الى ما شاء لها قلب ابيها وما شاء لها قلبها من قرب الدار ، واقامت وزوجها في بيتهما الجديد بخير جوار .

ولم تكن حجرتها تلك تتصل بسبب من اسباب الشبه بما نعرف عن بيوت اليوم ، وانما كانت تلائم ما اشتهر عن فقر على وفقر زوجه . لا تكاد ان تقع فيها العين الا على جلد كبش هو فراش الزوجين بالليل ، ومذود العلف لبعيرهما في النهار .

ولكنها ــ مع ذلك ــ كانت في عينيهما القصر المنيف الذاهب الصعد

في اجواز الفضـــاء ... فالبيوت دائما بساكنيها لا بصـــنوف الأثاث والرياش فيها . فقد اجتمع لفاطمة في على كل ما ضم افق تفكيرها عن الرجل الأمثل ، وكان أمثل الرجال لديها محمـــد ، وكان على اقرب الناس اجمعين شبها به في الأقوال والأفعال .

وكانت هى من قبل دائمة الكآبة ، كثيرة الهموم ، بالغة الصمت مذ ماتت امهـــا وتركتها تضطلع وحدها — في بكور صـــباها — بشئون ابيها ، وتقوم عنده مقام الزوج رعاية ، ومقام الأم عطفا ، ومقام الابنة تفانيا ومحبة . ولقد صحبته خلال اشد ايام الدعوة واقساها محنة عليه ، وشهدت عن كثب ايذاء قريش له ، وعيشها به فكان قلبها — الى جانب سيله حسرات على امها الفقيدة — يسيل حنانا وحزنا من اجل هذا الوالد المضطهد الكريم ، وكانت عينها لا يكاد ان يرقأ دمعها وهى تراه يقف من اعدائه موقف الداعية المسالم فيقفون هم منه مواقف العدوان الصارخ الظالم . ولا تملك هى أن تدفع عنه الشدة أو البلاء الا ان تغسل له ثوبا رماه سفهاؤهم بالأدران ، أو تنفض عن وجهه ترابا حثوه به ، أو تمسح جرحا سالت دماؤه منه ... ثم هاهى اليوم قد ضمها بيت على ، رجل ساير أيام الدعوة جميعا ، وكان لهذا الوالد الحبيب خير دافع عنه بسيفه وبنفسه ، وخير ناهل منه ما جاء به قومه من هدى ومعرفة ، وخير مترسم خطاه في كل صغيرة وكبيرة من افعال حياته لأنه شب له ربيبا آواه ظله ... حتى بعد الزواج) لم يأل على جهدا ليكون الصورة الصادقة لمحمد . كان هذا — بلا ريب — بدافع من الحب لفاطمة والاشفاق عليها والرحمة لحزنها الذى أصبح من كيانها جزءا ثابتا فوق رغبته الصادقة في احتذاء آثار النبى . فقد سرى أثر الحزن من نفسها الى جسمها حتى أضحت هشة واهية الاحتمال حتى لم يجد مندوحة عن بذل كل ما في طاقته ليخفف عنها ما هو احرى بالمرأة أن تقوم به من شئون منزلها . لم يدعها مطلقا تؤدى عنه عملا يستطيعه ، بل كان دائما يسبق يدها اليه . ولم تكن لهما في بيتهما خادم تعمل عنهمـــا ، فكان هو يقوم بأمور نفســـه . فيخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويهيىء من شأنه كما يشاء . فاذا اقبلت هى على عملها سارع يساعدها فيحلب عنها ، أو ينزع الماء من البئر ويحمله لها ، أو يشاركها فيما تقوم به من مهن البيت : وله في رسول الله الاسوة الحسنة

اذ عرفه دائمـــا في مهنة اهله حين وجــوده في بيته حتى يخــرج الى الصلاة . . .

على هذه الشاكلة مضت الحياة بفاطمة رتيبة وئيدة في بيت على ، لا تكاد تحس انها فارقت دار رسول الله ما دامت قد توفر لها في بيتها الجديد كل ما كان لها من قبل ، وما دام رسول الله لم يتخلف عن زيارتها خلال ساعات ليل أو أثناء نهار . بل عساها أحست أن بعض اعبائها النفسية قد انجاب عنها بهذه البشاشة التى تطلق بها محيا زوجها ابدا حتى أعداها بشره ، وبهذا الحب الدافق الذى غمرها به حتى كادت تنسى في غماره ما كان من حزنها القديم . وأخذت الراحة تنشر لواءها عليها رويدا رويدا ، والسعادة تظل دارها الصغيرة فتحيلها جنة مليئة بالهناءة أو تكاد .

ولكن سحابة قاتمة ما لبثت أن حلقت فوق الدار وكدرت الصفو الى حين . فلقد تهامس الناس فيما بينهم عن خطبة جديدة وعن زواج جديد يهم ان يقبل ابن أبى طالب عليه ، ولئن دل هذا الحادث على شيء فدلالته واضحة على مدى سعى الناس الى على يخطبون وده ويلتمسون فيه لبناتهم زوجا حتى ليمشون هم اليه ؛ والعرف يقضى بأن يمشى اليهم الزوج . ودل أيضا دلالته التى لا تقبل الشك على اعظام رسول الله لأمر زهرائه وارتفاعه بها عن مستوى كافة النساء في وقت كان تعدد الزوجات سنة جارية بين الاعراب . . .

وقف النبى على منبره ، وقد تكاثرت في الناس الشائعات ، فقال وهو لا يحاول ان يدفع عنه غضبه :

« ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى في ان ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب . فلا آذن ، ثم لا آذن . . . الا ان يريد على بن أبى طالب ان يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فانها بضعة منى ، يريبنى ما رابها . ويؤذينى ما آذاها . . . »

وما كان على بالذى يعدل بفاطمة غيرها وان كانت سليلة الأكاسرة او القياصرة في النساء . . . وعادت السعادة ثانية ازهى لونا الى الدار .

***

ولكن الأمر الذى اخذ عليه مسالك تفكيره منذ الزواج ، وظل يقض عليه مضجعه دائما هو ذلك النحول والضعف والتهافت الذى كانت تقاسيه فاطمة من الصغر ويدعها لا تقوى معه على احتمال . ولقد بلغ بعلى القلق عليها غايتــه يوم جاءته تخبره على استحياء ان في بطنهــا جنينا اخذت تسير في اوصاله الحياة . انه ليلمح على محياها اطياف الفرحة التى تخالج الأم ولكنه يشعر فى قرارته بصدى فرحتها قلقا على مصيرها . ان الأمومة لتلهم السعادة كل فتاة ولتحيل حياتها كلها املا معسولا في انتظار الوليد ، وان الأبوة لمنتهى رجاء العربى . ولكن هذا الشاب كان يخشى غاية الخشية أن تنوء زوجه بالحمل ولا يقوى جسدها الواهن على احتمال ثقله وبرحاء الوضع . فلما تصرمت الأيام وانتهت المدة ، وجاءت الآونة المرتقبة ثم وضعت فاطمة حملها في سلام لم تكن فرحة على الا بنجاة زوجه لا بمجىء الغلام ...

وضعت فاطمة وليدها الاول . واولئك الذين شــاهدوا طلعته توسموا فيه محيا جده الكريم ، لأن صورة النبى اسبق الصــور الى اخيلتهم من سواها . وكان الوليد هكذا حقا ، وان كان أيضا يكاد ان يطابق امه شبها لأنها كانت من أبيها صورة ناطقة القسمات والملامح في اجلى بيان .

واقبل على يحتمل الطفل فرحا اذ صار به لرسول الله ذرية منه يتيه بفخر نسبها اليه على كافة الناس . وراح كغيره من الآباء يجيل بذهنه أجمل الأسماء لينتقى خيرها للوليد ، ولكن ما فيه من طبيعة الكفاح غلب عليه والناس دائما الى طبائعهم اميل ... عجم على جعبة الأسماء فلم يدع الغلام باسمه هو ولا باسم ابيه ، ولا باسم جده لأبيه وان كان خير الأسماء ، وانما دعاه بما هو اميل اليه في هذه الدنيا دون كافة الاسماء .. اختار ان يكون له « حرب » علما عليه لأن الحرب كانت صناعة ابيه بالسيف واللسان ، كما شاء القدر وشاءت له قبل سنوح فرصها ميول الوجدان ...

ولكن هذه التسمية كانت رغبة لم يتح لها مطلقا ان تتحقق ، فقد اقبل النبى مسرعا حين بلغه النبأ السار ليمتع ناظريه بطلعة سبطه ، وليهبه من لدنه البركة والدعوات الصالحات .

وقال ولما يستقر به المقام :

« اروني ابني ... »

فدفعوه اليه يحتمله بين يديه ، ويقرب فمه من اذنه الصغيرة يهمس فيها اذان الاسلام ، ثم يلتفت ثانية ويسأل :

« ما سميتموه ؟ »

قال على :

« سميته حربا »

« بل هو حسن »

فكان كما قال رسول الله .

***

ثم عاودت الخشية ثانية عليا وهو ينظر فيرى زوجه مقبلة على وضع جديد . انها هذه المرة أهش قواما واضعف عودا بعد ما بذلت من نفسها وقوتها في سبيل تربية صغيرها والقيام على شأنه . ولقد بلغ من وهنها أن الجنين في بطنها لم يتم شهوره وخرج الى النور بعد ستة شهور .

وكما ود على في البدء فقد ود لو كان اسم ثانى وليديه « حربا » لولا ان اختار له رسول الله اسم « حسين » ..

***

واصبحت الحجرة الصغيرة اجل عند ساكنيها من قصر منيف رفيع الذرا والعماد بعد قدوم هذا الرفيق الصغير . واصبح على أكثر بشاشة واضحك سنا . وعرفت البسمات أخيرا طريقها الى ثغر فاطمة فلم تعد تضل عنه بعد أن وهبها الله زينة الحياة .

ولكن الله ، بهذين الصغيرين ، لم يهب الزوجين وحدهما العقب الصالح ، بل وهب الدنيا كلها نسمة عاطرة ونفمة طيبة من ريح النبوة الزكية . وقدم في شخصيهما للأجيال المقبلة ، حتى زوال الأرض وانفطار السماء ، ذرية رسول الله . الذى اقتضت حكمة ربه الا تكون له من صلبه سلالة ، فشرف عليا بأن جعل من صلبه هو سلالة النبى الكريم ، فاضاف بهذا الشرف الى ابن أبى طالب مجدا جديدا في سلسلة امجاده ومفاخره التى اختص بها وحده دون الناس اجمعين : من ناصرين ومن شانئين ...

٨

في « احد » قاد ابو سفيان الرجال واحقاد الرجال ، وقادت زوجه هند النساء واحقاد النساء !.

كان الرجل ، طوال ما فات بعد «بدر» من أيام تجاوز العام ، لايجد له شاغلا في الحياة بمكة الا التجهز بالمال والعتاد ليوم القصاص هذا ، فرصد تجارة عظيمة ـ اشترك فيها أهل بلدته أجمعين ـ على النيل من محمد بالحرب والقتال ليردوا عليه ما ناله منهم . ثم اخذ نفسه بانماء احقاد القلوب واضغان النفوس ما وسعه الأمر حتى لقد جعلها تكتم في قرارتها التفجع والحزن على قتلاها ولا تفضى به ، فحرم على الرجال الحداد ، وعلى النساء والأطفال البكاء الى يوم يحين لهم فيه الثأر من واتريهم ، يحق فيه الندب والبكاء ، وتطيب فيه الفرحة بالقصاص من الأعداء ..

واقبل الرجل ، وقد اصطفت حشود قريش في الميدان ، على حملة اللواء من بني عبد الدار ، يثير حميتهم فيقول :

« يا بني عبد الدار انكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فاصابنا ما قد رأيتم ، وانما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، اذا زالت زالوا ... »

فساله طلحة بن ابي طلحة :

« وما ترى يا ابا حنظلة ؟ »

«أرى اما ان تكفونا لواءنا،واما ان تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه».

فثارت لهذه نخوة طلحة ، وثارت معه نخوة آله من بني عبد الدار فاستمسكوا باللواء وهم يقسمون ليرفعنه عزيزا حتى ينتهى قتالهم بالنصر .

ولكنها كانت نخوة كلفتهم غاليا ، واقتضتهم تسعة رءوس من اكابرهم ضريبة للحرب دفعوها ولما يبرحوا اماكنهم من الميدان ، وكان على وحده مقتضيهم راسين !..

... برز طلحة من بين صفوف قومه ، مدلا بالبطولة والفروسية يدعو نظائره من رجال المسلمين الى المبارزة فاسرع اليه ابن ابي طالب

مستجيبا لدعوته في غير ما صلف ولا كبرياء ، وما هى الا لمعة السيف في ضوء الشمس حتى لقى ذلك المدل المعتز رجفة الموت الناقع على يد الشاب الحيى المتواضع .

ثم يرز من بعد عثمان بن أبى طلحة يلقف الراية التى تفلتت من بين أصابع اخيه المجندل الصريع . فما هم حتى بطشت به كف القسورة حمزة . ولما آن لثالث الاخوة من بنى عبد الدار وقت حينه وحان اجله ، رماه قدره هو الآخر فريسة سهلة المنال في يد على فأصماه ولما يكد ، لأن حرص ابن عبد الدار على بقية انفاس الحياة التى كانت تتردد فيه ، جعله يفر بجرحه المميت من وجه مصميه ، متخذا من عورته درعا يكف عليا عنه ويقف به دون الاجهاز عليه ..

***

وأقبلت نسوة قريش وراء الجيش ، يضربن الدفوف وقد قادتهن هند رافعة الصوت بالصياح عساها تثير الحمية في صدور الرجال بما تضفيه عليهم في غنائها من مديح وآيات فخار :

ويها بنى عبد الدار !
ويها .. حماة الأدبار !
ضربا بكل بتار ... !

ولكن الرجال ادبروا وأدبرت معهم النساء !.. وكادت الدائرة أن تدور عليهم اجمعين فتنتهى المعركة بالنصر المبين للمسلمين لولا أن رماة هؤلاء زايلوا اماكنهم التى ارصدهم فيها رسول الله ، وخالفوا امره واندفعوا وراء رجال قريش المدحورين ليصيبوا من الغنم . فانتهز عدوهم منهم هذه الثلمة ؛ وكرت خيله من الخلف على جيش المسلمين تضربهم وتشيع المقتلة فيهم .

وانتكس الأمر على رجال النبى واختلطوا بمناجزيهم أشد اختلاط واكرهه حتى ما يدرى الرجل منهم أكان يقتل اخاه اذ يرمى أم يصيب من عدوه نحره . وتفشت في الرجال روح الهزيمة فغلبتهم رهبة الموقف ، وحاولوا أن يقوا انفسهم مصارعها فنكصوا ، وارتدوا قليلا قليلا — امام ضغط قريش — على اعقابهم مولين ، هم الذين لم يعرفوا ، قبل يومهم هذا . كيف يكون النكوص ويكون الفرار .. وحادوا

عن مواقفهم واحدا اثر واحد . وتكشفوا عن نبيهم وهم لا يشعرون وتركوه هدفا لنبال الكفار .. ثم اخذتهم رجفة الرعب فأحالتهم احجارا لا تعي حين سرى الى صفوفهم من بين حشود مناوئيهم لغط يفشو كأنه النار ان محمدا قتل !.. قتل محمد ؟.. ما لهم بعد هذا موقف ولا ثبات . وليولين من لم يكن بعد قد ولى ، وليضعن سلاحه من كان قائما حتى اللحظة يضرب به الى يمين وشمال ، فان رسول الله عنوان الاسلام ، العلم الذى وقفوا من اجله يبذلون أرواحهم رخيصة قد خر صريعا — هنا أو هناك — في الميدان ..

***

ما كان اشد فرحة ابنة عتبة وزهوها ذلك النهار ! اخذت تقطع ساحة المعركة في مجيء وذهاب لتمتع ناظريها ، كاللبؤة الضارية ، برؤية الأشلاء والدماء . انها قد شفت قلبها المصدوع وبصرها المقروح واسبلت مصارع أولئك الواترين الراقدين في جوار احد على نفسها راحة ما بعدها راحة .. كلهم الآن فداء ابيها وأخيها وابنها ، وغيرهم من الآل الذين جندلوا على ثرى بدر ، ثم لكم أضفى على قلبها سعادة لم تستشعر قبل يومها هذا مثلها ذلك اليقين الوطيد بأن أصل بلائها قد زال عن هذا الوجود بزوال محمد وذهابه عن دنياها الى غيابة الموت ..

ولكن عينيها وقعتا في جانب الميدان على منظر ارسل في قلبها ثانية نار الحقد التي كادت تخبو . تفور وتمور .. ها هنا عصبة من رجال قومها الأمجاد يكافحون رجلا فردا كأنه الليث بين الخراف !.. فارعا ، مهيبا في لحظات كربته كما علمته دائما مهيبا ابان لحظات تفوقه وعزته ، لا تكاد العين ان ترى ذؤابة سيفه وهو يسرع في كفه الى الرقاب كالبرق . ولا يكاد أن يخطئه البصر او يأخذه بغيره وهو الصارم الغضبة قد اجتمعت عروقه في جبهته كالكرة ورمت عيناه بنظراتهما كلساني نار . وهو البازر بين الآلاف من الرجال يحسن سمته وأناقة ثوبه وان اصابت منه وعثاء الحرب .. وهو المعلم دائما

بريشات النعام في صدره أو على قلنسوته حتى ليعرف من لم يره انه حمزة بن عبد المطلب لأنه لا بد قد سمع ذات يوم عنه ..

ها هنا رجل حي من بيت محمد !.. رجـل دونه بقية الرجال وكافة الأبطال ودون حقد هند عليه أحقاد مثيلاتها من النساء على غيره من اصحاب الرسول وصفوة ناصريه . فلتكفين اذن ناسها بأس سيفه : ولترويين غليلها من دمه كما روى ثرى بدر بدماء والدها عتبة . ولتقتصن فيه لأخيها الوليد وابنها حنظلة اللذين قتلهما ابن ابى طالب . ولئن ذهب على ـ في حسبانها ـ كما ذهبت كثرة المسلمين الى التراب فقمين بعمه أن يؤدى عنه الثمن لثكلها المرير وفجيعتها التى لم تنطو على مثلها القلوب والصدور ..

وارسلت بصرها عجلى ، على ما حولها وبالود لو استطاعت أن تنساب نحوه كالافعى فتنشب فيه الناب . وهمت أن يدفعها الحقد فيلقيها عليه ثم تترك لأضغانها بعد هذا أن تنال منه حسبما يلهمها الموقف : ولم تكن تحمل في صدرها قلب انثى آدمية بل قلبا أقل ضراوة منه قلوب الوحوش الكواسر ، فانطلقت تعدو صوب العصبة التى التفت بحمزة وتساقط حوله أفرادها كالذباب . ولكنها ما لبثت ان توقفت اذ شلتها هيبة الرجل . وأدارت أمرها في رأسها مترددة. محاولة أن توازن بين احتمالات الموقف وبين خاطر سطع في ذهنها حين وقعت عيناها على وجه أسود علا جسد مارد !..

وفركت المرأة كفيها فرحا . انها نائلة ثارها بلا ريب ثم عائدة الى دارها مثلجة الصدر . هذا وحشي العبد يلوح عن كثب وهى تعلم انه مأجور لقتل محمد او لقتل على او لقتل حمزة . فما استطاع وصولا الى اولهم ودونه الصفوف تلوها الصفوف من أصحاب مجاهدين مقتدين يدفعون عنه . وما استطاع الى الثانى وصولا ويقظته الفذة لا تترك لوحشى او لسواه مجالا يصيبه فيه من بعيد او من قريب . ولكن الأول مضى ونفضت منه الحياة كفيها .. ومضى الثاني في اثره ، ان لم يكن قد سبقه الى الموت اذ كان دائما الفادى له المكافح عنه لا تصل الى محمد ذؤابة سيف الا ان اخترقت ـ في الطريق اليه ـ قلب على .. ثم بقى الثالث .. بقى حمزة حتى الآن امامها يجول ويصول يقد الرجال ويمزق الأوصال .. وان هنـدا

لترى الآن بعينيها لم وقف الأسود المأجور في مكانه لا يريم . ملكت قلبه رهبة الرجل حتى تركته قطعة صماء من الأرض التى وقف عليها وهو يشهد بعينيه كيف تكون مقاتل الرجال على يد هذا البطل الذى سن له وحشى حربته ، وسممها ثم وقف بعيدا كأنه نسى فيم جاء .

واسرعت اليه المرأة تجذبه من ثوبه وتصيح فيه :

« ويها ابا دسمة ! » .

فانتفض العبد كأنما ردت اليــه الحياة . وتطلع نحوها ببصره الحديد . صامتا ، مفغور الفاه وعادت ثانية تهتف به وتستحثه :

« انك تقذف برمحك قذف الحبشة ولا تخطىء .. ارم فداك امى ! » .

فاعتدل في وقفته ، وحانت له فرصة انكشف فيها اعداء حمزة عنه فهز الرمح ، وصوب ثم القى ..

واعقبت الرمية الصائبة صيحة الشماتة انطلقت من شفتى هند. ووقفت عن كثب ترقب كيف تبدو علائم الموت على الوجه الوســيم الأصبح . وكيف تعانى العينان سكرات النزع ! وكيف تنزف الحياة في قطرات دماء راح يلفظها الجرح . وبوجهها في كل هذه اللحظات صفحة كريهة تداولتها الوان الحقد والضغينة والبغضاء ..

واســتدار حمزة ينظر من اين اتته الطعنة الغادرة وفي ملامحه تنطق آلامه بألف لسان . وتحامل على قدميه يكرههما على المسير صوب قاتله بعد ان تبينه : وارتعدت اوصال العبد فزلزلت فرائصه وهو يراه يهم بقطع الطريق اليه ولم يستطع فرارا بل ثبت برغمه في مكانه كأن قــد بنيت قــدماه في الأرض . ولــكن حمزة لم يسر الا خطوات — عرف بها قلب وحشى كيف يكون سلطان الرعب — ثم سقط البطل العظيم مجندلا على الثرى ..

هنا اســفرت هند عن قلب الوحش الذى ضمته اضلاع المراة فاتت بما لم يحدثنا التاريخ مطلقا بمثله قساوة اشباعا لنهم الأحقاد . استلت سكينها وتقدمت الى الجســد الطريح تمثل به اشنع تمثيل فصلمت اذنيه . وجدعت انفه ، وغورت عينيه ، ثم تركت النصل يعبث كما شاء له جنون الغل في قسمات الوجه حفرا وتخديدا وقطعا ، وهى لا تستطيع أن تكف يدها ما لم تحس بقلبها الصليب قد نقع

صداه .. وهل كان لجلمود صخر ان يعرف ريا ؟ ان الوحش الرابض في داخلها لم يزل منهوما ، ليس تشبعه الرؤية وحدها ولا ترويه .. فلتبقرن اذن بطن عدوها الراقد أمامها في سلام ، ولتكشفن فيها عن بضعة تنهشها بأنياب أحد أنواع الحيوان وأضراه نزعة ، ولتأخذن الكبد التى ما زالت فيها بقية من دفء الحياة فتلوكها في فمها وتقضم منها ما وسعها ان استطاعت أو أن أساغت .. ثم تلفظها حانقة لأنها مريرة المذاق . وتمضي — بفعلتها هذه — على مدى الأيام مثلا فذا لشر ما سكن قلوب الناس من احقاد وأضغان ، مثل لا يعدله شر في الدنيا ولا في بقية الأكوان !..

***

مثل لا يعدله شر الا ما انطوى عليه قلب زوجها .. الرجل الذى سوده قومه ، وما حسبتهم كانوا مسوديه الا نفضل او مسكة من فضل بعد حسبه العريض الذى ذهب به في اصول العرب الى ابعد المذاهب ، ولكن أبا سفيان كان رجلا قميء الجسم قميء الوجدان ! أعماه حقده عن الفضل ، وعن العقل ، وعن حق القربى التى ربطته بحمزة حتى غلف الحقد قلبه بغشاوة سميكة خرجت به عن نطاق قلوب الانسان تماما كما حدث لهند . بل لعل لزوجه بعض العذر لو انا قابلنا بينه وبينها فى كفتى ميزان ؛ كانت أنثى وللاناث لدى ثورة النزعات اندفاع يحيد بهن عن الجادة وان لم تصل بغيرها الجيدة الى مثل هذه المغالاة . وكانت موتورة في ابيها ، وفي اخيها ، وفي ولدها ثم بعدهم وقبلهم في الكثيرين من عشيرتها وادنى الاقربين اليها من الأهل والأحباب . أما هو فلم يكن كذلك . ولئن فقد في بدر ولده حنظلة فان حمزة لم يكن قاتله . ومع ذلك فقد مال مع ضغنه القديم، الذى ورثه عن آبائه ، على بنى هاشم ومن انحدر منهم ، يستوى أمامه محمد وحمزة وعلى ومن عساه سينشأ لهم من ابناء لو امتد به عمره وامهله الزمان لسقاهم ايضا من سموم كراهيته ما يستطيع .

وهكذا لم يملك أبو سفيان نفسه ، ولم يمسك بزمام بغضائه حين مر بشرى أحد فوقع بصره على حمزة بن عبد المطلب لقى ، مشوها ، مبقور البطن عمل في ملامحه وفي أحشائه النصل والناب .. بل استبدت به أحقاده أيما استبداد وملأت بسمة كريهة وجهه الدميم ، وهزت الفرحة جسمه القميء الضئيل وهو يسرع الى حمزة الصريع يهتف به بصوت تفيض الشماتة في نبراته :

« يا أبا عمارة ... دار الدهـر ، وحال الأمر ، واشتفت منكم نفسي ! » ثم لا يخجل أن يتناول بالقصاص ميتا لا يستطيع عن نفسه دفعا ، فيهز رمحه في يده هنيهة مدلا مستعزا ، ويتقدم فيضرب بها في شدق الجثة وهو يردد كمن أصابه مس جنون :

« ذق عقق !... ذق عقق ... »

وكأنما الله شاء أن يخزيه في موقفه ذاك ، وان يكبته فيطلع عليه في تلك اللحظة أحد احلافه من رجال مكة ... ويقلب الرجل بصره في سيد قريش غير مصدق ان يبدر منه ما يأتيه ، ويكاد ان يذهله المنظر أول الأمر حتى اذا استوثق مد كفه الى منكب أبى سـفيان يهزها ويقول في صوت هامس مبحوح :

« سيد قريش يصنع بابن عمه ما ارى ــ لحما ! » .

« الحليس ! » .

ويكاد ان يسقط من يده رمحه وقد علم ان قد اطلع على خزيه سيد الأحابيش . ولكنه سرعان ما يلجأ الى الاعتذار في موقف ليس يجديه فيه تكفير ولا تعذير ...

يقول متخابثا ، متوسلا لصاحبه :

« اكتمها عني ، فقد كانت زلة » .

ولكنها زلة كانت أحرى به ؟ .. ليست بكبيرة منه . أكثر منها غير غريب عليه ، ولا على آله اتيانه في هذا الباب ، وانما القليل منهم هو موضع العجب ومثار الاستغراب .

* * *

وكأنما ورث الأحفاد ، مع الأحقاد ، صناعة الأجـداد .. لأننا لا نلبث ان نرى بعد هذا الموقف بنصف قرن او اكثر من الزمان . الحفيد « يزيد » يستعيض عن رمح جده بقضيب يضرب به في شدق الحسين الذبيح ويتلهى بنثر ثناياه ، كأنما المثلة كانت لأسرته صناعة ، وكأنما فيها الامعان كان لهم ملهاة اى ملهاة !... اماالحليس فاني أرى ظهوره قد كفانا الصورة الكريهة التى كاد أن يرسمها لنا ابو سفيان فى تلك اللحظة من يوم أحد لو خلي بينه وبين التصوير ... ولعل شيخ بنى أمية لو ترك وحيدا وشأنه اذ ذاك ، لكان انحنى على الأرض فنفض التراب عن الكبد الملقاة ثم رمى بها في فمه لأنيابه عساه يسيغ منها بعض ما لفظت زوجه !...

٩

اشرف ابو سفيان بن حرب من ربوة على ميدان المعركة فى انحائه شراذم متفرقة من المسلمين مسها الضر وعملت فيها الهزيمة ، وراح بأعلى صوته يهتف :

« يا أصحاب محمد !.. يا أصحاب محمد !.. افيكم محمد ؟ »

فلم يجبه على سؤاله مجيب ، كان هول الموقف لم يذهب بتبصرهم في عقبى الأمور فراوا الخير في التزام الصمت .

وفرح الرجل ما شاء له أن يفرح . ومدت له هـذه الفرصة في بساط الشماتة وشفاء غله اذ حسب أن عدوه ليس بينه رجل تطاوعه نفسه المكلومة على تحريك لسانه بالرد على مصير محمد ، ومصير خير صحبه الذين ظل شيخ بنى امية يرفع عقيرته بالسؤال عنهم واحدا بعد واحد . ولم يبق شك عنده في انه قد انتصر وانتصرت معه قريش ، وان عجلة الفلك دارت على مثال دورة عجلة المعركة فى احد ، وان أولئك الذين قد اجلب لهم من مكة بخيله ورجله راحوا لقى على الثرى ها هنا أو هناك .

وضم على جسده القمىء طرفي ثوبه . واحس كأن قد استطال نرعه الى الشمس لأنه ملك النصر وملك الثأر ... ثم دعا داعيه في رجاله ان يتهيأوا للرحيل ...

ولكنه قد جرى شوطا بعيدا غاية البعد وراء خياله لأن محمدا لم يقتل ولم يتخل ربه عنه بل أبقى عليه من أجل الدعوة ، وادخره للقابل من الايام حتى ينشر الدين ويقضي على اعدائه المشركين . ولئن دارت اليوم على جيشه الدائرة فانما هى المحنة يبتلى بها الله صبر عباده ثم يردهم بعـدها قلوبا تقوى على الاحتمال وتثبت لزعازع الأهوال .

***

اجل لم يمت محمد . ولم ينل منه اعداؤه الا اقل القليل وهم الذين لاحقوه بالاسياف والرماح والنبال كانما كانوا لا يحاربون غيره .

ولكن رماحهم وسيوفهم وكل ما حملوا به عليه من سلاح تكسر على صخور الدفاع التي احاطه بها بعض صحبه . وكانت هذه الصخور رءوسا وقلوبا وأجساما وقفت دونه تذود عنه . ولعل سجلات البطولة مذ خلق الله دنيانا حتى اليوم لم تضم صورا ابدع من تلك التي رسمها بدمائهم ابطال احد . ولعل محمدا لم يعش في محنة كانت انكى من تلك الفترات الأخيرة من المعركة وأشد عليه .. قارب الموت كما لم يقاربه من قبل ، وسار تحت ظله وقعد ، ورأى الهول كيف يكون له على الناس سلطان غالب يفتنهم عن الجهاد ، وشهد الاضطراب والرعب يجرفان صفوف أصحابه كأنهما سيل حتى انفرجوا عنه . وأولئك الذين لم يثنهم عنه خوف عدوهم واتقاء بطشه تناهم عنه دفعه وضغطه .. حتى عمر غاب عن عينيه وهو الجليد ذو البأس الشديد .. وحتى أبو بكر أيضا وكان دواما أقرب اليه من أردان ثوبه ...

ولكن حفنة من الرجال ظلت حوله لم تبرح عنه ولم تمل كأنها شدت اليه أو كانت منه بضعة . وهؤلاء هم الذين لم يلههم الهول ولم يثنهم الدفع والجذب عما نذروا أرواحهم له . فلقد بايعوه على الموت من قبل كما بايعه الآخرون ولكنهم كانوا أملك لنفوسهم في ساعة كان خطبها يذهل الناس عن نفوسهم . كان هو المعصم وكانوا هم السوار فاحاطوا به من أمام ووراء ويمين ويسار ... في جانب وقف ابن أبي طالب لا يستطيع ان يلهم سيفه السكون لو أنه اراد ... ينتقل به بين الرقاب والقلوب ويروى نصله بالدم ان كان يرتوى حديد !.. وفي جانب كان سعد بن أبي وقاص يذب بقوسه الذين حاولوا اختراق النطاق الى رسول الله ويرميهم بنباله حتى نفدت . وكان من خانه من أولئك المدافعين سلاحه التمس الحديد والحجارة وكل ما يقع بين يديه ليدفع بعيدا ذئاب قريش . ولقد استطاع واحد من هذه الذئاب أن يلقى حجرا أصاب وجه النبي ، ولكن البقية فرت ، ولم تستطع الثبات لما شاهدته من عزم ومن قوة مراس ، وقنعت بأن تلقى نبالها من بعيد . وراح مؤلفو السوار يدافعون عن رسولهم ما وسعهم ويحولون بين السهام وبين وقوعها فيه .. وان منهم لواحدا رأى الأمان في ان يترس بجسده لمحمد فانحنى عليه كأنه درع وراح يتلقى رميات الاعداء .. الا فطوبى لأبي دجانة الدرع الآدمية لرسول الله ! . طوبى

له ونعمى ! وطوبى لجسده الذى لم تترك نصال قريش منه موضعا لم ترشق فيه نبلا !...

واستطاع رسول الله ، بعد جهد أن ينجو مما كان فيه فسارع ومعه علي وقلة من صحبه الثابتين ، يصعد في احد . وكان الكثيرون ممن فرقهم عنه الصراع قد علموا أنه حى فاقبلوا فرحين يلحقون به وقد ردهم نبأ بقائه حيا الى الحياة !... وكذلك اصبح عن نبل عدوه بمنجاة حين اعتلى الجبل ، ثم انعكست الآية فأصبح العدو اهدافا لنبال المسلمين التى أخذت تنصب عليه من علو فتفرقه بددا ... وكان النبأ أيضا قد سرى الى اسماع أبى سفيان فأذهب عنه ما كان من فرحته وأعاده سيرته الأولى حبيس ضغنه ، ولكنه لم يستطع أن يعيد الحمية ثانية الى صفوف رجاله فيؤلبهم من جديد بعد ان برد حماسهم بنبأ المقتل المكذوب فآثر الاكتفاء من النصر بما أصاب ، ورأى الصواب في أن يغنم السلام بالاياب !

واشرف الشيخ الموتور من ربوة أمام الجبل ، يصيح مستعزا بالثار الذى أتيح له ، وبالنصر المزعوم وهو يهلل لصنمه المعبود :

« يوم بيوم بدر ... اعل هبل ! .. اعل هبل ! »

فجاءته من ناحية محمد تهليلة الايمان ، أعلى جرسا واصفى صوتا ، تشق العنان :

« الله أعلى وأجل — لا سواه ! .. الله اعلى وأجل ! »

***

واخذ ميدان المعركة يخلو رويدا رويدا الا من الجثث والأشلاء التى تناثرت في جنباته ، واكثرها من الشهداء المسلمين ، وكانت نسوة المدينة ما زلن دائبات على ما خلفن من أجله بيوتهن : يملن على الجرحى بالعناية وعلى المنكوبين بالعطف ، وقد سبقتهن فاطمة الزهراء الى هذا الواجب فدارت مسعفة حانية او مضمدة آسية ، وهى لا تكاد أن تثبت بها مواقع الأقدام لفرط نشاطها آونة ولشدة ضعفها وما اصابها من الوهن والكلال آونات ، ولكنها ظلت — مع هذا — تعمل ولا يقعدها جهدها لحظة واحدة عن موالاة بذل العون واسباغ الرعاية .

وغابت قريش عن الاعين . وانطوى في البيداء المترامية آخر رجل

من رجالها مخلفا حلبة الصراع . لقد انتهى الأمر على خير ما طاف بأحلامهاوثأرت من واتريها . فلتعد اذن بزهوها تاركة صريعي نقمتها على الثرى صامتين .

اما محمد فلم يبرح . لم يكن قد استوثق لنفسه وناسه من رحيل قريش اذ كان الحرى بها — وهى بعد موفورة في الرجال والسلاح — أن ترتد مباغتة فتستأصل من نجا من جيش المسلمين ، بهذا قضت قواعد الحرب في كل عصر وجيل وقضت حكمة القادة الذين يحسنون القيادة ، وبهذا جرى خاطر محمد ومسه منه الخوف على أتباعه الناجين ، فدعا اليه على بن ابى طالب وأمره أن يذهب عينا وراء أولئك المرتحلين ليعرف ان كانوا قد اسروا في نفوسهم مكيدة البسوها بمظهر الرحيل .

قال له :

« اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ويريدون . فان كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدون مكة . وان ركبوا الخيل وساقوا الابل فانهم يريدون المدينة ...

وخرج على صدوعا بالأمر ومسارعة الى ركوب خطر بالغ عساه ان يكف أصحابه كيد قريش . واقبلت بقية الجيش تصلح من شأنها وتعيد التنظيم والاعداد ليكونوا لعودة عدوهم على أهبة . ومضى الوقت على الناس بطيئا وئيدا يملؤه القلق الذى يبعثه الانتظار حتى رأوا ابن أبى طالب يبدو لأعينهم فوق حد الأفق .

وتقدم هو بعد قليل الى رسول الله يقول :

« يا رسول الله ، قد جنبوا الخيل » .

فتنادى المسلمون بالارتحال .

***

وفي طريق العودة مضى الناس يلتمسون قتلاهم ، ليس يحزنهم نقدهم من فقدوا قدر حزنهم على ذلك النصر الذى كان في ايديهم ثم فقدوا . ومضى النبى معهم يبحث عمن غاب من صحبه ، فاذا به قد وقع بصره على حمزة عمه : على أسد الله الصريع الطريح كما تركته أسنان هند ابنة عتبة ورمح زوجها الموتور الحقود . فأية غضبة

عصفت بجوانح رسول الله اذ ذاك ؟... واى الآلام ابلغ من الم حز في قلبه هذا المشهد الموجع المروع ؟. لا أدل على هذا من الكلمات التى افترت عنها شفتاه وهو يقول : « لن أصاب بمثلك ابدا » ... ولا اصدق في التعبير عن سخطه من قوله : « ما وقفت موقفا قط أغيظ لى من هذا ! » لأن الم المرير يقصر عنه كل تعبير .

الا قد ثأرت قريش حقا ، وثأر شيخها أبو سفيان بن حرب وشفى غليل حقده الذى نما في قلبه مع الأيام خــلال أجيال وأجيال ، فانه الدوحة الباسقة التى غرس نواتها ذات يوم عبد شمس ، وتعهدها امية ، ورواها حرب فى قلوب الأعقاب فأثمرت دائما الكره لآل هاشم في الجاهلية وبعد الاسلام .

وأبى رسول الله على المسلمين ان يعودوا بقتلاهم الى المدينة بل امرهم أن يدفنوهم حيثما وقعوا صرعى . وراح هو يجهز حمزة بنفسه حتى اذا فرغ وقف عند رأسه يقول قبل ان يدلى به فى قبره :

« لولا ان تحزن صفية ، ويكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ... ولئن اظهرنى الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم !... »

وقال الناس من حوله :

« بل مثلة يا رسول الله لا يمثلها احد من العرب قط » .

ولكن الله ربأ بنبيه عن الضــغينة والانتقام فأوحى اليــه ما يتفق وطبيعته السمحاء :

« وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر ، وما صبرك الا بالله ... »

واقبلت صفية وقد نما الى سمعها ما أصاب أخاها ، فأبت رحمة رسول الله وبره بها الا أن يأمر ابنها الزبير :

« القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها ... »

فأسرع الولد اليها يأخذ عليها الطريق :

« يا أمه ، ان رسول الله يامرك أن ترجعى » .

فرفعت اليــه بصرا غاض دمعه وبان في نظــراته العزم ، وقالت تسأل :

« ولم ؟ ... »

« ان أخاك » .

فضربت له أروع الأمثال في الصبر والاحتمال وهى تجيبه :

« قد بلغنى أن قد مثل بأخى ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان ... لأحتسبن ولأصبرن ... »

ومضت الى جثة حمزة وهى تسمع رسول الله يأمر ابنها قائلا :

« خل سبيلها ... »

١٠

لم تكن احد آخر المعارك التى كشفت عن حقد بنى أمية وان اختفى هذا الحقد بعدها زمانا تحت رماد الظروف التى جردتهم وقتا من سلاح الانتقام . ولكن الجمرة – مع ذلك – ظلت متقدة وان كان اتقادها أخذ يبدو في آونات على منحى لا يجعلها ذاكية الضرام طائرة الشرر واللهيب الى من حولها من آل محمد ، بل كانت تحت رمادها تئز وتستعر مدخرة أوارها الى يوم مرتقب ليس على أصحابها ببعيد ، لأن النصر ، الذى أخذت ترقى في سلمه الدعوة الاسلامية ورجفت منه قلوب الأعداء أجمعين ، ومن بينها قلب ابى سفيان وآل بيته الشانئين، خلفهم مسلوبى القدرة على كفاح الاسلام على النمط الذى يرجون ، عاجزين عن النيل من محمد وذويه كمشيئة الأحقاد والأضغان .

ولم تكن أحد كذلك آخر المعارك التى برزت فيها بطولة على وبذله وتضحيته – لا ولا أولها . ولكنها كانت القارعة التى امتحنت فيها قلوب أبطال مغاوير . ثم علا بمحنتها قلب هذا الشاب على جلد قلوب كافة من كانت جرت بذكرهم أحاديث الناس في أنحاء الجزيرة العربية حتى طوقتها من الأطراف والحدود . فما من ازمة وقعت فيها الدعوة الاسلامية أو تعرض لها رجالها المخلصون الا كان على مفرجها أو صاحب الشأن الأول بين العاملين على كشف غمتها عن النفوس والقلوب ..

وما من موقف تطلب في أيام الصراع بطولة الأبطال الا قاد ابن أبى طالب فيه الصفوف وجمعت عزيمته الماضية شعث عزائم الرجال . بل كان هو احيانا المتقدم حيث تملأ الخشية والرهبة النفوس فيفىء بهذا التقدم الطمأنينة عليها ، ويعيد اليها ما كاد أن يطير عنها من روع ..

وليس نبأ حصار المدينة بالصحيفة المطوية من صحائف الشرف في الدعوة الاسلامية يوم ان اجتمعت قريش واحابيشها واحلافها من يهود يثرب يطوقون بلدة الرسول وفي عزمهم أن يضربوا الضربة التى لا يكون بعدها للاسلام قيام .

اجتمعت الأحزاب جميعها على محمد ، واتحدت كلمتها وقوى من عزائمها أن انضمت اليها قبائل اليهود الضاربة على حدودالمدينة وكانت من قبل في حلف محمد حتى رات اجتماع الكثرة عليه فآثرت ان تمالئها ، وأصاب المسلمين من هذا الاجماع الساحق خوف ايما خوف حتى جرى في الخواطر أن يتألفوا بعض الكفار بشيء يدفعه اليهم النبى لينفضوا من الحصار ثم تغلب أخيرا الاعتداد بعزم النفوس وبالنصر المرموق الذى لا بد أن يوليه الله حزبه المختار فأقبل المسلمون جميعا وفيهم نبيهم يعملون كرجل واحد بمشورة الفارسى سلمان ويحفرون حول البلدة خندقا يحميها من جيوش الأعداء .

واقبلت قريش في جمعها اللجب يملأها الغرور وينفخ منها الكبر الأوداج والنحور . وتهيأت للهجمة التى توقع الذعر والاضطراب في صفوف هذه الفئة القليلة التي وقفت لها بالمرصاد . ما أعتاه جيشا وما أصخبه رعدا وأوفره عددا ! اللمسلمين بلقائه أو بالثبات له طاقة ؟. لولا أن عصم الله عيونهم أن تزيغ وقلوبهم أن يرين عليها الجزع لقد كادوا أن يرتدوا أمامه مدحورين .

***

وكان الخندق أسلوبا فارسيا في الدفاع ليس للعرب به قبل يومهم هذا عهد فوقفت قريش أمامه مذهولة ثم مسلوبة الحيلة ، لا تستطيع أن تجتازه الى الذين عسكروا خلفه ان لم يستحل عليها اجتيازه ، ولا تستطيع سيوفها أن تنال من رقابهم كما حسبت حين أقبلت بجموعها تروم القتال . ولم تملك هذه الحشود المجيشة بازائه الا أن تقدم رماتها يستهدفون المسلمين الرابضين خلفهم فيجيبهم هؤلاء من ورائه نبلا بنبل . وطال هذا التراشق بين الفريقين لا ترجح به لأيهما كفة . ودب في نفوس قريش الملل من فتور الصراع ، وضاق

امرها عليها . وخشى ذوو الحكمــة أن يبرد حماس مقاتلتها فذهبوا يتذرعون الى اخراج المسلمين من مكامنهم بكل وسيلة حتى اعيتهم الحيل ولم يجدوا مناصا من اصطناع الجراة عساهم يعملون اسلحتهم فيهم على النحو الذى يريدون .

وكذلك تقــدمت من بينهم عصبة ، هى اشــدهم واجلدهم على الصراع والصيال فامتطت الخيل ، وسارعت تضرب أجنابها الى ناحية من الخندق سهلة الاجتياز محاولة ان تقتحمها كى تكون مجاز بقية جيشها الى المدينة .

ولكن عليــا كان كدأبه اليقظ الذى لا تفوته من عدوه حــركة او لفتة . فى سرعة الصوت قفز بجواده على اولئك المجترئين لم يثنه عنهم أنهم جماعة وهو فرد . ولم تذهله المفاجأة التى اندفعوا بهــا يقتحمون الخندق على المسلمين قبل ان ينتبه لفعلتهم كثيرون غيره . وكالبرق طاح بينهم سيفه اللماح حتى راعهم منه ما حسبوا من قبل انهم مروعود بمثله . وكأنما أعادت حملته الصادقة الى نفوس أصحابه الوعى الذى غاب عنهم هنيهة فسارعوا اليه يسيرون في أعقابه ويدفعون حتى فرت خيل المشركين ولوت أعنتها لتعبر الخندق الى صــفوفها مرتدة .

لا بد ان يكون هذا قد أصاب من اعتداد قريش ومن صلفها ومن كبريائها ولا بد أنها استشعرت فيه طعم مهانة لم تذق لها فى يومها طعما . وكان اكثرها شعورا بمرارة هذه الفاتحة الخاسرة فارسها المجلى وبطل ميادينها عمرو بن عبد ود ، الذى قاد عصبة خيلها فاقتحم الخندق عزيزا ثم انثنى فاجتازها مدحورا ذليلا . لم تعد القضــية الآن في حسبانه قضية قريش بل أصبحت قضيته هو ... قضية الذكر الذاهب في انباء البطولة الى السماء ، والصيت الذى تحدث به العرب في الجزيرة ورواه رواتهم في كل الأنحاء .. قضية السيف الحاصد البتار كأنه شعلة نار . والرجــل الذى لا يقومه قــومه بين الرجال الا بالف من الأبطال ... قضية الكبرياء المهيضة الجناح كأنما قد طعنت في قلبها بأصمى سلاح !

لم تثبت بعمرو قوائم فرسه حتى عاد بها الى جانب الخندق كأنه القلعة فوق صهوتها ، دارعا مقنعا بالزرد والحديد تهتز الأرض تحت تيهه وزهوه ، وتنتهبه العيون من كلا الفريقين بنظرات فيها رهبة وفيها

اعجاب ، ثم لا تكاد ان تستقر عليه طويلا بل تغضي لفرط ما ملأ الأسماع من صيته المرهوب وما جرى من انبائه في النفوس والقلوب .

وأشرف الفارس من مكانه على المسلمين يدور فيهم بعينيه ، ويقتحمهم ببصره ثم يهتف بهم في صوت داو مروع كالزئير :

« يا رجال محمد ، هل من مبارز ؟ » .

لكأن كلماته هذه كانت نداء الموت !... ما من رجل سمعها الا رجف لها بدنه وان كان بين عسكر مناصريه . أو كأنها قد أغلقت دونها الآذان فلم يجر لها جواب على لسان .

وأرسل عمرو فرسه تميس وتختال امام الصفوف ، ورسول الله واقف يدعو ربه الا يتقدم أحد من رجاله لتلبية النداء . والمسلمون مشفقون صامتون وفارس قريش لا ينى يتفرس في وجوههم بنظرات الزراية والمكاء .

وعاد الرجل ثانية يهتف :

« الا رجل يبارز ؟ » .

فتقدم على هذا النداء على بن ابي طالب . لئن دفعه رسول الله ورده في الأولى فما هو براده الآن وقد تخلف عن قبول التحدى غيره من الفرسان .

قال متوسلا لرسول الله :

« انا له يا نبى الله »

ولكن النبى كان ضنينا به على سيف ابن عبد ود فدفعه ثانية وقال:

« انه عمرو . اجلس ! »

فجلس مطيعا وبوده لو استطاع سبيلا الى العصيان .

وعاد عمرو يصيح ، وقد بدا له أن يمعن فى التهكم كما يشاء :

« يا اصحاب محمد ! ... اين جنتكم التى زعمتم انكم داخلوها اذا قتلتم ؟ ... افلا يريدها رجل منكم ؟ اما منكم من يقدم ؟ »

فعاود على توسله النبى وقلبه يأكله التلهف على مقابلة هذا الخصم المرهوب :

« انا له يا رسول الله ... ايذن لى »

« انه عمرو . اجلس ! »

على هذا النحو من النداء والاستجابة جرى الأمر مرارا . ومحمد يأبى عليه حبه عليا ان يخلى بينه وبين صنديد العرب ، والمسلمون

جميعا لا يكاد أن يرتفع من بين ابطالهم المشــاهير صوت يلبى دعوة ابن عبد ود الى الاحتكام للسيف ، لفرط ما قر فى الأذهان من اجادته فنون الطعن . ولكن عليا وحده . . . الشاب الذى لما يكتمل شــبابه وخلع بالأمس فحسب عذار غلومته له تسكته الرهبة ، ولم يقف به الخوف لأن له قلبا لا يعرف الرهبة والخوف ، وله اعتداد بقدرته فوق كل اعتداد ، وله بصيرة مرهفة كحد السنان علمته أن هذا التلكؤ عن البروز لعمرو فيه الشر غاية الشر لأنه سيدع النفوس فريسة خوف اخف من أثره وقع الموت ـ اذا شاع افقد الرجال حب القتال ، وأورثهم التشبث بالحياة ولم يقم عمد الاسلام حتى اليوم إلا حرص رجاله على الموت !

لذلك ما أعاد ابن عبد ود دعوته حتى هب ابن أبى طالب يعيد التوسل الى نبيه :

« ايذن لى يا رسول الله »

« انه عمرو ! »

« وان كان ! »

ويخلى النبى أخيرا بينه وبين غرضه ، فكأنما أصاب الشاب بهذا الاذن خير دنياه ! ويقف الرجل المدل بماضيه ، التياه على العالمين بصحائف بطولته ، المعتز بجبروته وصولته امام هذا الحدث فيستهين به ويستصغر شأنه ويقتحمه بعين ساخرة ثم لا يرفع سيفه أنفة وكبرا ، ويقف على رابط الجأش ثابت الجنان كأن ما يبدو من صلف عمرو ليس يعنيه ، وبحســبه أن يتريث بهذا الفارس الشاكى الغارق فى زرده وحديده ، ويصبر حتى يكون منه بدء القتال لأنه هو لا يحب لنفسه أن يكون البادىء بسل حسام .

ويعجب عمرو لهذه الجراة التى دفعت اليه هــذا الغلام فيقبل عليه يسأله : « من انت ؟ » .

فيرميه بالجواب فى اقتضاب :

« على » .

« من عبد مناف ؟ »

« ابن أبى طالب » .

فتعطف الفارس عليه الشفقة ، ويقول :

« ابن أخى ! . . قد كان أبوك لى صديقا » .

ولكن ساعة الضراب تنسى الأنساب ! .. لا يدع على لعواطفه سبيلا على نفسه ، بل يقول جادا فى حزم :

« يا عمرو ! » .

« أى ابن أخى ! » .

« انك كنت تعاهد قومك الا يدعوك رجل من قريش الى خلال ثلاث الا أجبته الى واحدة ... » .

« نعم هذا عهدى » ...

« فانى أدعوك الى الاسلام » .

فضحك الرجل :

« وأترك دين آبائى ؟ .. دع هذا عنك » .

« أو أكف يدى عنك فلا أقتلك ، وترجع ! » .

فملك الرجل غضبه قدر وسعه . يالجراة هذا الغلام اذ يخوفه نفسه ! وقال دهشا وهو يظهر الأناة :

« تكف عنى وأرجع ؟ .. اذن تتحدث العرب بفرارى » .

« فانى أدعوك الى النزال ... »

وكانت بالفارس بقية من صبر وبقية من شفقة ، فقال ملاطفا ، وهو يؤمن بالفارق بينه وبين قرنه ، ولا يرى شرفا فى قتاله :

« ولم يا بن أخى ؟ ... غيرك من أعمامك من هو أسن منك ، وانى أكره أن أهريق دمك » .

« ولكنى والله لا أكره أن أهريق دمك ! » .

هنا غلت مراجل الغضب فى صدر عمرو على هذا السليط الساخر ، واستل سيفه المشهور ، ثم اقبل ينزل به كالصاعقة على رأس على فما أسرع ما استقبل الشاب الضربة العاتية بدرقته حتى قدت ، ونفذ منه الحد الى راسه فشجه . ولكنه مع ذلك استطاع ان يحتفظ بثباته . وأن يحيد عن ضربات فارس العرب مرات ثم يكر عليه بحسامه فيصيب حبل عاتقه .

كانت قريش جميعها واثقة من المصير المحتوم الذى ينتظر الشاب، عالمة به قبل وقوعه . وكان المسلمون مثلها منذ بدا الصراع وان استبدلوا بفرحتها بهذا المصير اللوعة على المنازل الصغير ... اجل فلم يكن بين كلا الفريقين الا من هو مؤمن أشد الأيمان باضافة عمرو ضحية جديدة فى عداد ضحاياه . ولكن الله بدل حدسهم جميعا ، لان العيون

وقعت بعد قليل على ما لم يدر مطلقا فى الاخلاد والظنون ...
سقط عمرو وقد هدته الضربة ، وثار لسقطته الغبار الى جوار اقدام على كما يثور لحركات ثور ذبيح ! ... ومن بين الغبرة التى ارتفعت علا صوت ابن أبى طالب بالتهليل والتكبير يتلوه هتاف الألاف من عسكر المسلمين .

١١

اقدام حيث لا معدى لغيره عن التزام الاحجام .

هذه ناحية من خلق على ، واضحة الملامح جلية ، رفعته فى مجالى الشجاعة على الناس ، ان أدلى بالرأى أو هز السيف .

ومع ذلك فلم تكن فى الشاب دفعة ، ولا تهور او طيش . ولكنه كان يصدر فيما ياتيه دائما عن حكمة خفيت عن نفوس الناس ، وشعور كأنه الهام يوفى به على احكام التقدير عند اقتحام المطامع أو ممالجة الأمور . كانت له نظرة ثاقبة نفاذة فيما يعرض له ، ولكنها كانت أيضا لماحة تسبق ما يستخلصه سواه بعد اعمال فكر أو موالاة تدبر ، وتصل به سريعا — وغيره لم يزل بعد فى بدء التفكير — الى النتائج العصية على العقول حتى ليحسبه الناس يجنح الى اعتساف الحلول . وكانت تقوده دائما بديهة صافية ، ويسدد خطاه قلب ملأته الثقة بقدرة صاحبه وان كانت هذه صفة تعدل الغرور فى نظر مغلولى الصدور !.

اجل رفعته صفته تلك وعلت به على اقدار الناس ، وكان لها صدى فى نفوسهم يتفق وأميال هذه النفوس ... بعضها استجاب له معجبا مواليا ، وبعضها اضله الحسد فقلبه عائبا زاريا ، والناس دائما أمام البطولة اثنان : مكبر حامد وزار حاسد ، وان كانوا الى الثانية ، غالبا اميل .

لذلك لم يكن عجبا ان تنطوى اكثر الجوانح على الحسد لهذا الشاب الذى عز على القوم ان يلتمسوا فى ابطالهم له الضريب دون الأضراب . حتى بين صحابة الرسول لم نعدم أن نجد له حاسدين لا يستطيعون الاخفاء وان حرصوا جهدهم على هذا الاخفاء . وكان النبى يلمس فيهم

الكثير من أمثال هذا الجنوح فلا يفتأ اليوم بعداليوم يتحدث لهم بفضل علي ويقص عليهم من قربه الى قلبه ما عساهم به يرعوون عنه . ولكنهم كانوا عبيد طبائعهم ، ينقمون على الشاب الفضل الذى خلت منه نفوسهم أو لم يستطع فضلهم أن يسير واياه فى ميدان . ولئن رأينا العجب فى أن يميل بعض صحابة الرسول هكذا مع الهوى ، فاعجب منه ان نرى فى آل بيت الرسول من يجرى جريهم وينزع مثل منازعهم . وهكذا الزبير بن العوام — وامه صفية عمة على — يكاد يتصيد الهنات ليلصقها بابن خاله كأنها أسوأ الصفات . خرج ذات يوم ورسول الله يسيران فاذا بهما يلقيان عليا ببعض الطريق ، ويضحك محمد لابن عمه محييا فيجيبه هذا ببسمة ثم يمضي لشأنه . فكأنما كانت وزرا هذه البسمة . يأبى الزبير الا ان يتلقفه ليغض به من شأن قريبه المحسود ! ... يقول لرسول الله بكلام ناعم ليس يخفى معناه :

« يا رسول الله ، لا يدع ابن أبى طالب زهوه »

فلا يستطيع محمد أن يسيغ منه القول على ظاهره ولا باطنه وهو الذى لا تخفى عليه مكامن القلب ولا مجهول الغيب ، بل يرد عليه :

« انه ليس بزهو . ولتقاتلنه وانت له ظالم »

وما كان على بالمزهو ولا بالمستعلى كبرا على الناس ، ولكنه الاعتداد بالنفس والثقة تختلف مقاييسها فى أعين الناس بين حامد وحاسد . ركب نفسه ، طوال عمره ، بالرياضة والنسك حتى أسلمت له الزمام ذلولا يعصيها ولا تعصيه وان أرادها على اجتياز المهالك واوعر المسالك ، وهذه منقبة فيه كان حريا أن تلف حوله القلوب وتعطفها عليه . ولكنها كانت فى أنظار الكثيرين منقصة ، الا أولئك الذين تجردوا عن الهوى . وكانت له هو سر فوزه دائما على محبيه ومبغضيه على السواء ، وظهوره حيثما خبا لهم نجم وطاش سهم .

كذلك رأيناه فى بدر يستبق المسلمين الى رءوس كبار المشركين ، وفى احد يثبت كالجبل الراسخ امام السيل الذى كشف عن محمد اجلة صحبه وابطالهم ، وفى الخندق يكون وحده البادرة التى آذنت بهزيمة قريش وكسرت قلوبهم اذ اصمى بسيفه صنديد الجزيرة العربية عمرو بن عبد ود ثم نراه — بعد هذا — هكذا دائما ، لا يسبقه الى فضله سابق ولا يلحق بغباره لاحق . يترددون ولا يحجم ، وينكصون ويتقدم . يسير النصر امامه ويسدد التوفيق اقدامه .

بعث الرسول الكريم أبا بكر الصــديق الى خيبر ليفتح منهاحصن ناعم ، فقضى الرجل وجنده يومهم يناوشون اليهود لا يستطيع أن يثلم فى أسوارهم ثلمة أو يتحين منهم غرة فعاد بكتيبته غير موفق .

فلما كان اليوم الثانى أمر الرسول على الكتيبة عمر بن الخطاب وعقد له لواء الحرب ثم أرسله . ولكن ثانى الصالحين لم يصب خيرا مما أصاب زميله ، بل عاد هو الآخر كعودة أبى بكر ، وخلف الحصن مغلق الرتاج . ثابت البنيان وطيد الأركان .

وجاء اليوم الثالث فاذا النبى يدعو اليه عليا ويقول له :

« خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك ... »

فتقدم فى التو رجاله ، ومضى يعدو الى الحصن العصى .

لم يلق ملاينة من اليهود أو تريثا حتى يروه يهجم ، بل وجدهم يبادرونه بالقتال . خرجت فرقة منهم فسدت على المسلمين مسالكهم الى الحصن وذهبت تصاولهم ولا هم لها الا هــذا البارز أمام الصفوف يتقدمهم غير هيــاب ، ولا تكاد العين ان تلمح منه حملات السيف أو حركات الدرع بين طعن ودفع وقد جاءت لحظة على هؤلاء اليهود ظنوا أن قد ظفروا بمآربهم وأوشك النصر أن يلوذ بهم حين تكاثروا على الشاب واستطاعوا أن يسقطوا من يده ترسه وسارعوا نحوه ، وهو مكشوف الصدر أمام نصالهم ، محاولين أن يتخذوا من جسمه أهدافا . ولكنه كان أسرع قدما ، وأيقظ عينا . استطاع فى لمحة بصر أن يميل عن طعنات مناوئيه ، ثم يلوذ بجانب من الحصن غير بعيد وفى لمحة أخرى وسعه أن يخلع بابا من جدار . وفى لمحة ثالثةشاهدته اليهود قد كر عليهم قبل أن تتبين حركة من حركاته أو تنتبه لخطوه : سيفه فى يد ، وفى الأخرى الباب الثقيليترس به عن نفسه بدل الدرع المفقودة ، ينثر بينهم الموت وهو لا يكل ولا يصيبه الجهد حتى انطرحوا صرعى تحت قدميه ، واتخذ من الترس العجيبة — بعد هذا — قنطرة الى داخل الحصن تبعه عليها أصحابه ، ثم تم الفتح .

* * *

على هذا المنوال كانت حياة على مثالا فذا من البطولة منذ اشرق فجر حياته على دنيا التاريخ . وكانت سيطرته على نفسه هى رائده الأوحد الى هذه البطولة ، لا يعنيه الا ان يفعل ما دام يؤمن بمقدرته

على أن يفعل ، وكان دائما يؤمن بهذه القدرة التى جربها فلم تخنه مطلقا في مرة . وما أحسبه كان مستطيعا غير هذا! وهو الذى شب فى أكناف رجل وقف بمفرده امام عالمه بغير سلاح الا ايمانه .

انما نحله محمد بعض الثقة التى سلحه بها الله واضفى عليه من سوابغها آيات . ولئن كان على قد برز على انداده فى هذه البطولة المادية فلقد توفرت له منها — فوق التوجيه النفسي — طوابعها الجسدية التى كانت تنسىء دائما بما فيه . كان الفتى فى الأقران شديد البنيان، موفور القوة الى مدى لا يصل اليه قرين ولا اقران . وبحسبك ان تسمع حديث التاريخ يلقى على مسمعك فى قصة حصن ناعم أن بضعة عشر رجلا من اصحابه حاولوا أن يحملوا الباب الذى كان ترسه فناءوا به ! .. وكان ضخم عضلة الساق ، أميل الى القصر فهو بصفتيه هاتين اثبت فى موطىء قدميه واشد رسوخا ، ملىء عضلات الأعضاد مكتلها حتى يستطيع ان يخطف بذراع واحدة فارسا عن فرسه . وان كان دارعا فى الحديد . فيجلد به الأرض كما تضربها بسوط ، ثم يقذف به كالكرة الى اينما شاء ! .. وكان آدم شديد الأدمة وان كان الى جانب هذا حسن القسمات كثير البسمات ، على محياه مهابة ، كبير العينين ، لنظراتهما الساطعة فى قلوب مشاهديه نفاذ .

وكان هذا الاعتداد بالنفس الذى ميزه فى بطولته المادية صاحب الأثر الاكبر فى تشكيل بطولته المعنوية . كان يرى الناس من خلال صفاته هو. ويزن أعمالهم على النمط الذى يود منهم ان يزنوا اعماله على منواله . ميزانه دائما الحق الأسمى لانه رجل وهب حياته للذود عن هذا الحق وحاسب دواما نفسه والزمها سبيله .

لهــذا لم يعرف مطلقا كيف يهـــادن او يداور ، بل كان يلقى بالراى صريحا ، واضحا ، قاطعا كالسيف ولا يأبه اباء باباء ام حاز الاعجاب . وانما كان يلقى به ارضاء لضميره المرهف واعلاء لكلمة المثل الأعلى الذى اعتنقه ولقد جعله حبه الصواب الأمثل مثالا لا يبارى فى شفافية النفس حتى لا تخفى عن عواطفه خافية لان ملامحه ذاتها كانت تنطق بالراى قبل تكونه على شفتيه كلمات ... كان قلبه على لسانه . ولعل اشد ما امتحنت به صراحته وكان له ابعد الاثر مستقبلا فى حياته ، هو رايه فى حديث الافك غب رجوع المسلمين من بنى المصطلق .. جرت حينذاك السنة السوء فى عائشة ، وتقول عنها

الناس عن صفوان السلمى لأنها تخلفت فى الطريق لبعض حاجتها ولم ينتبه لتخلفها أحد ففاتتها القافلة حتى قيض لها صفوان مارا فخلى لها عن بعيره وحملها الى المدينة .

لم تكن القصة لتذيع ، وما كان بها ما يخشى ذيوعه ، لولا فئة المنافقين التى اخذتها وسيلة لايذاء محمد فى سمعة زوجه وكانت عائشة صغيرة السن ، مليحة ، اثيرة على النبى حتى كانت محور غيرة ازواجه الأخريات ، والغيرة دائما سماعة ، وليس أجرى على لسان النساء وأحب الى قلوبهن من الخوض فى أحاديث النساء !

اما النبى فقد اخذ نفسه بالصبر فى البدء عسى ان يصمت الهمس . ومضى يصطنع الحلم والأناة ، ويصطنع الهدوء ، ويكظم فى ذات نفسه ما يعانى . ولكن الهمس لم يصمت بل استشرى كالنار وذاع . وامتلأت بحديث الافك محافل المسلمين بعد محافل المنافقين . وتأذى محمد وتألم ، وتأذى له خلصاؤه . وكان على من عرف للنبى ايثارا وحبا فبلغ ألمه من أجله غاية مداه . لم يستطع أن يرى محمدا هكذا مضغة فى أفواه القوم بسبب فرد مهما كان فى العالمين ، ان كانت عائشة أم المؤمنين . ولم يكن يلقى عليها شكا ولا يتهمها بسوء وان تطايرت حولها القالة . ولكنه كان يعلم ان المراة سيرة ، وأن الظن شية ، وعسير أن تنفى الحدس والظنون من أفهام الناس .

لذلك ما كاد النبى يستشيره فى الأمر حتى قال بلا مواربة :

« يا رسول الله ، ان النساء لكثير . وانك لقادر على أن تستخلف . وسل جاريتها فانها ستصدقك » .

ولقد نزل فى عائشة بعد هذا قرآن ينفى صفحتها ويبرىء ساحتها فأقبل المتقولون على انفسهم يتلاومون ، تائبين نادمين ، وراح حديث الافك دبر الآذان . ولكن عائشة بدت كأن لم تنس لابن أبى طالب ما كان من مشورته كأنها كانت تود أن يقطع ببراءتها رغم أن زوجها رسول الله لم يعجل بهذا حتى اتاه برهان الله ! ... وانا لنراها لهذا تكرهه طوال عمره ، وتنقم عليه حتى آخر نسمات حياته ، وتحملها نقمتها هذه على نفض القلوب عنه وجمع السيوف عليه . وما نحسب كل هذا كان وليد رايه عن قصة الافك فحسب لانه لم يقل الا ماكان جديرا به أن يقوله ، ولم يخالف — اذ قال — ما بدا اذ ذاك من توجس الرسول . ولكن عائشة كانت ، قبل كل شىء ، امراة لها طبيعة

النساء . تغار كمثل غيرتهن . فاذا عرفناها تعلم قرب على من قلب زوجها قربا لم يبلغه منه أدنى الناس حتى كانت تسأل :

« أى الناس أحب الى رسول الله ؟ »

فتجيب :

« فاطمة »

« ... من الرجال ؟ »

« زوجها ... »

اذا علمناها كانت تعرف هذا القرب بين قلبى زوجها والشاب ، ثم علمناها غريرة صغيرة حين اعرس النبى بها ، لها جموح مثيلاتها من غريرات صغيرات لم نر عجبا فى ان تغار على زوجها من على وقد طالما رأته يحبسه عنها اكثر الوقت ثم لا تراهما الا فى رفقة ... فاذا مر الوقت زادت الألفة بين الرجلين وكان قمينا بها أن تبلى جدتها . وكانت هى تمنى النفس بأن تملك وحدها وقت محمد خلال الفراغ ، فاذا بها ليست تملك الا بمقدار الثلث لأن لعلى وفاطمة فيه نصيبين ! حتى اذا دار الزمان وولى عهد الرسول لا نلبث ان نرى عائشة أميل الى النقمة على ابن أبى طالب منها فيما مضى ، اذ وجدت فيه ــ فوق ما أثارها عليه من قديم ــ ذلك المنافس العنيد الذى قام ينازع اباها صولجانه ولا يقر سلطانه ...

١٢

استطاع الاسلام بعد الخندق ان يقف على قدميه : ان يثبت ، ثم يسير الى الأمام .

فلقد أوقعت الغزوة هيبته فى قلوب اعدائه لانهم جربوا حماته ، وعرفوا مدى العزم فيهم قبل أن يرسل الله على قريش واتباعها جنود الريح تقلب قدورهم . وتطفىء نارهم ، وتقتلع مضاربهم من ارضها اقتلاعا ..

واوقعت الغزوة ايضا الحذر فى نفوس المسلمين فباتوا لا يأمنون على أنفسهم احلافهم القدامى : قبائل اليهود الضاربة على تخوم المدينة ، الذين جعلوا البلدة تحت رحمتهم ، ان شاءوا منعوها أوشاءوا أسلموها .

ولم يكن محمد بالذى يحب الاعتداء أو يسيغه فحرص جهده — منذ البدء — على ان يكون واصحاب الكتاب هؤلاء على أطيب الصلات ، علما منه بأنهم اصحاب دين الهى قلوبهم اميل الى الانتصار للاسلام منها لنصرة عبدة الأصنام . ولكنهم كانوا قوما حاسدين باغين ... أعماهم تعصبهم عن المحجة فقاموا ينتهزون كل غرة للايقاع بمحمد والاتفاق مع اعدائه المشركين على كفاحه .

لذلك لم تكد جموع قريش ترتحل عن الخندق وقد نبا بها المقام ، حتى نادى منادى رسول الله فى الناس :

« من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة .. »

وقدم النبى عليا اليها برايته والمسلمون يترسمون خطاه فى افواج ، وأولاهم الله نصره العزيز . وأباحهم من بنى قريظة أعناق رجالها يضربونها ورقاب نسائها ... ثم أولاهم نصره العزيز ثانية . وما زال يوليهم اياه كلما ساروا ، يوما بعد يوم . الى فئة من هؤلاء اليهود حتى لم يعد ذكر لقريظة ، أو المصطلق ، أو النضير أو أى من المسميات التى عرفوا بها ، وطهرت منهم الأرض .

وهكذا أمن الاسلام شر عدوه الذى طالما استتر تحت ثوب صديق .

ثم أمن شر قريش ، ذلك العدو السافر المبين ، الى حين ... فلقد كانت قريش أعياها القتال وأمضها النضال ، فلما جاءت السنة السادسة من مكث محمد بالمدينة ورائه ينفلت فى رجال كثر فيشرف بهم على مكة أو يكاد وهو فى طريقه بهم الى حج البيت ، خشيت ان هو دخل عليها بلدتها ولم تمنعه تقولت عنها العرب ، وان وقفت دونه تسد عليه الطريق وتحول بينه وبين ما يريد رفع السيف الى رقابها .. وكلا الأمرين عليها شديد ! ...

وفكر سادتها وأعملوا الفكر . ما كانوا بمستطيعى قتاله ، عامهم هذا ، وهم منهوكو القوى قد اكلت الحرب منهم مأكلها ، وما كانت كبرياؤهم لتلين أمام تقدمه بهذا الجحفل المنشود وتخلى بينه وبين البلدة يدخلها عليهم بدون قتال ... ان الجزيرة لن تصدق أن محمدا دخل مكة عن رضا من قريش بل سيذهبن فى الآفاق انها طأطأت رءوسها راضخة لأنها تخشاه .

استطاعوا أخيرا أن يصلوا إلى الرأى الذى يحفظ عليهم كلتا دمائهم وكبريائهم ، فقر عزمهم على مهادنة محمد على ان يرجع عنهم

عامه ثم له عود فى الموسم القادم ان شاء . ولم يكن محمد بالذى يخيب رجاء أو يرد حاجة . فاستقبل رسولهم وراح ينصت اليه ويحسن الانصات ، وراح سهيل بن عمرو يناشده حق الدار ، وحق العشيرة ، وحق قومه الذين خشوا ان يقتحم عليهم بلدتهم عنوة فلا ترتفع لهم مكانة بعدها فى نظر الناس . وتحدث الرجل طويلا ، ووسع حلم النبى كل حديثه وكل مطلبه . وتم الاتفاق بينهما الا يعدو منهما فريق على فريق ، وأن يضعوا الحرب الى أجل معقود ، وأن يرجع رسول الله بالمسلمين الى المدينة هذا العام ثم لهم عود الى زيارة البيت بعد عـــام ...

ودعا رسول الله عليا ليكتب لهما العهد .

قال له ممليا :

« اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ... »

فقاطعته جهالة الجاهلية على لسان سهيل :

« بل ، باسمك اللهم »

قال محمد موافقا :

« باسمك اللهم ... » ثم مضى يملى : « .. هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، سهيل ... » ولكن رجل قريش عاد يقطع عليه الاملاء .

« امسك ! ... فلو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك ... بل اسمك واسم ابيك »

فقال رسول الله لعلى يأمره :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله .. »

وكذلك أصبح عهد الحديبية موثقا ، وأمن الاسلام عــدوه المبين الى حين ، فاستطاع محمد ان يفرغ لتنظيم دولته واعــداد العــدة لمستقبلها ، كما استطاع من اراد من القبائل أن يحالف المسلمين او يحالف المشركين فلا يصيبه من الفريق الآخر عدوان ولا يجرى عليه اكراه .

***

ولكن قريشا لم تكن لتستطيع أن تنزع عنها ما ركب فى طبائعها من حب العدوان ، فلم تلبث حين سرت إليها الأنباء بأن المسلمين فى مؤتة سقط الكثيرون منهم صرعى على أيدى الروم ، ان ظنت الاسلام قد اصبح مهيض الجناح سهل المنال ، غير منيع ولا مرهوب ، لا يقوى رجاله أن يدفعوا عن أحلافهم ومن فى عقدهم من الناس ما داموا قد عجزوا عن الدفع عن أنفسهم .

كانت بنو بكر فى عقد قريش ، وكانت خزاعة فى عقد الرسول فعدت اولاهما على الثانية فأصابت منها بثأر قديم . وكان شبان قريش قد علموا أنباء مؤتة فحفزهم ما ظنوه هزيمة المسلمين على أن يقتصوا منهم في، اشخاص احلافهم الخزاعيين وفى حسبانهم أن محمدا ليس بقادر على رد العد ان . ولكنهم لم يصيبوا الظن وان اصابوا العدو ... بل كانوا فى بغيهم مسرفين اذ تبعوا من خزاعة رجالا تحصنوا بالحرم فاعملوا فيهم الأسياف ، لا يمنعهم عن الايذاء قدسية البيت ولا حرمة المكان .

وأسرع عمرو بن سالم الى رسول الله بمسجد المدينة ، وأسرع بعده بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة يقصون على محمد نبأ من قتلت قريش الباغية واحلافها منهم ، ويستنصرونه على أن يقيم الحد على من نقض العهد .

هى الحرب اذن تأخذ من قريش مآخذها نصرة لأولئك المظلومين ، وثأرا لكرامة المسلمين ... كذلك توقع الناس ، وقراوا فى الغضبة التى شاعت آثارها في محيا الرسول وهو ينصت الى شكاية المظلومين .

ورفع رسول الله بصره الى رجال خزاعة وقال :

« لا نصرت ان لم انصركم مما أنصر منه نفسى ! ... »

وراحت توا فرحة النصر الرخيص الذى استشعرته قريش من وراء العدوان ، حين فتحت عينيها على ليل حالك باتت فيه على قلق لا تعرف مداه كلما اجالت فى اذهانها الخطة الغامضة التى لابد أن يتخذها حيالها محمد . ان حماس شبابها لن يثبت للمسلمين فى ميدان . وان محمدا ، الذى لم يعهدوه نواما على الضيم وهو منفرد وحده أمام جموع المناوئين ، لن يغضى لهم اليوم عن الاساءة وقد أصبح القوى العزيز السابغ السلطان .

ثم عجمت أعوادها وتخيرت من بينها السهم الذى ظنته يصيب .

كان لابد لها من مخلص من هذا الحرج الذى وقعت فيه ومنجى من العاقبة التى جرها عليها طيش الشباب فيها وغفلة الشيب . وليس بعاصمها من غضب محمد سوى أريب ماهر وداهية مداور ، يستطيع أن يصل بحديثه الى قلب محمد الرقيق الكريم قبل أن يصل الى أسماعها .

وهكذا اختارت قريش شيخها أبا سفيان بن حرب . ففى الرجل دهاء ، وفيه مداورة ورياء ، ثم هو قبل هذا وفوق هذا له بمحمد أواصر قربى تصل الى الأجداد ، وثق رباطها النسب مذ تزوجت ابنته أم حبيبة برسول الله ... ولعل ما يشكل على السياسة حله يكون هينا ميسورا عند انعطاف القلوب بين القريب والقريب .

ولقد وفقت حقا قريش ، باختيار أبى سفيان رسولا عنها الى محمد ، الى اختيار السهم الذى لم يصب وان كانت ظنته يصيب ! . ولكنها على أى حال لم تجد بينها من كان أولى من الرجل بأداء هـــذه الرسالة والسعى الى رسول الله يترضاه . وكان اختياره فى ذاته توفيقا وان لم يوفق مختارها فى مسعاه ؟ ... وكانى بمحمد ، ذلك اليوم ، قد تكشفت عن بصره الأسجاف التى تغشى أبصار النـــاس وتجعل نظراتهم لا تنطلق الا بمقدار ... كأنى به — من بعيد — قد أطلع على قريش ، وعلى قلوبها ، وعلى ما طاف بأذهانها من أفكار وما أجمعت عليه من اختيار ، حين التفت وهو بمسجد المدينة الى صحبه يقول :

« كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ، ليشد العقد ، ويزيد فى المدة . . »

١٣

قال ابو سفيان وهو يجلس ، بمسجد المدينة ، امام رسول الله :

« يا محمد . انى كنت غائبا فى صلح الحديبية ، فاشدد العهد ، وزدنا فى المدة » كأنه لم يعرف بنكث قومه ! ...

وقال محمد يجيبه فى هدوء :

« ولذلك قدمت يا أبا سفيان ؟ »

« نعم » ...

« فهل كان فيكم حدث ؟ » .

فلم ير الرجل بدا من الكذب فقال :

« معاذ البيت ! فنحن على موثقنا وصلحنا يوم الحديبية ، لا نغير فيه ولا نبدل » :

هنـــا طاشت حيلة ابن حرب ، وعـــرف ان اسلوبه فى الكذب المداورة مغلوب امام اليسر والبســـاطة فى هذا الأســلوب !.. ان كانت قريش لم تنكث فالعهد قائم لا تبديل ولا تغيير ، وان كانت نكثت فعلى نفسها الجزاء الذى يفرضه النص المكتوب ثم لا تغيير بعد هذا ولا تبديل ! ..

وقام الرجل عن مجلس محمد بعد قليل ، مدحورا لأنه لم يستطع ان يلتمس الوسيلة الى اقرار ما جاء فى شأنه بعد ان يئس من الفوز بسمع محمد فضلا عن الفوز بقلبه . وخرج يسير ، ويعتصر ذهنه ويكده عساه ان يطلع عليه برأى رجيح . ولكنه وجد نفسه من ذهنه المكدود فى بيداء لا يستطيع ان يقع فيها على الثمرة المشتهاة ...

أحس مقدار عصيان عقله له وخذلانه اياه واستشعر فى قرارته ضغطا لم يقف له من قبل على نواة فتاقت نفسه الى من يشد ازره ويظاهره ولم يكن يأمل ان يجد بين أسوار المدينة من يقف الى جانبه امام محمد ويؤيد القول الذى اختلقه منذ لحظات ، وانما ود لواستطاع أن يرتد ثانية الى المسجد ليذكر فى جلاء الحقيقة التى من أجلها جاء ، والرسالة التى سعى سعيه وهو يرجو لها الأداء . ولكنه آثر أن يتريث ، وان يحاول الولوج الى قلب محمد من خلال زوجه — ام حبيبة ابنته — التى ما حسبها تحب أن يرده محمد على اعقابه الى قومه بمكة ، يسبقه الهوان ويمشى فى ركابه الخذلان ...

دخل عليها دارها ، واهنا منهوكا بعد رحلة منهكة . ومشى شارد البال فى الغرفة يهم ان يجلس ليريح قدميه ثم يدلى اليها بما يشاء . فما أسرع ان رآها تثب فتسبقه الى الفراش فتطويه دونه ، وادهشته هذه البادرة منها وحيرته ، فرفع الى وجهها بصرا ران عليه التساؤل ، وقال :

« عجبا من العجب !.. ارغبت بهـــذا الفراش عنى ام رغبت بى عنه ؟ » ..

« به عنك ! » .

فصاح كالملسوع :
« ويحك ! ما تقولين ؟ » .
فلم يمنعها غضبه من مجابهته بالجواب :
« انه لفراش رسول الله وانت امرؤ مشرك نجس ، فلم احب ان تجلس عليه » ..
فمصمص بشفتيه وقد اعياه ان يرى الصواب فيما تقول ، وقال مغالبا غضبه وهو يهز رأسه هزة اسف :
« يا بنية .. والذى يحلف به ابو سفيان لقد اصابك بعدى شر »
قالت ولم يذهب عنها هدوءها :
« بل هدانى الله الى الاسلام ... »
ولعلها أحسنت به الظن اذ ذاك . او لعلها عطفتها اليه بنوتها وخشيت عليه سوء المصير ان ظل سادرا فى غيه لا يتبين مواقع الرشاد ، فراحت تستحثه وتغريه :
« اى ابت ! ... كيف يخفى عنك فضل الاسلام ، وأنت سيد قريش وكبيرها ... وتعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر ؟ »
فصاح بها محنقا وهو يغادر مكانه :
« وهذا منك ايضا ؟ ... يا عجبا ! ... اأترك ما كان يعبد آبائى واتبع دين محمد ؟ »
« يا عجبا الا تتبعه ! »

***

تخلى الشيخ عن كبريائه وعاد الى محمد .
ولكنه هذه المرة كان أبعد عن هدفه منه فى الأولى ، اذ طوى عنه محمد كشحا واعرض لا يسمع منه ولا يقول له .
ثم تخلى عن كبريائه امام أبى بكر ، ثم امام عمر بن الخطاب ، يرجو واحدهما بعد الثانى أن يشفع له لدى رسول الله ، فما قبل الأول ، ولا اكتفى الثانى بالرفض دون جفوة الجواب كالمألوف من لسان ابن الخطاب !
ولم ير بدا بعد هذا من الالتجاء الى واتره البغيض ، قاتل حنظلة ابنه ، وثلة أصهاره من بنى عبد الدار ... التجا وفى نفسه غضاضة

ايما غضاضـــة اله، على بن ابى طالب والمضطر يركب الصعاب فى سبيل الآراب !...

دخل عليه داره ، وعنده فاطمة : والحسن طفل يدب بين يديها ، فما استوى به مجلسه حتى قال متوسلا :

« يا على ، انك امس القوم بى رحما ، وقد جئت فى حاجة فلا ارجعن خائبا ... »

« فقل يا ابا حنظلة »

« اشفع لى الى محمد »

« ويحك ! ... »

فاربد وجه الرجل وغاض لونه ، ثم همس :

« ألا تفعل ؟ »

قال على بالمعهود من صراحته :

« لقد عزم رسول الله على امر ما نستطيع ان نكلمه فيه ... »

وساد الصمت . وتلفت أبو سفيان حوله محيرا لا يدرى ان كان اولى به ان يقوم ويدع الأمر الذى جاء فيه . ومضت عليه فترة من الوقت لا ينبس ، يتقاسم قلبه الفشل والرجاء . وكان على لا يعرف كيف يخفى المه لحرج الشيخ ولا يستطيع ان يوليه يدا .. وكانت فاطمة ترقب ما يبدو على وجه زوجها من رقة ومن اشفاق وان حرصت على أن تكون بمنأى عما كانا فيـــه حتى راحت تداعب طفلها الصغير .

وابتسم شيخ أمية بعد قليل فقد راود ذهنه خاطر جديد . ان هذا الحفيد الصغير له عند جده شأن بالغ ومكان مرموق . وان له عند امه حظوة كما لغيره عند غيرها من الأمهات ، وله فى قلبها ، وفى خاطرها ، وفى خيالها رفعة ترجو ان يصل الى شأوها مع الأيام . فاذا استطاع رسول قريش ان يثير فيها عواطف الفخر بالغلام فقد وقع اذن على الوسيلة التى يصل بها الى مأربه الذى يرجوه ...

وكذلك التفت الى الزهراء ، يحدثها وعينه على الغلام :

« يا بنت محمد . هل لك أن تجعلى بنيك هذا سيد العرب الى آخر الدهر ؟ »

فرفعت بصرها اليه متسائلة :

«وكيف يا أبا سفيان ؟ »

« مريه فيجير بين الناس ... »

فقالت بغير اكتراث :

« ما بلغ بنى هذا ان يجير بين الناس »

فراح يحفزها بنبرات ملؤها التوسل :

« يا بنت محمد .. انها دماء قريش يحقنها عليها ان اجار فمريه. فتذكرها له العرب الى آخر — »

قالت تقاطعه وفى صوتها حزم :

« لا يجير أحد على رسول الله ! »

وسدت بهذا عليه السبيل الى قلب محمد من خلال آل محمد . ولم يجد هو معدى بعد أن نفدت حيله أن يلتفت ثانية الى على ويقول :

« يا أبا الحسن .. انى أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى ... »

أجابه :

« والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ... »

« فهل ارجع ؟ »

« انك سيد بنى كنانة ، فان شئت فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك »

« أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ . »

« لا والله ما أظنه ، ولكنى لا اجد لك غيره » .

وقام الرجل يائسا . على أى حال لقد وجد عليا أرحب صحب محمد صدرا ، وأصدقهم ، وأحدب عليه من سواه وألين قولا .. ومضى الى المسجد يجير فما التفت اليه انسان . ثم خرج عائدا الى مكة فى حلقة من هذا الفشل مثل طعم الصاب .

١٤

خاب ما توقعت قريش ، وما أملت ان يتم لهـا على يد شيخها ابي سفيان . واصبحت الكلمة الدائرة على الألسن « الحرب » .. أما شبابها فقد كان غرورهم ما زال يملأ منهم الصدور وهم يعتقدون أن محمدا ليس يملك — بعد مؤتة — قوة تدفعه الى ركوب الصحراء لاقتحام مكة . واما اشياخها فقد ركبهم الهم من سوء المغبة التى اخذت تلوح أمام بصائرهم . فلم تغفل عيونهم خشـية أن يتحين المسلمون منهم غرة . ولم يكن محمد قد جاهر أصحابه بأنه يقصد التوجه فى قتال الى البلدة الحرام وان كان قد امرهم باتخاذ الأهبة والاستعداد ، فظلت قريش لهذا لا تعرف كيف تقف وبقيت نهبـا للقلق والتوجس . تبعث العيون تلو العيون الى أقصى ما تستطيع عساها تأتيها بالأنباء . وكان أبو سفيان دائما احرص قومه على تعرف ما يأتى من صوب محمد وعلى تنسم الريح والاستطلاع .

وجاءت أخيرا اللحظة الحاسمة فى تاريخ هذا الشيخ الضال !.. كان قد خرج من البلدة ليلا كدابه يستروح الأنباء حتى اشرف على « مر الظهران » فاذا نيران فى الصحراء على مدى البصر موقدة تكاد أن تختفى أمامها أسجاف الظلام . واذا خيام مضروبة والوية منصوبة وجف لمرآها قلب الرجل واصابه انقباض .

واقبل على صاحب معه يستنبئه ما عسى ان يكون وراء هذا الزحام فقال له رجما بالغيب :

« أراها خزاعة تأهبت تأهبا وجاءت تثأر . »

فهز الشيخ راسه غير موافق ، وقال :

« خزاعة ! ... اذل واقل »

اجل ، فانها جموع ما رأت مثلها عيناه . واخذه الخوف على قومه فأسرع يهم أن يرتد اليهم ليبصرهم بالأمر . ولكنه ما كاد أن يخطو حتى سمع من ورائه هاتفا يقول :

« يا أبا حنظلة ؟ »

فاستدار ينظر ؟ ثم هتف :

« أبو الفضل »

قال له العباس وقد اقبل عليه ، وهو يشير الى ناحية الضوء :

« ارأيت يا أبا سفيان ؟ هذا رسول الله فى الناس ... »

فصاح مبغوتا :

« محمد ! »

« هو والله ، واصباح قريش والله ! »

فهمس بصوت مبحوح :

« نعم ، واصباح قريش ! »

ثم اردف متلهفا ، يسأل :

« وما الحيلة يا أبا الفضل ؟ »

قال العباس :

« والله لئن ظفر بك رسول الله ليضربن عنقك ، فقد تلف العقد . فاركب معى فى عجز هذه البغلة حتى أمضى بك اليه . فأستأمنه لك ، وتستأمنه على قومك ... »

تردد الرجل هنيهة ، لا يدرى أيمضى لما اشار به عم النبى أم يعود قافلا الى مكة .. ووقف يوازن بين كلا الوجهتين ليقرر الى ايهما يولى وجهه . ايهما اجدى عليه هى ايهما يتخذ بلا ريب . لأنه تاجر يزن الأمور بميزان الخسارة والرجحان ' وهذه دعوة للحياة جاءته على لسان العباس . دعوة لحياته هو ، ثم حياة أهله ، ثم حياة قومه التى أصبحت جميعها فى كف محمد ، لا عاصم لها منه ان دخل عليهم مكة عنوة وصاروا له صيده المستباح ..

ولم يلبث أن عزم أمره وسار مع العباس بعد ان تبين له رجحان صفقته ان سار ! ...

ودخلا المعسكر يردفه ابو الفضل وراءه على بغلة الرسول فيوسع لها الحراس ويفسحون الطريق كأنها كانت جواز المرور ! . ولم يتبينه فى بادىء الامر أحد حتى أوشكا على بلوغ الغاية . فاذا رجل يقظ العين يعرف هذا الرديف المنكمش تحت ردائه فيصيح صيحة الظفر :

« أبو سفيان عدو الله !... »

واقبل اليهما يعدو . وارتجف جلد شيخ بنى امية ، وهبط قلبه وقد رأى ابن الخطاب يعاود الصياح :

« الحمد لله الذى امكن منك بغير عقد ، ولا عهد !»

وراح العباس يهيب به :

« مهلا يا عمر »

ولكنه عدا يستبق امامهما السبيل الى رسول الله .

وتمتم ابو سفيان من بين اسنانه ، جزعا وموجدة :

« تعس ابن الخطاب ؟ ... انه لأعدى القوم »

وكان هذا حقا لأن عمر لم يدخر وسعا لدى رسول الله في اثارته على الرجل ، وحثه على الفراغ منه بجز رقبته .

قال يستحث النبى :

« يا رسول الله هذا أبو سفيان أمكن الله منه . فدعنى أضرب عنقه »

وهتف العباس :

« يا رسول الله انى قد أجرته »

فلم ينثن عمر عن دعواه ، بل اخذ يكررها ويعيد التكرار كلما راى العباس يحاول أن يترضى للرجل عند رسول الله . وكادت أن تنشب المشادة بين الرجلين الظهير والمهاجم ، بل لقد بلغ الغضب بالعباس أن صاح وقد نفد صبره . وأحنقه من عمر هذا الالحاح :

« بعض الذى تقول يا بن الخطاب ! ... انك لتعلمن انه من عبد مناف ولو كان من بنى عدى لما قلت ما تقول ! »

وقال عمر :

« انك لتعلمن يا أبا الفضل لو كان هو الخطاب لأقولن ما اقول »

لقد كان العباس امرءا من هاشم فيه السماحة الهاشمية . عطفته الرحم حتى نسى ما كان من ضغن ابى سفيان ، ونسى اخاه الشهيد حمزة والمثلة به ، ولما ينصرم الكثير من الزمن على يوم مصرعه وما لقيه من هذا الشيخ الحاقد وزوجه الكاسرة ! ... ولكنه سخاء فى العطف ايما سخاء ، وصفاء فى القلب ليس مثله صفاء .

ورأى محمد أن يفض الخلاف بين صاحبيه فارجأ النظر فى امر عدوه الى الصباح .

وعندما اقتيد الرجل ثانية الى موقف المحاكمة والاتهام . كان الغضب قد انفثأ عن الرسول وعاوده حلمه المعهود ، واتسع قلبه الكبير للرحمة اكثر من اتساعه للقصاص ، فقال :

« ويحك يا أبا سفيان ! ... الم يأن لك ان تعلم انه لا اله الا الله ؟ »

قال الشيخ الداهية مداورا :

« بأبى انت وامى . .. ما أحلمك واكرمك واوصلك ! .. والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره لقد اغنى عنه شيئا » .

فعاد رسول الله يقول :

« ويحك يا ابا سفيان ! ... الم يأن لك ان تعلم انى رسول الله؟ »

فتردد برهة ثم لم يستطع — رغم التزامه جانب الحذر — الا ان يفضح ما يملأ قلبه من تشكك فاجاب :

« بأبى أنت وامى ! . اما هذه والله فان فى النفس منها حتى الآن شيئا ... »

فأسرع اليه العباس ، يلكزه ويهتف به ، ليرده الى سبيل الصواب فى الجواب :

« ويحك يا رجل ! ... اسلم واشهد قبل أن تضرب عنقك »

فهل ترى حببت هذه الكلمات اليه الاسلام ؟ ... لقد اسلم ، وشهد — وبعض الشر أهون من بعض ! — ليحتفظ براسه على منكبيه ! .

الا من ذا ينبئنا عما قراه العباس فى وجه شيخ بنى امية اذ ذاك ؟ ..

واى خلجات النفس انطبعت على المحيا الدميم ؟ ... ذلة الهزيمة وما توجبه من آثار الغيظ الكظيم والسخط المكتوم كان ادنى الى طبع الشيخ فى ذلك الموقف . فان الانسان — على اى حال — لا يستطيع أن يتقبل بقبول حسن ما يأتيه على سنان سيف وان كان نعمة الايمان ذاتها . ولقد كان العباس فيما بدا ، رجلا بعيد مرمى النظرات فى أغوار الطبائع البشرية فضلا عن علمه بطبائع بنى أمية حين قال لابن اخيه :

« يا رسول الله ... ان ابا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئا »

كأنما اراد ان يرضخ للرجل رضيخة تفيء عليه الرضا عن هذا التغيير .

ولقى طلب العباس موافقة رسول الله ، فابتسم وقال :

« نعم . من دخل دار ابى سفيان فهو آمن ، ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

وربح الشيخ ما أراد وفوق ما أراد ــ ربح راسه ، وربح فخرا ما لغيره مثله من قبل ولا من بعد : وربح لقومه حياتهم ما خلوا بين محمد وبين مكة يدخلها ولا يقاتلونه .. ثم فوق هذا وذاك ربح الاسلام وان كانت العقائد اعصى تبينا على الفاحصين لانها من القلوب فى احراز . على ان الرجل ، مع هذا ، سار فى التاريخ مسلما منذ اللحظة التى قهره فيها محمد على الاسلام ، ثم الأيام من بعد هى الكفيلة وحدها بطوايا النفوس ، ان شاءت اخفتها او شاءت كشفتها !..

١٥

فى طريق العودة ، وقف شيخ قريش الى جوار العباس بن عبد المطلب عند خطم الجبل بمضيق الوادى ، يشهد كتائب الرسول تمر على الويتها تباعا الى غايتها .

وبهرت الرجل الكثرة فى هذه الحشود والقت فى روعه المصير الموعود . ما لقومه بكل هؤلاء طاقة ، وما للعرب بعدهم معدى عن الدخول فى دين هذا الرجل الذى خرج بليل ، منذ اعوام من داره مستخفيا عن الأعين .

فلقد علت اليوم كلمته ، وسطع نجمه وتآلفت حوله قلوب الرجال قبل تآلف السيوف والنصال .

والتفت ابو سفيان الى جاره وقال :

« يا أبا الفضل . لقد أصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيما ! » .

فأى ايمان هذا الذى كان يقيس جهاد الدعوة الاسلامية بمقاييس الكفاح من أجل السلطان ؟

واسرع العباس يرده عن ظنه ويردعه :

« يا أبا سفيان انها النبوة » .

فهز راسه هزة الموافقة والتسليم وهو يقول :

« فنعم اذن .. » .

ثم انطلق الى بلدة البيت يسبق الجيش . وكان الناس بمكة قد ضاقوا ذرعا بالانتظار وذهبت به ظنونهم كل مذهب ، فلما راوه اقبلوا عليه يستبقون ويسألون .. الا فليثوبوا الى الطمأنينة ما دام قد وسعه ان يحقن عليهم دماءهم ويحفظها أن تسيل على الرمال ما خلوا بين محمد وبين البلدة ..

وتصايح عليه الشباب :

« بل نذوده عنا ما ملكنا السيوف ! » .

وزأرت هند زوجه :

« قبحت من طليعة قوم ! » .

وكثر حوله الضجيج فقام فى الناس يناشدهم التزام التعقل وسلامة التفكير :

« يا معشر قريش .. مهلا . هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به .. » .

ولكن الطيش اعمى بصيرتهم وسد منهم منافذ الآذان . وهذه امراته تقود امامه حركة التمرد عليه وعصيان نصحه ، وتنطلق تؤلب القوم عليه بدافع موجدتها على محمد ، ثم لا يرضيها الا ان تهجمه فتمسك بشاربه تجذبه وهى تصيح :

« ايها الناس !.. دونكم الحميت الدسم الاحمس فاقتلوه !.. » .

فيلتف الجمع به وقد ثارت ثائرتهم على هذا الشيخ الذى ارسلوه هينا على جيوش الأعداء فجاءهم يفت فى اعضادهم ويدعوهم الى الرضوخ لهؤلاء الأعداء .

وجاهد حتى خلص من حلقتهم المضروبة حوله ، ورفع صوته بالنداء عسى ان يسمعوا له وينتصحوا :

« ويلكم !.. » .

فقاطعته امراته .

« ويلك خسئت ! » .

فلم يلتفت اليها ، بل استانف ما يريد أن يلقيه من حديث :

« لا تغرنكم هذه من انفسكم .. الا وانى نذير » .

فهتف به واحد منهم :

« فاشر بما ترى .. » .

« من دخل دار ابى سفيان فهو آمن .. » .

فيضحكوا منه :

« وما تغنى عنا دارك ؟ » .

« هذا عهد محمد .. ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

ثم مضى عنهم .

ولعل أول من أفاد من عهد محمد هذا ، كان يزيد بن أبى سفيان . دفعت الفتى جهالة الشباب ، كما دفعت غيره من شباب قريش ، الى رفع السلاح فى وجوه المسلمين حين دخلوا مكة فما لبث أن هزم كغيره وولى مدبرا ، فلما وقع أسيرا فى يد خالد بن الوليد أو كاد ، سارع أبوه اليه فخلصه وأدخله داره ليكون بمأمن .

* * *

وأتم الله نصره على نبيه . وأباح له مكة جميعا ورقاب أهلها . وكان محمد — كدأبه أبدا — الكريم السمح فلم يحرمهم عفوه ومنحهم الحياة ، وفك رقابهم وكلهم أسراه ساعة أن جاءوه منكسى الرءوس من خزى الخذلان فقال :

« اذهبوا ، فأنتم الطلقاء ... »

ولم يضن عليهم بعد هذا بغاية ما يستطيع فراح يشترى منهم عقائدهم الخاطئة بالهبات وبالأعطيات ، ويسبغ عليهم كرمه وآلاءه لا يضن على طامع فى عرض من عروض الدنيا ، كما لم يضن من قبل على شيخهم أبى سفيان بما تألف به قلبه من فخر ، وكما لم يضن عليه من بعد بالابل وانشاء غب الفتح ، يهبه اياها ويهب ولديه معاوية ويزيد ومن سار سيرتهم من رجال قريش ، عسى أن يخضع النشب من نفوسهم ما لم يخضع سلطان الايمان ...

ومع ذلك فان الأيام وحدها هى الكفيلة بطوايا النفوس ، ان شاءت أخفتها ، أو شاءت كشفتها . لم يقم محمد الا قليلا بمكة ثم أراد الله لبعض هذه النفوس ان تظهر ما تضمر . فهذه هوازن جزعت حين أتتها أنباء انتصار المسلمين فأخذت تلف حولها القبائل وتضمها لتناجز رسول الله . كان أخشى ما تخشاه ، ان هى استنامت للنصر الذى أصابه الرسول الا تقوم لها من بعد قائمة . وهى ان ظلت فى الماضى بمنجى عن الصراع الناشب بين حماة الاسلام وحماة الأصنام فلقد كان هذا لظنها ان محمدا لن يظهر على قريش ، أما وقد رأتها

تخضع له اليوم وبدأت تلتف به ، فقد رأت بقاءها مرهونا بقتاله لتعيش آمنة السرب .

وتجهزت هوازن وأعدت عدة القتال . وعلم محمد فسار اليها قبل أن تسير اليه ، وخرج بآلافه العشرة من المهاجرين والأنصار الذين فتح الله بهم عليه مكة ، وخرج معه من قريش الفان بايعوه على الاسلام منذ أيام وان كان فيهم كثيرون دفعهم الى هذا الخروج حبهم الانتصار للقريب من الغريب ، وفيهم كثيرون دفعتهم الرغبة فى الظهور امام محمد القوى المرهوب بأنهم له ناصرون ؛ وفيهم من علموا كيف أفاء الاسلام على رجاله المغانم والأسلاب فصبوا الى أن يصيبوا منها ما يستطيعون ... ثم لعلهم أجمعين — فى معرض الايمان كمسلمين صادقين — لم تخل قلوبهم من دخل ولم يبرحها بعد الزيغ.

وانحدر رسول الله بهم فى عماية الصبح ، فى واد من أودية تهامة أجوف ، يريد أن يصيب من عدوه غرة قبل ان يأخذ حذره ، فما راع المسلمين الا أحناء الوادى تمتلىء عليهم خيلا ورجلا ، وقد شدت هوازن وأحلافها على صفوفهم شدة رجل واحد من كل جانب ، تمعن فيهم الطعن وتشيع المقتلة حتى انشمر الناس ذعرا وتفرقوا عن نبيهم لا يلوون ، وان ثبت هو فى مكانه لا يريم وراح يدعوهم بصوته القوى الجهير :

« أين أيها الناس ؟ ... هلموا الى ! ... انا رسول الله .. »

ولكن نداءه تبدد فى أنحاء الوادى ولم تلقفه الا آذان ذويه وغيرهم ممن عصم الله ، وكان على فى مقدمة الثابتين . ووقف العباس ، والتف أبو بكر وعمر وبعض الصحابة برسول الله يناضلون ما وسعهم النضال ... والأهوال دائما محك ايمان الرجال .

أما أبو سفيان فلم يفارقه طبعه ، بل بدا أشد لصوقا به فى هذه الأزمة فانتحى ناحية عن الصراع ... لمثل هذا الموقف لم يأت الشيخ ، ولغير البذل من أجل محمد العدو القديم قد جاء ! وانما قاد خطمه الى المكان ظنه يسر المغنم فى ركاب هذا الواتر المحسود الذى أوسع له « الحظ » فى « ملكه » وأورثه من الدنيا ما شاء . اما وقد لاح له الآن ان الدائرة توشك أن تدور على الرجل الذى تابعه من قليل وعنقه تحت حد السيف ، فقد آن اذن لقلب شيخ بنى أمية ان يظهر ما كان يضمر ! ...

شد على كنانته بيده وفيها أزلام لم يهجرها بعد دخوله فى الاسلام ، ولعبت على شفتيه بسمة منكرة تجأر بالشماتة وهو يقول لبعض من انتحوا ناحية من اقرانه المكيين :

« والذى يحلف به ابو سفيان لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ! ... »

وضحك جبلة بن الجنيد مسرورا بنبوءة ابن حرب وقال :

« بلى قد بطل سحر محمد اليوم ! ... »

ولئن كان أبو سفيان لم يفرغ بعد كل ما فى جعبته من حقد مكنون ، وكان جبلة لم ينس مكانه من جاهليته الجهلاء فان الله شاء ان يكشف عارهما على يدى رجل مثلهما من قريش لم يكن قد تابع محمدا كابن حرب على الاسلام ، لم يمنعه شركه من الغضب لمحمد فى محنته وساعة كربه .. كان هذا الرجل صفوان بن أمية الذى لم يكد يسمع قول جبلة حتى صاح به مغضبا :

« اسكت ، فض الله فاك ! »

ثم التفت الى الشيخ الحقود ساخرا وقال :

« ويحك يا ابا حنظلة ! ... لأن يربنى والله رجل من قريش لاحب الى من أن يربنى رجل من هوازن ! »

* * *

وهكذا كبا الحقد بأبى سفيان هذه المرة لان شماتته سبقت الأحداث قبل الأوان ، فلم يتخل الله عن المسلمين فى حنين ، ولم تطل بهم الهزيمة أو تنتهى عند البحر ، ولم يغير من مصير المعركة ان وقفت كثرة قريش منها موقف المشاهد أو المتربص الحاسد ، بل اتم الله النصر الذى وعد نبيه ، وايده بجنود لم يرها الناس كانت له الظهير ، وكان بها الظاهر العزيز .

ونشر الاسلام بعد هذا لواءه فى بلاد العرب كافة . ودخل الناس افواجا فى دين الله حتى أصبح الشرك سبة ، وغدا المشركون قلة . ولم تهل السنة التاسعة من الهجرة حتى كان جهاد الرسول بالسيف فى الجزيرة قد قارب الغاية واوفى على النهاية ، ثم لم تكد تشرف على نهايتها حتى قضى الله على الشرك بالتشريع فانزل آياته

الكريمة تنقض كل عهد كان للكفر الا عهدا موقوتا فانه يبقى الى اجله ولا يتعداه .

وبهذا التشريع أرسل النبى عليا الى مكة ليؤدى عنه ويقرا محكم التنزيل على الناس . وكان الوقت موسم حج ، وكان ابو بكر اذ ذاك اميرا على الحج من قبل رسول الله فرأى بعض الصحابة أن يبعث اليه فيؤدى الرسالة عنه ، ولكن محمدا ابى الا ان « يؤدى عنه رجل من أهله »

ولحق على بأبى بكر ، والناس بمنى يقومون بمناسكهم ، فتنحى له الأمير وقام هو بينهم مقام محمد يرسم ناحية سياسية جديدة فى تاريخ الدولة ، ويرفع صوته بتشريع الله :

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ... »

حتى اذا أتم تلاوة ما انزل الله ، التفت الى الملأ يقول :

« ايها الناس ... انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو الى مدته » .

وانتهى بهذا البيان ما كان لأهل الشرك ممن لجأ فى عهود قطعها لهم رسول الله على نفسه . وظل مستمسكا بها لا يحيد طوال اعوام . وخبا نجم الكفر أو كاد أن يصيبه الأفول ، الا فى طرف ناء من اطراف الجزيرة حيث قامت فتنة باليمن حيث ابى الناس ان ينزلوا على حكم الله ويرفضوا الاسلام . فكانهم بهذا أرادوا لابن ابى طالب ان يبدى للتاريخ صفحة من البطولة جديدة . ومن سواه ، جيش وحده كما قال رسول الله ، أولى ان يسير الى اولئك الأقوام ليخضعهم ويضع أنوفهم فى الرغام ؟

ذهب اليهم ، فى جمع من الرجال لا يزيد على ثلثمائة يسير بهم الى دولة لم تعن مرة واحدة للحجاز وخضع لحكمها الحجاز مرات ، وعاود هناك سيرته ، معتدا ، معتزا ، واثقا بنفسه وبنصر الله ، لا ترهبه الكثرة التى طالعته من عدوه ، ولا الهجمة العنيفة التى فاجأوا بها جيشه الصغير . وثبت لهم كما لم يتح لغيره احسان الثبات . وكر فأوقفهم ، ثم كر فشتتهم ، ولم ينجهم من الهزيمة

والخسران ان اعادوا تنظيم صفوفهم وزودوها بقوى جديدة من رجال وعتاد لانه ما زال بهم ينقلهم من رعب الى رعب حتى آثروا السلامة بالتسليم .

وكانت هذه الواقعة ختام الغزوات بالجزيرة ؛ وكان وفد اليمن آخر الوفود التى اقبلت من الانحاء على رسول الله تلقى اليه بالزمام ، وتبايعه على الاسلام ، وفرغ على مما بعث اليه فشد رحاله الى مكة ليلقى رسول الله قد اعتمر وتأهب لحجة الوداع .

البداية

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون » .

١

مدينة الرسول زال عنها كابوس التوجس الذى الم بها ثلاثة ايام سيطر فيها على حواسها فأكربها ، واصبحت صباحها هذا مطمئنة قد عاودها رضاء البال ، باسمة ، فياضة البشر بعد هم ... وهؤلاء ناسها قد استطاعوا اخيرا ان تنفرج منهم القلوب وتتحلل من اصابع اليأس التى كانت تقبضها وتعتصرها عصرا . وانثلجت صدورهم فهدات الخواطر وبسمت الشفاه والنواظر ، ثم راحوا يستقبلون حياتهم كما عهدوها ، ريانة جميلة ، يرف عليها صفاء محمد وتثيرها اشراقة محياه . غاب عنهم الآن ما ساورهم من قلق عليه وجزع قتال . وانطوت المحنة التى جثمت اشباحها كالجبال على قلوبهم خلال أويقات المرض الذى نزل بمحمد فحجبه عنهم . أما اليوم فقد تبدلت الحال وزالت شدتها ، ولن يلبث الرسول الا قليلا ثم يعود فيهم ، كما كان ، حادبا عطوفا يوليهم من رقيق حنانه ، وعذب بيانه ، وخالص ايمانه وقدانبس عافيته وعاودته الصحة... وانهم ليوقنون ان دعواتهم التى انطلقت بها القلوب قبل الألسن ، قد وجدت عند ربهم سميعا . ما كان الله ليرزأهم فى نبيه ويدعهم بعده حيارى وما كان ليغيب عنهم وجهه ، ولكنها تجربة مرة اجتازوها ليختبر الله قلوب قوم مؤمنين .

على ان واحدا منهم ، قبل يومهم هذا ، لم يكن يستطيع ان يلمح قبسا من الأمل فى احناء ما احاط به من قنوط . فالألم ينزل بمحمد ، ويبرح به ويشتد عليه حتى يحتجب مكدودا أعياه الوجع ونالت منه برحاؤه . ثم الحوادث من قبل قد تكلمت بأفصح لسان فأبانت عن المستقبل اشام بيان ... ان حجة الوداع كانت أول النذر بالمصير المخوف واثارت فى نفوس المسلمين كوامن التوجس . سمعوه جميعا اذ ذاك يقول :

« انى لا ادرى لعلى لا القاكم بعد عامى هذا ، بهذا الموقف ابدا ... »

فما عساه عنى بهذا الكلام ؟. وماذا اصابهم وهو يجاوز شفتيه

فتتقبله الأسماع ان لم تكن اصابتهم رجفة هزت كيانهم واشاعت في قلوبهم شائعات الجزع ؟ ...

ثم جاءهم التنزيل بما لم يدع لهم معدى عن لازم التأويل . الم يقل الله سبحانه في ختام آياته :

« اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ... »

فاذا اكتمل الدين الذي به أرسله الله فلأى الغايات بعد تمتد بالرسول الحياة ؟ ...

ثم توالت النذر من بعد تلوح بالمصير المحتوم ، ولم يكن آخرها ان تلا محمد القرآن مرتين على جبريل هذا العام وكان يتلوه مرة واحدة فيما سبق من الاعوام ... توالت النذر وما فيها الا صور تفصح عن القضاء الداهم والرزء القاصم حتى غدت بها النفوس على حوافى اليأس .

ولكن هذا كله وغيره ، ما لبث القوم أن أنسوه لان المسارعة الى نسيان المكاره أولى بطبيعة الانسان ... هذه اقباس من الامل أخذت تبدو في آفاق القنوط فتبدد ظلامه وتطوى اعلامه . ان محمدا برىء أو هو الى البرء يسير . بهذا انبأ البشير ، وبه جرت الظنون في الأفهام كمجرى ثابت اليقين . وكفاهم لينسوا قلقهم ان طلع عليهم ، وهم خلف أبي بكر في صلاة الصبح ، معتمدا على على بن أبي طالب . بل لقد كاد أن يفتنهم ظهور محياه عن الصلاة ... واقبل فصلى بينهم ، فلما انتهى وعاد الى داره كان قد خلف في كل قلب رجاء النجاة . وانقضى الوقت بعد هذا على خير ما يكون الامل . ويأتيهم من لدن نبيهم ، بعد قليل ، من يأمرهم عنه بانفاذ بعث الشاب أسامة بن زيد بجيشه الى الشام فتكاد تنطق ظواهر الحال بصدق الآمال ، الم يكن هذا الجيش يضم ابا بكر الصديق ، ويضم عمر ابن الخطاب ، ويضم غيرهما من صحابة الرسول صفوة الرجال ؟. وهل يدور بين الأخلاد والأذهان ان يبعد النبي عن المدينة كل هؤلاء لو كان يعلم أن سيقع الخطب ويرزأ المؤمنون فيه ؟ ... ثم من عسى أن يكون للناس مقياس الطمأنينة على نبيهم ان لم يكن ابو بكر وقد شاهدوه قد امتلأ طمأنينة حتى غادر المدينة الى السنح لقضاء يومه بين اهله وذويه ؟ ... ومن غير ابن أبي طالب اعلم بالحال وقد لازم الرسول طوال المرض وكابد ما كان يلقاه ؟ ... من غيره وقد رآوه

تطلق محياه اذ خرج من بيت عائشة والشمس جانحة الى الضحاء ذلك الصباح ، حتى توسموا خيرا فأقبلوا عليه يسألون :

« يا أبا الحسن ، كيف خلفت رسول الله ؟ »

فأجابهم بكلمات ، حلوة الجرس صافية النبرات :

« أصبح بحمد الله بارئا ... »

* * *

ومع ما افاءت البشرى على نفوس الناس من طمانينة وبذرت فيها الرجاء والآمال ، فلقد كانت هناك بين موجة التفاؤل التى سرت بين القوم قلوب لم يبرحها الهم . مرهفة الشعور تكاد أن تلمس المصير المرهوب ونزلة القضاء ... فلم تنفرج فاطمة ، ولم يذهب عنها الروع وان رات اباها معافى يخرج ذلك الصباح ويصلى بين صحبه المتلهفين على لقائه المشوقين الى سماع صوته الذى حرموه ثلاثة أيام . ان الزهراء لم تخنها الذاكرة ولم تخدعها ظواهر الحال وهى العالمة بخباياها الواقفة على بواطنها وليس ذلك اليوم عليها ببعيد وقد ترك فى نفسها طابعه ... وليست حليفة الأحزان بالسباقة الى نسيان الأحزان وان بدت لها اليوم بشائر الرجاء . وكم من لحظة راودت فيها قلبها على التفرج فأبى القلب الرقيق الحساس الا العودة بها الى تلك الجلسة الهادئة بجوار أبيها فى دار عائشة وهو بعد فى مكتمل عافيته . ولم تكن اذ ذاك توجس شرا ، بل كانت تحسب الأيام تجرى وئيدة بالسعود . ومع هذا فقد مال عليها رسول الله يسر في أذنها حديثا لم تملك عند سماعه الا أن تدمع عيناها وتبكى . واشفق عليها ابوها فمال ثانية يلقى فى سمعها كلاما افترت له شفتاها عن بسمات فياضة البشر والرضا ، وعجبت عائشة اذ رات ذلك ، فأقبلت عليها تسألها عما أسره لها رسول الله ، وتقول :

« ما رايت كاليوم فرحا أقرب من حزن ! ... »

فلا تشفى فاطمة ابها غليل السؤال ، بل تجيب :

« ما كنت لأفشى على رسول الله سره ! »

فاذا تصرمت بعد هذا الأيام سبق الظن بفاطمة ظواهر الحال ،

وتجسم حدسها يقينا ظاهره ما اسره لها رسول الله . وحضرتها الآن وهى الى جواره ، وقد عاد لتوه من صلاته الاخيرة خابى اللون معصوب الرأس ، تلك الكلمات التى ابت ان تلقى بها الى عائشة حين احفتها السؤال .

« ان جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة ، وانه عارضنى هذا العام مرتين ، وما اراه الا قد حضر اجلى ... »

وغام بصرها بفيض الدمع كأول مرة فنأت به عن ابيها حتى لا يشهد عليها الما يؤذيه ثم استرجعت بقية سره حتى لقد حسبته يعيد عليها القول :

« ... انك اول أهل بيتى لحوقا بى ، ونعم السلف انا لك ... الا ترضين ان تكونى سيدة نساء هذه الأمة ؟ ... »

فتعاودها ثانية بسماتها الذاهبات تدفع عنها أساها . لانها لن تلبث الا قليلا ثم تلحق بأبيها رسول الله ، وليس عليها بعد هذا خوف من الألم لطول الفراق ...

ولئن كانت فاطمة قد تفردت بمعرفة السر حتى باتت اثناء المرض تكاد أن تلمح أشباح المصير المخوف ، فان عليا كان من الالى توجسوا من مرض النبى وسكن قلوبهم الاشفاق من قرب وقوع الرزء الداهم . ان زوجه — بطبيعة الحال — لم تفش اليه ما كان من حديث الرسول ولكنه كان حقيقا بأن يلمح فى وجهها ما يخشاه . ثم هو يعلم ما علمه غيره من القوم من البينات التى كانت ترجح كفة التشاؤم ، كحجة الوداع ، ومعارضة جبريل مرتين بالقرآن ، ومصارحة التنزيل بختام الرسالة التى بعث الله بها نبيه لهداية الناس . علم هذا كله وجاءته بعده بينة لا تقبل الريب ولا تحتمل التأويل . ففى ساعة من ساعات المرض تسبق الرحيل عن الأرض بقليل . دعاه اليه رسول الله وفى عينيه ما كانتا تشعان من نظرات اعزاز واكبار لهذا الربيب الحبيب ، حتى اذا استوى بالشاب المجلس خلع الرسول خاتمه وحمل سيفه فقدمهما هبة منه لابن أبى طالب . وارتجف كيان على اذ ذاك ، وسارع يشيح بوجهه عن رسول الله حتى لا يرى فى مآقيه لمعات الدموع — وكان ابو بكر معهما ففعل مثل فعله وغض من طرفه . ولم يبق شك لدى الرجلين فى أن رسول الله — اذ علم مصيره كما الهمه الله — قد

آثر بخير ما يملك فى دنياه صفيه المحبوب لأن العمر لم تبق فيه بقية لحمل الاختام او لامتشاق الحسام ...

ولقد كانت اللحظة التى طالع فيها على الناس بكلماته المطمئنة هى نفس اللحظة التى لم يمس فيها قلب العباس بن عبد المطلب أثر واحد من آثار الاطمئنان ، الشيخ المجرب لم يذهب ما راح من سنى حياته عبثا ، ولم تفقد بصيرته ما كان لها من نفاذ . لذلك أقبل على ابن اخيه ينتحى به من القوم ناحية ويقول :

« يا على . احلف بالله لقد عرفت الموت فى وجه رسول الله كما كنت اعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب . فانطلق بنا الى رسول الله .. فان كان هذا الأمر فينا عرفناه ، وان كان فى غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس » .

ولكنه طلب كان قمينا بأن يلقى من على الرد والاباء قبل ان يلقى السمع والاصغاء . أفيقر له الناس بوصية رسول الله لو أنه أوصى بأن يكون فيه الأمر ؟ .. هذه خاطرة طافت بذهنه اذ ذاك وفيه من وقائع الحال الجواب الحاضر على السؤال . فمن قليل ، ورسول الله يغالب وعكة شديدة قال لمن حضره من الصحاب :

« ايتونى بدواة وصحيفة ، اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده .. »

فكيف استقبل الحاضرون من بينهم هذا الكلام :

قال عمر :

« ان رسول الله قد غلبه الوجع ! »

وقال سواه :

« بل قربوا يكتب رسول الله ... »

ثم اختلف الباقون فى الأمر بين موافقة واباء ، لأن الذى كان حريا بأن يقر فى الأذهان أن وصية الموعوك أولى أن تكون فريسة الشكوك .

وهكذا لم يكن لعلى بد من أن يجيب عمه :

« والله لا أفعل ، فوالله لو منعناه لا يؤتينا احد بعده ... »

وكان بهذا الجواب موفيا على الصواب وكان العجيب لو انه حدث النبى اذ ذاك فى ان يوصى له أو به ، لانه بهذا الحديث سيكون النذير لرسول الله بغائلة الموت — وحاشاه ! .. والأعجب ان يخالف طبيعته فى البر بمحمد الجدير منه باستقصاء الترفق به فى لحظاته

الباقية اشد استقصاء ! .. في لحظاته الباقية لأن الضحاء لم يكد يشتد من ذلك اليوم الذى فرح فيه الناس ببرء نبيهم حتى عدت العادية التى دهمت الأنام واطاشت الأحلام . قضى الأمر فى محمد ، وسمت روحه الى جنة المأوى .. والى سدرة المنتهى .. والى الرفيق الأعلى . وبقى الناس حيال النبأ مهدودى الكيان من جزع يعقل اللسان فلا ينطق ، وفجيعة تأبى على الجنان أن يصدق . كلهم امام الخطب ذاهب اللب مسلوب القلب ، اذهله النعى عن نفسه وخلفه من شدة ولهه فى غمرات .

يا لمدينة الرسول ، وآل الرسول ، وصحب الرسول !.. يا لهم من يوم خالد فى دنيا الأحزان ، ليس كمثله فى الليالى الحالكات ليل ! .. يا لهم منه . قاتما اسحم . اذا جرى به نحسه وان سطعت شمسه .. موصول به الكرب كأن لم يكن قبله كروب تصيب القلوب ! افذهب محمد عن دنياه وغرب عن نور محياه ؟ او لم يعد الآن موته فكرة دسها على النفوس شدة حرصها عليه ؟ .. ما لهذى القلوب فيها صدوع ، وهذى العيون فيها دموع ، وهذى الدور من الحزن تمور وتمور ؟ .. لقد مضى الرسول حقا . مضى فعز الصبر فيه على ذى جلد صابر ، وشق الاحتمال على عزائم الرجال . مضى .. فهلا انطلقت اذن الألسن نادبة ، والأعين باكية ، والحناجر صائحة ناعية ، ما دامت شقت امامها الأجواء صيحة الزهراء — الى السماء :

« أبتاه أبتاه ! .. يا أبتاه ، أجاب ربا دعاه ! .. يا أبتاه ، جنة الفردوس مأواه ! .. يا ابتاه ، الى جبريل ننعاه ! .. يا ابتاه ، من ربه ما أدناه ! .. يا أبتاه .. »

٢

يوم خالد فى دنيا الأحزان ...

لمثله لم يهيأ قلب لأنه فى الرزء فريد ، ولم يشد عزم لأنه يوهى بكل صليب جليد . رزء نزل ففدح ، وعزم حمل فرزح .

ولغير هذه الغاية التى أوفت عليها المقادير الآن كانت تستبق حوالك الأحلام وتجرى فى الخواطر والأوهام . ولكنه حلم صدق فصعق ، وخطب دهم فحطم .

ان الحزن ليفعل فى القلب كمثل النار ، ان سرى اكل وان لبث قتل . وان العين لفى يد الدمع لقى ، ان شاء فاض فأغرق ، أو شاء غاض فأحرق . وان الحديث لفى الأفواه عيا أفصح عن الجزع من كل بيان ، وعلى الشفاه نطقا لن توصف الفجيعة كمثله بلسان .

يوم خالد فى دنيا الأحزان اذ مضى رسول الله . وما بعد رسول الله للناس اسوة أو عزاء ، وما للحزن على فقده مدى ولا انتهاء .

* * *

كذلك كانت المدينة . ثم كانت اطرافها .. ثم كانت الجيرة من بادية وبلدان كلما سرى النبأ الفاجع فى انة باك أو همسات محزون .

وكذلك اجتمع الناس حيارى ، يدفعهمْ اشفاقهم على قلوبهم آونة الى تكذيب الخبر ، ثم ترسلهم الصيحات التى تجاوبت بها دار الرسول الى واد من الألم ، سحيق ما له من قرار .

ولقد تجمعوا فى المسجد وخارجه حشودا بين واجم وصائح ، ومشدوه ونائح . وهذا عمر بن الخطاب بينهم اذهله المصاب حتى خرج من وقاره الى طور من الثورة عجيب . وانه ليهز فى يده سيفه ، وتندفع الكلمات من شفتيه تلتهب بنيران الوعيد وقد اقبل على الناس فى غضبة الاعصار ، يقول .

« ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله قد مات . وانه والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران .. ووالله ليرجعن رسول الله فيقطعن ايدى رجال وارجلهم زعموا انه مات ! »

ولكن محمدا قد مات وان كره عمر ، وان كره قبله وبعـده كافة المسلمين بالآلاف وبالملايين ، ذاق الكأس التى لا معدى عنها ، وخلف متبواه فى الأرض الى متبوأ فى خير دار بخير جوار . وهـذا جثمانه الطاهر رحلت منه الروح ، والتف به ذووه لا يذهلهم الهول عن جهازه ، ولا يقعد بهم عن تهيئته لغايته من دنياه ونصيبه المحدود من ترب الأرض — هو الذى ضاقت بعزم صاحبه رقعة الارض وآفاق السماء .

ها هنا الجدث ، مسجى على الفراش . وها هنا على ، والعباس والفضل وقثم ابناه . وها هنا الزبير بن العوام وصاحبه طلحة بن عبيد الله قد انضم اليهم جميعا اسامة بن زيد مخلفا جيشه بالجرف اذ سمع بنبأ وفاة الرسول . وان الموقف لفياض بالحزن الذى يفعم القلوب بالآلام ويحيط بالذهول الافهام ... ولكن شيخ بنىعبد المطلب رجل فيه تبصر وله حنكة ، بعيد مرمى النظرات فى أغوار المجهول فلم تغش قسوة الموقف عينيه ، ولم تشل خاطره ، ولم تغيب عن بصيرته ما هو مقبل عليه او وشيك على الاقبـال . فقد علمته الاحداث انه يحسن قراءتها ، وانه صادق الحدس بالعقبى . ولقد كان حقا صادق الحدس ، ساعة الضحى من هذا النهار ، حين تنبأ بوفاة الرسول وأراد حمل ابن أبى طالب على السير اليه بكلماته ليوصى بهما او يوصى لهما . وهو الآن شديد الاحساس بأن أمرا ما لن يلبث أن يتكشف الزمن عنه ، فان شاء انتهز واسرع ، وان شاء تريث فضيع ! ..

وكذلك بسط الرجل — وهو الى جوار جدث الرسول — كفه الى على ، على ملأ ممن حضر وقال :

« يا بن اخى ، أمدد يدك ابايعك ، فيقول الناس : عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ، فلا يختلف عليك اثنان .. »

فأجابه على ولم يرفع بصره عن الجثمان الكريم :

« لنا برسول الله يا عم شغل »

فصمت العباس .

ودخل بعد هذا أبو بكر وقد عاد من السنح مهدود الكيان من الحزن . لم يلق الرجل الى احد بالا ، وانما اتجه الى صاحبه الكريم المسجى فكشف عن وجهه الغطاء ، وبكى كما شاء له اساه أن يبكى ، وهو يناجيه بنبرات سالت الما :

« بأبى أنت وامى يا رسول الله ! .. طبت حيا وطبت ميتا . أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها يا رسول الله ، ثم لن تصيبك بعدها موتة ابدا .. بأبى أنت وامى يا رسول الله ! . »

وانفلت الرجل عائدا فى سكون كما جاء . ولحق بالقوم قدتزاحموا حول الدار ، حائرين بين نبأ المصاب ووعيد ابن الخطاب . فلما راى الامر ، انطلق فوقف بين الناس ، وهو يصيح به :

مه يا بن الخطاب .

فجفت على شفتيه الكلمات ، وحملق فى وجوم شديد الى الصديق وهو يخاطب القوم ويقول :

« أيها الناس ... من كان منكم يعبد محمدا فان محمدا قد مات .. ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت .. وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ... »

فما تركت كلماته فيهم عينا لم يفض بها دمع ، ولا قلبا الا أصابه صدع ، بعد أن تبين — من لم يكن قد ايقن — أن رسول الله لم يمض كما مضى موسى بن عمران وله عود اليهم قريب .. بل ذهب الى غير مآب ، ولن يكون بينه وبينهم لقاء الا فى ساحة الله ، وبعد زوال الأرض وانفطار السماء ...

***

... وراح على يعمل فيما هو بسبيله من جهاز الرسول ، والعباس لا يجد الوسيلة التى يتوسل بها الى موافقته على قبول البيعة حتى لا يخرج تراث محمد من بين ذويه . ولقد كان العباس محقا فيما ذهب اليه ظنه ، لأن الناس — وقد تبينوا الحقيقة — أخذوا يتحدثون فيما عسى سيصير اليه الأمر والى من بعد نبيهم سيؤول. ولم يكونوا اذ ذاك على اختلاف أو كانت مسالك الراى قد تشعبت بهم فنونا ، بل كان الجانب الأكبر منهم فى صفوف بنى هاشم لفرط ما قر فى الأذهان من أن هذا تراثهم الموروث الذى لا ينازعهم فيه من العرب منازع . وبهذا جرت الأخبار فيهم قبله وانطلقت به ألسن المتحدثين ، وما اظن عمار بن ياسر ولا سلمان ، ولا المقداد ، ولا أبا ذر الغفارى وأشباههم ، من ألصق الناس بالنبى الكريم ، وأبعدهم نفوسا عن الانحياز الى الأهواء والأغراض كانوا يميلون الى غير بيت

الرسول وعن حصر سلطانه فيهم ، وما كانوا — وهم الفئة التى لم يعقل ألسنتها عن الحق عقال — ليظلوا عما يدور بأخلادهم صامتين ... بل انى لأحسبهم ما فتئوا يتحدثون بما أيقنوا أنه الصواب وأنه جماع الخير لأمة الاسلام . وان رجلا كأبى ذر ، ورجالا كصحبه هؤلاء لخير رجال حرية كلماتهم المنوهة عن الهوى ان تنفذ الى قلوب العامة من الناس فى وقت لم تكن فيا القلوب قد لاثتها الأغراض .

ولقد اجتمعت طوائف من المسلمين فرقا تتشاور . فاجتمع عمر بمسجد المدينة يشاور أبا عبيدة بن الجراح . واجتمع سعد ابن عبادة بسقيفة بنى ساعدة يشاور الأوس والخزرج . واجتمعت هنا أو هناك زمر تتحدث وهى لا تقطع برأى ، ثم ظل آل محمد ، ومعهم الصديق ، مشغولين بالجثمان وان بقى العباس من دونهم مشغولا بما ملأ خاطره وشاع فى باله من امر الشاب الذى يجدر أن يرث سلطان الرسول ولا يحرك كفا لالتماس هذا السلطان ...

وطرق عليهم الباب فاذا رجل يدعو أبا بكر :

« ان ابن الخطاب ، يا أبا بكر يدعوك .. »

فيجيبه الشيخ بهدوء :

« انى مشتغل .. »

ثم يعود هو وصحبه الآخرون الملتفون بالجثمان الى ما كانوا فيه . ولكن الباب يطرقه ثانية الطارق نفسه ، يكرر دعوته السابقة ويقول :

« يا أبا بكر .. ان ابن الخطاب — »

فيقطع الصديق حديث الداعى ، ويصيح به :

« أفى هذه الساعة ؟ ... ويح ابن الخطاب ؟... انى مشتغل بجهاز الرسول . »

« انه قد حدث أمر لابد لك من حضوره ، وقد جئتك ابلغ .. »

فلا يجد حينئذ مناصا من الخروج .

ويبدأ القلق يلعب بفؤاد العباس فلم يبق بعد تريث ولا امهال . ان كل لحظة تمر تغير من سير الأحداث .. ويهم ان يتقدم الى ابن اخيه فاذا الظروف تمده من لدنها بعون على التقدم اليه بما تقدم به من قبل .. تمده بأبى سفيان بن حرب قد اقبل بعد ان نما اليه الخبر عن وفاة الرسول ، ويبدو شيخ بنى امية محزونا وحق له ،

فمحمد منه خير آله وان قضى بينهما من الخلاف ما كان . وابوسفيان بعد هذا رجل له دراية ، فجاء وفى يقينه مثلما انطوى عليه يقين الآخرين من سواد الانصار والمهاجرين . هو يعلم انهم كانوا فى قراراتهم مؤمنين بأن تراث النبى لن يترك داره ولن يخرج عن احب ذويه واقربهم اليه . علم هذا وعلموه حق اليقين . واولئك الذين لم يكونوا على ثقة منه كانوا يؤمنون بأن آل محمد اولى بتراثه ... حتى الذين انحازوا الى سقيفة بنى ساعدة لم يكن اجتماعهم فى البدء لانتزاع السلطان وانما للتحوط لأنفسهم ولمكانتهم ممن سوف يتولى هذا السلطان ..

وكذلك دخل أبو سفيان دار الرسول ليقر بالأمر لمن حسب الناس اجمعين سوف يقرون له به ، وهو فى هذا لم تغب عنه روح الناجر الذى يزن الزيادة والنقصان ، ولم تخل نفسه من حرص على حق لبنى عبد مناف أسرته خشية أن يلقفه دونهم غريب ... ولئن بدا الشيخ ، فى هذه الآونة ، اصفى نفسا لآل محمد مما كنا عهدناه . فلأنه يعلم عن يقين انهم اليه أدنى وعليه — من غيرهم — اجدى ... ثم لانه يعلم أن الأمر اشبه بسباق هو المتخلف فيه — على اى الحالات — وغيره السابق المجلى ولو كان هذا « الغير » هو اضعف المسلمين حسبا بين صحابة رسول الله !..

وتقدم الرجل ، بجوار العباس ، الى على يدعوه :

« يا أبا الحسن ... هذا محمد قد مضى الى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك ابايعك فانك لها أهل .. »

فيجيبه على فى طمأنينة ووثوق :

« يا ابا حنظلة . هذا امر ليس يخشى عليه .. »

ويسمع العباس جواب ابن اخيه فلا يرضيه . ان الأمور دائما رهينة بالأوقات وليس يملك المرء الا لحظة هى حاضرة ان تلبث بها لم تتلبث ، وتفلتت عجلى الى ماض قد لا يستطيع اخذه ، وحرى بالرشيد ان يملك زمنه ...

يقول له العباس ، وهو يشير الى شيخ بنى امية :

« يا ابن اخى .. هذا شيخ قريش قد أقبل فامدد يدك ابايعك ويبايعك معى . فانا ان بايعناك لم يختلف عليك احد من بنى

عبد مناف . واذا بايعك عبد مناف لم يختلفْ عليك قرشي . واذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد في العرب . »

فيتريث علي برهة يفكر ، هذا حقا منطق الرجل النهاز الذي تعنيه الغاية ولا تعنيه الوسيلة ، وكان هو غير ذاك . انه ليعلم انه للبيعة أهل ولكنه يرى لزاما عليه أن يتخير الوسيلة الصالحة الى هدفه . وقد عرف للبيعة حقا يجب توفره لتكون بيعة صحيحة ترضيه وتوافق ما جبلت عليه طبيعته المثالية .. كان معنيا دائما بالتماس الكمال واحتذائه فلا يميل الى الحلول التي يمليها الارتجال او الدفعة أو تحين الفرصة . وانه لعلى ثقة من نفسه ومن قدره ، تقدم له أبو سفيان أو لم يتقدم . ولكنه كان حريا أن يعرف ان الامام جدير به الا يملك سلطان الناس بغير مشورة منهم وبعيدا عن أعينهم ، بل الأولى به والأبين على صحة بيعته أن يكون هذا على رءوس الأشهاد حتى لا يفصل بين احد وبين الاعتراض لو شاء الاعتراض .. ولم يكن العباس هو كل الناس ، ولم يكن شيخ قريش كذلك — بل هما رجلان مفردان وان علت اقدارهما بين القوم ... ولذلك نراه يغضي عن كف أبي سفيان المبسوطة اليه ويغضي عن كف عمه ، ويهز راسه لهما وهو يقول بالمأثور من صراحته وشدة التزامه نهجه الأمثل :

« لا والله يا عم !.. فاني أحب ان أصحر بها ، واكره ان ابايع من وراء رتاج !... »

وخرج ابو سفيان لا يعقب ، فقد رأى العزم وسمعه في كلتا الكلمات والنظرات . وبقي العباس صامتا لا ينبس كما بقي الآل والصحب الحاضرون . أما علي فقد عاد الى ما كان فيه من جهاز الرسول فاحتمل الجدث الطاهر ثم اقبل عليه يغسله . وكان أسامة ابن زيد ، وشقران مولى رسول الله يصبان الماء وقد أسنده هو الى صدره يدلكه من فوق القميص فلا يكشف عنه ولا تفضي اليه يداه . ولقد استطاع على أن يفرض على نفسه — ثابتا — هذا الواجب المؤلم الذي يهد الكيان ويمزق نياط القلب .. وبحسبه ان كان يهيىء اذ ذاك حبيبه المختار لرحلة فراق ما بعده في هذه الدنيا تلاق . استطاع هذا وان ابت عينيه ان ترقأ وابى ان يخفت وجيب قلبه وهو لا يني يردد من بين الدمع بنبرات ثاكل محزون :

« بأبى أنت وأمى .... لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء . لولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشئون . ولكان الداء مماطلا ، والكمد محالفا — وقلا لك !.. ولكنه ما لا يملك رده ولا يستطاع دفعه ، بأبى انت وأمى !.. اذكرنا عند ربك ، واجعلنا من بالك .. »

٣

طرق باب حجرة الرسول ثالثة فى ذلك النهار .. ولكنها كانت ، هذه المرة ، طرقات عنيفة تلاحقت فى سرعة ، فيها لهفة وفيها قلق ، وكان الطارق هذه الدفعة ، رجلا آخر غير ذاك .

وقام الى البــاب من فتحه فاذا البراء بن عازب يمـرق داخلا كالسهم ، لا يحيى ولا يسلم ، مبهورة أنفاسه ، عليه وعثاء المسير ، فى وجهه وجمة الذى يخفى بذات نفسه أمرا يعرف كيف يؤذى اسماع القوم لو ألقاه وفى كيانه اضطــراب ، وفى عينيه نظــرات الغضب الثائر وان اختفت تحت حكمة المتريث المحاذر .

وانبرى اليه العباس ، متلهفا يهتف به :

« البراء !.. فيم أنت ؟ »

فألقاها كلمات موجزة ، مريرة النبرات :

« فى أمر ، يا بنى هاشم ، فاتكم شهوده وفاتكم به الأمر !. »

وجلس يستروح .

وجم الحاضـرون . وملك الصمت منهم الأفواه ، وراحت نظراتهم تنتقل ، حيرى على وجوههم ، وكلهم رجل شارف به شعوره الشر المجهــول .

وكان العباس أملكهم لنفسه ، فلم يلبث حتى انتبه يستنبىء البراء جلية خبره :

« فقل ، ولا تخف »

فبسـط الرجل كفيه يائسا ، واجاب :

« قعدتم فملكتم ، وغلبكم ابن أبى قحافة عليها . »

« ويحك ! »

« وبايعته الأنصار فى بنى ساعدة .. »

« والمهاجرون ؟ »

« أما هؤلاء فلا . وانما هم فى المسجد الآن ... ولكننى شهدته بعد السقيفة بعينى ، الى يمينه عمر ، والى يساره ابن الجراح ، لا يمر بهم أحد ولا يمرون بأحد الا قدموا يده — شاء أو أبى — فمسحوها على يد ابى بكر .. »

وتوقف الرجل عن الحديث وقد بدات البغتة تظهر فى عينيه والقلق يشيع فى وجوه الحضور .. ان همهمة خافتة سرت فى الأجواء خارج الدار ثم أخذت تعلو ، ثم اخذت تقترب اذ تعلو حتى تبينوها ألفاظا وكلمات . وما لبث المكان الا قليلا حتى ارتج عليهم بأصوات التهليل والتكبير تسرى من مسجد الرسول . هتافا لخليفة الرسول ، فى لحظة كان جثمان الرسول مسجى فيها على فراشه لم يطوه بعد اللحد .

وصاح العباس اذ ذاك فى بنيه ، وفى ابن اخيه ، وفى من حضره من آل هاشم وقد فاض بكلماته الغضب والهبها الهابا :

« تربت أيديكم !.. اما انى أمرتكم فعصيتمونى .. تربت أيديكم آخر الدهر !. »

ذاك لم يجر مطلقا لبنى هاشم فى بال ، ولا لغير بنى هاشم من المهاجرين ، ولا لغيرهم أيضا من الأنصار ، وان تمت البيعة لأبى بكر أولا على يد الأنصار .

ولكن الحوادث جرت سراعا تسبق سرعتها جريان الخواطر فى الأذهان ، حتى ابو بكر نفسه لم يطف بذهنه — الى قليل — انه سيكون خليفة الرسول ، لا ولا عمر ، ولا ابن الجراح وهما اللذان ساعداه وانتزعا له البيعة انتزاعا . وانما كان الأمر فى البدء لا يجاوز اجتماع الأنصار بالسقيفة يتشاورون فى مكانتهم بعد وفاة الرسول ، وفى مكانة بلدتهم ... ويحدسون يا ترى سيخرج سلطان الاسلام من المدينة دار هجرة النبى الى مكة بلدته وبلدة ذويه من قريش الذين سيؤول من بعده الأمر اليهم .. ويتساءلون هل عسى المهاجرون سيؤلونهم الخير الذى أوصى به رسول الله . انهم ليذكرون كيف اختصهم محمد ، وكيف شاد بذكرهم ، وكيف قال عنهم انهم بيعته

وانهم لجأه ، وانه السالك دائما شعب الأنصار وان سلك الناس اجمعين شعبا سواه ... فماذا تصير اليه حالهم لو أتاهم بعده من يخرج بسلطانه عن ديارهم فلا يشيرون ولا يشاورون ؟.

قال منهم قائل :

« منا أمير ومن قريش أمير .. » .

وسأل منهم سائل :

« فان ابوا عليكم ؟ » .

فخرج الحديث بهذا عن نطاقه المضروب ، وتفرق شجونا .

عز على الكثيرين منهم الا تكافأ نصرتهم النبى لدى المهاجرين ، بتأمير واحد من رجالهم الى جوار امير من هؤلاء ، وأن يبدوا فى عيون قريش أهون أمرا مما يعرفون من شأن انفسهم هم الذين اقاموا بأسيافهم دعائم الاسلام وبأموالهم اود رجاله الاولين . ولم يكن المهاجرون قد أبوا بعد عليهم شيئا ولم يحضر حديثهم ذاك منهم واحد ، ولكن الأذهان استقبلت الحوادث بالظن والترجيح ثم سارت فى سبيل الظنون تبنى على اساس الخيال .

وانقلب الحديث بعد هذا الى موازنة بين فضل وفضل ، وبين قوة وقوة . لئن تجشم المهاجرون الصعاب وخرجوا من ديارهم في سبيل دعوة الاسلام ، فلقد وجدوا فى المدينة رجالا ذادوا عنهم بغى القريب والغريب ، وشرعوا الأسنة فى سبيل الدين حتى نشر لواءه على الجزيرة من طرفيها . ثم فيم قريش اليوم من سلطان الاسلام وقد كانت — الى قريب — اعدى أعداء الاسلام ؟.. لقد ضربوا عليه بالسيف حتى دانوا اخيرا والقوا الزمام فى يد النبى وأيدى ناصريه . فاذا رأوا اليوم لهم من ورائه مغنما فى سلطان ، اقبلوا يستلبونه ثمرة ناضجة من يدى سقاته بدمائهم وغارسيه ؟!

هذا والله لن يكون !

وكذلك جلس سعد بن عبادة ، شيخ الخزرج ، فى سقيفة بنى ساعدة يدعو الأنصار ان يملكوا بينهم امرهم ويوحدوا كلمتهم فلا يخرج الأمر من أيديهم ، ولا يذهب دونهم بالفضل من تخلف عنهم فى الفضل . ولم يكن استلاب حق المهاجرين الأولين يدور للأنصار فى بال ، ولكن شيخهم علم ان أولئك المهاجرة قلة فى الناس وقلة فى قريش الى جوار كثرة الأنصار السابقين جميعهم الى الاسلام . وكان الرجل

ضاويا مريضا ، يسرى صوته كالهمس فوقف الى جواره يبلغ عنه ، رجل طوال ، مديد القامة ، اصلع ما فى وجهه طاقة شعر ، هو ابنه قيس .

ولقد كادت الأنصار تستجيب للدعوة ، وهمت ان تبايع لشيخ الخزرج وهو من علمت سابقته فى الدين ، وفضله ، وكرمه الذى استطار صيته بين الناس وغمر به المهاجرين قبل الانصار . وانهم ليذكرون له فى هذا كلمة عرف بها وأثرت عنه يوم ان عاد قيس ابنه من سفر صاحبه فيه أبو بكر وعمر بن الخطاب .. كان قيس خلال الرحلة جوادا مسماحا ، ينفق على صاحبيه ويغمر ، ثم لا ينى ينفق ويغمر حتى دفع جوده أبا بكر الى ان يقول :

« بعض مال أبيك يا قيس !.. امسك يدك .. » .

فلما علم شيخ الخزرج ذلك وقد آبوا من سفرهم ، قال لأبى بكر :

« أفأردت ان تبخل ابنى؟.. انا يا أبا بكر قوم لا نستطيع البخل!. »

اجل همت الأنصار أن تبايع للشيخ الكريم لولا أن رجالا من الحاضرين لم ينسوا حق آل الرسول وذويه من قريش ، ورجالا آخرين عادت أحقاد الجاهلية الأولى فى صدورهم المغلولة ؛ ورجالا سوى أولئك وهؤلاء استبد بهم حسدهم للشيخ وتحينوا به الفرص لكى يخذلوه .

انفلت من بين القوم من يمم شطر دار الرسول فوقع على عمر بن الخطاب بالمسجد يتحدث الى أبى عبيدة بن الجراح ، فأفضى اليه بما يدور فى السقيفة .

وهب عمر من مكانه مبغوتا يزأر . وبانت الغضبة فى وجهه اذ كانت الانصار تذهب دون قريش بالسلطان على العرب . وتلفت حوله برهة حائرا ، ثم ما لبث أن مد الى رفيقه كفه وقال :

« ابسط كفك يا ابا عبيدة ابايعك ، فانت امين هذه الأمة على لسان رسول الله » .

فلم يبسطها الرجل . بل نظر اليه عاتبا واجاب :

« ما رايت لك فهة قبلها منذ أسلمت يا بن الخطاب !.. اتبايعنى وفيكم الصديق ثانى اثنين اذ هما فى الغار » .

وهكذا تبدل الموقف . واسرع رسول من لدن عمر الى دار النبى يدعو ابا بكر حتى يلحق بصاحبيه ثم يروا رايهم فى أمر الأنصار .

***

منــذ تلك اللحظة قر فى ذهن عمر ان ابا بكر هو أولى النــاس بخلافة الرسول . وليس فى هذا ما يؤخذ على ابن الخطاب او يطعن فى قدرة الخليفة الأول وجدارته لتولى شئون الناس ، ولكن الواضح الجلى أن راى عمر جاء عفو وقته ولم يأت من تدبر وتفكير .

اجل كان عفو وقته . ولو كان طاف بذهنه يوما من قبل لما مد الى أبى عبيدة كفه ، ولما تمهل بالزمن حتى يسمع بنبأ السقيفة ، بل لكان سارع — مذ علم بوفاة رسول الله — الى أبى بكر يبايعه وقد كانت أمامه من الوقت فسحة لهذا وفسحات :

انما الذى يؤخذ على الرجل ، حقا ، انه دعا أبا بكر من دار الرسول ولم يدع معه واحدا من آل الرسول ، فانفرد وحده بالحكم على صحة الراى الذى اشار به زميله ، ووضع ابا بكر فى كفة الترجيــح دون مشورة رجل واحد غير ابى عبيدة بن الجراح كأنه وكل بقلوب المسلمين يكشفها وبألسنتهم يجرى عليها الكلام ، رغم تخلفه عن كثيرين منهم وسبقهم عليه فى الاسلام ، ورغم ما كانت تدعو اليه الحال من ضرورة مشورة واحد — فى القليل — من آل محمد الأدنين ..

ولكن عمر — فيما يبدو فعل كما الهم الموقف قلبه . واختار الصاحب الذى اختاره صاحبه اذ لم تكن لديه مهلة للتفكير فى سواه او فى التحوط لتوفير الصحة لهذا الاختيار . ولعله نسى عليا اذ ذاك كما نسى ابا بكر فى البدء ... ولعله ذكره ثم أراد ان ينساه لأنه حاول فى لمحة خاطفة ان يفاضل بين كهل وشاب فلم ير وجها الى التفضيل ، لأنا نعرف الغلام ، ونحن رجال ثم تسير بنا وبه الأعوام فيظل فى أعيننا نفس ذلك الغلام !...

٤

ما عسى كانت تصير اليه الحال لو ان ابا عبيدة اخذ الكف التى بسطها عمر وقبل البيعة لنفسه ؟.. وما عسى كان ابن الخطاب يقول للناس اذا وقف بعد هذا بينهم يقدم لهم ابن الجراح كخليفة رسول الله على المسلمين ؟. افكانت تقدمته هذه لا تعدو تلك التى قدم بها ابا بكر فكان يقول : « أيها الناس ، ان الله قد جمع امركم على خيركم ... » أم كان سيتنبه اذ ذاك الى الخطأ الذى أوقعته فيه دفعته وجعلته يختار فلا يصيب التوفيق فى الاختيار ؟

لقد كانت فى الرجل حقا دفعة . لا مراء عرفت فيه ابان كلا اسلامه وشركه : وكانت منه بعض خلقه كعنفه المأثور ... استبدت به جاهليته ذات ليلة قبل تفتح قلبه للدين ، فاقسم ليمشين الى محمد فيقتله ويكفى قريشا أمره . واذا به يتوشح سيفه ويسعى الى الدار التى يجتمع فيها النبى بصحبه الأولين . وكان فى حسبان الرجل أن يضرب عليهم الباب ثم يقتحم المكان حتى يفضى بذؤابة حسامه الى قلب الرسول .. فأين الخطل فى التدبير ان لم يكن مجسما فيما كاد أن يرتكبه ابن الخطاب ؟.. وكيف نسى ان دون وصول سيفه المسلول الى قلب عدوه اذ ذاك قلوبا تتلقى عن نبيها الطعنـــات وتنعم اذ ترى دماؤها فى هـــذه السبيل من جـــراحها تسيل ؟.. وهلا علم ، وان غرته العزة بالاثم وهونت لديه الجرم ، ان شجاعة البطش فيه لا تقوم امام شجاعة الايمان فى رفاق محمد وناصريه ؟. لئن غاب هذا كله عن وعيه فى ذلك الحين ، فقد كاد ان توقعه دفعته فى عرين يحميه خير قرين ، هو أسد الله واسد رسوله : حمزة بن عبد المطلب ! وما أحسب عمر لو اقتحم الدار الا كان ملاقيا فى الليث من يرد عليه الطعنة بذات سيفه قبل ان يفضى بها الى الرسول ان لم تنسه هيبة حمزة كيف يرفع الحسام !.. وبحسـبك أن تعرف أن ابن الخطاب تبدلت به سريرته فى الطريق فيمم تلك الدار لاعتناق الاسلام لا لضرب الهام ، حتى اذا ضرب الباب ورجفت

***

لمظهره قلوب بعض المجتمعين ، صاح حمزة يتوسل الى رسول الله :

« ايذن له يا رسول الله ... فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه ! ... »

تلك كانت دفعة من عمر عرفت فيه كبعض خلقه ، راضها الاسلام الى حد كبير ، وفل من عزمها ولكنه لم يات عليها ، بل كانت تبدو احيانا للعيان فيجعلها الناس كغلظة او كخشونة فى الطباع ... حتى فى حضرة الرسول كانت تملكه ولا يستطيع ان يتحرر منها الا اذا رده عنها راد . وكذلك كان يوم الحديبية شانه حين لم يستطع أن يتقبل بالرضا شروط الصلح التى املى اكثرها سهيل بن عمرو ووافق عليها رسول الله . فلقد هاج اذ ذاك ، وانفلت من يده زمام أمره ، حتى انبرى غاضبا الى نبيه يقول :

« أو لسنا بالمسلمين ؟.. او لست برسول الله ؟.. أو لست كنت تحدثنا انا — » .

وظل على هذه الوتيرة الخشنة من جفاء الحديث حتى صاح ابو بكر :

« الزم حدك يا عمر !... فانى اشهد أنه لرسول الله ... »

وليس من ريب فى ان دافعه فى كلا الحادثين كان الغيرة على دينه وان اختلف بين الزمنين هذا الدين ، ولكنها مع ذلك كانت دفعات تتركه يتحدث فلا يتريث . ويدبر ولا يتدبر ، شسأنه فيها كشأنه حين علم أن محمدا قد مات فقام يتوعد بسيفه من قال ان محمدا قد مات .. ولو كان تفكر قليلا لما عجب لوفاة الرسول ، ولما ثار ، ولأنباته به من القرآن آيات وآيات !.. وكشأنه حين علم ان البيعة توشك ان تتم فى سقيفة بنى ساعدة لواحد من الانصار دون رجل من قريش ، فاندفع يتلفت حوله ، حتى اذا وقعت عينه على اول قرشى — وان كان اى قرشى كما لاح ! — بسط كفه وهم أن يبايع !.. واحسب لو القت المصادفة — تلك اللحظة — فى سبيله بابن ابى طالب لما قبض عنه يده ، ولاقبل عليه يدلى بالبيعة فى غير ونى ولا امهال !..

غير ان المصادفة لعبت دورها فاجرت اسم ابى بكر على لسان

ابن الجراح ... أو لعله التدبر ... أو لعله صدق الشعور بمكانة ابن أبى قحافة فى نفس أبى عبيدة وقد رآه يقوم خلال مرض رسول الله بامامة المسلمين فى الصلاة . وسواء أكانت تلك ام هذه ام ذاك من خواطر وافكار هى التى دفعت ابن الجراح فقال قولته ، فان عمر لم يتحر مشورة رجل واحد من المسلمين قبل ان يبعث رسوله الى دار النبى يدعو صاحبه اليه .. لم يتحر مشورة مسلم واحد فى ترشيح الرجل الذى ستصير اليه قيادة دولة . ولم يتحر تمحيص الراى الذى لقنه ابن الجراح اياه عمن حسبه أولى قريش بخلافة رسول الله ، بل اندفع يعتنقه كملقيه ... وما أظن عمر قد اقتنع بجدارة ابى بكر بالمركز المنتظر اذ كان رفيق النبى فى الغار . واحق بالتقديم وأولى بالاختيار فتى خلف رسول الله على فراش أحاطت به السيوف والرماح — الراقد فيه ادنى الى القبر من مدلج فى الصحراء ، واناى عنه التماس النجاة والفرار الى الحياة !.. وما اظنه قدمه اذ عرفه يؤم المسلمين فى الصلاة بضع مرات ، والامامة فى ذاتها تصلح بالسن ، وتصلح بالعلم ، وتصلح بالسبق الى الاسلام ثم بغيرها من ميزات ، لم يتخلف على عن واحدة منها الا الاولى وليس فى تخلفه هذا ما يعاب به ولا فى تقدم غيره ما يثاب عليه !. ولكنى أحسب عمر — فوق هذا — قد نسى فى آونة الاضطراب الذى انتابه ، موقفا شهده منذ قليل وكان حريا معه أن يميل بعلى الى جانب التفضيل . فلقد عرف كيف اجتبى رسول الله ابن عمه وقدمه على غيره من كبار المسلمين : انصارهم والمهاجرين يوم ارسله الى مكة ليكون لسانه الناطق بمحكم التنزيل فى موسم حج كان ابو بكر اميره ، وذلك ليقرأ براءة ولينقض ما سلف من عهود كانت تربط بين الدولة الاسلامية الناشئة وبين جيرانها المشركين . لقد عرف عمر هذا كما عرفه سواء ، وعلم اباء النبى ان يؤدى عنه ابو بكر ما اختار عليا لأدائه عنه ، وكان قمينا بعد هذا بكل متدبر ان يعلم علم اليقين ان مهمة على لم تكن دينية بقدر ما كانت سياسية ، كأنما الرسول قد اختار ابن أبى طالب للقيام بما هو بعيد الأثر فى كيان دولة الاسلام .

ولكن التاريخ جرى — رغم هذا — فى سبيله المرسوم أخطأ عمر او اصاب التوفيق !... وخرج ابو بكر مهرولا من دار الرسول يتجه الى المسجد وهو لا يعلم فيم دعوة ابن الخطاب . ولحق بصاحبيه هناك فحدثاه بما كان من أمر الأنصار فى السقيفة . ولست أظن الشيخ علم — قبل أن يبرحوا ثلاثتهم المكان — ان صاحبيه ارادا تنصيبه خليفة على المسلمين . ولا اظنهما أيضا حدثاه بما ينم عما اعتزماه ، وانما سار معهما يحث الخطا الى بنى ساعدة وفى باله ان يسعى جهده للاحتفاظ بسلطان محمد لقومه قبل ان يلقفه منهم الانصار ...

اجل فلم يكن الرجل يطمع مطلقا فى سلطان . ولم يك يجنح قبل يومه الى حكم الناس ، بل قد كان من الألى ينفرون من التأمر ولايجرى امتلاك امور الاقوام له فى خاطر . وان ماضيه لعلى هذا لشاهد ، فقد مر به — ذات يوم على عهد الرسول — اعرابى عرف له صلته الوثقى بنبى الله فجاءه يستفىء منه بحكمة لعله نهلها من نبع محمد ... قال له .

« يا ابا بكر ... أوصنى » .

فأجابه ، كأنما قد اعد له من زمان طويل جواب السؤال :

« اوصيك الا تتأمر على اثنين »

فكانت وصاة نضحت عن طبع جبلت عليه نفسه وان أراد له التاريخ الا يأخذ بها نفسه حين تداركت امامه الأحداث !...

***

ولقيهم — وهم موشكون على بلوغ السقيفة — عويم بن ساعدة ومعن بن عدى : أنصاريان خرجا على اجماع أصحابهما ذلك النهار .. فاستبقا نحوهم يسألان :

« أين تريدون ؟ »

قال ابو عبيدة :

« الى اخواننا هؤلاء ننظر ما هم فيه » .

فنصحهم عويم :

« لا عليكم الا تقربوهم » .

فصاح عمر بمألوف حدته :

« والله لنأتينهم ! »

فأجاب عويم :

« أما ان شئت فدونك .. ولكنى يا معشر المهاجرين قمت فيهم أقـدم على صاحبكم هـذا اذ قدمه رسول الله للصـلاة فعابونى واخرجونى » .

ولا شك أن تقديم أبى بكر كان رايا سرى بين بعض الناس .

وقال له عمر بلهجة المتربص بمجرى الامور :

« سننظر وينظرون ... »

« بل اقضوا أمركم بينكم يا معشر المهاجرين »

ولكنه أبى ، ومضى يتبعه صاحباه وطريدا الأنصار ، حتى اذا أشرفوا على المكان وسرى اليهم جرس الحديث من بعيد . سال عمر أحد الرجلين :

« فأين صاحب القوم ؟ »

« على فراشه يهمس وابنه يذيع .. »

« ويحه !... لا يملك الناس مريض ! »

٥

استطاع أبو بكر بمعهود حكمته أن ينفذ الى اجتماع الانصـار ، وأن ينفذ الى قلوبهم ، وأن يأخذ ما بأيديهم منهم طواعية او بمظاهرة ظروف الحال .. كان رجلا له فى الناس هيبة وفى النفوس محبة .

بانت البغتة على الوجوه حين بدا يتبعه صاحباه ، ومشى الوجوم فى المكان . لأمر ما عاد عويم بن ساعدة ومعن بن عدى فى ركاب الشيخ وهما الخارجان منذ قليل على الاجماع ، ولكن الالسن لم تكد تصوغ حروف الالفاظ حتى بادرهم أبو بكر بالكلام ، لا عليه ان يتريث حتى يستجمعوا شتات الأذهان ولا عليه ان ينصت ليقولوا فانما قد جاء هاهنا ليكونوا هم له منصتين ...

وكان حكيما غاية الحكمة فلم يدع للفرصة أن تسدد خطاه وان سدد هو هذه الخطا لتصل به الى فرصة وفرصات . وحزم الامر

على ان يكون بيده تدبير الأمر . ولو استطاع لكان أبعد ابن الخطاب عن الحضور الى هذا المكان حتى يأمن دفعاته التى قد تودى واحدة منها بكل تدبير ... ولكنه عرف كيف يملك هذا الزمام حيث يحسن جذبه ثم يرخيه لصاحبه بعدها اذ يشاء .

لذلك ما كاد يدلف الى السقيفة حتى مال على رفيقه يهمس :

« رويدا يا عمر حتى أتكلم ، ثم انطلق بعدها بما احببت » .

فأمسك وقد هم أن يثور بالناس . ووقف أبو بكر يتخير من كلماته مفتاحا الى القلوب . وكان الحديث عن رسول الله هو ذلك المفتاح ، فأثنى عليه وحمده كأحسن ما يستطيع ان يلهج بالحمد لسان وتستطيب الثناء آذان . ثم انثنى يتكلم عن المهاجرين الأولين والعصبة السابقين . قال :

« أيها الناس . لقد خص الله المهاجرين الاولين من قوم رسول الله بتصديقه ، والايمان به ، والصبر معه على شدة أذى قومهم وتكذيبهم ، وكل الناس لهم مخالف وعليهم زار . ولكنهم لم يستوحشوا لقلة . وكانوا أول من عبد الله فى الأرض ، وآمن بالرسول . هم أولياؤه وعشيرته ، وهم أحق الناس بالأمر بعده ... »

ولم يفصح الرجل عن اى الناس بين اولئك المهاجرة اولى بتراث النبى لأنه كان قد جاء لاقرار مبدأ لا لتنصيب شخص معلوم . ولقد أفضى بما راود خاطره عن صاحب الحق فى هذا التراث . ولئن كان ابو بكر لم يذكره باسمه وسماته فقد عينه بتحديد صفاته فأبرزه امام الملأ امرأ من المهاجرين الأولين ، سبق الى الدين ، وكان للرسول وليا من عشيرته وقف الى جواره لا يثنيه اذى ولا يستوحش لضعف ولا قلة . بل راح يعبد الله قبل أن يعرف هذه العبادة فى الأرض سواه ... رسمه ابو بكر هكذا وان جاء الرسم منظرا عاما ظهر فيه غيره ، ولكنه كان على اى حال رسما لا يعوز العين الفاحصة أن تتبين تجمع الوانه فى ناحية واحدة من نواحيه !...

على أن أولئك الذين لم يتبينوا الوضوح فى كلام ابى بكر من الانصار أو تبينوه ثم بدوا كأن لم يتبينوه لان نفوسهم ابت عليهم —

وهم الأعزون - ان يكونوا لغيرهم تبعا .. اولئك لم يلبثوا حتى نطق ناطقهم فقال :

« انمــا نحن أنصار الله وكتيبــة الاســـلام ، وانتم يا معشر المهاجرين - »

فسارع أبو بكر يقاطعه بلين الحديث :

« أنتم من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم في الاسلام . رضيكم الله انصارا لدينه ، ورسوله . وجعل اليكم هجرته . وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور . »

وهكذا عرف الرجل أن يداوى الداء الذى خشيت الانصار ان يصيبها بعد رسول الله ، فقد أقر لهم بحقهم فى المشورة واقــرار ما يرونه من شئون الدولة جديرا بالاقرار . ولكن هذا لم يسكت لسان متحدثهم الذى بادر يعترض :

« بل انكم رهط منا !. وقد دفت دافة من قومكم واذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويغصبونا الأمر . »

فعلا الهمس اذ ذاك بين الحضور ، وتجاوب المكان بهمهمة الاستحسان، صدق هكذا قائلهم واجاد لان حديثه كان لما فى نفوسهم صدى ... وانما هؤلاء المهاجرين رهط قليلون جاءوهم من قبل مستضعفين ثم استعزوا بهم بين اظهرهم فلا تكونن لهم قدم على أصحاب الفضل ، ولا يسبقن الانصار اليها . وان فى أذنى كل رجل من السقيفة اذ ذاك لصوتا داويا مثل قرع الطبول ، يردد ما كان يهمس لهم به سعد بن عبادة ويذيعه ابنه قيس منذ قليل اذ كان يقول :

« ان محمدا لبث بضع عشرة سنة فى قومه يكذبونه الا رجالا قليلين . وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا ان يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن انفسهم ضيما عمهم ... »

اجل هكذا كانوا ... وهكذا كان بينهم النبى حتى اراد الله ان يرتفع لواء الدين فساق الى محمد الانصار مؤمنين ومانعين وناصرين . ولعل سعدا لم يتجاوز الحقيقة حين قال فى معرض اثارة الحمية فى نفوس قومه والتدليل على فضلهم المشهود :

« يا معشر الانصار . لما اراد لكم ربكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الايمان به وبرسوله ، والمنع له ولاصحابه ،

والاعزاز له ولدينه . والجهاد لأعدائه ... يا معشر الأنصار قد كنتم اشد الناس على عدوه منكم ، واثقلهم على عـــدوه من غيركم حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا ، واثخن الله لرسوله بكم فى الأرض ودانت بأسيافكم له العرب ... يا معشر الأنصار ــ فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس فانه لكم دون الناس ! »

... ترددت هذه الكلمات ومثيلاتها مما نطق به ابن عبادة ، فى اذهان الناس وأبو بكر قائم فيهم ، يكاد أن يغرق صوته فيما يملأ المكان من اصوات ، ولكنه رجل جاء ينصر مبدأ ويدعو اليه ولا يقف به عن أدائه مقاطعة ولا اعتراض . فاذا كان الأنصار قد عرفوا لقضيتهم هذه حقا فقد عرف لقضيته ايضا حقا اثبت أمام حجة الخصيم والغريم .. قال مرفوع الصوت مهيب السمت ، فى رنة فيها لين وفيها جرس رصين :

« ايها الناس !... ما ذكرتم فيــكم من خير فأنتم له أهــل ، ولكننا ــ نحن المهاجرين ــ أول الناس اسلاما ، واكرمهم احسابا ، واوسطهم دارا ، واحسنهم وجوها ، واكثرهم ولادة فى العرب : وامسهم رحما برسول الله ... ولن تعرف العرب هذا الأمر الا لهذا الحى من قريش ! »

حجة تجبه الأنصار فلا تدانيها حجة لهم ، الفاظ فى مجــال المفاضلة والفخار ليست تطاولها الفاظ . ولكنها على محك البحث والتمحيص لا تستقيم لكافة المهاجرين !.. لا ولا للقلة منهم !.. لا بل عساها ــ ان نشرتها لهم كالثوب ــ لا تزال تبدو فضفاضة مهدلة الذيول والاكمام عليهم اجمعين ثم لا تنسجم بعد الا على فرد فيهم لأنها اقتطعت على قدر صفاته وميزاته !.. انا لنؤمن حقا ان قريشا بين قبائل العرب كانت الأعلين . وأن ذاك الحى حقا كان أعلى قريش . ولكننا نؤمن ايضا ان آل هاشم كانوا فى حيهم هذا وفى العرب كافة الأوسط دارا ، والأذكى نارا ، والأعز جارا ، وبحسبهم أنه كان منهم رسول الله . ثم دع السامع والمتحدث كليهما يتخيران من بين هؤلاء رجلا ــ سوى على بن ابى طالب ــ كان أول الناس اسلاما ، وأدناهم قرابة من الرسول ، وجمع الظلال والأضواء التى أضفاها أبو بكر على صورة من يرى له حق ولاية الناس .. دع السامع والمتحدث كليهما

يتخيران رجلا له كل هذه الصفات لو استطاعا الى الاختيار السبيل!..

على اننا لا نستطيع أن نجزم ان كان أبو بكر قد زوى هذا الكلام وفى نيته أن يروج به لعلى ويدعو اليه ، ولكننا نجزم ان الشيخ — على اى حال — لم يعن به اذ ذاك نفسه ، لانه رسم ميزات اجتمع له منها الجل ولم يجتمع الكل ، ولانه كان قبيل هذا المقام لا تجرى له ولاية القوم فى بال ولم يسع سعيه الا ليقيمها فى الحى الذى آمن انه اجدر بها من كافة أحياء المسلمين .

ومع ذلك فلم يستطب منه بعض الأنصار ما قال لانه اجمل المقال ولم يحدد هدفه تمام التحديد . وعساه لو كان القى على اسماعهم اسم ذلك الشاب الذى خلفه قائما على جثمان نبيه وابن عمه يتمهده بالاعداد والتجهيز لكان للأنصار شأن غير شأنهم هذا ، ولكانوا القوا له كلا السمع والمقادة لا يعترضون ولا يحاجون . ولكن أبا بكر انتهج ذلك اليوم النهج الذى يستقيم وطبعه اللين الرقيق ، وآثر ان يكسب الأرض تحت قدميه شبرا شبرا ولا يقطع الشوط كله بقفزة .

كذلك فعل ابو بكر ليخضد شجرة الأنصار شوكة فشوكة ، فبدا يحد من غلوائهم بذكر الرسول ، ثم بلين الحديث ، ثم بالثناء على ما تولوا به الاسلام من فضل ، وكلما استراحت لحديثه الآذان انتقل وئيدا الى الناحية التى تقربه من الهدف المرموق . ولكنه ما كاد يبلغ مبلغه من الكلام واثره فى كثير من النفوس والاحلام حتى انفلت اليه الحباب بن المنذر ، وقد خشى مغبة هذه الرقة على قضية الأنصار ...

قام الرجل يصيح فى قومه محذرا :

« يا معشر الأنصار !.. املكوا عليكم امركم . ان الناس فى فيئكم ، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ، ولن يصدروا الا عن رايكم ... »

وانقلبت بهذا قضية الانصار قضية وطنية تسيرها العصبية !.. وبدا الأمر كأنه صيال المدينة ومكة كل منهما تبغى ان تفوز دون اختها بالسلطان !...

وأثارت كلمات الحباب الحماس فى الناس فاقبلوا عليه بافئدتهم يصيخون .

وعاود الرجل دعوته بقول :

« يا معشر الانصار !.. انتم اهل العز والثروة ، واولو المنعة

والعدة ، وذوو البأس والشدة . وانما ينظر الناس الى ما تصنعون ... فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض أمركم . »

فتهاتفوا من كل جانب :

« وفقت فى الرأى »

واتم ، وهو يشير الى الثلاثة المهاجرين :

« فأما وقد أبى هؤلاء الا ما سمعتم . فمنا أمير ومنهم امير .. »

وكانت هذه زلة اللسان التى قوضت اركان البنيان !..

٦

امتقع سعد بن عبادة وغاض لونه اذ سمع كلمة الحباب ، وهمس لنفسه ، محنقا ، وهو يصرف بأسنانه :

« ويحه !... هذا أول الوهن ! »

لم يكن لسان ابن المنذر اول ناطق هكذا بقسمة السلطان بين قريش وبين الانصار ، بل سبقه الى التحدث به سواه حين بدأ اصحاب السقيفة يتشاورون قبل مجىء أبى بكر وصاحبيه . ولكن النطق به الآن أقر المهاجرين بالحق فى تولى تراث الرسول بعد ان أوشك ابن عبادة ان يخرجهم من الأمر صفر الأيدى .

مع ذلك فان عمر لم ير فى هذا الحديث نصرا للقضية التى جاء يذود عنها وان كانت كلمات الحباب — فى الواقع — هى نصف النصر . فسريعا عاود ابن الخطاب عنفه ، وضاق بطول التزامه الصمت ، فما وسعه الا ان يصيح :

« هيهات هيهات !.. لا يجتمع اثنان فى قرن » .

واصر الحباب :

« بل يجتمعان ! » .

« لا والله !.. ولن ترضى العرب ان يؤمروكم ونبيها من غيركم . ولكنها لا تمتنع ان تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى امورهم منهم . ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين .. » .

فقام أحد الأنصار يهتف بقومه :

« يا معشر الأنصار ! املكوا على ايديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا ، وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر » .

هنا ملكت الحدة لسان عمر فانبرى يقول :

« منذا ينازعنا سلطان محمد وامارته — نحن اولياءه وعشيرته — الا مدل بباطل ، أو متجانف لاثم ، او متورط فى هلكة !؟ » .

قال الحباب ، وقد سمع هذا التعريض ، يخاطب اهل المدينة :

« أما وقد أبوا عليكم ما سألتموه ، فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، لانهم بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين .. » .

وازدهاه ما كان هو فيه من منعة بقومه وداره وبلده بعد أن اثاره عنف ابن الخطاب ، فانتضى سيفه يلوح به في وجه عمر ويصيح :

« أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب !.. اما والله — ان شئتم — لنعيدنها جذعة !.. » .

عصف الغضب بجوانح عمر لهذا الوعيد حتى تلهبت عيناه فمرق كالسهم الى الرجل يزار :

« اذن يقتلك الله ! » .

« بل اياك يقتل ! » .

وأوشك أن يقع ما خشيه أبو بكر باديء الأمر من ابن الخطاب . بل لقد لاحت فعلا بعض نذر الشرك اذ ضرب عمر يد الحباب فاسقط منها السيف ، ثم أشرعه يهم أن يردى به سعد بن عبادة الذى راى فيه خالق الفتنة ومثير نوازيها . وما أحسب آفة كانت تصيب الاسلام بمثل ما أوشكت أن تصيبه هذه الدفعة العمرية الفوارة لو لم يتدارك الله الأمر فيلهم ابن الجراح ان يحول بين صاحبه وبين ما اراد . كان أبو عبيدة قد قضى الوقت جميعه يشهد ويسمع ولا ينطق بكلام . أما وقد كاد ان يفلت من بين اصابع صاحبيه الزمام فقد سارع الى جذوة النار يخمدها قبل أن تغدو مشبوبة الأوار .

هتف بأهل السقيفة بصوت هادىء رزين ، فى نبراته توسل ورجاء :

« يا معشر الانصار !. كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير .. »

فكأنما قد لمس بكلماته هذه صمام الهدوء والسكون فى القلوب ..

انصت له الناس ، ثم تهامسوا ، ثم لم يلبثوا حتى هدات فيهم ثورات النفوس . وبدا المكان ساكنا كأن لم يكن فيه شجار أو جرى فى نواحيه حديث . وما برح القوم الا قليلا حتى تبينوا حقيقة الأمور ... تبين رجال انهم أوشكوا أن يغصبوا حق رجال آخرين . وتبين رجال ان فى صدورهم غرسا جاهليا كادت أن تذويه تعاليم الاسلام عاد اليوم يدعوهم الى ربه من جديد . وتبين رجال ان رفعة واحد من الآل تثير الحسد فى نفوسهم وان كانوا له بعض الآل .. وفى مثل لمح البصر عملت هذه العوامل كلها متفرقة ومجتمعة ، وكان مجتنى الثمرة من ورائها غير الأنصار !...

وكان اول تلك العوامل حسد الآل للمبرز من الآل . فقد قام بشير بن سعد فى القوم يخطبهم ويقول :

« الا ان محمدا — أيها الناس — من قريش . وأن قومه أحق به واولى . وايم الله لا يرانى الله انازعهم فى هذا الأمر ابدا .. »

ولئن كان الدافع الذى أجرى لسانه بهذا الكلام قد خفى على بعض الناس فان الحباب ابى عليه أن يظل خافيا ابدا ، بل سارع فكشف عنه الغطاء .. صاح به ظاهر الغضب تقطر من ألفاظه مرارة اشمئزاز :

« ما أحوجك الى ما صنعت يا بشير ؟.. انفست الامارة على ابن عمك سعد بن عبادة ؟! » .

فلم يسع هذا الحاسد الشانىء الا أن يجيب :

« لا والله .. ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله فيهم .. »

* * *

وكان ثانى العوامل أحقاد الجاهلية ثارت كثورتها قبل الاسلام وقبضت من بعض النفوس على الزمام .. قام سيد الأوس اسيد بن حضير ، وقد حضره فى هذا المقام ما سلف بين قومه وقبيلة بنى الخزرج رجال ابن عبادة فى الجاهلية من خلافات وثارات . قام يثير فى الأوس عصبية اطفأت فورتها سماحة الاسلام ويوقظ ما نام من سخيمة الصدور بأن راح يهمس لبنى قبيلته :

« يا بنى الأوس ، لأن وليتموها سعدا عليكم مرة فوالله لا زالت للخزرج بذلك عليكم الفضيلة ، ولا جعلوا لكم نصيبا ابدا .. »

❋ ❋ ❋

واستقر بهذين العاملين السلطان لقريش . لا لأن الأنصار قدمت على نفسها قريشا ، ولكن لأنها استحبت أن تحارب رجلها الكريم وتسلبه ما كاد ان يتم له من سلطان !. وانتهز أبو بكر الفطن فرصة هذا الانقسام الذى دب فى صفوف هؤلاء المنافسين فأخذ عمر بيد ، وأبا عبيدة بالأخرى ونادى فى الناس :

« أيها الناس .. هذا عمـر ، وهـذا ابو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا »

ولكن ابن الخطاب لم يكن قد نسى بعد اى ثلاثتهم أولى بالبيعة دون صاحبيه وما زالت كلمات أبى عبيدة بن الجراح ترن فى اذنيه . فأسرع يقول :

« بل ابسط يدك يا أبا بكر ... »

وعقب أبو عبيدة بعده :

« انك لأفضل المهاجرين ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ... »

فبسط الشيخ لكليهما كفه يبايعانه . واسرع عند هذا بشير بن سعد يفعل فعلهما فينحاز وراءه بعض الخزرج ... ويرى هذا اسيد ابن حضير فيدعو قومه علانية بعد ما كان من همسه واسراره :

« يا بنى الأوس !.. قوموا فبايعوا أبا بكر ... »

وسارت هكذا البيعة للرجل الذى لم تجر خلافة المسلمين له فى بال ولم يك يطمع مطلقا فى سلطان ، ولعل وصاته لذلك الاعرابى راودت فى هذه الآونة خاطره فعرف كيف يروج المرء للمبدا حينا ثم لا يلبث حتى يكون من ناقضيه اول ناقضيه !.. ثم عرف ان حجته التى الزم بها منذ قليل هؤلاء الأنصار لم تعد حجة يلتزمها هو نفسه. ما دامت قد شاءت له أن يحيد عن هذا الالتزام ظروف الحال ، والفرص التى اتاحها له حسد الآل للآل ، وما عاد الى الحياة من أحقاد الرجال !..

٧

ثبت الأمر لأبى بكر ، يوم السقيفة ، بانحيـاز أسيد وبشير ومن تبعهما الى رجل بنى تيم . وازدحم الناس من هذين الحيين حوله يتسابقون الى بيعته حتى نسـوا الشيخ الذى أوشكوا ان يلقوا اليه بالزمام من قليل .. نسوا كريم المدينة سيد الخزرج سعدا الذى اقعده وجعه ثم كادت أن تطأه منهم الأقدام وهم يتدافعون نحو السيد الجديد !.. ما أسرع تنكر الانسان للمروءة أمام خيال السلطان !.. ان الناس لم يعد يشغلهم من دنياهم هذه اللحظة الا ان يمسحوا باكفهم على كف أبى بكر . أما ذلك الذى كانت كلماته تلهب عواطفهم وتثير فيهم الحماس ، وكانت دعوته تملك اهتمامهم وتستغرق منهم الحواس ، وكانوا يتلقفون همسه كمثل تلقفهم خطرات الأنسام فقد هان لديهم الآن شأنه ، وبدا حاضرا كغائب حتى كادوا يقتلونه وهم لايشهدونه !..

وارتفع من احد الذين التفوا بشيخ الخزرج المريض صوت محذر يصيح :

« يا قوم !.. اتقوا سعدا لا تطأوه ! »

فما أتمها حتى رنت ــ كرجع الصدى ــ كلمات جافيات غضاب :

« اقتلوه ، قتله الله !.. »

وكانت هذه دفعة اخرى من ابن الخطاب . انه حتى فى هذه الآونة التى يدعو ضيفها على الشيخ الى رحمته والترفق به ، لم ينس عمر عنفه ، ولم يتدبر موقفه ، ولم يجعل بخاطره قبل تفوهه بهذا الكلام ما عسى أن يصيبه وصاحبيه ثم يصيب الاسلام لو عدا على ابن عبادة رجل فقتله تلبية لهذه الدعوة الغاضبة . وما أحسب حتى أولئك الذين خذلوا سعدا من الخزرج حين تنازع السلطان سوف يبيحون دمه واحدا من الناس أيا كان . ولكن عمر تحدث وما تريث ، وقرر وما تفكر فى عقبى قراره ، فاذا أبو بكر يسارع فيكبح جماحه ، ويرده الى ما هو أدنى الى الصواب ان لم يكن عين الصواب .

قال له ناصحا وزاجرا فى آن :

« مهلا يا عمر ... مهلا فالرفق ها هنا أبلغ »

أجـل فالرفق واصطنـاع الأناة اولى فى مقام يعج بالمخالفين والأخصام ، وكانت الأناة اداة ابى بكر منذ البدء ، داور به الأنصـار ما استطاع حتى اكملت له الظروف فوزه . وكان العنف اداة عمر لأنه ادنى الى طبعه وابلغ — فى ظنه — اثرا فى مثل هذا المقام . ولقد اصاب أبو بكر فى تلك الآونة لأن كثيرين من الأوس التى أجمعت الكلمة على البيعة له ، لم يبايعوه لفضل وان كان صاحب فضل ، ولكن لأنه كان رجلا من غير الخزرج الغريمة القديمة !.. ولأن كثيرين من الخزرج بايعوا متابعة منهم لسيدهم بشير ... ثم لأن الأكثرين بعد هذا منها — وكانوا فى كف سعد — قعدوا عن البيعة ولم يثوروا بها لأنهم قداذهلهم موقف قومهم من حاسدين وموتورين بعد الذى كانوا كلهم عليه من اجماع .

***

أصاب ابو بكر فى اصطناع الأناة ، وفى النصح لعمر بأن ينهج نهجه لأن العنف كان قمينا ان يعود بنفوس الأنصار الى تدبر الامر من جديد . واخطأ عمر لأن رؤية الدماء كانت كفيلة بأن تثير حـرارة الدماء ، ولو أن دعوته الى قتل ابن عبادة لقيت سامعا مطيعا ، لمـا عجبنا أن راينا الأمر ينتقض على أبى بكر قبل ان يبرح السقيفة ذلك النهار ، ولرأيناه يخلفها كما دخلها ، رجـلا من قريش بغير بيعـة ولا سلطان . ولكن عمر ، وان يكن بدعوته تلك قد اخطأ ، فانه اصاب من حيث اخطأ .. أصاب لأنه راى فى حياة ابن عبادة عودا للفتنة وعودا الى الانقسام بين المسلمين : أنصار ومهاجرين ، لو شاء شيخ الخزرج فى يوم أن يحاول ابتزاز الحكم . بل ان حياة ابن عبادة عودا للفتنة وعوداً الى الانقسام بين المسلمين : انصار وهو آمن ، وفى هذا ما فيه من انتقاص هيبة الحاكم ، وكفيلة بأن ينقض البيعـة من بايع لأنه شهد السلامة لمن خالف ولم يبايع !.. وكفيلة بأن تترك غيره من الأنصار يحدث نفسـه بذلك الحق الذى افلتته اصابع قومه ثم يسعى فى اصابة ما فاتهم من نجاح ، واخيرا هى كفيلة بأن تدع ايا من الناس ظن لنفسـه الجدارة وفيها القدرة يحاول جهده التماس هذا النجاح .

اخطا عمر : ثم أصاب من حيث اخطا ، لاننا شهدنا مع الأيام ، الظنون التى طافت بذهنه اذ ذاك تتحقق أو توشك أن تتحقق ... شهدنا سعد بن عبادة يقبض يده عن البيعة لأبى بكر ثم لا يزال يقبضها بعد البيعة الثانية ومعه كثيرون من قومه ظاهروه على هذا الامتناع — لا يرجعه عن عزمه هذا اغراء أو دعوة الى التزام كلمة الجماعة ، بل لعل الدعوة أثارت فى نفسه قوة العزم والاصرار .

جاءه من لدن الخليفة رسول يقول :

« أقبل فبايع ... »

فيصيح مغضبا :

« أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبل . وأخضب سنان رمحى !.. »

فيجيبه الرسول محذرا :

« اتق الله يا سعد ، ولا تشق عصا الجماعة . لقد بايع الناس وبايع قومك .. »

فلا تلين للرجل امام هذا قناة ، بل يقول :

« انى ضاربكم بسيفى ما ملكته يدى !... مقاتلكم بولدى ، واهل بيتى ، ومن أطاعنى من قومى !... »

ويعلم عمر بهذا فيخشى المغبة ، ويكاد أن يسبق الى خاطره منه أمثال وأمثال ما ظلت هكذا هيبة صاحب السلطان ورهبته لا تملكان القلوب ... واذا به يهتف بأبى بكر ناصحا :

« يا خليفة رسول الله .. لا تدع الرجل حتى يبايع .. »

ولكن بشير بن سعد ينصح بغير هذا :

« بل دعه يا خليفة رسول الله . انه قد لج وأبى . وليس بمبايعكم حتى يقتل . وليس بمقتول حتى يقتل ولده ، ثم اهل بيته ، ثم طائفة من عشيرته ، فاتركوه ... »

ومع ذلك فقد بقى رأى عمر حيث كان . وبقى الخطر — فى يقينه — ماثلا فى شخص ابن عبادة لا يبرح وشيخ الخزرج قائم فى الحياة ... ولقد جاءت لحظة على هذا الشيخ جعلته يشد رحاله ويخرج من بلدته مهاجرا الى الشام ثم لا ندرى أكانت هجرته من خشية بطش أم نبا به المقام بين ظهرانى قومه الذين حسدوه ومالأوا

عليه الغريب ، ولكن الذى ندريه أن الأخبار جرت بعد قليل تروى قصة انتفاء الخطر الجاثم فى شخصه بعد ان لقى الرجل مصرعه وهو غريب الدار ... واقاصيص الغيلة على السنة العرب جديرة دائما بالسماع لفرط ما كان الرواة يضفون عليها من سمات وتزويق وان كانت غير جديرة دائما بالتصديق ! ولكن الذى نما الى الأسماع حينذاك أن هاتفا فى ظلام الليل باحدى نواحى الشام ما برح ليلة بعد ليلة يصيح :

قتلنا سـيد الخزرج سـعد بن عبـاده
رميناه بسـهمين فلم نخـط فؤاده !

وكان هذا الكلام — فيما روى الرواة — من شعر الجن التى قتلت سعدا ... فلما أصبح الناس لم يجدوا الرجل فى داره ثلاثة ايام ، فالتمسوه حيثما شاءوا فلم يعثروا عليه . ولم يبق الا ان يطلبوه فى مكان الهاتف فاذا بهم يجدونه فى بئر ، مطعونا ، قد اخضر لونه من العفن .

وقال بعض الحمقى :

« هذا فعله الجن ! »

وقال بعض الذين يعرفون ، او ظن أنهم يعرفون :

« قتله خالد بن الوليد وصاحب له ، طعناه بعد ان كمنا له ليلا ، والقياه فى البئر ... »

قيل :

« وما لهتاف الجن الذى سمعناه ؟ »

قالوا :

« بل هو هتاف صاحب خالد ، هتف به ليقول الحمقى مثل ماكانوا يقولون !... »

ثم قال آخر :

« انما قتله خالد بن الوليد بأمر ابى بكر ... »

ولكننا لا نستطيع ان نقحم الخليفة الأول فى هذا العدوان لان خلقه سياج حائل ، ولا نستطيع ان نبرىء ساحة خالد لان خلقه اولى به ما كان !. وليس القائد الهمام بالنقى الصفحة كل النقـاء من العدوان !... ثم لا عليه ان فعل لحفظ جماعة المسلمين ان تتفرق بين

خليفة وداعية بأرض الشام عساه قد خرج اليها وفى قصده أن يفوز فيها بما فاته الفوز به فى المدينة !.. ثم خالد بعد هذا وذاك قريب فى حساب الأنساب وليس بغريب عن ابن الخطاب ... فاذا شرع أحدهما فى التنفيذ ولم يصب هدفه ، فقد راب الناس ان ثانيهما أصاب !...

٨

مال النهار ، وتفرق بياضه بددا فى أطراف الأفق ، ثم أخذت غوادى الليل تنتقص منه كما شاءت ، ويغير سواده حتى غشاه ، وامتلأت رقعة السماء بالظلال الدكناء .

وراحت حركة البلدة مع النهار وانطوى هتاف الناس للحاكم الجديد والحديث عنه بانطواء العشاء ، وبدا الظلام منشورا فى الجو كانتشار الرمال على الأديم المترامى ، لا تحده عين ، ولون الدجى الذى غلف الكون واحتواء يملأ الأبصار حتى لا ترى سواه .

وكان البراء بن عازب قد غادر دار الرسول مخلفا فيها عليا وآله الى جوار الجثمان الطاهر ، لا يشغلهم ما شغل غيرهم من أمر السلطان، بل قروا فيها ، حليفهم أساهم . وخرج هو نطاف هنيهة بالمدينة ، مثقل القلب من هميه : خطب محمد ، وخذلان صحب محمد آل محمد ... ولم يقر للرجل قرار بل أمعن — على غير هدى — فى التطواف . وبذل من جهده فى السير ما عسى ينسيه عناؤه ما كانت تلقى نفسه من عناء . ولكن لوعته صاحبته ، ولاحقته خواطره القاتمة قتامة الليل وملأت عليه آفاق روحه فتلمس معدى عنها رحبة المسجد لعله يفىء الى بعض هدوئه فى ساحة الله . ويمم ركنا يستريح فيه آونة ويمسح بالصلاة على فؤاده الجريح . ثم يستقر ويسكن لحظات . ولكن بصره كان لا يلبث أن يدور فى المكان ، ويستوعب نواحيه ثم لا يلبث حتى تثبت عيناه على ناحية دانية طالما ثبتت قبل هذه الليلة عليها العيون ... وانه ليخال ان محمدا الآن جاثم فى المحراب وان خلا منذ اليوم منه المحراب !... وينقبض بهذا صدره ، ويرعش جفنه ، ثم تبتل

منه الاهداب . وانه ليناى بناظريه آنا ، فاذا السمع يحمل اليه ما أبعد عنه عينيه — او هو الخيال — حتى ليسرى اليه الترتيل واضحا فى هداة السكون . ينطلق ذلك الصوت الرقيق الحلو النبرات بهمهمة خافتة يتردد جرسها حوالى البراء ، جائيا من ناحية المحراب فى هدوء حبيب ، وفى خفوت رتيب يمتلىء به السمع ولا يشبع ، اما القلب فيقنت ويخشع ، واما النفس فتعنو وتخضع ، واما العينان فلا تزالان تتلفتان ثم يرتد البصر ، لأن المسجد كله من محيا محمد خلاء ، وكان محياه قبل الليلة للبصر ضياء وجلاء .

ولم يعد للرجل محيص عن الرحيـــل ، ودمعه سباق لا يرقأ ولا يغيض ، وقلبه قد اكتسى أسى فوق أسى .. فغادر المسجد . وعاود ثانية رحلة الطواف على غير هدى ، لا يحاول ان يتبين معالم الطريق. ولا اين يسير . بل كان بحسبه أن ينطلق والليل ، حيثما يحـدوه الظلام أو تحمله الأقدام . ليس يعنيه ان كان قد خلف وراءه العمران وراح فى جوف طريق موحش غير مطروق ، ولا أن يضرب قدما او ينكص ، ولا ان يوغل حتى يفضى الى البيد ، لأنه كان لغير غايةيسير ؛ وان كانت غايته هى الطواف والمسير .

ومع ذلك فقد كان كمن سددت لغاية خطاه ، اذ انبعث من ذهوله واعيا يدرك ، سامعا ينصت ، وان حال الظلام دون تبينه مصادر الـــكلام .

أتته الأصوات مخافتة ، هامسة بالمناجاة ، كانها تضن بحديثها على الشفاه ولا تدعه الا بحساب . وهم البراء ان يرتد فيعود ولا يوالى الســـير خشية أن يكشف سرا او يكون عبئا على اصــحاب الحديث . وأطلق بصره فى المكان برهة فعرف أى شوط طويل سار حين تبين انه بفضاء بنى بياضـــة ، وليس مثله بالناحية التى يتلمســـها من يريد الحديث الا من رغب عن فضول العيون واستراق الآذان .

هم أن يرتد ... لولا ان سرت اليه بعض الفـــاظ مختلفة من المناجاة عرف فيها بعض الاصوات كان قد وشت بأصحابها له ... ولكنه ما كان ليعزم على المكوث ، رغم هذا ، لو لم يسر الى سمعه صوت يدعوه بهمســة المحاذر :

« ابن عازب والله !.. هلم ! » .

فأجاب ..

« المقـداد ؟ » .

« نعم ... واقبل » :

فسعى حتى لحق بالثلة المجتمعة ها هنا تحت الليل . من اول نظرة عرف الرجل فيم كان هذا الاجتماع ، لأن كل واحد من هؤلاء الصحاب كان اجلى عنوان يفضح عما فى باطن الكتاب !..

كانوا جماعة من صحب الرسول . خيرة صحبه ، وأقربهم الى نفسه ، واحبهم الى قلبه الكبير ممن أوذوا في سبيل الاسلام ، وفاضت بهم كأس الايذاء فلم يفتنوا عن دينهم ، بل اعتصموا بالصبر غاية اعتصام . كانوا اشرق المسلمين اذ ذاك قلوبا وأرواحا وأولهم سابقة لدين الله ، وأدناهم من ربهم مقاما . كان بعضهم من أصحاب الصفة بمسجد الرسول ـ أولئك الذارين بالعرض والفرض ، المقيمين للحق على الحق ، التائبين عن الذنب ولا ذنب ، الذين رضوا من الدنيا بما دون الكفاف وبالخبز الجاف اذلالا للنفس وقهرا للبدن ورياضة للروح . وكان بعضهم من الأنصار ، ساروا كسيرتهم عزوفا وزهادة ، وفنيت قلوبهم فى ذات الله ، وفى حب رسول الله .

وتطلع البراء حواليه برهة الى هذه الأجسام الناحلة من نسك ، والوجوه التى كانت تضيء من ايمان ، فما وسعه الا أن ينثلج لمرآهم صدره ، ويفرح قلبه لو عرفت القلوب ـ بعد الرسول ـ الأفراح . ولكنه على أى حال ، استشعر الفرحة تسرى فى فؤاده وتهز أعصابه اذ كان يعلم سلفا ما فى باطن الكتاب ما دام هؤلاء هم الحروف التى تألف منها العنوان !.

* * *

كانوا حقا اجلى عنوان يفصح عن مادة الكتاب !.. كانوا ائمة الايمان بين كافة المسلمين من انصار ومن مهاجرين . لم يحضر منهم واحد بيعة السقيفة فى بنى ساعدة ، لو حضروها لما القوا قيادهم لشيخ بنى تيم . ولم يمسحوا باكفهم على يده حين اتى المسجد بعد أن بايعه سواد الانصار ، بل تخلفوا هم ـ كما تخلف كثيرون من المهاجرين

الأولين — لأنهم كانوا يعلمون تمام العلم اى الناس اولى منه بأن تمسح اكفهم على يده ، يلقوا زمامهم له طائعين .

وعاد البراء يجيل فيهم بصره فأحس الرضا اذ عرف ان القضية التى آمن هو بعدالتها اشد الايمان ، قد جاء هاهنا لنصرها خير الناس. واجتمعوا ، تحت الليـــل ، فى هذا الفضاء يدبرون لهـــا ويتشاورون بعيدا عن فضول العيون والأسماع .. اجتمع لها خير الناس من صحابة رسول الله الأدنين ، أولئك الذين ما كان يجمعهم هدف لولا ان يشعروا له بعدالة ترفعه فى عيونهم الى مرتبة التقديس . والذين صحبوا الحق مذ علموه ، لم يميلوا عنه أمام سطوة ولا قسوة ولا تعذيب ولا ايذاء . وبحسبهم ان كان فيهم رجل غفار ابو ذر ، الذى صلى لله قبل دعوة رسول الله ، ثم سعى الى محمد يبتغى الاسلام ولم يكن محمد قد جهر بعد بالدعوة الى الاسلام .. سعى اليه لان قلبه الناصع كان مهيأ للهدى . واقبل فأسلم ، ثم انطلق ومن ورائه كلمات الرسول :

« يا ابا ذر ، اكتم هذا الأمر وارجع الى بلدك ، فاذا بلغك ظهورنا فاقبل .. »

ولكنه — رغم هذا — راى الا يصدع بالامر لان فى الصدوع معنى خشية اذى قريش وما يستطيعون ان يركبوه به من قسوة وبطش ... فسارع يجيب رسول الله .

« والذى بعثك بالحق ، لاصرخن بها بين اظهرهم !.. »

وصرخ بها فأوذى !... ثم لم يمنعه الايذاء من معاودة الجهر والصراخ ثم معـــاودة الجهر والصراخ لانه رجل يعرف للحق قـــوة لا ترجحها قوى العدوان مجتمعة ومضعفة آلاف الاضعاف ... وكان شعوره دائما وما أوصاه به ذات يوم رسول الله :

« لا تخش فى الله تعالى لومة لائم »

وبحسبهم ان كان فيهم ايضا عمار ... ابن سمية التى استشهدت فى سبيل الاستمساك بالاسلام وهو واقف يشهد ولا يستطيع دفع الأذى عنها ، ولا عن أبيه ، ولا عن نفسه وقد احاط به بنو مخزوم الطغاة يلبسونه محمى الحديد ، ويتولونه بما وسعهم من ايذاء وهو صابر امام سوط العذاب ، وفى اذنيه يتردد نصح رسول الله :

« صبرا ابا اليقظان » .

... وبحسبهم ان كان فيهم الفارسى سلمان .. ذلك الشريف الذى خلف قصره وهجر بلده يريد أن يلتمس الحق ويظفر به أينما يكون . وارتحل يجوب الآفاق تاركا وراءه اصبهان بعد أن خلع فيها رداء المجوسية . ويمم أرض الشام يطوف بها ويبحث عن الهدى بين نواحيها . واعتنق المسيحية . وراح يعاود التنقل والترحال بين البلدان يستوعب المعرفة من افواه اساقفة ذلك الدين . وكلما تعلم ما لدى واحد منهم تركه الى آخر حتى انتهى به المطاف الى عمورية حيث حدثه اسقفها ان الحق المنشود انما ينطق به لسان رجل يظهر فى أرض العرب لا يزال يدعو الى الهدى قومه حتى يخرجوه ظلما فيهجرهم الى ارض بين حرتين بينهما نخل .

ويدفع الحق سلمان الى أن يغذ السير الى منبع الهداية المنشودة. ويلقى فى الطريق ما يلقى من عناء فيفقد ماله ، ويفقد حريتــه ، اذ يسترقه اقوام يبيعونه بيع العبيد ، ولكنه لا يأبه لهذا الأســار الجسمى ما دامت الحرية الروحية لن تلبث ان تطلع شمسها عليه . ولا يخيب الله رجاء عبده المؤمن ، الساعى جهده الى ابتغاء رضاه ، بل يهيىء له آخر الأمر لقاء محمد رسول الله .

ويقول سلمان وقد استوثق من شأن العربى الكريم :

« يا رسول الله .. انى رجل فارسى ، خرجت من بلادى غلاما حدثا ابغى دين الحق . ولكن يشغلنى عنك الرق .. »

فيتفكر هنيهة ثم يقول له :

« كاتب يا سلمان »

« نعم اكاتب صاحبى اليهودى على نخل احييه له ، اذ لا مال عندى »

فيوافق رسول الله ويقول لصحبه الآخرين :

« اعينوا أخاكم »

ويستجيب المسلمون لدعوة رسول الله فيعاونون سلمان بالعمل معه فى النخل كى يشترى نفسه من سيده . ولا يحجم رسول الله عن العون بل يساهم فيه بنصيب ــ هو أوفى نصيب لأن الله يهب البركة كل ما يمد رسوله يدا اليه . يقول لسلمان :

« اذهب يا سلمان ففقر لها ، فاذا فرغت فائتنى اكن انا اضعها بيدى » .

* * *

بحسب العصبة المجتمعة هذه الليلة بفضاء بنى بياضة أن يكون فيهم هؤلاء الذين وهبوا دائما جهودهم للحق ،وبذلوا ما استطاعوا فى سبيل اعزازه ليعرف البراء عدل القضية التى ود بقلبه أن ينصرها . فاذا اجتمع اليه هؤلاء ، واجتمع اليهم المقداد بن عمرو ، وحذيفة ابن اليمان ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التيهان وغيرهم من خيرة صحب رسول الله الذين تخلفوا عن بيعة أبى بكر اقتناعا منهم بأن فى الناس سواه أولى منه بالبيعة ومن كل الناس ، اذا اجتمع كل هؤلاء ، وأجمعوا الكلمة ، فلقد آن ان يعود الحق اخيرا الى ذويه ...

٩

التأم الجمع فى فضاء بنى بياضة تحت الليل ، أقبل اصحابه على الأمر يمحصونه ليروا له انسب الحلول .

قال عمار بن ياسر :

« ما لتيم وهذا الأمر ؟.. انه قد كان لرسول الله ، وهو من بعده فى خير الناس بعد رسول الله .. اما لقد ظلمت الأنصار ! »

فأجابه البراء :

« يا أبا اليقظان .. انما انتزعه الرجل بحق قريش وعاونه صاحباه » .

« ما لبيعة لم يشهدها المهاجرون الأولون صحة ! »

وقال حذيفة بن اليمان يدلى بالنبأ الذى ينير أمامهم الطريق :

« وان الأنصار لتريد أن تنقض ما كان منها ! »

« افتعلم حقا ؟ »

« والله ما كذبت وما كذبت ، ثم والله ليكونن ما اخبرتكم به . . »

فقال المقداد بن عمرو :

« فهذا والله خير ، وليردن الحق الى صاحبه من بعد » .

وتساءل سلمان :

« فان أبى الرجل ؟ »

فأجابه أبو ذر :

« فدعوه !.. انه ليس ولا صاحباه الا ثلاثة من المهاجرين . أما حجته فهى عليه . . »

ثم التفت الى البراء يوجه له الحديث :

« أو لست سمعته يا بن عازب يقول فى السقيفة ما تقول ؟.. »

« نعم »

« فلغيره والله — بحجته — الامر دونه !.. والله لا يرانى أبدا ابايع ابن أبى قحافة وفى الناس ابن أبى طالب !.. »

قال عمار :

« وما الرأى ؟ »

فرد المقداد :

« الرأى أن نعيد الأمر شورى بين المهاجرين »

« أصبت »

« وهذه الأنصار تهم أن تنقض أمر السقيفة ... »

فثنى حذيفة بن اليمان :

« نعم . وهلموا الى أبى بن كعب فقد علم كما علمت »

وانطلقوا من مكمنهم ذاك وقد انتهى رأيهم الى اعادة الأمر شورى بين المهاجرين ينظرون فيه ، ما دامت بيعة السقيفة قد تمت بغير علمهم هم الأولى بأن يكونوا أصحاب الرأى الأول فى اختيار خليفة الرسول ، وما دام الأنصار قد انجلت عنهم الآن غاشية المفاجأة وعرفوا أنهم لم يكونوا محقين حين سلموا الأمر لأبى بكر ، حتى راحوا يتهامسون بأنه جدير بهم أن يستردوا بيعتهم .

انطلق الصحاب المجتمعون الى دار أبى بن كعب يضربون عليه بابه ، فجاءهم صوته يقول :

« من ذاك ؟ »

« المقداد وقوم .. يا أبى ، افتح بابك فان الأمر اعظم من ان يجرى من وراء حجاب »

فأجاب :

« لقد عرفت ما جئتم له .. »

ثم أتم حين بدا لهم ، قال :

« كأنى بكم قد أردتم النظر فى هذا العقد ! »

أجل كان هذا هو الذى أرادوه ، والذى سعوا اليه ، والذى أجمعوا أمرهم عليه ، ثم كادت أن تعينهم على اتمامه الأحداث لولا ما سبقت به الأقدار من سطور التاريخ ...

ولعله يحسن بالمرء فى هذا المقام أن يتساءل ان رجال من شيعة شيخ بنى تيم قد نافقوا وبدوا أمام هذه العصبة كالناصرين ثم مشوا من بعد بأخبارها اليه ... ولعله قد شاع فى الناس اعتزام الأنصار نقض ما سلف من بيعتها للشيخ فأخذ حذره وأعد للأمر عدته قبل أن يفجأه وقوعه ... لعل هذا أو ذاك هو ما قدر له الحدوث وان كان الذى لا يرتاب فيه انسان ان أبا بكر كان حريا بأن يكون بارعا ، كما عهدنا فى بنى ساعدة ، ولا يدع عمله رهينا بما تجىء به الأخبار أو ينتظر ثم يرى كيف تلهمه العمل ظروف الحال ، وأحسبه بات ليلته تلك وفى همه الا يصبح الصباح حتى يكون هو صاحب الرمية الثانية كما سدد أولى رمياته الصائبة فى نهار الأمس !

هكذا كان الرجل ، وهكذا طلعت علينا صورته من خلال نسيج التاريخ فلم يكن عجبا ، اذن ، أن يسارع ، وضياء الشمس ينتشر فى الآفاق ، الى مسجد المدينة ومعه صاحباه . ونادى فى الناس مناديه فاجتمعوا له ... وبقيت عصبة الليل تلك فى غفلة عن هذا التدبير الذى لم يطف بخواطرهم بل سبق كل ما احكموا من تدبير !..

ووقف عمر بن الخطاب بين الناس يتحدث اليهم :

« ... انى قد قلت لكم بالأمس مقالة ، ما كانت مما وجدتها فى كتاب الله . ولا كانت عهدا عهده الى رسول الله . ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ، ويبقى ليكون آخرنا » .

وأجمل بهذه الكلمات اعتذاره عما بدر من دفعته حين تهدد بسيفه من قال ان محمدا قد مات ، ثم مضى قدما الى الغاية التى من اجلها كان جمع الناس ، فقال :

« أيها الناس : ان الله قد جمع امركم على خيركم : صاحب رسول الله ، ثانى اثنين اذ هما فى الغار . فقوموا فبايعوا ... »

فماذا عسى كان عمر مستطيعا قوله فى مثل هذا المقام لو كان أبو عبيدة قد قبل البيعة منه حين مد اليه كفه وهو يريد أن يفسد ما كان من اجتماع كلمة أصحاب السقيفة على صاحبهم ؟.. أفكان ينطق لهم بنفس هذا الكلام أم كان يزوى مقالا غيره للمقام ؟ ان الذى لا يثبت الريب أمامه مطلقا هو أن صاحبه الذى وقع عليه الاختيار لم يستطع أن يزعم لنفسه ما أضفى عليه ابن الخطاب .. بل رقى المنبر فى هدوء وقال :

« أما بعد أيها الناس ... فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم »

فان يكن حقا ما قال أبو بكر فهو اعتراف بالفضل لغيره ممن هو له أهل ! . وكفى ابن الخطاب أن اختار أولا فرده من كان محور هذا الاختيار اذ رآه لم يحسن حين اختار .. وأن قدم فى الثانية وقال فرده من قيل فيه المقال !...

* * *

على أن البيعة ، مع هذا ، تمت على الوجه الذى اراده الثلاثة الرفاق ، وبايع اليوم لأبى بكر من لم يكن بايع من عامة الناس . وراح الذين لم يبايعوا أهون شأنا مما كانوا عليه بالأمس وأقل رجاء فى التفاف القوم حول الدعوة التى دبروا لها كل تدبير ، والذين كانوا قد آلوا على نقض البيعة آثروا البقاء فى جانب الرجحان لأن النقض بعد هذا كفيل بأن يصيبه البوار والخسران !..

وهكذا اجتمعت كلمة اكثر الانصار ثم من بعدهم اكثر المهاجرين علم اختيار ابى بكر وبقى ولى الرسول : حيثما كان الى جوار الجثمان الطاهر ، تمر به الأحداث ولا يرى أن يتابعها لأن رسول الله احق باهتمامه من كل سلطان . وتفرق الناس بعد البيعة الثانية مجمعين على رجل وكانوا قبل السقيفة — وهم متفرقون — قد أوشكوا أن يجمعوا على سواه .. تفرقوا وان ساروا زمرا تؤلف الشكل على الشكل : فيهم من رضى فراح يهتف ويهلل معبرا عن رضاه . رفيهم

من خالف فراح يهمس ويدلل على اصابة رايه ودعواه . وفيهم اناس بين هؤلاء وهؤلاء ... تابعوا الكثرة لانهم لا تدلهم على الحق فراسة ولا استقراء بقدر ما تدلهم وجهة الجمهور . فانطلقوا هكذا مع الكثرة، وفى حسبانهم أنها مقياس الصواب وفصل الخطاب ...

اما الذين قد غابوا عن البيعتين فان آراءهم تفرقت بين هؤلاء الطوائف الثلاث كلما أشرفوا على الحشود التى اخذت تغادر المسجد ويسبقها الهمس والهتاف ، تأسر بعضهم حجة من هنا وتأسر البعض حجة من هناك ، ويقبلون متسائلين ثم يرتدون مؤيدين أو معارضين ، ولكل منهم سند من فضل الرجل أو فضل ذاك المنافس الغائب عن العين الماثل فى الخاطر ... وما اظنك ، لو كنت هناك ذلك اليوم ، الا انحزت الى هذا الفريق أو ذاك . ولكنك كنت على أى حال قمينا بأن تسمع نوعا آخر من الآراء ، فريدا فذا لو استطعت ان تقفو أثر هذا الشيخ الكبير ... انك لتراه سائرا هونا على الأرض ، رافع الراس رغم وقر الأعوام ، محدد البصر الى ما أمامه وان نضب من عينيه المعين وغاب لمع النور ، قد أصاب مسمعه لغط الجمهور فسار على هدى الأصوات . وان الناس ليلمحونه من بعيد مقبلا فتخطف فى غيونهم نظرات اكبار ... وانهم لينفرجون له اذ يقبل حتى تضمه الجموع .. فاذا أنصت له كما انصتوا سمعته يقول :

« فيم يا قوم هذا الضجيج ؟ »

فيجيبه بعض الناس :

« قد ولى ابنك الخلافة »

ويروح الشيخ عند هذا يهز راسه وهو يتلو فى هدوء بعض آى القرآن :

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء .. »

ويعاود الالتفات ، بوجهه ، الى محدثه يسأله ثانية :

« فلم ولوه ؟ »

« لسنه » ...

« فانا اسن منه ! »

ويمضى باسما من بين الناس وهو يمسح بكفه على لحيته البيضاء ...

١٠

لو أنصف الناس حق الانصاف لأرجأوا البيعة حتى يتم لهم مواراة جثمان الرسول . كان هذا أدنى الى التزامهم جانب التدبر واحسان التفكير قبل الاقدام على الاختيار . فلقد كان حريا ، حين طارت نفوسهم هلعا اذ سمعوا بوفاة محمد ، الا يملكوا ضبط الميزان .. والنفوس دائما — عند ما تدهم النازلات — لا تستطيع ان تلتزم الجادة ، بل تنحرف الى يمين أو الى يسار .

كان الأدنى الى الصواب ، ان لم يكن هو الصواب ، أن يتريث القوم من المهاجرين والأنصار لا يتنازعون سلطان محمد بينهم ومحمد ما زال مسجى على فراشه لم يغيبه عن عيونهم مثواه ... فاذا تعجل الأنصار أمر البيعة ، وراحوا يهتبلون من هلع النفوس على نبيها فرصة للفوز بالسلطان ، فلقد وجب على أهل الحكمة من المهاجرين ان يردوهم عن هذه العجلة التى لم تكن تدعو اليها دواعى الحال ... ان الاسلام كان حقا موشكا أن يجتاز محنة عصيبة أوقعته فيها قبائل المرتدين ، وأنصار الكذبة من المتنبئين وجموع الخالعين فرض الزكاة ، ولكن هذا كله لم يقع فى لحظات ، ولا دفعة واحدة ، بل كان كقطع السحاب المتناثرة فى نواحى السماء ، تدفعها الريح من هنا ، وتسيرها من هناك حتى تجتمع فوق مكان ثم تبادره بالوابل الهطال ... ولقد أخذت نتف الأحداث التى تألفت منها المحنة التى واجهها ابو بكر تجتمع الى بعضها فى أيام وفى أيام ، فلم يتناولها الرجل غب بيعته الأولى ، ولا غب بيعته الثانية بالعلاج لأنها لم تكن — بادىء الأمر — جديرة منه بأدنى التفات . بل بقى مكفوف اليد عنها ، ولو علم لها فى البدء خطرها الذى صار لها فيما بعد لادخر لها جيش اسامة ابن زيد ولم يسيره الى الشام .

كان اولى اذن بالانصار أن يتريثوا يوما وبعض اليوم حتى يوارى جثمان الرسول ، ويستريح فى مثواه . ولكنهم تعجلوا ، وكان المهاجرون — فيما يبدو — اميل الى القصد فى العجلة ، لولا ان نما

الى سمع عمر من أنباء السقيفة ما دفعه وصاحبيه الى بنى ساعدة ، يبادرون العجلة بمثلها ولا يأخذونها بالتريث والارجاء ... ولو استطاع فريقا الاسلام أن يصطنعوا الأناة لسمار الأمر فى اقوم سبيل ، لأنه كان سيلقى نفوسا ذهب عنها الروع ، وقلوبا نفضت الهول ، تقبل على تمحيص الآراء وعجم عود الأشخاص ، ثم تختار فلا يفوتها احسان الاختيار .

ولكنه كان قدرا مقدورا ليس يبدله حدس ولا افتراض ، واختير الرجل الذى لم تسبق اليه مشيئة الناس بقدر ما كان اختياره غرس الصدفة التى حركت باسمه لسان ابن الجراح على مسمع من ابن الخطاب ، وبقدر ما ساهم فى هذا الاختيار اختلاف حزبى الأنصار ، وبقدر ما هيأ الرزء الداهم نفوس القوم للرضا والاقرار ! .

وكذلك سكن الناس ، ولم يثر منهم ثائر ، ولم يجهر بالخلاف من لم تلق بيعة أبى بكر فى نفسه موضع قبول ، بل استوى فى البدء الراضى والمخالف والتزموا الهدوء لأن الأحزان لم تتح لهم فرصة للتفكير فى غير مثار الأحزان — او تركت ثم أبى عليهم الثورة انشغالهم بأمر الرسول . حتى العباس نفسه ، وهو من رأينا مدى حرصه على ابقاء سلطان ابن أخيه فى ذويه ، قر لا يطلع على الناس مناديا بنصرة أو محرضا على خلاف .

ولكن المشاعر المكبوتة تحت غطاء الأحزان لن تلبث أن تنطلق من عقالها بعد دفن محمد ، ويثوب الناس الى الماضى يتناولونه بالتحليل كما تملى ميولهم او تملى عليهم مقاييس الأوضاع والأشخاص . ثم تجمعوا فرقا فرقا ، واخذوا — كما وسعهم — يتحدثون بآرائهم ، خفية آونة وعلانية آونات ، لأن سلطان الخليفة لم يكن قد آن أن يثبت فى قرارة النفوس كل الثبات ...

وكان آل الرسول اثناء البيعة الثانية فى داره كما كانوا حين بيعة السقيفة . لا يأبهون ان مال عنهم القوم خاذلين او مالوا نحوهم ناصرين ، جمعهم جثمانه الكريم وشغلهم عن دنيا الناس بما فيها من غرض ومن سعى الى السطوة والجاه وامتلاك سيف السلطان . وليس من شك فى أن رجالا منهم عز على نفوسهم ان تسير الأمور بغير

مشورة منهم وعلى غير ما يشتهون . ولكنهم — رغم هذا — لم يملكوا الافصاح عما جاشت به صدورهم على ملأ من الناس ، لأن صاحب الأمر وقدوتهم في الميدان لو أرادوا تأليب الجماهير التزم جانب السكون في وقت كان يراه حقيقا منه بالهدوء والسكون .

ولكن ابا بكر لم يعرف القرار والسكون !.. كان صاحب سلطان طرى العود هش البنيان فكان لزاما عليه أن يصطنع له دعامات توطد اركانه . ولم يكن الشيخ قد نسى نبأ فضاء بنى بياضة وما جرى فيه من اجتماع خيرة المهاجرين على نقض بيعته لولا مبادرته بالبيعة الثانية الى افساد ما سبقوا اليه من تدبير . ولم يكن قد نسى أن عليا والعباس ومن لاذ بهما من آل محمد وصحبه الأقربين قد غابوا عن المسجد هذا الصباح حتى جرت الألسن تغض من شأن بيعة المسجد اذ لم تقرها هذه الصفوة المختارة من رجال الاسلام . وكان الشيخ يعلم أنه لا يأمن — ان دعاهم الى البيعة له — أن يعصوه أمام الناس . وكان يعلم انهم حريون بهذا العصيان وان رأوا أعناقهم تحت ذوائب السيوف . ثم كان يعلم ، فوق هذا وذاك ، أن رأيهم جميعا رهين برأى ابن أبى طالب ان شاء عصى وعصوا أو شاء رضى ورضوا وما لرضائه فى هذا المقام سبيل !...

وقلب الرجل الأمر على وجوهه مرات ومرات . انه اذن قمين الا يقر لحكمه قرار لو بقيت هذه الحال ، قمين أن يجتمع هذا الحزب المناوىء ، بعد اليوم ، بألف فضاء وفضاء ... قمين أن تخرج من يده كرها كما دخلتها كرها بيعة الأنصار !...

وجمع اليه صاحبيه يشاورهما ويتحدثون ...

قال له عمر :

« يا خليفة رسول الله ألزمهم طاعتك . »

« فان أبوا ؟ »

« فقد شقوا عصا المسلمين فاركبهم بالجزاء » .

وقال أبو عبيدة اللين المداور :

« بل ابعث الى المغيرة فانه صاحب رأى ... »

وجاء المغيرة بن شعبة بالرأى الذى كان منذ القدم وسيلة الحاكمين الى قهر المحكومين ... تفكر الرجل هنيهة ثم قال :

« ما أرى الا تمزيق جماعة هذه الناس . »

« وكيف ؟ » .

« امض الى العباس فألق اليه أنك جاعل الامرة نصيبا له ولولده » .

« قد قلت ! »

« ثم لا يضيرك بعدها من على شيء أبدا . »

وعلى هذا الرأى مضى ابو بكر يتبعه عمر الى عم رسول الله . وبدأ الخليفة الحديث فقال :

« يا أبا الفضل .. ان الناس اختارونى عليهم واليا ، وما انفك يبلغنى عن طاعن يقول بخلاف قول عامة المسلمين ، يتخذكم لجأ . فاما دخلتم فيما دخل فيه الناس . أو صرفتموهم عما مالوا اليه . »

فقال شيخ بنى هاشم الداهية الأريب يرد على كلام الخليفة :

« يا أبا بكر ... انك طلبت ثم أخذت . فان كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت !... وان كنت بالمؤمنين فنحن منهم !... وان كان هذا الأمر يجب لك بالمؤمنين فما وجب اذ كنا كارهين ! ... وما أبعد قولك ان الناس طعنوا عليك من قولك أنهم مالوا اليك !.. »

فتدخل عمر فى الحديث يحتد كالمعهود منه :

« انا لم نأتكم لحاجة اليكم ، ولكن كرهنا أن يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم فيتفاقم الخطب بكم وبهم . فانظروا لأنفسكم وعامتهم . »

وخشى أبو بكر أن يغضب هذا الكلام العباس من حيث اراد ان يترضاه ، فأسرع يقول :

« يا أبا الفضل ... انك سيد هذا البيت . وقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك فى امرنا نصيبا ولمن بعدك من عقبك اذ كنت عم رسول الله — »

ولكن العباس لم يدعه يتم ، بل انبرى فى التو يخاطبه ، ويرد عرضه :

« انما تريد أن تعطيناه حقك ، أم حق المؤمنين ، أم حقنا ؟. يا أبا بكر ان يكن حقك فامسكه عليك ... وان يكن حق المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه ... وان يكن حقنا لم نرض ببعضه دون بعض !... ولكنى أراكم خرجتم بسلطان محمد عن أهله ! »

« قد كان رسول الله منا ومنكم يا أبا الفضل »

فابتسم العباس ، واجاب وهو يهز كتفه بلا اكتراث :

« انى ما قلت الذى قلت أروم به صرفك عما دخلت فيه .. لا والله ، ولكن للحجة نصيبها من البيان !... يا أبا بكر ، ان يك رسول الله منا ومنكم فان رسول الله من شجرة ، نحن أغصانها ، وأنتم جيرانها ! »

١١

اتم على جهاز الرسول بعد أن أتم غسله . ووضع الجثمان الطاهر على فراشه ، على شفة القبر فى الحجرة النبوية . ثم بدأ هو بالصلاة وخلفه الرجال من آله ، حتى اذا فرغوا أدخل النساء .

وخلى بعد هذا بين الحجرة وبين جموع المسلمين ، يدخلونها أرسالا ليتزودوا من محمد بنظرة الوداع الأخير ، وليسكبوا ما شاؤا من دموعهم حسرات على الرجل الذى أضاء للناس جوانب الحياة كما لم تضىء نجوم ولا شموس ، وغرس النور فى هذه القلوب والأرواح ثم تركه من بعده للأيام ذخرا يفيضون منه على بقية الأنام .

ودخل أبو بكر ، خافض الرأس مضطرب الخطو من أساه ، يترقرق الدمع بعينيه ثم ينطلق لا يغيض . واقترب من الجسد الطاهر الكريم فحياه وكان صوته — من بين غمرات الحزن — لا يكاد أن يبين ، ويكاد حلقه أن يشرق بالبكاء فلا يؤدى الكلمات . ولكنه اصطنع ، كما وسعه ، الاصطبار ، وتذرع بالجلد والاحتمال ، ثم راح يتكلم بصوته الخفيض الرقيق :

« السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ... »

فردد بعده المسلمون ، وما فتئوا يرددون :

« السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته »

« اللهم انا نشهد أن قد بلغ ما أنزل عليه ، ونصح لأمته ... »

« اللهم أنا نشهد . »

« وجاهد فى سبيل الله حتى أعز الله دينه ... »

« اللهم انا نشهد . »

« وتمت كلماته فآمن به وحده لا شريك له ... »

« اللهم انا نشهد . »

« فاجعلنا يا الهنا ممن اتبع القول الذى انزل معه ... »

« آمين »

« واجمع بيننا وبينه حتى يعرفنا فانه كان بالمؤمنين رءوفا رحيما .. »

« آمين ! ... »

« لا نبتغى بالايمان بدلا ... »

« لا نبتغى بالايمان بدلا ... »

« ولا نشترى به ثمنا أبدا ... يا رب العالمين . »

وانقضى النهار — بعد هذا — وبعض المساء ، يودع الرجال والنساء والأطفال نبيهم الكريم .. كلما خلت الدار من فوج منهم جاءها فوج ، حديثهم سلام ، وتحيتهم صلاة وقيام .

* * *

ولعل اقسى محنة اجتازتها نفس بشرية كانت تلك التى المت بعلى اذ وقف ، جوف ذلك الليل ، على حافة قبر الرسول بعد ان وسد الجثمان الكريم مرقده وخرج من القبر ليهيلوا التراب ... هذه لحظة لا تحسب بمقياس الزمان ، استحالت فيها الوحدة الزمنية الى طاقة شعورية من اللوعة الطاغية والحسرة العاتية ، كان القلب ساعتها الدقاقة ، وكانت خفقاته دقائقها وثوانيها التى تلكات فى المسير وسارت ، فى حساب الشعور ، الأجيال والدهور !... وقف على — وما نستطيع أن نقول انه كان سوى عين دامية تدمع استجابة لاحساس نفس ولهى وقلب تصدع — ثابت البصر على هذه الرقعة الصغيرة من الأرض التى اصبحت لمحمد وطاء وغطاء ... قد برح به الشجن لغياب هذا الثاوى البعيد القريب ، وبرح به ما يعرف من عسر اللقاء غب فراق لم يسبقه فراق ، وبين يلقى منه مثل ما تلقى الأم تشهد على حجرها مصرع وليد وحيد ، أنجبته بعد طول تلهف ثم ثكلته بعد حلول عقم !..

وقف على الى جوار القبر ، شاخص العين ، لا يطرف له هدب ،

ولا يهدأ له قلب ولا يثوب لب ، كالرائى وليس براء .. حتى تعود به الى انتباه أصوات المساحى تنطلق فى جوف الليل وهى تهيل التراب على المثوى ، كأنها تعلن عن دفن محمد ، وتخبر الناس أن شخصه الحبيب أصبح الآن من كيان الماضى ، عصيا على العيون والآذان ، حيا فى الخواطر والأذهان .. طواه القبر وان نشره الذكر ، ومضى جسما ليعيش اسما مع الأحقاب ، مسطورا على كل قلب .

هنا ثابت الى على نفسه هنيهة . ثم اكب على القبر بوجهه يرويه بماء عينيه . وازدخرت فى صدره لواعج حزنه وثكله ، فود لو استطاع أن ينفس عنها بلسان لم يخنه قبل لحظته هذه فى مقام . ولكن بيانه المستفيض نبا عنه فيضه ، ولم يخلف سوى كليمات قصار ندت عن شفتيه كمثل تردد انفاس الذى يعانى الاحتضار :

« ان الصبر لجميل ، الا عنك يا رسول الله . وان الجزع لقبيح ، الا عليك . وان المصاب بك لجليل . وانه قبلك وبعدك لجلل .. »

ثم قوم عوده وسار متمهلا من وقر الهم ، يتبعه آله .

* * *

الا من ذا يعلم كيف مرت عليه الليلة ؟ .. وكيف اختلى فيها بفكره ؟ وكيف أصاب منها واصابت منه !. لو كان قد تمكن أن ينفرد بنفسه لهان وقعها نوعا . ولكنه لحق بداره ليلقى هناك فاطمة الحزينة قد استعادت ما كان ولى من أحزانها القديمة ... على أمها ، وعلى عمها ، وعلى أخواتها واخوتها الذين عانت من اجل فقدانهم ضعف ما كان حريا بغيرها أن يعانى . هذه الرقيقة البنيان الرقيقة القلب كانت تحزن دائما للمصاب حزنين ، مرة لقلبها الجريح وثانية لقلب ابيها اذ يصيبه كلم الحزن . وانها الآن لتحضرها صور شتى من أساها الماضى ، فلا تعرف أبها تزيد حزنا أم اللوعة على هذا الاب الحدوب الرحيم لم تترك بقلبها فراغا لغير الأسى عليه ؟.. الى كم يا ترى يحتمل الجلد وتتسع رقعة الصبر ، ولغير هذا الرزء النازل كان الجلد وكان الصبر ؟.. أفى العين من الدمع بقية ، وفى القلب ناحية لم يخضبها سلاح الهموم ؟.. هى جاثمة من الحجرة بركن ادنى الى قبر أبيها وان حال بينها وبينه جدار . ولكنها كانت ادنى الى هيئة جثمان

صامت منها بمن تسير فيه الحياة .. اوهى قوة واوهن بناء ، ساكنة من ذهول ، قد لون الشحوب وجهها وكساه .

تلك فاطمة كما لم يرها على مطلقا من قبل . كان يعلم انها ترق امام الحادثات كأنها تسيل . ولكنها الآن قد ذهبت بددا ، غادرها العزم وغادرتها القدرة على اصطناع الاحتمال ، حتى ليعلم ان جزعه على النبى بداية وجزعها فى ميقاس الأحزان هو الغاية التى لا تبلغ شأوها غاية ..

* * *

ثم رآها أخيرا تتحرك فى مكانها متمهلة من جهد ، تهم ان تنهض فتنوء ، ثم تنوء كلما همت مرة ومرات . وتستطيع ان تقف فيسرع اليها . ويتبعها صامتا اذ تسير ، وهو يأبى — ترفقا بها — ان يردها أو يعكر الصمت الذى التزمته وفرضه على كيانها هول ما تحسه . وانها لتمشى الى الباب فتنفذ منه ، فيعلم فيم خروجها هذه الساعة.. لم يعد لها بالبقاء بعيدا عن مثوى أبيها طاقة ، وقد فرقت بينها وبين هذا الحبيب الراحل فترة من الزمان جاوزت — فى حسبانها — آمادا . وخرج على خلفها الى القبر ، فاذا النهار قد انتشر ، والشمس يملأ ضوءها الفضاء ..

واقبلت هى على المثوى الطاهر تطوف به حيرى كأنها تلتمس فى جوانبه المنفذ الى محمد . وراحت أنفاسها تتردد كالهمس ، وقلبها يخفق فى صدرها كمثل طائر حبيس . اما عيناها فقد صنعت لهما من الدموع اهدابا .

واكبت بوجهها على القبر تمسح خديها على تربه ، وقبضت بكفيها على حفنتين من ثراه الرطيب فرفعتهما الى شفتيها وعينيها تقبل وتبلل . ولم يستطع زاء شهدها فى تلك الآونة ان يظل يشهد ، بل مال عنها ببصره رفقا بنفسه ان تذهب أسى ، وبقلبه ان يقضى حسرة ، ولكن الأصوات علت بالبكاء ، وملأت الزفرات المكان حتى اختلطت بهمساتها الخافتات التى راحت بها ترثى أباها . وبلغ الموقف الحد الذى يعز فيه الصبر وينوء به الجلد ، فتقدم زوجها نحوها ، مترفقا

بها ما استطاع ، حتى ألقت اليه القياد ، واهنة لا تكاد تقوى على المسير من اعياء .

وتلفتت ناحية القبر تشخص برهة قبل أن تغادر المكان . فما اسرع ان تبينت من قريب رجلا يهم أن يسعى الى المثوى الطاهر ، ناكس الراس خافض النظرات . ولكنها عرفت فيه ذاك الذى وسد رسول الله مقره الأخير ، فوقفت برهة تتلبث به ، حتى اذا صار منها على مبعدة خطوات قليلات . هتفت به فى صوت راعش النبرات :

« أنس بن مالك ! »

فأسرع الرجل اليها ، مضطرب الخطو ، غامت على عينيه دموعه ، وهمس يجيب :

« لبيك يا بنت رسول الله ! »

فما زادت على أن تمالت له وهى تغادر المكان :

« كيف امكنك يا انس قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله ؟. »

وخلفت الحجرة غارقة فى الشئون والمدامع ..

١٢

آثر أبو بكر هذه المرة ان يقتحم على الأسد عرينه !.

لم يكد يطلع النهار حتى كان الشيخ قد أجال فى ذهنه احتمالات الأمر . ان العباس ، بلا ريب ، لن يخفى عن ابن اخيه من مساومة الأمس شيئا . وخليق بعلى بعد هذا أن يغضب لحقه ، ويغضب أكثر من هذا لاهمالهم المسير اليه ، ثم لعله بعدها يرتب قواه ويقدم على المناجزة والكفاح .

وكانت المدينة اذ ذاك قد بدأت تثوب الى نفسها ، وبدأ ينجاب عن الناس فيها ذهول الحزن فيقدرون ويصيبون بعد أن كانوا فى غمرة الأسى لا يقدرون ، وان قدروا أن يميلوا الى الاستسلام والاقرار ، وكان لغط الألسن حريا بأن يصل الى اسماع على ، واسف الناس على ضياع حق الرسول يسرى حديثا هامسا فى المحافل . وليس عجيبا من بعد

أن يقدم من لم يقر بالبيعة على دعوة الآخرين الى نقضها ، والعمل على تنفيذ ما تم فى فضاء بنى بياضة من اتفاق ..

ولم يكن على من جانبه يعير الأمر التفاتا لأن حكم الناس كان ابغض الأمور الى قلبه الا آن يؤدى فيه حق الله . وكانت الخلافة فى ذاتها وسيلة يتوسل بها لغاية يرتجيها . وقد آمن دائما انها حقه ، وانه الأولى بها فى الناس . ولكنه آمن كذلك انها لا تكون الا عن مشيئة الناس ، فاذا هم خرجوا بالحق الى غير أهله فهذا خطأ منهم عليهم وزره ، حسابهم عنه عند الله .

لذلك نراه يرقب الأحداث من كثب ولا يدلى فيها بدلو ، بل يدع القوم الى عقولهم وضمائرهم غير محاول ان يردهم عن بغيهم عليه أو يدعوهم الى الانتصار له . وليست هذه حال طالب السلطان ، الساعى اليه ، بل هى أحرى بالزاهد فيه النائى عنه .

ولكن أبا بكر أتى عليه يوم وفاة النبى وهو من الناس كأحدهم ، لا يساوى فيهم الا مقدار ما يستوعب قلبه من الايمان .. ثم مر عليه اليوم فاذا هو منهم الحاكم صاحب الأمر والسلطان . قلب بصره فعرف موطىء قدميه فكان أولى به أن يحرص على الأرض من تحته أن تنهار !.

* * *

ما كان ابو بكر حقا بالذى استهواه حب التملك او التآمر على الناس . ولكن الأيام نصبته فى مقام فكان لزاما عليه أن يرعى حق هذا المقام . ولقد دفعته لهذا الحرص وحدة الامة ان تنشق ويذهب بريحها تناحر الأحزاب ، وقوة الدين الناشىء أن يميل الناس عن الجهاد فى سبيله الى الجهاد فى سبيل الأشخاص . وكان الرجل عالما تمام العلم انه قد بلغ بالبيعة الحد الذى يحسن بعده الاقدام وتسوء عقبى التردد والنكوص ، وهو حقا ليس بخير الناس — كما قال بلسانه ليكون منهم الأمير المسود . ولكنه كان أدنى الى اصابة جانب الخير فى الحكم لو انهم عملوا على المنهج الذى ارتسمه لنفسه حين خطبهم بالأمس فقال :

« أما بعد ، ايها الناس ، انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان احسنت فاعينونى ، وان اسأت فقومونى ... »

ولكنه اليوم لا يستطيع أن يترسم الخطا التى عاهد الله أن يسير وفق نهجها الواضح المعلوم . وهو ان يستطيع هذا بحال حتى يحرص على الأرض تحت قدميه أن تنهار !..

وهكذا نراه يعاود ما كان أخفق فيه بالأمس عساه يفىء برضاء على ومن بعده آل محمد وصحبه المخلصين ، ثم من بعدهم حشود مخالفيه من المسلمين ..

ذهب فدخل عليه داره وقد حف به صاحباه عمر وابن الجراح : وتوسل ما وسعه باللين ورقة الحديث . ولكن عليا ظل الثابت على حقه ، المستمسك به ، لا يسلم وان كان لم يتذرع بالعنف أو تأليب الناس للفوز بهذا الحق المسلوب .

وقال أبو بكر محاولا أن يصل الى اقناع غريمه باثارة الخوف فى قلبه على وحدة الاسلام :

« ابن عم رسول الله ، وختنه على ابنته ، يريد أن يشق عصا المسلمين ؟ »

فأسرع العباس يقول ، وكان حاضرا :

« ما أحد أولى بمقام رسول الله منه ! »

وقال على ، رابط الجأش ثابت الجنان :

« انا احق بهذا الأمر منكم ، فلا ابايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى .. »

« فهل كانت بيعتى عن غير رضا من الناس ؟ »

« ولكنكم زعمتم للأنصار انكم أولى بها منهم ، اذ كان محمد منكم ، فاعطوكم القادة . ولست احتج عليكم الا بمثل ما سلف لكم من الحجة على الأنصار . »

قال عمر :

« قد كان رسول الله منا ومنكم »

فالتفت على نحوه ، غاضبا . يقول :

« نحن أولى برسول الله حيا وميتا !.. يا عمر ، انا آله ، موضع سره ، ولجأ أمره . وعيبة علمه ، وموئل حكمه ... لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة احد ، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا !.. »

هنا عاود ابن الخطاب عنفه ، فاندفع يقول :

« انك اذن لست متروكا حتى تبايع »

فصاح به علي :

« أفتلزمني البيعة يا بن الخطاب ! »

وقال ابو بكر بهدوئه المعروف :

« يا أبا الحسن ، ان الناس قد اختاروني عليهم . واني احب لك ان تدخل فيما دخل فيه الناس ... »

وعقب عمر :

« يا خليفة رسول الله ، لقد لزمته طاعتك اذ بايعك الناس ... »

فثار ثائر علي ، وهتف به بزار ، وفي صوته رنة سخرية وتهكم :

« يا عمر !.. احلب حلبا لك شطره ، وشد له اليوم يردده عليك غدا ! ... »

ثم التفت الى ابي بكر يقول :

« اما والله لقد تقمصتها وانك لتعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ، ينحدر عني السيل ولا يرقى الى الطير !... »

وهم عمر أن يتكلم فأسرع ابو بكر يحول دون ذلك خشية ان يصل الأمر الى ما لا تحمد عقباه . قال له :

« على رسلك يا عمر ! »

ثم أقبل يتلطف بعلي ويقول ، وهو يسير الى الباب :

« لا عليك يا أبا الحسن . فان لم تبايع فلا اكرهك . »

وخرج يتبعه صاحبه . وبقي أبو عبيدة لا يبرح عساه ان يبلغ من علي بلين كلامه ما لم يبلغه رفيقاه .

أجل فقد راح ابن الجراح يحاول أن يفوز للخليفة بالبيعة من آل الرسول ، فيتحدث اليهم عن عروة الاسلام ، وعن وحدته ، وعن الرجل الذي شاءه الناس لهم واليا كيف اجتمعت له صفات تؤهله لما هو فيه من مقام . وكان علي جالسا ينصت وحوله اهله ، لا يتعجل لحظة الجواب على هـذا الداعية الذي كانت له اليد الطولى في تنصيب ابي بكر قبل أن تخطر الخلافة في بال ابي بكر !...

قال أبو عبيدة اخيرا بلفظ ناعم يحسب أن يستطيع به تاليف علي :

« يا ابن عم ... انك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم بالأمور ... »

فرد علي وهو يبدي له الهدوء وقلة الاكتراث :

« اما السن فما ازعم لى بها على الرجل قدم ! »

« فهلا يا ابن عم بايعت ؟ ... انى ارى أبا بكر أقوى على الأمر منك »

فما أسرع ان القى على اليه جواب السؤال فى سؤال :

« أفأنتم خير أم رسول الله خير ؟ »

« بل رسول الله »

« لقد كان رسول الله بعث أسامة بن يزيد على جيش فيه مشيخة قومك هؤلاء ، لم يطعن فيه أنه صبى ! »

فلم يحر ابو عبيدة خطابا . ان شأن أسامة ليس بخاف عليه اذ امره رسول الله على جيش الشام ، وأسلمه بيده الراية . وكان من بين جنوده ابو بكر وعمر وغيرهما من صحب محمد الأقربين اليه اعلاهم سنا ، فساء قوما منهم أن يتقدمهم فى القيادة غلام لما يبلغ عامه العشرين . ومشوا يجعلون من حداثته نقيصة يطعنون بها فى امرته ، حتى خرج اليهم الرسول قبيل موته يهتف بهم مغضبا ويقول :

« أيها الناس . انفذوا جيش أسامة . ان تطعنوا فى امارته فقد كنتم تطعنون فى أبيه من قبله ... وايم الله انه لمن أحب الناس الى بعده »

كان أبو عبيدة يعلم هذا . ويعلم أن حديث الرسول قد حد من ثورة الناس . ثم هو يعلم الآن انهم قد عادوا بعد وفاة محمد الى ماكانوا عليه لا يريدون الاقرار للغلام بالامرة عليهم ، ويودون لو انه استبدل بأمير شيخ ... لقد أخذ هذا العصيان يملك ناحية من فكر أبى بكر بعد أن آل اليه أمر الناس ومشى اليه الكثيرون يطلبون خلع الأمير الصغير . ولكن الذى يعلمه أبو عبيدة تمام العلم هو أن خليفة الرسول لم يقبل مطلقا أن يغير ما أقره الرسول ، لأن السن ليست مقياس القدرة على الاضطلاع بالأمور ...

كان أبو عبيدة يعلم هذا فعلم كيف عداه التوفيق اذ حاول ، أمام على ، ان يجعل للحداثة وتقدم العمر شأنا فى الخسران أو ترجيح الميزان ... ولكن لسانه كان قد كبا ولا يستطيع بعد هذا ان يملك ما ند عنه . فما له الآن — وقد جاء داعية — لا يحاول منحى آخر من الحديث لا يتكلف فيه سوق الحجة حتى يأمن أن ترتد الحجة عليه !؟ .

قال اخيرا ، وهو يضفي على حديثه رقة ، ويميل به الى التلطف والمداجاة :

« انى ، يا بن عم ، انما عنيت أنك حديث السن ، انك ان تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق ، وبه حقيق ، في فضلك ، ودينك ، وعلمك وفهمك .. ونسبك .. وصهرك »

ولكن هذا الكلام اللين الرقيق أثار من نفس على ما لم يثرها من قبل ، فصاح به :

« الله الله يا معشر المهاجرين !.. تخرجون سلطان محمد في العرب من داره الى دوركم وتدفعون أهله عن مقامه في الناس ؟ ... اما والله لنحن — أهل البيت — أحق منكم بالأمر ، ما دام فينا القارىء لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ... »

وتريث هنيهة ثم عاد يقول بلهجة المطمئن الواثق :

« وانه والله لفينا يا أبا عبيدة !. انه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله ، وتزدادوا من الحق بعدا ... »

وقطع بهذا الجواب على الرجل كل خطاب !

١٣

كان أدنى الى اتساق الأمر لأبى بكر الا يمشى الى العباس .

وكان أدنى الى هذا الاتساق من بعد الا يطلب طاعة على بلسانه هو فضلا عن جفوة الخطاب على لسان ابن الخطاب .

ولكن الرجل شاور وعمل بالمشورة ، فدلت العاقبة على خطأ المشير وخطأ المستشير !.

كان على عازفا عن السلطان ما لم يأته حتى الباب ... وكان العباس آسفا على ذهاب السلطان ، ولكنه لم يملك طلبه لان الأولى به فى الناس اعتزل الناس وقد ساءه أنهم عدلوا عنه ولم يقدموه .

اما وقد مشى الخليفة ، كمشورة المغيرة ، الى العباس يترضاه فقد مشى الى من لا تعدله الكثرة من الساسة الدهاة ، ولا تنفع فى

سلبه حق ذويه مداراة ولا مداجاة . وبحسبنا ان سمعناه يوجز فيفحم ، ثم لا يثبت أمام حججه القاطعة دليل ولا برهان .

فاذا نحن ضممنا الحجة فى كلامه الى الحجة فى كلام ابن أخيه ، فقد وضح كيف خسر أبو بكر حيث ظن النجاح ، لأنه دخل دار العباس ودار على وفى يقينه أن يعود منهما بالرضا والوفاق ، فما تركهما الا بعد أن أثار فى النفوس مكامن الخلاف والشقاق .

فالعباس الذى كان مستمسكا بالصمت على كره ، اقتداء منه بعلى ، ساءه أن يكون ابن أخيه هدفا للدس والوقيعة يمشى بهما خصومه بينه وبين عمه وذويه ... وعلى الصابر على الحيف ، المنطوى على نفسه ، الساكن الى ركن داره ، ملأه بالأسى والغضب أن يرى سالبيه حقه لا يقرون حتى يركبوه بالعنت والاعتساف ، وقد كان لهم فى سكونه وكفه عنهم مندوحة عما توسلوا به من قطعه آونة بالعنف. وكان هو قبل هذا لا يبتغى عن الصمت سبيلا ، ولا يروم — بعد بيعة أبى بكر — أن يتوسل الى استرداد حقه المغصوب بالقوة ، او بعنف الأسلوب . ولم يكن هذا لينا منه مال الى الضعف أو رفقا جنح الى التخاذل ، ولكنه كان منطق الرجل الذى يرى الأمور من خلال الواقع الملموس ، ولا يراها بعينى حالم نزاع الى الخيال .

جاءه أبو سفيان بن حرب ، ثانية ، بعد مجيئه يوم وفاة الرسول يعاود ما كان منه قبل ، ويعرض أن يبايعه بالخلافة . ولكن عليا يأبى ، ولا يقبل ، بل يقول :

« يا أبا حنظلة .. انك تريد أمرا لسنا من أصحابه » .

وهو يعنى بهذا ما سوف تقود اليه خلافة رجلين فى آن من ثورة تتهدد كيان الاسلام .

ويهتف أبو سفيان ، مقاطعا محرضا :

« مهلا يا أبا الحسن !.. فأنت والله — » .

ولكنه لا يدعه وما يقول ، ويرده ردا حتى يذهب الشيخ شاكيا الى العباس . ويظن أبو سفيان أن تراث الرسول ، بعد رفض على ، قد صار لشيخ بنى هاشم ، او هو أولى بأن يصير اليه فيمد نحوه كفه ويقول :

« فامدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » .

« تبايعنى ؟ » .

« نعم ، وانك والله لها لأهل ، واحق بميراث ابن اخيك » .
فلا يخفى العباس بسمة تنطق بمرارة قلبه ، ويجيب :
« يا أبا سفيان ؛ أيدفعها علي ويطلبها العباس !.. »

* * *

ويجتمع الناس مرة الى هذا ومرة الى ذاك من قطبي آل هاشم ، يحرضونهما على استرداد هذا الحق المسلوب فلا يجدون لديهما سمعا. وتمتلىء المدينة بالحديث ، وما من رجل فيها غير زار عليهما ان تركا تراث النبي يخرج من بيته الى غير اهله ممن لم يبلغ شأوهما نسبا أو علو منزل ، ولكن عليا كان لا يأبه لهذا لأنه كان يعلم أن هذا النسب الحرى برفعه على رقاب الناس هو الذى اتخذته قريش ذريعة الى خذلانه . لقد كرهت من بني هاشم أحقابا أن استطالوا عليها ، فقامت تنافسهم حتى ردها عنهم القصور . ثم كرهت فيهم أن تكون بينهم — من دونها — نبوة ، فحسدت صاحب الدعوة السماوية وقد أحنقها عليه أن جاءها بما لاتستطيع أن تباريه في ميدانه لو أرادت المباراة .. وهذه كلمات الحكم بن هشام — أبى جهل — ما زالت تفصح عما ملأ قلوب قريش من حقد لآل علي ولآل الرسول ، وانها لكلمات تتخذ شعارا للحسد عند أكثر الحساد حقدا !..

قال الرجل اذ سمع أن محمدا قام يدعو قومه لدين جديد :

« واللات هذا لن يكون !.. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا .. حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء !. فمتى ندرك مثل هذه ؟.. واللات لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه !. » .

كان علي يعلم هذا من قريش ، ويعلم أن علو آله عليها هو سبب خذلانها اياه كما سعت من قبل الى خذلان محمد لولا ان قهرها على الالتفاف حوله . أما وقد أصبحت اليوم تستطيع ان تنصر وتستطيع أن تخذل ، فقد سارعت تمد اكفها الى شيخ بني تيم مؤيدة وتلوى رقابها عن الأولى منه ببسط الاكف واجتماع الآراء .

كرهت قريش اذن ان يذهب بشرف السلطان عليها رجل من الالى باءوا في العصور بمر حقدها عليهم . وابت أن تجمع لدار هاشم شرفين:

شرف النبوة وشرف الخلافة . ولو كانت استطاعت أن تخلع عن رقابها هذا الشرف الأول لما توانت كما سارعت الى الثانى تنفضه عنها .. بل هى حقا حاولت أن تتحرر منه .

وكأنها كانت تتلبث بالزمن الذى قهرها على أن تدين للاسلام كرها حتى جاءها النبأ بوفاة رسول الاسلام .. وما كان أعجب هذه النفوس التى بدت من قبل كأن قد ملأها الايمان ثم تكشفت اليوم عن أضغان هتكت ستر هذا الايمان ! لقد قامت تهم أن تخذل محمدا فى مماته بعد اذ أعياها أن تخذله ابان حياته . ونهضت تجيش شراذمها بمكة . داعية لخلع رداء الاسلام . وانتشرت الفتنة هناك . وقويت شوكتها حتى خشيها عتاب بن أسيد ، عامل رسول الله على البلدة الحرام ففر منها يتلمس النجاة . ولكن الله أبى الا ان يعز دينه ويعلى كلمته على القوم الضالين فضربهم ثانية على الاسلام كما ضربهم في حياة محمد ، عليه . فاذا سهيل بن عمرو — رجلهم يوم الحديبية — يقف بينهم ، بعد فرار عتاب ، محذرا متوعدا يقول :

« يا أهل مكة !.. كنتم آخر من أسلم فى الناس فلا تكونوا أول من ارتد من الناس . يا أهل مكة .. والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله . ومن رابنا ضربنا عنقه !.. »

فخشيت الرقاب ، وعاود العقول الصواب !.

* * *

عرف على هذا كله فى قريش ، ونظره رأى الواقع لا بعين الخيال فآثر أن ينطوى على نفسه ويقر في داره ، لا يدعو الى خلاف ولا تأييد . ولئن كنا شهدنا قوما من أصحابه يجتمعون فيدبرون ليستعيدوا حقه من يدى من ابتزوه ، فلقد ساقهم الى هذا صدق ولائهم لايمانهم بمقامه في الناس بعد مقام الرسول . ولقد سمع على ، وهو قائم على جهاز محمد ، بما تم من بيعة أبى بكر فى السقيفة فلم يترك ما هو فيه ، ولا أسرع يؤلب الأنصار أو يعتب عليهم .. ثم جاءته أنباء البيعة الثانية ثانى صباح فوقف منها موقفه الأول ، يكتب فى نفسه مرارة ما لقى من خذلان الناس ولا يرى الا أن يعتزل الناس .

ولكن أبا بكر — فيما يبدو — خشى منه هذا السكون والاعتزال فقام يسعى سعيه الى العباس عساه ان يقطع بين العم وبين ابن أخيه. ثم قام من بعدها يتوسل بلينه مرة ، وبعنف ابن الخطاب ثانية ، وبرقة أبى عبيدة أخرى لينتزع الرضا من على عن بيعة يرى هذا فيها عدوانا على حقه أى عدوان ، فهل من راى رجلا ينظر بعينيه الى حقه يضيع فيقر لسانه هذا التضييع ؟ كان لسان على دائما ترجمان قلبه ، يجرى أحاسيسه مجرى الكلام فليس بعجيب الا يخرج عن عهده في هذا المقام . وما أحسب نفسا بشرية لها قيمتها ، ولها قدرها على صاحبها ، تقبل — اذ تغضى عن الضيم — أن يردف منافسوها الضيم بالضيم ولا تنهض الى استنكاره ، ثم الى دفعه ، ثم الى استعداء من تستطيع على موقعيه ما وسعها دفع العادين واستعداء المناصرين ..

وكذلك غضب على لحقه الهضيم ، وقد أغضبه التواء الأسلوب الذى تذرع به خصومه للنيل منه — وكفى بالوقيعة التى مشوا بها بينه وبين العباس أسلوبا ملتويا وسلاحا غادرا لم تدع الى سلهم اياه دواعى الحال . وكذلك خرج عما كان قد التزم نفسه من سكون وعزلة يلتمس النصرة فى قوم غير قريش الشانئة له الحاقدة عليه فيمم ناحية الأنصار . وراح مع الليل يدور بهم والى جواره زوج ابت ان تدعه يستقبل الأمر وحده اذ كان امرها مرتين .. ان الزهراء لا تبرح دارها ولا تغادر مجثمها ذاك بجوار رسول الله لغير هدف يطفو بنفسها الولهى فوق لجة الأحزان وكان تراث أبيها ذلك الهدف ثم من بعده حق على فيه .

لعبت فاطمة دورها وهى شديدة الايمان بأنه لزام عليها ان تفعل ، وان تدعو ، وان تكافح غير وانية . ووقفت الى جوار زوجها المظلوم تنضح عنه باللسان وليس لها عدة سواه .. فكأنها بفعلها قد ارتدت « خديجة أخرى » ، لا يقعدها خذلان القوم زوجها عن الكفاح ، بل راحت ترسم نفسها بلون الماضى لتبدو صورة بارزة الظلال والأضواء ، واضحة المعالم ، نابضة بالحياة ، عاشت فيها الأم فى الفتاة .

ولكن الذين بايعوا اباها على الموت وناصروه لم يستطيعوا لها نصرا . صحا فيهم خلق العربى واستمساكه بكلمته وشدة وفائه بعهده .. ولم يخفوا عنها هذا ، بل كانوا يقولون ، خافضى الرءوس كاسفين :

« يا بنت رسول الله .. قد مضت بيعتنا للرجل »
وتجيبهم هى مستنكرة :
« أفتدعون تراث رسول الله يخرج من داره الى غير داره ؟ » .
فلا يجدون لهذا الاستنكار ردا سوى الأسف على ما سلف منهم ، والاعتذار عنه :
« يا بنت رسول الله .. لو أن زوجك سبق الينا قبل أبى بكر لما عدلنا به .. »
فيقول على :
« أفكنت أدع رسول الله فى بيته لم أدفنه ، ثم أخرج انازع الناس سلطانه ؟.. »
ولكنها حجة لا تغنى فى حساب السياسة النهازة العادية وان أغنت فى حساب الأخلاق القويمة الصافية .. وان فاطمة لتعبر عن هذا فى أوجز بيان فتجيب القوم وهى تنهض عنهم ، نافضة يدها من تأييدهم المأمول .
« ما صنع والله أبو الحسن الا ما كان ينبغى له .. وقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه ! »

١٤

أنف على بعد هذا أن يعاود الكلام فى شأن البيعة التى سبقه اليها شيخ بنى تيم أو يختلف فى أمرها الى الناس . وانطوى ثانية على نفسه في داره ، رفيقه فيها كتاب الله يعمل ما وسعه فى جمع شتاته أن يغيب عنه . وقد وجد فى القرآن خير مسلاة له عما هو فيه ، فأقبل عليه بكل ذهنه يجمعه ويضم آياته الكريمة واحدتها الى الأخرى .
ولكن بيته لم يزل الكعبة التى يؤمها الذين آثروا الانحياز اليه وأبوا أن تميل قلوبهم عنه الى أبى بكر ، فلم يخل يوما من الزبير أو أبى ذر أو المقداد ومن تابعهم من صحابهم على الراى ، يجتمعون ثم ينفضون فلا يدفعه اجتماعهم الى الأمام خطوة ولا يرده انفضاضهم خطوة ، بل ظل مقيما على ما اخذ به نفسه من اعتزال الناس واعتزال الأمر كله

بعد ما أصبح لأبى بكر وبعد ما شاهد من حيرة النفوس بين حقه وبين ما سلف منها الى غريمه من الادلاء بالسلطان . ولقد كانت الأنباء تاتيه تترى من الخارج عما أخذ يفور بصدور الأنصار من الندم لأنهم لم ينصروه فكان لا يحرك لها ساكنا ولا يلقى اليها بالا ، ولا يعنى بأن يتقصاها أو يعمل على اذكاء الندم لينقلب فتنة أو ينقلب ثورة يفيد من ورائها ما فاته . ولقد مشى اليه أناس يحاولون حمله على المطالبة بحقه المسلوب ويعرضون أن يؤازروه فى الدعوة اليه أو فى نصره فما كانوا يصيبون منه تلبية النداء وان اصابوا حسن الاصغاء .. قدم خالد بن سعيد ، أمير رسول الله على اليمن ، الى المدينة فلقى عثمان ابن عفان ، وراح يعيره أن قعد وآله على الهضم ، . ثم انفلت عنه بعد قليل فدخل دار على وهو فيها جالس بين ذويه ، وراح يوجه اليهم جميعا الخطاب وان عنى بحديثه هذا الساكن المظلوم :

« يا بنى عبد مناف !.. طبتم نفسا عن أمركم يليه غيركم ؟ »

فما فعلت كلماته المثيرة فى نفس الشاب فعلها المنشود ، بل جاءه الرد من لدنه فى هدوء :

«يا خالد .. هذا أمرنا أبت قريش أن تؤتيناه »

« يا ويح قريش !.. وهل فى الناس احد اولى بمقام محمد منك؟ »

لا أحد والله !.. ولكنه الحسد والغل والضغن القديم !.. ولئن أبت قريش هذا على خير رجالها اليوم ، فلقد أبت مثله من قبل على سيد البشر وخير الناس أجمعين . ولكنها كانت موكولة برى الأحقاد والغليل من ذلك الغريم المظلوم ، الذى وترها آله من قديم بنباهة الذكر ورفعة المقام ، ووترها هو في الاسلام بحد الحسام !.. وما اصدق قولا فى هذا المعنى من الفضل ابن العباس ، حين طلع على القوم ذات يوم يقول على الملأ منهم ، مترجما بحروف بيانه عما خامر نياتهم واختلط منهم بدماء القلوب :

« يا معشر قريش .. يابنى تيم !.. انما أخذتم الخلافة بالنبوة ونحن أهلها دونكم : ولو طلبنا هذا الأمر الذى نحن اهله لكانت كراهية الناس لنا أعظم من كراهيتهم لغيرنا ، حسدا منهم لنا وحقدا علينا !. »

＊＊＊

تلك كانت مشاعر قريش قبل على وقبل آله فى ذلك الحين ، فلم يروا في خذلانه أو فى قعودهم عن نصرته ، وهم يستطيعون النصرة ، الا أمرا وافق منهم هوى النفوس مع ما كانوا يعلمون من حقه ، وانه أولى بأن يتقدم على كل ولى وكل أمير ، ولكنهم حقدوا وغالوا ، وحسدوا فاغتالوا .

وأمام هذه المشاعر المعادية كان الأنصار فى عسكر آخر .. اقبلوا على بعضهم وقد راحت غمرة الحزن على وفاة الرسول ثم راحت من بعدها غمرة النخوة التى تركتهم يستمسكون بما سلف من كلمتهم ببيعة ابى بكر — اقبلوا يتلاومون ، ولا يلقى الرجل منهم أخاه الا معاتبا ففيم كان اذن عدوانهم على صاحبهم سعد بن عبادة يوم السقيفة يسلبونه السلطان الذى كادت أن تتقبض أصابعه عليه ؟ — فيم كان وقد نقلوا به الامرة من قريب الى غريب ؟.. وفيم كان وقد اخرجوا به الحق من أهله ووضعوه فى غير أهله ؟. وفيم كان وقد أضاعوا الولاية من قرشى هو اولى الناس بتراث محمد ثم هو ادنى الناس قرابة من الأنصار ، اذ كان حفيد عبد المطلب صهر بنى النجار !..

ندم الأنصار اذن على ما سلف منهم حتى سال الأسف بنفوسهم كل مسيل . واخذ الندم يتجمع فى القلوب حتى امتلأت به ففاض يتلمس متنفسا له على الألسنة ومن بين الشفاه . وكانت قريش صاحبة الأحقاد فوقفت لعواطف القوم بالمرصاد ، لاتنى تحصى عليهم الحروف قبل الألفاظ ، وتعده خروجا عن طاعة السلطان أن يتحدث الناس بسجايا سواه . وبدا الحديث مديحا يقابله مديح وثناء أمام ثناء . ثم سار جدلا حال الى ملاحاة حتى ترددت كلمات السيف والقتال والقتل بين فريق الحاسدين البغاة . وكانت الأنباء لا تفتأ تأتى عليا بما يدور بين الحزبين فيزيد انطواء على نفسه . وكان الأنصار يودون لو انه طلع عليهم فاصابوا بظهوره بينهم قوة تؤلب حوله الرجال وتدفع بقضيته الى الامام . ولكنه ظل ، كما اعتزم ، مؤثرا أن يبقى بعيدا عن المعترك خشية أن يفتتن به الناس وما يجىء فى أعقاب هذا الافتتان من انقسام الأمة فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الاسلام . ولم يغير من مسلكه أن جاءت جموعهم اليه ذات يوم تحيط بداره ، وتهتف باسمه داعية اليه ، منادية اياه أن يبرز لها تبايعه وتعيد له ما ضاع من حقه المسلوب .

في هذه الآونة كانت الثمرة ناضجة أيما نضوج ، دانية القطاف لمن أراد ، حتى حسب الأكثرون ان امر ابى بكر لن يلبث ان يولى مع النهار ، وتهيأ الناس لما أوشك أن يصير . وامتلأت قلوب آمالا وقلوب أحقادا وموجدة حسبما كان كل فريق يميل . ومن عجب أن تكون قريش هي اكثر النافخين في نار هذه الفتنة لانها — وقد نصبت نفسها قوامة على ألسنة الأنصار — اثارت في نفوسهم طبيعة العناد والاصرار ...

واستبق ابو سفيان الى دار على وهو يحسب أن قد جاءت اخيرا اللحظة التي ارتجاها واوشك أن يتحقق حلمه في أن يفوز احد آله الأقربين بالسلطان . وراح يكرر العرض الذى القاه امام ابن ابى طالب مرتين من قبل ، ويماود التحريض ...

قال شيخ بنى امية وقد فرغ من الثناء وبقى عليه ان يقضى بما جاء فيه :

« أما والله لئن شئت لأملأنها على ابى فضيل خيلا ورجلا ، ولأسدنها عليه من أقطارها !... »

فابتسم له على وقال :

« يا أبا سفيان ... هذا ماء آجن ، ولقمة يغص بها آكلها » .

« ماء آجن !!. أتراث ابن عمك يا أبا الحسن تدعه نهبا ؟ »

« مجتنى الثمرة لغير وقت ايناعها كالزارع بغير ارضه » .

فراح الشيخ يوالى التحريض :

« يا عجبا ! . رضيتم يا بنى عبد مناف ان يغلبكم عليها اذل بيت في قريش ؟ »

قال على بهدوء ما بنفسه :

« ما رضيت ، بل صبرت وفي العين قذى ، وفي الحلق شجا .. »

« اذن يتحدث الناس .. »

وفهم الشاب مارمى اليه شيخ بنى أمية من وراء كلماته هذه ، فتلهب وجهه غضبا وقال :

« ويح الناس !... ان اقل يقولوا حرص على الملك ، وان اسكت يقولوا جزع من الموت ؟ ... اما والله لابن ابى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمه ! »

وصمت برهة حتى هدأت سورة غضبه ، ثم عاد يتم بصوت هادىء ، فى نبراته حزم وتوكيد :

« يا أبا حنظلة . انى سدلت دونها ثوبا ، وطويت عنها كشحا ، ورأيت أن الصبر على هذا احجى .. »

١٥

ما أشد ما نال عليا من عسف قريش !. انها لترى فيه « هاشما » وترى « عبد المطلب » وترى « محمدا » قبل أن يقهرها على اعتناق دين الله ، فتضم الى حسدها لابن ابى طالب حسدها لأولئك الأعلام أجمعين . حسدته علما مرفوعا على هام الناس ، اذا ذكر العلم ، وذكر الفضل ، وذكرت شجاعة القلب واللسان ، فأرادت له غير ما هيأته له مواهبه الفذة ونسبه العلى وشرفه العريض . وقامت تناوئه محاربة فيه البيت الهاشمى الكريم ، وتحتشد حول منافسه صفوفا حتى تم له الانتصار وباء بصفقة المغبون من كان أولى الناس بهذا الانتصار . ثم حسدته مخذولا بعد اعتزاله الأمر ، لانها ابت عليه أن تزأر العاصفة فيتجنبها لتمر بسلام وهى لا ترضى له بالسلام ... وانها لتأتلف الآن وتصطف جموعا محاولة ان تثير عليه النفوس حتى يظل ما عاش بعيدا عن عطف الناس .

وقف سهيل بن عمرو عقب مجيئه الى المدينة بعد فتنة مكة ، وقد هاله ما بدا من حب الانصار وندمهم على خروج تراث النبى من كف ابن عمه الى سواه . وقف يحف به أعيان قريش يخطب القوم ويقول :

« يا معشر قريش ... ان هؤلاء الناس قد دعوا الى انفسهم والى على بن أبى طالب ، وعلى فى بيته لو شاء لردهم ، الا فادعوهم الى صاحبكم والى تجديد بيعته ، فان أجابوكم ، والا فاقتلوهم !.. فوالله انى لارجو الله ان ينصركم عليهم كما نصرتم بهم »

افترای هذا الشانیء القرشى خير أم كان الذى التزمه على هو الخير ؟.

ما احسب سهيلا كان جادا أو موفيا على الصواب وهو يعلم أن ظهور على أمام الناس كان كفيلا بأن يثير فيهم من الحماس لقضيته ما لا تحمد معه مغبة انتقاضهم وثورتهم على الخليفة ، مهما جاهد ابن أبى طالب فى تسكينهم وجاهد معه لهذا الفرض آلاف سواه ... ولكنها كانت « حكمة » قرشية قمينة بأن تغيب عن خاطر على وان سارعت الى خاطر سهيل وغيره من طغمة الحاسدين البغاة !..

ثم تلاه من بعد الحرث بن هشـــام ، احد بنى مخزوم آل ابى جهل يقول :

« أيها الناس ... ان يكن الأنصار قد تبوأوا الدار والايمان من قبل ، ونقلوا رسول الله الى دورهم من دورنا فآووا ونصروا ، فانهم قد لهجوا بأمر — ان ثبتوا علية فانهم قد خرجوا مما وسموا به . وليس بيننا وبينهم معاتبة الا السيف !... »

وقال عكرمة بن أبى جهل :

« لولا قول رسول الله ، الأئمة من قريش ، ما انكرنا امـــرة الأنصار ... اعذروا القوم فان ابوا فاقتلوهم ! »

فهلا ذكر عكرمة انه قد فات أوان الحديث فى امرة الأنصار ، وانهم ما دعوا من بعد الا الى امرة قرشى هو من قريش امامها وامام بقية المسلمين ؟.. ولكن ابن ابى جهل — فيما يبدو — اراد ان يقابل « حكمة » سهيل « بشجاعة » لسان لا يستطيع ان يلهج باسم ابن أبى طالب فى مجال حساب أو عتاب !...

أولئـــك كانوا دعاة التخذيل عن على ، والمناواة عليه ، وهم من عرف الناس لهم دائما السبق الى حرب الحق وعداء محمد ؛ ومن عرف لآبائهم قبلهم امتلاء قلوبهم على بيت هاشم بالحقد والبغضاء . ولقد غضبت الأنصار وحميت نفوسهم حتى قام فيهم ثابت بن قيس يهدىء من سورتهم ويقول :

« يا معشر الأنصار . انما كان يكبر عليكم هـــذا القول لو قاله أهل الدين من قريش ... »

وكفى بها كلمة أبلغ اثرا واصدق قولا من الف بيان وبيان !...

***

ولكن الجسد ، وان كان بلا نهاية ، فان طاقة الحلم تنفد عند غاية ... امعنت قريش في غيها ما شاءت ، وركنت الأنصار بالعنت وسلاطة اللسان ما وسعها أن تفعل ، ثم ظلت دائبة على هذه السياسة حتى لم يعد في طوق رجال المدينة ان يملكوا السنتهم منها . وانقلب الناس بهذه المعركة الكلامية الى عسكرين متناجزين ، كلاهما يدعو لرجله ويخذل عن الآخر ما استطاع التخذيل .

وكانت الأخبار لا تزال ترد بنماء شوكة المتنبئين ، والتفاف أجلاف الأعراب حواليهم هنا وهناك ، في أطراف الجزيرة ، ثم لايزال يزيد هذا الالتفاف حتى يتسع نطاق الرقاع التى تمسك بزمامها جحافل المرتدين . أما عاصمة الاسلام فقد غدت عورة مكشوفة لأعدائها هؤلاء ، ولسواهم من جموع مانعى الزكاة لو شاءوا لاقتحموها وهى عزلاء خاوية الوفاض من الرجال والسلاح بعد أن خرج أسامة بجند المسلمين قاصدا الى الشام .

فى هذه الفترة العصيبة كانت وحدة الأمة الاسلامية هى غاية كل مسلم سليم البصيرة يحسن النظر فى عواقب الأمور . كانت حلم أبى بكر الذى لا يفتأ يراوده فى اليقظة وفى المنام ، ثم لا يبرح لحظة واحدة ذهنه المشغول بالتبعات الجسام .. وكانت رجاء عمر الذى أقامت منه الظروف مشيرا للخليفة ووزير صدق يحمل عن كاهله من العبء ما استطاع ... وكانت الأمنية التى لا يبخل على فى سبيل تحقيقها بكل ثمن من أمانيه أو تراثه أو نظائر ما بذله من قبل من أجل الاسلام .

كانت الوحدة اذن شاغل عمر بن الخطاب فيما صدر عنه من سلوك ، عنف نسلوكه أو وافق ما ترضاه النفوس من رقة ولين . وقد نظر الى الأحداث السياسية التى تلاحقت فى هذا الوقت العصيب من هذه الزاوية ونسى أمام شاغله بقية الاعتبارات . وكان الرجل محقا فى نظرته حتى الغاية ؛ مخلصا لهدفه تمام الاخلاص .

وكانت نظرة على — هو الآخر — الى الامور لا تخالف نظرة ابن الخطاب ولا تتجه الى مرمى سوى مرماه ، فلم يتوان المرة بعد المرة عن اباء أخذ البيعة لنفسه من الناس اذ علم أنها حرية بأن تشق صفوف المسلمين وتتركهم حزبين يتلاحيان ويختصمان فيخرجون

جميعا عن الاعتصام لرفع شأن الاسلام ، الى الخلاف والكفاح من اجل هذا او ذاك .

ولكن أول الرجلين راى وغضب فحاد به غضبه العنيف عن التزام الطريق المثلى للوصول الى ما اراده من صواب . وغضب الثانى فكبح جماح نفسه ، وطوى حقه الشخصى وهدفه السياسى من اجل الهدف الأعلى وهو اقرار الخير العام .

رأى عمر — فى البدء — كيف ظهر الخلاف بين المسلمين اول ظهوره فى سقيفة بنى ساعدة بحى الأنصار والقوم هناك يدعون الى ابن عبادة دون صحب الرسول ... ثم يدعون — وقد ابى هو عليهم مطلبهم وأبى صاحباه — بأمير منهم وامير من المهاجرين . فلما شاءت الظروف ان يختلف الأنصار فيما بينهم ، وتم لأبى بكر الأمر بهذا الخلاف ، لم تزايل عمر الخشية على وحدة الاسلام ، فكان ان قام يهم بقتل الرجل الذى أجمع عليه من قليل راى الأنصار ، لأنه رأى فى حياته عودا للفتنة وعودا بعدها الى الانقسام .

ثم رأى من بعده ، أن اولئك الذين ناصروا سعدا ، ثم عادوا فخذلوه ، قاموا ثانية الى رجل خذلوه يحاولون ان ينصروه ... واجتمعت جموعهم — آونة فى الخفاء واخرى على ملأ — يدعون الى ابن أبى طالب لأنهم رأوه أولى الناس بأن يلى امور الناس ، ثم تألبوا حول داره يهتفون باسمه ويدعونه أن يخرج اليهم ليردوا عليه تراثه المسلوب ... فاذا بالمسلمين أمام هذا الحدث مخالف او نصير . واذا بالمدينة حزبان ، واذا بالوحدة المرجوة شقان اوشكا على انفصال ، ثم لا يعرف غير الله ما سوف تؤول اليه بعد هذه الحال .. فهلا كان على — كابن عبادة — حريا فى نظر ابن الخطاب بالقتل حتى لا تكون فتنة ولا يكون انقسام ؟.

كان هذا أولى بعنف عمر الى جانب غيرته على وحدة الاسلام . وبه تحدث الناس ولهجت الألسن كاشفة عن خلجات خواطر جرت فيها الظنون مجرى اليقين ، فما كان لرجل ان يجزم او يعلم سريرة ابن الخطاب ، ولكنهم جميعا ساروا وراء الخيال ، ولهم سند مما عرف عن الرجل دائما من عنف ومن دفعات . ولعل فيهم من سبق بذهنه الحوادث على متن الاستقراء فراى بعين الخيال ، قبل راى العيون ، ثبات على أمام وعيد عمر لو تقدم هذا منه يطلب رضاه

واقراره لابى بكر بحقه فى الخلافة ، ولعله تمادى قليلا فى تصور نتائج هذا الموقف وتخيل عقباه فماد بنتيجة لازمة لا معدى عنها ، هى خروج عمر عن الجادة ، وأخذه هذا « المخالف » العنيد بالعنف والشدة !.

وكذلك سبقت الشائعات خطوات ابن الخطاب ذلك النهار ، وهو يسير فى جمع من صحبه ومعاونيه الى دار فاطمة ، وفى باله ان يحمل ابن عم رسول الله — ان طوعا وان كرها — على اقرار ما أباه حتى الآن . وتحدث اناس بأن السيف سيكون وحده متن الطاعة !.. وتحدث آخرون بأن السيف سوف يلقى السيف !.. ثم تحدث غير هؤلاء وهؤلاء بأن « النار » هى الوسيلة المثلى الى حفظ الوحدة والى « الرضا » والاقرار !.. وهل على ألسنة الناس عقال يمنعها ان تروى قصة حطب أمر به ابن الخطاب فأحاط بدار فاطمة ، وفيها على وصحبه ، ليكون عدة الاقناع أو عدة الايقاع ؟...

على ان هذه الأحاديث جميعها ومعها الخطط المدبرة او المرتجلة كانت كمثل الزبد ، أسرع الى ذهاب ومعها دفعة ابن الخطاب !.. أقبل الرجل ، محنقا مندلع الثورة ، على دار على وقد ظاهره معاونوه ومن جاء بهم فاقتحموها أو أوشكوا على اقتحام . فاذا وجه كوجه رسول الله يبدو بالباب — حائلا من حزن ، على قسماته خطوط آلام وفى عينيه لمعات دمع ، وفوق جبينه عبسة غضب فائر وحنق ثائر ...

وتوقف عمر من خشية وراحت دفعته شعاعا . وتوقف خلفه — أمام الباب — صحبه الذين جاء بهم ، اذ رأوا حيالهم صورة الرسول تطالعهم من خلال وجه حبيبته الزهراء . وغضوا الأبصار ، من خزى أو من استحياء : ثم ولت عنهم عزمات القلوب وهم يشهدون فاطمة تتحرك كالخيال ، وئيدا وئيدا ، بخطوات المحزونة الثكلى ، فتقترب من ناحية قبر أبيها .. وشخصت منهم الأنظار وأرهفت الأسماع اليها ، وهى ترفع صوتها الرقيق الحزين النبرات تهتف بمحمد الثاوى بقربها تناديه باكية مرير البكاء :

« يا أبت رسول الله .. يا أبت رسول الله !.. »

فكأنما زلزلت الارض تحت هذا الجمع الباغى ، من رهبة النداء .

وراحت الزهراء ، وهى تستقبل المثوى الطاهر ، تستنجد بهذا الغائب الحاضر :

« يا أبت رسول الله .. ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب ، وابن أبى قحافة !؟ » .

فما تركت كلماتها الا قلوبا صدعها الحزن ، وعيونا جرت دمعا ، ورجالا ودوا لو استطاعوا أن يشقوا مواطىء اقدامهم ، ليذهبوا فى طوايا الثرى مغيبين .

١٦

بكى أبو بكر حين أتته قصة شكوى الزهراء . وبكى عمر وقت الحادث ثم عاد ثانية الى البكاء وهو يرى ما كان . وكانت في الرجل رقة خافية وراء غلظته البادية . فثاب الى الدمع عساه يفىء على نفسه بعض الراحة بعد اذ صعدت الشكوى منه الى اسماع الرسول .

واقبل على صاحبه يتوسل ويقول :

« يا خليفة رسول الله .. انطلق بنا الى حبيبة رسول الله نترضاها ، فانا قد اغضبناها .. »

فأجابه أبو بكر لتوه :

« انى منطلق .. »

لقد لقيت هذه الدعوة مكانها من قلب الخليفة اذ كان يحن الى لقاء فاطمة ، والى رؤيتها ، والى رضاء هذه السيدة التى لم يحب رسول الله مثلها انسانا ولم يحبه مثلها انسان . وهو الى هذه الرغبة التى ما فتئت تراوده على هذا اللقاء كان يدفعه — غير استرضائها عما سلف من صاحبه — أمله فى أن يمحو ما لعله علق بنفسها يوم أبى عليها ان يكون لها نصيب في أرض فدك ، التى مات عنها الرسول ، وكان يدفعه أيضا حبه ان يلقى عليا ، بعد هذه القطيعة — التى فرضتها ظروف الحال — ولم تفرضها موجدة أو ضغن قديم .

أجل ، قد كان ابو بكر حنانا الى لقاء الرجل الذى خالفه في الرأى ونازعه مقاليد السلطان ، وان لم يتوسل مطلقا فى نزاعه بفرية او وقيعة

او سقطة لسان ، بل ظل ابدا عفا لا يلج فى الخصومة ، نبيلا لا يتذرع بكيد ، صافي القلب يتحرج ان تند منه الكلمة نابية تخدش شعور خصمه . بل عسى أن يكون على هو الأول والأخير بين الناس الذى أبى على انصاره ان يتحدثوا عن غريمهم بما يسىء اليه ويجرح كرامته ويحط من قدره ، حتى لقد انكر على ابنه — قبل كل الناس — أن يجبه ابا بكر على الملأ بكلمة حق افلتتها شفتاه ، ثم لم يكفه أن يبدى الاستنكار بل قفاه بالاعتذار — لم يقعده عنه أن الحسن كان اذ ذاك صبيا لا يجيد الخصام وان اجاد الكلام !.

حدث هذا ذات يوم قريب ، وقد قف ابو بكر على منبر المسجد يخطب الناس ، فبينما الجميع قد القوا اليه الأسماع ، وسكنت حركة المكان حتى ليسمع فيه تردد الأنفاس ، اذا صوت رفيع حاد يأتى من طرف المسجد صائحا بالخطيب :

« انزل .. انزل عن منبر أبى !.. »

فوقفت الكلمات بحلق ابى بكر ، وبهت الناس ، وتطلعت أبصارهم الى ناحية الصوت مشدوهين .

ولكن ابا بكر لم يلبث حتى استرد خاطره ، وسكن جأشه ، ولعبت بسمة هادئة على شفتيه وهو يلتفت الى هذا الصائح الصغير : الحسن سبط الرسول ، ويقول له فى حنو ورفق :

« ابن بنت رسول الله ؟. صدقت والله . وانه لمنبر ابيك لا منبر أبى »

ووصل الخبر الى على فاسف وأنكره على ابنه اشد الانكار ، ثم لم يهدأ باله وتطب نفسه حتى بعث رسولا من لدنه الى ابى بكر يقول :

« اغفر ما كان من الغلام ، فانه حدث .. ولم نأمره »

فكان جواب الخليفة :

« انى أعلم ، وما اتهمت أبا الحسن »

***

كان ابو بكر حنانا الى لقاء على ، والى لقاء فاطمة حنينه الى رضائها ، فما أبدى عمر له رغبته حتى صادفت لديه القبول .

وانطلقا . واستاذنا على فاطمة فابت ، ثم استاذنا فابت . فما كان اعجب من سيرهما الى على فى الاستئذان لهما عليها الا رضاه أن

يمنحهما من لدنه الاذن ، فيدخل بهما ويقبل على زوجه يرجوها ان تحدثهما كأنه كان وليا لهما ولم يكن الخصم الغريم .

ودخلا . وقرآها السلام فلم تجب . وتقدما فقعدا امامها فولت وجهها عنهما الى الحائط . وراحا يلحفان في الرجاء أن تسمع لهما أو يظلا لا يبرحان ما ابت عليهما الانصات او الاذن بالكلام .

وقال لها ابو بكر ، أخيرا ، وقد اذنت له :

« يا حبيبة رسول الله .. والله ان قرابة رسول الله احب الى من قرابتي ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات ابوك انى مت ولا أبقى بعده .. أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟. الا انى سمعت رسول الله يقول :

« لا نورث ما تركناه فهو صدقة » .

ما احسب ان ميراث فدك كان كفيلا بأن يشير الى هذا الحد غضبها على أبى بكر ، بل هى أولى أن تعلم هذا الحديث عن ابيها . واولى أن تنهج نهجه وقد عاشت معه مطبوعة بطباعه ، ناسجة على منواله في العزوف عن عرض الدنيا ونشب الحياة . ولكنها كانت سارت الى الخليفة فى أمر فدك لان رسول الله — كما اعلمتها أم سلمة — قد اوصى لها بهذه الأرض نحلة . فلما رأت ابا بكر لا يعلم بهذه الوصية ، ثم يأبى أن يترك لها فدك وان شهدت أم سلمة ، ما دامت الشهادة فى الاسلام لا تصح الا اذا اداها رجلان او رجل وامرأتان .. لما راته يأبى عليها هذا الميراث ، ويبدو كالمتشكك فى شهادة سيدة قمين بأبى بكر أن يسمو بها عن التشكك ، نفضت فاطمة يدها من الأمر ولم تراجع الخليفة فيه . ولئن ظنها هو واجدة عليه من أجل هذا المرض الضئيل ، فقد جاء ردها عليه لا يشير الى الميراث من قريب ولا من بعيد ، لان حب المال — كما احسب — لم يكن أدنى الى طبعها ، والى خلقها ، سيما وهى تعلم عن أبيها انها لن تمكث فى هذه الحياة الدنيا بعده الا اقل القليل .

قالت تخاطبه وهى تشرك عمر فى الخطاب :

« أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله ، تعرفانه وتعملان به؟»

اجابها وصاحبه :

« نعم .. »

« نشدتكما الله .. الم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من

رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة ابنتى فقد احبنى ، ومن ارضى فاطمة فقد أرضانى ، ومن اسخط فاطمة فقد اسخطنى ؟ »

« قد سمعناه من رسول الله » .

فرفعت وجهها وكفيها الى السماء ، وراحت تقول فى حرارة :

« فانى أشهد الله وملائكته انكما اسخطتمانى وما أرضيتمانى .. ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما اليه !.. »

فما كان أشدها كلمات أخف من وقعها ضربات السيف !.. مادت الأرض تحتهما ، ودارت كالرحى حتى سارا من هول ما لقيا يترنحان. وغادرا الدار وقد خيا املهما فى رضا زهراء الرسول ، وعلما مدى الغضب الذى أثاراه عليهما فى قلبها ومدى السخط الذى باءا به .. أما عمر فقد عاوده ثانية ندمه على ما فرط منه في حقها فثاب الى الدمع يلوذ به عساه ان يلهمه الراحة .. واما أبو بكر فقد احس كأنما الدنيا ضاقت عليه حتى لا يرى له فيها مقاما ، وكره ، بعد ذلك الموقف ، أن يصيب من الحياة أو تصيب منه . وبحسبه أن يستطيع الانطواء على نفسه في داره يعالج همه بعد اذ أبت عليه فاطمة رضاءها الذى كان نفحة عاطرة من رضاء محمد رسول الله . ولكن أمانة الحكم فى عنقه ، ولن يخلص بنفسه الى ما يريده من عزلة حتى يسلم الناس أماناتهم ويرد عليهم بيعتهم التى أدلوا بها اليه .. كان هذا أمله ، فأسرع الى الناس مهموما يطلب اليهم أن يقيلوه ويرجوهم اشد رجاء .

* * *

غير أن الأحداث عادت ثانية تلعب دورها كما لعبته من قبل .. أن جيوش مانعى الزكاة قد أصبحت اليوم على قيد البصر تحاصر المدينة ، وتتربص بها ، وعاصمة الاسلام قد غدت عورة مكشوفة أمام الأعداء ليس يحميها منهم عتاد ولا رجال الا القليل الذى ليس فيه غناء فى ذلك الوقت الذى كانت فيه جنود المسلمين بامرة أسامة ما زالت غائبة على حدود الشام .

وتدبر المسلمون الأمر ، وتفكروا فيما يطلبه منهم الخليفة فى هذه اللحظة العصيبة فما رأوا أمامهم من الوقت فسحة تتسع لاقالة تتبعها

يبعة مع ما يتصل بهذه وتلك من خلاف قد تسوء معه العقبى ويتحين فيه العدو سانحته التى تلبث ينتظرها منذ حين ..

لذلك ابى المسلمون ، او ابى اكابر من بايعوه ، ان يجيبوا الخليفة الى ما يطلب ، وأبوا ان يقيلوه ، وزاد المسلمون فى هذه الآونة الحرجة حول أبى بكر التفافا رغبة منهم فى حفظ كيان الاسلام ، ولقد كان على أسرع الناس الى نصرة الرجل فى هذه المحنة ، لأنه راى فى الانتظار له ابقاء على دين الله وابقاء على الأمة المحمدية الناشئة التى كانت قد بدأت أولى خطواتها الى المجد ، وتقدم عاريا من الخصومة ، خاليا من الخلاف يعرض على الشيخ نفسه وسيفه يستعملهما فى كشف الغمة الوشيكة الوقوع كيف يشاء .

تلك شيمة ليس يتصف بها الكثير من الرجال ، ولكنها شيمة نفس نقية من الشوائب وقلب ناصع ، شيمة مثلى لرجل امثل ، اذ كان ابن أبى طالب خلال فترات حياته جميعا معنيا دائما بالتماس الكمال ، وأخذ نفسه باحتذائه ، وان قام بناء هذا الكمال على انقاض غاياته الشخصية وأهدافه السياسية . ولئن خالف من قبل ابا بكر ، وقام ينازعه السلطان فلغير صولة الحكم كان الخلاف ، ولكن لأنه كان مؤمنا أشد الايمان أنه أقوى من خصمه هذا ومن غيره من الناس على اعزاز شأن الاسلام .

١٧

« يا ابن العاص ، انك لسان قريش ورجلها في الجاهلية وفى الاسلام .. »

« فما تريدون ؟ »

« أرأيت الى الانصار كيف تفضلوا علينا ؟ »

« قد فعلوا . »

« فقم اليهم فلا تدعهم وما قالوا .. »

كان عجبا ان يدور مثل هذا الحديث بين بعض قريش بعد سكون الفتنة ونوم نوازى الشر .. ولكن دعاة قريش كانوا اناسا فيهم عصبية،

وفيهم حمية الجاهلية ، وليس يرضيهم ان يفاخرهم غـيرهم ولو بالحق !.

ولذلك انطلق عمرو الى مسجد المدينة يتناول بلسانه ما كان من الأنصار اذ ارادوا ان ينصروا عليا بعـد خذلان ، فيفيض فى نقدهم ويمعن .

قال وهو قائم يخطب الناس :

« والله لقد دفع الله عنا من الأنصار عظيمة ولما دفع عنهم أعظم .. كادوا ان يحلوا حبل الاســلام كما قاتلوا عليه ، ويخرجوا منــه كما ادخلوا فيه » ..

ثم لا يلبث ان يتطرق به الحديث الى ما كان منهم يوم السقيفة ، وان عفى الزمن على آثار ما كان !.. ولكنه الحديث الذى يستطيع من خلاله ان يضع فخر الأنصار ويرفع هام قومه مفاخرا ما استطاع ..

« لئن كانوا سمعوا قول رسول الله : « الأئمة من قريش » ثم ادعوها فقد هلكوا وأهلكوا . وان كانوا لم يسمعوا فما هم كالمهاجرين، ولا سعد كأبى بكر ، ولا المدينة كمكة ... »

ويزدهيه الفخر ، بعد هذا ، فيرفع الصوت معتزا ويقول :

« الا انهم قاتلونا امس فغلبونا على البـدء ولو قاتلنـاهم اليوم لغلبناهم على العاقبة !.. »

فماذا كان يريد الا ان يستعلى بحديثه هذا على الناس ؟ وماذا وراء هذا الاستعلاء — بعد ان سكن ثائر الأنصار — الا اثارة حفيظة القوم وبعث الفتنة من مرقدها فى وقت أولى بالجميع فيه أن يغلقوا الأفواه ويصطفوا على وفاق ؟..

ولكن عمرو بن العاص قبل كل اعتبار من قريش التى غلبها الانصار — في البدء كما قال — وقهروها على اعتناق دين الله . ولعل الرجل ، اذ قال ما قال ، قد عنى أن يقتص لقومه كيفما كانت ذريعتــه الى القصاص ؟ ومع ذلك فان لسانه لاقى فى هذا الميدان لسانا أقول ، كما لاقى ذهنه ذهنا انقى وأشد بديهة . فلم تكد كلماته تشيع بين الناس حتى انفرجت صفوفهم عن رجل قصير احمر ، لا يكاد ان يملأ العين منظره ، وان لم يغب خطره عن الرائين .. انفرجت الصفوف عن شاعر الأنصار النعمان بن العجلان يتقدم الى « لسان » قريش فى هدوء ويقول :

« يا بن العاص .. دع العاقبة ودع البدء ، فما كان الله ليخرجكم من الاسلام بمن أدخلكم فيه !.. »

وكان الفضل بن العباس قد ألم بالمكان وسمع ، فسارع مغضبا يقول لعمرو :

« يا عمرو !.. انه ليس لنا أن نكتم ما سمعنا منك ، وليس لنا أن نجيبك وأبو الحسن شاهد بالمدينة الا ان يأمرنا .. »

وذهب بالخبر الى ابن عمه عساه أن يحسم ما كان من نزاع بعد أن كادت النفوس أن تسكن عن النزاع .. أما ابن العاص فقد خشى اللقاء فأسرع يختفى من بين الناس . وأما على فما ألقى اليه بنبأ ما كان حتى غضب وقال :

« ويح ابن العاص !.. آذى الله وآذى رسوله .. »

ثم انطلق من توه الى المسجد فدعا اليه الناس حتى اجتمعوا ، وقام فيهم يقول :

« يا معشر قريش . ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق . ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق .. ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق ! ولقد قضوا ما عليهم وبقى ما عليكم » .

واصغى اليه القوم . وهو يهيب بهم ويسترسل :

« يا معشر قريش .. ان الله رغب لنبيكم عن مكة فنقله الى المدينة. وكره له قريشا فنقله الى الأنصار .. يا معشر قريش ، انا قدمنا على الأنصار دارهم فقاسمونا الأموال ، وكفونا العمل ، حاربنا الناس بهم ، وانتصرنا ببذل غنيهم وايثار فقيرهم .. يا معشر قريش . اذكروا أن الله تعالى انزل آية من القرآن جمع فيها للأنصار خمس نعم اذ قال: « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » .

وتريث قليلا يجول ببصره فى الناس عساه أن يقع على من كاد أن يعيد الفتنة ثانية الى الحياة ، ثم راح يقول :

« الا أيها الناس أن عمرو بن العاص قام مقاما آذى فيه الميت والحى ، ساء به الواتر وسر الموتور ، فاستحق من الحاضر الجواب ، ومن الغائب المقت ، فمن أحب الله ورسوله أحب الأنصار .. وليكفف عنا ابن العاص نفسه .. »

فكان لهذا الخطاب من بعد أبلغ الأثر فى قلوب الجميع ، اذ أرضى الأنصار وافاء على أرواحهم السكينة وحفز قريشا على تجنب اغضاب أبى الحسن ، فمشت الى عمرو بن العاص تقول :

« أما وقد غضب على فحسبك واكفف ! »

وكانت هذه خاتمة النزاع بين فريقى الاسلام ونهاية التراشق بالألفاظ الذى كاد يؤدى الى تحكيم الحسام . وفرغ المسلمون الى تسطير مجد الدولة الناشئة فى سجل التاريخ . وراحوا يبداون بخضد شجرة المرتدين ويقصفونها شوكة بعد شوكة ، وبقى على — بعد أن ذاد عن المدينة جموع مانعى الزكاة هو ومن عينهم ابو بكر لهذا الأمر — منطويا على نفسه ، لأن الخليفة ضن به على الحروب كما ضن به قبله رسول الله ، فعاد يشغل نفسه بجمع القرآن .

* * *

وكأنما أبت الأيام أن تسالم الرجل الذى طالت اساءتها اليه أو تهادنه . فما لبث فى عزلته تلك الا قليلا حتى فدحته بأعتى مصاب بعد رزئه في الرسول . وانه لتحضره اليوم ، وهو قائم على فراش زوجه التى برحت بها آلام المرض ، ما كان من نبوءة محمد لها فلا يملك الا ان يتملكه الأسى وينشب الحزن بقلبه اذ يرى الفجيعة المخوفة بآتية على مبعدة ساعات . لقد حان أخيرا موعد اللقاء بين الأب الحبيب وزهرائه في دار سوى الدار وهذه فاطمة ، وهى لا تقوى على تقليب جنبيها من وهن واعياء ، تجاهد حتى تستطيع أن ترسم بسمة خافتة اللون على شفتيها الذابلتين . فاذا سارع اليها زوجها ، مدت كفها الناحلة فلمست بها منكبه . وهمست له :

« صدق رسول الله ! »

فلا ينطق ، لأنه لا يأمن ان تند من فمه انة حزن مع الكلام . ولكنه يفهم ما تعنى . وتحضره الصورة القديمة — كما ذكرتها هى له — يوم عادت رسول الله فى بيت عائشة ذات يوم فحدثها بما أبكاها ثم حدثها بما أضحكها فكأن هذا كان بالأمس لا من شهور .

ويطلق على بصرا غائما الى الفراش . ثم الى جانبيه حيث وقف الحسن ووقف الحسين ، صامتين أمام رهبة ما يريان ، قد جمدت

فى مآقيهما الأدمع رفقا بأمهما ان يؤذيها البكاء . وتنتقل النظرة الى زينب الصغيرة .. الطفلة التى لم تنهل تماما من حنان الأم ، لأن الأيام لم توسع لها ولم تترفق بحداثتها . وان قلبها الصغير ليشعر بفداحة المصير فتجثو على الفراش الى جوار فاطمة تتاملها برهة فيعييها أن تحتفظ بالسكون ، وتنطلق عبراتها فترتمى كعادتها على صدر والدتها كما تفعل كلما حزبها امر من امور عالمها المحدود ، وتدفن وجهها فى الصدر الحنون ثم تذهب فى نشيج مكتوم ..

وتلوح على وجه فاطمة سحابة رقيقة من الرثاء للطفلة وللغلامين ولكنها تحاول أن تبدو متجلدة ، وان رات الحسين يسعى الى جانبها ويسعى اخوه الى الآخر يتناولان كفيها بالتقبيل واللثم فى خشوع ... فاذا استطاعت بعد هذا أن تثوب الى نفسها وقد ترفق الأب بالأطفال حتى خلفوا المكان ، عاودت تتم حديثها فى خفوت :

« هل صنعت ما اردت ؟ »

فيجاهد وسعه ليجيب :

« نعم »

« فهل أنت صانع ما آمرك به ؟ »

« نعم »

« فانى أنشدك الله الا يصليا على جنازتى ... ولا يقوما على قبرى .. »

فيميل بوجهه عنها ناحية حتى لا ترى فى عينيه الدمع .. انه ليبكى الآن أسى كما يبكى رحمة . وان أساه لعلى هذه الزوج التى كان يتنسم من اردانها طيب رسول الله وكانت عزاء له بعده ... وانه لعلى شبابها الغض الاهاب الذى عاش فى الدنيا كعمر الزهور .. وانه لعلى حدبها عليه وحرصها على حقه حرصا فاق حرصه هو على هذا الحق مرات ومرات ، حتى لقد ظلت ابدا غاضبة لا يتفتح قلبها عن الرضا على من سلبوه اياه . وكانت الرحمة التى شاركت الأسى فى دمع عينيه من اجل ذينك الرجلين اللذين اغلقت قلبها دونهما مع ما بذلاه من استرضائها ما وسعهما البذل ..

اجل ، بكى على رحمة من اجل ابى بكر ومن اجل عمر لفرط ما بكى الشيخان تأثرا وندما .. ولقد شيعهما من قليل الى الباب وهو لا يدرى كيف يسوق اليهما كلمة ترفيه . جاءا يعودان فاطمة

فابت عليهما والحا ، فكان ردها دائما هو الاباء ؛ وتقدم زوجها اليها بالرجاء تلو الرجاء ان تكف عن ابائها ، حتى اذا رضخت كان اذنها باللقاء أمعن فى قلبيهما وخزا من الرد والاباء .. دخلا فأعرضت وسلما فأشاحت بوجهها عنهما ناحية وحدثاها فلم تعن بالجواب كأن غيرها المعنى بالخطاب !.. ثم ها هى الآن ، وقد خرجا تأخذ على زوجها الميثاق ان يضن عليهما بالصلاة عليها وهى جثمان فارقته الحياة !.

ولكن هذه الضاوية التى اشفت على نهاية ، أتت عليها لحظة بدت فيها كأن قد فارقتها الأوصاب وتشبثت بها الحياة وان كانت هى — بقلبها — تغالب تشبث الحياة ... وكان على قد أمن من القدر فجاءاته ذلك اليوم الموسوم بنزول الخطب ، فغادر الدار وفى نفسه بعض الطمأنينة ، ووكل شأن فاطمة الى سلمى زوج أبى رافع مولى رسول الله ، تقوم عليه ...

وكانت المراة جالسة فى هدوء وقد سربلتها الفرحة ان وجدت بنت رسول الله على خير ما ترجو لها اذ ذاك من حال حين اتاها صوت فاطمة هادئا يقول :

« يا أمه ... »

« لبيك يا حبيبة رسول الله » .

« اسكبى لى غسلا يا أمه » .

فقامت فأتت لها بما طلبته من ماء ، حتى اذا اغتسلت كما كانت تفعل ابان العافية ، هتفت ثانية :

« ايتينى بثيابى الجدد » .

ففعلت سلمى .

وعادت فاطمة مرة اخرى تقول :

« اجعلى فراشى وسط البيت »

فكأنما قدت سكين من قلب المراة شطرا ... نهضت المراة عجلى اليها تحوطها بذراعيها وتذرف عندها الدمع .

« بأبى انت وأمى يا حبيبة رسول الله ؟.. »

فابتسمت فاطمة ، ولم تزد على أن تعيد فى هدوء حديثها المغرى بكل نقيض للهدوء والابتسام :

« اجعلى فراشى وسط البيت »

فأذعنت سلمى ودماء قلبهـا تنزف من عينيها . وقامت فاطمة الى الفراش فاضطجعت عليه . واستقبلت القبلة ، ثم التفتت الى المرأة تقول :

« يا امه ... انى مقبوضة الساعة ، وقد اغتسلت ، فلا يكشفن أحد لى كتفا ... »

أما سلمى فلم تدر كيف مضى بها الوقت الا أن كانت عينا ممدودة ويدا مقبوضة ، كلاهما لا تستطيع دفعا ، لا اولاهما تدفع البكاء ، ولا أخراهما تدفع أنكى الأرزاء ... وقضت فاطمة فكانت يومها ذاك بآخر ضجعة على آخر فراش لها فى الدنيا التى دفعتها الى ظهرها زهرة ، ثم أخذتها زهرة ما زالت على ما كان لها من النضرة وحسن الرواء .

* * *

هكذا فارقت حبيبة رسول الله هذه الأرض لتلحق بأبيها الكريم فى السماء ... وخرجت من الدنيا آخر عهدها بها مع الليل ، يشيعها الى مثواها الأخير حفنة من الرجال ، ومضت الى ربها ، بقلبها المرور ، فانقطع بمضيها آخر من كان على قيد الحياة من نسل رسول الله .

وعلى القبر الكريم تحت النجوم ، بناحية من البقيع ، وقف زوجها الثاكل المحزون يناجى رسول الله وهو يرنو الى زهرائه الطاهر البتول ، ويصوغ من الحسرات كلمات :

« السلام عليك يا رسول الله ، عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك ... قل يا رسول الله عن مصيبتك صبرى ، ورق عنها تجلدى ... الا ان لى فى التاسى بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز ، ولقد وسدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحرى وصدرك نفسك ... انا لله وانا اليه راجعون ، لقد استرجعت

الوديعة واخذت الرهينة . أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، الى ان يختار الله لى دارك التى انت بها مقيم ، وستنبئك ابنتك بتضافر امتك على هضمها ، فاحفها السؤال واستخبرها الحال ـ هذا ولم يطل بك العهد ولم يخل منك الذكر . والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فان انصرف فلا عن ملالة ، وان اقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين ... »

أشواك

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَة ، نَزِدْ لَهُ
فِى حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنيا
نُؤْتِهِ مِنْها وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيب »

١

آده الصمت والوحشة وبعد الرفيق . لم يعد عمره الآن يقاس بمالوف ما اعتاده الناس من سنين وأعوام ، لا ولا بشهور عام تتعاقب فى زرقائه الأهلة .. انما خواطره مقاييس جريان الفلك واختلاف علائم الزمان ، وانه ليشعر أن قد طفر الى الكهولة من شبابه الريان فى دفعة . وأن اكداسا من الأجيال حطت على كاهليه . وأن الصورة البادية للعيون من جسمه وملامح محياه لم تعد تعكس بأمانة ما يملأ قلبه .

ولكنه بقى فى محنته القوى الصابر . لا يسلم قياده لحزنه .. ولا يدع اليأس يوصد دونه باب الحياة .. كان أعلم بالدنيا من راغب فيها ، أبصر بخباياها من راغب عنها ، فلم يغره منها المظهر ، ولم يغب عنه الجوهر ، وبقيت له مكشوفة بناحيتيها ، وبقى لها كما كان ابدا ، سيدها الممسك بزمامها ، يرخيه بحساب ويجذبه بحساب . قد يتمهل بها آونة ، او ينحرف اخرى الى شمال او يميل ثالثة الى يمين ، ولكنه كان حريصا على أن يسدد على الدوام خطاها الى هدف واحد لم يبرح مطلقا مرمى بصره .

وحتى فى هذه الأيام التى طالعته فيها الآلام ، وقفزت به خواطره الدكن بعيدا عن نطاق عمره ، لم ينس أن له فى دنياه رسالة ، وأن حياته فى الأرض مركب الأداء ، وأن الحزن الفياض لا يغرق عزما ، وأن أهواء النفوس الحرة ومطامح القلوب الكبيرة أحرى بها أن تكون وسيلة واجمل الا تكون غاية . وذوو المثل فى الدنيا شعل تضىء للناس ، ولا يضيرها أن تفنى ما دامت قد أفاءت على الجموع الضياء .

* * *

مضت به الأيام وئيدة حتى تكاملت فى حساب الزمان الوافى شهورا ، وفى حساب الفكر العانى قرونا ودهورا ، وهو فى غرفته من الناس كمن فى حصن غلقت أبوابه ، يرى من الكوى ولا يشارك .

وكان هذا على نفسه الوثابة عبئا ، ولكنه كان أيضا الضربة الفادحة التى اقتضاها الحزن . ومن لاتى فى دهره كمثل همه لا يلأم جرحه تجلد وصبر ، ولا يجد نجاء من أساه بغير قبر . اما هو فقد قدم فى باله الألم والصراع قبل أن يقدم الراحة والمتاع ، فلم تأت له دنياه بجديد ممرور لا يستطيع ذوقه ، بل جاءت بما كان منها اشكل بطبيعتها ، وادعى ان يعلم به قبل أن يجرع صابه ..

كل أولئك الذين عرفوه جحدوه ، وكل أولئك الذين سبقهم حسدوه فلم يغير هذا شيئا من بياض قلبه . ولكن غاية الألم ذاقها من تحالف الناس والزمان .. لكأنما البوا دهرهم حربا عليه ، او لكأنما صفهم زمنهم عليه جندا ... وكأى من حال لبسوها جميعا ، فلم يعرف قلبه طعم الحقد . تحلب حقا مر الهزيمة وشرق به حلقه . ولكنها هزيمة أصابت العرض ، ووقفت امام الجوهر مكتوفة الأيدى. وهل عسى يضيره أن تعدوه الخلافة الى سواه من اصحاب الرسول بقدر ما يضير هؤلاء الصحاب أن تعدوه ؟.. وماذا كان مأربه من وراء حكم الناس الا أن يحملهم على الخير او يحمل اليهم الخير ؟.. وياترى لم تعد له من الأيام بقية يدخرها الأجل لتحقيق الأمل ؟.. الا فليكن عند قول أبى عبيدة بن الجراح ، وليطوين فى نفسه الطموح حتى يشب او يشيب لأنه بعد صغير والأمر له ان طال به بقاء !..

وانفرجت ثناياه فتبسم عن كره ، ذلك الصباح الندى الوضاء .. ان رسوله قطع الطريق الى المسجد وهم ان يحيى الشيخ . وانه ليكاد يراه الآن من وراء المسافات يسر الى ابى بكر ما ارسله فيه ، ثم يقرأ على صفحة الوجه المشرق الجليل سطور دهشة مازجها رضاء ، ثم يتوسم فيمن حضر نظرات تشوق وفضول أو خشية واشفاق . ولقد يفضى الشيخ لمن حوله بفحوى الحديث . ولقد يثنيه عن استجابة الدعوة قليلون أو يحفزه على تلبيتها كثيرون . ولقد يهم وزيره ان يسير فى أعقابه اكبارا لشأنه أو تخوفا عليه . ولكن الشيخ كان قمينا بأن يلبى ، وبأن يلتزم فى التلبية نص الدعوة حرفا بحرف . وبأن يقطع الدروب وحده الى دار على يهرول مشوقا ليلقى ، بعد قطيعة شهور ، ذلك الشاب الفريد فى الرجال .

***

الصراع الذى فات بين خصمه وبينه لم يغير مطلقا من بياض قلبه ، وانما ثمالة الألم ذاقها من تحالف الناس والزمان : ولقد كان قويا على ذنب الناس فعفا ووسعهم غفرانه . ولكن كلم الزمان فى قلبه كان غائرا يدمى . وبحسبه بعد وفاة رسول الله أن ينكب بوفاة فاطمة فتغيب عن حياته أسطع الشموس ، وأن تنضم غرفته على وجوه ، لا يفتأ كلما وقع عليها بصره ؛ أن يرى فيها اطيافا من الراحلين الكريمين . وأن يذكر — اذ يرى — هول النكبة التى أصابته بهذا الرحيل . وأن يرود خاطره بعد لحظات نهاره وثوانى ليله ، حدب الأم الذى فقده الصغار ، وعطف الجد الرفيق البار . فبأى من تلك العواطف الغائبة السخية يستطيع قلبه الآن أن يجود ؟.. وهل تثبت عينه فلا تسخو وهى لا تنى تقرأ على قسمات الأطفال أساهم نديا ؟.. وكيف يقسر وجهه على اصطناع السكون أمامهم وكان دائما لقلبه مرآة ؟..

ان تلك الشهور قادرة وحدها على التحدث لو نحلت اللسان واوتيت البيان . وقوى على ذهنه أن يغلب ذكراها ، عصى على قلبه ان ينساها ، فكلما نطقت زينب وخطرت أم كلثوم ، سمع فاطمة ورآها ، وكلما مشى الحسين وبدا الحسن تبين فى مشية أولهما خطوات رسول الله ، وفى ملامح الثانى قسمات محياه . ومن وراء هذا كله صور تتداعى أمام عينيه متواترة تختلف فى تتابع لكلا حبيبيه ... أما هو فقد كمن فى جوفه قلبان ، ينزع به قلب أن يغمض بصره ويسد أذنيه حتى لا يقع على مثار حزنه ، ثم يهتف به قلب ان يرهف اداتى الرؤية والاصغاء فلا يغيب عنه صوت الحبيبة او صورة الحبيب .

وكذلك عاش على مع قلبه فى صراع . لا شىء يلهيه عما هو فيه الا أن يصطنع شاغلا عن عواطفه فى أويقات . وفى عالمه الذى يحده من كل جانب جدار — فى تلك الغرفة التى انطوت على أطفاله وعليه ، لم يكن شاغله سوى أمر أولئك . خلال مسافات من سنى عمره بدا هذا الأرمل الصغير فى عيون مريديه كمن قد صيغ من روح ، وفى عيون شانئيه كأنه فولاذ !. ولكنه حقا جمع الرأيين فكان الرخاء والمضاء . ولكليهما سار فى الحياة وافاء على أطفاله ما أفاء ، فاذا الصغار تتشكل نفوسهم ، مع الزمن ، بشاكله كلما نهلوا من دينه

وعلمه او قبسوا من شجاعته وعزمه . وقد يسر لهم أن يجيدوا عن أبيهم الأخذ بكل ما ورثوا عن اسلافهم وجرى فى عروقهم من كريم الخلال .

وكانت هذه ناحية من رسالة علي في هذا الوجود ، بل قد كانت منها — اذ ذاك — أبرز النواحي . فلقد ظل دائما معنيا بالتماس الكمال فى المعرفة حتى بدا فيها الرجل الزاهد العزوف عن الطعام والمال ، منهوما غاية النهم لا يشبع من حكمة وعلم ، لا ينى يجيع بطنه ويشبع ذهنه ، وكان بثروته هـذه كالكريم المضيـاف يمد أطايب موائده امام قاصديه ليصيبوا من ذخر عرفانه كما يشاءون . ولقد بلغ من هـذا الأمر المدى الذى لم يبلغه سواه حتى أصبح المرجع فى مستعصيات المسائل ، وتسنم مقعد المعلم الأول فى ذلك الحين مع ما كان من حداثة سنه ، يأخذ عنه الملتفون به من صحب الرسول ، ويستهدون بآرائه يذيعونها في المجالس لنفع الناس ، وحرى بمن نهل الحكمة من نبع النبوة أن يكون كما كان .

ولكن الزمن أبى أن يدع له طويلا هذه المتعة الروحية ينعم بها فى ابان محنة حزنه ، فلقد أخـذت حلقات الصـحاب تضمر وتقل جموعهم عنده وتتفرق شراذمهم الملتفة به كلما دعاهم داعى الجهاد بمكان . ولم يلبثوا ، بعد ان استعرت الفتنة فى جانب من الجزيرة ، أن يتركه الواحد بعد الآخر حتى أمسى وليس له من تلاميذه الا بعض أهله واولئك الأربعة الصغار .

والى جانب هذه المتعة الروحية التى انتقصتها الحرب ، ظلت الناحية الأخرى من نشـاط على معطلة مذ اعتزل الناس . ولـكنها — مع ذلك — بقيت كالسيف المجلو بتارا قاطعا وان احتواه قراب . ولطـالما رمى بناظريه خارج داره فرأى جموعا تذهب وجموعا تجىء دارعة تدج في السلاح ، فكان يطوى قلبه على هم جديد فوق ما طوى من هموم ، ثم يرد طرفه اليه فى حسرة . كان مشوقا الى ما هم فيه، حنانا الى عالمهم الصخاب بصليل السيوف ، وقعقعة الرماح وازير القسى عند انطلاق النبال . فلمثل هذه الحياة الحافلة بالدماء عاش . ولمثل يومهم هذا هياه طبعه . وللغاية التى من أجلها يخوضون اليوم غمار القتال كان يرنو ببصره وهو بعد طفل صغير يقف الى جوار ابن عمه العظيم ويقول غير آبه بمن حضره من كبار اهله فى ذلك الحين :

« لا يحزننك والله اعنات القوم فعليهم ضلالتهم ، وانى انا يا رسول الله عونك ! انا حرب على من حاربت !.. »

اجل قد كان هذا شعاره فى الحياة وكان هدفه الذى لم تمل عنه عيناه . نصرة محمد كانت هدفه ، فمن ورائها انتصار دين الله . وعند ما طوى اللحد ذلك الآتى الى العالمين بالنور ، قام على من بعده يتهيأ لقيادة الناس على النهج الواضح المرسوم . وكان قد وجد فى قلبه القدرة على الاضطلاع بالأمر ومجالدة الأحداث ـ التى اخذت تجتمع فى الآفاق محاولة ان تحجب هذا النور ـ فنذر نفسه شابا ، كما نذرها من قبل صبيا ، ووهبها لغايتها المثلى .. فأما وقد افلت من بين يديه حكم الناس ، فان اداته لنصرة دين الله واعلاء شأنه ما زالت بعد تحت يده : مجلوة بتارة وان احتواها قراب !..

والقى ببصره الى جانب من الغرفة فعلق فيه بسيفه الذى اهداه محمد اياه . وامتلأ قلبه زهوا وهو يرمقه اذ كان كبضعة منه . واكتسى وجهه بلون من الرضا المشوب بالعزم ، وهمت يده ان تمتد فتسله وتداعب نصله لولا ان نما الى سمعه صوت قال :

« أبو بكر !.. »

فتلفت ناحية الباب ليرى الشيخ الجليل مقبلا عليه ، فى ناظريه ابتسام ، وعلى محياه هدوء وسلام ، وقد سار نحوه مشوقا يهتف به فى صوت رقيق النبرات :

« السلام عليك يا ابا الحسن .. »

ولكن عواطف القلوب كانت ابلغ من كل تحية وكلام . فما ان تقابل اللحظان حتى اعتنق الصاحبان القديمان ، وراحت قطرات من الدمع تترقرق فى مآقى الشيخ ثم تنثال فى رفق بين شعيرات لحيته البيض . وبدا الصمت لهما هنيهة خيرا من الف حديث .. وتقبل على بالرضا وراحة الفؤاد هذا البياض الذى تكشف عنه قلب ابى بكر فى دقائق اللقاء ، فقد ظل كعهده نقاوة وصفاء ولم تغيره قطيعة ولا خلاف . لكان قلبيهما كانا شطرى قلب .. أما الشيخ فلعل الأريحية التى بدت له فى هذه اللحظة من صاحبه والتسامح الذى بلغ الى حد نكران الذات ، كان بعض ما حرك قلبه وأرسل الدمع صيبا من عينيه ..

وأما الشاب فلغير مثل هذه العوامل الشخصية وجه دعوته يستقدم خليفة الاسلام ، وان كان قد اتخذ التسامح والأريحية مطايا لبلوغ ما اراد .. وما كان له من مأرب الا ان يراب صدعا . او يهيىء رشدا ، او يهز سيفا في سبيل مجد الاسلام .

٢

حتى في هذا الموقف الذى تهيمن فيه المجاملة ، ولا تدع سبيلا لسواها من خلجات الشعور الى النفس الانسانية ، لم ينس على صراحته ، ولم تخنه شجاعة الراى الطليق الحر .. كان مخلصا غاية الاخلاص أمينا غاية الأمانة لنفسه ولصاحبه على السواء ، فلم يغمط الأولى حقا آمن انه لها ، ولم يخف عن الثاني هذه الخاطرة التى لو شاء لتركها من قلبه فى قرار سحيق . ولكنه أبى ان يدع بهذا القلب جانبا غير مكشوف لعين الشيخ ، او ان يظهر له الناحية الملساء ويطوى الأخرى عنه ، بل آثر أن يبدو امامه بناحيته كلتيهما بلا مواربة ولا اخفاء ..

قال وقد انتهى حديث العاطفة بينهما على خير انتهاء :

« يا أبا بكر .. انه لم يمنعنا من أن نبايعك انكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك لخير ساقه الله اليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا به .. »

وبهذه الكلمات القصار لخص الشاب قضيته التى ابت لها الأيام الا الخسران . ونفض يده من خلاف لم يكن هو اول مثيريه وان كان اول مناجزيه .

وكأنما مس كلامه وترا فى القلب الكبير الرفيق ، فانبرى ابو بكر يجيب :

« والذى نفسى بيده يا ابا الحسن .. لقرابة رسول الله احب الى ان اصل من قرابتي ، واما الذى شجر بينكم فى هذه الأموال فانى لم آل فيها عن الخير ، ولم اترك امرا صنعه رسول الله الا صنعته .. »

وصدق الرجل فيما اجاب وان لم يتناول كل اطراف القضية بهذا

الجواب !. ولكنه أعاد فقط ما كان من امر فدك الى الأذهان وشأنها كله لا يكاد ان يخسر او يزيد فى الميزان ، غير ان عليا لم يكن اليوم فى مجال حساب فاكتفى بالعتاب ، واسدل بالصمت على الماضى سترا ثم سارت به اريحيته الى المسجد ليعلن فى الملأ الحاشد بكلمات جلية رسمت حقه ورسمت فضل منافسه ، انه اصبح على راى الناس فلا قطيعة ولا خلاف . حتى اذا انتهى غادر المنبر يشق الجموع الى حيث افضى الى ابى بكر فبايعه ويدعو على الأثر آله ومن تخلف من انصاره عن البيعة أن يتابعوه .

ودخل بهذا فى الحياة العامة . واخذت المدينة تشهده ثانى اثنين يلازمان خليفة المسلمين . ولكنه مع ذلك لم يحظ بأمنيته فى الجهاد ، بل بقى جليس المسجد بعد أن كان حبيس الدار تطوف به الأحداث حديثا .

على انه استطاع أن يجد متنفسا لطاقته العلمية فى مجتمع اقل ما يقال عن افراده انهم كانوا من العلم امام طراز جديد . وعن له ان يدلى بآرائه الصائبة كلما اشكل امر من الأمور على أصحاب الراى المبرزين .. وفى تلك الأيام الأولى من صدر الاسلام والدين جديد على قلوب معتنقيه ، ومشكلات نواميسه واحكامه عصية على اذهان القوم بعد وفاة المهذب الأول للكون . في تلك الأيام التى غاب عن آفاقها حامل شعلة الهدى ، وجد الناس لدى سليل هاشم الصغير اقباسا من النور تضيء لهم احناء حياتهم الروحية والمدنية كلما تشعبت الآراء أو أصابها حسر . ولم يكن على يفتى فيما يعرض له من المسائل والقضايا الا عن راى صائب مسنده القرآن أو سنة رسول الله أو ما جرى من العرف المأثور . وله بعد هذا الاجتهاد بالقياس أو الترجيح ان أعوزه الوقوع على النص الصريح .

فى هذه الآونة وما بعدها من عهود خلفاء محمد كان على ميزان القضاء والافتاء ، ذخيرته حكمة قبسها من نبع النبوة واتساع أفق وعلم فياض ، لا يباريه فى ميدانه صاحب ولا رفيق حتى أصبح فى المستعصيات ذا الراى الحاسم الأخير . وكتب بأحكامه الفذة أصول التشريع الاسلامى فى كل نواحيه . والقى أضواء لامعة من ذخيرة معرفته على مشكلات الحياة ومسائل القضاء حتى كان ابن الخطاب ـ وهو صاحب القضاء على عهد ابى بكر ـ يقول فيه :

« لا بقيت معضلة ليس لها ابو الحسن !.. »

وقنع علي من دنياه بنصيبه هذا من تفقيه الناس . وترك سيفه مغمدا الى حين ، لان خليفة الرسول التزم ما كان قد التزمه رسول الله في اخريات ايامه من الضن بابن ابي طالب على الحروب . ولكنه كان دائما لأبي بكر الناصح الأمين كلما حزب الأمر ودعا ان يتقدم بمشورة. واتصلت بين الرجلين ألفة غذاها ما كان يملأ قلبه من الوفاء دائما لصحبه وان سبقوا اليه بحيف او بعدوان . وان الذي يساير الاحداث هونا ، ليرى هذا الوفاء لامع الصفحة حين يلمح هذا الشاب متقدما على استحياء الى اسماء بنت عميس يطلبها لنفسه زوجا ، بعد ان مات عنها ابو بكر ، ويضم محمدا ابنها الى داره كأحد بنيه .. ثم يرى هذا الوفاء باديا على خير وجوهه ، اذ يلمحه منطلقا ، واله النفس ، مصدوع القلب ، الى دار الخليفة : يبكي ويقول :

« رحمك الله يا ابا بكر !.. كنت والله اول القوم اسلاما ، واخلصهم ايمانا ، واشدهم يقينا .. صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخل الناس ، وقمت معه حين قعد الناس .. كنت والله للاسلام حصنا وللكافرين ناكبا . لم تفلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك ، كالجبل لا تحركه العواصف .. كنت والله كما قال الرسول فيك : ضعيفا في بدنك ، قويا في دينك ، متواضعا في نفسك، فلا حرمنا الله اجرك ، ولا اضلنا بعدك » .

وكفى بهذا الشاب نقاوة قلب وصفاء نفس ، أن ينسى في هذه الملمة ما سلف من الشيخ اليه ، وان ينبذ وراء ظهره ما كان من خلاف بينهما وحيف عليه ، كفيل بأن يوغر صدر سواه ، فلا يذكر لهذا الراقد الا فضله وحسناه . وأن يسمو على انسانيته سموا ينزع به عن بني البشر فلا ينطق الا بلسان البررة الأطهار من سكان السماء ، في آونة اضاف قبيلها ابو بكر حيفا جديدا الى حيفه القديم على حق هذا الغريم المظلوم. ان طاقة النفس البشرية لا تتسع في عصر من العصور، كما اتسعت نفس علي ، لمثل هذا التسامح وهذه الأريحية وهذا السخاء في انكار الذات ، وذكر اجمل النعوت والصفات لواتر لا يعز على خصمه أن يذكر له الاخطاء والهنات . فلقد نسي علي الماضي ورماه دبر ظهره ، ثم نسي الحاضر وهو ما زال يسير على مثل شوك القتاد أو قطع الحجر من هذا الحاضر . وليس أمسه عليه ببعيد ، لا ولا يومه الذي لم تكد

تغرب شمسه الا منذ قليل ، وكلاهما شهد لأبى بكر موقفا كان كفيلا بأن ينطق عليا بغير منطقه هذا لو أنه ساير ما جبلت عليه نفس الانسان ولكنه سما على انسانيته بنحو فريد . وشهد واغمض عينيه عما شهد ، وسمع ثم سد اذنيه دون ما سمع .. شهد هذا اليوم ابا بكر موعوكا الح عليه داؤه واشتد به برحاؤه ، تكاد امراته اسماء ان تحمله لفرط وهنه وهو يشرف على الناس من داره ليقول :

« ايها الناس .. اترضون بمن استخلف عليكم ؟ انى والله ما الوت من جهد فى الراى . ولا وليت ذا قرابة ، وانى قد استخلفت عمر ابن الخطاب فاسمعوا له واطيعوا ... »

وكان هذا حريا بأن يفعم بالغضب قلب على لأنه اصرار على الحيف بعد الحيف . ولكنه كظم وصبر ، ولم يضره ان يأخذ مقعده فى ذيل الناس ما دام صحاب رسول الله قد بيتوا الأمر على نزع سلطان محمد من آله والخروج به ثانية من عقر بيته . ولم يكن هذا بمستغرب من قريش ، ولكنه كان عجيبا غاية العجب من الشيخ الجليل بعد ان استوت بينه وبين على الأمور ، فلم تعد خافية على ابى بكر مكانة الشاب واثره فى حياة الجماعة الاسلامية من تضحيات وبذل عند ولادة الدين ، ومن حكمة وفضل ودولة الاسلام تشق طريقها الى الاكتمال .. وكان عجيبا غاية العجب منه ، وهو الملتزم دائما السير على منهاج الرسول ، ان يخرج على هذا المنهاج فيوصى لصاحبه بعده وكان أولى به لو ترك للناس أمرهم شورى — كما فعل محمد — يختارون الذى يشاءون . ولئن بدا أبو بكر يوم السقيفة مدفوعا تسوقه الأحداث أمامها ولا تدع له الا احد سبيلين : هما الخلافة لنفسه ولقريش فى شخصه ، او فوز الأنصار بها دون المهاجرين ، فانه اليوم لم تدفعه الأحداث ولم يبدر من المسلمين تنافس او خلاف يسوقانه مكرها الى الاستخلاف .

.. وبلا معارضة او اباء ، قابل على الحيف الجديد على حقه بصدر رحب ، وارتضى ان يرتد ثانية عن الصدارة الى ذيل الناس . ولكن صمت لسانه لم يعف جنانه من ان يلوك خاطرا مر بباله ، فذكر بلسان الحال ما نطقه بعد اعوام بلسان المقال :

« أرى تراثى نهبا ، فياعجبا !.. بينا هو يستقيلها فى حياته اذ عقدها لآخر بعد وفاته .. لشد ما تشطرا ضرعيها !.. »

٣

لا ريب ان ابا بكر راى لعمر عليه حقا حين استخلفه ، كما راى للمؤمنين صلاح حالهم بهذا الاستخلاف . ولكن الأسلوب الذى انتهجه عند الاختيار كان أسلوبا يستطاع وسمه بالهنات والأخطاء . فان الشيخ لم يتناول الأمر بالصراحة الواجبة ، بل بدا كأنه اضمر التبييت وشاء تدبيره على غير علم من آل بيت الرسول . ووقع بهذا فى الخطأ الذى وقع فيه عمر من قبل عند وفاة النبى اذ خرج بصاحبه الى سقيفة بنى ساعدة ولم يدع واحدا من آل هاشم الى الخروج .

وكذلك اسقط ابو بكر من حسابه عليا الذى كان اولى بالرعاية وبالحساب من سواه . وشاور غيره من صحبه قبل ان يقدم على اختيار من يخلفه وان لم تكن المشورة — فيما يبدو — بقادرة على ان تجعله يحجم عن هذا الاختيار ، ولكن الذى كان أحرى بخلقه الكريم لم يفعله ، كأنه خشى — لو أدخل عليا فى الراى — أن يلويه عنه أو يخالفه . ومع ذلك فماذا كان على بمستطيعه بالمعارضة وقد عزم الشيخ أمره وانتهى الى قراره قبل أن يشاور ويستطلع الآراء ؟.. وأى الناس فى العرب كان يفضل ابن عم رســول الله أو يقوم مقامه حتى يغضى أبو بكر عن دعوته ليشاوره فى الأمر ؟.. وكم من راى لصحب محمد يعلو رأى هذا الشاب فى شأن من الشئون ؟.. ان العجب كل العجب أن يلتمس الخليفة الصواب عند على كلما اختلفت الآراء فى مصير فرد واحد من رعاياه ثم لا يشاوره اذا أراد البت فى مصير دولة جمعت رعاياه !..

كان هذا عجبا حقا من رجل خلف دنياه وهو على غير يقين اكان هو صاحب الأمر من بعد رسول الله أم كان الأولى به سواه حتى لقد قال قبيل وفاته وعنده ابن عوف :

« لوددت انى كنت سألت رسول الله عن هذا الأمر فلا ينازعه أحد » ولكنه ، مع ذلك ، شاور صحبه قبل أن يدلى بهذا الأمر لعمر ولم يشاور أولاهم بالمشورة وبسط الراى . ودعا اليه عبد الرحمن ابن عوف يسأله :

« أخبرنى عن عمر .. »

قال عبد الرحمن :

« يا خليفة رسول الله . هو والله افضل من رايك فيه من رجل ولكن فيه غلظة .. »

« ذلك لأنه يرانى رفيقا ، ولو افضى الأمر اليه لترك كثيرا مما هو عليه . يا أبا محمد ، انى قد رمقته فرايتنى اذا غضبت على الرجل فى شىء أرانى الرضا عنه ، واذا لنت له أرانى الشدة عليه .. »

وهم ان يقوم ابن عوف فقال له الخليفة محذرا :

« يا أبا محمد .. لا تذكر مما قلت لك شيئ .. »

ثم دعا اليه عثمان بن عفان يسأله :

« يا أبا عبد الله . أخبرنى عن عمر .. »

« انت اخبر به يا خليفة رسول الله » .

« فأخبرنى .. »

فقال عثمان :

« اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأن ليس فينا مثله»

فتفرجت أسارير الشيخ وهو يقول :

« رحمك الله يا أبا عبد الله !.. ولو تركت عمر لما عدوتك »

ثم أوصاه أن يكتم ما دار بينهما من الحديث .

واشتد فيما بعد بالشيخ وصبه . وخشى أن يموت قبل ان يوصى ويسجل وصاته هذه فى كتاب ، فبعث الى عثمان يستكتبه العهد ، فلما جاء راح يملى عليه :

« اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .. »

واخذ صاحبه يكتب .

« ... هذا ما عهد عبد الله بن عثمان الى المسلمين ، آخر عهده بالدنيا ، واول عهده بالآخرة ، فى الساعة التى يبر فيها الفاجر ويسلم فيها الكافر » .

ثم وهن منه الصوت قبل ان يتم املاءه ، واغمى عليه :

ورفع ابن عفان عن الصحيفة عينا يتطلع بها قلقا نحو صاحبه ، فاذا الرجفة تأخذه اذ يراه مهيضا . وكأنما خشى أن يكون الخليفة قد فارقته الحياة قبل أن يتم عهده ، وخاف من الناس أن يختلفوا على الأمير بعده ، فسارع يكتب متمما الوصية :

« .. أما بعد ، فانى قد استخلفت عليكم ابن الخطاب .. »

وافاق الشيخ بعد قليل من غشيته فاطمأن عثمان ، وقرأ عليه ما كتب قال له أبو بكر :

« انى لك هذا !.. »

« ما كنت لتعدوه .. »

« أراك خفت أن يختلف الناس ان افتلتت نفسى فى غشيتى »

« نعم يا خليفة رسول الله »

« الله أكبر !. أصبت ، فجزاك الله خيرا عن الاسلام . اتمم كتابك »

وعاود الاملاء .

وابرم بعد قليل العهد الذى اراده أبو بكر فتم لعمر الأمر .

ودخل طلحة بن عبيد الله على الخليفة وهو بين بعض صحبه حين نما اليه خبر الوصية .. وقال معارضا :

« ما انت قائل لربك غدا وقد وليت علينا فظا غليظا تفرق منه النفوس وتنفض عنه القلوب ؟.. »

فبدا الغضب فى عينى الشيخ ، وصاح بابن عمه :

« أبالله تخوفنى يا طلحة ؟. اذا قال لى غدا ذلك قلت له : وليت عليهم خير أهلك »

« أعمر خير الناس يا خليفة رسول الله ؟ »

فاشتدت ثورة حنقه وأجاب :

« اى والله !. هو خيرهم وانت شرهم !.. أما والله لو وليتك لجعلت انفك فى قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذى يضعها ، قم عنى !.. »

والتفت الى ابن عوف يقول له ، ولما يزايله غضبه :

« استخلفت عليكم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم لذلك انفه يريد أن يكون الأمر له دونه لما رأيتم الدنيا قد جاءت !.. اما والله لتتخذن ستور الحرير ونضائد الديباج ، ولتألمن الاضطجاع على الصوف الأذرى كما يألم أحدكم أن ينام على حسك .. ووالله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا .. »

فكأنما جلت سكرات الموت للشيخ بصيرته فنفذت الى المستقبل حتى لاح أمامه مبسوطا وتكشف عن صحبه الباقين قد اكتنفهم الترف ومالوا الى رفاهة العيش بعدما كان من نزوعهم عن الدنيا ونأى عن أوطارها وعن مآرب الحياة .. ولعل هذه النبوءة قد طافت من قبل بخيال ابى بكر ، وملأت قلبه بالخوف من المستقبل الذى رسمته ، لأنا نجده ، حين احس دنو اجله ، يسارع الى رجل عرفت فيه الزهادة فيختاره اميرا للناس حتى يجنبهم المصير الذى يخشاه ... ولقد أصاب باختياره -بد التوفيق فاستطاع ان يمد فى أجل الخلافة الروحية بضعة اعوام ، ولكنا نراه ، حتى فى هذا الصواب قد افتات ثانية حق على الموسوم بالتقشف والزهد سمة قد تسبق به عمر بن الخطاب لو سار كلاهما فى هذا الطريق . وإفتات ثالثة حق على بمنطق اللسان حين سمعناه من قليل يقدم عليه ابن عفان اذ يقول :

« لو تركت عمر لما عدوتك يا أبا عبد الله »

فمن فى الزاهدين كان عثمان ؟ .. واية ميزة تفرد بها دون ابن ابى طالب واستحق معها التقديم ؟.. وبأى لسان نطق أبو بكر هذا البيان ؟.. أكان حديثه يا ترى بلسان المجامل الرفيق ، أم بلسان محقق التزم فى حكمه قواعد الحساب الدقيق ؟.. هذه خواطر لعلها لم تغب عن ذهن الشيخ اذ ذاك وان جاء جوابها من لدنه على غير ما كان يجدر أن يجيء عليه الجواب .. وللأحداث من بعد الحكم وفصل الخطاب ؟...

٤

المبدأ الذى التزمته قريش فى اختيار خلفاء رسول الله كان خروجها دائما على أهل رسول الله ، ونزعها حقهم من أيديهم ... هذه حقيقة أيدتها دائما وقائع الحال ، كانت فى البدء يحجبها ـ حديثا ـ فى حلوق أصحابها ستار وان بدت فى الافعال ، ثم اخذت على الأيام تخرج من نطاق الاسرار الى المجاهرة والكلام ...

ذلك بدا جليا غاية الجلاء ، ولو لم تتحرج قريش عند وفاة محمد واتساق الأمر بعده لأبى بكر ، لوسعها ان تقول لبنى هاشم فى أصرح بيان وبأعلى صوت :

« كرهنا أن تجتمع النبوة والخلافة لهذا البيت ... »

ولقد امرت عليها ـ انفاذا لمبدئها المرسوم ـ شيخا من تيم لا ريب كان له مثل رأيها ذاك ولكنه كان فطنا ، فيه كياسة وحذق فلم يجأر بالذى كانوا يسيرون ، وجرى أحيانا بينهم مجرى الهمس بعد جريانه كالعقيدة فى الأخلاد والظنون . وبقى طاويا فى نفسه شعور قومه تجاه آل الرسول وان لغطت الألسن رويدا رويدا بأنهم أصابوا الجادة حين اختاروا خليفتهم من غير بيت النبى ، رغبة فى البعد بخلاف الاسلام عن التشيع للعصبية التى نهى عنها الاسلام . الا انه منطق يعوزه السداد وان بدا كالسداد ، فما كانت العصبية جرما الا ان تمنع صاحب حق حقا يستقيم له بغيرها ، أما الاعتذار بها فهو الجرم كله ان منع حقا يستقيم لصاحبه بها كما يستقيم له بدونها على سواء .

ولكنه الاعتذار الوحيد الذى انتحلته قريش لتدرأ الشبهات عن حيفها وركوبها آل محمد بالعدوان . وما كان لها ان تلجأ الى سواه وهو ذريعتها لتبدى ـ فى صورة غير واضحة الظلال والالوان ـ ما طوت عليه جوانحها للبيت الهاشمى من حسد مكتوم وحقد مكظوم .

والباحث وراء هذه الاحقاد يستطيع أن يردها الى أصولها القديمة فى أحداث التاريخ ، كما يستطيع أن يحس عواطفها المنبعثة

عنها فى قلوب القوم كلما آنت لحظة يقفون بها فى موقف الحكم امام هذا البيت الكريم ، ثم لا يستعصى عليه بعد هذا ان يعلل احكامهم التعليل الصحيح . كذلك تألبت قريش على محمد وهى على ضلالتها ، وهو يحمل اليها ناموس الهدى والنور . وكذلك فعلت من بعده حين تجيشت بقضها على ابن عمه ولم تنصفه وجاء النصف من جانب قوم من غير قبيله هم الأنصار . وكذلك مدت فى طغيانها عليه يوم الاستخلاف ، وان صدر عن شيخ بنى تيم لأنه لم يكن سوى المعبر عما يحس به قومه ويبتغونه كثرة او يبتغونه وهم على اجماع .. وفيما اتى بعد هذا من فرص النصف ظلت كدأبها من على فى المعسكر المنحرف عنه المتحيف عليه ؛ وليس من سبب واحد اقصاه عن مقعد الحكم الذى هو به جدير سوى هذه العاطفة ، وان لاح تعدد الذرائع والاسباب . ومن احس الريب وخالجته الشكوك فى اثر هذا المانع الوحيد الاصيل ، فبحسبه أن يسمعه عن لسان ابن الخطاب .. فلقد وسعه أن يعتذر مرة عن حيف قريش بسبب مطروق سلف اليه قبله رأى ابى عبيدة ابن الجراح .. وثانية بسبب واه كان ظنا خالصا لم يؤيده فيما بعد منطق الأحداث ... لكنه فى الثالثة تكلم بوحى قلبه فأجاد التأويل وأصاب التعليل ..

... أما الاولى فكان يحادث فيها إبن العباس فقال فيما قال :

« ما ارى ، يا بن عباس ، صاحبك الا مظلوما .. »

« فاردد اليه ظلامته يا أمير المؤمنين »

فوقف الشيخ هنيهة يهمهم كأنما يحدث نفسه ، ثم عاد يقول :

« ما اظن القوم منعهم منه الا ان استصغروه ... »

... وأما الثانية فمر فيها بعلى ، وهو بفناء داره ومعه ابن عمه ، ذات ليلة فالقى عليهما السلام ، ولما هم ان يسير الخليفة لشأنه هتف به ابن ابى طالب :

« أين تريد ؟ »

« البقيع »

« افلا نصل جناحك ونقوم معك ؟ »

فوافق ، واشار على لابن عمه أن يصحب عنه امير المؤمنين . ومضى الرجلان فى جوف الليل ، الأمير صامت كأنما قد شغله التفكير ، ورفيقه لا يحب ان يقطع عليه فكره بالحديث . حتى اذا

جاوزا البقيع بقليل التفت عمر الى صاحبه وقال :

« يا بن عباس ... اما والله ان صاحبك لأولى الناس بالامر بعد رسول الله ، الا انا خفناه على اثنتين ... »

« فما هما يا أمير المؤمنين ؟ »

قال عمر :

« خفناه على حداثة سنه ، وحبه بني عبد المطلب »

... واما الثالثة ففي بعض مجالس امير المؤمنين وقد جلس اليه نفر يتذاكرون الشعر والشعراء . ومر بهم اذ ذاك عبد الله ابن عباس ، فقال عمر للذين حوله وهو يدعوه :

« قد جاءكم الخبير ... »

ثم التفت اليه يسأله :

« من اشعر الناس يا عبد الله ؟ »

« زهير بن ابى سلمى يا امير المؤمنين »

« فانشدني بعض ما تستجيده له ... »

قال ابن عباس :

« مدح قوما من غطفان يقال لهم بنو سنان فقال :

لو كان فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم او مجدهم قعدوا
قوم سنان ابوهم حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
انس اذا امنوا ، جن اذا فزعوا ... مرزءون بهاليل اذا جهدوا
محسدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله منهم ماله حسدوا »

فقال عمر :

« والله لقد احسن . وما ارى هذا المدح يصلح الا لهذا البيت من هاشم لقرابتهم من رسول الله ... »

« وفقك الله يا امير المؤمنين فلم تزل موفقا »

وكأن عمر اراد ان يوائم بين رأيه هذا وبين ما سلف من قريش في حق هذا البيت الكريم فراح يقول :

« اتدرى يا بن عباس ما منع الناس منكم ؟ »

« لا ... يا امير المؤمنين »

« لكنني ادرى »

« فما هو ؟ »

« كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفا ، فنظرت لأنفسها فاختارت ، ووفقت فأصابت »

ويبدو ان ابن عباس لم يكن متهيئا هذه الآونة للسكوت فبادر الى الجراب الذى ظل اعواما يكتمه في ذات نفسه ولا يفصح عنه ..

قال لابن الخطاب :

« أيميط امير المؤمنين عنى غضبه ؟ »

فأمنه عمر قائلا :

« قل ما تشاء »

« أما قولك أن قريشا كرهت ، فان الله تعالى قال لقوم : « ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فاحبط أعمالهم ... » واما قولك انا كنا نجحف ، فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة ، ولكنا قوم أخلاقنا من خلق رسول الله الذى قال ربه فيه : « وانك لعلى خلق عظيم ... وقال له : واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ... واما قولك ان قريشا اختارت ، فان الله تعالى يقول : وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ... وقد علمت يا أمير المؤمنين أن الله اختار من خلقه من اختار ، فلو نظرت قريش حيث نظر الله لوفقت واصابت ! ... »

فتفكر عمر هنيهة ، ثم قال وقد آذاه من ابن عباس هذا الحديث الصريح :

« على رسلك يابن عباس !... ابت قلوبكم يا بنى هاشم الا غشا فى أمر قريش لا يزول ، وحقدا عليها لا يحول »

« مهلا يا أمير المؤمنين !... لا تنسب قلوب بنى هاشم الى الغش فهى من قلب رسول الله الذى طهره وزكاه . وانهم لأهل البيت الذى قال لهم الله (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا) ... واما الحقد فكيف لا يحقد من غصب شيئه ويراه فى يد غيره ؟ .. »

فغضب عمر ، وصاح وقد حضره فى هذه الآونة امر كان يكتمه :

« ما انت يا بن عباس ؟... انى قد بلغنى عنك كلام اكره ان اخبرك به فتزول منزلتك عندى ... »

« وما هو يا أمير المؤمنين ؟... اخبرنى به ، فان يك باطلا فمثلى

اماط الباطل عن نفســه ، وان يك حقا فان منزلتى عنــدك لا تزول به . . . »

« بلغنى انك لا تزال تقول : اخذ هذا الأمر منا حسدا وظلما »

فلم ينكص ابن عباس . ولم يتزحزح عن مواطىء قدميه ، بل قال :

« نعم حسدا ! وقد حسد ابليس آدم فأخرجه من الجنة . ونعم ظلما !. . . وانك لتعلم يا امير المؤمنين صاحب الحق من هو . . . يا أمير المؤمنين ، الم تحتج العرب على العجم بحق رسول الله ، واحتجت قريش على سائر العرب بحق رسول الله ؟ فنحن احق برسول الله من سائر قريش »

وبدرت اذ ذاك من الشيخ بادرة ليس فيها معنى الرضا عن سلوك هذا الفتى الذى لا يعييه ان يمتلك نواصي الحديث بالحجة وقوة الجدال؛ فلم ير عبد الله بدا من ترك المجلس . فلما رآه عمر قائما يريد ان يبرح ، خشى أن يكون قد اساء اليه فأسرع يقول متلطفا به :

« أيها المنصرف ! انى — على ماكان منك — نراع حقك »

فالتفت الفتى اليه يقول ولم يزايله جده :

« ان لى عليك يا امير المؤمنين وعلى كل المسلمين حقا برسول الله . فمن حفظه فحق نفسه حفظ ، ومن أضاعه فحق نفسه أضاع !. . »

ومضى عنه وفي أعقابه كلمات تقدير وانصاف قالها الأمير للجالسين:

« واها لابن عباس !. . واها له . . فما رايته لاحى احدا قط الا خصمه » .

٥

جرت السياسة العمرية على ان يظل صحاب رسول الله الاقربين حبيسي جدران الحجاز .. لم يبن الخليفة الثاني سورا ، ولم يغلق عليهم الأبواب ولكن شكيمته كانت اقوى من الف سور وباب ، فوقف الصحابة حيث اراد لهم ، لا يبرحون الا باذن ولأجل موقوت ، ولا يتفرقون فيما فتح الله به على الأمة الاسلامية من بلدان كلها خصوبة وخير ــ الذاهب اليها متعلق بها حتما ، مربوط بما تغله من ثروة ، تنادي كل ذي مطمع ان يتزود من دنياه بأوفى نصيب .. وأولئك الذين بعث بهم عمر في الآفاق لم تغمض مطلقا عنهم عينه ، ولم ينأوا عن باعه ، بل كانوا قيد بصره اليقظ النفاذ ، وكفه القوية الباطشة . وهم بعد هذا احد رجلين : زاهد في المتاع ، له من نفسه وازع يعصمه من الزلل ، لأنه لا يستطيب الدنيا فلا يستطيب الاشتهاء . وطامح يتذرع بالحذر ولا يخطو الا بحساب لأنه لا يأمن العقاب وعنف الجزاء . وكانت هذه السياسة خطة أبي بكر ايضا ، ووصاته لخليفته من بعده يترسمها وهي في ذاتها حكمة ايدتها الاحداث التي اصابت بناء الدولة الفتية في عهد لاحق بصدوع نشأت عن التهاون في الاخذ بها حينا ، ثم باهمالها جملة ، وهي في نفس عمر لاقت صدى من شعوره الصادق وبصيرته التي طالما نفذت الى بعيد ، ولاقت هوى كذلك لأنها اتفقت والمعروف عنه من الشدة وكبح الجماح فيه وفي الاخرين . وقد ظل طوال عهده تتردد في اذنيه كلمات سلفه :

« احذر هؤلاء النفر من اصحاب رسول الله ، الذين انتفخت اوداجهم وطمحت ابصارهم » .

وهو في تاثره خطى صاحبه كان يخشى ، ان تفرقت رءوس قريش في الامصار ، ان تشتد سواعدهم ثم تسول لهم النفوس ان يستقلوا بدويلات تنتقض على امها الحجاز . او يركنوا الى ترف ينسيهم خشونة الصحراء ، تنبرى به الأجساد وتهن العزائم . ولقد طالما اخذ عمر الواحد منهم بالشبهة فخلعه من ولاية كان ولاه اياه ، او اخذه بالهنة فحرم عليه ما يملك من مال ومتاع ورده الى بيت المال ، فاما الذين

لم يستعملهم على البلاد فأولئك الذين كانوا أدنى من الآخرين الى رسول الله وارسخهم مكانة وطيب سمعة فى قلوب الناس . ذلك لأنهم كانوا أقرب الى السلطان لو ارادوه ونامت عنهم عين عمر .. ولكنه كان دائم اليقظة موصون الحذر حتى ليأتيه الرجل منهم يستأذنه فى الخروج للجهاد فيمنعه ويقول :

« اقعد !.. قد كان لك فى غزوك مع رسول الله ما يبلغك . وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك !.. »

ثم اشتد عمر غاية الشدة فى تطبيق هذا المبدأ ، فراحت حلقة الحصار يوما بعد يوم تضيق على هذه الفئة حتى حبسهم فى نطاق مدينة الرسول .. قد كان حقا اعلم بنفوسهم وابصر بما تنطوى عليه .. لو امتد به الأجل لتكشفوا لعينيه على الشاكلة التى بدوا بها فى عهد عثمان ، ولو اطاعهم لقربوا عهد الفتن والخلاف . ولكنه عصاهم غاية العصيان ، واطاع فيهم حق الدولة فى النماء على حسابهم وعلى انقاض اهوائهم ، فباء منهم بالثورة التى تكتمها خشيتهم منه ، وبالسخط عليه يضمرونه وان اظهروا الرضاء عنه ، ولعله علم منهم هذا ، ولمحه فيما بدت به سحنهم امامه فقام فيهم مرة وقال :

« ان قريشا يريدون ان يتخذوا مال الله معونات دون عبادة . الا فاما وابن الخطاب حى فلا !.. »

وقطع عليهم بهذه الصراحة الحاسمة كل سبيل . ثم التفت الى الوجوه المشرئبة والعيون الشاخصة ، يبصر أصحابها بحكمة رايه ، ومدى ما فيه من الخير المؤجل لهم فى حياتهم الآجلة ، دون ما تهوى انفسهم من الكسب المعجل فى هذه الآجلة . كم بدا الرجل ماردا جبارا فى تلك اللحظة !.. شامخا كالجبل الأشم يخز السحب ويصد الريح ، اذ يقول :

« انى قائم دون شعب الحرة ، آخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا فى النار !.. »

***

وكذلك — فى هذه الحقبة من الزمان — عاش على المشرع الحكيم العالم دون بقية نواحيه ومزاياه . لم يتح للشاب أن يفيض على أمة الاسلام بكل ما عنده ، فأطلق من لدنه هذه الطاقة التى لا يحدها قد

من السياسة التى التزمها الخليفة الثانى .. اما على الحاكم وعلى الجندى ، فقد ظلا كالنصل لا يسل عن قراب . ولم يكن قيامه بالتشريع عن تكليف ، ولكنه تقدم به طواعية لا يمنعه عن الادلاء برايه ان فاز عمر دونه بالخلافة ، ولا يوغر صدره انه يرى حقه مسلوبا منه مباحا لغيره . فقد تعلم ان يساير لاحداث بسجية المسالم الذى ينأى عن الفتنة ، الصابر ما كان الحيف مصيبا من ذات نفسه هو دون اصابة المجموع ، لان خير الأمة وحده كان ديدنه وان جاء على يد سواه ..

ساهم على اذن فى الحياة العامة ، كما وسعه ، وكما لم تشل من طاقته حدود ولا قيود . وافاء عدله وعلمه وحكمته ، كدوره فى عهد ابى بكر وعلى مدى اوسع . بل كان نصيبه من المساهمة ابان حكم عمر تتمة لما كان منه فى العهد السابق .. ثم هو ، قبل هذا ، نصيب تطلبته منه الظروف نفسها ومقتضيات الأحوال . والمتغلغل فى ادراك الخليفتين الاولين وفى دنيا علمهما ، يعلم ان ابن الخطاب كان افقر من سلفه الى علم ابن ابى طالب واشد حاجة ..

ان العدل العمرى موسوم بأنه قمة العدل ، وان الشدة العمرية كانت دائما ضمان اقامته بين الناس . ولكن الذى لا يرقى اليه الخلاف ، هو ان الفقه العمرى — بمحصول عمر وحده — لم يكن قاعدة مكينة غاية المكانة تقوى على احتمال هذا العدل الأمثل . وليس يطعن على المرء بأنه لم تكتمل له كل نواحيه . وليس يضير عمر فى شىء أن يكون به ضعف هنا او ضعف هناك ، اما القوة كل القوة ان يعرف الرجل نفسه — وقد عرفها ابن الخطاب حقا — ثم يكمل نقصها بما اتيح للآخرين ..

ولعل آفة عمر كانت دفعته ، تلك التى اوقفته دائما مواقف انكرها من نفسه كلما فاتت آونتها ، واتسع امامه مجال التفكير .. ومن كان على شاكلته تلك ، جدير به أن يلتمس له من اصحابه ومعاصريه العون الذى يحول بينه وبين عثار الاندفاع . وكان الرجل يعرف هذا الضعف فى نفسه . وقد طالما أفتى بالحكم ثم عاد فنقضه اذ يتروى ، وقد طالما دفعته الرغبة فى الاصلاح الى سن الشرعة التى يظنها كفيلة بما يريد ، فاذا بها لا تلبث أن تتقوض امام شرعة اعلى جرت على لسان غيره .. اراد أن يقف بمهور النساء عند حد معلوم لا تتعداه فقال :

« لا يبلغنى أن امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبى الا ارتجعت ذلك منها .. »

فاذا امرأة تنبرى له تقاطعه :

« ما جعل الله ذلك يا عمر !.. انه تعالى قال : وان آتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا ؟.. »

فعجب لنفسه كيف غابت عنه هذه الآية الكريمة كما غابت من قبلها اخت لها يوم وفاة رسول الله . ولم يستطع بعد هذا الا ان يسحب شرعته ، ويجيب صاحبة الحجة بما هو ابلغ من الاعتذار :

« كل الناس أفقه من عمر حتى ربات الحجال !.. الا تعجبون من امام اخطأ وامراه أصابت ، فاضلت امامكم ففضلته ؟.. »

ولكننا ، مع هذا ، لا يجدر بنا ان نعجب ، لأن الخطأ والصواب متلازمان فى أعمال الانسان . ولسنا ايضا نعيبه عليه ، لأن طاقته الشخصية الآدمية اضيق من أن تتسع للكمال . ولو انه آثر أن يستبد برأيه لكان هذا منه جديرا بكل مَذمة وعيب ، وان أتى رأيه بالمعجز الذى لا ينفذ اليه ريب . ولكنه كان رجلا حرا لا يأبى الحرية لغيره ، هضم عقله الشورى — ذلك المبدأ الاسلامى أس الحكم ، واقر بحكمته وفضله . وانطلق يتزود منه ويسد به نقصه ليكون حاكما أمثل . وعجم الأعواد جميعا فتخير من بين صحب رسول الله أصلبها ليتوكأ عليه ، اذ يسير طوال اعوام خلافته ..

اجل ، لم يكن له معدى عن ابن أبى طالب فى هذه الناحية وهو من عرفه علما وفقها ، وحصافة راى . فلم ينس له ان قال رسول الله ذات يوم فيه :

« أقضاكم على » .

ولم ينس له ان محمدا بعثه على قضاء اليمن فى أواخر أيامه ، وانطلق لسانه المبارك بالدعوة المباركة له :

« اللهم اهد قلبه وثبت لسانه » .

لقد كانت هذه الدعوة خير ضامن لعلى بعدل قضائه وما يند عن شفتيه من آراء واحكام — والا فأى الدعوات أولى بأن يستجيب لها الله من دعوات نبى الله ؟.. وحتى على نفسه زودته هذه الكلمات الطاهرة بثقة فى الوقوع على الصواب حتى لطالما كان يقول فى معرض الحديث عنها :

« ما شككت بعدها في قضاء بين اثنين .. »

وكذلك شاء الله لهذا الشاب أن يسد نقصا في ناحية من خصمه السياسي الثاني لم يكن يستطيع ان يسده سواه .. ولندع لابن الخطاب بيان خطر المهمة التى اضطلع بها عنه خصمه بان نسمعه يقول كلماته البعيدة المعنى القليلة الالفاظ :

« لولا على لهلك عمر » ..

٦

« لولا على لهلك عمر » ..

هذا جماع رأى رجل يدين بمستقبله الروحى كله لآخر ، او هكذا نطقت الفاظه . وهو مع هذا بين الرجال ذو رأى ليس بنقصه النضج ، يلم احيانا بأطراف الالهام .

لم يكن عمر بالذى يلقى القول لانه يجامل ، ولو جامل لابعد عن نطاق لين الفاظه مثل ابن ابى طالب ، فان كلا خلق الخليفة وماضيه بهذا ينطقان .

ولكنه في خلال زمان قصير من صدر خلافته علم من على ما لم يكن قد علمه او اقر له به بعد كتمان ، فعرف له بعد تجربة اى نوع فذ فى الرجال كان .. واتسع مكان الصدارة من مجلسه لذلك الذى كاد فى ذات يوم أن يشعل عليه داره ويجعله وآله للحطب طعاما !..

اجل قد كان يعنى القول ويعلمه حق علمه ، فقد جنبه هذا الشاب الذى افتات مع قريش على حقه ، كثيرا من مواطن الزلل فى امور دينه فضلا عن تسديده خطاه فى كثير من امور دنياه .. واستطاع على فى فترة قصيرة أن يكون الرائد الأول لابن الخطاب الى الحق الابلج كلما اشتبهت عليه الامور وتعددت مسالك الآراء . وجلس منه بحكمته المستقاة من نبى الله فى صدارة المشيرين عليه .. بل هو قد غلب عليهم اجمعين ، وسلبهم الالسن اذا نطق وان لم يسلبهم السمع وحسن الاصغاء واصبحوا امامه طلاب العلم الراغبين فى التزود من نبعه ، لا ينطقون لانهم ينقصهم ان يوفوا مثله على الاحسان ، او لانهم

يحرصون امامه على التزام الصمت والانصات ، اذ هما طريق الصواب كما تبينوا من قول ابن الخطاب :

« لا يفتين احد في المسجد وعلى حاضر » .

ذلك ان الخليفة كان يتحرز لدينه ويتوقى أشد التوقى ان تاتيه الفتيا من عويلم ، ثم لا تلبث ان تجره بخطمه الى مورد هلكة ، او تزل به دفعته كما فعلت به من قبل فلا يستطيع ان يتجنب المهوى . انه لم ينس بعد كم كان قاب قوسين من التردى فى خطأ لم يكن يأمن معه ان يسخط الله حتى اذا اوشك ان تنزلق به القدم بادر على فتلقاه .

كان ذلك ذات يوم جلس فيه عمر الى الناس بمجلس القضاء . وتقدمت له امراة ابى القوم الا ان يلحقوا بهـا الخزى .. سالهـم فأجابوه :

« يا امير المؤمنين .. انها ولدت لستة اشهر » .

فاحرقها بنظرته الغضبى ، وارتفع بصره الملتهب منها الى الوليد الموسوم بميسم السفاح ، وارتعدت الأرض تحت قدمى الأم المتهمة حتى ودت لو انشقت عنها ، ثم اطبقت شقيها فاستراحت من عناء ما تلقى من هيبة الرجل ، وفى موقف كهذا أصاب امراة حاملا من خوف عمر ماجعلها تلقى ما في بطنها وتجهض جنينا ميتا ..

واغضى الخليفة عابسا برهة ينكت فيها الأرض بدرته ، فلما رفع ثانية راسه ، كانت الكلمة الرهيبة التى ندت عن شفتيه :

« ارجموها !.. »

على انه لم يكد يلفظ آخر حروف هذا القصاص الرهيب حتى احس يدا على منكبه تمسك به ، فتلفت صوب صاحبها يهمس :

« ما وراءك يا ابا الحسن ؟ »

قال له على فى صوت ثبت رصين :

« يا أمير المؤمنين ، لا تفعل !.. فلو خاصمتك المراة بكتاب الله لخصمتك .. »

فارتاع ، وارتد وجهه حالكا .

وراح على يتم حديثه :

« ان الله تعالى يقول : وحمله وفصاله ثلاثون شهرا . ويقول جل قائلا : والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة .. فاذا تممت المراة الرضاعة ، وكان حمله وفصاله ثلاثين شهرا ، كان الحمل ستة اشهر يا أمير المؤمنين » .

فخلى الخليفة سبيل المراة فى التو ، وصار هذا الحكم تشريعا باقيا على الزمان . وبمثل هذه البديهة اللماحة والذهن اليقظ كان على يهب عونه لعمر ويبصره فى اكثر الأحايين بمواطن خطئه ، لا يقصر الارشاد على النواحى الفقهية التى لم يستوعبها مثله أحد من صحب رسول الله فى اعلام الاسلام ، بل جرى شوطه فى كل الميادين ، وادلى بآراء عقمت العقول عنها لولاه .

بعث عبد الله بن عبد الله بن غسان الى المدينة رءوس النصارى من عرب اهل الجزيرة وقد اظهره الله عليهم وارتضوا الصلح ، فلما وقفوا بين يدى عمر قال لهم :

« أدوا الجزية وانطلقوا » .

فأبوها ترفعا ان يضاموا وهم عرب مثله ، وقالوا :

« بل ابلغنا مأمننا ، فوالله لئن وضعت علينا الجزية لندخلن أرض الروم . اتقضمنا من بين العرب ؟.. »

فأحنقه عليهم هذا الترفع بلا مزية ، وهذا التهديد بالفرار الى عدو يلتمسون عنده الملاذ ، فصاح بهم مغضبا :

« والله لتؤدن الجزية وانتم صغرة قمئة !.. ولئن هربتم الى الروم لأكتبن فيكم ثم لأسبينكم » .

فاذا ابن أبى طالب تسارع بديهته بما يضع حدا للجدل والنقاش.. قال وهو يوجه الخطاب للخليفة :

« يا أمير المؤمنين الم يضعف سعد بن مالك عليهم الصدقة ؟.. »

« بلى ، قد فعل » .

واعجبته هذه اللفتة وحسن الراى فرضى بما كان من هؤلاء الأعراب .

ولئن الم علم على بكل نواحى التفكير ، وفاض بآرائه السديدة فى كثير من الأمور فان أبقى تلك الآراء على الدهور كان رأيه حين دعت الحاجة الى وضع التاريخ .

جاء رجل الى عمر يخاصم آخر بدين له عليه وكان معه صك مكتوب يحل به الأداء فى شعبان ، فلما القى الخليفة بصره عليه ، بادر يسأل الدائن :

« أى شعبان ؟. أمن هذه السنة ، أم التى قبلها ، ام التى بعدها ؟.. »

فاجابه صاحب الصك ، ولكنه كان ينقصه البرهان ، فمن ذا يدري مدى الصدق في قوله ما دامت الكتابة لم تنص صراحة على حقيقة تاريخ الأداء ..

وفي الحق لم يكن اهمال النص عن العام الذي يحدد الشهر يمكن القاء تبعته على صاحب الدين وحده ، لأنه كان خطأ شائعا بين الناس اجمعين ما داموا لم يستنبطوا الوسيلة لتحديد الأعوام على وجه ثابت معلوم ، ولعل عمر وضح لعينيه اذ ذاك هذا النقص فالتفت الى صحبه يقول :

« ضعوا للناس شيئا يعرفون فيه حلول دينهم » .

قال احدهم :

«نفعل كما تفعل الفرس : فانهم يؤرخون بملوكهم ، كلما هلك ملك ارخوا بولاية من هو بعده » .

وقال آخر :

« نؤرخ بتاريخ الروم من زمان اسكندر » .

وقال ثالث :

« أرخوا من مولد رسول الله » .

« بل من مبعثه » .

وتضاربت هكذا الآراء ، ولم يستقر نقاشهم عند حد لولا ان جاء علي بن أبي طالب من لدنه بالمعهود من الرأي السديد ..

قال :

« يا امير المؤمنين .. نؤرخ من يوم هاجر رسول الله الى المدينة من أرض الشرك ، فانه اظهر من المولد والمبعث » .

فهتف عمر مصوبا معجبا :

« لا زلت موفقا يا أبا الحسن » .

وبدأت الأعوام من تلك اللحظة بأبرز أحداث هذه الدنيا وأبلغها أثرا في حياة البشر ، بهجرة محمد بن عبد الله سيد البشر ..

٧

بدأ الميل الى صحبة على بينا تتضح سماته كلما توالت على عمر الايام . واخذت الجفوة فى خلق ابن الخطاب تتقلص رويدا لتحل مكانها الرقة له والاقبال عليه ، وكان الزمن قد علم الرجل خطأ ما كان من سوء ظنه بابن عم الرسول . وكلما مر الوقت تكشفت له ناحية جديدة من خلق الشاب تهيىء صاحبها لخير منزلة عنده ، ولأعلى مكانة بين صحبه اذا رأى الخليفة ان يتلقاهم جميعا بالمفاضلة ، ويعجم أعوادهم عودا عودا . ولم يكن فضل على خفيا من قبل على كثيرين ، ولكن الحالة النفسية التى اعتورت عمر بعد البيعة لأبى بكر كانت حرية بأن تتركه نادر الرضا على اى منافس غريم !..

على أن يد الزمان الآسية ابرأته من الماضى !.. كذلك تغيرت نفسه ، وطاب قلبا لبنى هاشم ، وان طالعه من قومه الحقد عليهم . فلم تكن عينه لتخفى عليها خافية الأنفس التى تمت اليها نفسه ، وكانت كاحداها ، تشعر بشعورها ، وتنطوى مثلها على ما انطوت فى الغابر عليه ، ولكنه نفض عنه ماضيه ، ولم يعد ببصره الى الوراء بعد ان تفتحت امامه آفاق وآفاق من نفس فتى بنى هاشم السيد المحسود !

... وظهر منه الوثوق فى على والركون اليه يتبعه الاقبال على أهل بيته حتى لم ير فى جمع الا تصدره ابن أبى طالب ، ولا فى خلوة الا كان ثانيه فيها ابن عباس . ولعله لقى عند هذا الفتى الصغير صفاء لم يشبه ما سبق هو اليه من حيف على حق ابن عمه ولم يؤثر المرير فيه فاتخذه نجيا ، والقى دائما اليه بما يخفى صدره ، وكان ينأى به عن أسماع غيره ... حتى ملابسات هذا الحدث التاريخى الذى أوقع بين الخليفة الثاني وبين الأسرة الهاشمية حاجزا من النفور لم تعد سرا يكتمه عمر عن عبد الله ...

في خلوة جمعت الأمير والنجى اقبل عمر على صاحبه الصغير يقول :

« يا عبد الله ... ما تقول في منع قومكم منكم ؟ ... »

قال ابن عباس ، وان علم خلاصة الاسباب قبل ان يسمع الجواب :

« لا اعلم يا امير المؤمنين » .

فأطرق عمر هنيهة يفكر ثم قال :

« اللهم اغفر ! .. ان قومكم كرهوا ان تجتمع لكم النبوة والخلافة فتذهبون في السماء بذخا وشمخا ... »

وتريث عن الكلام . ولم يكن هذا على اذني عبد الله بجديد ، ولكن الجديد حقا ، والسر الذى لم يكشف عمر عنه الغطاء قبل يومه ، هو ما ذكره وهو يتم الحديث ويقول :

« لعلكم تقولون ان ابا بكر اراد الامرة عليكم وهضمكم — كلا ،.. ولكنه حضره أمر لم يكن عنده أحزم له مما فعل ، ولولا راى ابى بكر فى عند موته لأعاد أمركم اليكم . ولو فعل ما هنأكم مع قومكم .. »

ثم هز الرجل راسه كالآسف واردف :

« انهم لينظرون اليكم نظر الثور الى جازره يا عبد الله !.. »

وقد أصاب التشبيه حق اصابة واصاب به حقيقة القوم ! اما الذى جرى على لسانه مما هم أن يفعله الشيخ سالفه ، فانه ذهب مع قلب ابى بكر سرا طواه لحده .. ولكن البين مما طالعتنا به صحائف الحقبة التى تلت وفاة رسول الله هو ان خليفته استقال الناس بيعتهم وكاد ان يخلعها عن عنقه . ولو انه فعل اذ ذاك لارتد الى صاحبه الحق ، ولجرت الخلافة مجراها الطبيعى فى دوحة الرسول . ولكن الأحداث المتلاحقة وفتنة المرتدين ومانعى الزكاة وقفت حائلا دون رغبته ، فلما أن انجابت هذه الغمة التى امتحنت الاسلام فى مستهل حياته باقسى محنة ، ولم يعد الشيخ — على الأرجح — قادرا على أن يحمل قريشا الشانئة على النزول عن رايه الحبيس فى نفسه .. او هو خشى — كالمفهوم من كلمات عمر — ان هو طالعها بهذا الرأى أن تجأر بالخلاف له تتبعه الفتنة والثورة عليه ما دامت تراه يهم ان يسلم أعناقها الى سكين الجازر !..

هذه ناحية ظلت خافية فى نفس عمر ، لم يكشف عنها الا حين تبين له الخافي من قلب على ، فاذا غضبه القديم يتوارى ، واذا شدته تنقشع ، واذا تأويله الخاطىء للأسباب التي دعت ابن ابي طالب الى السعى لمنافسة ابي بكر تبدو على حقيقتها النقية فيعلم منها عمر كم اخطأ من قبل فى حق الشاب .. وأصبح كلما انطوت من الزمن ايام يجد نفسه مندفعا الى هذا المشير الامين مقبلا عليه وعلى اهله

المظلومين واياه ، حتى لقد صار لهم العطوف الودود وصاروا له خير اعوان . وفى كلا نقاوة قلب على ورجاحة عقله ، وجد ثانى الخلفاء فينا يظلل حبه له ، ويستمد منه بعض ما نقصه من نواحى القوة فى العلم والتشريع . وربطت بين الرجلين رابطة وثيقة العرى اساسها التقدير ، ودافعها اخلاص كليهما للواجب الموكول اليه ، وشدة حرصه على الخير العام . ولكن عمر ظل ابدا يطوى فى قلبه املا عز على ماضيه ان يهبه التوفيق فى اجتناء ثمرته .. انه حقا بلغ في قومه الذروة سلطانا وسطوة ، وخلف عليهم فى مكان تبواه منهم — الى قليل — رسول الله وخير خلقه ، وبلغت هيبته من نفوس الناس ان خفض اكابرهم الصوت فى مجالسه ، هو ابن الخطاب الذى قال عمرو بن العاص ذات يوم فيه :

« لعن الله زمانا صرت فيه عاملا لعمر !.. والله لقد رايته واباه ، على كل واحد منهما عباءة قطوانية لا تجاوز مابض ركبته ، وعلى عنقه حزمة حطب !.. ورايت العاص بن وائل فى مزررات الديباج .. »

بلغ السلطان والسطوة والهيبة ودانت له رقاع ممدودة من الامصار لا يبعد اقصاها عن طرف درته لو انه شاء !.. ولكنه ، مع ذلك كان مجدا دون المجد المأمول . فهو ان زهدت نفسه في الكثير والقليل من نشب الحياة لم يكن بمستطيع ان يقهرها على الزهادة فى مجد جدير بان يجهد فى نواله وان يركب اليه الف سبيل وسبيل !..

في حياته كلها لم يخفق قلبه كخفقه لمحمد . لو استطاع ان يموت دونه لما احجم ، بل لعل اقسى ما مر به من لحظات الحياة تلك التى تبين فيها ان محمدا فارقه الى جوار ربه ، فعز لقاؤه الا فى غير هذه الدار .. وفى حياته كلها لم ينعم بأمل احلى من ان يرتبط الى محمد باقوى رباط . وقد اسعده ان يزف حفصة اليه ، ولكن سعادته كانت احرى بأن تكون اضعافا لو وفقه الله فجعل له عقبا من احدى بنات رسول الله .. اما وقد حال بينه وبين فاطمة ان ادخرها محمد لصفيه وابن عمه : على ، فان الامل العذب بقى مع الزمن فى قلبه لا يبلى ..

ولعله اليوم راى ان اجتناء الثمرة جد قريب وهو يسير الى على ، فلم يعد ينفصل بينهما خلاف ، ولم تبق ثمة وسيلة يقترب بها منه ويتحبب اليه الا عالجها ، ثم هو قد راى فى الشاب خير خدين

وخير ناصح امين ، فاذا استطاع ان يصاهره ، فقد قضى على البقية الباقية من غضب آل هاشم بسبب موقفه القديم منهم ، وأصاب المجد الذى تهفو اليه مطامح النفوس ، وتهفو زهادتها على سواء ..

وكذلك اقبل على صاحبه يقول :

« ذكرت اليك أم كلثوم يا أبا الحسن » .

فتلفت على نحوه برهة ولم يجبه لتوه . قد كان فى خاطر الاب امر جعله لا يبادره بالجواب .

ولكن عمر لم يقعده الصمت عن طلب الرضا عما جاء فيه . فأعاد عليه الحديث ، فقال له على فى تردد وحياء :

« يا أمير المؤمنين .. انها صبية » .

فلم يقنعه هذا بل سارع يقول :

« انك والله ما بك ذلك .. ولكن قد علمنا ما بك » .

فابتسم على ولم ير بدا من مجاهرته بما كان يخفيه :

« انما حبست بناتى على بنى جعفر .. » .

ذلك انه كان يحب بنى أخيه حبه ولده ، ويؤثرهم بكل خير فلما راى عمر ما كاد ان يعزم على عليه امره ، خشى ان يفوته اليوم ما فاته يوم تقدم لرسول الله فراح يتألفه ويحاول أن يفوز برضاه .

قال وهو يصور له حاجته اليها وقد جرى العرف قبل هذه الخطبة ان يصور الرجل حاجة المراة اليه :

« أنكحنيها يا على ، فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحابتها ما أرصد ؟ » .

فأطرق على وغلب فى هذه الآونة عليه طبعه الحيى وسجيته المجبولة على الا ترد حاجة او طلبا .. وبانت فى عينيه الموافقة التى جهد لها عمر ، فامتلأ بالفرحة قلبه . وانطلق من لدنه الى مجلس صحبه بالمسجد يسبقه بشره ثم لا يكاد أن يستقر به المقام بينهم حتى يهتف :

« رفئونى .. رفئونى !.. »

قالوا له يسألون :

« بمن يا أمير المؤمنين ؟.. »

« بابنة على بن أبى طالب » .

فاقبلوا عليه جميعا يهنئونه وراح هو فى غمرة فرحه بتحقيق مبتغاه يقول :

« ان النبى قال : كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة الا نسبى وسببى .. وكنت قد صحبته فاحببت ان يكون لى هذا ايضا » .

وكان له ما اراد من اللحاق بنسب رسول الله . فلم يكد يعود الى منزله حتى كان على قد امر ببرد فطواه وقال للصبية :

« انطلقى بهذا الى أمير المؤمنين فقولى : ارسلنى ابى يقرئك السلام ويقول ان رضيت البرد فأمسكه ، وان سخطته فرده .. »

وسارت ام كلثوم كما امرها ابوها وهى لا تدرى المعنى الخفى فى رسالته .

واستاذنت فاذن لها ، فادخلت الى الخليفة والقت امامه بالكلمات التى لقنتها :

وقال لها عمر :

« بارك الله فيك وفى ابيك .. قد رضينا » .

فعادت من حيث اتت حتى اذا سالها ابوها سارعت تجيبه وقد غلبتها الدهشة :

« ما نشر البرد يا ابت ، ولا نظر الا الى !.. »

فتبسم لها ضاحكا ، وراح يعد لها ما يهيئها لحياتها الجديدة .

٨

حق لقريش بهذا الزواج أن تتهيب موقفها .. فى خواطرها تجسم خطر بنى هاشم ثانية وفى أخلادها جرت ظنونها بعودة ما حسبته غاب عن حياتها فى قرار سحيق . وقد كان أولى بالاتساق مع تفكيرها ان ترى ان نجم على آخذ في الاستعلاء بأفق السياسة من جديد ، وان السحائب التى ظللته طوال الأعوام السالفة ليس تبديدها بعصى على اصابع أم كلثوم . ولئن برز أبوها فى المجامع بعلمه ، وسبق اكابر رجالها بأشواط ، فحرى بالنسب الجديد ان يوطد قدمه ، ويدفع بغيره من الطامعين فى الخلافة بعد عمر الى ما وراء الصفوف .

ولكنها فى الحق ظنون استحدثها الوهم ، وخواطر اوحت بها غاية الغايات التى استهدفها القوم .. وقديما قر فى نفوس قريش على بنى هاشم شىء ما زالت تحرص جاهدة على ان يثبت فى اخلادها ثبوت الأطواد ، وأن تظاهر غايتها منه بكل سلاح وان كان سلاح الخيالات والظنون .

هذه مخاوف لا يحسبن امرؤ ان قد برئت منها نفوس الاكثرين من أولئك الرهط فى ذلك الحين ، وهم عند الاعذار ليسوا على اى حال بملومين . فكلهم رجل اعماه الحقد حتى ليتسمع دبيب النملة فى الغاب الملىء بالمجيج والزئير ، او يتصيد الحبة ثم يبرزها قبة ليشبع رغبته من التحوط والاحتراز .. او رجل آخر غرير ليس بالنافذ العين فى اغوار الناس قد استغلقت عليه نفس بنت ابى طالب ونفس زوجها ابن الخطاب ... وكلا هذين الصنفين من الرجال سيطر على اذهانهم نبأ قديم سرى بعيد وفاة رسول الله على الألسن ليسوا اليوم يخشونه لذاته ، فقد جاءت وقائعه لهم بالخير ، وانما يخشون ان يعود آخر مثله الى الظهور بعد حين ، مؤذنا بزوال غايتهم المرتجاة .. فنتائج الاحداث تعرف بقياسها على السوابق من الأشباه .

قد كانت قريش جد آمنة على غايتها التى لا تعود دون الابتعاد بسلطانها عن اليد الهاشمية لولا ان بدا ذلك النبأ القديم يحلق ثانية فوق الرءوس ، ويمد خطمه من الماضى صارخا بما تستطيع امراة ان تفعله فى تشكيل مصير امة وفى اقرار اداة حاكمة عليها دون أداة . ولم يكن خافيا اذ ذاك مدى سلطان عائشة فى بيت محمد ولا قربها من قلبه حتى ليزعم البعض — أو يحمدون لها — انها فى فترة مرضه الأخيرة بذلت وسعها ليمرض فى بيتها دون بيت ابنته ، ثم بذلت وسعها لتسير الأحداث من بعد على النسق المأمول . فلقد كاد أن يغيب عن المدينة ابو بكر فى طريقه مع جيش اسامة الى الشام لولا أن لحقهم رسول بالجرف يحمل نبأ اشتداد وطأة المرض على محمد ، ولم تكن عائشة وحدها صاحبة الأمر بانفاذ ذلك الرسول ليستعيد شيخ بنى تيم وصاحبه عمر ، وانما جرى الخبر بأن الرجل كان رسولا من لدن نساء النبى بغير تحديد ، وهن على اى الحالات صورة مكررة للمراة !.

وبلغت الوعكة برسول الله بعد هذا غايتها ، فتلفت فيمن حضره وقال :

« ابعثوا الى على فادعوه .. »

قالت عائشة :

« يا رسول الله ، لو بعثت الى ابى بكر .. »

وسمعت حفصة فسارعت هى الأخرى تقول :

« .. لو بعثت الى عمر .. »

ووقف الرجال الثلاثة بين يديه بعد قليل فأجال فيهم بصره ، ولم يلق اليهم بما عساه كان يريد الادلاء به الى واحد منهم دون صاحبيه وانما اشار لهم وقال :

« انصرفوا .. فان تك لى حاجة ابعث اليكم » .

وانتهى الأجل ..

ذاك كان النبأ الذى حلق فوق رءوس قريش بعد أن بنى عمر ابن الخطاب بأم كلثوم ، وانه لنبأ يحمل فى طياته ما تستوعبه عين عابرة وان انطوى على كثير من الخطر لدى الذين يشاءون التأويل . فلقد حالت كلمة امراة دون غاية لعلها اوشكت ان تكون وانجبت غاية كانت بعيدة حتى ذلك اليوم عن الاخلاد والظنون . ولمن ابى أن يقر هـذا المنحى من التفكير ان يرسم فى خياله صفحات التاريخ على نسقها المنتظر لولا رسول نساء النبى ثم لولا الحيلولة فى اللحظات الاخيرة بين محمد وبين على .

جرى هـذا فى خاطر قريش حين دخلت ام كلثوم بيت عمر ، وتهيبوا أن تقع مثله عند ما يأزف الوقت ، ويدعو داعى الموت أمير المؤمنين للاستخلاف . ولئن لم تستطع عائشة من قبل أن تعمل بطريقة فعالة على ان يخلف زوجها أبوها ، ووقف بها دورها عند حد معلوم ، ففتاة بنى هاشم اذن طريقها معبد الى الهدف الذى ظنوها ترجوه ، ليس يحده حد ما دمنا نعلم البون الشاسع بين شخصيتى الزوجين كليهما امام امراته ، ونعلم لأولهما طبيعة بشرى يحوطها عن النزوات سياج من عنـد الله ، والثانى نفسا تميل مع الهوى ما وقعت فى يد امراة تحكم التدبير وتجيد التأثير .

ومع ذلك فان أولئك الذين تهيبوا الموقف كانوا حقا يسيرون فى ركاب الخيال . فلم تكن ام كلثوم سوى طفلة غير ذات دهاء ولم يكن عمر سوى امرىء خشن لا تغلبه مراوغات النساء ، وفى حياته كلها كان أقرب الى البغيض اليهن منه الى العنيف المرهوب ، حتى

ليعد عليه انه فارق من تزوج بهن فى الجاهلية وطلق الكثيرات بعد الاسلام .. وكانت النسوة المسلمات ــ على الاطلاق ــ ان لم يكرهنه ــ يرهبنه ، والاثر بهذا بين ؛ حين دخل ذات يوم على رسول الله وعنده نسوة يلغطن بالحديث ، ففررن لدى دخوله وتركن له المكان .. وساءه منهن هذا الفرار فصاح :

« يا عدوات انفسهن .. اتهبنني ولا تهبن رسول الله ؟ »

فلم يفت النسوة ان يثارن منه فجاءه على السنتهن الطويلة الجواب خشنا بلا مواربة ولا اخفاء :

« نعم .. أنت اغلظ وافظ !.. »

واللائى عرفنه من النساء وطمع هو في أن يسكن اليهن بالزواج ، ابين عليه لم يشفع له لديهن سلطانه ولا ائتمار اعتى الرجال واقواهم جاها وسطوة بأمره . وحسبك ان تطوف بمجلس عمر لتعرف كيف كانت هيبة الرجل حتى فى قلوب من كانوا من قبل يبزونه نفوذا ، وما زالوا يعلونه بالحسب العريض .. ولعلك ملاق هناك أبا سفيان ابن حرب كبير قريش جالسا خافض الراس لا ينبس وابنه اللصيق به زياد قد تحدث وهو بعد غلام ، فأحسن الكلام ، حتى ابدى على اعجابه فقال :

« لله هذا الغلام !.. لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه » .

ويتلفت ابو سفيان بحذر ، حتى اذا امن عين عمر قال هامسا :

« أما والله يا ابا الحسن لو عرفت اباه لعرفت انه من خير اهلك »

وكان نسب زياد مجهولا فى ذلك الحين فقال على :

« ومن ابوه ؟ »

« أنا .. وضعته والله فى رحم امه ! »

« فما يمنعك من استلحاقه ؟ »

فنظر الشيخ صوب عمر ، وقال بصوت لا تكاد تلتقطه اذن جاره :

« أخاف هذا العير الجالس أن يخرق على اهابى !.. »

.. فاعجب اذن لهذا السلطان المستطيل كيف لا يستهوى المراة .. وكيف ــ وقد حاد عن هواها او حادت بهواها عنه ــ تعصيه ولا تخشاه ، لأن لها على نفسها السلطان الذى لا يصل اليه سلطانه ،

ولاتها وزنته — بطبيعة المسلمة — حاكما فاكبرته ، فلما وزنته — بطبيعة المراة — زوجا ، ابته وانكرته ..

ارسل ذات يوم من لدنه رسولا الى ام ابان بنت عتبة بن ربيعة يخطبها له ، فكرهت لنفسها المقام عنده زوجة وردت رسوله وهى تقول :

« كلا ! انه ليغلق بابه ، ويمنـــع خيره ، ويدخل عابســـا ويخرج عابســا .. »

وكذلك فعلت ام كلثوم بنت أبى بكر حين خطبها وقالت :

« لا حاجة لى فيه .. »

قالت لها عائشة وهى تعجب :

« ترغبين عن امير المؤمنين ؟ »

« نعم . انه خشن العيش ، شديد على النساء » .

وان رجلا هذا نحوه لعصى على امراة ان تقوده او تسدد خطوه الى هدف شاءته ، لان طبعه كفيل بأن يضع كثيرا من الحوائل بينه كرجل وبين امراته كزوجة .. ناهيك عن عراقيل السياسة ذات الدروب الملتوية التى تضل فيها النسوة الدهاة فضلا عن الفتاة .. ثم دعنا نسال — وان بلغ رضاء عمر على بنى‌هاشم وملاينته لهم الشاو والذروة خلال عهده — ان كان قد استطاع أن يخلع عنه قرشيته فلا يكون على سجية قريش ، ولنا بعد هذا ان نقرا الجواب فى وصية ابن الخطاب .

٩

عندما اقبل كعب الاحبار يلقى الى عمر بمكنون علمه ، لم يبد على اليهودى القديم الا كمسحة الغموض على اسارير منبىء بالغيب ولم يبد على امير المؤمنين الا الريب ..

قال له كعب الاحبار :

« يا امير المؤمنين اعهد .. »

فبانت البغتة فى عينى عمر وبان الانكار وهو يهتف بالرجل :

« اعهد .. »

« نعم فانك ميت بعد ثلاث » .

« وما يدريك ؟ »

« اجده فى كتاب الله : التوراة » .

فضحك عمر ضحكة كشفت عن بسخره وريبه فى نبوءة صاحبه وفى علمه وقال بلا اكتراث :

« انك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ! »

« اللهم لا . ولكنى اجد صفتك وحليتك » .

ولم يلق الأمير بعد هذا بالا الى الحديث . ولم يعن فى الحين بأن يتثبت من صدق هذا اليهودى القديم ، وتأوله على السفر القديم أو زعمه النطق بما جاء فيه . ومضى لشأنه من الفراغ لشئون الدولة وشئون المسلمين ، قويا موفور الصحة كعهده ، لا يكاد أن يتوقع له احد قرب حينه .

ومع ذلك فقد كانت فى الأفق سحابة لم تخف عن عين عمر ، وكان جديرا به غب هذا الحديث أن يخشاها .. ولكنه كان رجلا قويم الايمان ، شديد الوثوق فى الله ، راسخ اليقين فى ان المجهول الذى سوف يصيبه لا بد سيصيبه ، فاذا بدا له من وراء هذه السحابة الدكناء التى تظل راسه وجه ابى لؤلؤة فيروز ، فقد امن اذن الشر ، ما دام عدله المشهور وسع كل الناس وأرضاهم وان اسخط بالأمس — فى لحظة غضب وتذمر — هذا الغلام المجوسى المتبرم بما وضع عليه من خراج .

على أن هناك امرا كان أولى بالتطير وخوف المصير الفاجع لو أنه سمع بنبوءة كعب الأحبار . ذلك كان عبد الرحمن بن ابى بكر وقد مر ليلة اليوم الذى طعن فيه عمر بالهرمزان وفيروز وجفينة غلام سعد ابن ابى وقاص حتى اذا قاربهم ، رأى خنجرا له راسان نصابه فى وسطه ، يسقط منهم . ولم يكن الأمر اذ ذاك مما يثير ظنة الا ان كان فى اجتماع ثلاثة نفر من الاعجام بمنحى ما يبعث الشكوك . ولكن الليلة لم يطلع لها صباح حتى كان امير المؤمنين موسدا بفراشه ، بعد ان اصابته جراح قاتلة من خنجر نصابه فى وسطه وله راسان ..

لم يكن عبد الرحمن قد سمع بنبوءة كعب الاحبار حتى يتحوط للحدث قبل وقوعه ، فلما دهم الرزء سار بشكه الى عبيد الله بن عمر ، وقد كان حريا بعبيد الله أن بغضب لأبيه ، وأن يبلغ الشك عنده

يقينا ، وان ينقلب موجدة على اولئك النفر الذين حومت حولهم الشبهة . وزاد من لصوقها بهم — في وهمه — انهم امير فارسي سابق اعتنق الاسلام وراسه تحت حد السيف ، ومملوك مجوسي نقم من عمر ابقاء خراجه باهظا ولم يرفعه ، وغلام آخر اجنبي يدين بالمسيحية جيء به اسيرا من الحيرة ، وكل الثلاثة لعل قلوبهم لم تخل من حقد على الرجل الذي داست جيوشه بلادهم واوطأتها العبودية .

ثم هلا كان اولى بأن يكون الامر كله اقرب الى المكيدة المدبرة لو نظرنا بعين التشكك — كما نظر عمر — الى حديث كعب الأحبار المزعوم عن ورود نبأ المصرع الوشيك في التوراة ؟.. هذه ريب تمينة ان تلصق بالرجال الاربعة جميعا ثم قد تدع رابعهم عارفا بالحادث قبل وقوعه ، فمحاولا ان يلبس به ثوب العليم بالغيب النافذ البصيرة الى اطواء المجهول ، عسى ان يستطيع نفوذا الى بعض النفوذ ، ويكون له من ورائه عليها سلطان !..

ولقد غالب عبيد الله بن عمر ما في نفسه اياما ، فلما قضى ابوه ، مضى مشهور السيف يجذ الرقاب .. قتل ابنة فيروز بعد ان سبقه غيره الى صرع القاتل ، وقتل جفينة والهرمزان فكان هكذا موتورا ركب غاية الشطط في الاخذ بثأره . لأن الظنة وحدها تدرأ الحد ولا تدعو اليه ، ولأن البينات على جرم اولئك النفر كانت معدومة .

اما كعب الاحبار فقد بقي معافي لم يمسسه شر ، بل لقد بلغ مكان الصدارة في مجلس الخليفة التالي او كاد ، لا ينساه في مشورة .. واما ابن عمر فقد امسك ليرى فيه امير المؤمنين الجديد امره ، ثم لم يعد قضاؤه فيه أن اطلقه ولم يأخذه بدم احد ضحاياه تلوما من قتله ظالما بعد مصرع ابيه مظلوما .. والذين يلتمسون المعاذير لصاحب هذا الحكم ، قد يأتون منها بالآحاد او بالعشرات ثم يعوزهم بعد هذا أن يروه قضى بشرعة الانصاف !

وهكذا بدأ عثمان بن عفان عهده بالتحيز لان طيبة قلبه غلبت على الاعتصام بالعدل المفروض في الامام .. هذه الطيبة التي كانت دائما آفته وما زالت تستشرى كلما تقدمت به السن فتميل به رويدا عن جادة الحق حتى أوردته حتفه .

* * *

وحمل ابن الخطاب وهو ينزف من المسجد ولما يبدأ صلاته بالناس. وكان واهن القوة لكثرة ما سال من جراحه الستة من دماء . ووسدوه فرشه وهو ينوء وقد تجمعوا لديه ذاهلين . أما هو فقد استطاع ان يجيل بصره فيهم آونة حتى يقع على خير بنيه فيقول له :

« يا عبد الله بن عمر .. اخرج فانظر من قتلنى » .

وكان الناس فى المسجد قد اسروا القاتل بعد أن أصاب منهم قتلى واثخن الجراح ، وحملتهم ثورة غضبهم لخليفتهم وحرمة بيت الله ان يقضوا سراعا على العبد الزنيم .

وعاد عبد الله يقول لأبيه :

« يا أمير المؤمنين .. قتلك ابو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة » .

فرفع ابن الخطاب عينيه الى السماء وقال وقد لاحت على وجهه علائم الرضا والاطمئنان :

« الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل سجد لله سجدة واحدة » .

ذلك انه كان يخشى أن يوسم باتيان ما قد يقتله به مسلم هداه الاسلام فعرف حده وعرف حقه وحق ربه على اميره ، اما وقد علم أن المصرع جاءه على يد آبق كافر فهنا الرضا عن نفسه ، والتسليم بعده للموت قرير العين مرتاح الضمير ..

ولم يبق له غب هذا الا ان يختار الجوار الذى لا بد لائذ به بعد قليل ، وان يطمئن على مثوى جسده بعد أن طابت نفسه بمصير روحه الموكول برحمة الله : وكما كانت غايته ابان الحياة ان يلوذ بنسب من الرسول الكريم يشرف قدره ، فكذلك كانت غايته وهو يهم أن يستدبر الدنيا ويستقبل نصيبه من التراب ، فليس اشهى اليه فى كليهما ، ولا احب الى قلبه من جوار رسول الله بالصهر وفى القبر ..

ونادى عمر ابنه ثانية :

« يا عبد الله .. »

« لبيك ! »

« اذهب الى عائشة فسلها أن أدفن مع رسول الله .. »

١٠

« لولا رای ابی بکر فی عند موته لاعاد امركم اليكم .. »

يا ترى قد ذكرها عمر اليوم وهو يحس الموت يزحف اليه من خلال جراحه ؟..

ما كان حريا بالرجل ان ينساها لحظة واحدة ، وخاصة وقد وقف الآن الموقف الذى يجب عليه فيه الاستخلاف . وما كان له أن ينساها وقد سمعه من صاحبه قبله ، ثم اسمعها في ذات يوم ابن عباس . وما كان له فوق هـذا وذاك ان يغيب عن ذهنه قدر على وصفته ، وقد بدا له — من بين صحبه المتجمعين حول فراش موته — وجهه وسمته .. ذاك ان لم يجد فى قرابة ابن عم رسول الله موجبا للتقديم بغير ما يوجب التقديم .

ولكنه سمع واسمع ، ثم رأى مع هذا ان يأتى بخلاف ما اقر به من قبل ، وان يدع الظلم — الذى وسم به قريشا اذ نحت ابن ابىطالب عن خلافة رسول الله — فى مكانه حيث كان ، لم يمحه ، ولم يبدل منه لانه ظل حتى الموت قرشيا من غلاة القرشيين بغير كثير تبديل . ولمن اعتـذر للرجل بانه خشى — ان هو أوصى بعلى — أن تنتقض قريش وتأباه ، فعنده اذن الجواب بأنها قبلت كارهة من أبى بكر أن يوصى لعمر ، ولم تنقلب عليهولها العذر الحاضر للانقلاب من شدة ابنالخطاب، ومن بيته بين بيوتها اذا هى وزنته بميزان الأحساب !..

قيل له وهو مهيض :

« يا أمير المؤمنين .. لو استخلفت » .

فتفكر مليا فى الأمر ثم أجاب كأنما يشاور نفسه :

« ان استخلف فقد استخلف من هو خير منى ، وان اترك فقد ترك من هو خير منه .. »

ثم التفت الى محدثه ، ولمن حضره من الصحاب . وقال بنبرة الاسف :

« لو كان أبو عبيدة حيا لأستخلفته ، وقلت لربى لو سالنى : سمعت نبيك يقول انه امين هـذه الامة .. ولو كان سالم مولى

ابى حذيفة حيا استخلفته وقلت لربى لو سألنى : سمعت نبيك يقول ان سالما شديد الحب لله .. »

فهلا ذكر اذن — فى هذا المقام — قليلا من الكثير الذى قيل فى ابن أبى طالب على لسان رسول الله ؟

انه بلا ريب ذكره وذكر معه كل ما حدث به من قبل ابن عباس ، ثم ذكر الى هذا وذاك قدر على — لا كما جرت به سيرته على شفاه محبيه ، بل كما علمه هو وخبره وقدره القدر الذى يعلو به على الآخرين ولكنه أيضا ذكر السياسة العليا التى استنتها لنفسها قريش ، وكان اما مترسما لها برغبته اذ يراها الصواب ، واما دفع مستكرها الى ترسمها فعداه — فى كلا الحالين — التوفيق ، ولم يلتزم النهج الأقوم .

وتقدم المغيرة بن شعبة اليه يهمس :
« أاشير يا امير المؤمنين ؟ » .
« أسرع » .
« ول عبد الله بن عمر » .
فرمى اليه مسرعا بنظرة كالشهاب وصاح فيه :
« قاتلك الله ! والله ما الله أردت بهذا الأمر . أتشير على برجل عجز عن طلاق امرأته ؟.. »
وتلفت الى الحضور يستانف خطابه :
« لا ارب لعمر في خلافتكم . ما حمدتها فأرغب فيها لاحد من اهل بيتى ، ان تك خيرا فقد اصبنا منه ، وان تك شرا يصرف عنا ، وحسب آل عمر ان يحاسب منهم واحد ، لا ها الله !.. »
وكان الجهد قد اصاب منه فوهن واغمض عينيه ، ولم ير الناس بدا من التفرق عنه لساعة صحو — فتركوه .

***

الا منذا يدرى كيف مرت بعد هذا به اللحظات ؟. لا ريب لم تطرف عين خياله لحظة واحدة عن التجول خلال امته ، وعن استكناه شأنها ، وعن تصور الاحداث كلها التى مرت به حتى الخنجر .. وهو قد كان جديرا بان يستشعر الرضا عن اعماله وجهوده لرفع هامة الاسلام .

ولكنه الى ذلك كان جديرا بأن يرهب المستقبل على امة محمد من بعده فأنى لغيره ان يسوس الدولة الناشئة ويرعاها ، كأنما يمسك الناس فيها بزمام ؟...

طبيعى أن يمر كل هذا وكثير غيره بخاطر عمر ، وان يراوده ابان الساعات القلائل التى فصلت بينه وبين حفرته ، وأن يعاوده أمره مرات فى يقظته هما وفى غشيته حلما .. والمشغول بشىء لا تنام عنه عينه ولا واعيته ، ويظل دواما عالقا به حتى يقضى ، وكانت الغيرة العمرية على شأن امة الاسلام أرهف الحواس عند ابن الخطاب ، وكانت هى رائده فيما صدر عنه من اعمال حتى تلك التى لم تجنبه شططا ، وانك لتستطيع دائما أن تجد عذره حاضرا امامك لو أحصيت عليه اخطاءه القليلة ، لأنك ان رددتها الى اصولها بدت لك غيرته على مستقبل بلده من وراء كل أصل . وليس موقفه من بنى هاشم حين تأمير ابى بكر ببعيد عن الأذهان .

ولقد ظلت هذه الغيرة — المحمودة اذ تظاهر هدفا عاما — تنمو فى نفسه مع الأيام وتزيد شدة ، لا يهدىء من تأجج نارها تقدم سنه ، بل يرفع لهبها ويسعره قوة شعوره بواجبه ، وانه كان مع نفسه عسير الحساب . وما من رجل يمكن أن يقال فيه قد فتر حماسه لتسويد أمته وهو القائل ، كما قال ابن الخطاب :

« والذى بعث محمدا بالحق ، لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات خشيت أن أسأل عنه » .

رجل هذا منطقه : وهذه غيرته على الأنعام ليس بعجيب منه أن يقول فى شأن الدولة التى أظلها حكمه :

« لئن عشت لأسيرن فى الرعية حولا ، فانى اعلم أن للناس حوائج تقطع دونى . اما عمالهم فلا يرفعونها الى ، واما هم فلا يصلون الى .. »

ولكنه لم يعش ليفعل ما أراد ويقسم العام سواسية بين اقطار الدولة ليرعى شئونها بنفسه ، وحيل بمنيته دون أمنيته . وانه اليوم وهو طعين مهيض تنزف الحياة من ثقوب جراحه مع دمه المسفوك لأشد غيرة على الرعية من قبل لأنه اشد شعورا بمسئوليته امام الله ، والقبر موشك أن يفغر فاه . واحسبه ابدى واعاد ثم ابدى واعاد فى خاطره اسم الامام المرجو من بعده . وفى حياته كانت له عين فاحصة وبصيرة نفاذة علم بهما اى الأعواد اقوى واشد صلابة من بين

أولئك الذين تركوه منذ قليل . ولكن نفسه فيما يبدو ، كانت نهبا ، تتنازعها عواطف وعوامل شتى تعيى بها نفس سليم صحيح . تأرجحت به الى يمين تارة ، ثم الى اليسار اخرى ، ثم تكرر الجذب مرارا بين هذا وذاك ، وهو بينهما كالقارب يتداوله اصطفاق الموج .

ودخل عليه الناس وقد عاوده الصحو .

وقيل له :

« لو عهدت يا أمير المؤمنين ... »

فحضره ما كان بينه وبين نفسه في وحدته ، وتريث برهة ، ثم رفع عينا الى القوم واصبعا الى علي وقال :

« قد كنت اجمعت بعد مقالتي أن أولي أمركم رجلا احراكم ان يحملكم على الحق .. »

ولم يلبث أصبعه المشير الى علي أن سقط ساكنا الى جواره ، وصمت ، واغض بصره . ولكنه ترك ابصار الناس تتحدث في صمت ، والسنتهم تتحرك بلا صوت ، وقد اتجهت نظراتهم الى فتى بني هاشم الذي لم يختلج محياه .

وعاد عمر يتم حديثه وفي نبراته وهن وتخاذل :

« ... ثم رهقتني غشية ، فرايت رجلا دخل جنة فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمها اليه ويصيرها تحته .. فخفت أن اتحملها حيا وميتا ... » .

واسلم نفسه ثانية للصمت .

فما أسعدها غشية رهقت عمر بعد اجماعه الرأى على تولية ابن أبي طالب ، وما اسعده حلما تنثلج به صدور قريش ! ... ان الرجل أول رؤياه — ان لم نقل على قدر عاطفته فعلى قدر معرفته . ولكنها المعرفة بالتأويل دون البرهان والدليل . فليكن ابن أبي طالب كيفما كان . وليبعد عن تولي مقاليد السلطان . وليأت من كرهوه بالأسباب والمعاذير لاقصائه عما اهلته له خصائصه ، ثم لسوف يعجزهم أن يجعلوا الاثرة التي الصقها به حلم ابن الخطاب احد هذه الأسباب ! ..

ومع ذلك فمتى كانت الاحلام — وان انبأت بالأحداث — تحدد تاريخ وقوع هذه الاحداث ؟ وكيف غلب على ظن عمر أن رجل جنته تلك هو علي وليس آخر سواه ؟ .. ثم أين بعد هذا حلمه عنه من علمه به ؟

ولكنها رؤيا اولها ابن الخطاب على قدر معرفته بالتأويل ، وحبس بها الحق عن صـاحبه المجلى بين الناس ، والمؤيد بالف دليل . ولقد يستطيع من شاء ان يغفر لعمر تأويله فلا سلطان له على حلم سرى اليه ابان غشـية ، ولكنه لن يسـتطيع ان ينفى عنه انه قرشى كأولئك القرشيين ، استبدت به عاطفته كمثلهم ولو عن غير وعى . لأننا نعرف ان الرؤى والاحلام ليست سوى وسيلة للتنفيس عن المشاعر المختزنة في النفوس ! . .

١١

ضاع العلم في طوايا الحلم ! . . فقد أوصى عمر حسبما شاءت رؤيا وشاءت حافظته وان لم تشأ معرفته وتجربته . وذهب كل ما خبره في ابن ابى طالب بددا . .

ولم يكن الرجل ـ وان أوصى ـ قد اختار ولكنه رسم حدود هذا الاختيار وحصر الامر فى ستة نفر من اصحابه لن تعدو الخلافة احدهم بحال ، ثم ترك لهم وحدهم ان ينتخبوا امير الاسلام .

ومع ذلك فمنذا يستطيع ان يقول انه لم يحدد موقفه اذ ذاك من على غاية التحديد ؟ ولم يقطع ـ بالتلميح دون التصريح ـ عليه الطرق الى ولاية الناس ؟ ولم يدل بدلوه مع الدلاء التى أخذت من حق هذا الهاشمي المحسود ؟ ان الرجل لم يناد صراحة باقصاء علي عن الامارة . ولكن وضعه اياه مع اولئك الآخرين على سواء كان يصرخ بأنه ليس يبزهم ولا يعلو عليهم مرتبة في الشأن الذى اختيروا له . وما احسبه الا واضحا ما سوف تخسره قضية علي بهذه المساواة !..

ثم دعنا نستعرض اسماء اولئك الانداد ونعرف أين مكانهم من صفوف ذوى الاحقاد ... ما من ريب فى ان ظلالا من الحسد قد لفتهم او اسرهم أو فروعا منها . وليكن خيرهم لعلي ـ وقد ادخلنا الانساب فى الحساب ـ ابن عمته الزبير ، ولكننا رغم هذا لا نستطيع أن نذكر خيره له الا مشوبا بالغيرة منه . وموقفه فى الماضي من علي مذكور معروف . وموقفه منه من بعد دونه منايا وحتوف !..

لقد ألب عمر — عامدا أو بغير تدبير — على سليل هاشم أحقاد قريش . وكتب له — اذ أودع الشورى أولئكم الخمسة — مصيرا مآله الفشل . ومن لعلى برضا بنى تيم بعد أن نافس شيخها أبا بكر وغالبه غب وفاة الرسول على ولاية الأمر ، وهذا طلحة التيمى له رأى الآن فى الانتخاب قد يستغله فى الثأر ؟ .. ومن له بمحو الأحقاد الأموية على بنى هاشم من قلوب أصحابها بعد أن ظلوا أجيالا يربون هذه الأحقاد فى قلوب الأبناء والأحفاد عسى أن يثأر ذات يوم سليل لأمية من سليل غريمتهم الهاشمية ؟... قد كان يكفى أن تجمع شورى عمر بين على وبين التيمى طلحة والأموى عثمان ليبوء أول ثلاثتهم بالهزيمة والخسران !...

ولكنا نرى عهد الخليفة الطعين باديا فى صورة من الامعان فى تأليب قوى العصبية كلها ضد ابن أبى طالب . فلقد ضمت الشورى أيضا سعد ابن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وكلا الرجلين من زهرة ، ولكليهما نسب موصول ببنى أمية أتى الأول من ناحية أمه . حمنة بنت أبى سفيان ، وأتى الثانى من ناحية زوجه أم كلثوم بنت عقبة أخت عثمان . فاذا علمنا هذا ، فماذا بقى بعده يدع لعلى فرصة واحدة للفوز ؟ ... وأى بطن من قريش ينصف قضيته وقريش كلها خصومه وقضاته فى آن ؟...

وكذلك كانت وصية عمر بالشورى تومىء الى الرجل المغلوب كما يومىء عهد مكتوب !..

وخرج أصحاب الشورى من لدن الشيخ الجريح بوجوه غير التى دخلوا بها عليه ، فى قلوبهم ألوان تباينت من المشاعر ، وفى نفوسهم أهواء شتى تصطخب وتتلاطم وكل له هم سوى هم أخيه .

وكان الناس عند الباب فى جموع تنتظم الكبير والصغير ، قد تدافعوا ينظرون الرجل الذى ظنوا أن انعقد له اللواء . ولكن الأمر بدا كان لم ينضج ، وتعلقت آلاف العيون المتطلعة الى ذلك الربعة الضخم وهو يسير اليهم كما ينحدر السيل . وبدا لهم وجهه الأسمر النبيل ، وقد انحسر ما كان من شعر يتوجه فى الماضى عن جبهة يتحدث فى سعتها الذكاء . ونطقت عيناه ببسمة حنان تغشاها أسى وشاه الاستحياء . وهفت القلوب اليه ، ولكن هيئته أوحت لهم باصطناع السكون وكبت ما يضمرونه من حب مكنون . ولكنهم انطلقوا

نحوه مكشوفى العواطف تحت نقاب النظرات الرقيق ، فأولئكم العامة كانت نفوسهم اصفى من أن تعرف المراءاة وانقى من صفحة مرآة .. لم تفسدها الأغراض ولم تشبها ؛ بل كانت ان كرهت فلله ، وان احبت فلله ..

تكأكأت عليه الجموع وكلها مستضعف وزاهد وفقير .. ولئن تباينوا بين عبد وحر الا انهم فى الحرمان كانوا سواء : هذا لا يملك ما يملأ معدته ، وذاك لا يملك ان يفك رقبته ، وانما الفت بين قلوبهم عاطفة الاكبار والاخلاص لابن عم الرجل الذى جعلهم ناموسه فى صف واحد مع أعلى الناس .

ولم تكن العاطفة وحدها هى التى الفت بين قلوب الشعب على هذا الرجل الضخم الاصلع القصير ... لقد احبوه حقا بحبهم رسول الله ، وقربوه الى نفوسهم لقربه منه . ولكن سجايا له ظاهرت هذه العاطفة فى قلوبهم ومكنت لها ، وخصالا رفعته فى أعينهم كما رفعت ابن عمه الكريم ولما يهبط عليه وحى من السماء . وان الكثيرين منهم ليذكرون عليا من مهده فلا يستطيعون الا اكباره فى كل مراحل حياته ، ويحصون المحامد فى الناس مجتمعين ، ولا يسعهم الا جمعها له منفردا ، ثم تبقى له بعد هذا صفة واحدة جديرة بأن توليه عطفهم الخالص ، هى انه مظلوم بانداده ، محروم من تراثه الذى كان له اهلا منذ أكثر من عشرة أعوام ، وكفى بهذا الحرمان صفة تؤلف حوله قلوب اولئك الذين ذاقوا فى حياتهم مر الحرمان .

ومضى على صامتا فى زحمة الناس وهم يتهيبونه فيه غضبة ليث مشى على عرينه غريب . وكان ألمه باديا فى عينيه ، وغضبه قد نم عنه هذا العرق الضخم الذى نفر فى جبهته يكاد ان ينبجس منه الدم . ثم لم يلبث الزحام أن تفرجت صفوفه ، وانثغر عن شيخ اشيب مهيب يشق طريقه بين الناس ويوسعون له تهيبا لقدره ... حتى اذا أصبح من ابن اخيه قيد خطوة استطاع ان يسمعه يهمس :

« يا لله وللشورى !... »

فتوجس العباس . وهتف به يسأله :

« فما العهد يا أبا الحسن ؟ »

« جعلها فى جماعة زعم أنى احدهم ... »

وبان الألم في عينيه .. ولم يفه العباس بحرف كأنما قد يفته

ما سمع . ومضى الى جوار ابن اخيه يسمع منه نبأ الشورى ولايملك ان يميط الدهشة عن نفسه .. قد كان هذا اليوم اولى الأيام بعودة الحق الى صاحبه بعد ان عرف الاسلام طريقه الى النفوس ، واستقر فى القلوب أعواما كفيلة بأن تنسى الناس عصبية الجاهلية ، وتميت الأحقاد القديمة التى توارثوها . ولكنه الآن علم انه احسن الظن بطبيعة البشر .. وتكررت للمرة الثالثة امام عينيه نفس الصورة التى بدت له عند وفاة الرسول . وظهرت قريش تماما كعهدها الأول، حاقدة ناقمة على بنى بيته وبيت آبائه ، متربصة لهم تتحين السانحات ... وليس اختيار ذينكم الرجلين تباعا بعد موت محمد سوى مظهر لاستمساك القوم بشريعة الأحقاد ..

وزفر على تبرما وهو يذكر ما فات ، ثم قال باستنكار :

« متى أعترض الريب فى مع الأول منهم حتى صرت أقرن الى هذه النظائر ! ... »

أجل متى اعترض الريب فيه مع أول الخليفتين !.. الا قد كان جليا غاية الجلاء لكل مبصر ان ابن أبى طالب وشيخ بنى تيم لم يكونا على سواء ، وان الهاشمى الصغير كان اذ ذاك اولى بالأمر من أبى بكر ، لولا تدافع الأحداث مرة ، والاستجابة لهذه السخائم القديمة مرات ! .. ولقد مرت بأول الرجلين فترة اراد فيها أن يستقيل الناس بيعتهم . ثم فترة اراد فيها ان يرد الأمر مختارا الى ذويه ، ولكنه فى اللحظة الاخيرة رأى رأيا فى رجل هو بدوره فى اللحظة الأخيرة رأى رؤيا .. فكان الذى كان !..

وهز العباس رأسه هنيهة يتفكر ، ثم قال وفى صوته نبرة عزم :

« يابن اخى .. لا تدخل معهم ، وارفع نفسك عنهم »

وصمت . وتفرس على فيه يرقبه ثم اطلق لذهنه العنان يعمل مسرعا على استيعاب فكرة شيخ بنى عبد المطلب الرشيد .. قد كان رأيا كفيلا حقا بأن يضعه موضعه الحق على راس اهل الشورى الذين يعلوهم هو ولا يعلونه ، ولن يكون متجنيا على الواقع لو جاهر بأنه يأبى ان يكون واياهم على سواء ، وانه يتوقف عن الاشتراك فى الشورى ، لانها مظهر وضع من قدره اذ سوى بينه وبين غيره .. ولكن ماذا عساه سيفيد من وراء هذا التوقف ؟.. وهل ان رفعه درجة فى عيون مريديه لن يثير عليه حفيظة نفوس أناس سيرون فى

توقفه تعاليا وصلفا ؟.. ومنذا يملك من كل هذا الشعب ان ينصره ويؤمره بعد وصية ابن الخطاب وتحديده من لهم حق الانتخاب ؟.. ثم هلا كان توقفه أدعى الى استجلاب نقمة اهل الشورى عليه — وهم الذين يملكون وحدهم أن يبرموا الأمر دونه ويثأروا منه بتاميرهم واحدا من بينهم سواه ؟..

لذلك حزم على أمره ، وقال يرد فكرة العباس ، ويتوسل فى ابائها بأرفق جواب :

« انى يا عم اكره الخلاف .. »

فتلفت الشيخ نحوه مهموما ، وقال بحرارة :

« اذن ترى ما تكره !. »

ثم مضى عنه بهمه وألمه .

١٢

لم يغب مغزى كلمات العباس عن ذهن على ، بل ان هذه النبوءة جرت فى خاطره قبل أن تجرى كلاما على لسان الشيخ ، وعلم مآل حقه من الضياع منذ اللحظة التى كان الجريح يذكر فيها اسماء الذين حصر فيهم الأمر ...

كان هذا واضحا غاية الوضوح بلا حاجة الى اعتساف دليل او سماع قول صريح يدلى به الخليفة الطعين . ولئن كان عمر قد ذكر ابن أبى طالب بين أصحاب شوراه فانه فعلا قد اقصاه ، وبحسب المرء أن يتبين الأنساب ليعرف حقيقة الجواب !..

ولكن عليا آثر أن يتناول الأمر بالرفق والتريث ، ولم يشأ أن يتولاه بالعنف الذى اراده عمه مخافة أن يرميه خصومه بحب الخلاف والصلف والاستعلاء ، او ان يتهموه — على احسن الفروض — بالعجلة والقفز الى الخواتيم قبل أن يثبن وقتها المفروض ... هذا لو كانت فى نفوسهم حياله بقية لاحسان الظنون .

قر اذن فى فهمه ما سوف يكون وبان لبصيرته ما يرجون .. لا خطرة من نفوسهم تغيب عنه ، ولا ظن يميل به عن الواقع الوشيك

الحدوث الى الوهم الذى يستحدثه الخيال . ولكنه الاستقراء الصحيح والرأى الرجيح يسيران جنبا الى جنب مع المنتظر من اربعة من المختارين — على التحقيق — كما تسير الأرقام فى العملية الحسابية فتنم بلا كبير عناء عن الجواب المرقوب .

قد كان احدهم حقا غائبا عن المدينة لم يعد بعد . ولكن اجماع الثلاثة الآخرين لا يعوزه تأييد من هذا الصاحب البعيد ، ولن ينقض طلحة امرا يبرمه هؤلاء ، ولن يكون من رأيهم الا كما يشاءون . بل لقد بدا من علمهم بموقفه — وان غاب — ما كان من حديث سعد مع ابن الخطاب .. قال عمر وهو يوصى الخمسة مجتمعين :

« .. وطلحة بن عبيد الله شريككم فى الأمر ، فان قدم الى ثلاثة ايام فأحضروه امركم ، والا فأرضوه .. ومن لى برضى طلحة ! » .

فأسرع سعد اليه بالجواب :

« أنا لك به يا أمير المؤمنين ، ولن يخالف .. »

ومع ذلك فدع هذا الغائب وطف بأولئك الباقين ، وليحضرك في هذا الطوف ولاء الاعراب لنواميس الجاهلية وان ضمهم الاسلام .. تلك النواميس التى تقدس عصبية الأسرة وتقدمها ، وتعيش فى حاضرها بهم الانتصار الموروث من عاداتها ومن ثاراتها .

لقى على بعض بنى هاشم فحدثوه عن وصية عمر ، فقال لهم ، وقد حضرته مواقف قريش من آله منذ أجيال ، وتواترت أمام بصيرته سلاسل أحقادها ومواجدها :

« ان أطيع فيكم قومكم ، لم تؤمروا أبدا !. »

فلم يعد حقيقة الحال فى الماضى والاستقبال ، وقد كانت الطاعة لقريش والإستجابة لسياستها العليا هى المظنون وقوعه من نفر الشورى الذين يمثلون قريشا أصدق تمثيل .

***

... ثم طف بأولئك الباقين فانظرهم — خلف الدين — عربا وقرشيين .

وسر قدما بعد هذا الى الجواب المرقوب من العملية الحسابية بلا كبير عناء ! ولتجدن الزبير نفسه ، ظهير على ، لن يصدر فى تأييده

اياه الا عن استجابة لقرابته وعصبينه ، ثم لترين الثلاثة الآخرين صفا واحدا امام سليل الهاشميين .

لا ريب كانت هذه اللحظة فرصة قريش المواتية اعادها القدر ثانية في يدها — بعد تأمير ابى بكر — لتعاود فوزها المرجو على بيت هاشم .. وكان للقوم شغف بمجالدة البيت المحسود منذ اوقعت الأيام — من قديم — بينهم وبينه النزاع على النفوذ والجاه .. وكانت امية دائما اعتى القوم واشدهم عليه موجدة ، وهى الآن ، برجلها عثمان — وشيكة ان تقتص لنفسها فتنتصر وتحقق مالم يسعها قبل اليوم تحقيقه من حلم الاجيال .

ولسنا نستطيع ان نرمى ابن‌عفان بالنهم — اذ ذاك — الى السلطان ، ولكنا لا نستطيع أيضا ان نظن له الزهد فيه .. واذا كانت طيبة قلبه وحياؤه وعلو سنه كفيلة كلها بان ترده عن طلب السطوة على الدولة ، فان حق اسرته عليه ونداء الماضى ، وعوامل الوراثة التى جرت فى عروقه مع الدم كانت تحفزه جميعا على أن يطمح حيث لا حرج عليه من الطموح ، وعلى ان يتقدم ليفوز وقد هيأ له قدره اسباب الفوز ووسائل الانتصار .

هيأ له قدره هذه الوسائل والأسباب أم ترى هيأتها له وصية ابن الخطاب ؟ لن يغير من الأمر ان نتلمس المعاذير ، ونترفق فى التقدير ، فنحسب ان الخليفة أوصى وهو لا يميل الى ترجيح واحد من الستة على من عداه .. ذلك لأن الحساب لا يجب البيان ، والظن وان نفته كياسة العقل فقد اثبته الفعل .. وما كان لامرىء من الناس الا ان يعلم مقدما بفوز عثمان بن عفان قبل فوزه وقبل ان يقر أصحاب الشورى على قرار وهو لا ريب عالم به مستيقنه من خلال أسماء الرجال الموكول اليهم الاختيار .. وكفى بعثمان أن يكون له ظهيران فيهما عبد الرحمن ، ومكان عبد الرحمن من‌الشورى ليس يعلوه مكان.

كذلك نرى عبد الله بن عباس ، لا يكاد أن يسمع بما كان من وصية عمر حتى يسرع دهشا ، جلل القلق والحيرة وجهه وخاطره ، فيقابل ابن عمه يستخبره الامر :

« أقال لكم أمير المؤمنين : ان رضى ثلاثة منكم رجلا منهم ، ورضى ثلاثة رجلا منهم ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ؟ . »

« نعم .. »

فيهتف الفتى مستنكرا في ضيق :

« قد ذهب الأمر منا ! » .

ولم يكن هذا بالجديد على علم على لانه استيقنه من البدء وقال فيه لعمه العباس :

« .. سعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر لعثمان لا يختلفون ، فيوليها عبد الرحمن عثمان او يوليها عثمان عبد الرحمن .. »

ولكنه مع علمه هذا آثر الصبر لأنه كان يرمى الى امر ..

وقال هادئا يشرح الأمر لفتاه :

« انى اعلى يا عبد الله .. ولكنى ادخل فى الشورى معهم لان عمر قد اهلنى الآن للخلافة وكان من قبل يقول ان النبوة والخلافة فى بيت واحد لا تجتمعان .. »

أجل فقد كان هذا رأى عمر ، او هكذا كان يقول فى الماضى ملتمسا الحجة فيه لقريش على ما سبق من عدوانها على حق على ، وحرمانه ولاية الأمر بعد رسول الله .

وراح ابن ابى طالب يدلى برأيه لابن عباس :

« أردت أن أظهر ان روايته تناقض فعله .. »

وحقا نقض الفعل الرواية وان جاءا كلاهما بنفس الغاية !..

ومع ذلك فلم يرفع على نفسه عن الشورى ، ولم يمتنع عن مجلس الستة بل آثر أن يسير معهم فى الطريق المرسوم وهو يعلم الى اين سيفضى .. لا يخالجه الشك لحظة واحدة فى انه لا بد مقطوع ما بينه وبين حقه ، مبتز تراثه ، مقضى عليه بالهزيمة فى ميدان جردوه فيه من كل سلاح ..

١٣

غلب على عمر اجله ، ومضى الرجل عن فراشه بداره الى مثواه بجوار رسول‌الله ، محمولا على‌اعناق بضعة نفر من‌صحبه ، ولو ترجمت مشاعر النفوس الى فعال لحملته رقاب من وسعتهم الدولة الاسلامية من نساء ورجال .. ولكنه ذهب عن الدنيا عازفا عنها ، مرجوا منها ؛ وقطع الموت ما بينه وبين دنياه من اقبالها ومن قلاه ..

وانكفأ النــاس عن القبر بأوصاب وآراب ، تجاورت فى القلوب كسير الأمل فى أعقاب المحنة . والحياة دائما تورث الفواجع ثم تورث على اثرها المنى الســواطع .. انكفأوا عن طــريح الثرى بالبرحاء وبالرجاء . فلما غابت عن عيونهم الحفرة التى طوت العلم ، استدبروا الهم الواصب في اليوم الذاهب ، وتهيأوا ، مفتحي القلوب لاستقبال الغد المرقوب .. وما سنة البشر فى عيشها على هذه الأرض ســوى ان تطرح همها لأمسها وتصل رجاءها بغدها .

وكذلك انطلق الناس من لدن القبر ، وكلهم قد علق بالغد القريب فكره ، يود لو استطاعت بصيرته نفوذا الى الغيب فراى كيف تسير الامور بعد العاهل الصريع .. وكيف توطىء الاحداث لخلفه ؟. ومنذا فى النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض سوف يكون اميرا على المؤمنين ؟

كانت الجموع كلها تأمل ، وتسير فى قلوبها — مع الأمل — خشية المستقبل لا فرق فى هذا بين فريقى الاسلام اذ ذاك : قريش لها من فوزها بالأمر دفعتين بعد وفاة محمد ، أمل عريض فى أن تفوز ثالثة ، وان بدت الحال الآن على غير ما كانت من‌قبل بعد تفتح الأذهان لما سبق من سطوها على السلطان وابتزاز الحق من ذويه ، ولكنها ما زالت تأمل في الفوز على صاحب الحق كان تكرر انتصارها جملها تشعر أنهــا جديرة بالنصر ، وان لم تكن صاحبة الأمر !.. واهل المدينة من الانصار ومن لف لفهم من المهاجرين المنصفين لهم امل معقود على على وهوى أن يعود له ما سلبه اياه قومه طغيانا وموجدة ، ولكن الأمل المعقود

والهوى المنشود ألقت عليهما شورى عمر ظلالا قد لا تستطيع معها المقول أن تنفذ الى مصيرها المجهول ، أو تستطيع ، ثم لا تعود من نفوذها الا بغير المأمول !.

على أن الذى لا يحتمل الشك هو أن الكثرة الغالبة من الناس — وفيهم قريش — لم يكن يسعها الا الاقرار لابن أبى طالب بما يميزه ويرفعه درجات على بقية المختارين . وكان هذا واضحا لكل ذى نظرة عابرة بلا حاجة الى تكلف المقارنة أو محاولة التدليل . وما من أحد من الناس الا لعله الم بطرف من رأى عمر في النفر الستة ، ثم ما من أحد الا قد أخذته الحيرة من مسلكه ازاء على حين جمعه الى خمسة رأى هو انهم لا يثبتون أمامه عند الموازنة والتفضيل !.

قال عمر لصحبه وقد اجتمعوا لديه وهو طعين :

« .. ما أظن الا ان يلى أحد هذين الرجلين : على أو عثمان ، فان ولى عثمان فرجل فيه لين ، وان ولى على ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق .. »

مع ذلك فلم يوص للرجل الحرى بحملهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء ، بل آثر أن يدعه وشأنه للنفر الآخرين يستخلص منهم حقه لو استطاع !.. وانى لهذا الهاشمى أن يستطيع وقد مثلت قريش كلها في أنداده أو فى مناوئيه !.

ولكن هوى شعب المدينة كان مع على ، وما زالت قلوب أفراده مقيمة على ودها القديم له ، وان احدى عشرة سنة ليست بالستار الكثيف الذى يحجب عن ابصارهم منظر فاطمة الزهراء ، اذ خرجت تطوف بمجالس الأنصار تدعوهم ان يظاهروها لتسترد لزوجها تراث أبيها . تلك ليلة جديرة بأن تبقى على الزمن فى الأذهان ، وأن يثير ذكراها قوية ، لها كلسع الجمر فى قلوبهم ، ما كان من قعودهم عن نصرتها وهم يرون تراث نبيهم نهبا آل الى غير أهله . كم بدا طيف الزهراء فى هذه اللحظة كالشهاب الثاقب يشق ظلمة الأعوام !. انهم ليكادون يرونها الآن رأى العين ، تسير مرفوعة الرأس ، على جبينها يتألق شعاع ، قد نم محياها عن ملامح محمد أو كاد . ثم هذا الهواء المنثور حولهم يتحدث اليوم عنها ، وينطق بلسانها ، وقد مضت عليها فى قبرها أعوام حال فيها الموت بينها وبين الكلام . كأن الماضى انعكس ثانية على مرآة العيون والأسماع ، وكأن الزمن آب بعد ذهاب ! وكأن

ما ضمته النفوس من ذكرى مطوية قد نشر احداثا حية تسير فيها فاطمة بين اهل المدينة وهى تدعوهم وتقول :

« افتدعون تراث رسول الله يخرج من داره الى غير داره .. ؟ »

تلك دعوة صحت اليوم من سبات ، ومشت فى قلوب الشعب كخفقها تشعر بالحياة .. وما كان الناس حين ترددوا عن الانتصار لابنة رسول الله من خليفته الاول الا كالنائم على الشوك لا يلبث ان يحس وخزه ، وهم اليوم قد تفتحت عيونهم بعد طول رقاد ، ورأوا الحق القديم حيث كان ، والعدوان عليه لا يغيره تغير الاشخاص ، ولا اختلاف الزمان ..

ولكنهم بهتوا وهم ينظرون ، وقصرت ايديهم عن ان تنال من قلعة عمر !.. ان الرجل ليبدو وقد بنى سياجا من الفولاذ حول « ولاية الامر » لا تستطيع مشيئتهم اجتيازه ، ولئن كان الاصل فى الشورى ان يكون للشعب حق اختيار واليه ، فماذا ترك لهم عمر من حق الاختيار ؟.. واين شوراه الشكلية من الشورى الصريحة الاسلامية ؟ وكيف جرى بخاطره ان راى رجال – قد لا يعدون الثلاثة – يعادل آراء كل افراد هذا الشعب او ينطق بالسنتهم احمعين ؟

وفي الحق لقد كانت الشورى العمرية ضربا جديدا من العهود ، لا الى الشورى ولا الى الوصية ، ولم يكن لها مثيل قبلها فى الاسلام . وهى بنحوها هذا نوع من « الاختيار قبل الانتخاب » لولا انه سلب الشعب حق الانتخاب ونحله نفرا ستة ، مهما علت اقدارهم فليسوا يملكون الا ستة آراء !.. ولقد كانت لعمر – بلا ريب – مندوحة فى الشورى المثلى التى ينم عنها روح الدين وتدعو اليها شريعته التى سوت بين الناس . واذا كانت الاحداث لم تتح من قبل للمسلمين ان يأخذوا بأمثل نحو من انواع انتخاب الامير ، فقد عالجوا غب وفاة الرسول نحوا قريبا منه ، بأن اشترك فى اختيار ابى بكر كثير منهم ، لعلهم يمثلون بقية ذوى الآراء او اغلبهم على اقل تقدير ، وهم اليوم بعد انتشار الاسلام وركوز تعاليمه فى النفوس كان اولى بهم ان يلتزموا الشورى الحقة التى دعت اليها هذه التعاليم .

ولكن ابن الخطاب راى رايا وابرمه ، وانتهج بهذا نهج صاحبه ابى بكر ، فكلا الرجلين قد آثر ان يحول بين شعبه وبين مزاولته حق انتخاب واليه ، ابى الا ان يفرض – منفردا – على الناس رايه . ولئن

كانت هناك أسباب دعت الاول الى املاء مشيئته ، أو معاذير اضطر الثانى حيالها الى الجنوح للاملاء ، فانها جميعا لن تحجب عن الأذهان البون الشاسع بين نظرة الخليفتين ونظرة غريمهما المغبون الى حقوق الشعوب فى اختيار الولاة . وبحسبك ان تعود قليلا الىالوراء لتسمع كلمات على فى هذا الشأن ، حين أراد العباس وابو سفيان ان يبايعاه يوم وفاة رسول الله ... لقد ابى عليهما ما اراداه لانه يعلم ان راى الشعب لا يغنى منه رأى رجلين او بضعة رجال . ورفض الأكف التى احبت أن تقدم اليه السلطان ! وقال :

« لا والله !.. فانى أحب أن أصحر بها .. »

وكانت كلماته هذه مركبه الى خسران قضيته فى تلك الآونة من الزمان ، ولكنها مركبه أيضا الى العظمة التى تتسنم القمة ، لأنها — وان جارت على حقه فى الولاية — فقد اقامت الدعامة الثابتة لحق الشعوب فى تنصيب الولاة .

١٤

قصة الشورى جديرة بأن يتلكأ عندها برهة ذهن المتدبر لأن فيها — برسمها المعروف — شيات : فيها خروج على مبدأ الشورى الذى املاه على النفس البشرية حب الحرية قبل ان يمليه دين او تسنه قوانين ... وفيها تحكم الفرد في الجماعة اذ يلزمها أن تترسم رايا رآه فى نفر اختارهم وفق تقديره ان لم يكن وفق هواه ... وفيها تعسف التسوية بين ستة تجاهر المزايا والفوارق بأنهم ليسوا على درجة واحدة في شرعة المساواة .. وفيها تكتيل للقوى العصبية وللأحقاد القبلية وتجييشها صفا يرجح ميزانها ويمد لها في حبل الطغيان .. ثم فيها قبل هذا وذاك نكوص عن الراى الصائب الذى كانت تفرضه منذ البدء مصلحة الشعب ، رأى متعثر لم يكن قرين الصواب ...

ما كان عمر بالرجل الذى يعمل عفوا دون أن يهدف الى غاية من وراء عمله ، او بالغرير الذى يكل الأمور الى تصريف المقادير . ولكنه كان موفور الحنكة ، بصيرا بمواقع خطاه . ولو انه حين اختار اولئك

الستة كان طعينا يعانى من جراحه آلاما قد تحد من قدرته على احسان التفكير ، الا انه كان جلدا قويا على دائه الى حد لم يدع آلامه تعيي عقله .. ونحن عهدناه من قبل تغلب عليه الدفعة حتى لتركبه شططا ، فان اختياره أهل الشورى لم يكن عن دفعة بل جاء عن تريث وروية ، ليس ادل عليهما من انه كاد فى بادىء الأمر ان يوصى لعلى ثم عاد فنحاه عن فكره ونفض منه يده ..

ومع ذلك فما من حكمة يستطيع من يمعن التدبر أن يراها ماثلة وراء عهده بالشورى وحصره الخلافة فى ستة يختارون من بينهم اميرا .. وان عمر الذى تعودنا ان نرى له العذر ظاهرا فيما صدر عنه من امور تحسب عليه لا نستطيع ها هنا أن نلتمس له عذرا . فاذا قيل انه توسم فى النفر المختارين خلاصة المسلمين ، وانهم الأفراد الذين تلتقى عندهم مشيئة شعبه ، وان اختيارهم واحدا منهم يكون اقرارا من الباقين على كفايته ، وان هذا المختار سيكون له من الاقرار سند يلف حوله الناس ويجمع كلمتهم عليه فلا يشجر بينهم خلاف .. ان قيل هذا كله على انه الحكمة الماثلة وراء قصة الشورى ، والهدف الذى رمى اليه عمر اذ ذاك ، فان قائليه اذن قد فاتهم الصواب فى التعليل ولم يحسنوا التأويل !. وبحسبك أن تعلم ان عمر نفسه كان لا يرى هذا الرأى حين انتهى به الأمر الى ان عهد عهده ، بل قال لأصحاب الشورى وقد دعاهم اليه غداة الاعتداء عليه :

« انى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر الا فيكم ؛ وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض .. انى لا أخاف الناس عليكم أن استقمتم ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس » .

هكذا كان الرجل يخشى أن يختلفوا عند جلوسهم لانتخاب احدهم وكان محقا فى خشيته ، له من ماضيهم ومنازعهم وتقاليدهم الموروثة نبراس يضيء امامه المستقبل القريب فى اهم قد اجتمعوا لاتفاق وانفضوا على شقاق !..

اجل كان هذا ماثلا امام عينيه كانه صور مرسومة ، واضحة المعالم ، تفصح ولا تخفى وكان فى استطاعته ان يستعرضها جميعا فتبدو امامه كالمرايا ينعكس على صقالها الخلاف الوشيك الوقوع . كان جديرا بأن يرى فى اولاها طلحة متمردا على الخمسة الباقين،

لا يقر لأحدهم بالسبق عليه لانه عاش قبل اليوم عشر سنوات يحلم بتسنم الحكم وهو بعيد عنه ، فاحرى به ان ينتصر لنفسه وهو قريب منه !.. ولئن غاب طلحة عن المدينة ابان أيام الشورى فلقد كان المظنون فى البدء أن يحضر قبل الفراغ من الاستخلاف . فاى المواقف كان لعله واقفه لو استطاع الحضور ؟ ومن من بين الرهط الذين رضى عنهم رسول الله كان سيختار ؟. ان الصورة التى لا بد قد استعرضها عمر كانت تبين الرجل فى اجلى بيان ، وتبديه طامعا فى الخلافة من عهد ابن عمه أبى بكر ، متوقعا من يوم الى يوم أن يحين أجل الشيخ ، وان تقترب منه منيته قربا لا يرى معه بدا من ان يرعى حق القربة فيوصى لطلحة من بعده .. فأما وقد خالف أبو بكر ما كان مرجوا منه. وأدلى بسلطانه الى عمر ، فقد غضب الحالم الطامع وثار بابن عمه .

« ما أنت قائل لربك غدا وقد وليت علينا فظا غليظا تفرق منه النفوس وتنفض عنه القلوب ؟.. »

ثم لم تغب عنه امنيته لحظة ، وظل التفكير فى الهدف المرموق ديدنه حتى استطاع ان يتألف بعض الناس ويتخذهم حزبا يحلمون له !.. وكان لاجتماعه بهم سمات قد يظن معها التآمر والتدبير في الخفاء اذ حرصوا جميعا على التلاقى سرا والتحدث سرا ، ثم لا ينون كلما شاهدوه أن يقولوا له :

« .. لو مات عمر لبايعناك » .

وفي الحق لا يسع المنصف أن يجزم بأن طلحة كان ميالا الى ابتزاز سلطان عمر عنوة ، ولكن الجموع السياسية لا يمسكها دائما العقل ، وهى أحيانا لا تعدم ان يكون فيها من لا يقر التريث وامهال الأيام حتى تجيء له بهدفه ، بل يرى عليه حقا أن يتعجل ساعة تحقيق مأربه .. واذا كانت هيبة الخليفة اذ ذاك قد جعلت هذا الحزب يقرن البيعة لزعيمه بشرط وفاة عمر ، فانه شرط كفيلة به الأيام اذا فرغ العمر ؛ أو شرط كفيلة به دفعة شاب قد ينوء بالتريث !. والأحزاب السياسية عادة تتوسل بكافة الوسائل لنيل اغراضها ولن يعيى فردا منها ان أبطأ بغريمه الموت أن يصطنع له نوعا منه !.

على ان عين عمر الساهرة النفاذة استطاعت أن تهتك ستر السر وتكشف عما يدور في الخفاء . فارتقى المنبر وراح يحذر الناس .

« .. قوما يقولون ان بيعة أبى بكر كانت فلتة . وانه لو مات

عمر لفعلنا وفعلنا .. الا فاى امرىء بايع امرا عن غير مشـورة من المسلمين فانهما بغرة ان يقتلا !. »

ومع ذلك فان عينه تلك شاءت ان تغلق أجفانها دون هذه الصورة ودون أخريات فيها سليل بيت النبوة ، وفيها حفيد امية وآخرون كانوا نتاج الأحقاد القرشية .. لكأن الرجل آثر ان يغضى عن هذا كله وتركه لأفراد شوراه يتعثرون فيه ــ اما وقد أوصى كما شاء فبغير اتفاق هـذا الجميع على أصلحهم للأمر جاءت وصـيته ان لم نقل سبقت نيته .. ولغير الصالح العام كان عهده المعهود لأنه كان يعرف منذ البدء اى الستة كان اولى بأن يوكل اليه امر شعبه .. وعلى غير العدل المشهور عن عمر ، الموسوم به طبعه قام أس الاستخلاف ، وما على المتدبر ، وقد أعياه أن يرى خلف الشورى حكمة تتفق والمظنون بصفاء ذهن الرجل ورجاحة عقله الا ان يطرح جانبا قصة الشورى ، وذهن الخيفة وعقله ، وآيات عدله المأثور عنـه ، ثم يبحث في طوايا النفس البشرية عن الحكمة الخفية : اجل فما عمر الا بشر له هواه ، وقد ارضاه فأرضى قريشا كلها من ورائه لأنه وطد سلطانها بشوراه !.

هذه حقيقة ناصعة ليس للريب اليها سبيل ، ولقد كان عمر فيها رجلا من قبيله وقومه ، له مشاعرهم وان جنحت الى حيف ، وكانت وصيته وسـيلة لتنفيذ السياسة التقليـدية التى استنتها لنفسها قريش منذ وفاة الرسول ، ثم هى متممة للسياسة التى جرى عليها سلفه ، والتى جرى من قبلهما عليها قومهما حيال بنى هاشم بضعة اجيال .. ولا أدل على انها كانت طابعا وسموا به ونهجا التزموه ، من قول على عنهم :

« انى لأعلم ما فى انفسهم .. ان الناس ينظرون الى قريش ، وقريش تنظر فى صلاح شأنها فتقول : ان ولى الأمر بنو هاشم لم يخرج منهم أبدا ، وما كان فى غيرهم فهو متداول فى بطون قريش » .

١٥

كان طبيعيا أن تفشـل الشورى من اول اجتماع ، وأن يحتـدم الجدال بين أصحابها مسعرا حسبما اوحى طبع كل منهم ، أو طمعه ، أو شـعوره بحقه أن يطلب الأمر لنفسـه . وما كان لخمسـة اختلفت منازع أهوائهم ان يلتقوا عند رأى .

وكان أبى طلحة الأنصارى ، تنفيذا لمشيئة عمر ، واقفا قرب الدار يرقبهم وقد صف جندا على راسه المقداد يمنع عنهم الناس . وكان الشعب ينتظر فى لهفة ما سوف يسفر عنه الاجتماع ، والفضول يأكل قلبه حتى ليوشك أن يقتحم البيت لولا هذا الحرس الشاكي السلاح . ولم تكن هنـاك بادرة تنبىء عن قرب الاتفاق ، بل كلمـا مر الوقت اتسعت رقعة الجدل وعاد أصحاب الشورى القهقرى الى حيثما بدأوا الحديث والحوار . ومرارا تكأكأ افراد من العامة على المكان عسى ان تلتقط آذانهم كلمة أو كلمات .. ومرة ازدلف عمرو بن العاص فجلس بالباب ثم تلاه المغيرة بن شعبة : ذانك الداهيتان أرادا أن يرفعا من منزلتهمـا في عيون الشعب بهـذا القرب بعد أن عـداهما اختيار ابن الخطاب !.. على أنهما مع هذا لم ينعما بالمكانة الموهومة طويلا لأن ابن ابى وقاص قام اليهما يقول بغلظة وهو يردهما عن الباب :

« تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى أهل الشورى !.. »

ولكن الفضول الذى حملهما ، وحمل الكثيرين من الأفراد ، على المكث قرب الدار ، لم يكن مرده الشوق وحده لمعرفة الخليفة الجديد ، بل كان هناك ما هو أولى باجتذاب اهتمام الجماهير وقد قل فيهم من لم يعلم بنبأ الأمر الذى القى به الخليفة الراحل الى المقداد وابى طلحة حين قال :

« .. اذا وضعتمونى في حفرتى ، فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا منهم . وقم على رءوسهم ، فان اجتمع خمسة ورضوا رجـلا وأبى واحد فاضرب رأسه بالسيف . وان اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رأسيهما . فان رضى ثلاثة رجلا

منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبد الله بن عمر .. فان لم يرضوا ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس » .

ما من احد من الذين تكأكأوا حول الدار الا مرت بذهنه صورة راس او رءوس توشك ان تطيح على حد سيف فجلس يترقب حلول ساعة الجلاد !.. اجل ، فلهذا تربص ابو طلحة ، وتهيأ المقداد وصف جنده وبه رسم عمر الناحية التى تتمم بمنفذ في الموت ما كان من عنفه المشهور في الحياة !..

ومع ذلك فالارهاب سلاح وقتي ضعيف لا يلبث ان ينثلم حده ، وهو ليس دائما سبيل الرضوخ والتسليم . بل لعله اولى به أن يزيد من شكاسة النفوس حينما تلوح لها الفرصة لانه يجعلها تشعر حياله بهوان تأباه . وقد اعيى القوة ان تملك حرا وان اصابت منه اذ هى ضرب من اللغات غير مفهوم عند الأباة .. وانما منطق الأحرار الحق .

وكما بقي الجمهور خارج الدار نهبا بين القلق والفضول ، فقد بقي الخمسة المجتمعون نهبا لآرائهم المتباينة لا يقرون على قرار . وطال الحديث بينهم فيما لا طائل تحته ، كلما جاء احدهم برأى سمع نقيضه من لسان غيره . ولو انهم جنحوا جميعا الى الهدى ، وتخلوا عن اغراضهم لحظة ، لتبينوا ايهم اجدرهم بامرة الناس ، ولآثروا صلاح الأمة على صلاح الأشخاص ، ولوسعهم بلا كبير عناء أن يصلوا الى الغاية المرجوة برد الحق الى صاحبه الذى حرمه مرتين .. ولكنهم كانوا بشرا قبل كل شيء ، يعيش فيهم حب الذات وتميل بهم الأهواء . واذا كان الماضى قد ألفت آثاره — التى علقت بقلوبهم — بين عثمان وسعد وعبد الرحمن ، فان عمر بن الخطاب اذ قرنهم فى الشورى بعلى ، قد ولد فى نفوسهم نوعا من الشعور جعلها به ترتفع فى أعينهم الى ما فوق القدر الذى عرفوه لها من قبل ، وما كانوا اليوم بعد شعورهم هذا ليقروا لابن أبى طالب بالتقدم والفضل !..

ان ها هنا — بلا ريب — اناسا غلبتهم على الحق الاهواء ، ومن القدم كان الهوى آفة الحكم ، ولولا ما يعتور نظرة الانسان الى نفسه من تحيز لبانت لهم أسباب تدعوهم الى التأخر عن صاحبهم وترك السبيل له .. وليكن سعد محاربا فذا وجنديا أمثل اتسعت رقعة الدولة الى المدى الذى وصله حد سيفه ، ولكنه ليس الرجل الذى يستطيع ان يسوس

أمة بعد ان عجز من قبل ومن بعد عن حكم جزء واحد من هذه الامة ، حتى عزله مرة عمر ، وعزله ثانية خلفه .. وليكن طلحة كبيرا فى قومه مسموع الكلمة ، قد حلقت به اطماعه الى السماك ، ولكن مطامع المرء لا تنبىء عن قدره ورفعته بل قد تنبىء عن ضعفه وآفته . وقديما قال فيه ابن عمه أبو بكر :

« .. أما والله لو وليتك لجعلت أنفك فى قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذى يضعها !.. »

... ولتكن سابقة الزبير فى الاسلام ، وصلته برسول الله اذ هو ابن عمته صفية بعض ميزته ، ولكنه فيهذا المقام كان جديرا به الا ينسى ما ينأى به عن حكم الناس وقد اجمله له عمر حين قال :

« .. اما انت يا زبير فوعق تعس .. مؤمن الرضا كافر الغضب . ولعلها لو افضت اليك ظللت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير!. »

.. وليكن لابن عفان من كرمه ، وحلمه ، ووصله رحمه ما قد يؤهله لان يسود اسرته ، ولكنها صفات تجنح به دائما عن حد الاعتدال الى التطرف والمغالاة حتى تنقلب غلطات ، وبها تعثر بعد ان انتهى الأمر اليه ، وعلى بعضها لقى مصرعه . واللين احيانا سجاحة ولكنه فيه كان ضعفا معلوما غير خاف على أكثر صحبه ، وفيهم ابن الخطاب حتى خشى مغبته عليه فقال له :

« كأنى بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها اياك ، فحملت بنى امية وبنى ابى معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفىء ، فسارت اليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحا !.. »

.. وليكن ابن عوف صورة صادقة من كلمات عمر عنه :

« .. ولو وزن نصف ايمانالمسلمين بايمانك لرجح ايمانك به ..»

ولكن الايمان وحده لا يقدمه ما دام قد جمع اليه الضعف الذى يرتد به الى نهاية صفوف المستخلفين .. وهذا وصف ابن الخطاب قد جاء فيه بفصل الخطاب :

« ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك » .

لم يكن هذا كله خافيا على الرهط المجتمعين وقد جلسوا للحوار والنقاش ، وظلوا يبدئون ويعيدون ثم لا يصل بهم حديثهم الى الحل المنشود المرضى عنه اذا قيس بمقياسالحق . وما دامت النفوس منطوية على هوى فقد تجنبت الجادة وخرجت عن الهدف المحمود .

اما علي فقد استوعب كل كوامن قلوب زملائه ، وعرف ما تضم بلا حاجة الى كلمات تنمقها افواههم ويدعون بها للاتفاق . وما كان بالذي يغره منطق اللسان وقد علم مشاعر الوجدان .. انهم الآن يضعون أقدارهم في الأخرى ، بل يزنونه بعواطفهم ؛ وللعواطف فى نهاية الأمر الرجحان !

ولكنه مع ذلك لم يشأ ان يسير واياهم فى طريق الألفاظ ، بل تركهم قبله يتحدثون مداورين ، يحومون حول القضية التى اجتمعوا لها ولا يبدى احدهم حجة ترفع شأنه وتثب به الى مقعد الأمارة .. انتهى حديثهم الى نهاية هى البداية ، ووقف هو يتحدث بصراحته فى لب الموضوع .

قال لهم :

« الحمد لله الذى بعث محمد منا نبيا ، وبعثه الينا رسولا .. فنحن بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، وامان اهل الأرض ، ونجاة لمن طلب .. لنا حق – ان نعطه – نأخذه ، وان نمنعه نركب اعجاز الابل ولو طال السرى .. لو عهد الينا رسول‌الله عهدا لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا لجادلنا عليه حتى نموت ، ولن يسرع احد قبلى الى دعوة حق وصلة رحم » .

وكذلك بهذه الكلمات القصار رسم مزاياه ، ورسم خطة العمل التى آلى أن ينتهج دربها ان منعوه او اختاروه ، وقطع قبل هذا وذاك الألسن اللاغطة التى قد تدعى على رسول الله وصية لابن عمه ، فكان بهذا الحسم – الذى لا يدع مجالا لتأول ولا ادعاء – رجلا يؤثر الصدق ولو جاء اليه الصمت – ولا تقول الكذب – يملك الأرض .. اما وقد جاء منطقه صورة صادقة لقدره ، ولأمانته المثلى عند رسم التاريخ ، ولحرصه على وحدة أمته وان نزعوا حقه ، فقد بقى عليه اذن أن يبصرهم بسوء مغبة ما يعلم انهم مقدمون عليه عسى يستطيع ان يجنبهم التردى فى حمأة ستدفعهم اليها الاهواء .. ما كان انفذ بصيرته وأصدق نظرته !. لكانما كان فى تلك اللحظة يتلو من كتاب مفتوح سطور الفتن والمنازعات التى غرسوا بذرتها فى أيام الشورى ، لتجنى الأمة – بعد بضعة أعوام – ثمرتها المرة ..

قال لهم محذرا وقد رنت عيناه الى بعيد :

« اسمعوا كلامى .. وعوا منطقى .. عسى ان تروا هذا الامر

من بعد هذا المجمع تنتضى فيه السيوف ، وتخان فيه العهود ، حتى تكونوا جماعة ويكون بعضكم ائمة لاهل الضلالة وشيعة لاهل الجهالة .. »

ولو انهم آمنوا اذ ذاك بقوله ووعوه لكان خيرا لهم وللأمة جمعاء وللاسلام ولكنهم ابوا ان ينصتوا لمنطقه حتى صدمهم الزمن بحقائقه وراوا انفسهم ائمة اشياع جردوا الأسياف وظاهروا الخلاف !..

١٦

اشرف ابو طلحة الانصارى على الجمع المتفرق الآراء ، وقال لهم وقد هاله ما ظلوا عليه من خلاف :

« قد كنت لأن تدفعوها اخوف منى لان تنافسوها !.. »

وهز الرجل راسه هزة الاسف وخيبة الرجاء .. ولكنه لم يدعهم حتى أوضح لهم عزمه على ان يلعب دوره لحرفه :

« ... لا والذى ذهب بنفس عمر !.. لا ازيدكم على الايام الثلاثة التى امرتم ... »

وأخذت فترة الزمن تضيق حلقتها ، والساعات تفر سريعا من أيديهم ونقاشهم عن الأمير المرجو حيث كان ، لا يتقدم خطوة . وراح الأجل الذى ضربه عمر للاختيار يتقلص عنهم .. وحبل الخلاف دائما طويل ممدود .

ثم جاء عبد الرحمن من لدنه بالحل الذى ظنه سيصل بهوباصحابه الى الغاية ويحسم النزاع .. قال لهم وقد اعياهم جميعا منطق الجدال .

« أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها ، على ان يوليها خيركم ؟ » .

فتطلعوا نحوه مبغوتين ، وعقدت الدهشة السنتهم آونة فلم يبادروه بجواب على سؤاله الغريب .. افكان هذا حلا موفقا حق التوفيق ؟..

ما من رجل يعلو قدر نفسه على اقدار منافسيه يستطيع ان يأخذ نفسه بالموافقة على الراى المعروض : ذلك انه بخروجه من

الأمر ـ سيهدد اولا حقه ثم يدعه مباحا لآخر ادنى مكانة راقل قدرة منه على الولاية . فاذا كان أمينا لواجبه ، ولحق امته عليه ، فانه اذن قد نكل عن الواجب وخان الأمانة . وليس لعلى الى احدى النقيصتين سبيل ! ..

وكأنما راى صاحب الاقتراح فى صمتهم ما يكاد ان يهدد اقتراحه بالخذلان ، لأن موافقة احدهم عليه لن تكون الا على حساب كبريائه ان لم تكن على حساب حقه . وما كان بالخافى على عبد الرحمن ان يعلم ان اجدر اصحابه بالأمر لن يخرج نفسه منه فيضيع طواعية حقه المعلوم وان الباقين لابد ستدعوهم عوامل نفسية واخرى زمنية الى التشبث بحق موهوم .

راى هذا عبد الرحمن وايقنه وهو يعيد سؤاله ولا يسمع الرد عليه . وخشى ان يفشل حله الذى أوحى به ضيق الزمن ، فلم يجد بدا ـ لينقذ وينفذ اقتراحه ـ من أن يمشى على كبريائه هو عساه يستطيع أن يحملهم على القبول .

قال بعد قليل :

« انا انخلع منها . »

فما نطقها حتى هتف به عثمان :

« أنا اول من رضى »

وتتابع بعده رضاء الباقين .

ولكن عليا وحده ظل صامتا لا يكشف عن قبول . وكيف ياترى يسمه وهو الخاسر بهذا الحل الجديد على التأكيد ؟.. ان عثمان : الخصم الذى يؤبه له بين الجمع قد توطد الآن موطىء قدميه لأن مصيره ـ قبل الاقتراح ـ كان موكولا الى خمسة قد يختلف بعضهم عليه ، فاذا به الآن موكولا لفرد واحد معلوم ميله اليه !..

ومع ذلك فدأب ابن ابى طالب الا يتنكر لمبادئه وان راى استمساكه بها يجر عليه الوبال ... وما دامت هناك كثرة اخذت باقتراح عبد الرحمن فقد وجب ان يرضخ لمشيئتها ويأخذ به ، ثم له ـ بعد هذا ـ أن يتحرز للعدالة المفروضة فى الرجل الذى قبلوا ان يكون حكما يقضى بينهم بما يراه .

قال حينئذ يستوثق من صاحب القول الفصل :

« أعطنى موثقا لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم، ولا تالوا الامة ... »

فاجابه عبد الرحمن :

« على ميثاق الله »

ومضى عنهم يستشير الرءوس والاشراف فى امر رجلين اثنين من أهل الشورى ، قر فى باله انهما المتنافسان : هما على بن ابى طالب وعثمان بن عفان .

افكان هذا ميزانا معدلا ؟... واين راى جمهور الشعب والعامة ، وهم الكثرة الغالبة فى الأمة ؟ .. ومن يا ترى من رءوس تيم كان سيرضى بعلى منافس شيخ تيم ؟.. ومن من أشياخ أمية كان سيقبل سيادة غريمتهم الهاشمية ؟ ومن عسى من زهرة كان قمينا بأن ينكل عن عثمان صهر رجلهم عبد الرحمن ؟. ثم من لعلى برضا بنى عدى ؟ .. من له وقد رات شيخها عمر قد هم أن يوليه ثم عاد فنكص ، كأنما ذكر — فى اللحظة الأخيرة — منقصة فيه توجب العدول عنه ؟..

* * *

... وطلعت الليلة التى تكمل بها المهلة ، وتأرجحت دقائقها ثقيلة على النفوس المنتظرة فان هو الا صباح ... وكان ابن عوف قد ارق واقض مضجعه الفكر فانطلق فى دروب المدينة الهاجعة يســير ، حتى اذا بدا له فى نهــاية المطاف باب ، ذهب يطرقه على ساكنيه ...

واستجاب له بعد قليل ابن اخته المسور قد هب على الطرقات من مرقده وما زالت جفونه يثقلها النوم .

« ... اراك نائما ولم اذق هذه الليلة كثير غمض ؟ »

« انى قائم معك انى شئت يا خال » .

« فانطلق فادع الزبير وسعدا ... »

وانفرد هو فى مؤخرة المسجد بصاحبيه — وقد لبيا دعوته — يحدث واحدهما بعد الآخر ... قد راى انه اجدى على غايته أن يستطلع رأى كل منهما وحده ، فلما عرف ما اراد ، قال للأول :

« خل ابنى عبد مناف وهذا الأمر »

ذلك انه ايقن أن القوم لا يعدلون بعلى أو بعثمان ، فلم يعد هناك مجال لمنافسة يعقبها خلاف ينشب بين الباقين . وكان هذا رأى

عمر قبله ، صرح به ولم يكتمه عن اصحاب الشورى ، ولكنا لا ندرى اكان عبد الرحمن قد أخر الاخذ به حتى يستوثق ، أم يا ترى لانه ظن — فى البدء — نفسه حقيقا بالخلافة ثم عاد فخذله الظن الآن ؟ . .

وقال له الزبير وقد حميت فى عروقه دماء القربى :

« نصيبى لعلى ... »

فمضى الى سعد يشرح له غرضه فى اللقاء ، ويحضه أن يدع التنافس مقصورا على ابنى عبد مناف . ثم قال له وهو يحاول أن يختم الحديث :

« ... انا وانت كلالة ، فاجعل نصيبك لى فأختار »

وكذلك وضح ان مقياس هذا الاختيار الخطير لم يكن قدرة الشخص الجدير بأن يقع عليه الاختيار .. ولم تكن آراء ناخبيه فيه توجهها مكانته او يوحيها فضله بقدر ما كانت قرابتهم منه او صلات ارحام بعضهم ببعض قادرة على التوجيه . وبحسبك أن رايت الزبير يمالىء عليا للقربى ، وعبد الرحمن يأخذ من سعد نصيبه فىالانتخابات لانهما كلالة وابنا عم .. بحسبك هذا لتعرف ان الشورى لم تكن ميزانا وزن فيه التفضيل والتقديم بالقسطاس المستقيم !..

وقال سعد يجيب ابن عمه :

« .. ان اخترت نفسك فنعم ؛ وان اخترت عثمان فعلى احب الى .. »

ولكنه على اى حال تفضيل لا يرجح كفة المقضى عليه بالخسران ما دام يبقى بعده الراى الذى يخسرها ، وهو راى عبد الرحمن !..
ثم هو أيضا تفضيل موقوت بأجل لانه كان رهينا بعاطفة عابرة متوهجة كلمعة البرق ثم خبت في لحظات . ذلك أن سعدا ذكر فى مقامه هذا أن عليا — وقد خشى منه الميل الى عثمان — جاءه من قليل وقال :

« .. اتقوا الله الذى تساءلون به والارحام ، ان الله كان عليكم رقيبا .. اسألك برحم ابنى هذا من رسول الله ، وبرحم عمى حمزة منك الا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا على ، فانى ادلى بما لا يدلى به عثمان » .

أجل كان سعد — فيما بدا — ما زال واقعا تحت التاثير العابر الذى ولدة فى نفسه هذا الحديث . ولكن الاثر لم يلبث حتي ؛ ابله ولما

يزايل هو موقفه امام عبد الرحمن !.. وعاد قلبه ثانية سيرته الاولى ، لأنه ما نطق بكلماته لابن عمه حتى سارع يردفها بهذا الاستدراك :

« .. أيها الرجل ، بايع لنفسك ، وارحنا ، وارفع رءوسنا ! »

فما اعجبه اذن من كلام يؤيد به عليا ثم يعدل عنه في آن !..

واجابه عبد الرحمن ولم يعد بوسعه أن يستجيب لتحريضه :

« انى قد خلعت نفسى منها على ان اختار ، ولو لم افعل وجعل الخيار الى لم اردها » .

وبهذه الكلمات كشف الرجل عن خبيء نفسه ، ودل على ضعف ثقته ضعفا لا يستطيع معه تحمل تبعة حكم الناس .

وعاد بعد قليل يستانف الحديث :

« .. يا أبا اسحق . انى رأيت كروضة خضراء كثيرة العشب ، فدخل فحل لم ار قط اكرم منه ، فمر كأنه سهم لا يلتفت الى شيء مما في الروضة . ودخل بعير يتلوه فاتبع أثره حتى خرج من الروضة.. ثم دخل فحل عبقرى يجر خطامه ، يلتفت يمينا وشمالا ويمضى قصد الأولين حتى خرج .. ثم دخل بعير رابع فرتع فى الروضة — ولا والله لا أكون الرابع ، ولا يقوم مقام ابى بكر وعمر احد .. »

فرمقه سعد بنظرة محذرة ، وقال له :

« انى أخاف أن يكون الضعف قد أدركك » .

❊ ❊ ❊

وهكذا — مرة أخرى — تحدد الرؤى — والأحلام اتجاه الأشخاص ومع ذلك فمنذا لا يقول انها ليست وحيا يوحى بقدر ما هى خلجات المشاعر التى تملكهم ؟.. انها بلا ريب الصدى لما في النفوس والصورة المنعكسة البادية من خباياها ، وليس لهـا — ها هنا — تأويل ظاهر أقرب الى الصواب سوى أن عبد الرحمن بن عوف ، بعد اعمال فكر ، تبين بوضوح صدق راى عمر فيه فعلم الآن عن يقين انه حقا اضعف من أن يسوس دولة ، ولم تعـد له فى نفسه ثقة باقيـة تحمله على الطموح الى خلافة سلفيه .. وكعذر عن تجنبه تحمل تبعة الامرة التى آمن بأنهـا عبء يعييه ، أسعفته واعيتـه برؤياه ليراها تعيى أيضا كل أمير سواه !..

١٧

مال عمرو بن العاص على أذن على ، وهمس له :

« يا أبا الحسن .. ان عبد الرحمن رجل مجتهد ، ومتى اعطيته العزيمة كان ازهد له فيك ، ولكن الجهد والطاقة فانه ارغب له فيك .. »

وتفكر على مليا ثم ابتسم لنفسه فلم يأت الرجل بجديد .. على نحو ما ، هذا رأى يتفق وميله لأن المبدأ الذى يستلهمه كان حرية العقل وطلاقة التفكير . وعلى قدر جهد الراى من حكيم بصير يأتى الخير ، وليس على قدر اسلاس القياد جزافا لرأى الغير ..

ثم مضى ابن العاص الى عثمان بن عفان يناجيه :

« يا أبا عبد الله .. ان عبد الرحمن رجل مجتهد ، وليس والله بمبايعك الا بالعزيمة ، فاقبل منه » .

كذلك راح الداهية يوجه وجاء بوجه . ونصح لثانى الرجلين أن يستمسك بما نصح اولهما أن يقلع عنه !..

افكان عمرو ذكيا إلى الحد الذى يستطيع معه أن يقرأ ما فى قلوب الرجال الثلاثة ؟..

كان قمينا ، بحق ، ان يعلم سلفا راى عبد الرحمن في تردده وضعفه وقلة ثقته بنفسه .. وان يعرف ان الضعيف دائما هياب ، لا يسلك السبيل الا اذا امه سواه . واذا وثق بهذا فقد آمن ان ابن عوف سيتخذ من يد غيره تكأة يستند اليها ليأمن العثار ، ويشق بعونها سبيله .. وهذه اليد أسعفت بها رؤياه ..

نعم أسعفه حلمه وزوده بما لا يعجز بعده عن الاضطلاع بالمهمة التى وكل امرها اليه . وما عليه الا أن يغمض عينيه آونة يستعيد فيها الرؤيا الى ذهنه ، ويلمح الروضة الخضراء ، ويلقى ببصره الى الفحل الكريم حتى يقطعها ، ثم يستقبل من بعده البعير الأول ، فالثانى على اثره يمضى قصد سابقيه .. حتى اذا اكتملت لديه الصورة بذلك الذى رتع فى الروضة فاساء حيث أحسن الآخران . سارع ففتح عينيه ليبعد منهما ظله .. وما دام هذان قد نهجا نهجا مباركا فليكونا

اذن مثـلا أعلى لما يمكن أن تقاس به كرام الاباعر !.. وليحفظ دائما صورتهما فى مخيلته ، وليتوخ ان يكون على غرارهما ذاك التالى المرجو ويلزم نفسه بانتخابه خلفا لهما يتأثر خط سيرهما خطوة خطوة !..

كان قمينا بعمرو ان يقرا هذا فيما جبلت عليه طبيعة ابن عوف من تردد وضعف . وكان من الذكاء بحيث يجعل من هذه النفس ، التى تنقصها الثقة ، منظارا يرى من خلاله ما سوف يكون من تصريف ذينك الرجلين المتنافسين : على وعثمان ، حسبما يوحى لهما خلقهما ويدعوهما استعدادهما النفسى الى تناول الحياة .. اما عثمان فأمره ميسور لأنه لا يكاد ان يكون نسخة ثانية من ذلك الحكم الضعيف فأحرى به أن يتأثر خطاه .. وأما على فان اعتداده بنفسه ، وفكره الطليق ، وتكوينه الخلقى الذى صاغ شخصيته على اساس من القوة متين — كلها نمت مقدما على انه لن يلعب امام سواه دور الظل !..

ولكن هذا ليس وحده دليل الذكاء فى ابن العاص ، ولن يكون عمرو ابنا لأمه لو خطفت امام عينيه فرصة تبرق ولم ير على التماعها مصلحة يلتقطها ! وفى العام الماضى استطاع هذا الجزار القديم أن يحول أنفه دائما ليستقبل مهب الريح ، ويتنسم ما فيها . وكان دائما ككلب الصيد يشم الفريسة ثم يتحرك بعد هذا الى حيثما تسير .. وهو اليوم لم يعد طبعه ، ولم تتخل عنه سليقته ولا داب التاجر الذى يزن الأمور بميزان الذهب قبل اى ميزان .

اجل ساير عمرو طبعه . والقى بنصحه للجهة التى أرشدته اليها الريح ! — القاه الى الرجلين ، المتنافسين اللذين لن يكون غير أحدهما بعد قليل خليفة المسلمين ويكون ابن العاص فى نظره المشير الأمين ! وهو بهذا قد ضمن المثوبة ممن يملكها ، وليس يفيده حنق المنقلب بالخسار ..

وكذلك راهن ابن النابغة على الجوادين فى آن ..

***

واوشكت الليـلة الباقية من مهلة عمر على زوال . واتت لحظة الفصل او هى تطرق الباب ، فانطلق عبد الرحمن الى ابن اخته ..

قال له :

« يا مسور .. اذهب فادع لى عليا وعثمان » .

« بأيهما أبدا يا خال ؟ » .

« بأيهما شئت » .

ولم يغب الرسول سوى قليل ، ثم عاد بالرجلين الى المسجد ، وكان عبد الرحمن قائما في القبلة فتريثوا به حتى اتم ، فلما لمحهم سارع منطلقا الى ناحية ابن أبي طالب لا يريم .

كاد لهذه اللفتة أن يغيض أمل عثمان !. ولكنه لا يملك أن يحتج او يثور ولا يملك ان يدعوه ليبدأ به ، فليدع اذن ما بدا من ميل عبد الرحمن — او ما ظنه هو ميلا — الى منافسه .. ليدع الرجلين يتساران .. وليمل هو الى آخر المسجد يقبع فيه مستحييا ، محاولا ان يخفى قدر وسعه ذلك اللون الباهت الذى رسمه على محياه شعوره بقرب الاخفاق .

وقال عبد الرحمن لعلى وهما بمنحى :

« .. انى قد سألت عنكما وعن غيركما ، فلم اجد الناس يعدلون بكما » .

ثم تمهل برهة عاد بعدها يستأنف الحديث :

« يا ابا الحسن .. هل انت مبايعى على كتاب الله ، وسنة رسوله، وفعل أبي بكر وعمر ؟ » .

فرمقه على بنظرة نفاذة ، وقال ولم يتردد :

« بل على كتاب الله وسنة رسوله ، واجتهاد رايى » .

كان هذا هو الجواب الحاسم ، الجدير بأن يلفظ به من له قوة خلق على واعتداده بنفسه ، ولن يضيره أن يفقد صولة أو ملكا بقدر ما كان يضيره لو آثر ان يصل الى السلطان عن غير طريق حرية رايه وجهره بما يعلم أنه حق أبلج لا تعتريه شبهة ، وما كان لامرىء أن ينكر على أبي الحسن علمه وحكمته ، ونضج آرائه وغيرها من سجاياه المثلى التى تؤلف من بينها أقوى دعامة يمكن أن يستند اليها حكم فاضل قويم ، ما كان لأحد أن ينكر عليه هذا أو بعضه وان كان أبا بكر ، أو كان ابن الخطاب بعد أن خبرا فيه نواحيه واستعانا دائما برايه الصائب أثناء اقتعادهما أريكة الحكم ..

ومع ذلك فان عبد الرحمن شاء أن يبدو كمن ينكر عليه ما أقر به صاحباه وآثر أن يسبق الاختيار باختيار التزم فيه نهجا لم يرسمه له

عمر قبل موته ، ولم يدع الى الأخذ به منطق مقبول ، جاء من لدنه بشرط للبيعة كان أولى به أن يعفى عليا منه ، وان وجب ان يلزم به كافة الناس سواه ، ولكن هكذا شاء الحكم العدل لانه جاء وفى خاطره بعيران يحاول أن يجد على نحوهما ذاك الذى يجمل به أن يتأثرهما كما لم يرسم — وان أوحى — الحلم !.. شاء هذا عبد الرحمن ، فضرب به مثلا عجبا لأصل بتبع فرعه ، وحسناء وخيالها ، هو يبرزها نابضة بالحياة وليست هى التى تعكسه صورة صامتة على صقال مرآة !..

❋ ❋ ❋

ماذا عسى كان ابن عوف يريده بشرطه ؟. ليحذر السياسة العليا للدولة ؟ — ذاك مرده بلا جدال الى صاحب الأمر ، له طريقته وله خطة العمل التى يراها كفيلة بأن تسير آلة الحكم بانتظام الى الأمام ، وهو رهين أبدا بالظروف والأوقات ، لكل زمن نهج تعالج به مشكلاته ، قد لا يستقيم به علاج مثيلاتها فى زمان سواه .. ولئن بدا لعبد الرحمن أن يثبت من الأسس التى يزمع على أن يقيم عليها حكمه أفلم يكفه أن يكون ذلك الأساس كتاب الله وسنة الرسول ؟.. وأى دستور وضعى يستطيع ان يسع ، من النظم التى تضىء العدل وتضىء القوة ، ما وسعه دستور السماء ؟.. وفيم اذن ولم الشرط بتأثر خطى أبى بكر وعمر ما دام المشروط عليه قد أقر على نفسه بالتزام أوضح نهج واقوم تشريع ؟..

ولكن ابن عوف — فيما يبدو — لم يرضه هذا الاقرار بالتزام الأصول بقدر ما كان يرضيه ان يجمع اليه التزام التفاصيل ... وعجب أن تكون هكذا نظرته ويكون شرطه ، هو العالم بأن الدستور الالهى فيه غناء عن فعل ذينك الشيخين ايما غناء ؛ وانهما آدميان ، بلا قداسة ولا تنزيه ، قمينان بالأصابة وبالوقوع في الأخطاء . ولو أن الرجل تفكر قليلا لعلم استحالة قبول على شرطه .. وكان حريا به حقا أن يتفكر لو انه قدر سياسة حكم الدولة حسبما اشارت عليه رؤياه . اغمض عينيه عن الواقع الملموس وعاش في اغفاءة حلمه ! ونسى فى هذه الآونة — التى نصبه القدر فيها صانعا للحكام — أن

بعيريه الأمثلين لم يتأثر ثانيهما خطوات سابقة تمام التأثر ، بل خالف نهجه ، وخالف ايضا نهج رسول الله فى كثير من الأمور .. ولو كان عبد الرحمن قد محص رؤياه حق التمحيص لعلم انها غررت به ولم تشر عليه بصواب .. على اى حال ، لا بد ان يكون قد عرف أن رجلا جاء ذات يوم الى عمر بن الخطاب يقول :

« يا امير المؤمنين .. عنبت أمتك منك اربعا . ذكروا أنك حرمت العمرة فى اشهر الحج ، ولم يفعل ذلك رسول الله ولا أبو بكر ، وهى حلال .. وذكروا انك حرمت متعة النســاء وكانت رخصة من الله ، نستمتع بقبضة ونفارق عن ثلاث .. وذكروا انك اعتقت الأمة — ان وضعت ذا بطنها — بغير عتاقة سيدها .. وشكوا منك نهر الرعية وعنف السياق » .

هذه امور — على هوانها — تومىء الى ناحية من عمر اغفلتها رؤيا عبد الرحمن !.. ولكنا ها هنا لا نناقش الخطأ والصواب فيما رآه ابن الخطاب . بل نلمس الدليل الحاسم على انه راى حقا لعقله عليه فتركه يعمل ويأتى بالنظرة المخالفة نظرة سلفه الى الأمور ما دعا الى هذا تغير الظروف واختلاف الأحوال . وحتى تلك النواحى التى لها خطرها من السياسية العامة للدولة قد امتدت يده اليها بالتبديل والتعديل ، وتناول منها النظام المالى المعروف فهدمه واقام آخر مغايرا على انقاضه ، لم يمنعه عن ذلك علمه برأى رسول الله وعمله ، أو عمل خلفه ابى بكر بذلك المبدأ القديم .

كان عمر فى هذا حاكما له سياسته التى آمن بصلاحيتها ، فلم يقف امام سلفيه مكتوف اليدين او معقود اللسان ، ولم يدع الماضى يحول بينه وبين غرضه . بل سار قدما الى شوطه ولما ينصرم من الوقت الا قليــل على وفاة أول خلفاء رســول الله . وجاءت السنة الخامســة عشرة من الهجرة بنحو جديد لتقســيم العطاء على الناس ، لم ينحه محمد او ابو بكر بعده ، فألغى عمر المســاواة — اساس التقسـيم — وفرض الأعطيات بدرجات .

فاى السياسات اذن اراد عبد الرحمن ان يلزم بها عليا قبل أن يدلى اليه بالبيعة ؟ وعلى اى الدساتير المستقاة من فعل الخليفتين الســابقين كان عليه أن يسير ؟ وباى الشــيخين كان يقتدى والأمور

لديهمـا تختلف منازلها هكـذا وفق ما يوحى اليهما من اختـلاف النظرات والآراء ؟..

اما انها اذن لرؤيا حجبت كثيرا من الحقائق عن ذهن ابن عوف حين اراد ان يلزم عليا شرطه !.. ام هو يا ترى قد آمن بأنه لن يقبل شرطه ، فشرطه !..؟

١٨

الأفق البعيد كاد أن يبدو صافى الزرقة من وراء ستار رقيق شابه سواد ، والأنجم غاب عنها بريقها ، كعيون وسنى ، والسكون تحت السماء أضجره النوم ...

وكانت رمال المدينة صديا ، يفيض فيهـا ــ كقطرات مياه ــ دبيب الأقدام القليـلات التى مشت على الدروب .. وبين آونات كانت ترن فى الصمت من هنا ومن هناك جلاجل قافلة تمر بالبطاح ، أو ترنيمة حاد يحث ابله ، أو رغاء وثغاء .. ولكن اللحظات أخـذت تترى ، وكاد الرمل أن يبلغ ريه حتى لم تعـد له طاقة على ابتـلاع خطرات الأرجل ، قد سارت الآن فى ركاب الزمن علائم الحياة ..

ومن الظلمة الممدودة اخذت تلمح أطياف ضوء واهن وتنشق بها أسجاف الليل . اذا رنت نحوها العين رأتها محيا رائقا خلف نقاب من دقائق السحاب ، تكاد غرته أن تسفر وتهب الدنيا بشير النور . وفي السماء كان اللألاء هو الدعوة الصامتة الى البشر لاستقبال الفجر ، وعلى الأرض تردد النداء جليلا رافعا ، باسم الله ، للصلاة ..

ولكنه ليس فجرا كسواه يبدأ يوما كبقية الأيام ، وليس نداء ككل نداء . انه مستهل المجهول المأمول ، وبداية المرقوب المرهوب .. كل أولئك الذين لبوا الدعوة جاشت بخواطرهم الرهبة مع الرجاء ، ومشت الأرجل تحتهم مضطربة كأنما تحاذر ــ جهدها ــ أن تنهال تحتها الرمال ، وتسارعت دقات قلوبهم دراكا كأنما تطاردها خشية واشفاق أو تحثها منى وآمال ..

« الصلاة جامعة ! »

حتى هذه الأحرف اعتورتها هزة !.. أمن خوف المستقبل رجفت شفتاه أم من شوق لعهد قابل تمناه ــ ذلك الداعى فيأعقاب السحر ؟. انه هو ايضا من قومه ، صورة لكل مجيب لدعوته ، قد عاشت فيه ذات العواطف التى ملأت جوانح من قدموا على ندائه ، فملأوا رحبات مسجد الرسول وفاضت بهم ، فى الفضاء حوله . جموعا تزخر ..

ولم تطل بهم الصلاة وان بدت بلا نهاية فى حساب الافكار ، وكانت الأعين موكولة بالمنبر ترسل نظراتها اليه وتتعلق بكل من يخطر نحوه . ومضت اللحظات دانية فى تمهل ، والقوم سكون ينظرون حتى بدا عبد الرحمن بن عوف الى جوار قبلة الأنظار ..

آن اذن وقت الفصل ، وجاء أوان اللحظة الحاسمة فى تاريخ هذه الفترة من الزمان .. واتسعت الأعين واشرابت الأعناق الى الرجل الذى يهم أن يرسم مصير امته بكلمات . كان يكاد ان يغمض عينيه ، ساهما لا تتعلق نظراته بشىء ، صامتا كصمت المكان . ولكن سمات القلق التى سرت فى اعضاء الجمهور لم تسر اليه ، وهمهمة الهمس التى تنقلت من افواه لآذان لم تصب بعدوى النطق شفتيه .

ظل ساكنا فى موقفه هنيهة ، لا ينبس بكلام . وطال على النفوس المتلهفة اطراقه ، وطالت به حيرة الناس ، وظللت جبينه سحابة . وانعقد الوجوم على راسه حينا . ثرثرت فيه السن كل من عداه .. اما هو فبقى ، في حسبانهم ، كمن اصابه حصر ــ هو داعيهم لالقاء اذان وسماع بيان !..

ثم استطاع بعد جهد ان يرفع راسه ، ويمد البصر الى الجمع الحاشد فى جنبات المسجد وحوله .. ووسعه أخيرا أن يقول بصوت خافت لم تتمكن أن تتلقفه كل الأسماع وان تمكنت لجج الهمسات ان تطويه :

« .. ان الناس قد احبوا ان يلحق اهل الامصار بأمصارهم وقد عرفوا من اميرهم .. »

« انا نراك لها اهلا » .

هذه نبرات صوت جاءه من اسفل المنبر يقطع عليه الحديث . وبحركة هدب مالت بها نظرات عينيه . استطاع عبد الرحمن أن يلمح رجله ــ نصيره المهيب به أن يتقلد سيف السلطان !.. كان هذا نسيب بنى الخطاب : سعيد بن زيد ختن عمر على أخته فاطمة .

ولكن ابن عوف لم يعد فى مقدوره الآن ان يستجيب لاغراء الدعوة ، بل تأبى وقال :

« بل اشيروا على بغير هذا .. »

ثم التفت ثانية يخاطب القوم :

« انى قد سألتكم ، سرا وجهرا ، فلم اجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين : اما على واما عثمان .. »

وكرة اخرى قطع عليه الخطاب ، ولكنه الآن بجرس داو رج المسجد :

« ان اردت الا يختلف الناس فبايع عليا .. »

فاستدارت الوجوه الى حيث انطلق الصوت ، وانتهبت عيونهم ذاك الآدم الأشهل . جاء حقا بدعوة حق !.. وكالنار اذا علقت بهشيم جاف ، سارت دعوته سراعا الى الشفاه والحلوق تتردد عنها حرفا حرفا .. لكأنما كلمات عمار بن ياسر كانت المفتاح الذى فض اقفال الأفواه !. من كل ناحية أتت الصيحات داعية الى الأخذ برأيه ، وتجاوبت فى ارجاء المسجد كأنها صدى ما نطق به عمار .. ومن بين هذا الهتاف جاء صوت المقداد :

« صدق عمار .. وان بايعت عليا سمعنا واطعنا » .

وكاد أن ينتقض الصفاء على ابن عوف ، ويضطرب الأمر . وهمت ان تخرج من يده سلطة اختيار الخليفة الجديد بأن تسلبه اياها ارادة الجمهور . ولعله فى هذه اللحظة قد اشتبه عليه الرأى فلم يدر لأى الرجلين يجدر به أن يلقى الأمانة التى لديه ، على أى الحالات قد حلت به فترة — وهو قائم على منبر النبى — لم يكن هو فيهـا سيد الموقف .

يا ترى هل كتبت على امية أن تنخذل ثانية أمام هاشم ؟. كان حـريا أن تجرى الرياح بغير ما تشـتهى — فى قبره — ذاك القمىء الدميم ، وبغير ما يشتهى الحاضرون من بنيه .. وكادت أن تبغتهم قلوب الشعب التى اختلط بدمائها حب الهاشـميين حبين : بأبيهم الذاهب صيته ومجده الى السماء رفعة ، وبابنهم رسول الله النبى الكريم . فأى الخواطر جالت بأذهان سلالة عبد شمس وامية اذ ذاك ؟. وكيف استقبلوا ثورة العاصفة النفسية العاتية التى فاضت بها نفوس الشـعب . فكادت أن تطفىء نارهم ، وتكفىء قـدورهم كما فعلت

بهم - وبقريش المتألبة معهم على محمد فى يوم الخندق - تلك العاصفة الجوية التى أرسلتها عليهم السماء ؟.. احسبهم اصابهم العى الى حين ، وتلفتوا ينظرون بعين المبهوت حتى حمل لواء الدفاع عنهم دعى لصاحبهم ، ربطه واياه ثدى امراة ، فقام يصيح :

« يا عبد الرحمن !.. ان اردت الا تختلف قريش فبايع عثمان » .

فكأنما وضعت هذه الصيحة شقا من الناس على اهبة الكفاح !.. اكبروا بادىء الامر جراة ابن ابى سرح اخى عثمان فى الرضاع وتقبلوا منه دفاعه حامدين .. ثم لم تلبث ان حميت فيهم دماء العصبية لكبير بينهم الذى وضعته الاقدار ، ورجل بنى هاشم فى كفتى ميزان .

ولكن ابن ياسر لم يدع الصائح بلا جواب ، بل انبرى له يسأله فى تهكم مرير :

« ابن ابى سرح !.. ومتى كنت تنصح الاسلام واهله !؟ »

وانه لاستنكار جدير بان يزم الشفاه ويكمم الافواه .

اجل صمت داعية امية وعقد الخزى لسانه ، فما زال كما كان فى نظر الناس ، قد تجمل عليه كل ثياب الا ثوب الناصح الأمين للاسلام . وان رجلا على شاكلته خان ثقة رسول الله فيه ، وعبث بالوحى الذى وكلت اليه كتابته لاولى به ان يبتعد عن الحياة العامة عسى الأيام ان تسدل على خيانته ستر النسيان . ولكنه من ناحية اخرى اراد ان يجزى احسانا باحسان ، ويرد لليد التى دفعت عن عنقه سيف الجلاد كفاء بعض فضلها عليه ، وما دام عثمان قد استأمن له محمدا عند فتح مكة وترضاه حتى قبل ان يبقى عليه ، فان اقل القليل منه اليوم أن يقف داعية ينتصر لعثمان ..

الجمه الخزى فأطاش جوابه وصوابه وقبع يجتر حنقه ، ولكنه كان قد استطاع بكلماته القصار ان يعيد الى اصحابه الحياة .. لم تعد القضية الآن بين على وعثمان ، ولا بين هاشم وامية وحده ، تشكلت بشكل جديد . انها كيان قريش كلها قبل كيان الافراد والأشخاص ، قريش التى كانت سياستها العليا دائما حسد بنى هاشم واقصاءهم قدر الطاقة عن مقعد الحكم ..

وقام منها رجل حفزه غضبه ينتصر لابن أبى سرح ويصيح بعمار :

« عدوت طورك يا بن سمية !. وما انت وتأمير قريش لانفسها ! »

وكاد بعد هذا أن يفلت الزمام تماما من ابن عوف . علا الصخب في كل مكان ، وارتفع الجدل بين الفريقين ، وأوشك ان يقع بين الناس ما تخشى عقباه ..

وأهاب سعد بن أبي وقاص بصاحبه يحثه !

« يا عبد الرحمن .. افرغ قبل أن يفتتن الناس » .

كانت السرعة حقا جديرة بأن تحسم النزاع وتقف به عند حد مأمون . ولكن الحكم العدل لم يغب تردده عنه وبقى كدابه .. في حديثه منذ قليل مع علي وعثمان حزم امره على أيهما يختار ، ودعا لاجتماع الناس اليه ليسمعهم قراره ، فلما جاءت لحظة الفصل التي أعد لها عدته وشى به طبعه الضعيف وغلبه التردد .. وللمرة الثانية دعا اليه عليا ودعا عثمان ليسمع منهما الجواب المألوف على شرطه المعروف ..

قال له أول الرجلين بثبات :

« بل على كتاب الله ، وسنة رسوله ، واجتهاد رأيي » .

وقال الثاني وهو مسلس القياد :

« نعم » ..

فصفق بكفه على يده وقال أ

« اللهم اني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان !. »

وكذلك — بين الصخب والضجيج واضطراب الآراء — فاز سليل أمية بالمجد الذي حلم به أجداده طويلا ، وتمت له امرة الناس — لا بالناس — انما بمشيئة رجل فرد من قريش كان هو الآخر يترجم فعله عن عاطفة قبيله . تلك لحظة من الدهر بدت فيها الأنانية العصبية كما لم تبد بمثل وضوحها في غيرها من لحظات الاسلام السوالف ، ولسوف تكون عنوانا على عهد تقدم فيه الشخصيات على الجماعيات . ولئن لم يكن عثمان متهما اذ ذاك بحبه ذاته فلقد كانت من ورائه أسرة تدفعه أمامها كما يدفع الريشة نوء ، واني لها أن تصمد له !..

١٩

اهذه حقيقة ماثلة ؟..

اولئك الذين فجأتهم كف عبد الرحمن اداروا أعينهم فيما امامهم كأنما استيقظوا لتوهم من كابوس ! قد كان الرجل أسرع الى قطع الأمر وهم يقطعون الوقت بينهم وبين غرمائهم فى جدال ، وسبقت كفه الى يد عثمان تشد عليها قبل ان يسبقوا بحجتهم حجة الحزب الآخر ، فلما استطاعوا أن يعودوا الى الوعى وتبينوا الموقف راوا عثمان قد اقتعد من منبر رسول الله الدرجة التى وقفت عليها قدما عبد الرحمن واقبل الناس عليه يبايعون ..

اهو التسليم يا ترى ام هى الثورة ؟.. قد كان فى مقدور الفئة المغلوبة ان ترفع علم العصيان بل كان أولى بحالتها النفسية اذ ذاك ان تعلن التمرد ، وكان رجالها — لو فعلوا — من جند الحق . كلهم ذو قدم في الاسلام وذو يد عملت جاهدة لرفع صرح الدولة ، وما فيهم — هم الذين حملوا ارواحهم على الأكف ابان اصطراع الشرك والايمان — الا المشوق الى الموت في سبيل مبدأ ، الزاهد فى الحياة مع الطغيان . وانهم لكتائب الله الأولى التى آزرت نبيه ، واندفعت معه من شعاب مكة — افرادا — بقوة اليقين حتى غطت اقطار الأرض ، لم تنحلها النصر عدة السلاح بقدر ما قطفته يانعا من أشواك انكار الذات ، ولو انهم اعوزتهم الأسنة لحاربوا العالم اجمع — في سبيل قضيتهم — وغلبوه بالظفر وبالناب .. ولكنهم اليوم ليسوا عزلا تماما .. وأن فى أيديهم لعدة تترجم عن ايمانهم باللغة التى يفهمها الغرماء ، وفى عدادهم المقداد راس الجند الموكول اليهم حفظ النظام ..

ولكنهم جهدوا ، وجاهدوا انفسهم حتى الزموا التريث . وتعلقت ابصارهم برجلهم المحبوب المغلوب .. فى هذه الآونة لمحوا عبد الرحمن يشير اليه بعين ويدعوه . فيم الدعوة هذه ؟ — من البين لكى يبايع . وتلبثوا ينتظرون ، وحبسوا الأنفاس وارهفوا الآذان .

في صوت خافت كأنما يحدث نفسه ، قال عبد الرحمن :

« ومن نكث فانما ينكث على نفسه .. »

أدعوة هذه يا ترى أم وعيد ؟

وجاءه الجواب من ابن أبى طالب صريحا واضحا كسجيته :

« حبوته حبو دهر ! »

والتفت صوب قريش الملتئمة الجمع حوله ، المتألبة الاحقاد عليه ، وقال بنبرة المرور :

« .. ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » .

ما كان له في مثل هذا المقام الا ان يحكم الله فانه غالب على أمره ، ان شاء عفا أو شاء عاقب ، ولكن لا يستطيع مطلقا أن ينصب من نفسه خصما وحكما لعبد الرحمن في آن ، ولا يقره على ههنا طبعه .. وحتى ان احس الغضبة في قلبه تثور لحق سلبوه اياه ، فان منطق العقل عنده كان يسبق دائما منطق عاطفته . ولو انه أراد لأثار فتبعه جموع وجموع ، ولكن الاسلام كان أكرم عليه من ان يثير الفرقة بين اهله من أجل حقه المغضوب . وقديما وقف هذا الموقف الضنك فآثر أن يبوء بالخسران وامته موحدة عزيزة الجانب ..

ولم يملك عبد الرحمن أمام هذا الاتهام الصريح الا أن يبرر تصرفه فيقول :

« ... انى قد نظرت ، وشاورت الناس فاذا هم لا يعدلون بعثمان » .

ففيم اذن كان عرضه الأمر على إبن ابى طالب لو صح ما قال ؟.. وفيم المساومة على أمر تبين له وظهرت خواتيمه ؟ وهب عليا قبل منه شرطه أفكان اذن جديرا بأن يقلده الأمر على غير رضا من الناس ؟.

وجاءه الجواب قاطعا كالسيف :

« والله ما وليت عثمان الا ليرد الأمر اليك .. »

فسرت الهمهمة في انحاء المسجد . أما على فقد عاد ثانية يواجه الخصوم بشجاعة قلبه ، ويخاطبهم بمنطقه السليم عن المبدا القويم الذى ألزم به نفسه ، قائلا :

« لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيرى .. والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور الأ على خاصة ، التماسا لأجر ذلك وفضله ، وزهدا فيما تنافستموه من زخرفه .. »

وشق طريقه فشد على يد عثمان ، ثم غادر المسجد وعلى شفتيه هذه الكلمات :

« سيبلغ الكتاب اجله ! »

* * *

أجل كل بدء الى نهاية ، وكل مستهل الى غاية ، ولن تكون العواقب الا كما تنبىء البدايات ..

استقبل الرجل عهده بخلاف وانهاه بخلاف . ومضت ايامه فى التاريخ مثلا للفرقة التى مشت ديدانها فافسدت جماعة كانت مثلا للألفة ، وقضت على كيان صلد متين ... حقا لم تتمزق الدولة ابان حكمه ، ولم يصبها الوهن ، ولكنها اضحت دولة كالأخر لا تمسك اجزاءها الا القوة ، وكانت من قبل تشدها الى بعضها البعض الأخلاق ... والخلق دعامة ركينة تهب القوة ولا تحطمها قوى السلاح فى ميدان صراع وكفاح ...

هذه خواطر جرت بأذهان بعض الحشد القائم فى المسجد يتأهب لبيعة عثمان ، وكادت تتجسم امام أبصارهم وهم يرونها بعين البصيرة ... اولئكم أصحاب العقائد والمبادىء والمثل العليا . الذين وهبوا حياتهم للحق وعاشوا به ، لا يخشون بطش السيف ولا حدة السلاح.

قام بينهم عمار بن ياسر ، وقد غلبت غضبته على ادمة وجهه حتى كاد ان يتلون بحمرة الدم ، وصاح ينذر تلك القبيلة التى عدت على حق صاحبه وسلبته اياه بالعصبية لا بالجدارة :

« يا معشر قريش ! اما اذا صرفتم هذا الأمر عن اهل بيت نبيكم ، ها هنا مرة ، وها هنا مرة ، فما انا بآمن ان ينزعه الله فيضعه فى غيركم ، كما نزعتموه من اهله ووضعتموه فى غير اهله . »

وهتف من بعده المقداد :

« ما رأيت مثل ما أوذى به اهل هذا البيت بعد نبيهم ... »

وكأنما خشى ابن عوف مغبة هذه الثورة النفسية التى ما زالت نارها تضطرم بين الجوانح فسارع يحول بينه وبين الاستمرار فى حديثه ... حتى بكلماته تلك كشف « صانع الحكام » من غيرته على المجد الذى طوق به جيد قبيلته ، ورفع الغطاء عن عصبيته ... قال بلهجة السادة المترفعين عن طبقات الناس :

« وما انت وذاك يا مقداد »

فابتسم له « ابن الشعب » بسمة كالعبسة . وصاح به :

« انى والله لأحبهم بحب رسول الله ، وان الحق معهم وفيهم . يا عبد الرحمن ... اعجب من قريش وانت تطولهم على الناس !..

اهل هذا البيت قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله بعده من ايديهم ... »

وعلا جرس صوته ، ورن داويا كالزئير وهو ينم كلامه :

« أما وايم الله ، يا عبد الرحمن ، لو اجد على قريش انصارا لقاتلتهم كقتالى اياهم مع رسول الله يوم بدر ! »

فأى استقبال حافل هذا الذى قابل به خير صحابة رسول الله عهد عثمان ؟ وبأى الاحاسيس ملأت احاديثهم المرة قلبه ؟.. بدت مشاعره على وجهه سمات معلومة تقرأها الأعين المتطلعة ، حين وقف بعد قليل على المنبر ويقول أولى خطبه لشعبه ... كان حسن الصورة مليح المحيا رغم تقدم عمره ، ولكن لونه غلب عليه شحوب عابر أحاله باهتا كالفضة ، وحتى هذه النكتات التى خلفها الجدرى على خديه ، وكانت قمينة أن تظهر سمراء ، كادت تخفى عن عين الرائى . وكان وجهه مرآة الحزن ، طافت الكآبة بقسماته لكأنما استطلعت نفسه ضمير الغيب !.

وحتى كلماته أيضا !... لقد كانت تقطر بما يحسه ويعتمل بقلبه من هم واصب جره عليه شعوره الحزين ، وما كان لامرىء أن يصف بغير كآبة النفس من يقول مثل ما قال :

« ... انكم فى دار قلعة ، وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم ... »

ولكن هذا الشيخ المهموم ، المنقبض الصدر فى ساعة ظفره ، الذى زوده بالحزن شعور غامض ، اجتمع له سوء الطالع الى جوار همه ، وأبى النحس الذى حالفه من بعد طوال عهده الا أن يسير فى ركابه مذ اللحظة التى دفع قدمه الى المنبر ليخطب الناس ... لم يكن هو ملقيا باله الى خطواته بل تقدم بلا وعى يعلو درجات المنبر حتى وقف على نفس الدرجة التى كانت تطؤها أقدام الرسول . كان هذا جديرا بأن يثير عليه الاستنكار وغضب الناس وقد علموا أى مكان كان يقفه أبو بكر ويقفه عمر من درجات هذا المنبر . ما جال يوما بذهن السلفين أن يضعا اقدامهما وقدمى رسول الله على سواء كما يفعلّ هذا الخليفة الجديد . اهو الكبرّ والصلف والاستعلاء ؟..

بل هو نحس نجمه وسوء طالعه . ابيا عليه الا ان يستفتح عهده بالخلاف وهمس الاستهجان والانكار بدل الترحيب والهتاف ساعة الانتصار ...

٢٠

الكآبة التي احس بها عثمان لم يكن لها صدى الا في قلبه . كان خافض الرأس مهموما اذ يسير الى داره قبيل غروب يوم نصره . لم يحس فرحا أو راحة لاختياره سيدا للناس . ولكن الفرحة التى لم يستشعرها فاضت بقلوب ذويه ... حفوا به من كل ناحية ولفوا حوله كالسوار ، وانطلقوا معه ، خفافا يكادون أن يسيروا على الهواء . هذا يوم خالد على الزمان !...

اجل انه هو اليوم الذى اطلع — فى خواطرهم — امية من قبره ، ونشره حيا فى شوكة مجده : ذهب عنه خزى النفى الى الشام وما ذاق من مرارة الهزيمة التى جرعه كأسها عمه هاشم ، واستطال شرفا — هذا اليوم — على غالبه القديم ... اما ذلك الماضى وما كان له من ذكرياته فقد غاب وتوارى وجهه ، وبقيت منه هنات تواقه لا تعلق بالنفس الا لتحفزها على التشبث بالغد المرقوب — ذلك الغد الذى استخفت اشراقته بنى امية حتى انطلقوا حول عثمان خفافا كانما يسيرون على الهواء !...

وضمتهم معه الدار . كل من فيها طافت به نشوة الظفر الا ذاك الذى لبس تاجه ... ومن ناحية أقبل رجل مشتعل الرأس بالشيب شوه الجدرى وجهه فزاد من قبحه ، وتغورت احدى عينيه فبدت كالفجوة . وكان بدينا بادى القصر ، يتلمس طريقه فى ظلام بصره — ذاك أبو سفيان بن حرب قد شاخ وفقد ضياء ناظريه ...

أقبل على بنى بيته ، منفرج الفم عن بسمة سبقت فيها الشماتة فرحته ... وقال يسأل :

« افيكم أحد من غيركم ؟ »

« كلا »

فنصب قامته ، ورفع من احناءة راسه التى خفضها العمر ، لعل أحلام شبابه كلها حضرته فى هذه الآونة وهو يهيب بالحاضرين :

« يا بنى أمية ... تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به أبو سفيان ما زلت ارجوها لكم . ولتصيرن الى صبيانكم وراثة !.. »

وانها لدعوة !... وانها لحلم نفذ من الأجيال المتعاقبة خلال عبد شمس وامية وحرب ثم استقر الآن حقيقة ماثلة امام اذهان احفاده الحالمين به ! .. فما أسعدها اليوم حقيقة ! وما اجلها غاية أتى بها الزمان !..

كادت الحناجر ان تدوى بالهتاف للشيخ ثناء عليه ، وتنطلق داعية كما انطلقت نفوسهم — فى قراراتها — مؤيدة ملبية ... فهذا المجد الجديد الذى اشتاقوه من قديم جدير بأن تهفو قلوبهم اليه ، وتعض انيابهم عليه !

ولكن عثمان لم يكن صافى المزاج فى اثناء الدعوة فلم يتلقها بقبول ، انه لم يسغ للامرة طعما شهيا حتى يلح بها على ذوقه !.. ولم يكن فى الحق بالرجل الذى يملك حب الحكم عليه نفسه — لا عن زهادة فى المنصب ، بل بعدا عما يعييه الاضطلاع به . ولكن كان طالعه قد نصبه على راس امته ، فما احسبه احب ان تنزلق الامرة من بعده الى اسرته .

على ان رغبته وحدها ليست بالثقل الذى يرجح الميزان . أو العامل الفعال ذى التأثير الأخير فى سير الأمور . فما من امرىء يستطيع ان يعثر على اثر واضح للرجل فى شأن أتاه ابان حكمه الا ولمح اصابع آخر . او آخرين من آله ، قد دفعته اليه .. لم يكن عثمان صاحب مشيئته او سيد عزمه ، بل كان رخوا دائما فى اكف اسرته .. او كان الثوب الذى استطاع ان يلبسه بنو امية قبل أن يحين لهم لبس أمثاله من ثياب ! ولا أحسبه منافيا لحقيقة الحال ان يؤرخ لهذا الرجل كأول عاهل فى دولة الأمويين ! ...

* * *

نهر عثمان ابا سفيان ، ولكن البذرة التى وضعها امية جاء أوانها لتثمر ، وبدات مع الزمن تنبت من ارض الحقد . وكانت كلمات الشيخ هى العهد الذى جدد به — امام بنى بيته — طموح أسلافه . ولم يكن هناك

هاشم يفض من حولهم الناس بكرمه . ولم يعد هناك محمد أيضا ، الذي قهرتهم شريعته ، وايدته في كفاحه باطلهم يد الله ... ولكن الباقي في المعسكر المناوىء لهم كان شابا أوفى على رجولته بحساب العمر ونضج واكتمل نماؤه بمقياس الفكر ، ليس بذى جاه يجذب اليه من استهواهم الجاه ، ولا بذى مال ، يشترى النفوس ويملكها سلعة ... وانما كان صاحب حق في آونة كاد طابعها أن يكون استباحة الحقوق..

ومع ذلك فقد انطوى على نفسه كما فعل من قبل وآثر ان يغض البصر عن تراثه المسلوب ، وان يصبر ، ويركب اعجاز الابل وان طال السرى وامتدت الشقة واجهدته المشقة .

هكذا كان الرجل الذى اقصاه عبد الرحمن وكانت سماحة طبعه : لم يلتمس حقه مطلقا عن طريق عنف أو ثورة وكان بمقدوره ان يسترد لو اراد . ولكنه كان من طينة اخرى غير التى جبل منها خصومه ، لا ينقض وعده وان ضاع حقه بالوفاء . وكان ممدود النظر الى ابعد الآفاق .. وبينما كان هو يتوخى دائما صلاح أمته على حساب نفسه كانوا هم يحرصون على صلاح انفسهم بدافع من العصبية وحب الأهل أو حب الذات ... وكانوا دائما امامه يحملون لواء العداء تماما كما ارتسمت لهم سنة الأسلاف لأنهم كانوا يناجزون فيه هاشما قبل اى انسان .

هذه حقيقة وعتها نفوسهم وانطوت عليها وان حاولت جهدها أن تنكرها الألسن ، لا فرق فيهم بين رفيع أو وضيع المقدار ، لأنها كانت جرثومة الحقد ، التى سرت في دمائهم موروثة عن الأجيال المتعاقبة من الآل ...

* * *

وهل كان التاريخ الا صورة مكررة ؟

ذات يوم مضى ، شفى أبو سفيان من جسد غله .. وكان الجسد على الأرض لقى شائها ، مست فيه سكين امراته التى فاقت ضراوتها وحشية لباة الغاب ، وعبثت أصابعها بأحشائه بعد أن بقرت بطنه ، ولاك فمها هنيهة كبده المرير ثم لفظته ، ومضت عنه .. واقبل من بعدها زوجها يشتفى .. أهذه صورة أخرى من هاشم على ثرى أحد ؟..

ثم راحت السنون ، واستبدل الرجل بشركه الاسلام . فالى اى مدى يا ترى خفف الدين الجديد من غلوائه والان قلبه ؟..

انه ليسعى الآن امام العين كمثل سعيه الأول ، على ذات الأرض ، بسفح احد .. ولكنه اليوم قد وهن قوى ، ودب بخطو مضطرب ، يكاد به أن يتعثر فيما يصادف قدميه لولا غلام الى جانبه يقوده .

كان عائدا لتوه من دار عثمان ، فى قلبه قد اصطخب الفرح ونشوة النصر ، يتمايل عن تيه وخيلاء . وكانت المدينة قاعدة امير المؤمنين الجديد وراء ظهره ، ومكة بلدة البيت قبلة خطوه .. فلم تكن به حاجة الى التزام هذه الناحية من الطريق ، ولكن هاتفا بقلبه دعاه أن يفعل فراح يسير بين القبور ..

أهى روح عزيز لديه دعته أن يمر بمثواه ؟. بدا هذا ، فقد مال على أذن الغلام وهمس له ، وتقدم يحث خطاه . امشوق ؟ اهاجت بقلبه ذكريات أيام حلوة قضاها فى شبابه وصاحب المقبرة ؟ مشوق حقا لأنه يكاد أن يثب وثوبا رغم عماه .

وتوقف بعد قليل .. ها هنا حمزة الشهيد — عم رسول الله ، مسجى تحت الحصى والرمال . وقف امامه ابو سفيان يتطلع ببصره الجاف .. عسى الرجل أراد ان يكفر عما فات من قسوته ، وتمثيله بعد امراته — ايام كفره — بهذا الجسد الطاهر ، أشنع تمثيل !.. لعل اسلامه قد ألان قلبه !... لعل نازعته صلات القربى فجاء يترحم على هذا الثاوى فى طوايا التراب !..

وتقدم ثانية خطوة أو اخرى ، والقى ببصره المتغور على القبر ، ثم حرك شفتيه بالكلام .. فأى كلام ؟

انفرج فمه الأدرد القبيح عن أقسى بسمة تستطيع ان تصوغها شفاه لتعبر بها عن الحقد والشماتة ، ثم خرج من جوفه حديث كأنه فحيح أفعى ، وقال :

« يا أبا عمارة !.. ان الأمر الذى اجتلدنا عليه بالسيف امسى فى يد غلماننا يتلعبون به ! »

وركل برجله القبر ، ثم مضى مثلوج الصدر اذ اصاب ثاره !..

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

الإمام

علي بن أبي طالب

الجزء الثاني

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

٣

صيحة رافعة . . . تسمع الصم ولا تستطيع دفعها أذن نائم . لها في السمع دوي مجلجل ، وفي القلوب أصداء ، وعلى الشفاه همسات تلتثم حديثاً بيناً يطير في الآفاق .

هي في أصلها شعور قلب : رقيق كالنسمة السابحة مع الفجر ، صاف كالنبع المتفجر من صخر . . . استوعب مشاعر فقراء قومه وما زخرت به قلوبهم من عذاب الحرمان ، ووعى في ذهنه خواطرهم التي كتموها حينا ثم راح يبثها بلسانه في كل مكان .

وكانت رهيبة كصوت القدر ، قاطعة كالسيف لأنها حق ، رنانة الجرس كقصف الرعود أو صليل السلاح . . . ما سمعها أحد ينكرها إلا تلفت حواليه من خشية . ثم انطلق يفر من جزع وقد اضطرب فؤاده كالجناح بين جنبيه ، وود لو ردها عنه أن يضع أصابعه في أذنيه .

وكانت أيضاً شجية كأغاريد ، رقيقة حانية ، قد تسكر السامع وتحرك المدامع . . . إذا رددها الليل هفت إليها قلوب من ولعوا بها قبل الآذان ، وإن حملها الصبح تلمسوا مصدرها ، مشوقين خفافا ، كما يلبي العابد نداء الأذان .

جاءت كنسمة الصبا من الشمال ، طيبة ريانة . . . ثم انطلقت سباقة إلى الوادي الأجرد ، تقطع الصحراء — بغير ونى — من الشام إلى قلب الجزيرة حتى حاضرة الإسلام . . . لم تقف بها في مسراها أودية وشعاب ، ولم يخفت من حدة صوتها حجاب أو باب . . . بل مشت في أعقاب صاحبها — الهاتف بها من قلبه — كما يتبعه ظله .

حتى المدينة أيضاً سار فيها ظله . . . فحين دلف بهيكله الضامر ، وخطت قدماه الناحلتان على دروبها ، وتطلع ببصره النفاذ إلى معالمها ، رمقت وجهه

المروق غبرة حزن ... أهذه حقاً مدينة رسول الله ؟ .. الأرض الطيبة المحيا والممات ؟ .. البلدة التي خلفها منذ أعوام عالماً وحدها من الإيمان ؟ .. لكم لعب بها الزمن إذن وأحال معدنها الحر إلى مظاهر وقشور ، ومشت عليه شراهة النفوس حتى صدئ وغاب لمعانه ! .

أضحت بلدة غير البلدة ، كأنها استعارت ثوب أختها في الشمال ... كذلك بدت في عينيه لأول وهلة حتى حسب أنه في دمشق لم يبرحها ولم يخرجه منها عاهلها العاتي ... ولكن ذهنه ثاب إليه في لحظات وقد وخزته آلام تخذيه . ألا غفر الله لمعاوية وأوسع له في عفوه بقدر ما أساء إليه ... وعفا أيضاً عن صقالبته الخمسة : أولئك الذين وكلهم بهذا الشيخ الذاوي النحيل يطيرون به الطريق كلها من الشام ، خلال سعير الصحراء ، على بعير عار ولا يتريثون به مرة واحدة ليستريح ... ومع ذلك فقد حاول أبو ذر طوال الرحلة الشاقة أن ينسى آلامه ، وأن يهيء نفسه لمقام — خير من مقامه ذاك على حدود الروم — تطيب نفسه فيه .. فماذا لقي بعد أن انتهى به المسير ؟.

كاد الشيخ أن يطالع صورة ثانية من حاضرة الشام في حاضرة الإسلام .. أما البلدة الفاضلة — مدينة محمد القديمة — فقد كادت أن تختفي خلف البذخ الصارخ . أين ما هي فيه اليوم من رفاهة ولين مظهر مما نشأها عليه الإسلام من خشونة وصلابة عود ... وكيف غلبت عليها سريعاً هذه الميوعة المنتقلة إليها كالوباء من أرض الروم خلال بلاد ابن أبي سفيان ؟ .. يا ترى هل آثرت أن تستبدل بمسوح الزهد والوقار غلائل الترف والاستهتار لتعرض نفسها سلعة في سوق الدنيا ؟ .

واعتصرت يد الأسى قلبه الكبير وعصفت به . ما كان أحب هذه الأرض إليه وما أشد ما أصابها عليه ... إن تربها الذي طهرته أقدام الهادي ، وبللته دماء الشهداء ، وذكت فيه دوحة دين الفطرة يهم اليوم أن يطلع نباتاً خبيثاً . فأينما ولى الشيخ بصره في نواحي البلدة رأى رفاهة

وترفاً وجدة حتى لأوشك أن يحسب نفسه الشيء الفقير القديم الوحيد فى المدينة! حتى مسجد الرسول زالت عنه بساطته السالفة وحشدت على حيطانه النقوش والزخارف فبدا اليوم على غير ما كان. وهذه الدور، التى كان عهده بها مساكن صغيرة لا تكاد أن تمنع عن أربابها لفح الهجير وقر الزمهرير، مالها ذهبت الآن قصوراً شاخة تطاول السماء؟ ... أرقت الأجسام فوهنت القلوب التى قومتها قوة الإسلام؟ .. إنه ليقلب كفيه أسفاً وبصره يتنقل حائراً بين هذه المظاهر التى لا ريب تنبىء عن خور وجنوح إلى الرخاوة والضعف. وما كان له إلا أن يأسف وهذا أمير المؤمنين نفسه — الرجل الذى صاحب نبيه الزاهد العزوف، قد أقام له قصراً كالعروس المجلوة بين هذه القصور، له شرفات وأبراج على عمد من مرمر شفاف كالعاج.

هذه المعالم الفاخرة لم تكن فى ذاتها ما ملأ قلبه أسى وحسرة، بل دلالتها ... إنها العنوان البغيض لسفر الأخلاق الذى سطرته حديثاً شهوات الأنفس الزائغة عن بساطة الدين إلى زخرف الحياه! ... إنها الرده ثانية إلى متع جوفاء كادت دعوة محمد أن تغيبها فى قبر الغابر. وكان أبو ذر دواماً يؤمن بالجوهر ويكفر بالمظهر: يعلم أن قوه المرء فى قلبه لا فى ثوبه، وحدة الحسام بحده لا بغمده.

كذلك بدت المدينة — غب نفيه إليها — فى ثوب دمشق - متبرجة كالصنم فى يوم عيده ... لم يكد يحس فيها براحة النفس التى عناها، بل سريعاً عاوده شعور الاستنكار وهو يجوس دروبها تماماً كما كانت حاله من قبل وهو يذرع طرقات حاضرة الشام ويجأر فيها بصيحاته. ما ترك الجنوب إذن للشمال منقصة لم يباره فيها، لا ولا مذمة! .. وهؤلاء الرجال الذين طالما شد آباؤهم على بطونهم حجارة — تأسياً برسول الله — لقهر الجوع، قد أصبحوا يخطرون الآن فى مصبغات الديباج، مصعرين الخدود شامخين بالأنف، ولا يأبه أحدهم أن يطأ فى خيلاته أخاً له فى الدين ألقاه الطوى على الثرى وآذاه الجوع .. يا رحمة الله! هذه أمة، بفضل إيمانها المبنى

على نكران الذات ، دان لها العالم المترف ورجالها فى أسمال ، فمالها اليوم تدين بشريعة المال وتعنو لسلطان المال ؟ .

وبمثل دوى الرعود القاصفة ، وصليل السيوف ساعة الجلاد ، عادت كرة أخرى إلى الظهور دعوة هذا الشيخ الذى نذر حياته لإنصاف الفقراء من ذوى اليسار :

« . . . وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار » .

٢

. أهى زلة عصية على الغفران أن يملك عثمان المال ويبنى فيعلى فى البناء ؟ . . من عجيب أن النفوس التى ثارت عليه ، وصلت إلى حد كانت لا تستطيع معه أن تنفر ، لأنها رأته — وقد جاءت الخلافة الأمر له — كمن أراد أن تكون الدنيا أيضاً له وما أحسبه إلا قد زودها من مقومات الثورة وأسبابها بأدسم زاد .

هذه هى نقطة التحول فى حياة الخليفة المنكود . أو — على التحقيق — فى الأثر النفسى الذى انضمت عليه جوانح شعبه حياله ... أما الواقع فلا ينكر على الرجل أنه كان مترفاً طول عمره من قبل الإسلام . وكان غنياً سماحاً ، سخى الكف والقلب ، له فوق هذا من السجايا الخلقية ما يجذب إليه الناس ويؤلفهم حوله . ولكن الشعوب دائماً تحصى حركات قادتها ، وتمنى بتصيد هنات حاضرهم بغير اعتبار لما أولوها فى غوابر أيامهم من أفضال . وقد نظرت الأمة الإسلامية إلى عثمان من خلال نفس المنظار الذى كانت ترقب به سالفيه ، فهالها أن تجده من طراز آخر : معنياً بمظاهر دنيا لم يقبلا مطلقاً عليها وزهد فيها قبلهما رسول الله ... وكذلك كانت الحال حين تفتحت العيون على الترف السابغ الذى خاضت فيه الدولة الناشئة

وخاض فيه الخاصة . واستطاع كل عاتب مغرق فى الاتهام ، أو عاتب مستلهم بساطة الإســلام أن يرمى الرجل بالتشبث بالجانب الباطل من الحياة : هــذه الرفاهة وهـــذا الولع بكنز المال ... فما كان — فى رأيهم — إلا مثلا لسواه من عماله وذوى قرباه والـكثرة الغالبة من صحابة رسول الله ؛ ساروا جميعاً على شاكلته ونهجوا نهجه . أو كان — بأعـدل الآراء — الحاكم الذى له القدرة على الحد من غلواء أولئك المترفين ولـكنه أغضى عن هذه الغــلواء .

على أن المنصف يمكنه أن يمد عنه اللوم قليلا . فلم يكن هو الذى أغرى الناس بالترف وحب الثراء ، بل هى طبيعتهم البشرية التى حضتهم على التملك ، وظروف الدولة الفتية التى انفسحت رقعتهـا فى أعوام معدودة فضمت تحت جناحها نصف العالم الخصيب . وما أحسب بدوياً نبت خـلال جدوبة الصحراء ، وعانى مرارة الحرمان فى رمالها المستعرة ، إلا يعمل قدر وسعه — وقد تفتحت أمامه الأبواب — على جمع المـال الذى يجنبه الفاقة والشظف وسوء الحال .

بهذا قضى منطق الحوادث قضاء لامعدى عنه ، فاستجابت له طبيعة الإنسان ، وله اتسع فهم عثمان ، كما اتسعت موارد دولته الآخذة فى النماء ، فزاد عطاء الناس مائة درهم منـذ اليوم الذى امتلك فيه مقاليد الحـكم . وهكذا أبدى الرغبة الصادقة فى أن تعمل الدولة جاهدة لمصلحة الفرد . وخط عنواناً أنيقاً لسياسة حسنة — لو أنه احتـذاها طوال أيام عهده — لـكان تغير تاريخه المعروف .

وفى الحق لسنا نملك إلا أن نحكم له بحسن نواياه حيال الشعب كلما تتبعنا عن كثب الخطوط التى رسمها لعماله فى البـلاد وأمرهم فيها بتقديم خير رعاياه على كل ما عداه ... كان أول كتاب بعث إليهم به .

« ... إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة . . »

وأوضح النهج الذى يسير عليه عمال الخراج بقوله :

« . . . إن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق ، وأعطوا الحق به . . . والأمانة الأمانة ! . . قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . . . والوفاء الوفاء ! . . لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم . . . »

ولكن هذه السياسة لم تكن كفيلة وحدها باقتلاع البذرة التي أثمرت على الأيام دوحة السخط فى نفوس الناس . ولم يكن عثمان غارس هذه البذرة بل كان — لسوء طالعه — ذلك الذى انفرد بالحصاد . . . أما الباذر فكان عمر . وضعها نواة صغيرة فى مبدأ عهده ، ثم تركها تنمو ليجنى منها خلفه ثمرتها المرة .

هذه حقيقة واقعة ليس إلى نكرانها سبيل . ولعل عمر لو امتد به أجله كل هذه الأعوام التى حكم فيها عثمان بلاد الإسلام ، للقى مصرعه بغير خنجر ذلك المجوسى الحاقد . ولمن حسب أن هيبة ابن الخطاب كانت قمينة بأن تحميه من ثورة النفوس فإنه إذن أخطأ جانب الصواب . ذلك أن التذمر نار آكلة ، لا تفتأ تدب فى الخفاء ، تحت الرماد ، حتى يتاح لها ما يكشف عنها الغطاء فتنبعث سعيراً ذاكى الضرام . ولقد أشعل عمر الجذوة حقاً ثم لم يمهله العمر ليصلى حريقها المشبوب .

أشعل عمر الجذوة وتركها تتقد وتأكل النفوس . . . وتلفت الناس بعد مضيه عن الدنيا بأعوام ليروا عالماً غير ذاك الذى ابتناه لهم الإسلام . فلقد أوشكت المساواة بين الأفراد أن تكون معدومة ، بل إنها امحت أصلا مادام قد قر فى أذهان الجمهور أنه لامساواة إلا بتكافؤ الفرص أمام الجميع للرزق الميسور .

ولكن هذه الفرص كانت انطوت مع الماضى . وانقضى أجلها بانقضاء أجل ابن الخطاب . فهذا الرجل الذى كان مثالا تحتذيه العدالة القضائية لم يكن كذلك فى نظر العدالة الاجتماعية — أم خانه التوفيق حينما أمر بتنفيذ طريقته فى تقسيم العطاء بين الناس ؟ إنه لابد قد حضرته إذ ذاك

عوامل رجحت لديه رأيه . ولـكن مما لاريب فيه أن عوامل أخرى أقوى من السالفة قد غابت عنه وكان أحرى به — لو استشفها من وراء حجب الغد القريب — أن يعـدل عما حزم عليه أمره واستقر فى باله . ولـكنه رأى رأيا فالتزمه . لم يحد به عنه علمه أن سلفه قبله لم يقبله ، وأن رسول الله ، صاحب خير الآراء ، كان يسير على نقيضه .

وكذلك نحا عمر نحوه الخاص فلم يجعل الناس سواسية عند التقسيم ، فبينا نسمع الصديق يأبى أن يفضل أهل السابقة إلى الإسلام على غيرهم ويقول :

« . . . إنما أسلموا لله وعليه أجرهم ، يوفيهم ذلك يوم القيامة . . . »

إذا بابن الخطاب من بعده يخالفه ، ويجمل سياسته الجديدة فى كلمات :

« . . . إنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله . فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام . والرجل وحاجته . . . » .

وبهذا الأساس الذى وضعه عمر للتقسيم لم يجعل المسلمين كلهم على سواء بل رتبهم درجات ومنازل لـكل درجـة حظ من العطاء معلوم . . . ولعلنا نستطيع أن نفهم كيف رأى أن يخالف شرعة صاحبيه التى التزمت المساواة ، وكيف آثر عليها هذه التفرقة فى القسم حين نسمعه يقول : —

« . . . لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه . . . »

وإنها حقـاً لفـكرة جميلة ، ولـكنها أيضاً غير سديدة . . . وهى هكذا تـكشف عن عمر رجـلا تسرع به دائماً عاطفته . غير أننا نبخسه حقه إن تركناه قائماً بصحة رأيه حتى ساعة حينه . . . ذلك أنه فى آخر عهده ود لو ثاب ثانية إلى نظام التسوية ، بل قد أعد العدة للعود إليه ، ورسم الخطة المثلى التى هدته إليها التجربة وتداول الأحداث .

وقال فى آخر عام من أعوام حكمه :

« . . . والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ، ولأجعلنهم رجلا واحداً . . . »

ولكنها رغبة أبت أن تحققها له الأيام . ومضى الرجل عن الدنيا إلى مثواه وقد خلف أمته طبقات ، تختلف — على مر الزمن — بين ذروة الغنى والثراء وحضيض الحرمان والفاقة . فلما انعدمت بين أفرادها المساواة ، واتسعت هوة الفوارق الاجتماعية ، كانت ثمرة السخط قد نضجت وحان قطافها بيد خلفه النكود .

٣

كانت صيحة أبي ذر صدى النتائج اللازمة التي تولدت عن اختلاف التقسيم . وكانت النتائج هذه الفوارق التي نمت مع الزمن حتى لم تعد تستطيع هضمها نفوس الفقراء . . بل تبدلت حسداً ، وسرت إنكاراً ، وانقلبت حقداً على أولئك الأشراف ، الذين نبتت طبقتهم من بين أوائل المسلمين ، وبدأوا حياتهم — أيام رسول الله — مثالا يحتذى فى البذل والإيثار ونكران الذات ، ثم ختموها — أو كادوا — بالترف المغرق والغنى والدأب على جمع المال . . . أى المحرومين إذن كان يرى كيف اجتمع لزيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كانت الفؤوس وحدها أداة تكسيره ثم لا يلتهب الحسد فى جوانب صدره ؟ . . وأين محتاج يستطيع أن يرد طرفه راضياً بعد أن يشهد ماشية ابن عوف وما اقتناه من أباعر وأفراس عديدها الآلاف ؟ . . وهل من معوز يسمع عن مئات العبيد والإماء عند طلحة ، وعن قصور الزبير بمصر والبصرة والكوفة وسواها من البلدان ، لا ينكر هذا أشد استنكار ؟ . . يا عجباً من أولئك الذين آزروا نبيهم فى دعوته لدين المساواة تجمع بهم مطايا الثروة والترف والرفاهة بعيداً عن المساواة ! . .

هكذا جرت خواطر الناس فى أذهانهم وهم يرمقون السادة الجدد بعين حاسدة ، وكان عهدهم أنه لا سيد ولا مسود فى الاسلام . وبه اعتملت

عواطفهم كالنار فى قلوبهم ، تأكل وشائج الاخاء فيها وتميت الرحمة . ولم يكن أولئك الذين حف بهم الاستكثار هم وحدهم أصحاب المطايا الجامحة نحو نعيم الدنيا ، بل كانوا أمثلة معدودة للبقية الباقية من صحب محمد ، الذين أقبلوا على الحياة وقد استهواهم منها جانبها البراق بعد أن كانوا من قبل يميلون تعففاً عن مظاهر الحياة . . ولكن الفراغ والمال آفتا النسك والزهادة . وهذا عطـــاء عمر لا تكاد حاجاتهم أن تأكل منه ، والأعطية المتوالية فى عهد خلفه تتكدس لديهم العام بعد العام كلما امتدت رقعة الدولة ووسعتها الفتوح بين قرنى الشمس . . . ثم دع عنك بعد هذا ما أفاءه عليهم الاتجار بمختلف الأمصار من خير سابغ وقد خلى عثمان بينهم وبين بلاد الدولة جميعها يذرعونها وفق هواهم وأباح لهم منها ما منعته سياسة ابن الخطاب .

نمروا إذن فائض أموالهم حتى بلغت إلى ما يكل عنه الاحصاء . وانبسط أمامهم عيشهم ليناً وحياتهم ناعمة رخية غاية الرخاء ... إنهم فى الواقع لم يبخسوا الناس حقاً ولا جاروا على فريضة الزكاة للفقير المحروم . ولكن الزكاة لم تكن وحدها مجزية تسد حاجة الطبقات الفقيرة فى زمن بيعت فيه النخلة — وثمرها خبز العربى — بألف دينار . ولئن كان الدين قد ضربها على أصحاب المال ؛ فلأنها وسيلة للتخفيف عن أثقالهم أعباء الحياة وليس لأنها غاية الغايات فى النظم السماوية التى جىء بها لوضع الفـــاقة عن كاهل البشرية ... وما من امرىء أشرب قلبه روح الاسلام إلا عرفه دين إخاء ، وما من إخاء بغير مساواة إن لم يكن بالتقديم والايثار ... وهل كان لغير طائل قول رسول الله حين قال :

« إخوانكم خولكم ، جعلهم الله قنية تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه ؛ وليلبسه من لباسه ؛ ولا يكلفه ما يغلبه ... فإن كلفه ما يغلبه فليعنه .. » .

هــذه هى الناحية الانسانية فى الدعوة الاسلامية ما أحسب إلا أخفتها عن عيون القوم أكداس النضار الوهاج . ولو أن الناس عنوا بانتهاجها حق

عناية لوسعهم أن يجتثوا شجرة البؤس من الأصول والجذور • ولـكن الانسان هو الانسان فى كل عصوره ، منهوم أبداً ، لا يشبع من مال • اما صحب محمد فقد عسر عليهم بعده أن ينظروا إلى الدنيا بمثل نظرته ، وأن يعالجوا شهوة النفوس بالصبر والرياضة ، وأن يجعلوا متع الحياة تحت مواطىء الأقدام • • • كان عصياً بلا ريب على طبائعهم البشرية — أمام إغراء الذهب — حتى أن يقولوا كما قال :

« ما يسرنى أن لى مثـل أحد أنفقه فى سبيـل الله أموت وأترك منه قيراطين • • • »

قيـل :

« أو قنطارين يا رسول الله ؟ »

« بل قيراطين ! »

* * *

هكذا كانت نفوس الخاصة والأشراف فى تلك الفترة من تاريخ الاسلام • • • ولم تـكن صيحة أبى ذر هى الصوت الأوحد الذى ارتفع يحارب هذا النهم ويحاول أن يردهم عنه ، بل سمعت هاهنا وهناك همسات تنكر الترف ، وأصوات تدعو جاهدة إلى السبيل الواضح السليم ، ليست كلها على ألسنة ذوى الحاجات • وكان طبيعياً أن يتململ فى عزلته معلم الناس الأول ؛ وحكيمهم بعد رسـول الله • وأن يتحرك قلقاً كما يفعل أسد حبيس قفصه إذ يلمح ما يهيج ثائرته من خـلال القضبان • • • كان دائـماً يشعر أن هذه المظاهر البراقة التى جنح إليها أصحاب محمد ، رجال كتائب الايمان الأولى ، إن هى إلا جراح فى قلبه تدميه لأنها خدوش أحدثتهـا شراهة النفوس فى كيان الدين • ولـكنه لم يكن يملك غـير لسانه يفيض بجوامع كلمه — تماماً كالأسد إذ يلعق به دماء كلمه • كم من يوم مشى على إلى أولئك المترفين من الصحاب ، تارة بالنصح وتارة بالعتاب ! • • وكم من مرة واجـه فيها عثمان برأيه فى سياسته المبنية على التهاون واللين إزاء تهالك

هؤلاء السادة على زخرف الحياة دون بساطة الزهادة ! .. وكلما عاد من حديث ملامة عجب لهذا المال كيف يستعبد الرجال ، ويشترى منهم قلوبهم رخيصة . . إنه هو واحد منهم ، نهل كمثلهم من نبع هاديه وبدأ وإياهم السير على سننه . . فما لهم توقفوا من دونه عن إتمام الرحلة ؟ . . وإنه أيضاً واحد منهم ، له عطاء كمثل عطائهم أو يزيد قليلا ، فما له لو أراد شبعا لأعوزه أن يجد فى بيته ما يملأ بطنه من دقيق الشعير ؟ .

ولكن أمن المستطاع حقاً أن نقرن به غيره ، هو الذى ولى الدنيا ظهره ، وزهدها مقبلة أو مدبرة ، وقرن فيها البذل وإنفاق المال بالايمان فقال :
« لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده . »

٤

غلبت فتنة البذخ على نفوس الكثرة من كبار رجال الإسلام ، واستهواهم الثراء وحب الاقتناء . وكان عثمان كأحدهم ، لولا أنه يملك مفاتيح بيت المال فيستطيع متى شاء أن يهب بيمين وشمال . وكان سخياً حيياً ، ما قصد إليه امرؤ إلا أطلق له كفه ... غير أن الحياء والسخاء كليهما كانا عون أهله عليه ، ووسيلتهم إلى قلبه الرقيق ... وهل يسعه أن يرفض لهم حاجة وقد اتخذهم من دون المسلمين بطانة وأعواناً يسندون ملكه ؟ .

إنما وسعه أن يغدق عليهم من الأموال ما جادت به أريحيته وتسامى إليه كرمه . ولكنه فى البذل لهم لم يكن مسوقاً بسجيته السخية بقدر ما دفعته ظروف الأحوال ... كان يعلم حق العلم أى الرجال بين الناس كان ذووه ، وأى المنازل نزلوها فى قلوب شعبه ؛ وبأى النظرات كانت تراهم عيون الأمة ... ما من واحد منهم إلا تهامست به الألسن اللاغطة أو اقتحمته الأبصار وثارت به القلوب النقية الصافية والعقول الذاكرة الواعية .. كانوا فى الناس ذوى ماض مشوب السيرة

معتكر السريرة . وحتى الذين كانوا من بينهم أنقى صحيفة ، لم تكن الأذهان قد نسيت أنهم أرغموا على اعتناق دين الله فدخلوه وأعناقهم تحت ظل السيف ، وأن قلوبهم لم يعمرها الايمان أو يعلق بها إلا بعد أن تألفها رسول الله بالأعطية والهبات حتى لايحملهم ضعف نياتهم على أن يمالئوا عليه الكفار . وكان محمد — العارف بطوايا الأنفس وأهوائها — يقول فيهم ، وفيمن كانوا على غير غرارهم ممن آمنوا ابتغاء مرضاة الله :

« إنى لأعطى قوماً أتألف ظلعهم وجزعهم ، وأكل قوماً إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الخير والغنى . »

ولعلنا فى هذا المقام يحضرنا كيف وجدت الأنصار أن رسول الله يعطى بعض قريش — وفيهم ابو سفيان بن حرب وابناه معاوية ويزيد — ما غنمه فى حنين ، فتقدم إلى أنصاره معاتباً يقول :

« أوجدتم يامعشر الأنصار فى العلالة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا؟. »

هؤلاء المؤلفة قلوبهم كانوا خير بنى بيت عثمان وكلهم تأخر عن الإسلام إلى أن وضحت فى الأفق شمس نصره . وإن منهم لمن تخلف عنه — حتى بعد أن فتحت مكة أبوابها لمحمد بغير أداة حرب — وقام تدفعه الجهالة وسوء تبصره بالأمور إلى إشهار سيفه فى عصبة من موتورى الكفار . ذاك كان يزيد بن أبى سفيان : حسب أن قد آن له أن يمنع بلدته ، فما وقف حتى وقع فى الإسار .

وكانت هناك أيضاً بقية منهم فيها عمه الحكم بن أبى العاص الذى خاض فى رسول الله من فحش القول والإشارة بما لم يغفر له بعد إسلامه ونفى من أجله إلى الطائف لا يبرحها بأمر رسول الله . وظل منفاه بعيداً فى عهد أبى بكر وإن شفع له لديه عثمان . فلما استخلف عمر ، ومشى إليه عثمان ثانية بالرجاء ، نهره وقال :

« يخرجه رسول الله وتأمرنى أن أرده ؟ ... إياك يابن عفان أن تعاودنى فيه بعد اليوم ! . »

ولـكنه ما كاد يعتلك مقاليد السلطان حتى أكرم طريد رسول الله ورده معززاً إلى المدينة ومنحه مائة ألف .

وكان فيهم ذلك الفتى ابن أبي سرح الذى أسلم — فيما يبدو — نكاية فى الإسلام ، حتى إذا وكل إليه محمد كتابة يمض الوحي خان الأمانة وحاول أن يبدل ويغير فى التنزيل ، فأهدر الرسول دمه ، ثم عفا عنه عام الفتح واتسع له حلمه .

وكان أيضاً فيهم الوليد بن عقبة الذى عاد إلى رسول الله — وقد كان بعثه إلى بنى قريظة بعد إسلامهم — فزعم أنهم هموا أن يفتكوا به . . . وغضب له المسلمون ، وكادوا أن يشعلوها حرباً من أجله لولا أن تداركتهم آية من عند الله قالت فيه :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

ولقد حقت فعلا كلمة الله عليـه ، لأنا لانلبث إلا قليـلا حتى تطالعنا من تاريخ هذا الفتى صفحة ملطخة ، هى الصورة الواضحة لنفسه التى كشف عنها القرآن الـكريم قبل كثير من الأعوام .

* * *

هذه ألوان من أسرة عثمان انعكست عليها عواطف شعبه منذ اليوم الذى تملك فيه أمور الناس . . . وكان رجلا يجتمع فى قلبه إلى جوار طيبته حبة بيته ومنه كل أولئك الذين أبت عليهم أقدارهم إلا أن يذهبوا فى التاريخ مثلا حية لعداوة الإسلام قبل أن تقهر نفوسهم على الولاء له . ولم يكن هـذا بالعجيب منهم وهم أمويون . ولـكن العجيب أن ينشأ من بينهم عثمان السمح ذو النورين . . . فلما استطاع أن يوليهم منة لم يحجم أبداً ، وتقدم راضياً بمنحهم من خيره وفضله . وما أحسبه قد خالف طبيعته البشرية إذ فعل ، ولـكنه استجاب لها . ولمن كان مثله ، تقدم به العمر ووهن قوى ، وأوشك أن ينوء بمظلم الأمر الموكول إليه ، أن يؤلف حوله بطانة تشدد

عزمه وتحمل عنه بعض وقره . . . وأوفى الناس له بلا ريب هم أدنى الناس إليه . فلما علمهم موسومين بشبهات ماضيهم ، رأى أن يعوضهم عن حسن السيرة بحسن المظهر املا مستطيعا بهذا أن يبهر النظرات الشزراء التى عهدها تقتحمهم من قبل . ولقد يكون المجد العارض مغنياً عن نقاوة السمعة بعض غناء ، والثروة السابغة مدعاة للتوقير والاحترام .

غير أنه نسى فى هذا أن الشعب الحانق على تفضيل السابقين إلى الإسلام فى العطاء لا يستطيع أن يغفر تفضيل من لهم تاريخ معلوم فى عداء الإسلام وإن كانوا أهل بيت عثمان . . . ولكنه كان رجلا كلفاً بذويه . لا يقدر — لفرط حبه إياهم — أن يتبين خطأ فى منة يعدهم بها ويرفع من مقامهم بين الناس . وكانت نفسه السخية تحبذ لديه الكرم حيثما اختلف وضعه . ولوصله قرابته بر يتقبله الله ! .

كذلك كانت نظرته كلما اغترف من المال فغمر به ذوى قرباه . وبهذا جرى فى خاطره رأيه فاقتنع به أشد اقتناع . وكان عسيراً عليه أن يقلع عنه وإن عاتبه فيه صحبه ولاموه عليه ... مشى إليه ذات يوم على بن أبى طالب ومعه نفر علموا أنه وهب أحد ذويه مائة ألف فعاتبوه فأجاب .

« إن له قرابة ورحماً » .

فأنكروا عليه حجته وسألوه :

« فما كان لأبى بكر وعمر قرابة وذوو رحم ؟ . »

قال :

« إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان فى منع قرابتهما ، وأنا أحتسب فى إعطاء قرابتى » .

فقاموا عنه غاضبين وهم يقولون :

« فهديهما والله أحب إلينا من هديك ! . »

٥

بدا عثمان كمن حرص على أن يعمل جاهداً لتزيد هوة الفوارق بين الطبقات اتساعا فى وقت دعت الحكمة فيه إلى محوها أو تضييقها فى القليل . ولكنه كان يحمل فى صدره قلباً لا تنعكس عليه مشاعر شعبه ، قد ملأه حب ذويه حتى لم تبق فيه سعة لغير التكلف بهم ، والفناء من أجلهم وفيهم . وكانت له عين تقصر عن الرؤية إلا لمدى معلوم ، لأن آله وقفوا يحجبون عنها بأشخاصهم وهيا كلهم ما وراءهم من أبعاد ومسافات . وكان عقله بعد هذا عقل شيخ . فقد مزية الصبر على معالجة ما يعرض له من أمور ، وكل فآثر أن يستعير منهم الرأى والفكرة .

وفى الحق لم يكن الرجل فى ثانى شطرى عهده إلا ثوب عثمان وذهن مروان . . . أينما خطر أمام الناس رأوا الأمير الشيخ ، فإذا عمل بدت فى العمل آثار المشير الشاب . . . حتى الكلام لم تكن له سبيل إلى اختيار ألفاظه كأنما كان يلقنه قبل النهوض له . أو كأنه الستر الذى يتحدث من خلفه مروان . وإنه لمن الإجحاف بحق الخليفة الثالث أن يؤخذ بجريرة كل ما نسب إليه إلا إن تركت اليد الجانية وحوسب عنها القفاز .

كان مروان بن الحكم بن أبى العاص هو الحاكم الحقيقى للدولة ، والحاكم أيضاً لحاكم الدولة ! . . وكان ابن عمه فى يده ملهاة ، أضرت به طيبة قلبه وسلاسة قياده . ولكن الشيخوخة تقتل العزم ، وتطفىء جذوة التوقد فى العقل والحمية فى القلب . وعسير على من بلغ سن عثمان أن يظل معافى فى كلا الذهن والبدن ، وأن يملك نفسه أن تلين لضغط من كان أشد مراساً منه .

ولقد عرف مروان من قلب الشيخ طوية سليمة ، فلم يعجزه أن ينفذ منه كما ينفذ شيطان . . . ولعله ظل طوال النصف الأول من عهد عثمان يحيك خيط شباكه فبقى هكذا فى الخفاء لا يسمع بسطوته الناس . ولكنه كان

متربصاً لوقته ، متحيناً للفرصة التي آمن أن لا بد سيثمرها دأبه . وما دام أمير المؤمنين كلفاً بأهل بيته ، قد أوسع في قلبه لهم ، وغمرت مكارمه البعيد والقريب منهم ، فليكن إذن مروان من الأدنى أدناهم . وليتقدم إلى ابن عمه بما يقدمه على كل أولئك الرهط المتهافتين على ابن الشيخ تهافت الفراش على النور والنحل على الزهر . . . وهل هناك أجدى عليه من زواج يزيده بأمير المؤمنين توثق صلة وعلو منزلة ؟

ومن اليوم الذى زف فيه إلى أم أبان ابنة عثمان أخذ نجم ابن طريد الرسول يعلو فى حكم الدولة . وراح الناس يتطلعون إليه تطلعهم إلى مالك أقدارها المتحكم فى مصايرها . ولو كان كيساً لم يركب شططه ، لوسعه أن يصلح ما أفسد الزمن من سلطان صهره . ولكنه كان مفتوناً بالصلف ، مستبد النزعة ، يثيره النقد حتى الحماقة ، ولا يدفعه إلى معالجة الخطأ بقدر ما يدفعه إلى الإصرار عليه . وهذه صفة كانت علماً على سياسته التى أغرى بها عثمان حتى أورده حتفه .

وكأنما كان الرجلان كفتى ميزان ، رجحان الواحدة على حساب الأخرى ... فكلما زادت شوكة المشير ، وهنت هيبة الأمير ، وأخذ ما بقى له من إجلال فى نفوس شعبه يذهب بدداً ... ولو أن عثمان كان أنفذ بصيرة وأقوى على اكتناه نتائج الأمور لاستطاع منذ هذا الزواج أن يأخذ حذره ويتبين موقع قدميه . ولكنه كان ينظر بغير عينيه . وكان كلفاً بمروان مفتوناً أشد افتتان ، لا يطيق أن يسمع فيه كلمة حق وإن جاءت على لسان من لا تعلق به شبهة .

وكان قد منح زوج ابنته يوم عرسه مائتى ألف من بيت المـــال سوى ما كان قد أقطعه إياه من قطائع . فلما أصبح ، جاءه مع الصباح زيد بن أرقم خازنه ، حزيناً يشرق بدمعه يرجوه أن يقيله .

استغرب عثمان غاية استغراب من البكاء والرجاء وراح يحدس فى ذهنه الدافع الذى حدا بعامله أن يترك عمله ، ويتوسل إلى الإقالة باعتصار عينيه .

فلما أعي ذهنه أن يقع على سبب واضح معقول ، واستوضح الرجل وعلم سره، بلغ به العجب مداه .

وقال أخيراً محيراً ، بعد أن ألقى زيد إليه بما فى نفسه :

« أتبكى يا ابن أرقم أن وصلت رحمى » ؟ .

فأجابه خازن بيت المال بلا موارية ولا إخفاء :

« لا يا أمير المؤمنين . . ولكن أبكى لأنى أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته فى سبيل الله فى حياة رسول الله . . . والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً » !

فأغضبته هذه البادرة أيما غضب وصاح محنقاً بالناصح الأمين :

« ألق المفاتيح يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك » ! .

* * *

على أن هذه الواقعة لم تكن إلا حلقة من حلقات سخاء عثمان ، وحرصه على أن ينتخم آله بأسباب الجاه . . فحيثما جرت العين فى سطور تاريخه رأت إغراقاً فى البذل تكاد أن تحسبه من خيالات الأوهام . حتى فى بدء حكمه — فى ذات اليوم الأول لخلافته ، منح أبا سفيان شيخ بنى أمية مائتى ألف درهم ... ففيم هذا الكرم المغرق العجيب ؟.. وهل كان أداؤه لسبب معلوم؟.. لعل الرجل كان يلبى نفسه المطبوعة على الأريحية ! . . لعله —على حد قوله— آتى المال ذوى قرباه زلفى إلى الله ! .. لعله كان يستجيب لهذا أو لذاك من الدوافع الشخصية . ولكن المنافح من أجله ، المدافع عنه ، سيعيبه لا بد أن يقع فى حياته على جواب واحد يشفع له ويقوم مقام أوهى الأعذار .

أما الناقد المناهض فيسير عليه أن يثبت له . وأن يجبهه بكل صنوف الاتهام . ألم يكن هذا الإنفاق فى غير وجوه الاصلاح العامة إلا عبثاً كاملا بالأموال ؟ .. وهذه الآلاف المبذولة — إن عرف جدواها على بنى أمية فما جدواها على الأمة الإسلامية ؟ .. وما للشعب ولأم أبان يتزوجها مروان —

ولعائشة أختها يتزوجها الحرث أخوه فيجزل الأمير للرجلين العطاء ويمهرها كأغلى ما تمهر النساء ؟ . قد كان عثمان غنياً حقاً يسعه أن يبذل العون لأهله ، ولكن أي ثروة هذه التي تحتمل توزيع مائة ألف دينار على الحكم بن أبي العاص ورجال بيته ، ومائة ألف ثانية على بني عثمان ، ومائة ألف ثالثة على بني أمية وآل أبي سفيان .. ثم غير هذه المئات المؤلفة على البقية الباقية من أسرته الوفيرة الفروع والأفراد ؟ .

هذا الإغراق في السخاء كان حرياً بأن يشكك في الأمير شعبه الفقير ، ويضعه من العيون الفاحصة في نطاق الشبهات ، فما كان للطبقات المتربصة لأخطائه أن تصدق أن نصف هذه المنح المبذولة — في القليل — لم يكن من بيت المال ، وأن ثروته القديمة ، التي أنفق جانبها الأكبر في الكفاح لنشر الاسلام ، تحتمل أن تبقى فيها بقية تفي بكل هباته الجديدة .. ولعل أولئك المستريبين فيه لم ينسوا أن عطاءه طوال حكم عمر ، وكان لا يزيد على خمسة آلاف درهم في العام ، لا يمكن بحال أن يبلغ جزءاً واحداً من مائة جزء مما وسعه إنفاقه على ذويه .

ولكنها سياسة اختطها الرجل لنفسه والتزمها أشد التزام . إذا وزنها الفاحص المتريث أعوزه أن يتلمس لها المعاذير وإن كان لا يعوزه أن يقدر دوافعها ونتائجها فلا يخطىء في التقدير .. ولئن غابت عنه دعوة أبي سفيان لذويه — يوم استخلاف عثمان — أن يجعلوا الإمرة ملكا تتوارثه الأسرة ، فليذكر إذن هذه الدعوة الآن .. وليعجب أكانت إيحاء خفياً من شيخ بني أمية رسب بواعية الخليفة الثالث ، ثم طفا آونة في صورة جود يزرى بكل جود ، وثانية في مظهر جاه يعز على النظائر والأشباه ! .. ثم ليسأل من بعد هلا يفيء المال منعة وقوة ، وهلا تفيء القوة سلطانا وسطوة ؟ .

٦

إنه الأمس فقط .. الأمس القريب الذى لم يكد ينطوى فى ألفاف الماضى إلا من قليل وإن بقى ذكره حاضراً فى أذهان الناس لا تغب آثاره .. وإنها الدعوة أيضا .. الدعوة السافرة الجريئة التى حاولت كلمات الخليفة المستنكرة أن تلفها فى غلالة تخفيها ، فجاءت الغلالة رقيقة رقة نفسه ، شفافة أبدتها على هيئتها الأولى ، كما أرادها صاحبها الداعى بها : شيخ قريش .

أجل إنه الأمس الماثل والدعوة السافرة . كلاهما له فى نفوس الناس أثر عالق لم يعد الزمن إليه يداً لتمحوه بقدر ما كان يعدها لتثبته أو تضيف إليه . فما من رجل فى الأمة كان يرى الخليفة مرة إلا ذكر الواحد وذكر الثانية . . الأمس يتجدد فى كل نهار ، والدعوة يعلو صوتها كأنها تخرج لتوها من بين شفتى أبى سفيان كلما رأى الناس جديدا من فمال عثمان .

كان العصر كله يوما واحدا ، هو اليوم الأول لخلافة الشيخ الأموى ، يتكرر مع الصباح ولا يتغير ، كالصور الشتى لأصل معلوم ، وكان موسوما بسمات طبعها عليه الماضى قبل أن يطبعها الحاضر . ولو استعان المرء بخياله لهل حواسه على استخلاص صورة جامعة عنه ، لوسعه أن يراها فى ذلك المنظر الماثل فى الذهن وإن غاب عن العين ، بدار عثمان يوم استخلافه ، وقد اجتمعت شرذمة من أسرته يهيب بها شيخها وبالخليفة الجديد :

« يا بنى أمية .. تلقفوها تلقف الكرة . فوالذى يحلف به أبو سفيان ، ما زلت أرجوها لكم ، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة ! .. »

هذا المنظر القديم هو الصورة التى تحمل فى معالمها كل دقائق العصر . بل هو — فى الحق — الصورة المتكررة لكل أيامه حتى لكأن أبا سفيان كان يقف نفس موقفه هذا فى كل صباح ليدعو بدعوته .. بهذا تحدثت الوقائع من بعد كأنما لسان ابن حرب كان لها لسان حال . وبه تكلمت

الأحداث التي تلاحقت دراكا . فما مر يوم واحد من حكم السليل الأموى إلا وفي ثناياه دليل بالغ على التزامه النهج الذى رسمه سيد قومه . ولا جاءت لحظة إلا حملت منه الولاء لدعوة شيخه غاية الولاء .

ضرير بنى أمية دعا ، وأمير بنى أمية لبى .. ولا عبرة بعد هذا بما كان من استنكار الثانى بادىء الأمر للدعوة .. وإنما العبرة بأنه احتذاها خطوة خطوة ! .

* * *

بدأ عثمان — أول أمره — كمن أنكر على أبى سفيان دعوته السافرة إلى احتلاب السلطان ، وإلى تبديله من خلافة شورية إلى ملك متوارث فى بنى أمية .. ثم فعل كمن غلبته تلك الدعوة على عزمه .. قد كان حقا رجلا رخواً لا يملك أن يسوس نفسه ، ولكن عوامل كثيرة أخرى تضافرت عليه فسلبته حتى القدرة على الاستمساك بإنكاره . وقهرته — حتفت أنفه بغير افتراض — على سلوك الطريق المؤدية إلى تحقيق مطامع الأمويين .. هذه الأسرة الحالمة بالمجد منذ عبد شمس ، الطامئة إلى السيادة فى شخص أمية ، الساعية بسيف أبى سفيان وحقده لهدم كل سلطان يبزها ولو كان سلطان الدين ، قد آن لها أخيراً أن تشبع نهمها من السطوة والسيطرة والنفاذ .

فى كل فعاله كان عثمان يسير على غرار معلوم .. لكأنما كانت تدفعه دائما تلك الكلمات القلائل التى نطق بها يوم الاستخلاف شيخ الأمويين .. أو لكأنما كان أبو سفيان على أذنه يوسوس له قبل كل عمل يأتيه .. أم هو يا ترى نداء الماضى أيضا كان ينفذ إليه من خلال الأجيال ؟ .. إن الوراثة أخيراً قد قهره سلطانها الغلاب ، وإن الدم الأموى قد اقتضاه ضريبته الواجبة الأداء .

ولقد استجاب الرجل لنداء الماضى ، ولان لسطوة الوراثة ، ودفع ضريبة الدم .. إنه أموى المولد أموى التكوين ، موصول قلبه بأهواء

أسلافه ... وإذا كانوا جروا من قبله أشواطاً فى طريق السيادة ، ووقفوا طويلا ينافسون المجلين عليهم فى الميدان ، وأمعنوا فى منافستهم حتى ناجزوا فى محمد نفسه ســـلطان السماء ... إن كانت قد ركبت بهم قوسهم كل هذه المراكب ثم قهرهم زمانهم على النكوص والتخلف ، فإنهم إذن اليـــوم قد أوشكت شمسهم على البزوغ . وأوشكت أحلامهم العريضة الموءودة أن تجد لها منفذا إلى الحياة بعد أن أصبحت فى يد أحدهم دولة عريضة تكاد ألا تحـدها حدود .

عثمان أمير المؤمنين قد استتب له أمره ، وانقاد له الناس ، وألقت إليـــه بطاعتها الأمصار . . . هذا الأموى أصبح الآن أمامه حقيقة ما كان أمية يرنو إلى بعضها بعين الخيال . تجمعت بين أصابعه خيوط يحرك بها دولا وشعوباً كيفما يشاء .. دانت له الرقاب ، وعنت الوجوه ، وسالت تحت قدميه الأموال .. إنه ليس بالطامع الذى يستذله الشره ، ولا بالمفتون بالجاه ، ولا بالنهم إلى عرض الحياة . إنه كان نقى القلب ، صافى السريرة ، نفسه غير مشوبة بسواد الأحقاد . . إنه لم يكن مغرقاً فى الأموية كبقية الأمويين ! .. ولكنه مع ذلك إنسان كغيره من الناس ، له طبيعة بشرية ، ودم حنان ، وعرق دساس .

هذه كانت وحدها أداة عثمان إلى تحقيق أهـداف أسرته . هذه الحوافز النفسية كانت هى الأداة . . أما هو فلعله أنكر دائماً بظاهر عقله — كما أنكر بلسانه — أن يقر لهم بحق واحد فى بلوغ هذه الأهداف . ولكن العقل الظاهر فى مثل هذه الحالات جدواه قليلة . . معدوم الحيلة . والكلمة النافذة فى النهاية ليست لمنطق اللسان ، بل لتلك القوة الدافقة الدافعة . . للعقل الباطن والواعية التى ليس لصاحبها عليها سلطان .

الحوافز النفسية دفعت عثمان للسير على غرار معلوم . وتحت ضوئها الساطع يستطاع فهم كل أخطائه . . هو لم يعرف مطلقاً أنه أخطأ ، ولم يقر على نفسه

بوزر ارتكبه لفعل أتاه . . ذلك لأنه كان يعمل دائما بحسن نية . أو كان حقا لا يعمل بنية مبيتة — على الإطلاق .

كذلك سار الرجل طريقه ، مقودا بزمام نزعة قديمة كالغريزة ، انتقلت مع الأجيال الأموية المتعاقبة فى عروقه وجرت دما قانيا لا يغيض . وراح بإملاء هذه النزعة يسود أهله ويرفعهم عاليا فوق رقاب الناس، ثم لا يعدم — لو وقف موقف لوم أو موقف حساب — أن يتلمس لنفسه المعاذير فلا يعييه أن يقع عليها فى حسن اضطلاع بالأمور فضلا عن صلة الرحم وقرب الأنساب .

وكما سبق أبو سفيان بقية أهله إلى سخاء الخليفة وبره حتى فاز منه بأول هبة أخرجها يوم الاستخلاف ، كذلك كان هو أول من أفاد من أسباب النفوذ حين شاء عثمان أن يمكن لآله فى السطوة بعد الثروة . . فلم يكد يمضى عامان من حكمه حتى ارتفع نجم معاوية بن أبى سفيان فى الأفق ولمع . . وغدا ، بعد عامل لعمر على دمشق والأردن ، أميرا للخليفة الشيخ عليهما وحمص وقنسرين وفلسطين . واجتمع له بهذا حكم الشام كخطوة ثابتة إلى امتلاكها وامتـــلاك الدولة كلها بعد أعوام .

ثم سار الخليفة يذرع بواعيته البلاد فيقيم عليها هنا وهناك عمالا من ذويه، ويضع فى أكفهم صوالج السلطة . وأخذ أفراد الأسرة الكبيرة ينتشرون فى الآفاق أمراء من لدنه على الرعية والجند ، يمسكون بالزمام فى البصرة والكوفة ومصر وغير هذه من بلدان. ولم يمض سوى قليل حتى قفز إلى أماكن الصدارة أمثال ابن عقبة وابن عامر وابن أبى سرح وسعيد ومروان ممن كانوا إلى عهد قريب بين صوف الأحلاس ومغمورى الناس .

وكذلك مكن عثمان لأهله فى الدولة ، ومكن بهـــذا لدعوة شيخه الضرير أن تتحقق . . وأصبحت البلاد فى أكفهم كذبابة أوقعها ســـوء الطالع فى نسيج عنكبوت ! . .

٨

كيف مضى الزمن والرجل حبيس هكذا بين أسوار تفكيره الخاص ؟ كيف ظلت غشاوة الأثرة على بصيرته لا تنجاب أبدا ؟ . . كيف عاش أيام حكمه كلها فى عالم لا يكاد أن يسمع فيه سوى رغبات أقربائه ؟ .

ليس عجبا أن يبقى عثمان طوال عهده مفصولا بينه وبين شعبه لا يتبين شيئا من مشاعره نحوه ما دام أفراد أسرته كانوا الترجمان غير الأمين لتلك المشاعر . هذه الشرذمة لم تصدقه مطلقا القول ، ولم تنفرج شفاهها المتحدثة عن كلمة واحدة تنبه ذهنه ، ولم تشر أصابعها مرة إلى موطن الداء . . . كل ما أخذوا به نفوسهم كان إخفاء الحقيقة عنه ، وتغطيتها بستار كثيف من التمويه والزور . وكان الرجل ، وقد أولاهم ثقته ، يسمع بآذانهم ، وينظر فلا يرى بعينيه ! .

وكانت صوالحهم هى وحدها أسمى الأهداف . وكانت غاياتهم ركوب هام الناس والنفوذ إلى المآرب من أى سبيل . . أما هو فكان ساذج القلب ، بريئا كالزهرة ، يعيش فى نطاق مضروب حوله من النحل ! . . وكان أيضا له سن شيخ وسريرة طفل . يلهبه الغضب ثم يرده الترضى إلى طبيعة اللين والاسترخاء . فإذا أوشكت تيارات المواصف الشعبية أن تهددهم فى أغراضهم أحيوا فيه حدة الشيخ وغضبته الفوارة على كل قائم أمامهم بالمناجزة والكفاح. وإذا هدأت العاصفة ومرت فوق رءوسهم بسلام فالطفل الكامن فى نفسه كفيل بأن يفىء عليهم من الخير كل ما يطمعون فيه ما استطاعوا أن يمسحوا على شعره بكف الملاينة والاسترضاء .

هذه هى الخطة التى التزمتها الأسرة ، والتزمها — أشد التزام — مروان ابن الحكم حيال عثمان . وبها استطاع ابن الطريد أن يملك وحده نواصى السياسة فى الدولة ، وأن يتحلب حكمها ويفرض نفسه فرضا على فكر الحاكم .

لم يكن فحسب مشيرا للأمير ، ولا وزيرا ينصاع لإرادته ويعمل وفق أمره ، ولا أداة يستعين بها عثمان على إنجاز ما يريد ، ولكنه كان أولئك جميعا فى حساب المظاهر ، وكان أيضا الأمير فى حساب الواقع الصريح السافر ! .

وكان امرأ لم يعوزه الخبث إلى جوار الشره وبعد الأهواء ، يحرك بأصابعه الخيط فى الناحية التى تمليها عليه شهوته ، ويعمل دائما وهو محجوب عن الناس بهيكل الخليفة الشهيخ فيبدو العمل ويبدو عثمان فى آن . مثله بلا ريب كتلك الهوام تخشى النور وتدب فى الظلام . الخفاء كان ميدانه ، والدس سلاحه ، والتمويه مركبه إلى هواه . أفلا يشى كل هذا بجبن طبعه ؟ .

بلى قد وشى وانحسر الستر ! . . . ولكنه استنهض خبثه وراح يجيش كل ما استبطن من خبيء نفسه ليستعين به على المحنة . . فى بادىء الأمر قبل أن يدلهم الخطب كانت الكلمة الواحدة يوسوس بها للخليفة كفيلة بما يريد . ولم يكن التذمر إذ ذاك يعدو تهامس الناس ببعض أخطاء عثمان ، أو تناولهم — فى كثير من الحرص والتحرز — عماله النابية ببعض الاستنكار . . ولو أن مروان كان حقا وزير صدق لوسعه أن يتدارك الفتنة ، وأن يكشف مخلصا عن مكمنها ثم يشير على ولى نعمته بالعلاج الحاسم . ولكنه كان امرأ جبان الطبع ، لا يستطيع أن يواجه الحقائق فاستمان دائما على الأزمات بأسلحة الظلام .

سل الدس والخداع والوقيعة ، ومشى بين الخليفة وبين شعبه ، يرسم الحوادث وفق هواه ثم يثير كافة العوامل النفسية التى تضطرم بها دماء الرجل . استغل فى عثمان بره بأهله فصور له كل ناقد فى صورة ناقم عليه هذا البر ، حاسد أهله ما أصابوا من خير . واستغل فيه ضيق الخلق الذى يلازم الشيخوخة فأوغر صدره على كل من مشى إليه يرجو الإصلاح أو يطلب الإنصاف . واستغل فيه تشبث الشيخ المهيض بما فى يده من سلطان — وطبائع الشيوخ أدنى إلى طبائع الأطفال — فلون له من عارضه من الناس بلون الساخط الملول ، يتمعجل

نهايته أن تحين وحكمه أن يزول . حتى طيبة نفس عثمان وحلمه استغلهما هذا الباغى وجعلهما فى عين الشيخ ذريعة الناس إلى الاستهانة به والجرأة عليه .

كذلك لم يبق فى الأمة رجل مشى إلى الخليفة بكلمة نقد إلا ألبسها مروان ثوب باطل . ولا دعوة تحدثت بها الشفاه إلا حاول خنقها قبل أن تذيع . وكان يستلهم دائماً نفسه فيسعفه خبثها بالذرائع والأسباب ، ويمده جبنه بألف وسيلة للمناهضة والكفاح . . . ولم يكن فى هذا بحامى الخليفة ولا بالذائد عنه بقدر ما كان ذائداً عن جاهه هو وعن سلطانه . قد علم فى قرارته فيم كان تذمر الشعب وإلى أين تؤدى به استجابة رغباته وأساس الاستنكار دائماً كان الترف الذى غرق فيه أهل بيت عثمان ومن لف لفهم ، وما جره الترف على بقية الأمة من الفاقة والحرمان .

حارب مروان النقد ليدافع بهذه الحرب عن نفسه ، وحاول خنق حرية الرأى لأن حياته الناعمة وحياة آله لا تكون إلا فى ظلام الاستبداد . ولو استطاع لقطع ألسنة الناس ليأمن سماع ما فاضت نفوسهم به من الشكوى المرة . غير أنه بقليل جهد أمكنه أن يجعل الأمير مؤمناً أشد الإيمان بأساليبه يقره على انتهاجها بغير توان . . هو حقاً لم يبد للعيان فى صورة المناجز . ولكنه اتخذ من عثمان ستاراً توارى خلفه . وما أحسب خطأ واحداً من أخطاء الشيخ إلا وفيه آثار واضحة من أصابع ابن الطريد .

وهكذا مضت الأيام والخليفة الشيخ غافل ، لا يستطيع أن يمد بصره لأكثر من نطاق داره ، ولا أن يرهف أذنه للصيحات التى جاءت تترى من هنا ومن هناك . فإذا رأى فحديث آله أصدق عنده من رؤية عينه ، وإن سمع فتفسيرهم لما صك سمعه هو إذن محور السماع . . . خشى معاوية أن تفسد عليه دعوة أبى ذر شعبه وتبتزه ما هو فيه من رفاهة واستبداد بأموال الناس يحتجنها أو يصرفها كما يشاء فكتب إلى الخليفة يقول :

« إن أبا ذر أعضل بى . . . وقد اجتمعت إليه الجموع ولا آمن أن يفسدهم

عليك . فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمله إليك » .

فكأنه لم يخش من الداعية الزاهد إلا أن يفسد الأمر على عثمان . وكأن خوفه هو منه على نفسه لم يطف له ببال .

ومع ذلك فإلى أين أدى به هذا الصوت الداوى الذى ملأ كل الأسماع؟.. وكيف تلقى الدعوة التى جاءته من الشام عبر الصحراء ؟ . . ولأى مدى استوعبها قلبه وتفكر فى قيمتها ذهنه هو العالم بأن صاحبها ما كان لينطق عن هوى أو ليدعو بها لغير وجه الحق الواضح المبين ؟ .. عجب أن ينسى عثمان كل هذا ويذكر فحسب — كما ألهمه معاوية — أن أبا ذر أراد أن يفسد عليه الناس ! .

ولكنه كان قد أولى آله ثقته . يسمع بآذانهم . وينظر فلا يرى بعينيه .. ولو مشى إليه بالشكوى آلاف الناس لأصم عن شكواهم سمعه ولتناولهم بأغلظ العقاب كما يشير عليه ذووه . . . لا يشفع للشاكى عنده شفيع من حقيقة ماثلة فى شكواه ، ولا من إخلاص وأمانة تنم عنهما كل مراحل ماضيه . وبهذه الروح التى جانبت الإنصاف وواجب الحاكم حيال رعيته ، تناول عثمان كل ما عرض له من نقد أو دعوة إلى إصلاح .

وكذلك راح يناجز المصلحين والدعاة ويقمعهم بسلاح أظلم الطغاة ، لايدع وسيلة من وسائل النكال إلا ركبهم بها عسى أن يقهرهم بالظلم على الإقرار بالظلم . . . حتى ذلك الصحابى الجليل لم يسلم من يده . لكأنما نسى له عثمان ماضيه وصحبته وعزوفه عن الحياة .. بلى قد نسى — فيما يبدو — لأنه أراد أن يذكر فحسب أن أبا ذر — ولمعاوية فى هذا القول الفصل — جأر بدعوته ليفسد عليه الناس .. ألا فأين الصواب إذن إن لم يكن فى دعوة هذا الشيخ ، وحضه الموسر على أن يرحم الفقير ولا يكتنز مالا يسعه أن ينفقه من أجل أخ له، وفى سبيل الله ، وعملا بهدى القرآن .

ومع ذلك فلن يعيى طاغية أن يقمع داعية . . . ولن يعجز صاحب طول وسلطان أن يقهر من يريد على ما يريد . . . وإن السلاح فى يديه حاضر ،

وإن البطش لكثير الألوان والأساليب . وبحسب هذا الهزيل أبى ذر أن تبعد داره ويشق مزاره ويوارى وجهه عن الخليفة بأرض فلاة . . . بحسبه أن ينفى إلى الربذة فلا يلقاه الناس عساه أن يموت فيها وتسكن عن ذكره ألسنة الناس !

٨

فيما حدثتنا به الآثار ، أوصى عمر الخليفة من بعده بالمهاجرين الأولين خيراً ، يعرف لهم سابقتهم . وبالأنصار خيراً يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم . وبأهل الأمصار خيرا فإنهم ردء العدو وحياة الفىء .

وأوصاه بفقراء الأمة يأخذ من حواشى أموال الأغنياء فيرده عليهم . وبالعدل فى الرعية لا يؤثر غنيهم على فقيرهم . وبالشدة فى أمر الله وحدوده ومعاصيه على القريب إليه من الناس والبعيد عنه .

ثم أوصاه بجماعة المسلمين أن يجل الكبير ، ويرحم الصغير ، ويوقر العالم . وأن لا يضربهم فيذلوا ، ولا يستأثر عليهم بالفىء فيغضبهم ، ولا يحرمهم عطاياهم عند محلها فيفقرهم ، ولا يجعل المال دولة بين الأغنياء منهم .

ولقد كانت حياة عمر فى ذاتها سفرا كاملا لهذه الوصايا لمن أراد أن يستعين بالأمثال النابضة بالحياة ، ولكننا لا نستطيع — كلما امتد الزمن — أن نرى فى خليفته رجلا يحسن قراءة الوصايا المكتوبة فضلا عن التزامه النهج الذى دعت إليه ، لأن عهد عثمان كله لا يكاد ينبئنا عن هذا بقليل ولا كثير !

خلف الرجل فنأى بجانبه عن المهاجرين والأنصار . وانحاز تحت ضغط عوامل خاصة إلى فئة من أهله مكانهم فى الذيول والأعقاب إذا ذكرت منازل ذوى الفضل من المسلمين السابقين إلى الإسلام . وترك صوالج السلطة بأيدى شرذمة مفتونة من غلمة بيته ينفذون بها إلى استعباد أهل الأمصار . وأوسع

للاثرياء فى رحابه يستظلون بآلائه ويغرفون من نعمائه ، والفقير المحروم مقطوع بينه و بين ماله فى تراث الغنى من حق معلوم . وأرهف الشدة فكانت سلاحاً ذا حدين : واحد قاطع قمع به شكوى المظلوم ، وآخر مثلوم داعب به بغى الظالم ، ولا مقياس له عند الحساب غير شريعة الأنساب . . . ثم بدا فى نهاية الأمر كمن آلى على نفسه أن يقرأ وصية عمر فيأتى من بعد بكل نقيض لها ، فآثر الاضطهاد والنكال عند محاسبته ناقديه : يستذلهم وينفيهم ويضربهم ويقطع عنهم موارد عيشهم من الفىء والعطاء كلما جاؤه بنقد أو أرادوه على التزام إصلاح.

كذلك فعل الرجال وكذلك رأيناه . . تحدث أبو ذر بما فاض بذهنه من آراء بادىء الأمر فى المدينة فنبذه إلى الشام . وارتفع صوته هناك لحق الفقراء فى أموال الأغنياء فرده للمدينة شر ردة . وأعضلت به الدعوة من بعد فنفاه بفلاة وفى ظنه أن النفى والتشريد هو السلاح القاطع لألسنة المصلحين ودعوة الدعاة .

وأنكرت فئة من خيرة صحب رسول الله عليه بعض أخطائه فناب عنها لدنه عمار بن ياسر يحضه على الإقلاع عما وقع فيه ، ويبصره بالخير فى النزوع والرجوع فلم يلق منه سوى الغضب الذى غلب كل روية والعنف الذى بلغت حدته أقسى التنكيل والإيذاء .

وخالفه ابن مسعود فى رأيه عن جمع القرآن فلم يعالجه بالإقناع أو يصرفه بالمعروف والإحسان ، بل أمر به أن يؤدب لاجترائه فضربه بعض عبيده وضربوا به الأرض إمعاناً منهم فى الشدة عليه حتى كسروا أضلاعه ، ثم لم تقر عين الخليفه حتى أتبع هذا التعذيب بقطع العطاء عنه .

ومع ذلك فإن شبح مروان بدا جلياً فى هذه الوقائع ومثيلاتها من الأخطاء التى علقت بذيل أمير المؤمنين . كان هو القائم على تنفيذ مشيئة الخليفة إذا أخذنا بظاهر الأمور ، ولكنه حقاً كان صاحب المشيئة الغلابة أو منفذ المشيئات على الصورة النابية التى ترضى خيلاءه . . اعترض سبيل

على بن أبى طالب وقد خرج فى جماعة من مريديه يشيعون أبا ذر حين تركه المدينة فى طريقه إلى منفاه ، وحاول بما ركب فى نفسه من طبائع الصلف والغرور أن يبدو فى عين الجمع كأ كبر مما يطيقه وسع ثوبه . . . جلس مزهواً على راحلته ، وركض بها يسبقهم إلى الرجل الذى جاءوا لوداعه ويسد عليهم طريقهم إليه . . . وتخير من بينهم أرفعهم قدراً يوجه إليه الحديث بنبرات جعلتها الكبرياء كالإملاء .

قال :

« يا على . . . إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر فى مسيره أو يشيعوه ، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك ! »

فلم يطق منه على هذا التهديد الذى جمع إلى عنف التبليغ جفوة التنفيذ ، وبادره بالسوط يضرب به وجه الراحلة التى سدت عليه الطريق ، وهتف يقول :

« تنح . . . نحاك الله إلى النار ! »

وتذاكر عمار بن ياسر ونفر من الصحابة ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله فانتهى بهم الرأى إلى كتاب رفعوه إليه . . . فلما دخل به عليه عمار ، قال له الخليفة وهو لا يخفى الاستياء :

« أنت كتبت هذا ؟ »

« نعم » .

« ومن كان معك ؟ »

« نفر تفرقوا فرقاً منك » .

« فمن هم ؟ »

« لا أخبرك بهم » .

« فلم اجترأت على من بينهم ؟ »

قال مروان وقد وجد الفرصة مواتية لإشباع ناحية فى قلبه صديانة للشر والايذاء :

« يا أمير المؤمنين ... إن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس ، وأنك وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه » .

فما أسرع أن أقره عثمان على رأيه العجيب البغيض . وتناول عصاه فضرب بها الشاكى . وأعانه على الضرب أهل بيته ومن حضر مجلسه من بنى أمية حتى فتقوا بطن الرجل وألقوه على جانب الطريق — ذلك اليوم البارد المطير — وهو فاقد الرشد بين الموت والحياة . . . كذلك فعل عثمان بعمار الذى جاءه بالنصح فى ثوب شكاة لأنه رأى فى شكواه اجتراء من العبد على السيد يكشف نواحى الضعف فيه ، ولم ير جوانب الحق التى تنطوى عليه المظالم والشكايات فى أغلب الأحايين .

فى هذه الوقائع تبدو لنا من عثمان ناحية أصيلة فى طبعه هى القسوة البالغة التى دعته إلى الإمعان فى النكال : بالتشريد وفتق البطون وكسر الأضلاع وقطع الأرزاق ! .. ولم يكن العنف ديدنه من قبل . ولم تكن الشدة بعض ما جبل عليه . ولكنها كلها صفات مكتسبة وزلات أوقعته فيها مشورات شيطانه مروان — هذا المغرور الذى حفزه مركب النقص على الكيد لكل من هم خير منه وأعلى درجة عند الله وفى عيون الناس .

أما الخليفة فمن حقه على كل ناقد أن ينتصف له ، وأن يرد سهولة انقياده لشرور مروان إلى الشيخوخة التى زودته بفتور الهمة وضعف العزم وخور النفس أمام سطوة مشيره الشاب . . . وما أحسبه إلا كان يندم غاية الندم عقب كل خطأ قسره مروان على اقترافه ، ويود بجدع أنفه أن يعرف السبيل إلى إصلاحه . ولعل موقفه — فيما بعد — من ابن مسعود يلقى ضوءاً على رغبته فى التوبة والنزوع . .

. . . خف إلى الرجل يعوده فى مرضه ، وذابت نفسه عليه حسرات وهو يرى كف الموت تكاد أن تلقفه ، فقال له يواسيه :

« يا أبا عبد الرحمن ... ما تشتكى ؟ »

قال ابن مسعود هادئاً وعينه على السماء :

« ذنوبى » .

« فما تشتهى ؟ »

« رحمة ربى » .

« ألا أدعو لك طبيباً ؟ »

فلاحت على وجهه بسمةساخرة وأجاب :

« الطبيب أمرضنى ! ... » .

فغص عثمان بريقه . وذكر فى هذه الآونة التى تدنى غريمه من آخرته كم كان متجنياً عليه . متحاملا غاية التحامل ، طالما له حين أتبع إيذاءه إياه بقطع نصيبه من العطاء إمعاناً فى النكال ...

وراح من بعد يحاول أن يصلح خطأه ، فقال :

« أفلا آمر لك بعطائك ؟ »

فرماه ابن مسعود بنظرة ثابتة فيها ترفع وإباء وفيها استنكار وازدراء ، وقال:

« منعتنيه وأنا محتاج إليه وتعطنيه وأنا مستغن عنه ! » .

« يكون لولدك » .

« رزقهم على الله » .

فلما أعيي الخليفة أن يذكر له ما يرضيه نهض عنه وهو يرجو منه العفو ويقول :

« فاستغفر لى يا أبا عبد الرحمن ... » .

ولكن المريض الموتور أباها أيضاً عليه ، وقال عوضاً عن المغفرة والرضا :

« أسأل الله أن يأخذ لى منك حق ! » .

ومع ذلك فقد حز موته فى نفس عثمان . وآلمه أكثر الألم أن يشيعوه إلى قبره دون أن يؤذنوه بوفاته ليصلى عليه ... ومشى فى هذا إلى عمار بن ياسر يعنفه لأنه أخفى عنه نبأ الوفاة فقال له عمار :

« عهد إلى ألا أوذنك » .

فبان فى وجهه التأثر وغلبه الدمع ... ووقف هنيهة صامتاً بجوار القبر الذى خاف صاحبه الدنيا بقلب ملأ السخط جوانبه على الخليفة حتى أبى له أن يقوم على جدثه بالصلاة .

وتمالك أخيراً نفسه . فراح يترحم على الميت ، ويذكر مآثره بالحمد والثناء ، وقال للحضور :

« رفعتم والله أيديكم عن خير من بقى » .

قال الزبير ساخراً وقد وارى الخليفة عنهم وجهه وغادر المكان :

« لا ألفينك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى !... »

٩

لعل مدافعة على لمروان يوم تشييع أبى ذر كانت اليد التى أسدلت حجاباً كثيفاً بين ابن أبى طالب وبين نفس عثمان ... لعلها الواقعة التى وترت الأزمة ... لعلها القشة التى رزح تحتها البعير لما أضيفت إلى وسق ضخم كان — لولاها — لا ينوء به ... على أى حال قد بدأ بها العهد الذى انفصمت فيه بقايا عرى الثقة التى كانت تربط من قبل رفيق النبوة بسليل السادة الأمويين.

وكان مروان هو الشخص الذى قطع الخيط الموصل بين الرجلين . وكانت وقيعته هى السكين ذات النصل المرهف الجديد . فلم يكد يعود إلى أميره حتى مال على أذنه . وكدأبه فى أمثال هذه الحالات راح يموه وينمق . ويصب فيها من نزغ لسانه ما يرسم خصمه فى صورة باغ ويصوره هو فى هيئة شهيد . وكانت الوسوسة سلاحاً أعاره إياه الشيطان ، فاستطاع أن يثير به من نقمة الخليفة وسخطه ما رآه كفيلا بأن يأخذ له من على كل ما أفقده الجبن عن أخذه منه ساعة الملاحاة .

وطارت فى القوم غضبة عثمان التى أرثهـا مروان . وبلغهم السخط الذى فارت به نفسه على الغريم المرهوب وما عقد النية عليه من الثأر لصاحبه منه ، فاستقبلوا علياً يقولون :

« ... إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر » .

فهز لهم رأسه وقد بان له هوان السبب ، وأجاب بلا مبالاة :

« غضب الخيل على اللجم ! »

غـير أن الغضب لم يكن — فيما يبدو — وليد الحرص وحده من عثمان على أوامره أن يطيعها الناس ، بل كان أيضاً نتيجـة حرصه على هيبة مروان أن يهدرها على . فما جاءت العشى حتى استقدمه إليه يحاوره فيما كان منه :

«ماحملك على ماصنعت بمروان . واجترأت على ، ورددت رسولى وأمرى؟»

قال على يبين له :

« أما مروان فإنه استقبلنى يردنى فرددته عن ردى ، وأما أمرك فلم أرده»

« أو لم يبلغك أنى قد نهيت الناس عن أبى ذر وعن تشييعه ؟ »

فأجابه وهو لا يخفى عنه الاستنكار :

« أوكل ما أمرتنا به من شىء يرى طاعة الله والحق فى خـلافه اتبعنا فيه أمرك ؟ ... بالله لا نفعل .. »

وكأنما رأى عثمان أن الطاعة التى فرضها لنفسه على الناس لا تكاد أن تثبت أمام حجة هذا المجادل القوى البرهان ، فسارع يسد الناحية الخطرة ويقول:

« فأقد مروان » .

« وما أقيده ؟ »

« ضربت بين أذنى راحلته ... »

فقاطعه وهو يعلم إلى أين يريد الخليفة أن يسير بالحديث :

« أما راحلتى فهى تلك ، فإن أراد أن يضربهـا كما ضربت راحلته

فليفعل . وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ، ولا أقول إلا حقاً » .

وأوضح بهذه الصراحة موقفه أجلى وضوح . وتخيرها رداً حاسماً على ما ساف به لسان عثمان حين تحدث للناس بأنه سيعطى مروان حقه من على وينصره عليه . وما نحسب امرأ بظن الخليفة كان من السذاجة بحيث عنى أن يكون القود ضربة سوط يسددها ابن عمه إلى بعير خصمه وينتهى بها الجزاء المطلوب .

هنا غلبت على عثمان حدته وضيق صدره فصاح كاشفاً عن مراميه :

« ولم لا يشتمك إذ شتمته ؟ فو الله ما أنت عندى بأفضل منه ! »

فثار به على :

« ألى تقول هذا القول ، وبمروان تعدلني؟ ... فأنا والله أفضل منك ، وأبى أفضل من أبيك ، وأمى أفضل من أمك . وهذه نبلى قد نثلتها فهلم فاقبل بنبلك ! »

وكاد الأمران يصل لعقبى غير مأمونة لولا أن جرى الناس بينهما بالاصلاح . ولكنه كان إصلاحاً ظاهره الرضا والقبول وباطنه من جانب الخليفة التحفز للاسترابة أو إساءة التأويل ... عذر عثمان فى هذا ما يكون عادة بين الرجل وبين خصم له عزيز الجانب معدوم العثرات قد أحاطت به هالة من إكبار الناس ... وعذره أيضاً الحلقة المتصلة من ماضيهما يوم تأرجح السلطان بينهما وهمت كفة الغريم أن ترجح لولا عوامل شتى من الأهواء والميول . وللضعيف الغالب حذر دائم يحسه تجاه القوى المغلوب .

ثم شاء القدر أن يعد للخليفة فى حبال التوجس . كان كمن وكل نفسه بإحصاء خطوات على بل خطرات أنفاسه . فلم يفته أن يجد فيها دائماً محوراً يدور حوله شكه . وكانت آفته ضيق أفقه عن أن يتسع لفهم مشاعر الناس حق الفهم . وعجزه عن ردها إلى أصولها المنبعثة عنها بعد أن أحالته شيخوخته سطحياً يقيس الأمور بظواهرها دون النفوذ إلى ما عساها قد تنبئ عنه .

أحصى إذن على منافسه القديم خطواته وخطراته . وحكم عليها كما استطاع ضيق خلقه وما أثارته حولها وسوسة مثيرة من شكوك وشبهات ؛ فلم يعدم أن يسيء الظن ويسيء التأويل . وكان يجنح دائماً إلى التفرد برأيه أو الرأى الذى إياه لقن . ويعتقد فيه الصواب بغير تمييز ، ويرى الخطأ فى كل ماعداه . لذلك نجده فى كل خلاف نجم بينه وبين على عن تباين فى وجهتى النظر لا يرى إلا حرباً موجهة نحوه . وفى كل نقد دار حول ما كان يفعله آله يحسب مرماه هدم أولئك الآل وقص جناحيه هو بهذا الهدم . وعسير على رجل هذه طريقته فى تناول النقد وتقبل الآراء أن يحسن الحكم على الأمور أو على الرجال .

ولقد زوده العصر بصنوف شتى من مثيرات الشكوك والمخاوف لأنه كان مليئاً بالكثير الجم من أخطاء آله وما ترتب عليها من استنكار لهجت به ألسنة الناس ومكان على منهم مكان الإمام . فلم تكن الشادة على تشييع أبى ذر ودفعه مروان آخر الشادات ولم تكن أولاها أيضاً . بل سبقتها وتبعتها أنواع تداولت حلقاتها حتى انقضى عهد الخليفة الشيخ على أسوأ انتهاء .

. . . قدم عليه من الكوفة وفد هم صورة لما انطوت عليه جوانح أهلها من السخط على واليهم : أخيه لأمه الوليد بن عقبة . ولم يكن مبعث نقمتهم اليوم ما أصابهم من سوء معاملة الوليد بقدر ما كان باعثه غضبهم فى حق الله . . . فلقد فسق الوالى ، وشرب الخمر بمجلس سمر بدار الإمارة . وخرج تتخبطه النشوة إلى المسجد فصلى الصبح بالناس أربع ركعات . . . كاد أن يتبعها بركعات ! . . .

هذا حدث خطر أنبأت عنه سيرة الأمير العربيد منذ اليوم الأول الذى وطئت فيه قدماه أرض الكوفة . وأنبأت عنه قبلها كلمات الله إذ نعته بالفسق فى آية من آيات الكتاب الكريم منذ قديم . وإن له لدلالته الواضحة أيضاً وضوح على سوء اختيار عثمان ولاته بغير استكناه نفوسهم ،

وكان له في استكناه النفوس — لو شاء أن يقمل — ميزان سليم ،

ولكنه كان مفتونا بأهله . معنياً برفعهم إلى النجوم وأن وجد في ماضيهم ما كان يجب أن يعدل معه عن تفضيل شأنهم على كثيرين بل قليلين . وبحسبك أن تعجب إذ ينسى لكل ذى فضل فضله في سبيل أن يرفع أهله . . . ولعلك من بعد مغرق في العجب إن علمت أن هذا « الوليد » جاء الكوفة بأمر الخليفة ليأخذ إمرتها من يد رجل من خير الناس هو سعد بن أبي وقاص . وليس للوليد عليه فضل معلوم إلا قرباه .

ما لامرىء يريد أن يجيش المعاذير لعثمان في توليته أخاه يستطيع جاهداً أن يقع له على عذر مقبول . حتى ولو تذرع عثمان إلى عزل سعد بما كان قد دب بينه وبين ابن مسعود من خلاف ، فإن ذريعته تلك إن أوجبت العزل فليست توجب التعيين . . . وإنه ليسور عليه إذ ذاك أن يجد من المسلمين مائة أو ألفاً يصلحون لإمرة الكوفة فلا يقع في ذيل أسمائهم اسم ذلك الماجن الخليع . . . وإنها لحقيقة قرت في أذهان الناس أجمعين إذ ذاك حتى قالوا وقد رأوا أميرهم الجديد :

« بئسما استقبلنا به ابن عفان . . . أمن عدله أن ينزع عنا ابن أبي وقاص الهين اللين القريب ويبعث بدله أخاه الوليد الأحمق الماجن الفاجر ! » .

ولم يسعهم إلا أن يقولوا ، وهم يبررون هذا الاختيار أسوأ تبرير :

« أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد » .

ولئن كان تنصيب الوليد والياً قد أصاب من أهل الكوفة النقمة فإنه قد أصاب أيضاً من نفس سعد غاية العجب والاستنكار .

قال يسأله إذ دخل عليه :

« يا أبا وهب أمير أم زائر ؟ »

فرد الوليد :

« بل أمير » .

فما أسرع أن عقب سعد بجواب تملأه الدهشة والاستغراب :

« ما أدرى أحمقت بعدك أم كيست بعدى » .

ولقد نهج الوليد بالكوفة منحى من الحياة الخاصة كله خلاعة . ولف حوله فئة من المفتونين بالمجون . يقضون الليالى على أشهى ما تستطيبه النفوس اللاهية . ولم يمن مطلقاً بأن يرعى حق المنصب وما يجدر من توفيره له من توقير . ولم يمن أيضاً بأن يرعى حق أخيه عليه . فكان للأمراء أضل مثال ، ولأسرته كلها أسوأ عنوان . وراح يجمع من ضروب اللهو والتسلية بدار الإمارة ما جر عليه السخط والإنكار . وهو أبداً سادر فى غيه ، لا يكبح نفسه ، ولا يحاول أن يستر مساوئه عن العيون . وانطلق يعب من الخلاعة حتى جرأ الناس على مجلسه فاستباحوه . دخل عليه ذات ليلة جندب بن عبدالله الأزدى فوجده قد أنس إلى ساحر اصطفاه ، يلعب بين يديه . ويغر الناس بمكره وخداعه ، فغضب جندب لهذا المجون المرذول ، ومضى بسيفه أمام الوليد فأطار رأس الساحر وقال :

« إن كنت صادقاً فأحى نفسك » .

وكانت هذه الجرأة علامة الانذار للوليد لو شاء أن يفيد منها ، ولكنه لم يرعو عما كان فيه ، ولم يتناول الأمر كله إلا من ناحيته الظاهرة ، فحبس الأزدى لاجترائه حتى فرفيما بعد فكان عليه أشد المؤلبين والمناهضين حتى اقتلع من مقعد الإمارة ومضى على الزمن مثلا ناطقاً لحمق الحكام .

غير أن الذى يدمغه الله لايهديه الإنسان ، بل يظل موسوماً أبداً بفسقه لا يتحرر منه ؛ وتبقى السبة عالقة به ما بقى القرآن الأبدى الخالد البقاء . وكفى بالوليد عاراً أن وسمه الله فى تنزيله ، ثم وسمه من بعد شعر تندرت به المحافل وتناقله السمار ، ونظمه الحطيئة سيد الهجائين فجاء فيه بأقذع الهجاء .

قال عربيد الشعراء فى عربيد الأمراء :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ... أن الوليد أحق بالعذر

نادى وقد تمت صلاتهم : ... «أأزيدكم؟» ثملاوما يدرى

ليزيدهم أخرى . . . ولو قبلوا ... منه لقادهم على عشر

فأبوا ، أبا وهب ، ولو فعلوا   لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو   خلوا عنانك لم تزل تجرى

ومع ما كان قد سبق إلى علم عثمان من سيرة أخيه ، ومن حكم الله عليه ومن خوض الناس فيه ، فإنه عز على نفسه أن يسمع من أهل الكوفة كلمة واحدة تؤنبه بخلاف رأيه الذي يأبى إلا أن يعتقد له الصواب دون جميع الآراء . وبلغ من تعصبه أن سبقت رحمته لأخيه وثقته به الغضبةُ على الرجلين اللذين حملا إليه شكوى الشاكين .

قال لهما — ولم تخف من كلماته رنة سخط مكتوم :

« وما يدريكما أنه شرب الخمر ؟ »

« هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية » .

وكأنما رأيا الريب في عيني الخليفة فأتياه من لدنهما بالبرهان المبين الذي لا يقبل النقض : خاتم الوليد سلباه إياه وهو في صرعة الخمر غارق لا يفيق .

ولكنه الدليل الذي يفقد قيمته إذا نظر إليه بعين المستريب في كل ناقد ؛ المسيء تأويل المشاعر والشكايات . لأنها — في ظنه — لا تزيد عن كيد أريد به أو أريد ذووه . وما دامت الشكوى تمس أهله ، وتعلق أدرانها بأذيالهم فإنها إذن حسد حاسد أو تبييت موتور .

وهم الخليفة من مكانه ؛ وتقدم إلى الشاهدين وعلى وجهه علامات نفور ، ثم دفع في صدريهما محنقاً وصاح :

« تنحيا عني » .

وكذلك آثر الشيخ ألا يقصد مقصد الحكم العدل ، وأن يكون سياجاً لأخيه دون القصاص المفروض .

وعجب الناس لموقفه ؛ ولغطت الألسن حتى سمع بالأمر علي فأقبل يعاتب الخليفة ويستنهضه أن يؤول إلى الصواب .

قال له وهو يستنكر ما سمعه عنه :

« دفعت الشهود وأبطلت الحدود » .

فأغضى الرجل مهموماً محيراً ، ثم رفع بصره وهو يسأل فى استحياء :
« فما ترى؟ »

« أرى أن تبعث إلى صاحبك ، فإن أقاما الشهادة عليه فى وجهه ولم يدل بحجة أقمت عليه الحد »

فلم ير الخليفة بداً من الأخذ بهذا الرأى . واستحضر الوليد فلزمته شهادة الشهود ، ولم يبق إلا أن يؤخذ منه حق الله .

فى هذه الآونة غلبت هيبة الخليفة شجاعة الحضور فلم يتقدم واحد منهم إلى السوط يجلد به السكير ويقيم عليه الحد . وغلبهم أيضاً حياؤهم أن يضربوا أمام أمير المؤمنين أخاه المذنب ، وغلبهم ثالثة ماراأوا فيه الوليد من مذلة وهوان ... حتى الحسين بن على ، حين أمره أبوه أن يقيم على الرجل ما أوجب تاسكا وقال:
« يكفيه بعض ماترى » .

ولكن ابن أبى طالب لم يكن بالذى يعرف الهوادة فى حق الله ، فأقبل والسوط فى يده على الجانى يهم أن يحده . ورأى الوليد الجد فى عين على والتصميم فى محياه ، فساءه منه عزمه ومسارعته لما أحجم الآخرون عنه ، وركبت نفسه ثورة عنيفة من السخط جعلته يسب جلاده ويروغ منه فى أرجاء المكان ، غير أن السقم لم يكن شفيعاً له ولا حائلا دون القصاص لأن ابن أبى طالب ما لبث أن تمكن منه ، وحاول جهده أن يتخلص من القبضة القوية فأعيته المحاولة . وراح يناضل عن نفسه ما وسعه النضال ويضرب بيديه ورجليه كما يفعل طائر أطبقت عليه الشراك ... ولكن ما هى إلا جذبة حتى وقع طريحاً على الأرض وعلاه بالسوط .

وأخذت الشفقة عثمان بأخيه ، وأحنقه هوانه وخزيه قبل أن يوجعه عناؤه وألمه ، فقال بلهجة غضب كأنها عتاب :
« ليس لك أن تفعل به هذا » .

قال على والسوط فى يده يتحرك على جسد الجانى فى صعود وهبوط :
« بلى ... وشر من هذا . إذا فسق ومنع حق الله أن يؤخذ منه » .

١٠

لولا ما انطوت عليه نفس عثمان من تحفز للغضب على منافسه القـديم والنفور منه لأعيي المرء أن يقع فى حياتهمـا على سبب واحد يوجب المخاصمة والنفور . ففى الواقع لم تكن مثيرات الخلاف بينهما سوى هنات يسع الحليم أن يفسح لهـا فى صدره ، ويسع المنصف أن يراها على هيئتها التى لا تنطوى إلا على الرغبة فى الإصلاح . ولـكن عثمان لم يكن حليما ، أو هو كانه فى زمان مضى قبل استخلافه ثم انتهى أجله بوقيعة الأمويين الذين أجادوا اللعب على أوتار شيخوخته الحادة المزاج . ولم يكن منصفاً أيضاً لأنه آثر أن يسيء الظن فى كل ناقد لم تربطه به من قبل منافسة ، فوسعه أن يسيء الظن فى على آلاف المرات . ولو استقصينا كل خـلاف نشأ بين الرجلين لرأينا الخليفة متجنياً على خصمه فى الاتهام ، جانحاً عن عقله إلى عاطفته ، ميالا عن نهـاه إلى هواه .

لم يكن على وحـده ناقد عثمان ، ولا مخالفه فى النظرة إلى الأمر الواحد ، ولا بالراغب — منفرداً — فى الميـل به عن السياسة التى جرت عليه سخط الأمة . ولـكننا — مع ذلك — نشهد الخليفة يلقاه بحذر ويودعه بحذر ، ثم لا نحسب إلا أنه اتخذ لنفسه شماراً نم عن مدى الضيق الذى خالج نفسه حياله ووضح غاية الوضوح فى كلماته القليلات :

« إنه يعيبنى، ويظاهر من يعيبنى » .

أجل هذا هو جماع الشعور الذى كانت تنطوى عليه جوانح عثمان . وهو نتاج سوء ظنه الذى أفسد العلائق بينه وبين على فى وقت كانت أحوج فيه إلى النقاوة والصفاء . ولئن كان أمـير المؤمنين قال قولته تلك حين سعى إليه مروان بالوقيعة يوم تسيير أبى ذر ، فإنها بقيت من بعد علماً على شعوره نحو على واستريابته فيه . ولـكننا لا نجد علياً جاء الخليفة بغـير ما يجيء به الناصح

الأمين ولا نقده إلا استهدافا لصلاحه فى حكم الناس . لم يجاوز نقده مطلقاً العيب فيه أو الطعن عليه كما جاوز كلام غيره عنه . وبحسبنا أن نراه أقصى عابا فيه من الآخرين الذين كان عثمان يظن انحيازهم له وعطفهم عليه . وليس أبلغ فى هذا المقام من أن نورد هاهنا ما قاله فيه عبد الرحمن بن عوف وقد رأى منه ما أنكره وأنكره الناس .

قال نادما على ما سلف من إدلائه بالبيعة إلى عثمان :

« لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما وليت عثمان شسع نعلى » .

وقال ثانية وهو على فراش الموت وقد شهده يوطد سلطانه بتولية ذويه :

« عاجلوه ... عاجلوه قبل أن يتمادى فى ملكه » .

ولكن عثمان — فيما يبدو — كان حقيقاً به أن يغفر لمخالفيه أجمعين مالم يسعه أن يغفر بعضه لمنافسه القديم وإن كانت محاور الخلاف بينهما لا تعدو — من جانب على — التزويد بالنصيحة أو إزجاء النقد النزيه . ففيم كان شك هذا الشيخ إذن ، واسترابته ، وجريه وراء نفوره لأقصى الحدود ؟ .

لغير سبب معلوم سوى التوجس الذى يملأ قلب الغالب الضعيف من خصمه المرهوب المغلوب ، ولغير ذريعة إلا ما جبلت عليه طبيعة إنسان يخشى على ما فاز به أن يسلبه إياه عزيز مكين . وإن الشك للسياج الوحيد الذى تتحصن خلفه نفوس الضعفاء من قوة الأقوياء .

بهذا يفهم سلوك عثمان ، وعلى ضوئه نرى على أية صورة من الصور كان يتقبل نصح على أو نقده الذى كانت غايته خير الأمة وخير أميرها المستريب فى آن . كان يأتيه بالرأى القويم فى الأمر من الأمور فيرفضه الخليفة ويأباه . وكان يبصره ثانية بالنهج الواضح السليم فلايقره إلا ريثما يستطيع بعد قليل أن يتذرع بتوافه الذرائع التى تحله من هذا الإقرار . وهو فى الأولى قد حفزه على الرفض إباؤه أن يعترف لغريمه بالتفوق ، وفى الثانية يلين هنيهة لضغط الظروف ثم لا يلبث أن تستبد به طبيعة الأهواء والعناد ، وكلا السلوكين فى نهاية الأمر يلتقيان .

وكانت له أيضاً حال وسط بين الحالين ، تلزمه الحجة ، ويقهره المنطق القوى السليم فيصبح نهباً مقسما بين الرغبة فى الاستمساك بمناد غايته خطل ، والنزول على رأى ليس له فى ابتكاره فضل ، فلا يلبث أن يؤثر الأولى ليجنب نفسه الظهور أمام خصمه على هيئتها الملومة من الافتقار إلى استنباط الرأى الراشد الحكيم . . . عاب الناس عليه إتمامه الصلاة بمنى أثناء الموسم فجاءه بعدها على — فيمن جاءه من صحب رسول الله — فقال :

« . . . والله ما حدث أمر ، ولا قدم عهد ، ولقد عهدت نبيك يصلى ركعتين ، ثم أبا بكر ، ثم عمر . . وأنت صدراً من ولايتك ، فما أدرى ما يرجع إليه » .

فلم يحمله السؤال الذى جاءه فى صورة استفسار على محاولة تبرير الخطأ إن لم يكن حافزاً له على الإقلاع عنه أو الوعد — على الأقل — بالعودة إلى الصواب ، بل رده محرجا يرد بجواب هو لا جواب :

« رأى رأيته ! . »

شخصيته جمعت عجباً من النقائض التى طبعت سلوك صاحبها بألوان شتى تنافرت وتجاورت بغير اتساق . بدا فيها اللين الأصيل البالغ إلى الرخاوة متصلا بالعنف المكتسب الجانح إلى القسوة . والحلم الذى منشؤه الطبع بالحدة التى اغرى بها التطبع . والخضوع الذى يلازم النفس الضعيفة بالصلابة التى يولدها الافتتان بالتزام قوة كانت من قبل عزيزة ممنوعة . وإنها جميعاً لصفات مجزئة بأغراضها لو أحسن وضعها فيما يصلح بها ، ولكنها كفيلة أيضاً بأن تقصر دون الأهداف وتجر إلى العثرات إذا لم يستوح المرء — عند استعمالها — الكياسة والتبصر ودقة التقدير .

لقد كان عثمان — أمام مسائل عهده — طبيباً غير بارع . توافرت بلا ريب فى جعبته الأدوية ولكن أشكل عليه التميز بين الأدواء ، فوصف الدواء لغير دائه وعالج المريض بغير دوائه . . . وكان كلما أخطأ وتزايد حوله اللغط وكثر فيه العائب والناصح ، سارع إلى الإرهاب والقمع دون الانتصاح

وإلقاء السمع ، حتى أصبحت كل مسألة تتبعها مشكلة ، وكل مشكلة تجر فى أعقابها مشكلات أثارت عليه نقمة الغريب وسخط القريب .

أجل .. حتى بين أهله لم يعدم أن يجد مناجزاً يؤلب الناس عليه ويدعوهم إلى خلافه والانفضاض عنه .. ولكن مرد التأليب فى هذه الحالة لم يكن غيرة محمد بن أبى حذيفة على مصير الأمة الإسلامية بقدر ما كانت الغضبة لمصلحته الشخصية . فهذا الفتى المفتون بالسلطان افتتان بقية أقارب عثمان ، آذاه أن يؤثر الخليفة عليه سواه من أهله فيهبهم الولايات والمناصب ترفع من شأنهم بين النساس ، وتحيلهم — من دونه — أمراء ذوى سطوة على العباد والبلاد . ولم يكن هو — فى عين نفسه — أقصر باعاً منهم أو أقل كفاية وقدرة ، فامتلأ قلبه مرارة على الخليفة .. كان يلقى الرجل عائداً من غزو الروم فيتخابث ويسأل .

« .. أمن الجهاد ؟ » .

« نعم » .

فيشير بإبهامه إلى ناحية الحجاز ويقول :

« أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً » .

« فأى جهاد ؟ » .

« عثمان ! » .

ثم لا ينى يبث سمومه فى نفوس النساس واحدا بعد واحد حتى مضى ، وحقده رائده إلى مصر يلوذ بجماعات المخالفين ، ويضم صفوفهم ، ويرفع صوته بدعوتهم حتى آن له أوان الثأر من سيد بيته الذى منعه ما أباحه الفتية الآخرين.

هذه الصور المتواترة من المخاصمة والخلاف كانت جديرة بأن تملأ نفس الخليفة الشيخ بالريبة فى أغلب الناس إن لم يكن فى كل الناس ، وأن تدفعه ضيق الصدر على كل ناقد أو حاقد ثم ترمى به إلى أحضان فئة قليلة من أهله وجد عندهم الرضا عن أعماله بغير نقد ولا مراجعة ، يمعنون له فى إظهار الرضا

فيمن هو فى الميل إليهم والثقة بهم إلى غير حدود . كانوا يمسحون بأكف المراءاة على رأسه فيهدأ لهم كالطفل بين ذراعى أمه حتى ينام ويغمض عينيه عما حوله من أحداث .

ولقد نام الرجل بعد أن فترت أجفانه ألفاظ التدليل والتمويه التى حرص مشيروه أن يسمعوه أياها . ومضت أمامه الحوادث تترى فما رآها إلا بعينى غافل ، ولا تلقاها بجد أو احتفال . حتى إذا بلغ خطرها حدا أعيى فيه إخفاؤها أولئك الذين كان ديدنهم الإخفاء عنه ، أصبح شأنه كمن سار وهو نائم ثم استيقظ وقدمه فى النار ! .

ثم فتح عينيه أخيرا ، وانتبه فى آونة تساوت فيها اليقظة وإغماض الجفون . فإذا المسألة ليست نقد ناقد أراد أن يتصيد الهنات والأخطاء ، ولا حقد حاقد أعياه أن يستر غل قلبه ، ولا بشنآن موتور غلب على أمره فى مهدان المنافسة فاستطاع من بعد أن يتأهب للثأر . . كلا ، بل أمحى كل هذا فى لحظة واحدة ، وتوارى فى ارفة عين كأنما بقوة ساحرة ليبدو بداله النتاج الحقيق لثورة النفوس على الشيخ الغافل .. الحصاد السام الذى وضعت بذرته عوامل شتى ، وأنبتته كل أرض وسعتها الدولة المريضة التى قام عليها عثمان فأظلها منه الحكم ولم ترعها الحكمة .

١١

لم يكن التذمر فرديا نشب بنفوس بضعة من الناس دون بقية الرعية ، ولا طائفيا نضحت به قلوب طبقة دون غيرها من طبقات ، ولا قوميا ألم بأحد الأجناس الكثيرة التى انضمت عليها الدولة الإسلامية المترامية الأطراف . ولكنه كان جامعا ، شمل الأمة أفرادا ، وعمها جماعات ، ولقى صداه لديها شعوبا عديدة النحل والألوان .

غير أن الذى لم يكن فى الحسبان أن تكون قريش نفسها من بين أولئك

المتذمرين . وأن تتقدم الصفوف أمامها مناهضة رجالها ، داعية عليه مخذلة عنه ، كأنما فاتها أنه أحدها يسيء إلى هيبتها ما يأخذ منه . ويضعه بفشله مثالا ناطقاً على فشلها هي وعدم إحسانها القيام على أمر الناس .

قد كانت حقاً في الخليفة نواحي ضعف لا تدع لمنصف قادر على كبح لسانه ألا يخوض فيه أو ينقد عمله . ولكن قريشاً في الأغلب لم تتوخ في النقد الإصلاح لذاته ، بل اتخذته ذريعة إلى أغراضها أو التزمته ثأرا منها لهذه الأغراض التي فوتها عليها عثمان . وكلما جرى المرء وراء الأسباب التي أثارت نقمتها وسعه أن يرى خلف أكثرها أسباباً شخصية هي الطمع في المال أو الجاه أو النفوذ . وما من رجل في العالمين كان يستطيع أن يرضي نزوات كل هذه النفوس الظمأى إلى أنواع متباينة من عروض الحياة مادام قد سار سيرة عثمان ولم يلتزم شرعة المساواة عند معاملته الناس .

أجل كان تفريقه في المعاملة هو أس البلاء . وهب فأنقم عليه من لم يساوهم بغيرهم من المحظوظين والمحسوبين عليه . ونصب الحكام والولاة فباء بغضب الأثيرين عنده بالمال ، لأن الحكم متعة تفوق متعة الغنى والثراء . ولو أنه جعل العدل أساساً للبذل ، والكفاية مؤهلا للولاية لجنب نفسه سخط كل طامع في مال أو منصب . ولكنه وكل لهواه وحده توزيع الهبات والولايات ، والهوى دائماً خداع .

وكذلك وسع قريشاً أن تضج من شيخها — هي أسرته الكبرى — لأنه آلى بمعظم خيره أسرته الصغرى آل أمية والحكم وأبي معيط . ولم يكن الشعب ، النافر حتى الآن بغير إظهار ، الطاوي في قلبه تذمره ، يهمه أن ينصر أحد الفريقين على الثاني ، أو يغضب لمن آل منهما بالصفقة الخاسرة . ولكنه كان متفتح النفس للتبرم فأمدته قريش بمادة جديدة للسخط على الخليفة الشيخ. واستطاعت — وهي في عين الناس السادة والقادة — أن ترسم للرأي العام طريق النفور الذي أدى إلى الثورة ، وأن تحمل علم العصيان فتسير خلفها العامة. ولم يبق من بعد أحد كان يتحرز من البوح بسخطه على عثمان إلا قد أكسبه

موقف قريش جرأة على الرجل ، فسارع بإظهار سخطه بعد أن رأى قادة الرأى فيه لا يستطيعون ستر نفورهم من صاحبهم ولا يحاولون تخفيف الملام عنه.

بهذه النظرة حكم الرجل فاستطاع أن يرفع من شأن دولته على حساب أمته . عقد الألوية وسير الجنود ووسع الحدود ، ولكنه لم يكن حريصاً على الارتفاع بشعبه إلى مستوى من الحياة الاجتماعية أجدى عليه من تلك الفتوح، وغلب دائماً صالح الوحدة السياسية التى ضمت شعوبه على صالح هذه الشعوب نفسها ، وأولى بالحكومة الرشيدة أن تستهدف أولا خير رعاياها .

لكن عثمان لم يكن يعتنق هذا المبدأ ، أو — على القاول — أجبرته ظروف الأحوال التى أحاطت به على ألا يسير عليه . أما هدفه الحقيق فكان الاستزادة من رقاع الأرض التى يرفرف فوقها علم حكمه . وكانت متعته الأولى أن يلقى بالنظرة على شعوبه فيراها كلها أداة دائبة على العمل من أجل دولته . ولئن كانت هذه الأداة هى القوة التى تحقق له أغراضه السياسية إلا أنه لم يوفر لها ما يحفظها مجلوة موفورة النشاط ، مقبلة بكل نفسها على الواجب الذى وقفها عليه . لقى عمرو بن العاص بعيد أن عزله عن ولاية مصر فقال له مزهوا معتزا وهو يشير إلى أموال جمة بعث بها إليه عامله الجديد عبد الله بن أبى سرح:

« إن تلك اللقاح درت بعدك » .

فما أسرع أن أتاه الجواب الذى يزرى بزهوه واعتزازه . . . قال له عمرو فى كلمات قليلات تدل أبلغ دلالة على سياسة الاستنزاف التى جرت عليها الحكومة فى تلك الفترة من الزمن حيال الشعوب المحكومة :

« ولكن فصالها هلكت يا أمير المؤمنين ! . . »

فى الحق لسنا نتهم الرجل بالعمل على ابتزاز الولايات مواردها ، ولكن عماله على تلك الولايات جعلوا هـذا بعض ديدنهم وبدت الأمصار المختلفة — فى أعينهم — كقطيع الأبقار يدر الخير على قلب الدولة الحجاز ... ثم

فى هــــذا أحد نوعين : وال استغرقه حب الترف فحرص على استجلاب الأموال لنفسه ولمن خلفــــه بالعاصمة من مدبرى الحـكم ، وآخر قهرته الأحوال على استجلابها ليشبع نهم غول الحرب التى شنتها الدولة فى كل اتجـاه تنفيذاً لسياسة الفتوحات . . . ولـكنهم فى الحالين أمعنوا فى استنزاف الشعب ، وجاروا على حقوق الناس فى الفىء فمنعوها عنهم أو أنقصوها لأنها لم تعد — فى نظرة الولاة — حقاً واجب الأداء . . . وقف معاوية بن أبى سفيان على منبر دمشق وقد علم أن الناس سرى فيهم التذمر من حبس هذه الأموال . فقال :

« إنما المال مالنا ، والفىء فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ، ومن شئنا منعناه »

وقد كان من أثر هذا الإرهاق الاقتصادى الذى وقعت الشعوب تحت وطأته أن بدأت العيون تتفتح فيها على حقائق كانت قد غابت عنها إلى قليل . وكما وضح للناس التفاوت بينهم وبين آل الخليفه وقريش فى استحقاقهم للمزايا من المهمات والمناصب فقد بدا بينا تفاوت من نوع آخر بين الشعوب الدخيـــلة كلها وبين الشعب الأصيل الذى ضمها تحت رايته . ولم يـكن التباين الاقتصادى هو الآفة التى أوشكت أن تنخر فى عظام الدولة بل الشعور بالهوان هو الذى جرح نفوس أهل الأمصار وهم يرون العرب يملونهم سيادة وثروة . . . فـكل عمال الخليفة على رقاع الدولة كانوا من أهله فقبيله . وكل عـلم بارز فى شئون المال والتجارة كان يتصل بهذا القبيل بأكثر من سبب واحد إن لم يكن من رجاله الأعلين . وما كان لمصرى أو كوفى أو بصرى أن يشق طريقه بين هذه الطبقة السائدة وقد حيل بينه وبين المزايا التى تؤهله للاندماج فيها إلا إن كان لهم بطانة أو تابعاً يسير فى الركاب.

أى فارق إذن بين هــذه الدولة الجديدة وبين الدول البائدة من الفرس والرومان ؟ . . وأين دعوة المساواة التى نادى بهـا الإسلام واستجابت لهـا طواعية هذه الأجناس الشتى من شعوب الأرض ؟ . . قد كانت المبادىء التى بثها النبى ووضعها أساساً لعالم جديد سعيد كفيلة بأن تؤلف من الشعوب المختلفة أمة

واحدة توثق بينها المحبة إذ تسودها المساواة . ولكن الطريق المستوية وجدت من ينحرف عنها ويستبدل بها أخرى ملتوية لا تقوده إلى العالم المأمول . . وقد بدا الناس كأنما الآمال التي بذر الدين في قلوبهم نواتها قد أوشكت أعوادها أن تميل وتتقصف . وراحت الثمرات المرجوة تتساقط فجة تحت الأقدام قبل أن تينع . وكلما ألقى امرؤ ببصره في الناحية التي أمل طويلا أن تبزغ منها شمس المساواة لا يلبث حتى تطالعه سحائب دكناء تلف الأفق كله وتحجب عنه الضوء . . . ولم يعد هناك إلا ظلام الماضي بما فيه من جهالة واستبداد يطارد هذه الشعوب التي لم تكد تتحرر من ربقة الدول البائدة حتى رأت نفسها تخبط في الطريق الجديد إلى مستقبل مجهول مبهم . . .

هذه الشعوب التي خلفت وراءها الغابر مثلوجة الصدور أضحت اليوم تتهيب موقفها وهي ترى غدها في مرآة حاضرها المظلم . . . أهي ما زالت تعيش في الماضي ؟ . . أكانت هذه الفترة من السنين القلائل السالفات التي أعقبت رسالة محمد حلماً هانئاً ما لبثوا أن ارتدوا منه إلى يقظة شقية ؟ . . إن يومهم هذا موصول إذن بماضيهم الذي لفه استبداد فارس والروم . وحياتهم في ظل الدولة الفتية ليست إلا حلقة من حياتهم في ظل أختيها الذاهبتين خلف ستار التاريخ . ولكن عيونهم التي أغمضها من قبل ذل الظلم ، وبصائرهم التي رانت عليها حلكة الاستعباد قد بدا لها في شريعة الإسلام قبس يوشك أن يضيء أمامها الحياة . وأخذ الشعور بحب الانطلاق والتحرر يراود النفوس الحبيسة . فلم يعد الناس من بعد يفزعهم سيف الإرهاب وقد علمتهم الدعوة المحدية أن سلاح الظلم مفلول الحد وأن دولته دائماً إلى زوال .

أجل . ففي الكتاب الجديد جاءت شرعة تعلموا منها أن الناس جميعاً في هذه الدنيا سواء . وأن حق الحياة الحرة مكفول لكافة الأجناس . وأن أحداً لا يفضل آخر أمام الله إلا بتقواه وإن حلك لون الفاضل وابيض لون المفضول .

فقد ذهب زمان العنصرية ، وبشر الدين الجديد بعـــالم تسوده العدالة .

ولـكن الأمل الذى خالج القلوب الظمأى إلى هـذه العدالة لم يلبث أن خبا ضوؤه . . . لم يتغير المبدأ السامى الذى قرره القرآن ، ولم يتبدل كتاب الله أو يصبه تحريف ، بل انحرفت وحدها نفوس القائمين على إنفاذ شريعة السماء ومالت إلى هواها القديم . وبدأت عوامل الوراثة والبيئة التى اختفت آونة قصيرة فى حياة محمد وحياة خلفه تعود ثانية إلى الظهور كهيئتها الأولى قبل الإسلام . عاودت العرب عزتهم بالجنس وتعصبهم المقيت الذى نهى عنه الله . وارتد العربى ثانية إلى تقاليد جاهليته الرثة التى عصبت عينيه بمرآة عاكسة لا يرى فيها غير نفسه . . . طبيعى كان هذا الشعور أحرى به أن يلازم نفوس شعب فتى يهم أن يأخذ مكانه على هام بقية الشعوب ويحاول أن يفرض شخصيته على العالم . ولـكن هذا الشعور القوى بالقومية بث فى نفوس البلاد التى دانت لطاعة الجزيرة قلقاً على كيانها هى أن تطغى عليه شخصية السيد الجديد . . . وكدفاع عن نفسها لم تر بدأ من التعصب هى الأخرى لقوميتها أمام العرب . ثم نما فيما بعد هذا الشعور فى كل منهـــا حتى راحت تتنافس فيما بينها لإظهاره ، وتشتد الواحدة منها فى التعصب لجنسها أمام أخواتها الأخريات كما وقع بين أهل الشام وأهل الـكوفة حين اجتمعا على حرب بعض النواحى الثائرة بفارس فأبى كل فريق منهما — اعتزازاً بجنسه — إلا أن تـكون له الإمرة على زميله .

لم يـكن عجباً إذن أن تتولد الروح الوطنية فى الأمصار التى ضمتها الدولة الإسلامية الجديدة ، وأن تنمو مع الزمن نمـواً يطرد وازدياد شعور العرب بعصبيتهم وحرصهم المعاود على الاستمساك بها . وكلما جنح الشعب الحاكم إلى الاعتزاز بجنسيته مالت الشعوب المحكومة أيضاً مثل ميله . ووجدت من نفسها اندفاعاً إلى الخوف على جنسيتها أن تفنى فى شخصيته ، وإلى قوميتها تكسيج بهـا أمام ذلك التعصب ، وإلى وطنيتها الوليدة تغذيها يوماً بعد يوم ليـكون لها هى

الأخرى كيان قائم تمتز به . ووجد الناس ، بفارس ومصر والعراق وغيرها من أجزاء الدولة ، فى تاريخ أقوامهم الأقدمين دواعى فخر تدعهم أقرب إلى النفور من السادة الجدد الذين قفزوا إلى أماكن الصدارة فى العالم بغير ماض مجيد يهيئهم لهذه الصدارة . ولم تلبث أسباب المفاضلة أن برزت أمامهم واضحة فأسوا على مجدهم القديم الذى فقدوه وورثته دونهم هذه الحفنة القليلة من أبناء الصحراء .

هذا شعور مرده من جانب إلى تلك الغيرة النفسية التى تراود عادة نفس المفضول على فاضله المتفوق عليه . برز بروزاً واضحاً على عهد عثمان . واتخذ فى البدأ مظهراً ساميا لا يعاب ، هو رغبة هذه الشعوب فى أن ينشر بينها وبين العرب ميزان العدل ويجمعهم معاً قانون التسوية فى الحقوق والواجبات . ولكنه من بعد أصبح نقمة شديدة الخطر كأنها الشوكة المرهفة فى جنب الدولة لا تنى تدميها وتجرعها من المآسى والويلات ما ظل ينخر فى هيكلها على مدى الأحقاب المتعاقبة بعد ذلك التاريخ . . . وما كانت الحكومات التى قامت فى حواضر البلاد المقهورة والدول المختلفة التى تركزت فى الأمصار دون الحاضرة الإسلامية الأصلية إلا نوعا من التعبير عن هذه النقمة . فلقد اندثرت بهار ويدأر ويدا سلطة قريش خاصة والعرب عامة . وانتقلت بها الرياسة بمظهريها الدينى والسياسى من يد المتبوع إلى أيدى أتباعه واحداً بعد الآخر . . . حتى معاوية الذى نصب من نفسه مدافعاً عن الخليفة وقومه لم يستطع أن يقيم ملكه فى أرض أولئكم القوم واعتاض عن كليهما الشام وأهله مجاراة منه لتيار القوميات . كذلك من قبله فعل على . وكذلك من بعده فعلت كل أسرة حرصت على الاستئثار بالسلطان على الدولة العريضة ، وكل حاكم أراد أن يدوم حكمه ، لأنهم عرفوا جميعاً مدى القوة التى أكسبتها الوطنية هذه الشعوب التى كانت تابعة حتى حين . وعرفوا كيف يستغلون حماسها لأجناسها فى إقامة حكومات فى بلادها يشعر معها أهل تلك البلاد أنها تستند إلى أكفهم وليس لها بدونهم حياة . وكل حركة أريد بها

أن تقوم دولة فى الحجاز لم يكتب لها النجاح ، لأنها كانت على معنى ما تحدياً لشعور تلك الشعوب .

١٢

أ كانت هذه القوميات وليداً جديداً لم ير النور إلا على عهد الخليفة الثالث ؟ . . أ كانت عواطف الشعوب المحكومة التى ازدخرت فى قلوبها بالنفور والسخط والنقمة على الأمة الحاكمة حدثاً لم يتخذ مظهر الحياة إلا فى زمان عثمان ؟ . . بل هى ثمرة أنضجتها الأيام وكانت بذرتها مغروسة من قبل فى النفوس . فلم يكن الشعور بالذات جديداً على أقاليم الدولة . ولم تكن الغضبة للجنس وللوطن المغلوب إحساساً مفاجئاً راود أهل الأمصار ، وإنما يستطاع رده إلى عهد غبر وتولت أيامه ولا يكون ثمة خطأ فى التقدير . . . فما مقتل عمر إلا أولى المؤامرات السياسية التى شهدها الحكم الإسلامى وأريق فيها دم كريم حرام . وما خنجر أبى لؤلؤة سوى وسيلة للتنفيس عن تلك النعرة الوطنية التى جمحت عن حدها واستبدت بقلوب بضعة من أولئك المغلوبين على أمرهم . تلفتوا فإذا بين عشية وضحاها بلادهم تدوسها أقدام أبناء الجزيرة . وتستبيح حرمة كل عزيز على أصحابه من أراض وذكريات . وللثورات المشبوهة ببعض نواحى فارس أواخر عهد ابن الخطاب حديث مبين يعلو به صوت هذه القوميات .

ولقد مضى عمر إلى ربه ضحية بريئة للوطنية الجامحة التى يعصب عينيها التعصب ويدفعها عمياء . وتخلت بمضيه القبضة القوية عن الزمام الذى كان يمسك الدولة الكبيرة لتخلفها قبضة ضعيفة مسترخية ، هى أوهن من أن تقبض على ناصية الأمور التى أخذت خيوطها تتعقد وتتشابك . وكان من أثر السياسة التى استنها عثمان فى تنصيب ولاة غير ذوى حنكة ودراية على تلك البلاد التى بدأت تتهيأ للفتنة ما مكن للقوميات الناشئة فى الظهور ثم

الطغيان . يحفزها من ناحية حبها أمها وحرصها على أن تستمتع بحقها الكامل في حياة كريمة حرة ، ولا تساق أمام العرب سوق الأنعام . ومن ناحية أخرى يدفعها إلى التحرر من استعلاء الأمة الحاكمة عليها خيبة أملها في العدالة المنشودة التي حلمت أعواما أن تسود قاب الدولة وأطرافها على سواء . وخرج التذمر رويداً رويداً من دائرة الرغبة المكبوتة إلى حيز الدعوة الصريحة المناجزة يحمل ألويتهـا أناس انقادت لهم البلاد المقهورة طواعية وقد استكبرت أن تدين للعرب الذين لا يبلغون مثل مجدها في صحائف التاريخ . ثم ما لبثت هذه الدعوات حتى تعبـد طريقها فاستحالت من بعد إلى مناجزات عنيفة مسلحة أثخنت الدولة في كل ناحية بأفدح الجراح .

على أنه يجمل بنا الا نحمل عثمان بمفرده مغبة السياسة الخاطئة التي جرى عليهـا تنصيب ولاة الأقاليم والأمصار ... هو حقاً لم يتوخ في اختيارهم أن تجتمع لهم الحنكة وحسن الإدارة . ولـكن سوء الاختيار لم يكن وحده الذى أثار في تلك الشعوب قوة « الشعور بالذات » ... وإن أراد أن يبحث عن السبب الأصيل الذى نمت به القوميات فليبحث إذن وراء هـــذا الشعور . وليعلم أن غارسه في نفوس تلك الأقاليم كان عمر قبل أن يكون عثمان .

سياسة عمـر في تنصيب الولاة — وفي عزلهم على السواء — كانت سبباً لا ينـكر أثره في تـكوين الشخصيات القومية . وفي نهوضها . وفي طغيانها على مرور الأيام . ولـكنه في الواقع كان خطأ من جانب الخليفة الثاني أريد به الصواب . وانحرافاً بدا في حينه . كالإصلاح ولم يرد به غـير الإصلاح . فلقد كان الرجل لفرط حساسيته ، وشدة شعوره بالمسئولية الملقاة على عاتقه كأمير للدولة المريضة ، يأخذ نفسه بالعمل على إرضاء الشعوب الإسـلامية المختلفة غاية الإرضاء لا يكاد تأتيه الشكوى — مهما كان هوانها — يسوقها إليه بضعة نفر في حق عامله عليهم ، حتى يسارع إلى عزل العامل ، وتنصيب سواه ... فلـكم أخذ ولاته بالهنات وحاسبهم أعسر الحساب ابتغاء مرضاة ضمـيره ومرضاة فئات قليلة من رعاياه . ولـكم تناولهم بجزاء أهونه الخلع

فأقالهم من مناصبهم وأقام عليها من لدنه من حسبهم أدنى إلى قلوب أصحاب الشكايات

هذه السياسة التي انتهجها عمر نتيجة لشدة شعوره بواجبه ومسئوليته تجاه أقاليم دولته ، ورغبة منه فى الفوز برضاء شعوبه عنه ، وجرياً وراء توفير السند القانونى الذى بغيره لا تكون للحكم شرعيته الواجبة ... هذه السياسة التي غايتها رضاء المحكوم عن حاكمه والتى تمتبر فى نظرة القوانين والشرائع أمثل السياسات لم تكن فى نظرة الواقع الملموس كذلك . بل انحرفت عن وجهتها التى رسمت لها وقادت إلى عقبى غير محمودة ، لأنها أشعرت تلك الشعوب الحديثة العهد بالشعور بالذات أنها تملك أن تغير ولاتها كما تشاء وأنها — تبعاً لهذا — لا تملك التغيير إلا لأنها أصبحت من القوة بحيث تستطيع الإملاء .

وهكذا أسيء تأويل البواعث الطيبة التى دعت عمر إلى الحرص على إنفاذ رغبات أهل الأمصار . فلما خلفه فى مقعد الإمارة عثمان ، كان ضعفه مغرياً للشعوب بالمغالاة فى الشعور بالذات ، وبالإمعان فى الطغيان نتيجة لهذه المغالاة ... وأوسع لها فى ميدان التطرف فى الإملاء وفرض رغباتها أن ولاة الخليفة الثالث كانوا — فى الأغلب فضلا عن نواحى النقص فيهم وعن سقطاتهم الشخصية — شباناً غير ذوى دراية لاتجربة لهم ولا يحسنون تدبير الحكم .

بهؤلاء الولاة واجه عثمان الفتن التى تجمعت فى الشطر الثانى من عهده المنكوب وهم الذين وكل إليهم علاج الآفات التى راحت تنخر فى عظام سلطانه ... كانوا عينه وأذنه وكفه الممدودة إلى الأقاليم ، فلم يستقبلوا الحوادث بأبصارهم إلا بمثل ما استقبلها به على البعد — بالنظرة الكليلة والأذن الوقراء والكف الشلاء ... لكأنما كانوا هم صدى له حتى قل أن أحسنوا له النصح أو عملوا له فى مناطقهم ما كان يجمل بالحكام ذوى الغيرة أن يفعلوه ... دخل سعيد بن العاص الكوفة ، وقد خلف الوليد بن عقبة

على إمرتها غب قصة الخمر ، فأمر بمنبر المسجد أن يغسل عسى أن يتطهر من أدران سلفه . ثم اعتلاه فقال للناس :

« ... والله لقد بعثت إليكم وإنى لكاره . ولكننى لم أجد بداً إذ أمرت أن آتمر ... إلا أن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها ... ووالله لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تعيينى . »

فعلى أية وجهة كان يريد حمل سامعيه ... على تصديق فعله أم تصديق قوله ؟ .. إنه مذ وضع الماء على درج المنبر قد أقر على سلفه بالخزى الذى استحق عليه العزل وأقر للناس — تبعاً لهذا — بأنهم أحسنوا إذ ثاروا عليه حتى خلعوه . فما معنى أنه يرميهم فى حديثه بالشغب والتزام الفتنة إلا أن يكون قد رأى فى استنكارهم عمل سلفه نوعا من الثورة يحاسبون عليه بالقمع أو بالتهديد .

ومع ذلك فإن الأثر السيء الذى تركته هذه الكلمات المضطربة فى نفوس سامعيه كان أولى به أن يزول لو نزع سعيد عن السياسة التقليدية التى أثارت الشعوب التابعة على الشعب المتبوع . ولو أنه كان حاكماً فيه كياسة وحكمة لأشعر منذ اللحظة الأولى أهل البلاد أنه جاء يستوحى خيرهم ويعمل جاهداً له ولكنه كان هو الآخر صورة من العرب فى إجمالهم ومن قريش على التخصيص . يرى بمثل عينهم ويسير على نهجهم المعروف من التعصب للجنس فما كاد يستقر به المقام فى الكوفة حتى نقم على أهلها أن شعروا بكيانهم وحاولوا أن يعيشوا والأمة الحاكمة حياة كريمة تسودها المساواة . وأبت عليه نزعته إلا أن يرى الخطأ كل الخطأ فى نظرة الكوفيين إلى الأوضاع الاجتماعية القائمة إذ ذاك . وأن ينكر عليهم حقهم فى العدالة التى نشدوها وقاموا يسعون إليها ، فكتب إلى الخليفة يقول :

« إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم . وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة . والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها .

فاثبت بهذا أنه يرى وجوب التفرقة فى المعاملة بين التابع والمتبوع ، وهى نظرة عجيبة تضع الدخيل موضع الأصيل وصاحب البيت مكان النازح الغريب .

وكان الرأى الذى أشير به على عثمان كعلاج للحالة التى رسمها سعيد هو فى ظاهره وباطنه تأييداً للعصبية العربية وقمعاً للشعور القومى الذى أخذ يفور فى قلوب أهل البلاد . . . ذلك أن الكوفة — كسواها من أقاليم الدولة الإسلامية — لم تكن فى نظر الخليفة وولاته كمكة أو المدينة أو أى من المدن التى ضمتها رقعة الحجاز . ولم يكن أهلها كالعرب ذوى الجنس النقى الممتاز ، وإنما هم روادف وأتباع . . . ولتبق إذن الحال كالحال بدون تبديل أو تغيير . ولتظل المسافات الاجتماعية قائمة على هيئتها بين السيد وبين المسود . ولتكن الفوارق العنصرية هى أساس السياسية العليا للدولة كما كانت وكما يجب أن تكون .

بهذا أشير على الخليفة وبه أمر سعيد . والتفت الناس بالكوفة فإذا التعصب العنصرى الذى أنكروه قد أضحى اليوم على يد الحاكم الجديد أشد طغياناً وأعتى منه فى أيام سلفه . . . وإذا النظرة إليهم تحمل التحدى سافراً ولا تحتاج إلى اصطناع المداورة لإخفاء الازدراء ومواراة الاستعلاء . . . وإذا عاملهم لا يستطيع أن يقرهم على الرغبة فى معاملتهم كشعبه الممتاز سواء بسواء ، بعد أن استقر الرأى فى حاضرة الدولة على ألا يطمعهم فيما ليسوا له بأهل ، لأنه — على حد قول الخليفة وقول مشيريه — إذا نهض فى الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأشاع فيها الفساد .

وكان لابد وقد أعلنت الحرب هكذا على الشعور القومى بالكوفة أن يمكن لسعيد فى سلطانه ويزود بالقوة التى تشد أزره ليستطيع تنفيذ هذه السياسة . . . ولم تكن تلك القوة إلا أرجالا من قريش . هبطت كالجراد على البلدة . وهيأ لها عثمان كل ما يكفل لها بالكوفة عيشاً رغداً ومنزلة كريمة لتكون بطانة للوالى مرهوبة يستخدمها فى مرافق الإقليم كما يشاء ويستشيرها فى تسيير أموره التى

يضن على أهل البلاد نفسها أن يكون لهم فيها يد عاملة أو رأى مسموع .

١٣

البصرة خامدة كالرمادة . . . نفضت يدها من الأشعرى وقنعت بالفتى الجديد الذى ولاه عليها عثمان . إن أهلها قد أصابوا إذن وطرهم . وانزاح عن صدورهم أبو موسى ، ذلك الشيخ الذى لم ينسوا له أنه أبى — حين أمره عمر عليهم أول مرة — إلا أن يدخل بلدتهم وفى ركابه تسعة وعشرون سيداً قرشياً لتستمين بهم حكومته دون أهل البلاد أنفسهم . ومضت بمضيه الأعوام الطويلة التى قضاها فى الإمرة مترسماً فيها خطوط السياسة العنصرية التى رسمتها المدينة لزملائه الآخرين فى بقية الأقاليم . قد كان حقاً رجلا رضى الخلق فيه طيبة تميل نحوها النفوس ، ولكن هذا وحده وإن اجتمع له رضاء حاضرة الدولة عنه ، لم يكن معفيه من تذمر أهل إقليمه الذين تفتحت أعينهم لحقهم فى الحياة السياسية التى حبسها على بنى جلدته . وكانت طيبته التى ولدها فيه ورعه تحمل الناس على أن يظنوا فيه زهادة فى المظهر الذى يمكن أن يوفره له منصبه الضخم . غير أن هذا أيضاً ما لبث أن انفرج عن ثغرة استطاع السخط أن ينفذ منها . فقد راح الرجل على الأيام يتبدى فى ثوب لا يلائم النسك . واجتمعت له أموال من ماشية ومتاع أثارت عليه رعاياه . . . هو فى الحق لم يبلغ من الترف مبلغ سواه من الولاة . ولكن النفس المتحفزة للانقلاب تتوسل دائماً بأوهى الأسباب . وإذا كان أهل البصرة لم يبلغوا بعد حد القوة الذى يجاهرون معه بانتقاضهم على سياسة العنصرية التى جعلتهم فى بلادهم ذيلا لقريش ، فلا أقل إذن من التماس سبب آخر يتخلصون به من الرجل الذى صيرهم ذيلا . ولا بأس عليهم فى شرعة التوصل للغايات بأى الوساطات أن يتحينوا الفرصة التى تنيلهم غرضهم المنشود .

وكذلك اعتسفوا السبب الذى يكسب تذمرهم لون الحق يوم دعاهم أبو موسى لحرب الأكراد . فلقد قام فى الناس يحضهم على الجهاد ويهيب بهم أن يسيروا إلى الميدان رجالا حتى يسكون لهم فضل الرجلة . لعله فى هذا كان يريد أن يستنفرهم على دوابهم دون دواب الحكومة . لعله كان يعلم أن دواب الجيش من القلة بحيث لا تكفى لحمل كل نافر إلى الحرب . . . ولكنهم أمام دعوته كانوا نفراً سمع وأطاع فسار كأمر الأمير . وآخر حانقاً رأى أن يتريث فتربص . فلما أن خرج أبو موسى من قصره . ووجدوه قد أخرج ثقله (متاعه) على أربعين بغلا ، لاحت لهم الفرصة سانحة ليضربوا ضربتهم بعد أن أصبح فى يدهم السبب الذى يستطيعون اعتسافه .

هو هكذا بدا لهم فى صورة الداعى الذى لا يؤمن بالدعوة فلا يجعل من نفسه لغيره قدوة . . . وبدا أيضاً فى صورة المترف الشديد الإسراف فى التزام المظهر حتى ليحمل متاع حربه على أربعين راحلة . . . وقديماً علمهم عمر الشدة على عماله المترفين حتى كان يعزلهم أو يقاسمهم ما أصابوه من أموال ومتاع . وهم الآن إذن بصدد رجل حق عليه العزل فى الشرعة التى سنها أمير المؤمنين الراحل.

فى عين الحق هذه حجة كانت لا تساوى أن تنال عند الخليفة أكثر من اختلاج جارحة . ولكن عثمان أوهن من أن يثبت أمام حجة مهما وهنت ما دامت البصرة تستطيع أن تحسن عرضها تحت عينيه .

أرسلت إليه من قالوا له :

« . . . ما كل ما نعلم نحب أن نقوله فأبدلنا به » .

قال الخليفة اللين الذى ينفر طبعه من البحث والاستقصاء :

« فمن تحبون ؟ . »

قال غيلان بن خرشة رأس الوفد :

« يا أمير المؤمنين . . . فى كل أحد عوض من هذا العبد الذى أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا . فلا ننفك من أشعرى كان يعظم ملكه

على الأشعريين ويستصغر ملك البصرة . . . إذا أمرت علينا صغيرا كان فيه عوض منه . أو مهتدأ كان فيه عوض منه . ومن بين ذلك من جميع الناس خير منه . »

فمن يا ترى ذلك المهتد الذى عناه غيلان ؟ . . إنا لنعلم من الكلمة أنها تعنى الولوع بناحية من نواحى الفساد دون مبالاة ما يقال . ولعلها فى حديث غيلان عنت الغرام بالشراب . فهل أراد رسول البصرة الحصيف الأريب أن يقترح على عثمان اسم أخيه الوليد ؟ إن غيلان إذن لداهية . وسعه أن يلعب على الوتر الحساس فى نفس الخليفة باستغلال كلفه بأهله . وإن دهاءه لأداة فعالة عرف كيف يشق بها الطريق إلى هدف قومه . إعزل الوالى الذى أبغضوه ، وبالفوز بآخر يملكون زمامه فى ان ، لأنهم يعلمون أن سقطته القديمة ستكون سلاحاً فى أيديهم يسلونه على رقبته متى يشاءون . ومع ذلك فإن فى حديث رئيس وفد البصرة الحكيم بقية تكشف عن شدة تحوطه وفرط حرصه على الفوز ببغيته إذا عرفنا أيضاً من ذلك الصغير الذى جمع الاقتراح بينه وبين المهتد السكير .

قال الرجل ثانية يغرى الخليفة :

« . . . حتى متى يأكل الشيخ الأشعرى هذه البلاد ؟ . . يا معشر قريش . أما منكم صغير فتستشبوه . . . أما منكم خسيس فترفعوه . . . أما منكم فقير فتجبروه . ؟ »

فوضح بهذه الكلمات مرماه . وبان من خلالها أنه يريده أميراً من فتيان قريش . وإذا ذكرت قريش أمام عثمان فى أهله بقية تليق بالسلطان .

وكذلك ولى ابن خاله عبد الله بن عامر وهو إذ ذاك فتى فى الخامسة والعشرين .

وتخلصت البصرة من أميرها الشيخ وفازت بصغير ، لعلها طمعت أن تجعله حداثة سنه ألين فى يدها فتستطيع أن تجبله كما تشاء . وبقيت فترة من الزمن خامدة كالرماد تنتظر أن تسعفها الأيام بالإصلاح المنشود على يد واليهـــا

الجديد . . . لقد أثبت خـــلال الشطر الأول من حكمه أنه جندى مجيد . ولـكن الجندية ليست دائمـاً عنوان الحزم ، ولو أنه استطاع أن يخضع للدولة بقية من فارس كانت لاتنى تجر عليها المتاعب ، وتمكن بهذا أن يؤمن حدوده ، إلا أن إقليمه فى داخله كان بحاجة الى أمن لم يوفره له . وامتدت يد عابثه إلى الرماد تقلبه وتنبش عن الجمر المتقد فيه . وإن هو إلا قليل زمن لم يكد يستقر فيه ابن عامر على أريـــكته حتى وضعت فى أرضه بذور الثورة .

أجل . فى هذه الناحية من الدولة الإسلامية ظهرت أقوى الحركات الهدامة فى تاريخ الإسلام . جاءت من الجنوب كالسموم . على يد أسود من إحــدى الدويلات التى أنفت حتى فى أيام النبى أن تخضع لحـكم البلاد المقدسة وحاولت أن تخلع سيادتها لولا أن قهرها ابن أبى طالب على الطاعة . . . من اليمن جاءت . وعلى لسان ابن السوداء عبد الله بن سبأ سالت كالسم . وانطلق بها الرجل إلى الحجاز يهم أن يبثها ، لولا أن وجهه ذكاؤه إلى بلد أكثر تقبلا للدعوة من مهد الدولة ، وأبعد عن أيدى الخليفه وأعوانه بالمدينة أن تمتد إليه . لقد كان ابن سبأ خبيراً بنفوس الناس ، عالماً بنواحى الضعف التى يستطيع أن ينفذ منها إليهم ، ملماً بأحوال البلاد التى انتظمها الإسلام تمام الإلمام ، فعرف أى تربة من بينها يمكن أن تنمو فيهـــا بذوره .

من صنعاء حيث غرسته أمة اليهود السوداء خرج إلى الحجاز ، وفى المدينة حاضرة الدولة الـكبيرة — التى ينطوى قلبه لها على مثل مايملأ قلوب أهل ملته من المقت والضغينة — خلع ثياب دينه القديم وأظهر الدخول فى الإسلام . ولـكن الدعوة التى جيش لها ذكاءه لم تـكن لتثمر ثمرتها المرجوة فى الأرض المقدسة . . . إنه لا يخشى أن تبط ش به يد الحـكومة بقدر ما يخشى أن يخذله الرجل الوحيد الذى جعله عـــلم دعوته . هو يقرأ جيداً نفوس الرجال ويرى ضمائرهم مكشوفة أمام عينيه بغير نقاب . وهو يعلم جيدا أن دعوته فرية إن جازت

على بعض النفوس فى الحجاز فلن تكون لها مطلقاً حياة لو أن ابن أبى طالب فتح شفتيه . وما كان له أن يأمن علياً على السكوت فضلا عن موافقته ورضاه؛ لأن خلقــه الكريم حرى بأن يثيره على الدعوة ويدفعه لحربها باللسان وبكل سلاح ، وإن كانت فى ظاهرها قد جاءت لتضع فى يديه السلطان .

ولكن البصرة بعيدة عن كف على وعن لسانه . بعيدة أيضاً عن بطش الدولة الذى فتك بدعوات الإصلاح وحارب الدعاة . . . فليد خلها إذن ابن سبأ . ويرفع بهــا عقيرته كما يشاء . وليطمئن على بذرته الخبيثة إذ يضعها فى تربتها الكفيلة بإنبات دعوات التذمر والانتقاض ، فإن الأذهان هناك مهيأة . وإن بالناس فيها — كما فى بقية الأقاليم التابعة للدولة الإسلامية — لشغفا إلى اعتناق أية دعوة تصل بهم إلى الخلاص من رجال هــذه الدولة التى لم تحسن سياستهم وعاملتهم بغــير المساواة التى فرضها الإسلام بين الشعوب تابعة أو متبوعة ، وبين الأفراد سادة أو مسودين .

« إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد »

هذه كلمة السر التى جاز بهــا اليهودى الأسود نفوس الكثرة الغالبة من المسلمين وهم إذ ذاك قليلو إلمام بمكنون آيات القرآن . ولقد انتقاها آية تتفق فى ظاهرها وتأويله ثم مضى بين الناس يعقب عليها ويقول :

« العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع . ويكذب بأن محمداً يرجع . »

فلما وضح له أن كثيراً من القوم تلقوا قوله بقبول حسن ، وأعجبهم أن يبشر بعودة نبيهم ثانية إلى الحياة الدنيا ، راح يلون دعوته الدينية بالأصباغ السياسية التى أيقن أنها كفيلة بأن تفعل فعلها ، وتديل وشيكا دولة الإسلام .

١٤

إنه خبير بالنفس الإنسانية شديد الشعور بالأحاسيس التى تناوبت قلوب أبناءزمانه ، على علم كامل بالعواطف التى احتضنتها شعوب الدولة فى أركانها المختلفة . وهو بعد هذا رجل قد أتيح له ذكاء لماح وقدرة خارقة على التدبير بعد التقدير .

وفيما أحسب ، كان الخاطر الأول الذى راود ذهنه هو العبث بالعقيدة الإسلامية وبث اللغويين مبادئها الراسخة . وكان فى هذا مدفوعاً بنفسه الموتورة التى أكلها الحقد على الإسلام . وكان الخاطر الثانى ذيلا للأول ؛ فقد أنبأه إدراكه أنه لا دين بلا دولة كما لم تكن دولة قبل الدين . فلما رسخ هذا فى عقله راح يصوغ المعاول التى تهدم البنيان الأشم الذى قام على أنقاض بلاده وغيرها من البلاد الخاضعة للحكم الجديد .

أما وقد بذر بذرته الأولى فتلقفت ثمارها أيدى سواد الناس من الجهال وقليلى المعرفة بأمور عقيدتهم ، فقد حق له أن يمضى قدماً نحو هدفه ، وأن يسعى سعيه ليقع على الأداة الكفيلة بإنجاز الهدم على الوجه المطلوب .

تنسم الجو . وامتد به أنفه يشم الريح . لو أنه بدا للناس فى ثوب الهدام لانكشف من أمره ما أراد ستره . ولو ضحت نواياه أمام العيون مهتوكة . ولكنه أحكم من أن يدع الشكوك تدنو منه ، وأحرص على حياة غرضه من حرصه على حياته . وما دام ذكاؤه يسعفه فلا عليه أن ارتدى ثوب البانى وخطر فى النـــاس يحضهم على معونته ليقيم الصرح المنشود على الأنقاض القديمـة .

إنه عول إذن على أن يهدم . وعزم أمره على تقويض بنيان الدولة الإسلامية بدك الهيئة الحاكمة التى قامت على رأسها . ولكنه فى هذا كان

مؤملا أن يقنع الناس أنه سيقيم لهم نظاما خيراً من ذلك الذى أبغضوه . ويستبدل بالرأى المكروه سواه أقرب إلى قلوبهم وأحرى أن يلتفوا حوله وينهضوا إلى نصرته دون تردد ولا فتور . إن الأيام التى فاتت على الإسلام منذ ظهوره قد أبقت فى وفاضها أشخاصاً ما زالت لهم قداسة فى نفوس أكثر الناس . تتطلع إليهم الأبصار خاشعة . وتهفو القلوب ولهى بحبهم إذ يبدون كالمثل التى تتجسم فيها روح الدين . كل منهم قائم وحده كالعلم بين العامة بتاريخه وسابقته وشخصيته . . . فلينظر ذلك اليهودى الأسود من بين أولئك يصح أن يكون علم الأعلام .

منذا ياترى كان المنار الأرفع ؟ . . أى الحفنة القليلة الباقية من صحب رسول الله أولى بأن تلتف عليه العواطف التفاف الثوب المحبوك بالجسد المشوق ؟ من الأثير عند الأرواح ، الجدير بالتسويد إذا استبدلت سيادة بسيادة ، والحقيق بملء المكانة التى راحت الدعوة السبأية تجهد جهدها لإخلائها من شاغلها المملول ؟

هو إذن فرد واحد تكاد أن تتقصف الرقاب المشرئبة الطامعة دون بلوغ شأوه . له بكل قلب حظوة . وفى كل عين تقدير . ولدى كل نفس ولاء ، إن غشيته أحياناً أحداث السياسة فقد مكنت له ووثقته القدمة . . . هو ابن الرسول . وابن عمه . وأخوه فى الدنيا والدين . فى الحاضرة وفى الآخرة . وختنه على الزهراء . وأبو سلالته الطاهرة وعدته الخلصاء . . . هو على بن أبى طالب . ومن سواه كان يا ترى المنار الذى ينشد السراة ضوءه ، والعلم الأرفع المولى بأن تنضوى الجموع تحت ظله !

وكذلك راح ابن سبأ يحسب ويقدر . ثم راح يرتب وينظم . فلما اطمأن إلى النتائج التى استخلصها أخذ ينتقل بخطوات وئيدة ثابتة من دعوته الدينية إلى الدعوة السياسية الكفيلة بتقويض نظام الحكم الذى ملته وعابته الجماهير . وتقدم صفوف أنصاره المفتونين بقصة الرجعة يسير بهم وهم كمعصوبى الأعين إلى عوالم من الآمال وسيعة الآفاق فتحها أمامهم

ألفاظه المعسولة التى استغلت العواطف المنطوية عليها قلوبهم من أجيال .
وهو كلما نطق حرفاً أو سار شوطاً انسالت الجموع خلفه تتدفق ، مستبشرة
راضية النفس إذ آنست قرب حلول يومها الموعود !

كان جماع المبدأ الذى أحكم لهم رسمه وتلوينه :

« . . . إنه كان ألف نبى ولكل نبى وصى . وكان على وصى محمد ، ومحمد
خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء . . . فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله
ووثب على وصى رسول الله ، وتناول أمر الأمة » .

وهذه كلمات لمست بإحدى ناحيتيها أو بالأخرى قلوب العامة ، فانتشرت
فيهم كما تنتشر النار فى هشيم جاف : ما من رجل سمعها إلا لقيت صدى فى
نفسه ، من استهوتهم الرجعة تلقفوها جد مشوقين لأنها الفصل المتمم للقصة ،
ومن خشى على عقيدته الساذجة السليمة أن يصيبها رشاش من خيال العقيدة
السبأية الجديدة يفسدها ، استراح منها إلى الشق الذى تضمن الدعوة إلى تحقيق
هدفه وهدف إخوانه المتذمرين ببقية الأمصار . . . ومن بين أولئك وهؤلاء
أناس استطاعوا أن يرتدوا بأخيلتهم إلى الماضى ، وأن يركبوا جناح ذكراتهم
إلى مشهد خالد عسير نسيانه على الذاكرات . وأن تتسرب أبصارهم وآذانهم
خفافاً بين ألفاف الأعوام تطويها وهى تسير فيها القهقرى حتى تلم من كثب
على الزمان والمكان . . . ها هو الستر قد انجاب وتبدى الموقف سافرا أمام
الأعين المتطلعة ، ناطقاً بأحداثه ، يهمس للاذان المتهيئة ثانية للسماع بعد أن أوفت
الرحلة الزمنية بكل مسترجع مستعيد على المشهد القديم الجديد . وها هو اليوم
الذاهب فى الغابر يعود حياً كهيئته الأولى ، شديد الهجير تلفح شمسه الوجوه
وترميها من لدنها بمثل ألسنة النار . . . وهاهى الجموع العائدة من حجة الوداع
تحث خطاها على طريق المدينة يود آخرها أن يسبق أولها فراراً من وهج الحر .
ولكن نداء رافعاً يحبسهم فى أماكنهم ويدعوهم إلى الوقوف دون المسير . وينطلق
القوم صوب الداعى ، وتلتف به آلافهم المؤلفة عند غدير خم . ويلقون

السمع والبصر والفؤاد جميعاً إلى نبيهم وقد وقف يستظل من الشمس المستعرة بثوب علقوه على شجرة سمرة . . . ذلك يوم لم يغب عن الأذهان أثره ولا خطره ، جديرة صوره بالتدبر قبل التذكر ، وبالادراك قبل التصور .

وعلى الملأ الحاشد ، وبين الجموع الزاخرة التي وقفت تنصت ، سرى صوت رسول الله عالياً ، ثابت النبرات يقول :

« . . . أيها الناس ، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم ؟ »

فارتفعت من كل ناحية أصواتهم تجيب :

« الله ورسوله أعلم » .

قال :

« . . . إن الله مولاى ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم » .

ثم أخذ بيد علي وهو إلى جانبه فرفعها حتى رؤى بياض آباطهما وعرفه القوم أجمعون . وأردف يتمم الحديث :

« . . . فمن كنت مولاه فعلى مولاه . . . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

كذلك استعاد الناس في أذهانهم هذه الصورة الباقية من صور الماضي ووعتها خواطرهم إذ بشر فيهم ابن السوداء بتعاليمه الجديدة . وكان الرجل ماهراً في عرض فكرته وماهرا في الربط بينها وبين أثر مقدس لا يستطيع امرؤ نسيانه أو نكرانه ، فآمن بالفكرة من آمن بالرجعه ومن أنكرها على سواء . وراح الكثيرون يستنبطون من الحديث النبوي تلك الدلالة السياسية التي أرادهم على استنباطها ابن السوداء .

ولكن إدراك الباحث جدير بأن يبز إدراك الجماهير ويصل دونهـا إلى قمة الحقيقة . . . ذلك أنها في الأغلب أسيرة العاطفة ، لا تصدر في حكمها إلا عما تنضوي عليه رغبات الجوانح . ولا تعمل إلا بوحي النفس المنساقة مع الهوى والميول . ولقد آنست العامة إذ ذاك في دعوة اليهودي الصابئ الأداة التي بها ينهدم عهد عثمان وتنتهي المتاعب التي عانتها منه ورأت من

ورائها شمس الخلاص وشيكة البزوغ فلم تمن باستقصاء ما هية الدعوة قدر أندفاعها إلى تقبلها ، مفتوحة الأيدى ، مرهفة السمع ، راضية النفس إذ جاءتها تهبها التحرر والانطلاق .

أما الباحث فله معها شأن سوى رضاء الجماهير ، يميل به إلى نكران الدلالة التى استخلصها العامة وينحرف به عن التصديق . لا ريب هذا حديث لا يعتوره باطل ، ند عن شفتى رسول الله باجماع الرواة ... ولكن المرمى السياسى من ورائه توشك أن تخفيه ظلال كثيفة . وإذا كان ابن سبأ قد نصب نفسه داعيه إلى حق على وقام يؤيد قوله بإثارة النص النبوى فى أذهان سامعيه ، فإنا لا نحسبه كان أكثر غيرة على الحق من صاحب الحق عليه . ولا أسرع إلى التماس الأسانيد المؤيدة لعلى من على نفسه . ولا أعرف بالوصية السياسية فى قول رسول الله من الرجل للذى أوصى بها له ... ولنا فى كلام ابن أبى طالب بعد غدير خم ما ينبىء عن استجازة هذا الداعية اليهودى لما لا يجوز . وعن ركونه — فى سبيل أغراضه — إلى تدليل هو عين التضليل ، وكفانا أن نسوق الدليل من الحديث الذى دار — قبيل وفاة النبى — بين العباس وبين على .

قال له الشيخ إذ ذاك يستحثه :

« ... انطلق بنا إلى رسول الله ، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه . وإن كان فى غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس . »

فجاءه الجواب :

« والله لا أفعل ... فوالله لو منعناه لا يؤتيناه أحد بعده »

فهل من رجل كان يعرف لنفسه حقاً ثابتاً فى الخلافة بعد رسول الله يستحقه بالتعيين وعلى سبيل الإلزام لكافة المسلمين ثم يقول كما قال ابن أبى طالب ذلك الجواب الذى يحمل معنى احتمال استخلافه كما يحمل احتمال تركه على السواء ؟ .. كلا ! .. بل هو جواب حاسم يسد الطريق على التقول ويخرس لسان المتأول ولا يدع من بعد مجالا لفرية أفاك أو لتعصب نصير .

لسنا ننتقص بهذا من حق على فى الولاية السياسية ، ولـكنا نربأ أن نلتمس له أدلة متعسفة . . . إن فضله بين صحاب رسول الله كان ثابتا لامرية فيه ، وإن علمه كان مأثوراً استقاء به كل أولئك الأعلام ، فكان لأمور دينهم ودنياهم الظل الأورف . وإن حب رسول الله إياه رفعه على رؤوس كافة المسلمين وبوأه مكانة عزت على سواه . . . بهذا وبغيره من مزاياه الخلقية ونواحى شخصيته الرحيبة كان جديراً أن يصبح على رأس الدولة مذ اليوم الذى خلت فيه الدنيا من صورة ابن عمه الـكريم . ولـكنا — مع ذلك — نأبى أن نحمل النص النبوى أكثر من مبناه أو يـكون ابن سبأ قد أدرك المعنى الخفى فيه وأغفله على — وحاشاه .

ثم انظر من بعـــد كيف كان موقفه من أصحاب الشورى ، وعلى أى الدلالات دل خطابه فيهم حين قال :

« . . . لو عهد إلينا رسول الله عهداً لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا لجادلنا عليه حتى نموت . »

فلم يعهد إذن رسول الله عهداً سياسياً ، وإنما عناها ولاية قد تعنى التعميم دون التخصيص . ووصية آلى بهـا قومه إن أرادوا أن يتجهوا إلى الخير أينما كان . وهى بوضعها لا تلزم الناس بأمير بعينه ولا تحمل فى طيتها معنى الإجبار ، بل هى إرشاد وتوجيه ولهم بعدها حـــرية الاختيار .

١٥

عبد الله بن عامر جعدى مجيد إلا أنه حاكم غير رشيد . . . لم يكن بعد قد تم نضجه . ولم تـكسبه سنوات عمره القليلات الحنـكة التى يجدر أن يتصف بها كل موكول بقيادة شعب من الشعوب . حين بدأ حياته العامة بالبصرة همت آمال أهلها أن تنعقد عليه ، أو ليس نتاج اختيارهم وحده ؟ أو هو — على الأقل — الرجـل الذى أوصوا باختياره إلى الخليفة من طرف واضح أو طرف خفى . . . أو لبست حداثة سنه قد أطمعتهم فى أن يـكون رخو

القوام بين أصابعهم يصوغونه على الشاكلة التي يريدون ؟ . . ولكن الآمال راحت تذوى مع الأيام ، لأن الفتى القرشى كان أيضاً قرشى النزعة كسلفه . ما كاد يستقر به مقعد الإمارة حتى ولى وجهه شطر قومه يتخير منهم ويحشدهم فى مناصب دويلته كأنه لم يكسب عبرة من مصير الأشعرى الشيخ .

على أن البصرة كانت خامدة كالرماد ، قد اختفى فيهما الجمر تحت السطح البارد . . . لعل الفتى أمن أن تمتد إليه يد القوم بما امتدت به إلى سابقه مادام ينهج فى سياسة الولاية نهجاً سليما لامغمز فيه لأى حاقد . لعله استراح لصلته الوثقى بأمير المؤمنين وعدها سياجا يحول بينه وبين تذمر الجماهير . . . على أى حال قد كان صورة ناطقة لغيره من ولاة ذلك العصر الذين أبت طبائعهم أن تتغلغل بهم فى نفسية رعاياهم ، ففاتهم بهذا أن يكشفوا عن الداء الكامن ويبادروه بالعلاج . وكان إلى هذا مفلول العزم غير حازم . جرده طبعه من ملكة الحسم وقوة البت فى المشكلات التى نبتت تحت قدميه كالعواسج . . . ذلك أنه لم يكن يحسن إدراك الأمور أو يستطيع أن ينفذ سريعاً من خلال مقدماتها إلى النتائج التى لن تلبث حتى تترتب عليها . بل لقيها دائماً بلا مبالاة أو بعلاج كان فى حقيقته كلا مبالاة . . .

بهذا تناول الدعوة السبأية ، فجلس فى بادىء الأمر يرقبها بمين وسنان . ومضى بها اليهودى الأسود تحت بصره وأذنه يبثها فى أرجاء الولاية ويغرس بذرتها فى القلوب والصدور . ولو قد أتيح لابن عامر من التبصر ما هو قمين بأن يتوفر فى عامل على أقليم لكان وسعه أن يفهم الخطر قبل أن يكشف عن أنيابه ، ولقتل الفتنة فى مهدها قبل أن تستفحل ويستعصى أمرها على كل من أراد أن يخضد شوكتها أو يجتثها من أصلها الخبيث .

أجل كان بوسعه أن يقضى على تلك الدعوة الهدامة منذ اليوم الذى تبدت فيه للأذهان دعوة دينية خالصة لاتتصل بكيان الدولة من بعيد أو من قريب . وكان له — لو فعل — سند من الدين نفسه الذى لايجيز الرجعة لأنه لم ينص عليها فى دستوره السماوى الذى وعته قلوب الكثيرين ، وفيهم بقية من صحب

رسول الله ، كان أحرى بهم أن يملوا من صاحب الرسالة المقـدسة إن كان سيعود ثانية فى هـــذه الدنيا إلى الحياة . . . ولـكن الفتى الحاكم جلس بهوم كالوسنان كأنما الأمر لايعنيه ، أو كأنما أيقن أن دعوة ابن سبأ ضلال محض لن تلبث حتى تضل طريقها إلى نفوس النـــاس . . .

وهكذا تنقلت البذرة الخبيثة فى أطوارها المختلفة حتى نضجت ثمرتهـا ، وراح صاحبها يسير بها فى طريقه المرسوم ويلف حوله الجموع التى لم تموزها الرغبة فى الثورة وإن أعوزها حسن الأدراك . فلما رأى سبيله ممهدا لا تقطعه عليه قوة حازمة ، فرق أنصاراً له فى الأمصار يبشرون بتعاليمه ثم راح من بعد يرسم لهم خطة العمل بعد الـكلام . . .

قال لأولئك الأنصار :

« . . . إن عثمان قد أخذها بغـير حق . . . »

فأمنت على قوله الجماهير التى طمعت فى الخلاص من حكم عثمان ، ثم أرهفت لتعاليمه الآذان والأذهان . . .

ثم قال :

« ... هذا وصى رسول الله ، فانهضوا فى الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على أمرائـكم . . وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس » .

ومضى صحبه يأتمرون بأمره فى كل مكان ، وتقبلت العامة بالأقاليم الإسلامية دعوته بخير قبول لأن نفوسهم الممرورة من الحـكم العثمانى كانت تربة صالحـة لـكل دعوة تحمل معنى الثورة ومعنى الانتقاض . ولم يكن يعنيهم إذا ذاك أن يجيئهم الخـلاص على يد عبد زنديق بقدر ما كان يعنيهم أن يجيئهم ذلك الخلاص . . . بل عساهم نسوا الشطر الدينى من السبأية أمام حماسهم للشطر السياسى الذى مس من قلوبهم وتر السخط والنفور .

وانتبه أخيراً ابن عامر من غفلته كمن لذعته نار . . . ولـكن زمام الموقف كان قد أفلت من يده ، فلم يكن بالهين الآن قمع الداعية الداهية . لأنه لو حاول هذا لقاومته الجماهير ، ولو جال بخاطره أن يرد شكاستها لأعياه الأمر ولـكان

متمجلا للفتنة ، نافخاً فى الرماد ، حتى يؤرثه سعيراً مشبوب الأوار .

لكن خاطره أسعفه بالوسيلة التى اتسم بها العصر كله كأداة معروفة لكبح الدعوات وقمع الدعاة ••• فليخرج الرجل إذن من البصرة وليرسله بعيداً عنها إلى إقليم سواها ليأمن خطره على أهل إقليمه • • • وليم هو بعد ذلك قرير العين مرتاح البال .

هذا والله أسلوب فذ فى معالجة الأدواء • • • ولكنه الأسلوب المعمول به طوال حكم عثمان • • • كذلك فعلوا بأبى ذر حين أعضلت بهم دعوته . وكذلك يفعلون بابن سبأ وبمثله سيتناولون كل داعية قام ينادى بفكرة أو يحض الناس على اعتناق مبدأ أو تأييد ثورة .

أهو التفكك بين أقاليم الدولة بعضها وبعض ، حتى إن الإقليم منها كانت لا تعنيه السلامة العامة للدولة بقدر ما تعنيه سلامته الخاصة ؟ •• أم هو يا ترى قلة شعور الحكام بواجبهم تجاه الأمة جمعاً وحسبانهم أن مسئوليتهم تنتهى عند حدود ولاياتهم وحدها ؟ • • من عجب أن يتناول ولاة ذلك العصر كل دعوة خطرة تدهم أقاليمهم بمثل هذا العلاج . وأعجب منه ان يقرهم عليه عثمان ••• لكأنهم جميعاً كانوا ضالعين مع أولئك الدعاة فمكنوا لهم من نشر مبادئهم فى كل مدينة لم تعرفها ولم تأخذ منها بنصيب ••• قد كانوا كمن نصب نفسه لكفاح وباء فلم يحصره فى أضيق نطاق بل خلى بينه وبين كل الآفاق يستشرى فيها وينشر عدواه .

بمثل هذا السلاح حاربوا ابن سبأ ، ولو علموا لأدركوا أنه ليس فحسب سلاحاً مفلولا لا يصيب مقتلا من فريسته بقدر ما هو سلاح مردود إلى نحور الضائقين به . وهو حينئذ قاطع شديد الصلابة عديد الذؤابات .

وخرج الرجل من البصرة منفياً ••• لكأنى به قد استغرقت وجهه كل بسمة لا تخفى سخره وفرحته حين تأهب لدخول الكوفة ••• لكأنى به — فى خاطره — قد راح يردد آيات الشكر لمناوئيه الذين أخرجوه • • •

ألم يعملوا من لدنهم على انتشار الوباء ؟ . . ألم يتيحوا له رحلة هى أجدى على دعوته من قعوده بها حيث كان ؟ . . ألم يهيئوا له أرضاً أخرى يغرس فيها مبدأه ويتعهد بيديه بذوره ليثمر ؟ . . إن أنصاره بالأرض الجديدة لأحرى بهم أن يضاعفوا الجهود حين يرون بينهم قائدهم حتى يصيبوا المرجو من غايته وغايتهم . . وأنه إذن لأدنى إلى انجاز مايريد .

وكما أخرج من البصرة طردته الكوفة . طرده منها سعيد واليها المزهو بجنسه وقومه . إن هذه البلدة كانت أخصب من أختها ، تربتها أدنى إلى استنبات التمرد ، وأهلها أسرع إلى تقبل الدعوة الهدامة والسير بها نحو غاياتها المشوبة ، ولكن ابن سبأ رضى بنصيبه من سياسة التشريد ثانية ، ومضى بوفاضه الملىء بالخبائث إلى الشام — الأرض التى احتواها معاوية فى قبضته .

فى ذلك العصر كانت المدينة — حاضرة الدولة — تكاد أن تغض طرفها إكبارا لدمشق . وكان ساستها يوشكون أن يترسموا الأساليب التى ابتكرها واليها . . . قد كان حقاً رجلا خبر زمانه فوسمه أن يخضع شعبه لسلطانه . ولكنه مع هذا لم يأت من لدنه بجديد ، بل عرف نوازع الشر فى النفوس البشرية فاستمهد النفوس بنوع الشر الذى تستجيب له . وكان جارا للروم على حدوده مازالت صروح ملكها قائمة . ونظامها الذى دان له العالم عصورا طويلة ما فتىء يستمد حياته من شرعة الدنيا ونفس الإنسان . فلم يكن الحكم بها للأخلاق . لا ولا للنواميس المثل السامية التى يجدر أن تستلهمها البشرية وتسير على ضوئها لتبلغ الخير والكمال ، ولم يكن أيضاً هناك دين مرفوع الصوت يكبح جماح الناس ، بل الطبائع البشرية هى الحاكم المسيطر، والسلامة إذ ذاك لمن سار فى غمارها كما يسير عود جاف فى تيار ماء .

هذا درس فى الحكم كتبته الروم ، ووعيه معاوية من جيرانه ، ووعيه معه شعب قريب عهد بقانون الأخلاق الذى أرشد إليه القرآن . هو . من قبل ومن بعد له مظهر جذاب يستهوى الآدمى الذى لم يتحرر من قيود

آدميته أو قيود حيوانيته على أبسط تعبير . وهو جدير بأن ينساق إليه كل من يؤثر السلامة من أهون سبيل ، فما من شك أن طريق الأخلاق هو الطريق الوعر ، وقمع الرغبات أشق على نفس المرء من إطلاقها بغير حدود ، أو بقيود هينة لا تصد العاطفة ولا تحبسها فى نطاق المثل العليا أو نواميس الدين . ولم يكن معاوية — فى الواقع — حاكماً إنسانياً يتوخى غاية الإنسانية فى أخص معانيها وأسماها بقدر ما كان آدمياً تخضع سياسته لعواطف الآدميين . ولم يلتزم نهجه هذا عن معرفة بطبائع النفوس بقدر ما كان يستجيب فيه لوحى نفسه هو وميول طبيعته المجبول عليها ، فليست حنكته الإدارية مكتسبة كلها . بل هى ناحية من نواحى نفسه الطليقة المنساقة مع الدنيا كذلك العود الذى يجرفه التيار. ولقد آثر السلامة فحرص على أن ينالها من أهون سبيل وأخضع سياسته كلها لنزعات النفوس حتى يأمن أن يستقيم له الأمر . وكانت الحدود التى رسمها الإسلام للأخلاق تلق لديه — بوصفه حاكماً إسلامياً — كل تبجيل وإكبار. ولكنها لم تلق منه المترسم لها ، السائر على نهجها فى كل الأحايين . إنما كان الربح المرجو والغرض المنشود غايته المثلى ، وما كانت المعايير الخلقية لديه إلا نوعاً من المعايير يزن به الأمور إن أعوزه أن يجد لها كفاء فيما تعرفه طبيعته الآدمية من معايير .

هذا هو الرجل الذى كانت تتطلع إليه المدينة ، ويتطلع إليه ساستها كلما حزبهم أمر وأعياهم أن يقفوا له فى وفاضهم على دواء . لقد بهرهم جميعاً نجاحه وأكبره فى نظرهم أن ظلت ولايته ساكنة لا تعتمل فيها فورات ولا ثورات. وكان هو هادئ الطبع لا يكاد أن تحركه الخواطر الجامحة التى انتشرت بغير الشام فضلا عن أن تفزعه أو تثير قلقه. ذلك أنه كان يؤمن بالنفس فآمن بالمادة أشد إيمان . ووسعه من وراء إيمانه هذا أن يوطد ملكه ويضمن سلامته، لأن قيادة النفوس لا تتطلب الجهد اللازم لقيادة الأرواح ، وبحسبه أن يستعين بالرشوة وبالكذب وبالخداع ليستعبد كل من تستجيب نفسه لأمثال هذه الشرور .

ارسلوا إذن إليه ابن سبأ ، وفى ظنهم أن الوسائل الأموية بالشام كفيلة بقمعه وتأديبه . ولكنهم نسوا أنهم وذلك الحاكم الأريب الرشيد أمام رجل يسيره مبدأ ولا يستعبده عرض . وأصحاب المبادىء دائماً هم أصحاب عزائم تعجز دون ثنيها أو ترويضها كافة العروض . ولقد عرف معاوية القلق إذ ذاك ، وثارت فى نفسه عوامل شتى من الخوف والإشفاق على ولايته أن يلفها الداعية فى برده . ثم زاد به قلقه حتى أوفى على حد الجزع حين بلغه أن ابن سبأ قد ألب عليه صحابياً جليلا لا تملك الأسماع النافرة من صاحب قصة الرجعة إلا أن تميل له . وإذا كان هناك الحاكم قد اطمأن نوعاً إلى إدراك الناس وما يحتمل من انحرافهم عن تصديق اليهودى الأسود ، فإنه أيقن أنهم أمام دعوة أبى ذر ليسوا كذلك ، فلم يكن هناك من يرى راعى الفقراء بأدنى شبهة ، أو يستطيع أن يحول بين الطبقات المحرومة وبين تصديقه . وما دام معاوية اليوم فى ميدان تصطرع فيه سلامته الشخصية كأمير وسلامة الدولة كلها كوحدة ، فإنه إذن لا يعوزه التفكير لاختيار الطريق الميسور. وأحسبه قد سارع فاختار لأن كفاح المبادىء قد يصل به إلى النجاح ، وقد يصل به إلى خسار .

أجل شق عليه أن يقمع المبدأ الهدام وإن كانت سلامة الإسلام كله فى قمعه . وآثر أن تبقى له إمارته قائمة تدين له فجنح إلى الحل الذى مال إليه كل أمراء الدولة إذ ذاك لا فرق فيهم بين ضعيف وقدير . وكما فعل ابن عامر من قبله ، نرى أمير الشام قد سارع إلى نفس الأداة التى توسل بها صاحباه فأخرج ابن سبأ إلى ما وراء حدوده ليؤمن هو ملكه ، وليستطيع من بعد أن يعيش قرير العين مرتاح البال .

وكذلك انتهى المطاف بالسبأية فحط شيخهم رحاله بمصر ، وأخذت دعوته بها تنمو مع الزمن ، وتهيمن على النفوس المتمردة بكافة الأقاليم الإسلامية ، ثم تنتشر انتشاراً نامياً على يد الرسل والرسائل ، وتمد سلطانها فى البلاد كما تمتد أذرع الأخطبوط !

١٦

حصار من الأحداث والاضطرابات الفكرية ضرب نطاقه على الدولة الإسلامية ولفها من أقطارها كأنها فى ثوب ، تبدت منه حاضرة ملك عثمان كما يبدو من بين الموج الثائر وجه غريق. الرجل أمامها حائر. مضت الآن فترة الطمأنينة المفتعلة التى بثها فى نفسه مشيروه أعواماً ، وغلب على قلبه الطيب قلق أكال على مصير أمته . حتى فى عقر داره لم يعد يامن أن تناوشه اضطرابات أخر . بل إنها ناوشته فعلا . وراحت تحز جنبيه . فما كانت المدينة بالمكان الهادىء ، وما أصبحت الإمارة بالمقعد المستقر الذى يرتاح إليه . . . حقاً إن الدعوة السبأية لم تجد لها مرتعاً فى حاضرة الدولة ، ولكن أبا ذر كان قد حرك فى نفوس الفقراء جرثومة الحسرة التى تورث النفور ، وأخذ العبيد والموالى بها تفور بخواطرهم انفعالات الغضب من أجل حقوق لهم مرجوة ولكنها ضائعة، وانبرت عيونهم وآذانهم تتربص بكل كبيرة وصغيرة يأتى بها الحكام عسى أن تجد فيها مادة للتذمر . والسادة أيضاً ملأتهم المرارة لأسبابهم الخاصة ، وأصحاب الدين العازفون عن عروض الدنيا وسعهم أن يشعروا بالأسف على ما آلت إليه الأمور فى هذا العهد . وأن يعزوا التدهور الخلقى الذى غزا النفوس إذ ذاك إلى ضعف الخليفة ووهن قبضته ... كان مما لا يعابون عليه أن تروح نفوسهم فريسة لهذا الإحساس لأنهم يؤمنون أن حالة الشعب ليست إلا مرآة تنعكس على صقالها قدرة الحاكم ، ولقد عانى الشعب أنواعاً شتى من الآلام انبعثت عنها شكاواه، ولكن الذى أصبح جديراً بأن يثير قلق كل مسلم غيور على دينه أن يتدلى الناس إلى حضيض الأخلاق الذى كافح الدين طويلا حتى انتشلهم منه . . . ألم يفشو القمار بين الشبان ؟ ألم يجهد المترفون ليبتكروا صنوفاً من المراهنات استهوت النفوس الضعيفة ؟ ألم يتنافسوا فى الرمى عن الجلاهقات وفى طيران الحمام فى مباريات كانت تقود إلى

ربح وخسارة تأباهما روح الإسلام ؟ . . هذه ألوان من العبث كانت بلا شك للشام اليد الطولى فى بثها بأرض الجزيرة . فمن بلاد الروم أقبلت ومثيلاتها تخترق التخوم والحدود ، ومن مستقر معاوية انطلق خطرها يغزو النفوس التى سرها أن تتحرر ثانية من عقال الأخلاق لتساير سجيتها الآدمية النزاعة إلى الهوى ورى الغرائز . . . لم يكن كفاحها الضعف البشرى فى ممتنقيها كفاحاً مريراً بل كان هيناً أشد هوان . فقد انقضى عهد سيادة الروح إلا قليلا وبدأ العصر الذى أصبح فيه المستمسك بدينه كمن تقبض كفه على جمر . وكان الجيل العف قد أخذ يودع الحياة ويخلى مكانه لجيل من نوع آخر ، بهرته الدنيا الخارجية، واستهواه زخرفها البراق وفتنة المظهر التى قاربت أن تسود كل شىء . . . وكان الشباب الوشكون أن يرثوا الدولة بعد بناتها الأول خليطاً من دماء شعوب وثنية أو أخرى لم يبق لها من دينها السماوى المنسوخ إلا بقايا تافهة لا تستطيع أن تمسك الحياة الروحية وتحفظها قائمة . وكانوا أيضاً ودائع فى أيدى أمهات من السرارى جىء بهن من البلاد المغلوبة ولسن على أسس من الخلق قويمة كتلك التى دعا إليها الإسـلام ولا تنطوى جوانحهن على احترام حق له . . . وهل الشعب بعد هذا سوى الأمهات ؟ .

على أن عثمان — فى الحق — لم يغفل دينه ، ولم يدع هذه الشراذم المفتونة تعبث فيه كما تشاء حرة طليقة ، بل أدى رسالته لربه ، وراح يقمع العصاة جاهداً ليردهم للجادة ، فما كان بالمتهم فى غيرته وحرصه على أصول الإسلام ، ولا بالذى ينام على أمثال هـــذه الفتنة وإن نام على فتنة السياسة ، ولقد لقى عنتاً فى كفاحه هذا لأنه كان يحارب نفوساً جرى فى دمائها التهاون والاستهتار بكل تقليد نبيل ووضع قويم ثم من بعد بكل محرم مقدس . ولكنه لقى أيضاً عداوة له مدفونة فى قلوب هـــذه الفئة التى شن عليها غارته وحرمها حقها المزعوم فى الحيـاة الملونة التى ارتضتها ، وأوشك أن

يصبح لها هى الأخرى موقف منه ، لا يبعدها عن صفوف خاذليه .

ولكن هذا الكفاح — على صدقه — لم يلق جزاءه ، ولم يتقبله الناس القبول الحسن الجدير به ... وهل كان بمقدورهم أن يفعلوا ؟.. هل كان بوسعهم أن يتلقوا جهاد الشيخ بالثناء وهذه شخصية إسلامية كبيرة ، لها فى نفوسهم منزلة لا يكاد أن يرتفع إلى شأوها سوى قليلين ، ما برحت ترميه بكل ما يثير نفوسهم عليه ... إنهم ليعلمون لها فى الدين سابقة ، وفى حفظ تراث محمد الروحى يد ومأثرة ، وفى بلوغها من العلم مدى يجعل لرأيها فى عثمان قوة الحكم الدامغ غير المنقوض ... أولبست هى من أوصاهم رسول الله بأن يلتمسوا لديها الهدى فى شئون دينهم إن أرادوا الهداية ؟ . . ألم يقل لهم حديثه خذو عنها نصف دينكم ؟ . . بلى . هى كل هذا وأكثر منه ... إنها زوج محمد ، الزوج الأثيرة عنده من بين نسائه ... إنها ابنة صاحبه الصديق التى تربت فى أحضان الدعوة ، وما كان لمثلها أن تتهم بغير علم ، وما كان لها أن تقول فى عثمان إلا حقاً صافياً غير مشوب .

ها هى قد نأت بجانبها عن الشيخ نفوراً وموجدة ، وراح لسانها ينال منه ، لم يعد الرجل فى خاطرها الآن أميرا للمؤمنين ، ولم يعد الغيور على حرمة الدين ، بل هو لم يعد مطلقاً ذات عثمان المبجل القديم ... فى سخريتها مجال لنعته إذن باللفظة التى تجنبها ذكر اسمه لأنها أصبحت تعاف أن تنطق به . . . وفى علمها المأثور عن زوجها الكريم مايزرى بكفاية هذا الخليفة — هذا النعثل — إن أريد أن يقاس مدى علمه بدينه الذى أؤتمن عليه . . . نعثل ... نعم فما أشد انطباق هذا الاسم الجديد عليه ! . . وما أقوى دلالته اليوم على صاحب الأمس الذى لم يبق منه إلا مظهر خارجى تنم عنه هـذه اللحية الضخمة ذات الشعر الملتف الكثيف !

فقد الرجل إذن — فى نظر عائشة — مخبره القديم وإن استبقى الهيئة الظاهرة السطحية ، كمثل الأبرص لا يزينه حسن برده . . . ومضت هى فى غضبها عليه تبث فى النفوس دعوتها الناهضة . ولقد هداها فكرها إلى نوع من

التأليب أشـــد أثرا وأبلغ نفوذا إلى النفوس والأذهان ، فسارعت إلى قيص لرسول الله فنشرته بيينها كلما مر به امرؤ قالت له .

« هذا قيص رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته . ! »

فهل من سامع لهذا الـكلام يستطيع من بعد أن يحسن الظن بكفاية الخليفة فى رعاية الدين وحفظ فروضه وسننه إن وجد إلى اليوم من كان يحسن الظن به فى رعاية شئون الناس وحسن قيامه بأمور دنياهم ؟...

ومع هذا فلم يقف نشاط عائشة فى دعوتها للتخذيل عن عثمان عنـد المدى الذى ساقها إليه حرصها على كيان الدين ، بل احتضنت مع الزمن الدعـــوة السياسية التى أخـذت تعمل لهدم الرجل وهدم سلطانه . هى فى هذا كانت لا ريب مدفوعة بحرصها على أن علا مقعد الإمارة الإسلامية بمن تظنه جديرا به ، وأشد غيرة على الواجب الدينى والدنيوى من ذلك الأمير المغضوب عليه . ولـكنها فى اندفاعها نسيت واجبها هى كأم للمؤمنين عليها أن تدعو إلى السبيل الأقوم ببث الحب والحـكمة دون العداء والتفرقة بين أبنائها المسلمين . ونسيت أيضاً مكانتها فى الناس كزوج لرسول الله تتطلع إليها عيونهم فى توقير لا يمكن أن يتوفر لها إن آثرت السيرفى غمار الأحزاب . غير أن الشعور بالتفوق حفزها إلى الاستزادة منه . وطاقة النشاط التى انبعثت عن شبابها ، وما كانت فيه من فراغ لا يشغله ما يشغـــل المرأة عادة من ولد أو زوج ، قد اجتمعت كلها عليها لتبدلى بدلوها فى الشئون العامة وقد حرمها الزمن أن يكون لها شأن خاص تقف حياتها عليه . . .

نفضت عائشة عنها خمول البيت ، ووحشة الوحـدة ، ومضت لطيتها إلى ميدان أولى به نشاطها وحيويتها عسى أن تـكون لها يد فى رسم مصير الشعب الذى أحبته باللون الذى ترتضيه . ولقد دفعتها الأحـــداث أمامها كما يدفع السيل المنحدر صخرة ، فلم تستطع التمهل ولا التريث . ومضت فى النهار حتى آخر الشوط ، ولـكنها كانت تهدف بلا ريب إلى الخير لدينها ولأمتهـــا حسبما دلتها نظرتها إلى الأمور ، وان أخضعت هذه النظرة لطبيعتها الأنثوية .

فلم تغفر قط لعثمان أن تناول سنة زوجها بالتبديل والتغيير . وقامت لهذا تشنها عليه حربا شعواء لاترضى من نتائجها بأقل من خفضه عن مقعد الحكم الذى خلف عليه رسول الله ، بل إنها سارت بحنقها إلى مداه حتى جاهرت بالرغبة فى أن ترفع بصرها فلا تراه فى هذه الحيـاة الدنيا ، ولو كان لها فى ذهابه عنها نصيب ... قالت تكشف عن حقدها عليه وقد علمت أن وفود الثوار أقبلت لحصرته فى داره حتى لايعلم إن بقى له أمل باهت فى الخلاص .

« ... والذى نفسى بيده ، لوددت أنه الآن فى غرارة من غرائرى مخيط عليه فألقيه فى البحر الأخضر ... »

ولكن طبيعتها الأنثوية التى جنحت بها هذا الجنوح الموغل فى الإسراف للاحتقاد على الرجل الذى وتر زوجها فى سنته ، كانت هى نفس الطبيعة التى أفعمت من بعد قلبها بالرحمة له حين وجدت الناس قد تكالبوا عليه فقتلوه . لاعجب فى رحمتها تلك ولا فى الخطة المعادية التى اتخذتها حيال شراذم الثوار وإن كانت هى نفسها قد أمدت الثورة المندلعة بكثير من الوقود . بل العجب فى أن تظل فى مكانها حيث كانت فى صفوف المناجزين العتاة .. إن قلبها أكبر من أن ينقاد أبدا لغضبتها الجامحة بغير عنان ، وإن نفسها الطاهرة لم تعن مطلقا ما كان لسانها ينطق به فى ساعات انسياقها للغضب الفوار ، وإن عاطفة الأنوثة الفياضة لأولى بها أن تبدو فى صورة الأمومة الحانية التى يتسع حنانها لكل إنسان ، وهى أم المؤمنين ، وعثمان أحد أولئك الأبناء الذين شملتهم أمومتها الجامعة . ثم هو أجدر بأن يتقطع له قلبها أسى لأنه من أولئك الأبناء الضعيف الواهن المهيض الجناح .. وهـل هناك أولى برثاء الأم ودمعها من ولدها المصـــاب ؟ .. وهلا تمحو نكبتها فيه كل ما أحسته نحوه من سخطها القديم ..؟

أجل كان قلبها الكبير أجدر بأن يوسع للرحمة حتى تطرد الحقـــد من نواحيه ، ولقد فعلت عائشة كما تفعل فى موقفها كل انثى أمينة على عواطف الأنوثة لم تجردها الأهواء من خصائص طبيعتها الرقيقة . ولم تكن فى هذا

تصطنع الحنان بل الحنان غمر فؤادها كالسيل . ولعل الندم هو الذى اقتحم على قلبها باب الرحمة المختزنة ولعل المحنة الواقعة هى التى تناولت بكفها القوية نفسها فجلتها وخلصتها من صدأ الضغينة .. ولكنها فى كلا حقدها ورحمتها لعثمان كانت لاتعمل إلا بوحى عواطف نبيلة ، من بينها الولاء لسيرة زوجها الحبيب الفقيد ، والحزن الفاجع لمصرع الخليفة الشهيد .

على هـذا النحو يفهم ما كان من عائشة حق الفهم فلا يبدو فيه تناقض كثير . وبه يستطاع أن يبعد عنها بعض اللوم فتجنب عسرة الحساب عند الوازين ، فأحق منها بالزراية من عمل عن غير عاطفة شريفة كريمة وان سار وإياها فى طريقتها يلتمس مثلها نفس الغايات .. أحق منها بهذه الزراية ابن النابغة عمرو بن العاص الرجل الذى كان فى ذلك الزمان عبدا لنوازع الشر التى ملأت نفسه . فلغير غرض نبيل ناجز عثمان وراح يؤلب عليه ، ولغير عاطفه كريمة قام يناضل عن دمه أو يبدو كمن يعمل جاهدا ليثأر له . بل انطلق فى البدء جامحا تستعبده المادة حتى أسرف فى تحريض الناس وبذر الحقد فى قلوبهم على الخليفة ، ثم ارتد فى النهاية — وقد أينع ثمره الخبيث — تستعبده المادة أيضا ؛ فمضى يستنهض الدموع والبكاء ليثأر لضحيته كمن دفعه الولاء والوفاء .

هذا رجل أخضع النبل الإنسانى للغرض الشخصى حتى لم يعد هنالك نبل معلوم يجيش بصدره ، ولم تعد بقلبه عاطفة كريمة ينبض بها عرق واحد فيه .. بل هو كافح لتدعيم النفعية لأنها أجدى عليه من قداسة الخلق الفاضل وصفاء النفس الشفافة . كان صورة أخرى لسيده معاوية كأنهما أصل وخيال . لم يرع كلاهما إلا الغرض الذى يدر عليه الربح المنشود ، ولم يلتزما فى حياتهما العامة المقاييس الخلقية الشريفة لأنهما علماها عند قياس المادة تبوء بخسران .

كذلك كان عمرو ، وهذه نفسه التى جيشت شرورها فى البدء للأخذ من عثمان ثأرا للنفع الذى حرمها الخليفة إياه .. وهل كان بوسع عبد الأهواء والنزوات أن يغفر لأمير المؤمنين أن قد سلبه مقعد إمارته بمصر

فمطله من مناط فخره ومصدر مجده وعزه .

قدم المدينة بعد عزله عن ولاية مصر ، ومضى يخوض في سيرة الخليفة ويطعن فيه ما شاء له حقده وشاء هواه . فدعاه عثمان إليه يؤنبه على ما كان منه ويعنف له في المقال . . قال له :

« يا ابن النابغة . ما أسرع ماقمل جربان جبتك . . إنما عهدك بالعمل عاماً أول . . أتطعن على وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر ؟»

فأجابه الرجل وقد أخزاه أن يقف عثمان على مراءاته :

« إن كثيراً مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل . فاتق الله في رعيتك يا أمير المؤمنين . »

فلم يكن لمداهنته أثر في نفس الخليفة يمحو الشعور بالغضب عليه . فقال له مقذعاً في الخطاب :

« والله لقد استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك » .

« قد كنت عاملا لابن الخطاب ففارقني وهو عني راض » .

« وأنا والله لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت . ولكني لنت عليك فاجترأت علي . . أما والله لأنا أعز منك نفراً في الجاهلية وقبل أن ألي هذا السلطان » .

« دع عنك هذا فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وهدانا به . . قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان ، فو الله للعاص كان أشرف من أبيك » .

ومع ما بلغ من تهافته آونة على الاعتذار ، وإمعانه ثانية في الانتصار لنفسه من التهم التي كالها له الخليفة ، فإن الرجل لم يرعو عن غيه ، بل اندفع يحدوه حقده الذي أبى عليه أن يغفر لعثمان عزله من منصبه . وراح يملأ النفوس بالتذمر ويبذر فيها — انتقاماً لنفسه — بذور السخط على أمير المؤمنين . لم يسلم من بثه أحد كان بالمدينة حتى ابن أبي طالب أيضاً والزبير وطلحة . . ثم أخذ ينطلق في موسم الحج فيختلط بالناس الآتين من كل فج وقطر فينفث فيهم سمومه ، ويعترض سبيلهم ينبئهم بأخطاء عثمان . . .

ولعل خير صورة ترسم لنا جهوده المادية ماقاله هو عن نفسه غب مقتل عثمان :
« . . إن كنت لأحرض عليه حتى إني لأحرض عليه الراعي في غنمه برأس الجبل » .

بهذه النفسية عمل عمرو . وبها حارب الخليفة ، ثأراً لمنصب الإمارة بالفسطاط . ولهذا المنصب نفسه راح بعد المصرع يبدو أمام الناس داعية يريد أن ينتصف لعثمان .

ماذا بقي بعد هذا لا يؤجج النار حول عثمان . . ولأى دعامة من الدعامات استند منصبه ، أو ملكه ، أو الخلافة التي كانت في البدء ذات أساس روحي يمنوله وجه الدنيا فأصبحت اليوم مظاهرة دنيوية تخضع لكل نزوات الإنسان . . الأحداث تلاحقت واصطفت كما اجتمعت سحائب دكناء في جوانب الأفق منذرة بعاصفة . . والشعب في أقطاره التي باعدت بينها المسافات ، قد ألف بين قلوبهم نفورهم من العهد الملول . . والقدر أيضاً مد أصابعه لينسج خيطه . يتهيأ الناس دائماً للثورة بضغط عوامل مادية شتى تدفعهم إلى تغيير ما هم فيه . ولكن قوة الأثر المعنوى الذى ترسبه في نفوسهم هذه الماديات هو وحده الذى جعل من الثورة حقيقة واقعة تدمر ما أمامها ولا تأبه لما يعترض سبيلها من حواجز وسدود . وقد توفرت الدوافع النفسية المدمرة في عهد عثمان . وبدت جلية في سخط الفقير المحروم . وفي غضبة المظلوم المهضوم . وفي مطامع أصحاب الأهواء الذين أذلهم عرض الحياة . ولكن القدر أبى إلا أن يشتد في حبك خيوطه لتزيد الأنشوطة متانة . وكانت المادة التي اتخذها قوام نسجه هي النفس . وكانت النفس طيعة يسير صوغها في ذلك الزمان . لا تكاد أن تثبت أمام نزوة أو عاطفة . . لقد شاء القدر أن يبدأ عثمان حكمه بإثارة استنكار الناس حين خطا إلى المنبر فاقتعد نفس الدرجة التي كان يقتعدها رسول الله . هو بهذا لم يعن الاستعلاء على سلفيه العظيمين . ولا التطاول إلى مقام محمد الذى لا يبلغه أحد قبله أو بعده . إلا أنه كان عملا لم يعلق به عواطف الجماهير .

بل أصابها بجرح احفظها عليه لأنه مس — فى نظرتها — معنى القداسة التى كانت تؤثر أن يظل منفرداً به شخص رسول الله . ولئن كانت الأحداث من بعد قد تواترت سراعاً حتى أوشكت يدها الآسية أن تخفى الجرح القديم وتلفه فى رباط النسيان ، فإن القدر مد أصابعه ثانية ليكشف عنه ، وليعبث به وليرتد به دامياً يحز النفوس ويعيدها للذكرى المرة .

وكان الرجل سيء الحظ — فيما يبدو — تألبت عليه القوى جميعاً وفيها المصادفات .. وكما عثر به نجمه ساعة استخلافه وقاده شؤم الطالع إلى تلك الدرجة من منبر الرسول . فكذلك شاءت له تعاسته ذلك اليوم حين جلس ساهياً بجوار بئر أريس . ينبش التراب لغير غاية إلا العبث بلحظات فراغ . ولم يكن ملقياً بالا إلى شيء . فغاب عنه أن ينتبه إلى خاتم الرسول ينزلق من أصابعه. فلما ثاب ووسعه أن يتبين الأمر انقبض صدره وبدا الجزع والأسى فى عينيه .. ولكن جهده فى البحث لم يرد إليه الأثر المفقود . وضاعت معه أيضاً جهود من أمرهم بنبش التراب حول المكان وبالغوص فى مياه أريس .

وتطير . والعرب كلها أمة تتطير وتكاد أن تستنبط الشؤم من كل مظهر ، والعامة منها أولى بأن تتحكم فيها القوة الغامضة التى تنشأ عن أمثال هذه المظاهر الصغيرة وتكون لها فى نفوسهم قوة العقيدة . وقد ذهب الناس بهذا الحادث مع التشاؤم إلى غايته . وانقبضت صدورهم له . وصورت أوهامهم نتائجه فى صورة حملت إليهم الجزع والانزعاج .. على أى حال عادت ثانية إلى أذهانهم قصة المنبر وما استخلصوه منها من معانى العبث بالقداسة التى أضفتها شخصية الرسول على كل آثاره . ثم وسعهم بعد هذا أن يسترجعوا صوراً شتى من الماضى . بارزة الجمال والدلالة . لها فى نفوسهم آثار بعيدة الأصول . . . وأن تتجمع فيهما ذكريات حبيبة ذكروا بها محمداً وذكروا عهده ، والأيام السعيدة التى أهنأتهم . والحوادث التى كان لها فى بناء الدولة كيان . وفى كل صورة من هذه بدا لهم الخاتم قطعة منها رائعة . له قداسة صاحبه . وله السحر الذى التف به كالهالة كلما ذيل به محمد

موثقا من مواثيقه أو كتابا من الكتب التي كان لها يد ماهرة في رسم رفعة الإسلام . وبقيت له قداسته بعد محمد ببقاء الذكرى . وبقي له أيضاً سحره الذي أورث اليمن والبركة كل صحيفة طبعها بطابعه . وكل عهد مكتوب ختمه به الشيخان أبو بكر وعمر في عهديهما الرخيين على الأمة .. أفآن اليوم أن تختتم هذه الصحائف المجيدات .. . وهل انقضى زمن الخير .. وهل آذن ضياع الخاتم بحلول عصر ليس له من عصر النبي وصاحبيه نصيب ؟

كان حريا بالنفوس أن تأسى عليه وتحزن لضياعه وأن تتهيب مما عسى أن تأتي به الأيام بعد ذهاب عنه . وأن تشفق من المستقبل وتخشاه ثم ترتد بالحنق على الرجل الذي أفقدهم عبثه هذا التراث الميمون . وكان أولى بها أن توغل بحنقها إلى السخط البالغ . وبحزنها إلى الجزع المشفق على التطير . وقديماً غالى العرب في استنباط الشؤم من أوهن الظاهرات . وهم اليوم أقرب إلى طبعهم وأشد خضوعاً له وهم يستحضرون في خواطرهم صور عهدين فلا يسلم آخرهما من سمات مادية منكرة مهدت لكرههم إياه وتطيرهم منه . .

ومن عجب أن يكون هذا الشعور الذي انقبضت به صدور القوم صادقا تمام الصدق . وأن ينبيء عن الحقيقة الواقعة التي أسفرت فيما بعد عنها الأيام . فلقد وقع ضياع الخاتم في عام انقسم به عهد عثمان شطرين أحدهما صالح مرضي عنه ولى مع ماسبقه من عهد رسول الله وعهدي خليفتيه وكلها كان على الأمة ذا جدوى معلومة . والثاني ثقيل مكروه استفتح زمان الخلافات وانطلقت من بعده الفتن تنوش القلوب والشعوب . وتصيب الإسلام من المتاعب والويلات بما هاض جناحه . وانتهى بحكمه إلى الوهن الذي هو عليه الآن . . . .

١٧

أينع الغرس . وتدلت ثماره المرة ناضجة تنتظر القطاف . وكانت الكوفة أول الأقطار التى بادرت للاجتناء ..

كانت تلك ليلة مشهودة ، لها ما بعدها من ليال كثيرة الحادثات . امتدت فيها اليد القاطفة إلى الفرع الدانى .. وكانت يدا متمرسة قوية لم ترهبها الأشواك . أقبلت فجردت الغصن وجنت الثمرة بلا تردد لأنها رأت لها فى الجنى حقا .. إنها يد التحرر المقتحمة التى لا تلين للصعاب . يد القومية التى تدين بكرامة الحياة وإن كانت فى ظل عذاب . يد البلدة التى أحست بذاتها وعلمها نضج شخصيتها كيف تأبى الخضوع للذل وإن عاشت فى أكنافه على الذهب والحرير .

هبت الكوفة . ونفضت عنها سباتها القديم . فقد نضج فيها الوعى القومى وتهيأت روح التحرر للانطلاق . وآن أخيراً لأهلها أن يغضبوا لكرامتهم أن يمشى عليها عزيز ، ولحقهم المعلوم أن تلقفه دونهم يد سائدة . لو أنهم ارتضوا لأنفسهم مكان الذيول لوسع الفتنة أن تطأطىء رأسها للتخاذل . ولكنهم كانوا قوما قويت ذاتهم حتى رفعتهم عن مدارك الذلة ، وأصبح شعورهم بكيانهم مرهفاً كالسيف . ولم يعودا بعد متاعاً فى كف سيد . ولم يصبحوا عباد مال أو منصب أو جاه يمن بها عليهم أمير . ولم يكونوا صوراً متماثلة من مواطنهم الذليل . ذلك الفتى المتخاذل عبد الرحمن بن خنيس .. كلا . بل هم اليوم رجال ذوو أنفة ، نمت فيهم عزة الوطنية حتى أحالتهم أقراناً لحاكمهم المفتون بجنسه ، المستعلى بقومه عليهم وعلى غيرهم من أقوام .

أجل . لم يخفضوا الرأس للهوان فتموت الفتنة لأنهم أبوا أن يدعوا اللحظة الفاصلة تمر . ولم يتركوا الثمرة الناضجة تسقط دون أن يلقفوها .

بل بادروها بالقطاف لا يأبهون لما حولها من أشواك . ومضوا لطيّتهم بغير تردد فى طريق الصعاب والدماء ، لأنه يصل إلى النصر . ولأن لهم فى الدنيا رسالة لا ينجزونها إلا إذا ساروا فيه . ولأن عليهم لشعبهم حقا أن يناضلوا من أجله وفى سبيل حياة له كريمة وإن جادوا له بالحياة ..

وحانت أخيراً اللحظة المرجوة .. ساعة المد الذى طالما انتظره الشراع .. الليلة المشهودة التى لن تلبث أن تجر فى أعقابها مثيلات جمة تموج بالحادثات . .

كان إذ ذاك سعيد بن العاص فى مجلس سمره بدار الإمارة يحيط به وجوه الناس . وقد بدا القصر والبلدة كلها كالكوة المشرفة على سهول العراق ، وأخذ الهواء الرطب يهب من ناحية النهر المنساب غير بعيد وقد اكتنفته الخضرة من جانبيه حتى لا تخطئها عين . وكان جو الجلسة هادئاً . لا يكاد ينبىء عن الثورة القريبة تماما كهدوء الليلة البادى فى صفاء السماء وكان الحديث يسير بالقوم ليناً إلى غير غاية وقد اجتمع فيهم ذو الجاه وذو المنصب وذو الكلمة النافذة إلى قلوب قومه . وألمت أطراف الكلام بسيرة طلحة بن عبيد الله ، وبجوده ، وبالثراء البالغ الذى أصبح الرجل عليه ، فقال سعيد :

« إن من له مثل النشاتيج لحقيق أن يكون جواداً .. والله لو أن لى مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً .. »

فاستهوت الأمنية نفس الفتى ابن خنيس فد أصبعاً تشير إلى جانب الفرات حيث قامت ضياع كسرى . وقال يتملق الأمير :

« لوددت أن هذا الملطاط لك » .

فندت من بعض الجلوس همهمة غضب واستنكار . وصاح أحدهم فى الفتى الداهن :

« اسكت . فض الله فاك ! »

ولكنها كانت صيحة لم تعجب الأمير . ولم تمسح على عصب الغرور فيه . فإذا به ينظر للقوم مستعلياً ويقول بلا مبالاة :

« إنما هذا السواد بستان لقريش ! »

السواد ؟ .. العراق كله ؟ .. كأنما لم يكفه ماجاءت به أمنيه فتـاه ولم يرض بالنصيب الذى عنـاه .. هذه إذن بلاد قريش . أرضها ، ضيعتها التى تملـكها وتلعب بها كما تشاء .. أما أولئك كلهم فمن حوتهم الضيعة من موال وأتباع .. عبيد يكدحون للسادة ، وليس لهم فى الحياة إلا حق المملوك عنـد ربه إن كان هناك حق لمملوك .. أما الشعب فآلة والحا كم فإلـه .. أما الذين بدمائهم رووا الأرض وبأسيافهم شقوا باطن الدولة الغاصبة الذاهبة لتتخلص لهم بلادهم حرة فهم اليوم عند الأمير القرشي المسلم كحالهم بالأمس عنـد فارس تحت نير الأكاسرة عباد النار ..

ولـكن الصبر قد انقطع حبله ، والصمت على الهوان ذهب زمانه ، والثمرة ناضجة والغصن دان يمد نفسه للقطاف ! ..

فى هـذا اللحظة تجمعت كل مرارة الماضى ، وعصفت بالنفوس الثورة المـكتومة ، فانطلقت على لسان مالك الأشتر كأنها حمة بركان .

انتفض الرجل من مكانه يزأر بالأمير :

« أتزعم أن السواد الذى أفاء الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ .. والله ما يزيد أوفا كم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا يا سعيد » .

وعبس سعيد . وبهت لهذه الغضبة المفاجئة التى لم يتهيأ لها أو يعد عدته . وخذل لسانه الـكلام . ولـكن صاحب شرطته أسعفه خاطره بما زاد من إذكاء النار .. انبرى يظهر الولاء لسيده ويدفع عنه فراح يرد على الأشتر ومن معه ويعنف لهم فى المقال . حتى قال :

« أتردون على الأمير مقالته ؟ »

فما أسرع أن وثبوا عليه محنقين يتناولونه بالضرب والسباب ، لا يرعون للمجلس حرمته ، ولا يحسبون حساباً إلا لرى حفيظتهم عليه وعلى أميره سواء بسواء ..

وانتهت الجلسة أسوأ انتهاء . وخرجوا من لدن سعيـــد وقد تركوا

فريستهم فى غشية . وذهب الزهو من نفس الحاكم ليفسح مكاناً للجزع وخشية كل يوم لم تطلع شمسه . هذه الجرأة تنبىء عن قوة مستترة وشدة خبيئة لعلها تدخر إلى ساعة مناهضة وجلاد . وهذه الفئة لا ريب لهـــا ما وراءها . إنها تعنى البدو الذين تكلم رجالهم أولئك برأيهم الآن . وتعنى المقاتلة غير قريش من القبائل والأعراب . وتعنى أيضاً عامة الناس فى البلاد من أصحابها الذين أمضهم استعلاء الحكام . إنها الدعوة القديمة للمساواة .. الدعوة التى بدأت هادئة مسالمة فى صورة إرشاد قد انطلقت اليوم صرخة مدوية لن تلبث حتى يستجيب لها كل مشوق إلى المساواة ..

وكذلك كانت : واندلعت ألسنتها فى كل مكان . وأقبل الناس عليها وقد أعدتهم جرأتها فأصبحوا كدعاتها الأول جرأة وإقداماً دون خشية للأخطار . واختلط الأمر على الوالى . وحارت فيه تجربته الفجة فراح يستلهم العلاج من أمير المؤمنين ..

كتب له يقول :

« .. إن رهطاً من أهل الكوفة يؤلبون ، ويجتمعون على عيبك وعيبى والطعن فى ديننا ، وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا .. »

فماذا كان جواب عثمان ؟ .. كأنى به قد بدت له إذ ذاك دمشق . وبدا فى عينيه أميرها الأموى معاوية كالعملاق الذى تعنو له المشكلات ..

« سيرهم إلى معاوية » .

وكان هذا فصل الخطاب ، والدواء الذى حسبه الخليفة حاسماً للداء .. ولكنه فى — الحق — ظلم ابن أبى سفيان ..

نعم ظلمه لأنه حمله من الأمر فوق ما يطيق . وهل كانت سياسة معاوية إلا التماس السلامة لنفسه من أى سبيل ؟

بلى .. فالرجل الداهية خذله دهاؤه . وقعد به الذكاء الذى زعمه له الآخرون . فلم يتلق المشكلة إلا باليد التى يتلقاها بها أى أمير آخر من أمراء عثمان . ولم يبد حيالها الحذق الخارق الذى حسبوه له . وهل كان من الذكاء والحذق

والدهاء أن يعالج أولئك الثائرين على الكبر والترفع والاستعلاء بالكبر وبالترفع والاستعلاء ؟

ذلك ما انكشف عنه وفاض معاوية وانحسرت جبهته . ونمت عنه سياسته التي كانت في نظرة ولاة ذلك العهد أرشد السياسات .. ..

قال لهم ذات يوم مباهيا بقومه :

« .. لقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً . وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم .. إن أئمتكم لكم إلى اليوم جنة فلا تسدوا عن جنتكم . وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة .. فوالله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر .. » .

فلم يصبروا على زهوه وإن جاءهم في ثوب إرشاد . بل انبرى أحدهم يجيبه :

« أما قريش فلم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية .. وأما الجنة التي ذكرت فإنها إذا اخترقت خاص إلينا » .

وبهذا رسموا له المبدأ الذى ناضلوا عليه وأوضحوه بأقصر بيان . إن القوة المزهوة التي بوأها القدر مكان الصدارة في الدولة قد نسيت رسالتها التي نصبها الدين لبثها في الحياة .. نسيت دعوة المساواة التي أراد الإسلام أن يجمع بين كل الشعوب والأفراد وتؤلف بينهم جميعاً أمة واحدة تسودها المحبة .. بل إنها بكبرها ضنت على غيرها من الشعوب والقبائل أن تبلغ مثل شأوها . ووقفت لهم حائلادون التحرر الذى نشدوه . والمساواة التى أباحم إياها الدين الحق . أفكان عجباً إذن أن تتألب هذه القوى المهضومة على ذلك السياج فتكسره حتى تنطلق منه إلى حياة النور والعدالة ؟

ولكن الرد الواضح الصريح أخرج الداهية عن طوقه . ونزع عنه الحلم الذى وسم به ، ثم رده في نهاية المطاف مفتوناً أشد افتتان بجنسه . وبقومه وبأهله الذين يرتفعون في نظرته فوق الهام .

قال لهم وهو حنق مغيظ :

« أخزى الله أقواماً أعظموا أمركم .. إن الله بنى هـذا الملك على قريش وجعل هذه الخـلافة فيهم ولا يصلح ذلك إلا عليهم .. لقد كان يحوطهم فى الجاهلية وهم على كفرهم ـــ وقد حاطهم فى الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم — أفلا يحوطهم وهم على دينه ؟ »

ثم التفت إلى محدثه يثور به ويكيل السباب والقدح لهم :

« يا صعصعة بن صوحان.. إن قريتك شر قرى عربية . أنتنها نبتا وأعمقها واديا وأعرفها بالشر .. كنتم جيران الخط وفعلة فارس حتى أصابتكم دعوة النبى .. يا شر قومك .. أفبعد أن أبرزك الإسلام وخلطك بالناس وحملك على الأمم التى كانت عليك أقبلت تبغى دين الله عوجا .. لا يضع ذلك قريشا ولا يضرهم . ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم . إن الشيطان عنكم غير غافل . قد عرفكم بالشر من بين أمتكم فأغرى بكم الناس .. وإنه لصارعكم . »

بمثل هذا وبغيره من ألوان الشتم والسباب تناول القوم . حتى إذا أفرغ ما فى صدره من الغيظ وانفثأ عنه غضبه أو كاد ، عادل ثانية يحاول إرشادهم على الطريقة التى يوشك ألا يعرف لها قرينا .. أجل فإنما بتجسيم هيئته أمام عيونهم حسب أنهم يرهبونه ويخفضون له جناح الطاعة والرضوخ .

عاود الكلام ثانية عن شأو قريش ومجدها ورفعتها . وراح يرسم بحديثه صوراً عنها تغرى الرؤوس من غيرها بالإذعان . فلما أن بلغ وطره من الإسهاب. انثنى إلى الناحية التى تشبسع فيه حب المباهاة .

قال وهو يكسب كلماته لينا وطراوة :

« .. . إنى والله ما آمركم بشىء إلا قد بدأت فيه بنفسى وأهـــل بيتى وخاصتى . وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعـــل الله لنبيه . . وإنى لأظن أن أبا سفيان لو ولد النـــاس لم يلد إلا حازماً .»

فلم يطق صعصعة هذا البهتان . بل بادره يقطع عليه حديث الصلف والمباهاة الذى اوشك أن يغرق فيه :

« كذبت . . »

فارتج الرجل لأن الكلمة أصابت خيلاءه بأرهف سيف ولكن صراحة الخصم وصرامته أبت النكوص . .

« كذبت . . قد ولدهم من هو خير من أبى سفيان . من خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه . وأمر الملائكة فسجدوا له .. فكان فيهم البر والفاجر والأحمق والكيس .. »

وخرج معاوية من لدنهم مدحوراً .

على أنه فى الليلة التالية شحذ سلاحه الماضى الذى حسب أنه لا يخونه . . ذلك السلاح الذى تركزت فيه سياسة الدهاء كلها التى فطنت له .. المادة التى تثير الغرائز الدنيا فى النفوس وتتملق عواطفها المنطلقة بغير عنان حاكم من دين أو أخلاق ..

قال لهم وهو يلوح بالعروض والأمنيات :

« أيها القوم .. ردوا على خيراً أو اسكتوا . وتفكروا .. وانظروا فيما ينفعكم . وينفع أهليكم . وينفع عشائركم . وينفع جماعة المسلمين فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم » .

هذا بلا ريب عرض سخى . حرى بأن يعقل الألسنة ويكم الأفواه . ولكن الداهية — فيما يبدو — قد غاب عنه إذ ذاك أن سلاحه أولى به أن يصبح مفلولا عند مناجزة ذوى المثل والمبادىء وأن النفوس ليست فى ميدان الأهواء سواء ..

لم يفت صعصعة أن يكشف عما انطوى عليه هذا الإغراء الذى يحاول معاوية أن يشترى ضمائرهم ويستعبدهم به . فبادره بجواب فيه تقريع وتأنيب وفيه تهكم وسخرية :

« لست بأهل ذلك . . ولا كرامة لك أن تطاع فى معصية الله . . » .

وهل الرشوة التى أحب لو توصل بها لإخضاعهم وطاعتهم إلا معصية ؟
غير أن الحاكم الداهية بداكن لم يفهم • وراح يبتسم بهدوء ويقول :

— أو ليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته وطاعة نبيه • وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا •

— بل أمرت بالفرقة وخلاف ماجاء به النبى •

وإنها حق للسياسة التى انتهجها هو وغيره من الولاة •• سياسة معاملة الناس بغير مساواة وبغير العدالة التى جاء بها رسول الله ••

وآن له أن يداورهم ويصطنع لهم النزوع عما كان منه والاعتذار عما فرط فى حقهم فقال :

« فإنى آمركم الآن إن كنت فعلت فأتوب إلى الله • وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه • ولزوم الجماعة وكراهة الفرقة • وأن توقروا أئمتكم وتدلوهم على كل حسن ما قدرتم • وتعظموهم فى لين ولطف فى شئ إن كان منهم » •

أما وقد طلب منهم العظة والنصيحة فليقلها له صمصمة دون مواربة :

— فإنا نأمرك أن تعتزل عملك • فإن فى المسلمين من هو أحق به منك •

فكأنما انقضت عليه صاعقة •• أهذا هو النصح الذى يختصونه به •• أهذه هى العظة التى يزجونها إليه لخير دينه وخير دنياه ؟ ••

قال له وهو يكتم غيظه :

— فمن هو ؟

— من كان أبوه أحسن قوما من أبيك • وهو بنفسه أحسن قوما منك فى الإسلام •

كذلك حتى لاتكون الإمرة خاضعة للحدود التى رسمها لها عثمان من القربى واتصال أنساب أمرائه به ••

وثار الأمير •• بدا الخطر الذى يتهدد منصبه بعد أن تطرق الحديث بهم إلى هذا الحد • ولم يعد فى طوقه إلا أن يدل ثانية بمكانته وقدرته فقال :

— ... ليس فى زمانى أحد أقوى على ما أنا فيه منى ... لعمرى لو كانت الأمور تقضى على رأيكم ما استقامت لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة . . . ولكن الله يقضيها ويدبرها . وهو بالغ أمره . فعاودوا الخير وقولوا . . .

— لست أهلا لذلك .

— أما والله إن لله لسطوات ونقمات . وإنى لخائف عليكم أن تتابعوا فى مطاوعة الشيطان حتى تحلكم دار الهوان من نقم الله فى العاجل والخزى الدائم فى الآجل .

وثار بهم ثورته فقاموا له . وأمسك بعضهم بلحيته وبعضهم برأسه . فصاح غاضباً :

— مه . هذه ليست بأرض الكوفة ... والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بى وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم ...

وقام عنهم وهو لا يكاد أن يملك نفسه . ولم يأت الغد إلا وقد تبين له الأمر كله ... إن هذه الشرذمة لن يحملها شىء على الطاعة إلا اعتزاله واعتزال بقية ولاة عثمان من أقاربه وبنى بيته الذين فتنتهم أنسابهم وجنسهم فمضوا يمشون على رؤوس الناس فى البلاد ، ويحتجزون لأنفسهم الأموال والمناصب لأنهم يرونها لهم حقاً لا ينازعهم فيه غيرهم ولا يقوى عليه ... أفينفسون عليه إمرة الشام — هو معاوية ابن أكرم قريش وابن أكرمها وأكرم الناس ... ابن أبى سفيان الذى لو أنجب لم ينجب سوى حازم حزم هذا الأمير الراشد الأريب ذى الدهاء ... ألا فليسلن دهاءه وحزمه . وليرينهم حسن السياسة كيف يكون ...

ولكنها اللعبة الوحيدة التى يجيدها . والدهاء الذى يستوى عنده كل أمير ضعيف وقدير ... والحل الذى يبعد عن إمارته الخطر ويضمن له السلامة ولو إلى حين ...

ومن ثم كتب إلى أمير المؤمنين :

« ... إنك بعثت إلى أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين . . وإنما يريدون

فرقة . ويقربون فتنة . قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم . وتمكنت رق الشيطان من قلوبهم . فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة . ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم. فارددهم إلى مصرهم الذى نجم فيه نفاقهم ... والسلام » .

١٨

أرعد عبد الرحمن بن عوف ... وثارت نفسه غضباً وهو يصيح بابن أخته: « يا مسور ... اذهب أنت فأطلقها . ثم ادعنى أنظر ... »

فمضى الرجل مدوعاً بأمر خاله . ومعه صاحب من بنى عبد يغوث إلى مرابض الإبل فأخرجاها . لم يستأذنا أحداً : لا الخليفة . ولا مالكيها • ولا أصغر قائم على حراسة الدواب .

وأقبل عبد الرحمن من بعد . ولم تزل فى جبينه غضبته . فنظر ملياً إلى الإبل. ثم أشار بها ففرقت بين الفقراء .

وأتم بهذا تحديه لعثمان . . ذلك التحدى السافر لذلك الشيخ الذى كان هو صاحب اليد فى استخلافه . . ولم تكن هذه أول مرة أبدى فيها استنكار أفعال الخليفة . ولكنه الآن أبداه على ملأ من الناس حتى تحدثوا به . وأنكروا كمثله • ووسع كل منهم أن يلفظ باسم أمير المؤمنين الذى احتجز إبل الصدقة لبضعة من بنى الحكم أقربائه دون ذوى الحق فيها من المسلمين .

هذه سورة لما بلغ إليه هوان عثمان وهوان أوامره بين الناس • فى البدء كانت المدينة كالصفحة الهادئة • الماء منبسط عليها • ساكن لا يكاد يتكشف عما يعتمل فى أغواره • ولكن الأزمات تلاحقت من بعد فى أطراف الدولة وراحت تفعل فعلها . آونة سراعاً . وآونة مستأنية فى تريث واسترخاء • • • فإلى أي مدى تقبلتها حاضرة الإسلام .؟

ماذا فعلت المدينة ..؟ وكيف كان موقفها من تلك الحوادث والأزمات الفكرية والمادية التي راحت تعهد بالدولة ؟ صامتة تنظر . متربصة ترقب حتى تحين سانحة .. جانحة إلى هذه أو تلك من الطوائف التي أخذت أكفها تتناول نظام الحكم بالخدش أو بالتمزيق .

بل سبق إليها التذمر ولما يمر قبلها ببلدة . وتناول فيها صحب رسول الله أنفسهم فغير قلوبهم على الخليفة الشيخ . وانطلقت ألسنتهم تخوض في سيرته بما أطلق فيها ألسنة العامة .. أما عثمان فكان غير آبه . ولم يلق السمع لهذه الأحاديث الخافتة التي راحت تنتقل بين الشفاه والآذان . ولا الاستجابة لتلك النقدات العابرة التي كان يطالعه بها صحبه في صيغة النصح بين حين وحين ، ولكن الزمن الجاري لم يلبث أن خلع القفاز الأملس .. الصفحة الرائقة أبدلتها التيارات الخفية هياجاً بهدوء .. النفوس المواجم ارتدت يقظى .. لم تبق الآن بقية لمخافتة أو إسرار ، لأنه لم تبق فيها بقية لاصطبار . غلب على الناس ضيقهم ففاض . آدهم الكتمان وأعياهم فأسفروا عن سخطهم وأظهروه . حلت في نفوسهم الجرأة على الخليفة مكان خشيتهم منه . فما عادوا يلقونه بمثل ما كان له عندهم من توقير . ونسوا التبجيل الذي هو أولى بتقدم عمره فضلا عن علو قدره . وفرغت نفوس الكثيرين من هيبته حتى لأصبح الواحد منهم لا يكاد أن يرمي إليه إلا بالنظرة الزارية كلما ضمه وإياه طريق . بل بلغ من هذا أنهم كانوا لا يزجون إليه التحية ولا يردونها إن بدأ بها ثم يكون من يردها عليه محور العتاب ولوم اللوام ..

قال جبلة بن عمرو وقد سمع بعض قومه يردون السلام على عثمان :

« أتردون على رجل فعل هكذا ؟ » .

ثم انفلت من المجلس وفي يده جامعة . فقطع على الخليفة طريقه وصاح به :

« والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه » .

فآثر عثمان — وإن آلمته الجرأة — اصطناع الأناة . فقال :

« أي بطانة ؟ فوالله إني لا أتخير الناس » .

« مروان تخيرته .. ومعاوية تخيرته .. وابن عامر تخيرته .. وابن سعد تخيرته . منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله دمه .. »

فنظر الشيخ إليه مبهوتاً برهة ، ثم مضى عنه صامتاً لا يعقب . ولكن جبلة أبى إلا أن يمعن في زرايته ، فما لبث أن راح يلوح بقبضته في الهواء متوعداً ويصيح :

« والله لأقتلنك يا نعثل ... ولأحملنك على قلوص جرباء ... ولأخرجنك إلى حرة النار ...

ثم خرج السخط رويداً رويداً من أسوار المدينة ، واستطاع أن يجد له قدمين يحملانه إلى بقية الأمصار .. من حاضرة الدولة كتب أصحاب رسول الله إلى زملائهم المتفرقين في الآفاق بالثغور بغية الجهاد ، ينبئونهم بأحداث عثمان ، ويحضونهم على تبديل ما عمله ، وكان مدار استهجانهم ومعابتهم . ويهيبون بهم أن ينفروا إلى جهاده فما من جهاد أولى بالمسارعة إليه وتلبيته من كفاح هذا القائم على أمر الدين بغير إحسان . وعلى أمر الدنيا بغير كياسة وتدبر ... قالوا لهم فيما قالوه :

« إنكم إنما فرحتم أن تجاهدوا في سبيل الله . تطلبون دين محمد . ألا فإن دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك .. فهلموا فأقبلوا فأقيموه .. » .

ووضح للناس في الآفاق أنهم وأهل المدينة في الهم سواء . وأن الآفة ليست من الولاة بل من صنائع أولئك الولاة . وأن أخطاء حكامه جميعاً يمكن ردها إليه ثم لا يكون ثمة تجن عليه ولا إقحام له في الأوزار بغير سند ملموس .

وأصبحت الحاضرة الإسلامية ذات يوم فإذا بها تموج بألوان من الزائرين الزارين .. لعل الكثرة كانت من صحب رسول الله الذين خلفوا بلدته من أعوام يصطلون نار الحروب رغبة في إعلاء دينه وكلمة ربه . ولكنهم اليوم عادوا وعاد في ركابهم بضعة من أهل الأمصار الذين ذاقوا من مرارة سياسة الخليفة في أقطارهم البعيدة . وكانوا جميعاً قد أقبلوا

استجابة لدعوة أهـل المدينة . وأملا فى أن ينزع أمير المؤمنين — إن رفعوا إليه طلباتهم — عما هو فيه . وأن يبدل طرائق الحكم التى سار عليها وكان لها شأن فى تذمر بلادهم منه وتذمر بقية الناس الذين أظلهم عامه . وراحوا فى دروب البلدة يتحـدثون جماعات وينضم الكثير من أهلها إليهم . ويبحثون بينهم شكاياتهم حتى وسع من لم يسمع أن يعرف أن الشكوى عامة . وأن التذمر شامل ينتظم كافة الأمصار .

من بين أولئك تخير نفر منهم رجلا موسوماً بورعه وإن أودت به ذات يوم وشاية حتى نفى من بلدته البصرة إلى الشـام .. دائماً الشام كانت المنفى ودار القمع التى تخيرها أولئك الحكام الطغاة . ولـكن العنبرى لم يكن مذنباً . ولا داعية إلى فتنة . ولا رأساً لجماعة ثائرة . بل هو ناسك عازف عن الدنيا . انطوى على نفسه فى داره يعبد ربه ولا يلقى الأحداث السارية إلا بنظرة حكيم. غير أن سوء طالعه أبى أن يدعـه فى مستقره . فإذا ابن عامر يمر يوماً فى جماعـة بجوار بيته فيذكرونه لديه . فينفلت منهم واحد مفسود — كان عثمان قد غضب عليه فأخرجه من المدينة — يقول للأمير :

— الا أسبقكم فأخبره ؟

ومضى فدخل على الرجـــل داره وهو جالس فيها قد استغرقته القراءة فى مصحف بحجره .. فأهاب به :

— الأمير أراد أن يمر بك . فأحببت أن أخبرك .

فلم يرفع العنبرى بصره عمـا هو فيه . ولم يقطع قراءته إكباراً لـكلام الله أن يقطعه كلام إنســان عظم أو هان .. فى ذلك الوقت كانت الشكوك لا تنى تراود نفس ابن عامر على بعض سكان البصرة . ويكاد الرجل أن يستريب فى كل سكون — كما كان يستريب فى كل حركة — خشية أن يكون له ماوراءه من تأليب على النظام . والخفية دائماً يصحبها الظن . وهذا العنبرى يستخفي وينقبض عن الناس . وهو من عبد القيس وعهـد الحـاكم

بحركة ابن سبأ التى دبرت فى الخفاء ونشأت فى حى هذا الرجل ليس ببعيد .
غير أن ذلك الرسول المفسود آثر أن يضيف إلى شك الوالى موجدة توغر صدره على الزاهد النائى عن الجمهور . فسارع إليه يقول :

— جئتك من عند امرىء لا يرى لآل إبراهيم عليه فضلا .

فأسرع ابن عامر فاستأذن على الرجل وحدثه فيما بلغه عنه .. قال له :

— . . إن هذا يزعم أنك لا ترى لآل إبراهيم عليك فضلا .

فلم يجبه . بل صفح كتاب الله وقرأ أول ماوقع بصره عليه :

« . إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . »

ومع ما بدا من استيقان الحاكم من براءة الرجل . وتركه إياه حراً يعبد ربه مستخفياً كما يريد . فإن ذلك المدنى المغضوب عليه أبى إلا أن ينتهز الفرصة ليسترد رضاء عثمان عنه . فسار إليه يوغر صدره على العنبرى ويعلاه بالشك والريبة . ولم يعدم أن يجد نفراً مثله مبطلين يؤيدون وشايته لدى أمير المؤمنين.

وكذلك دفع إلى معاوية بالبرىء المظلوم . ولكنه لم يكن مذنباً . ولا داعية إلى فتنة . ولا رأساً لجماعة ثائرة ، فليس له من سبيل إلى خشية الطغاة ، ولعل معاوية نفسه قد علم براءته وأيقن بها حتى رق له قلبه وود لو أثابه بما يريد . كان يقول له :

« قل حاجتك » .

فكان العنبرى يجيب ببسمة هادئة فيها إشراقة الإيمان :

« رد على من حر البصرة لعل الصوم أن يشتد على شيئاً فإنى أراه يخف على فى بلادكم » .

هذا هو الرجل الذى تخيره بعض الذاهبين إلى المدينة ليكون لسانهم عند عثمان . ينطق بشكواهم • ويذكر حوائجهم • ويزجى للخليفة وسائل الإصلاح التى يرغبون .

وأدخل القصر . ومثل بين يدى عثمان • ثم راح يشرح رسالته

بالصراحة التي يوسم بها أمثاله من رجال الله :

« .. يا أمير المؤمنين . إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا فى أعمالك فوجـــدوك قد ركبت أموراً عظاما . فاتق الله عز وجـــل • وتب إليه وانزع عنها » •

فما أسرع أن تلفت عثمان إلى من حوله • وقال ساخراً وهو يقطـــع على الرسول حديثه :

— أنظر إلى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارئ ثم هو يجئ فيكلمنى فى المحقرات .. فو الله مايدرى أين الله •

قال المنبرى بهدوء :

— أنا لا أدرى أين الله ؟

— نعم • وا لله ماتدرى أين الله •

— بلى والله • وإنى لأدرى أن الله بالمرصاد لك يا عثمان •

وخرج الرجـــل مغضباً من لدنه ليترك للناس اختيار الوسيلة التى يرونها صالحة للبلاغ •

١٩

أما من وسيلة .. هذا شيخ عزم على أن يصم أذنيه دون صوت الناس : ولا يسمع النصح • ولا يسوغ النقد • ولا يستطيع مطلقاً أن يرى أعماله على محـــك الفحص والمناقشة • كم من مرة كلمه أصحابه • وكم شكوى سرت إليه من شعبه الذى ضاقت صـــدوره وهو صامت ساكن كأن لا شكوى ولا تذمر • أم هى الحيرة يا ترى أوقفته حيث هو حتى لايعرف كيف يتناول الأمور بالعلاج المنشود ..

ولـــكن الزمن لم يقف له . ولم يتريث به . وسبقه بأحداثه إلى الحـــدود التى دون بلوغه إياها انبهار أنفاسه . وقد تخلف الشيخ عن موكب الزمن •

وعاش يفكر جامد لا يستجيب للتطور الذى قطعت الأفكار الأخرى أشواطه. فبقى بهذا وحيداً فى واد والناس كلهم فى واد ..

ومع ذلك فقد وجب على الشعب أن يفعل شيئاً إزاء هذا الجمود . وأن يقسر الشيخ على سماع صوته . وأن يحمله كرها فى موكبه . وما كانت المدينة إذ ذاك إلا كالقافلة المقبلة على رحلة شاقة . بعيدة المسافات . دون هدفها أشواط وأشواط . ولكن الدليل نائم لا تكاد أن توقظه جلبة التأهب .. أفيتخلف الركب كله يا ترى أم الخير أن يتخاف الدليل الوسنان ؟ ..

وكرة أخرى بعد الكرات السوالف آثر الناس أن يوقظوا الدليل . وأن يهزوه فى مرقده ليفتح عينيه ويرى مدى ما أصبحوا عليه . وأن يسلموه الزمام وهو منتبه غير غافل ليقودهم على الدرب المأمون ..

فمن الرجل الكفيل إذن بإيقاف الغافل .. إن العيون كلها تتطلع فى مناح شتى ثم لا تلبث نظراتها أن تلتقى على فرد واحد فى الرجال . له جرأة لا يفسدها اندفاع . ورزانة تنبعث عن الحكمة دون الجمود . وشجاعة قلب تعرف الصراحة ولا تعرف البذاءة والإقذاع . وهو أيضاً مهيب كليث . إذا خطر خشعت له الأبصار فلا تقتحمه . فياض البلاغة كغير شبيه . إذا تحدث ملك القلوب قبل الأسماع . عادل كالميزان . صارم كالسيف ..

تطلعت النظرات إذن إلى كل ناحية فما وسعها إلا أن تلتقى كلها على واحد ... على علىّ وحده استقر رأى الناس أن يكون لسانهم إلى عثمان . يحمل رسالتهم عنهم لتؤدى لدى الخليفة خير أداء . فلقد كان ابن أبى طالب — فضلا عن علو منزلته بين أصحاب رسول الله . والتفاف قلوب العامة كلهم حوله — هو الرجل الذى له قلب كقلوبهم يشعر بمثل مايشعرون ويؤمن كإيمانهم بحقهم فى الحياة الكريمة التى لا تطؤها أقدام لحاكم طاغ أو وال مزهو بجنسه أو بقرباه . ويألم إذ يرى حقوق الناس — وكانت حرما — قد أصبحت كأنها اللقى المستباح ..

وهكذا أخرجته من بيته الجماهير . وسارت به حتى رحبة القصر . ولم

يكن ثمة من تكلم عن الخليفة بخير طوال الطريق . لا ولا فى المدينة كلها إلا عائب عليه ضائق به . وكانت الألسنة تذكر له كل كبيرة وكل هنة . وتعدد من أخطائه مالم يبق بعده بقية لم يشملها الإحصاء .. حتى أهلها أيضاً كانوا يحملون عليه . بل لعلهم كانوا يسبقون غيرهم فى استنكار أعماله وفى اللهفة إلى توبته ورجوعه إلى الصواب . ولم يكن هناك إلا نفير منهم يؤيدونه عن رحمة لا عن عدل . عددهم لايتجاوز أصابع الكف ..

وتم أخيراً بين الرجلين اللقاء الذى انعقد عليه الرجاء ..

وقال على وهو يحرص أن يكون فى حديثه لين الكلام :

« .. إن الناس ورائى . وقد استفسرونى بينك وبينهم . ووالله ما أدرى ما أقول لك .. ما أعرف شيئاً تجهله . ولا أدلك على أمر لاتعرفه . إنك لتعلم ما نعلم . ماسبقناك إلى شىء فنخبرك عنه . ولا خلونا بشىء فنبلغكه ، وقد رأيت ما رأينا . وسمعت كما سمعنا . وصحبت رسول الله كما صحبنا . وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك . ولا ابن الخطاب بأولى بشىء من الخير منك . وأنت أقرب إلى رسول الله وشيجة رحم منهما . وقد نلت من صهره ما لم ينالا .. »

ووسعه بعد هذا القول الناعم الرخى أن يزجى إليه النصح . ويبين له عساه أن يعطى الناس الحق من نفسه . وينزع بها عما أنكروه . قال يتمم الحديث :

« .. الله الله فى نفسك . فإنك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل . وإن الطرق لواضحة . وإن أعلام الدين لقائمة . فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدى وهدى . فأقام سنة معلومة . وأمات بدعة مجهولة .. وإن السنن لنيرة لها أعلام ، وإن البدع لظاهرة لها أعلام . وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به . فأمات سنة مأخوذة . وأحيي بدعة متروكة . وإنى سمعت رسول الله يقول : يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر . فيلقى فى جهنم . فيدور فيها كما تدور الرحى . ثم يرتبط بها فى قعرها .. »

ثم راح يلق اليه بالنذير المستنبط من شعور شعوبه نحوه . وبالحدث الفاجع الذى توشك أن تسفر عنه الأحوال فى أنحاء الدولة إن لم تعالج الأمور بالحكمة . وهو فى هذا لا يتحدث عن الشر الذى سوف يحيق بعثمان ، بل يراه قد انتشر من بعده فشمل كل قوى الإسلام القائمة وكل رعاياه . وهو ايضاً لم يتردد فى أن يصف له بصراحته الآفة التى توشك أن تسبب كل هذه النكبات عساه أن يبادرها بالدواء الناجع .. قال :

« . . إنى أنشدك الله أن لا تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنه كان يقال : « يقتل فى هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة . ويلبس أمورها عليها . ويبث الفتن عليها . فلا يبصرون الحق من الباطل . يموجون فيها موجاً . ويمرجون فيها مرجاً . . فلا تكونن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقضى العمر . »

مروان ! . إذن فهذه هى المسألة . . أيما ولى الشيخ وجهه وأرهف أذنيه للهمسات جاءه هذا الاسم تلوكه الألسن . مامدى تذمر الناس منه ؟ .. ما غايتهم من وراء لومهم فيه ؟ . . وأى العواطف انضمت عليها قلوبهم إن لم تكن عاطفة الحسد لمشيره الأمين ؟.. أم هم ياترى يفرضون عليه أن يضع ثقته فيمن لا يدين بالولاء له . ؟

ثم تبق من بعد النتيجة الكبرى التى تنبىء عنها هذه المقدمة الصغيرة . . تبق قصة القرابة بفصولها الشتى قائمة أمام الخليفة . وعذل الناس إياه من أجلها . . فما مروان إلا رأس أولئك الأهل الذين قدمهم عثمان . وما سعى الناس لخلعه إلا الخطوة الأولى نحو إقصاء بقية بنى الحكم وأمية ومن لاذ بهما من مناصب الدولة . وإلى أين يجر هذا الإقصاء إن لم يدع الخليفة الشيخ من بعد كالطائر القابع فى عشه بغير ريش .

أحسبه قد جالت بفكرة هذه الخواطر وهو يحدث علياً فيقول :

« قد والله علمت ليقولن الذى قلت أما والله لو كنت مكانى ماعنفتك ولا اسلمتك . ولاعبت عليك . . . أجئت منكراً أن وصلت رحما

وسددت خلة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى ؟ » .

وتريث قليـلا وهو يستعيد إلى ذهنه الأمثلة التي تؤيد منطقه فلما وسعه أن يرتبها عاد يستأنف الحديث .

— .. أنشدك الله يا على . هل تعلم ان المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟

— نعم .

— فتعلم أن عمر ولاه .

— نعم .

— فلم تلومني أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟

قال له على :

— سأخبرك .. إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه إن بلغه عنــه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل . . . ضعفت ورفقت على أقربائك .

— هم أقرباؤك أيضاً .

— إن رحمهم مني لقريبة . ولـكن الفضل فى غيرهم .

— ولـكن عمر ولى معاوية خلافته كلها . . وقد وليته .

— فهل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟

عمر ثانية . . . عمر دائمــاً .. . واها لابن الخطــاب فقد أفسد الأمر على من بعده . . . لـكأنه فى مرقعته ، بيمينه الدرة قد وقف شـامخا كجبل يحبس عن العيون من وراءه . أو هو منار فى ظلمة كست الآفاق لا يستبين امرؤ طريقه فيها إلا إذا سار على هديه . . هكذا كان وهكذا أصبح بعد أن طوته الدنيا ولم تطوه الحياة . فما كان مثله بالذى يموت فى الخواطر . بل يبقى أبداً ماثلا فى الأذهان . حياً فى فؤاد كل إنسان . هو اليــوم النموذج الأمثل للأمير الـكامل . ما من عمـل يكتب له الإتقان إلا إن رجح فى ميزانه . وما من حاكم يتوفر له رضاء محـكوميه إلا إن سار على سننه . فالناس جميعاً وإن ضاقت بهم شــدته فى حياته فقد وسعتهم عدالته . وأصبحوا من بعــده

يحنون حنين الصادى إلى عودة عهده .

خشونته قمعتهم ولكنها جذبتهم . وجمعتهم كلهم بين يديه . أما هذا ..
أما خليفته الشيخ .. أما عثمان الطيب الخافض الجناح فلينه أطمع فيه شموبه
وأغراهم به .. ألا فمن له اليوم بشدة ابن الخطاب ؟

نفض الرجل يديه من جدل على . ومن حججه وبراهينه . وكفى نفسه
مؤونة الاقناع والاقتناع . وانطلق بعد مجلسه ذاك إلى المسجد بقلب سوى
قلبه . وطبيعة سوى طبيعته . ولو وسع من وقفوا تلك اللحظة يرنون إلى
جهامة وجهه وعبسة جبينه وهو واقف على المنبر لو وسع أولئك أن تلمح
عيونهم تلك الصورة النفسية التى تقمصها عثمان فلربما أوشكوا أن يروه فى
مرقعة ، بيمينه درة ، قد استعار لهم من الماضى سمت سلفه ، وهو
يخاطبهم فيقول :

« ألا قد والله عبتم على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم
برجله . وضربكم بيده . وقمعكم بلسانه . فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم.
ولنت لكم . وأوطأت لكم كتفى . وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم
على ... أما والله لأنا أعز نفراً . وأقرب ناصراً . وأكثر عدداً . وأقمن
إن قلت هلم أتى إلى ... ولقد أعددت لكم أقرانكم . وأفضلت عليكم
فضولا . وكشرت لكم عن نابى . وأخرجتم منى خلقاً لم أكن أحسنه .
ومنطقاً لم أنطق به . فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم .
فإنى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطق
هذا ... »

فمن الرجل الذى عناه الخليفة وكفه عن الناس ولوح به تلميحا أمامهم
حتى يرهبهم ويلزمهم الطاعة له ؟. وأيهم من بين ولاته أو أهله أو مناصريه .؟.
أم هو يا ترى بهذا القول قد أراد نفسه فى سمتها الجديد الخشن ذى الشدة
والبطش ؟ ..

ثم جاءهم من بعد بجماع سياسته كلها فى كلمات ... أليس هو صاحب

الأمر الآن ؟ . . أليس الحاكم المطلق الذى له أن يعمل وفق مشيئته ويسوس الناس كاشتهائه ما داموا قد عقدوا له البيعة واختاروه خليفة عليهم ؟ ولأى من الأسباب إذن كان هذا الاختيار إن لم يكن لتفرده بينهم بالرأى الراجح والنظرة الصائبة والقدرة الفذة على اكتناه حقائق المشكلات ؟ . . هذه صورة صادقة لناحية الضعف فى نفس الرجل . وللعناد الذى أكسبه إياه هذا الضعف ليبدو فى قوة . وهو فى أطواره جميعاً كذلك . لا ينى يستمسك برأيه ويتعصب له لأنه يأبى أن يقر لأحد بالتفوق عليه .

وهكذا قال يتم لهم حديثه وهو يكاد أن يحمل كلماته من الاستنكار ما لم يخف على سامع :

« . . . أما والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ومن لم تكونوا تختلفون عليه . أتفقدون من حقوقكم شيئاً . . . فمالى إذن لا أفعل فى الفضل ما أريد . . . ولم كنت إماما . ؟ . »

ولم يسعهم أن يردوا عليه . بل كان ردهم قميناً بأن يصبح جدلا لا خير فيه بعد أن بصروه بما عابوه عليه فجاء يحدثهم وكأنهم لم يبصروه . . . بل انطلق بهم الزمن قبل أن يتبينوا آخر كلماته ففاجأهم بمروان إلى جواره بيده سيفه . قد التفت نحوهم يرميهم بلهب من بصره . ويتوعدهم فيقول :

« إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف ... إنما نحن وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم مغارسكم تبنون فى دمن الثرى

ولكن عثمان ، الذى أحس أن قد بلغ فى هذه الآونة أوج البطش أبى أن يشرك أحداً فى هذا الثوب الجديد الذى لبسه — ولو كان مروان — حتى لا يبدو ثانية أمام شعبه ضعيفاً بحاجة إلى قوة يعده بها سواه . لذلك صاح بصاحبه وهو ينهره :

« أسكت لاسكت . . . دعنى وأصحابى . ما منطقك فى هذا . . . ألم أتقدم إليك ألا تنطق ؟ . . »

٢٠

تمت الغلبة لابن سبأ وحزبه فى ذات اللحظة التى غادر فيها عثمان منبر المسجد بعد أن حلا له أن يبدو فى ثوب الباطش المهيب ذى القوة والحول . فقد كانت خطبته وقوداً جديداً ، حطباً جافاً زاد تسعر النار . لم يأت فيها بجديد يؤلف قومه ويردهم عنه سوى هذا الوعيد الذى أثار النفوس وحفزها إلى الثورة عليه . ولم يحاول أن يحسم الأمر برأى يصد تيار النفور المتدفق ، ولا بوعد يزجيه فيطمئن معارضيه ، ولكنه شنها حرباً سافرة على شعوبه فى وقت لم يكن يملك فيه العدة ولا السلاح . . .

وترقبت الأمصار . وزلزلت حين جاءتها الأخبار تترى بموقف الشيخ . إن النبأ أورثها قلقاً لا يعرف حداً ، والخطبة بكلماتها المنطوية على العنف البالغ لم تدع لها فرجة لأمل . وكل حرف حين انتقاله من فم إلى سواه انضمت إليه حاشية من هنا وإضافة من هناك . فلما أن قطع الرواة المراحل بين المدينة وأقطار الدولة كانوا كأنما ينطلقون بفوهة بركان ! . . .

وكان السبأية متربصين بأوكارهم المنبثة فى كل مكان ، ينتظرون الفرصة السانحة ليضربوا ضربتهم . فلما علموا الأنباء تلقفوها ، ووسعهم أن يتخذوها مطية لغايتهم وأن يقهروا الناس على الإصغاء لهم بعد أن تحققت نظرتهم فى الشيخ ، وعلى السير خلفهم ، وعلى المناداة بمثل ما نادوا به من وجوب نفض الأكف منه . . . أليسوا الآن بصدد أمير أعيا الناصحين إرشاده ، يأنف أن يستمع لنقد ، ويأبى عليه عناده أن يتحرر من قيود الأخطاء التى كبلته ، فمن أين تكون له المرونة التى تصرفه عن إصراره ؟ . . ومتى ينزع عما هو فيه إلى ما يضمن صلاح أمته وقد رأته لا يكفيه أن يقف من شكاياتها موقفاً سلبياً يدعها قائمة بغير علاج ، بل يتوعدها بعزة نفره ووفرة عدده ، ثم يثنى مشيره مروان فيهددها بالسيف ؟ . .

وكذلك أصبحت الخطبة مادة جديدة للنقمة على عثمان وزيادة الحقد عليه من حيث أرادها وسيلة للقمع . وراحت الأيام تنجاب عن فورات النفس فى أنحاء الدولة. ونشط ابن سبأ وأصحابه فتكاتبوا فيما بينهم وراء الحدود والتخوم. وحضوا على الفتنة . ودعوا إلى تجييش القوى المناهضة لهذا الحكم ، وبثوا بذور دعوتهم الهدامة فيمن تبعهم ومن لم يتبعهم على السواء . فقد أصبحوا فى العيون كلها دعاة إلى بلوغ هدف عام . واستغلوا يأس الناس من إصلاح خليفتهم حتى جعلوهم يؤمنون بأن لا معدى لهم عن الخلاص منه .

ثم ارتدت الأنباء إلى المدينة بعد حين تحمل ما أوشك أن ينعقد عليه رأى أهل الأمصار . وشعر جيران رسول الله بشبح الخطر يهم أن يجثم على قلب الدولة ثم لا ينهض عنها إلا عن شر . ووسعهم أن يعلموا أن التردد هو الآفة ، وأن البلية فى تراخى خليفتهم دون مجابهة الأمور بالحزم الواجب . فأقبلت عليه طائفة منهم كانت لا تزال ترى أن فى الوقت بقية للاصلاح فقالت له :

— يا أمير المؤمنين . . أيأتيك عن الناس الذى يأتينا .. ؟

فأجابهم بلسان الغافل عن الشر الحاصل :

— لا والله .. ما جاءنى إلا السلامة .

فلما أخبروه ، وتبين ما عسى أن يتمخض عنه الأمر ، التفت إليهم قلقاً ، وقال :

— انتم شركائى ، وشهود المؤمنين فأشيروا على ..

ثم عمل بالمشورة . فأنفذ إلى البلاد رسلا يستطلعون له الأخبار ويستكنهون حقائق الأحوال عن كثب ، بعث إلى الكوفة محمد بن مسلمة ، وإلى البصرة أسامة بن زيد ، وإلى الشام عبد الله بن عمر ، وإلى مصر عمار بن ياسر . وبعث غيرهم أيضاً إلى غيرها من البلدان يقابلون الحكام ويحادثون الخاصة ويخالطون العامة ، لعلهم يستطيعون الوقوف على أسباب هذه الثورة الوشيكة الوقوع .

فمن عجب أن يعود الثلاثة الأول وتعود أيضاً بقية الرسل فيبدو أن ليس في وفاضهم شيء مع ما سبق من ظهور تذمر الناس وعيبهم على الخليفة في كل مكان ، وأن يلتقوا بعثمان بعد عودتهم ثم ينبثوا إلى المسجد يبلغون من حضرهم من أهل المدينة كأنما كانوا يتكلمون بلسان واحد . قالوا :

« أيها الناس : ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكر أعلام المسلمين ولا عوامهم، فالأمر أمر المسلمين • وأمراؤهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم .. »

أفكان هذا حقاً رأى الشعوب التي أسخطها حكم عثمان ، أم كان رأى الولاة ..؟ أم هي يا ترى سياسة مقررة .. ؟ أم هي خطة حملهم عليها الخليفة أرادهم بها على حفظ ما استخلصوه في طي الكتمان حتى لا يطمع فيه أهل المدينة ولا يكون تذمر الناس بتلك الأمصار إغراء لهؤلاء بالتذمر ... ؟ هل أراد أمير المؤمنين من سكوتهم أن يوسع لنفسه في التفكير عساه يستطيع تدبير الأمر في جو هادئ قبل أن ينقض عليه مقر الخلافة ... ؟ قد يؤيد هذا أن رسله أولئك ليسوا بذوى غفلة أو يعوزهم التبصر وفيهم مثل ابن مسلمة الذى كان ثقة لعمر ورقيباً على ولاته ، يبعثه إلى القطر الشاكى فيستقصى ثم يأتيه من بعد بنتيجة البحث التي تهيئ للخليفة وضع كل أمر في نصابه الصحيح .

من عجب أن يعود ذلك الرقيب فيعلن كرفاقه على الملأ أنه لا إنكار على عثمان ، ولا شكوى من أمير ، ولا مظلمة يود الشعب لو تلمس لها عدالة . وأن تنتهي رحلته بغير ما بدأها به ... فلقد خرج من المدينة وهو عليم بما اصطخب في نفوس أهل الأمصار من السخط على خليفتهم وطعنهم فيه . وغادرها وكانت إلى قليل مسرحاً من مسارح ذلك التذمر الذى شمل أقطار الدولة. أفلمن خالط الناس غابت عنه شكاياتهم التي كانت قائمة أمام بصره كالأعلام وهو عنهم بعيد .. ؟

لا ريب أن الإخفاء كان سياسة مقررة وضعها عثمان أو أشار بها مروان وإن جاءتنا بغير هذا صفحات التاريخ . فلم تكن السحب المتجمعة في الأفق

لتخفى على عين غرير فضلا عن عليم خبير . ولم تكن النذر الخطرة بحاجة إلى استكناه أو غوص فى أغوار النفوس الساخطة على عثمان وعهده فى آن . . . ولكنها وسيلة — فيما يبدو — أريد بها بث السكينة فى حاضرة الدولة عسى أن يستطيع الخليفة أن يحزم أمره . ولعلها خطة ممهدة . ولعل القائمين على الأمر أحسنوا إذ أعلنوا فى المدينة رضاء الرعية ، سواء أكان إعلانهم هذا تقريراً لحقيقة حادثة أم وسيلة لحال مرجوة . ولكن رجلا واحداً أفسد عليهم هذا التدبير أو هم فى الواقع الذين أفسدوه . فقد تخلف عمار عن أصحابه ، وطال غيابه بموطن بحثه حتى ظن أنه اغتيل ومكث طويلا بمصر لا يعرفون مصيره ولا يسمعون عنه . ثم جاءهم من ابن أبى سرح واليها خطاب يقول فيه :

« . . إن عماراً قد استماله قوم انقطعوا إليه ، منهم عبد الله بن السوداء . . . »

ولم يخف الساسة النبأ بل أشاعوه . وكان إلقاؤه على هيئته هذه مغريا للناس بالانقسام تجاه ابن ياسر إلى فرقتين . واحدة سارت وظنون رجال الحكم بالمدينة فى درب واحد فرمت الرجل بالكيد لعثمان ، وأخرى كانت تعلم للصحابى الجليل قدره ، وتقر بفضله ، وتبعد به عن مواطن الظنة والشبهات ، فآمنت أنه مال إلى حق ولم يجنح لباطل . .

وفى الحق لقد بدا من بعد أن أخرى الطائفتين هى راجحة الرأى . فالرجل وضىء الإسلام ، حرى به ألا تستهويه ضلالة . وهو أيضاً دائم الإخلاص لدينه ، قوى الشعور بواجبه نحو أمته ، شديد الخشية لله . . إنه نفس عمار الذى ألبس أدراع الحديد وطوح به على رمضاء مكة عسى أن يفتنوه عن العقيدة التى دان بها أو يبيعهم مبدأه بسلامة حياته فآثر الموت على أن يفتنوه . ولو أن عثمان لم يعرف له تغليبه ضميره على كل شهوة لما أرسله أو وثق به ، ولكنه آمن بإخلاصه للهدف العام الذى يرومونه جميعاً وهو صلاح الأمة فلم يتوان عن بعثه . بل غلب فى نفسه ما يعرفه من

أمانة الرجل على ما كان بينهما من عداوة قديمة . .

فإذا كان عمار قد اجتمع بابن سبأ أو ببعض أصحابه فلغير تأييدهم كان اجتماعه . ولغير الاتفاق وإياهم على النهج الذى يتبعونه إزاء الخليفة ، لأن الخيانة ليست من خلق الرجل . ولكنه بغير شك اجتمع بهم ليتعرف آراءهم فى الشيخ ، وليعلم أسباب انتقاضهم عليه ، وليتبين عن كثب مدى النشاط الذى تبذله طائفة من الشعب هى فى الواقع أشد القوى المعادية لعثمان ، وهو بهذا يبدو مخلصاً لرسالته تمام الإخلاص عاملا جهده على تأديتها خير أداء ، باذلا ما فى وسعه لاستكمال أوجه بحثه . وهو إلى هذا رجل كانت له نظرة مخالفة فى أعمال الخليفة ، لا تعرف مطلقاً التعصب له أو مداهنته ، فوسعه أن يسير فى الطريق الصحيح الذى لابد أن يؤدى إلى إنجاز الواجب الذى وكله إليه الأمير . . ثم هو يميزه هذه كفيل — وقد علم الداء — بأن يعرف مكانه . . ولو أنه كان صنيعة لابن سبأ لظل مستخفياً بمصر حتى يقدم مع الوفود التى أودت بالشيخ . ولكنه ما لبث أن عاد إلى المدينة يسفر عن رأيه ويدعو للاصلاح علانية كغيره من ذوى الغيرة على الدولة والإسلام .

أجل بدا بلا شك رجحان رأى الذين لم يأخذوا بخطاب ابن أبى سرح على وجهه . ووضح للناس بالمدينة أن شكوى إخوانهم بالبلدان الأخرى جديرة بالنصف . بل وضح هذا أيضاً لعثمان وأعوانه بعد أن طالت مداورتهم للأمور وإهمال أخذها بالحزم الواجب ، فكان أن بعث إلى الأمصار كتاباً يقول فيه :

« . . ألا لا يرفع على شىء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته . وليس لى ولعيالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم . . لقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون وأقواما يضربون . فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان ، منى أو من عمالى . . »

وأردف عثمان كتابه بدعوة إلى أمراء الأمصار يحثهم على المسارعة للاجتماع عساهم أن يقولوا ويقول فيعلم أين يكون الخير .

وقال لهم بعد أن عرفوا فيم الاجتماع :

« . . أنتم وزرائى ونصائحى وأهل ثقتى . وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عمالى ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى مايحبون ، فاجهدوا رأيكم وأشيروا على . . »

فأى حال يا ترى من الحرج كان فيه أولئك العمال إذ سمعوا أن عزلهم من ولايتهم كان أول مطالب لرعاياهم ؟ . . وبأى أنواع المشورة كان الواحد منهم حقيقاً بأن ينصح الخليفة ؟ . . فى لحظة ذكروا رسل عثمان إليهم فوسعهم أن يسارعوا بالجواب الذى ينطوى على معنى واحد وان اختلف بيانه :

« يا أمير المؤمنين . . ألم تبعث ؟ . . ألم نرجع إليك الخبر عن القوم ؟ . . ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشىء ؟ . . لا والله ما صدقوا ! . . وما هى إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ، ولا الانتهاء إليها . »

واستطاعوا أن ينفضوا بهذا عن رقابهم سيف الإرهاب .

— فأشيروا على . .

قال له عبد الله بن عامر :

— رأيى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمرهم فى المغازى حتى يذلوا لك ، فلا يكون هم أحدهم إلا نفسه .

فأصدق بها مشورة من محارب ! .

وقال سعيد بن العاص :

— احسم عنك الداء ، واقطع الذى تخاف ، واعمل برأيى تصب .

— وما هو ؟

— إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر .

كأن قد ذكر تلك الضجة التى أثارها عليه الأشتر وصحبه من غلاة الوطنيين !. .

وقال معاوية :

— أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك عن الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك ما قبلي .

وإنه لرأى الرجل يرى نفسه فى عافية فلا يعنيه أن يبحث فيما يكفل العافية لسواه ! . .

وقال ابن أبى سرح :

— إن الناس أهل طمع ، فأعطهم من هذا المال تعطف قلوبهم عليك .

ومن أولى بالاعتراف بسيادة المال على النفوس من هذا المشير الذى منحه عثمان ذات يوم خمس أفريقية ؟ . .

كذلك تكلم كل أمير يشجوه . . . ولكن الخليفة لم يجزم برأى ، ولم يقطع بأمر ، بل ألقى عينه إلى ناحية فى الجمع . . ها هنا رجل صامت ، لم ينطق إلى الآن بكلمة ، قد ثبت بصره فى العشرين واحداً بعد واحد ، ولكن أذنه كانت غائبة عنه . . طوال الوقت كان لا يكاد أن يفرغ رجل منهم من رأيه حتى يسارع هذا الصامت فيرهف سمعه لما يعج خارج المكان . . . إن الجدل لا يني يأتيه مشوشاًمضطرباً لا تكاد حروفه أن تبين ، ولكنه واضح الدلالة . . هذه الجموع المزدخرة من الشعب كانت هى الأخرى فى شبه جلسة — تماماً كمالكى أمرها من هؤلاء الولاة ! ولكن همها يضنيها ، والقلق على مصيرها يملأ قلوبها خشية لأنهاشكت ، وجمت أسباب شكواها ، ثم تقدمت بقضيتها إلى حكام هم الخصوم . .

طوال الوقت كان ذلك الرجل معنياً بالجماهير المزدخرة فى الخارج ، يكاد أن يسمع مناقشاتها وإن لم يصله كلام ، وأن يعرف آراءها الجافية فى أولئك الحكام . وكان ذهنه صافياً وإن ازدحمت به الخواطر ، وقلبه هادئاً ثابتاً فى قراره لا يكاد أن يلعب به الخوف . بل لعل فمه قد راح يتلون بأطياف بسمة بين فينة وفينة ، صفراء فيها شماتة . . إنه ليس أميراً كهولاء . لم يعد أميراً بعد أن نحاه عثمان . ولكن لحظته حانت أخيراً . وجاء الوقت الذى سعى فيه الخليفة إليه ليستهدى به بعد أن أطبقت عليه شراك

الأحداث . أفآن له أن يقسو على واتره أم يصفح عنه ؟ . .

بل هو رجل لا يستجيب للعواطف إلا بمقدار ما تشبع اثرة نفسه . الحقد عنده بحساب ، والحب بحساب والنصح أيضاً بحساب . وهو فى كل زمان ومكان لا يبذل منها إلا القدر الذى يضمن له الربح ويجنبه الخسران . . .

وأتاه صوت الخليفة الواهن كأنه من قرار سحيق :

— وأنت يا ابن العاص . . . ما رأيك ؟ .

فالتفت إليه وما زالت تستهوى سمعه ضجة الجماهير ، وقال بلهجة فيها الحقد ، وفيها الخبث ، وفيها الشماتة :

— أرى أنك ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم أن تعتدل . فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل . . فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً . . .

فكأنما لم تخف الرنة السكريهة فى حديثه عن مسمع عثمان : فصاح به :

— مالك قمل فروك ! . . أهذا الجد منك ؟ . .

فلم يجب . بل ترك أذنه ثانية تنعم بالأصداء المنبعثة عن أصوات الصاخبين فى الخارج . وهو الآن قد أشبع حقده وثأر لنفسه من الشيخ الذى نحاه عن مصر وأذهب عنه جاه المنصب . فى ظنه أنها دولة أوشكت أن تدول وعهد قاربت شمسه الأفول ، ثم يأتى على أثره آخر يستند إلى أعضاد هذا الشعب الثائر . ولقد قال كلمته فى صاحب العهد واستطاع أن يسوقها فى الثوب الذى لا بد سيروق الجمهور . ولن يلبث إلا قليلا حتى يتسامع الناس فيكون هو عندهم الرجل الذى لوح بقبضة يده فى وجوه الطغاة ! . .

ولكنه ابن النابغة ! . وليس هو بابن أمه إن لم يعلك فى يمينه الأمر ثم يعلك فى يساره نقيضه ! . . ليس هو إذن بعمرو ذى الوجهين إن لم يراهن فى آن واحد على جوادين ، لا يعلم على التحقيق ايهما الخاسر فى السباق ولكنه يعلم أن واحداً منهما مكتوب له التفوق فى نهاية الشوط بكل تأكيد . . .

لذلك لم يزايل مجلسه . وظل ثابتاً لا يريم . فلما أن انفض جمع الأمراء

وبقى هو وحده من دونهم ، تقدم بخطى ثابتة لا تعرف الاستحياء فأظهر الولاء لعثمان وقال فى انكسار :

« يا أمير المؤمنين . والله لأنت أعلم من ذلك . ولكنى علمت أن بالباب قوماً قد علموا أنك جمعتنا لنشير عليك . وسيبلغ الناس قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى فأقود إليك خيراً أو أدفع عنك شراً » .

فإن هى إلا مراءاة جبلت عليها طبيعته ولن يلبث أن يهتكها لسانه إذا تواترت الأيام ..

٢١

فشل مؤتمر العمال . فلم يسفر عن تحقيق رغبات الناس . لا ولا أولاها وبقى الولاة على أقاليمهم وقد أعاد تثبيتهم فيها عثمان .

ونظر الناس فيما بعد بالأمصار إلى نتائج الاجتماع فهالهم ما انطوت عليه . إنهم ثانية قد ارتدوا لما قبله . ووقفوا شاخصين إلى موكب الزمن السيار ، وجنحت حياتهم العامة إلى زاوية من الجمود . لكأنه عبثاً كان جهادهم طوال تلك الأعوام وسعيهم الدائب إلى نوع آخر من العيش الإنسانى الذى تظله الكرامة . لكأن عثمان وقد نفضت مشكلاتهم أمامه آثر أن يلقاها بهز كتفيه ..

أهم عند أمير المؤمنين بهذا الحد من الهوان ؟ .

بل أهون شأناً على نفسه منهم بالأمس ، وأنفسه من أن يوسع لهم فى الإصلاح المنشود ، فقد كذبتهم آمالهم هــــذه المرة أيضاً وخانتهم بقايا الثقة التى أودعوها الخليفة . . عند ما جاءهم دعوته للقيام بموسم الحج — قبل دعوته الأمراء — ظنوا أن شمس الإنصاف آذنت ببزوغ ، أو هكذا حسب الأكثرون ، ولكنهم بعد قليل أصبحوا فرأوا عمالهم يتهيأون للرحيل ، فلم تعد هناك حاجة إلى إسراعهم بشكاواهم إلى الخليفة . . كانوا أمام كتابه لهم فرقتين . واحـــدة أحسنت الظن فآمنت أن دعوة الأمراء لن تلبث حتى

تسفر عن خير ، وأخرى ملكتها الاسترابة فأيقنت أن عثمان الذى انقاد دائماً لعماله على البعد لن يسمع من وفود المتذمرين وأولئك العمال يحيطون به كالسور ، وهذه وتلك آثروا أن ينتظروا النتائج التى ستبدو غب الاجتماع .

ولكنهم جميعاً آذتهم النتائج وهالهم ما انطوت عليه • فلم يكن بها معنى الإصلاح ولم تبق ما كان كما كان ، ولكنها انحدرت بحالهم إلى أسوأ من سوء • ومن عجب أن يأخذ الشيخ برأى ابن عامر المحارب فيأمر بتجمير الناس فى البعوث ثم لا يلتى باله إلى رأى ابن أبى سرح بتأليف قلوبهم بالأموال ••• أفنسى الصفة الاقتصادية التى كانت عليها شعوبه ؟• أغاب عن خاطره أنه ما من شكوى فاضت عن النفوس إلا كان لها من ورائها سبب مادى ؟• وهل عوامل الانتقاض على حكمه آثارها شىء غير الفوارق الاجتماعية بين الطبقات التى نشأت مرة من التفرقة فى التقسيم ، وثانية من كيل الهبات لطائفة دون الآخرين ، وأخرى من حجز الفىء عن بعض المستحقين ، ومع ذلك فإن الشيخ بعد انتهاء الاجتماع قد أمر ولاته بتحريم الأعطيات على الناس ليطيعوا ويحتاجوا إليه •• إنها إذن سياسة حسم الداء بالداء •• إنها الخطة التى تفتق عنها ذهنه وأذهان مشيريه الدهاة الذين كان هدفهم الإبقاء على صوالج السلطة فى أيديهم بأى وسيلة وإن كانت إذلال الشعب الثائر على الفقر ، بالفقر وبالحرمان .

هذه حرب جديدة شنها عليهم عثمان. ليس أداتها السلاح • ولا التخويف بعزة النفر ووفرة الأتباع • ولا الإرهاب بشدة العقاب وقسوة العذاب •• ولكنها حرب عدتها المادة ، كان لها مثل طعم المر فى أفواه الناس •• حرب جائحة شنها الشيخ على الأرزاق •

ولكنها فشلت كما فشلت من قبل وسائل عثمان ولم يكتب لها النجاح •• فلقد أساء بها الخليفة كعادته اختيار الدواء الذى يصلح للداء • وكأنى بالكوفة غب انفضاض مؤتمره قد احتشدت كلها بمسجدها حتى ضاق ، وتذاكر الناس شأنهم قلقين •• كأنى بيأسهم من إنصاف الشيخ يبلغ منتهاه

ذلك اليوم من أيام الجمعة وقد عاد إليهم الأشتر من المدينة يحدثهم بما كان .

ولم يكن هناك عقل يتكلم ، بل العاطفة هى التى ملكت نواصى الحديث ، والقنوط البالغ هو الذى حرك أقدام الناس . وكانوا جميعاً أشبه بقاطع أجمة خلت كنانته من السهام ثم بصر بليث هائج يسد عليه منافذ النجاة ، فما أسرع أن امتدت يده بقوسه يدفع بها عن نفسه وهو يعلم أنها فى الأغلب قليلة الغناء ..

ولكن أهل الكوفة كان يحركهم اليأس . فقد غلبوا على أمرهم أخيراً وضاعت عبثاً أعوام وشهور قضوها فى الجهاد . وأدهى من هذا كله أن ثقتهم فى عثمان قد ذهبت هى الأخرى هباء . فلم يبق ثمة أمل فى إصلاحه وتغييره طريقه القديم . ولم يعد لهم معدى عن العمل لأنفسهم بأنفسهم ، وأخذ حقهم بأيديهم ممن غصبوه ..

وكذلك رفعوا القوس يذودون بها وإن علموها توشك أن تكون قليلة الغناء . وانطلقت جموعهم الثائرة تبارح المسجد كأنها عاصفة . حسب الناس أن يثبت عثمان عليهم سعيداً واليه ليملكوا القدرة على التمرد .. وراحت الأفواج تنطلق إلى خارج البلدة وينضم إليها الأنصار من هنا ومن هناك . وراحت أيضاً تندس فيهم طوائف من أصحاب ابن سبأ دعاة الفتنة يصبون الزيت على النار .. وخرجوا جميعاً إلى الجرعة بقرب القادسية وقد تزودوا بالسلاح ..

وقال لهم الأشتر مالك بن الحرث وقد تجلل وجهه بالغبار ، وهو متقلد سيفه :

« والله لا يدخلها علينا ما حملنا سيوفنا ! »

وأقبل أخيراً سعيد . وعجب للقوم وقد سدوا دونه الطريق إلى الكوفة . فلما علم منهم ما أجمعوا الرأى عليه وقف هنيهة ينقل فيهم بصره ، ثم قال باسما بغير اكتراث وفى صوته رنين ترفع وسخرية :

« إنما كان يكفيكم أن تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلا وتضعوا لى رجلا! ..

وهل يخرج الألف إلى رجل واحد ولهم عقول . . »
وانثنى عنهم يقطع الدرب صوب المدينة .

يا ترى كيف تقبل عثمان هذا العصيان ؟ . . فى لحظة واحدة نسى ما كان قد اصطنع لنفسه من البطش وارتد ثانية كعهده ليناً غاية اللين ، متخاذلا أشد التخاذل ، ضعيفاً مسرفاً فى ضعفه . وسعه أن يخفض رأسه لثوار الكوفة كأنما يقر لهم بحقهم فى التمرد . . ولكنه بهذا قد هون أمره على الناس قبل أن يهون عندهم أمر سعيد ، وراحت هيبته لقى لا يكاد أن يحتفل بها رجل واحد ، وزادت الجرأة عليه فيما وراء البلدة حين سرى نبأ الحادث حتى أوشك أن يكون نذيراً بانقضاء سلطانه ، ولم يكن عجباً أن يأتيه من بعد نبأ عن حادث مماثل يقع بناحية أخرى من أقاليم الدولة ، وأن يخلع قوم طاعته هنا أو يخلعها غيرهم هناك ، فقد علم الناس أن يعصوه وأغراهم بعصيانه . وهم الآن لا يعرفون له حقاً عليهم ولا رقابة ولا قليلا من سيادة تردهم إلى مركز التابع من المتبوع ، بل أصبحوا سادة أنفسهم ، أمرهم فى أيديهم وشأنهم إليهم ، لا يقرون لمثله بسلطان ، وليس بدعاً أن يصبح الحكم من بعد فوضى تبتزه شراذم الثوار حينما تشاء .

أما المدينة فقد استقبلت مؤتمر العمال بأمل وودعته بملل ، بل أوشكت أن يسودها توجس وقلق ، وهى تلقى ببصرها من خلال أعماله إلى المستقبل القريب . لم يسفر للناس عن شىء يهدىء مخاوفهم ، أو يرد عنهم خشيتهم على مصيرهم فى ظلال هذا الحكم ، بل هو ألقى حجاباً كثيفاً بين الشعب وبين حكامه ، وأيقن بعده كلا الفريقين أن عزته فى هدم أخيه .

أجل ؛ أصبحت هكذا الحال ، وما أحسب أمراً ينتظر أن تصيب قضيته العدالة لدى خصمه . وما أحسب عاملا من عمال عثمان يستطيع أن يفهم أن غلبة الشعب عليه وعزله من منصبه هو نصر له لأنه نصر لشعبه . . . لذلك بات الناس بعد انتهاء المؤتمر بإقرار الولاة على أقاليمهم يكادون أن ينفضوا الأكف من إصلاح الحال ، وعادوا يسيرون ثانية فى دائرة التيه .

ولكن لمحة من أمل خطفت أمام الأبصار فى الأفق كأنها خط البرق ، فقد دعا الخليفة إليه أصحاب رسول الله ليسألهم المشورة ، فحسب الناس أنه لقاء لا يتمخض إلا عن خير ، وتلبثوا ينتظرون راجين ، والتأم الجمع بسعد وطلحة والزبير وطائفة أخرى من المهاجرين ، وكان الوقت قد آذن بدخول الأصيل ، ومسجد النبي أوشك أن يفرغ من الجموع بعد صلاة العصر حتى لم يبق فيه غير نفر قليل . وكان على فى ناحية منه ، إلى جواره ابن عباس يحدثه حين أقبل رسول من لدن عثمان يدعوه ..

والتفت أبو الحسن إلى ابن عمه :

« لم تراه دعانى يا عبد الله .. ألا تنطلق معى ؟ » .

ودخلا حيث اجتمع الصحب بأميرهم . فما إن استقر بهم مكانهم حتى وقف عثمان فقال :

« إن ابن عمى معاوية هذا كان غائباً عنكم وعن ما نلتم منى وما عاتبتكم عليه وما عاتبتمونى فيه .. وقد سألنى أن يكلمكم ، وأن يكلمه منكم من أراد .. » .

فأدار سعد بصره هنيهة فى الحضور كالمستنكر . إن هذا الشيخ لا ينى يتخذ من آله أستاراً يختفى خلفها ويحتجب بها عن قومه . ولو أنه آثر أن يلقى الناس بنفسه لكان خيراً له .. .

وقال له سعد وهو لا يدارى عنه ضيقه بهذا الأسلوب من التفكير :

— وما عسى أن يقال لمعاوية أو يقول إلا ماقلت أو قيل لك ؟

— على ذلكم يتكلم .

وأشار لصاحبه فوقف بينهم . فماذا يا ترى أغراه باتباع تلك اللهجة المعادية حيال أولئك الناس ؟ . . إن معاوية بغير شك رجل فيه حذر ، وفيه عناية بسلامته وسلامة أمارته كفيلة بأن ترده حريصاً على التماس رضاء هذا النفر من أعوان رسول الله — هذه البقية الباقية من أهل الشورى الذين لن تلبث الخلافة أن تأتى أحدهم طواعية فلا يأمن أمير الشام بعدها أن يبقى له أمره . ولكنه مع ذلك تكلم . وعنف فى خطابه إيام

إلى حد كان يحمل معنى التحدى لهم والرغبة فى إثارة غضبهم . . بل لقد بلغ من استهانته بأقدارهم أن لف حديثه بالوعيد والتهديد فقال :

« . . إن وراءكم من إن دفعتموه اليوم اندفع عنكم ، ومن إن فعلتم الذى أنتم فاعلوه دفعكم بأشد من ركنكم وأعد من جمكم ، ثم استن عليكم بسنتكم ورأى أن دم الباقى ليس بممتنع بعد دم الماضى . . »

إن هذا إلا صلف أغرته به نفسه ، واعتزاز بقدره وسطوته عند الخليفة وفى ولايته البعيدة التى اشترى نفوس أهلها بماله وبغيره من الأساليب التى يستجيب لها الضعف البشرى ويخضع لإغرائها المجتاح . ولكن علياً أبى أن يقره على إدلاله فصاح به يقطع عليه الحديث :

— كأنك تريد نفسك يا ابن اللخناء ؟ . . لست هنالك !

فأجابه معاوية بلهجة المعاتب :

— مهلا عن بنت عمك ، فليست بشر نسائك . .

ثم راح يتمم لهم حديث التهديد :

« . . إنما ينظر التابعون إلى السابقين ، والبلدان إلى البلدين . فإن استقاموا استقاموا . . وأيم الله لئن صفقت إحدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ولا البلدان للبلدان . وليسلبن أمركم . ولينقلن الملك من بين اظهركم . فما أنتم فى الناس إلا كالشامة السوداء فى الثور الأبيض . ولقد رأيتكم نشبتم فى الطعن على خليفتكم . وبطرتم معيشتكم . وسفهتم أحلامكم . ألا فالصبر على بعض المكروه خير من تحمله كله . . »

فأى أثر تركه هذا الرجل فى صدور سامعيه ؟ ، ولأى الغايات رمى من وراء تخويفهم ببطشه ؟ ، وبأى حق نصب من نفسه حاميـــا للخليفة وأولى بعثمان أن يكون هو حامى الولاة ؟ ، وهل كانت ياترى نبوءة خالصة ألهمها صاحب الشام حين تحدث لهم عن نقل الملك من مدينة الرسول ؟ .

أحسبه كان جاداً فى كل ماقال ، يعنيه إلى آخر حرف من حروف كلماته ،

فلم يلق حديثه عبثاً بغير روية أو لغير غاية . ولم يثر فيهم حفائظهم إلا وقد دبر أمره أو أيقن أنه يستطيع تدبيره . ولم يطف بوعيده عليهم إلا وهو عليم بقدرته على إنفاذه .

أما الوعيد فلم تكن هذه أولى الكلمات التى نضحت به بل سبق به ذات يوم لسانه وقد لقى بالمدينة عمار بن ياسر وقال له بلهجة الجد الصارم :

« .. إن بالشام مائة ألف فارس ، كل يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم ، لا يعرفون عليا ولا قرابته ، ولا عماراً ولا سابقته ، ولا الزبير ولا صحابته » .

وراح يردد أسماء صحب رسول الله برنة تعريض ثم انثنى إلى أسلوب الإرهاب :

« فإياك يا عمار أن تقع غداً فى فتنة تنجلى ، فيقال هذا قاتل عثمان وهذا قاتل على» .

فكأنه بهذا قد علم أنه حقيق بأن يعتمد على قوة جنده إن دعت الحال .

إنه على أى حال رجل كبير الأطماع ، قد دأب خلال الأعوام العشرين التى قام فيها بحكم الشام على أن يوطد بها أمره ، ويثبت أقدامه ، ويتخذ حيال أهليها كل ما هو كفيل بأن يجعلهم أطوع إليه من بنانه . وهو قبل هذا له عندهم نفوذ اكتسبه من تلك الصلة القديمة التى نشأت على يدى أمية جده حين نفاه هاشم إلى الشام فراح يؤلف الأقوام بها حوله ليكونوا له عدة على عمه . وهو ثالث قد خلف على إمرتها أخاه يزيد بن أبى سفيان الذى كان عاملا لأبى بكر وعمر . ومنذ تلك اللحظة وهو قائم على أمورها ، يتبدل الولاة والعمال فى الأقاليم حوله وسلطانه عليها ثابت ، ومكانته بها وطيدة لا تعصف بها غير السياسة . فلما أن ولى عثمان أضاف إلى قوته قوى جديدة بأن ضم إليها بضع ولايات جمعت له حكم الشام بأقاليمها المختلفة . وأصبح معاوية بكل هذا يمتاز على أقرانه من الولاة . فلم تكن له كمثلهم صفة الولاية بقدر ما توافرت فى إمارته صفات الملك المتوارث الذى دان له

دهراً يوشك أن يبلغ مثل عمر الإسلام فى أرض الشام .

علم الرجل رسوخ قدميه بأرضه هذه فوسعه أن يزهى ويقول ليس يرده عن زهوه واعتداده بقوته استحياء واجب عليه نحو خيرة صحب رسول الله ، ولا أقدار لهم كفيلة بأن ترفعهم فى عينه كما رفعتهم فى عيون بقية الناس ، ونسى فى تلك الساعة أنهم أكرم على النفوس من أن يتناولهم بمثل تهديده . وإن صاحبه كان هو الأولى بالعتاب والملامة ما دام لم يرع خلافته حق رعاية ، ولم يرع كذلك حق شعبة حتى حق أن تميل عنه القلوب .

أما كان معاوية إذن يشق طريقه بأقدام الو ثق ، ويبنى صرح مستقبله السياسي وهو جد عليم بأنه وطيـــد الأساس ؟ . . ما أحسبه إلا قد آمن أن أزمة عثمان سوف لا تنجلى عن خير ... وما أظنه إلا استشف نتائجها المحتومة وهو بالمدينــة لم يبرحها ، بل وهو بعيد عنها لم يدخلها بعد ، ولعله قد استطاع إذ ذاك أن يرخى لأطماعه العنان ، وأن يتركها تنساق أمامه إلى أقصى الحدود . والرجل الطموح لا يني يرقى فى سـلم غاياته بلا انتهاء . . . وكان صاحب الشام ذلك الرجل . وكان كذلك حريصاً بجيد التدبير قبل اختياره الطريق التى تبلغه هدفه ، ولقد دبر لنفسه ، ودبر له أيضاً حسن حظه من قبل حتى اجتمعت فى كفه ناحية من الدولة الإســلامية وسيعة ، لا تكاد تنطق قبل أن يشير ، أفئن مد بصره إلى بعيد أفيكون عليه ثمة جناح ؟ .

بل ليس عليه من جناح بعد أن تهيأت له قوى من رجال ومال تؤيد طموحه . وبعد أن توفرت لديه أسباب النجاح فى الحالة الخلقية التى أصبح الناس عليها فى ذلك الحين وقد غلب فيهم سلطان المادة على قوة الروح ، وكان هو خير من يعمل على تغليب ذاك السلطان . وبعد أن ألف السيادة أعواماً — بنفسه وبأهله — كانت أطول من عمر هذه الدولة التى وسعها طموحه ، فما من شك وهذه حاله أن يعمل قدر طاقته على أن يسود الأمة الإسلامية كلها فلا يكاد يحس أنه يعمل لأكثر من توسيع رقعة الأرض التى دانت

له بضم دويلة من هنا إليها ودويلة من هناك .

بمثل هذا العناد النفسى الذى استشعره الرجل من وراء ميزاته استطاع إذن أن يلق بقية صحب محمد ، وأن يتهمهم ، وأن يبسط أمامهم وعيده . . . اما كلماته عن نقل الملك من بين أظهرهم فلعلها لم تكن نبوءة ، ولعلها أيضاً لم تكن كلها تهديداً ساقه ليرهب سامعيه . . . هى فى الحق كانت أقرب إلى التمهيد منها إلى التهديد — المقدمة التى لن تلبث حتى تنكشف نتائجها عما قليل.

ما كاد ألا يبق لمعاوية بالمدينة مقام حتى قال لعثمان :

« يا أمير المؤمنين . . . انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به . فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا . . . » .

فلم يرض عثمان . ولكن العرض فى ذاته كان حرياً بأن يرفع صاحبه فى عينيه ، ويضعه منه موضع الغيور على الخلافة ، الأمين قبل غيره على سلامة الشيخ . وهو هكذا اقتراح قد تكون له جدواه على عثمان لو قبله ، ولكنه محقق الجدوى على معاوية فى حالتى الرفض والقبول . فما من ريب فى أن نقل الخلافة الإسلامية إلى الشام خطوة لا ثانية لها إلا نقلها إلى كنف معاوية ، سواء عن وصية من الشيخ عند قرب حينه أم عن اختيار متروك إذ ذاك لأهل الشام قبل غيرها من البلدان . أما وقد أبى عثمان أن يأخذ برأى ابن أبى سفيان، فقد كنى هذا أن يسبق غيره من الولاة فيبدو حامياً لخليفته ، ويبدى المرشحين للخلافة كلهم فى مظهر لا تطيب له نفس عثمان .

ومع ذلك فلم يبرح مكانه حتى استوثق لنفسه . كان حاذقاً إلى الحد الذى يجعله لا يكل تدبير أمره للظروف فدبره قبل أن يغادر المكان . . . عرض فى البدء على عثمان أن يمده من لدنه بجند يحميه ، فلما أبى استطرد فصور له الخطر المحيق به ، ثم قال :

— . . . فاجعل لى الطلب بدمك إن قتلت . . .

— هذه لك .

فخرج وكأنه ليس الرجل . . . ومر فى طريقه بالمسجد على بضعة من

الصحابة فيهم على وطلحة والزبير . وكان قد ارتدى ثياب سفره وتقلد سيفه ، فلما لحهم تريث برهة ، واتكأ على قوسه ، ثم راح ثانية يحذرهم إن أصغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب أن يسلبوها . وبدا فى هذه المرة أكيس منه فى سابقتها فألبس وعيده ثوباً ناعماً من الرقة حتى كان كعهده يجمع إلى الشدة لطف الحديث . وانتهى كلامه لهم بأن قال :

« . . . إنى قد خلفت فيكم شيخاً ، فاستوصوا به خيراً وكاتفوه . . . »

وتبعته الأعين وهو يبتعد . لم يكن هو حقاً نفس الرجل . . إنه الآن محوط بهالة من السيادة ، وبطيف من الرحمة حتى أوشك أن يظهر بما لم يكن فيه . . .

وقال على لمن حوله وبصره لم يرتد عن هيكل الراحم الرحيم :

« . . . ما كنت أرى أن فى هذا خيراً . . . »

أفعنى أنه لبس لبوساً لا يوائم حاله ؟ . . من يدرى . . ولكن الزبير بدا كمن استهوته هيئة صاحب الشام وألقت فى قلبه شيئاً من المهيبة له ، لأنه أجاب :

«لا والله . . ما كان قط أعظم فى صدرك ولا فى صدورنا منه الغداة . .»

وانطلق معاوية . . كان حقاً غيره من قبل . على الأقل لاح هكذا فى عينى نفسه بعد عينى الزبير وعينى عثمان . الأطماع التى كانت تلمع أمامه دائماً عند حد الأفق كادت أن تلمسها أنملته الآن . . إنه برز إلى الصف الأول بين صحب الخليفة وقام على رأسه . . وتقدم قريشاً كلها بعد أن جرح ولاء شيوخها لعثمان وفيهم أهل السابقة والشورى وخيرة المهاجرين . . وأصبح سيد أمراء الدولة وأكثرهم غيرة على سلطان سيده وعلى سلامته . . ثم جمع إلى هذا كله السبق على أهله جميعاً وقد بات من بينهم المنفرد بولاية دم عثمان . .

أجل إن الأطماع الآن أوشكت أن تتقبض عليها كفاه . . وفى طريقه

إلى الشام لعله استذكر هذا وراح يجيله فى ذهنه . وانطلق به الركب إلى مقر إمارته وهو جد سعيد . وكلما ألقى عينه على بغلته تحته وهى تخب به استشعر الرضاء والطمأنينة . . ما كان ليحلم أن تسير الأمور بمثل هذا اليسر وهذه السهولة ، وما ظن مطلقاً يوم غادر دمشق أنه سيدخل المدينة بحال ثم يغادرها بغير تلك الحال . لعل نجمه إذن أوشك أن يبزغ ، وأن يعلو لامعاً فى سماء الحظوظ حتى يكسف غيره . لعل الزمن أخيرا شاء أن يسير سيره المرقوب وأقبل يمد نحوه يده . لعل نبوءة كعب صدقته ، فكعب كما علمه صادق النبوءات .. ما كان أقرب هذه الذكرى منه ، وما كان أحبها إليه .. إنه لن ينساها . لن يستطيع هذا ولو راض نفسه على النسيان ، ولو مضت أيضاً على قصتها أحقاب . وإنها لجديدة أبداً فى ذهنه ، ثابتة لا تكاد تبرحه ، تراوده فى كل لحظة كلما التقت نظراته على بغلته الشهباء

وانفرجت شفتاه عن رضا واطمئنان ، والركب يسير ، وموكب أفكاره أيضاً يسير . وكر ذهنه وئيداً إلى الذكرى الحبيبة وإلى القصة العاطرة التى أصبحت الآن رفيقة سفره . ولم يكن اليوم ببعيد . إن هى إلا أيام قلائل تقضت على الساعة السعيدة التى أطلعتها . . وإن هو إلا نفس المنظر الذى يحوطه الآن .. ركب كالركب ، وقافلة كقافلة تضرب فى لجج الرمل ، ورنة حاد لها صدى فى هدوء الصحراء . . كان إذ ذاك فى ركاب عثمان العائد بهما إلى المدينة بعد الموسم حين رجز ذلك الحادى الجرىء بصوت حنون :

قد علمت ضوامر المطى — وضمرات عوج القسى
أن الأمير بعده على — وفى الزبير خلف رضى
وطلحة الحامى لها ولى

وانتفض معاوية . إن شيئاً خشناً كالشوك أوشك أن يمس قلبه ، ولفحة مسعرة كالنار مرت به . ولكن رجلا بالركب أفاء عليه فى لمحة عين هدوءه ، وأسبغ الطمأنينة حين هتف بالراجز فى نبرة رصينة :

« كذبت ! . . . »

فاستدار معاوية يلتفت إليه . هذا هو كعب . وهذه أصبعه تشير نحوه . وهذه كلماته الهادئة تتم الحديث :

« الأمير بعده صاحب الشهباء ! »

فكأنما كان لنطقه مثل السحر ، رفع الكف الشائكة عن القلب وأبعد عنه لسع النار . . على الأثر تغيرت هيئة أمير الشام ، وأشرق وجهه ، والتمعت عينه راضية فرحة وهو يلقى بها فى جلال وهدوء على الدابة التى تخب تحته . . على بغلته الشهباء ! . .

٢٢

عام انقضى أو أوشك والحال هى الحال . الشكوى باقية ، والأمير ساكن ، والشعب يكاد أن يحتويه الاضطراب . الشام وحده هو الغارق فى الهدوء . وحاكمه وحده هو القرير ناعم البال وإن أيقن أن سيده يجلس على بركان . والكوفة لم يقر قرارها بعد . إنها وإن احتلبت بعض حقها عنوة وهنأت به ، إلا أنها ظلت بضعة أشهر أخرى تتوقع المزيد . هى حقاً نصبت عليها من ترضاه ونزعت عنها صالف الفتى القرشى سعيد بن العاص . ولكن هذا ليس كل ما صبت إليه . إن فى آمالها بقية تنتظر التحقيق . وفى شرعة المساواة سطوراً كثيرة ظلت مطموسة لم تظهرها براعة عثمان . كم أبلى أهلها فى نواحى فارس وأثخنوا فى أراضيها ، ثم عادوا وعلى أكفهم النصر وفى ركابهم الغنائم من سبى وأسلاب ، ففازوا منها بنصيب ، وفاز بالأنصبة غيرهم من القرشيين الذين لم يهزوا رمحاً ولم يرفعوا قدماً من مكان لمكان وكانت مصر أيضاً شاكية ، أبى حظها أن تهنأ بمثل هذا القليل الذى وسع أختها أن تناله ، وظلت مغلولة الصدر فى كنف ابن أبى سرح . وبقيت البصرة هى الأخرى قلقة ، ترقب نافذة الصبر قليلة الحيلة أن تطلع عليها شمس اليوم المأمول . .

ولـكن شهوراً طويلة مضت منـذ اجتماع العمال لم تسمر فى ركابها بشرى واحدة بقرب انتهاء فترة القلق والانتظار . الأيام لها على النفوس وقع . والليالى بطيئة راكدة تجر فى أعقابها مثيلات لها تعيى الصبر وتوهن التريث . الوقت كله متخاذل ، يزحف كما تزحف سلحفاة . طويل كهيئته فى عين مسهد طرف نبا به الفراش . شديد الوطأة ثقيل كوقعه على مريض .

كان الزمن هو العدو الذى ضاق به الناس ، وحاصر جلدهم حتى أوهاه ، وعاش بهم فى ظل حياة سقيمة مملولة هى إلى الموت أقرب منها إلى الحيـاة . ولقد وسعهم فى البـدء أن يصطبروا ، وأن يتلبثوا به ويلاينوه . ولـكن فترة الترقب كانت طويلة العمر ، بدت كأن كانت بغير نهاية . وموالاة الانتظار لا تأتى بخلاص وإنما بانتظار جديد . والتريث آفة توشك أن تورث النوم فـكنى الشعب الآن ما انتظر وما نام .

كذلك انتهى الرأى إلى وجوب العمل ثانية ، ووجوب الإسراع فيه هذه المرة والحرص على استخلاص نتائج حاسمة منه . إلى هذا انتهى رأى النـاس فى الأمصار وعاهدوا نفوسهم عليه . حتى فى الـكوفة استطاعوا أن يجـدوا أسباباً ، بعضها نفسى والبعض مادى ، دعتهم لمشاركة إخوانهم الآخرين ، وكانت الرسائل ترد دائماً إليهم فيها علائم التذمر والخطوط التى رسمت لإبرازه ، ثم ترتد عنهم مثيلاتها عبر حدودهم لـكل الجهات . وكانت طريقة ربط كل بلد بغـيره دقيقة غاية الدقة ، منظمة أتم نظام ، قد أشرف عليها أناس وكانوا بهذه الشؤون فأحسنوها . أما رأس الحركة الذى دبر كل الأمر فرجل موهوب ، شديد الذكاء ، عالى الهمة حتى لاينام عن غايته أو يغفل عنها لحظة . . . إنه ذلك اليهودى الأسود ابن سبأ . الذى ذرع البلاد الإسلامية كلها من الجنوب حتى الشمال ، ثم استقر به قراره بمصر فأقام بها يعهد لبث عيونه وأنصاره بكل قطر ودرب ودار . هـــذا الداهية استطاع أن يقرأ خلجات الأنفس فدبر أموره قبل أن تنطلق من عقالها أعمالا تبدو للأعين أو أقوالا تلفظها الألسن .

عرف ابن سبأ أن الناس داورهم زمنهم حتى أيسوا من خليفتهم وبرموا بإمهاله أكثر مما مدوا له فى حبل الإمهال . وأن أفكارهم هفت ثانية إلى الأمير تعاود المناداة بالعدالة . وأنهم موشكون أن يرموا إليه ظلامات دعاهم أن يبثوه إياها عامهم السالف فأرجأوا رفعها طمعاً فيما حسبوا أن سيتمخض عنه مؤتمر العمال ... عرف هذا فكاد أن يراهم بعين التصور منطلقين من هنا أفراداً ومن هناك جماعات ، لا تجمع بينهم وحدة العمل وإن جمعتهم وحدة الغاية . يأتون الخليفة متفرقين ثم ينفضون عنه ثانية متفرقين بعد وعد منه أو بعد وعيد . أفليست هذه إذن هى اللحظة التى ترقب شيخ السبابية حلولها أعواماً ؟ .. هل ثمة فرصة خير من هذه يوشك أن يسفر عنها الزمان ؟ .. أو لم تحن بعد ساعة الصراع التى تربص بها الرجل طويلا ورتب لها طويلا بغير ونى ولا إمهال ؟ .. إنما الأجدى على دعوته ألا يدعهم يذهبون هكذا ، متفرقين ضائعى القوى من التفرق ، إلى الموسم حيث تبتلعهم أفواج الحجيج . بل الأجدى على دعوته الهدامة أن يرسم لهم خط السير وساعة التجمع وخطة العمل ليفجأوا الشيخ فى المدينة قبل أن يبرحها إلى البلدة الحرام .

ما كان أقصر مرمى عين عثمان إذ ذاك وما أشد بصره كلالة ! ، ليكاد ألا يرى لأبعد من قيد يده . إنه غاف عما يحدث خارج نطاق بلدته ، غافل عنه ، وحتى ما دار بالمدينة كان يراه بعين سواه . استمار دائماً أبصار حاشيته لينظر ، وعقولهم ليفكر ، فلم ير الخطر إلا حينما رأوه ، ولم يبادره إلا بأكفهم وأيديهم . كل ما يشغل همه اليوم رجل واحد ، واحد فرد من الرجال ملأ سمعه وبصره وآفاق تفكيره . حياته كلها امتلأت به . إن سار لقيه ، وإن أصغى سمعه ، وإن تلفت رآه . كأنه الصخرة تسد طريقه ، وكأنه الهزيم يؤذى أذنيه . وكأنه وهج النار المشبوبة يبدو له وإن أغمض دونه عينيه ... ألا فما بال هذا الكهل الخشن المظهر لا يكاد أن ينأى عنه . ليوشك أيضاً أن يفسد عليه لياليه كما أفسد أيامه ! ، وإنه لثابت فى خاطره أبداً وإن غاب

عن لمح طرفه ، كل من بالمدينة ينطق به وينطق عنه . وكل من خارجها أيضاً كما حدثته الأخبار .

إنه فرد واحد ضاقت به حياة عثمان . هو طوائف المتذمرين مجتمعة فى شخص ، وعوامل التذمر حية تسير على قدمين ، إنه المارد الذى يوشك أن يهدم عليه صرح حكمه ! ، وكلما استذكر الشيخ الماضى عجب للصورة القديمة التى كان عليها إذ ذاك هذا الغريم . كلما ألم فكره بناحية من نواحى شخصية على إبان صباه الأول ، وإبان شبابه ، وإبان رجولته ، لم يملك إلا أن يتهم هذه الصورة الجديدة عنه ، التى رسمها له مروان وأعوانه . ليكاد صاحب الأمس أن يكون غير غريم اليوم ، عهده به من قبل عنواناً على المروءة ، سباقاً إلى النجدة ، يسارع بيده ولسانه وقلبه إلى نصرة كل ضعيف مظلوم ، وإن الخليفة لمظلوم تجنى عليه قومه . فماذا يا ترى أقعد ابن أبى طالب عنه ؟ ، بل ماذا عسى قد دفعه إلى مظاهرة الناس عليه ؟ ، أفهو الآن آثر أن يخلع ثوبه القديم فبدا على غير ما كان ، أم هى صورة شائهة زيفتها حاشية عثمان ؟ .

ولكن الخليفة لا يسعه اليوم أن يستجيب للماضى أو يهدأ له ، ليس له بعد ذهن خاص ، ولا فكر محرر ، ولا عين ناقدة تنفذ إلى الحقائق التى سترت عنه . إنه أنس إلى طائفة من أهله أمدوه بالعين وبالرأى . إنه لا يرى من الناس إلا أنهم خالفوه . ولكنه لا يرى أن أسباب الخلاف كلها مبعثها منه ، وعلاجها كلها موكول إليه . لقد أراده مشيروه الثقاة على الرؤية فرأى ، ثم أرادوه على ألا يعمل فلم يعمل . أجل لقى الفتنة الوشيكة التسمر بالسكون والجمود ، ولم يحاول مطلقاً أن يمنع عنها الوقود الذى أرسلها مشبوبة . أو لم يحاول حقاً؟ ، بل علم أن أعوانه أشاروا له على ذلك الكهل الخشن المظهر وقالوا : إن هو إلا مؤرث النار ! .

السياسة العثمانية إزاء الفتنة الناشبة كانت مغالطة مرة . فى تلك الأيام بدا الشيخ كالنعامة لوت رأسها عن الخطر الداهم ثم حسبت أنه لا خطر

على الإطلاق ! . كذلك فعل عثمان . وأغمض عينيه عن الأحداث حتى نام . ورضي لنفسه بالخطة التي أشار بها أعوانه والتزموها حيال الخطر النامي فتجاهله ولم يأخذه بالعلاج الناجع السريع . في اعتقاده أنه لم يكن ثمة خطر من ناحية الناس لأنه لم يكن وحكامه يقرون بحق الناس في النقد أو إبداء الآراء . فلما أن جاءه الخلاف من كل صوب ، وتكلم الناس فيه بما يشاءون ، أصبح يرى أن هناك امرءاً واحداً يستطيع أن يملك ألسنتهم لأنهم لا يسمعون إلا له . فإذا تركهم على وشأنهم يتحدثون فقد قصر إذن في حق الخليفة عليه . وإذا ظاهرهم وأيد عنده مظالمهم فهو الذي يجني وحده الثمرة التي يوشك أن يتمخض عنها هذا الخلاف ! .

بهذه النظرة العجيبة كان عثمان يرمق ابن أبي طالب ، ولا يني يضع تحتها كل حركة يأتيها أو كلمة يسوقها من أجل خير ممنوع يود أن يقيمه أو شر قائم ينادي بهدمه . ما من مرة مشى فيها إليه إلا سبق إلى ذهن الشيخ أنه رمى إلى كشف ناحية ضعيفة فيه ، وهتك الستر عن نقص كان هو يجهد أن يستره عن عيون أمته . ولو أن فكر الخليفة استقام حق استقامة ، ونظرته إلى الأمور كانت نفاذة بعيدة ، لوسعه أن يفتح صدره للنقد ويقبل عليه ، ولكن سوء ظنه كان يغلب فيه الحكمة ، والتوجس من المكانة الشعبية التي نعم بها علي بين الناس كان مغرياً له بالحذر منه . ولم يكن علي وحده هو المصطلي بنار النفور التي أججها الشيخ ، ولكنه كان من بين صحابة رسول الله أولاهم بالاصطلاء لأنه أولاهم بولاية الأمر عند الاقتضاء .

وكذلك عاش على هذه الفترة الصاخبة من عهد عثمان كالعربة يتجاذبها فرسان ، واحد من جهة وثان من أخرى . فلم يستطع مطلقاً أن يوفق بين رغبات الشعب وبين سياسة الأمير ، وأصبح بين إن سكت متهماً من الأمة بالتقصير في أداء الواجب الذي وكلته إليه ، وإن تكلم متهماً من الخليفة بممالأة الناس وتحريضهم عليه ، وليس له للجمع بين الغايتين من سبيل .

لقي ابن عباس معاوية وهو بالمدينة أثناء اجتماع العمال ، فأقبل عليه هذا

يقول كاشفاً عن رأى بقية أهله وفيهم عثمان :

« يا ابن عباس ، إنا كنا وإياكم فى زمان لا نرجو فيه ثواباً ولا نخاف عقاباً ، وكنا أكثر منكم ، فوالله ما ظلمنا كم ولا قهرنا كم ولا أخرنا كم عن مقام تقدمناه ، حتى بعث الله رسوله منكم فسبق إليه صاحبكم . . . فوالله ما زال يكره شركنا ، ويتغافل به عنا ، حتى ولى الأمر علينا وعليكم . ثم صار الأمر إلينا وإليكم ، فأخذ صاحبنا على صاحبكم لسنه . ثم غير ، فنطق ونطق على لسانه . . . لقد أوقدتم ناراً لا تطفأ بالماء . . . » .

أبالدم إذن يستطاع الإطفاء . . . ؟ معاوية وحده يستطيع أن يفصح عن هذا وإن كان فى هذا المقام آثر الإخفاء . . . ومع ذلك فهل بغير هذا الخاطر جرت أفكاره تلك اللحظة التى أدل فيها بمكانة قومه وعزتهم قبل ظهور الإسلام ؟ إن هذه السلالة التى أعجبته جديرة بأن تنسى كل شىء ثم لا تستطيع مطلقاً أن تنسى أن سلالة أخرى بزتها أمام الناس — سلالة جاء منها هاشم وجاء محمد ، وجاء على الذى حسبوه اليوم يحاول أن يغلبهم على السيادة التى غلبهم عليها سلفاه .

وألقى إليه ابن عباس بالرد الهادىء المتسامح الذى يزرى بكل تفاخر واعتزاز .

« كنا كما ذكرت ، حتى بعث الله رسوله منا ومنكم ، ثم ولى الأمر علينا وعليكم ، ثم صار الأمر إلينا وإليكم فأخذ صاحبكم على صاحبنا لسنه ، ولما هو أفضل من سنه . . . فوالله ما قلنا إلا ما قال غيرنا ، ولا نطقنا إلا بما نطق به سوانا ، فتركتم الناس جانباً ، وصيرتمونا بين إن أقمنا متهمين ، أو نزعنا متتبين ... وصاحبنا من قد علمتم : والله لا يهجهج مهجهج إلا ركبه ولا يرد حوضاً إلا أفرطه » .

لكأنى بهذه الأسرة لا تنى تتشكك فى منافسيها وفى رأسهم على الخصوص . ولكأنى بعثمان قبلهم وقد علم فيم كان الخلاف بينه وبين على لا يكاد أن تطمئن نفسه إلى على ، ولا إلى النصح الذى أولاه إياه . . . إن

سداً هائلا من سوء الظن وقف بين الرجلين ، وخاطراً بغيضاً لقنه الشيخ افسد عليه أمره ولطخ صـــورة صاحبه القديم بالاتهام . ولقد كان عثمان بتكوينه النفسي وتقدم سنه حقيقاً بأن يميل عن عقله لظنته ، وأن يجنح إلى الوشايات التي لفقها آله ، وأن يجمح وإياهم في الخشية من علي والاضطغان عليه . فلقد كان الواشي والسامع كلاهما من فئة أتاها زمنها بخير حسبت أنها عليه محسودة . وكان ذلك الموشى به من أخرى غمطها الزمن حقها حتى حسب أنها موتورة . وكان هذا إجماع الرأى الذى آمن به الخليفة ودفعه نسبه الأموى قبل أى عامل سواه إلى الإيمان به . . لـكنه لم تطب نفسه لأسباب الخلاف التي عرضها عليــه علي ، ، فآثر أن يستكنه الحقائق من لسان هاشمي سواه عسي أن تبدر في الحديث بادرة يعرف منها الدوافع الخفية .

قال ذات يوم لابن عباس وهو يتلطف به :

« يا ابن عمى ، إنه لم يبلغنى عنك فى أمرى شيء أحبه ولا أكرهه . على أو لى ، وقد علمت أنك رأيت بعض ما رأى الناس فنمك عقلك وحلمك من أن تظهر ماأظهروا ، وقد أحببت أن تعلمنى رأيك فيما بينى وبينك فاعتذر . . » .

فما اعجب أن كان الجواب خلاصة رأى علي الذى أدلى به إليه من قبل .

قال ابن عبــاس :

ـــ يا أمير المؤمنين ، إنك قد ابتليتني بعد العافية ، وأدخلتني في الضيق بعد السعة ، ووالله إن رأيي لك أن يجل سنك ، ويعرف قدرك وسابقتك . فوالله لوددت أنك لم تفعــل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك ، فإن كان شيئاً تركاه لمــا رأيا أنه ليس لهما علمت أنه ليس لك كما لم يــكن لهما ، وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفــة أن ينال منهما مثل الذى نيل منك تركته لمــا تركاه له ، فلم يكونا احق بإكرام نفسيهما منك بإكرام نفسك . .

ـــ فما منعك أن تشير علي قبل أن أفعل ما فعلت ؟ .

ـــ وما علمي أنك تفعل ذلك قبل أن تفعل ؟ .

فصمت الشيخ . لا جديد إذن عند الرجل ولا حقيقة خافية كشف عنها حديثه ، وإنما الموقف كما كان . وأسباب الخلاف على عهدها الأول تلوح كالماء لقاطع الصحراء ، بعيداً عن حد الأفق حتى ليحار أهو سراب خداع أم هو حقاً ماء .. ولقد بدا من بعد أن عثمان أبلى قدميه فى ابتغاء السراب ! ..

أجل . أولى الشيخ ظهره للحقائق السافرة وعنى بالتماس غيرها فى نفسية على .. وظل هكذا أبداً ، مخطئاً أبداً ، ومتجنياً على هذه النفس الرائقة التى لم يكن لها من هدف إلا صلاح الأمة بصلاح عثمان . ولكن أمير المؤمنين لم ير الماء لأن أعوانه حولوا عنه نظرته ؛ وأطلقوه يبحث عنه فى سبيل مضاد .

ووسعه مرة أن يجمع أنفاسه ، وأن يهيب بشجاعة قلبه أن تحمله إلى على يحدثه بشكه فيه .. وكان هذا قد انتحى ركناً بالمسجد بعيداً عن الضوضاء ينفرد فيه بوجهه ، وقد عصب رأسه ؛ وبدا على ملامحه وهن المريض .

وقال له عثمان بصيغة ، قد لا تحمل معنى من المعانى فى غير هذا المقام ، وإن أوشكت أن تسوق الآن معنى الشماتة إلى ذهن شاك عليل :

« يا أبا الحسن . ما أدرى أشتهى موتك أم أشتهى حياتك ! .. » .

فلعل علياً تلقاه إذ ذاك بنظرة استغراب . ولكنه على أى حال لم يقل شيئاً ، بل أنصت فى هدوء إلى بقية الحديث .

واستطرد عثمان .

« .. والله لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك ، لأنى لا أجد منك خلفا . ولئن بقيت لا أعدم طاغياً يتخذك سلماً وعضداً ، ويعدك كهفاً وملجأ ، لا يمنعنى منه إلا مكانه منك ومكانك منه .. فأنا منك كالابن العاق من أبيه ، إن مات فجعه ، وإن عاش عقه .. » .

أكذلك عنى الخليفة أن لا لوم عنده لابن أبى طالب ، ولا نقمة لديه منه ؟ .. أهو حقاً قد خلت نفسه من شك فيه ، ومن موجدة لعل هذا الشك أورثه إياها ؟ .. أصفحة على مازالت نقية صافية فى نظر عثمان لم تشبها

شوائب الريب التي ولدتها الوشايات ؟ .. لولا أن الشيخ أضاف على حديثه بقية لحسبنا هذا . ولكنه ما لبث أن أفصح عما انضمت عليه جانحته ، فأردف كلماته اللينة — التي لفهـا بثوب من المجاملة رقيق شفاف — بهذا الاتهام الصارخ والتحـذير العنيف الذي كان له في النفس البريئة النقية وقع أشد من ضربة سيف الاتهام .. قال :

« .. إما سلم فنسالم ، وإما حرب فنحـارب . ولا تجعلني بين السماء والأرض .. إنك والله إن قتلتني لا تجد مني خلفا ، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً .. ولن يلي أمر هذه الأمة بادىء فتنة .. » .

وأطبق الصمت الثقيل على الرجلين . لفترة بدت دهراً كاملا لكليهما ، ظل علي يرمق صاحبه في سكون . في جبينه بوادر عبسة أخـذت تتجمع كما تتجمع سحائب عاصفة في يوم شات . وفي نظرات عينيه التي ارهقهـا التعب بدا لهب هائج سعره الغضب ، وفي صدره الضخم اضطرب قلبه حتى لأوشك أن يقفز منه .. هيئته توحي بثورة مجتاحـه . وكيانه العليل العاني انقلب قوة وفتوة . وهيكله الراكد الهامد مشى فيه تحفز ليث .. ولكن هذا كله كان لفترة ، فترة لا تكاد تحسب بالدقائق وإن لاحت دهراً كاملا في حساب التوجس والانتظار . ثم مسحت يد السكون ثانية عليه ، وعاد الهدوء يشمله . وانطفأت شعلة النار من ناظريه وتبعتها لمعة نور .. بدا الآن وديعاً كما كان ، رائق النظرة ، تكاد أن تفيض كلماته بالرقة لهـذا الشيخ التائه عن الحقيقة ، وتمتلىء رنة حديثه بالرثاء له وهو يقول :

« . . إن فيما تكلمت به لجواباً ، ولكني عن جوابك مشغول بوجعي . فأنا أقول كما قال العبد الصالح : (فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) .. » .

وبهت عثمان . وتمتم مروان على الأثر بكلمات . ولكن علياً آثر أن يغادر المكان . . . لا جـدوى بعد من وراء الجواب والعتاب . . لا نهاية لهـذا الأمر كله وقد بلغ أضطغان النفوس عليه غايته . وإنما الجدوى في

البعد عن ميدان هـذا الصراع وفى النأى بنفسه عن المد والجزر اللذين يثيرهما دائماً عثمان والناس • لعله إن غاب خفت اللغط عنه ووقف السعى إليه •• إنه ليعلم أن الأمة وثقت به ولن ترضى لها بلسان ناطق بشكاواها إلاه • ولـكن غيابه قد يخفف من خلافها نوعاً ، ومن تذمرها نوعاً ، أو فى القليل سيقهرها على أن تضم جوانحهـا على مشاعرها وتصبر زمناً على المظالم • وإنه ليعلم أن ضميره المرهف لم يألف الصبر على حيف • وأن قلبه المشغول بالتماس الـكمال سيزيد من همه صمت لسانه عن المناداة بالعـدالة • ولـكن بعده عن المدينة قد يرى عثمان الحال على حقيقتها فيجنح إلى إرضاء الناس •

وكذلك خلف على داره • وخلف جوار محمد وهو حزين مقهور • ولقد كان انصرافه عن البلدة عبثاً مرهقاً لأعصابه ، غير أن مكثه ليس خيراً منه • فليس اتهام عثمان بأول ماسمع ولا نما إلى سمعه ، وليس بآخر مافى جعبة الاتهام أيضاً •• وانطواؤه ببعض ميـاهه خارج المدينة فيه إخلاد إلى السكينة نفسه الآن أحوج إليه ..

ومع ذلك فهـل نعم بهذا الهدوء طويلا ؟ • لـكأنه رجل ولد والتعب فى زمان ومكان •• فلم يفز مطلقاً بالقرار ، ولم يعرف مطلقاً راحة الجسم أو راحة البال • بل مضت حياته كلها من بعد حلقات متواترة من الحركة الدائبة والـكفاح المرير •• حتى فى خلوته تلك كان أيضاً نهباً بين الرعية وبين الأمير ، لاتمضى أيام ثم يجيئه وفد يخرجونه ليكلم عثمان ، ثم لاتمضى اخر حتى يأتيه رسـول ليفض أناساً عن دار عثمان • وهو بينهم وبين خليفتهم ماض أبداً بالشكاية والوعيد ، والشكايات دائماً بلا نهاية • والوعود دائماً بلا قضاء • وإنه بعد هذا اللوم من كلا الفريقين كأنه يملك وحده أن يكم الأفواه أو يحقق الشكاة ! ••

ثم جرى الزمن جريه ، وأقبلت الساعة الرهيبة التى جهد الرجل منفردا لردها عن الإسلام ، وبذل من لسانه وقلبه وأعصابه ماملك حتى لا تصبح أمته.. ولـكن جهوده راحت مع الريح ، وما هى إلا أيام قلائل ، ثقيلة كأعوام ، حتى ينطلق سيل الأحداث، قاسياً رهيباً ، يقتلع مايعترض طريقه من سدود وحدود.

حصاد الفتنة

١

إنها ليلة فى الشتاء قارة ، خاصمتها الرياح ، ومشى البرد فى ركبها السارى تحت عين النجم . كانت باهتة الظلمة وإن أوغل الزمن بالمساء ، لكأن لون الترى انعكس على صفحة الأفق السوداء فأكسبها لوناً ، وكأن السماء تبسم من عل للرمال الوسنى ولكنها بسمة لا تحمل خفة الكواكب الزهر ، فيها صفرة وفيها مرارة ، ليست تفىء البهجة وإن غدت بلمحة نور ... وكان السكون على الأرض كالسلام وإن أوحى إلى النفس أحياناً التوجس . مهيب تارة وتارة رهيب .

صفاء كأنه غيوم ، وهدوء كأنه مرسوم .. الجفون مثقلة على حذر ، والقلوب منطوية على اضطراب .. والقلق يكاد أن يشيع فى الجو كهذه الحبات السافية من الرمل كلما حركتها نسمة فارقها النوم . إن شيئاً مجهولا يزحف مع الظلام ، خافت النأمة كأنه حية ، لا ينى يسرى مع الليل إلى الصدور فيلمس الأفئدة بأصابع مثلوجة . إن هاتفاً يكاد أن يهمس فى آذان القوم ، الرقود منهم والأيقاظ ، له فى أسماعهم رنة نذير . والأولى أغمضوا العيون دونه عاشوا به فى كابوس ، والأولى انتبهوا باتوا منه كمن جاس بطلل ، فريسة لخوف خفى لا يعرفون مأتاه .

ليلة صفوها طلاء ، وحشوها بلاء .. قضاها عثمان على هم ، وقضتها معه نخبة أعوانه وخلاصة مشيريه وعمت خشيتها دار الإمارة كلها والمدينة من بعد . إنه حدث ليس كمثله حدث ، وفتنة توشك ألا تكون بعدها فتنة . ليكاد الناس يؤمنون أنها النهاية ، ويكاد الأمير أن يوقن أنها المصير، عند ما نزل به رسول ابن أبى سرح منذ زمن قريب ، لم يحسب الشيخ أن الخطر بهذه القربة .. لم يسىء أبداً الظن فى الناس إلى هذا الحد .. لم يوف به حدسه على مثل هذا التدبير الخطير ، كان دائماً رجلا سمحاً ، رحيب القلب ، نفسه

لم تعرف السواد ، فظن الناس على شا كلته .. ولكنهم بدوا الليلة من معدن مغاير ، طلب العدالة وحده ليس غايتهم ، بل الثأر .. منه هو جاءوا يطلبون القصاص ! ..

وكان الفجر يوشك أن يسفر والرجل جالس يفكر .. إن عماله حقاً لم ينصروه .. إنهم قصروا فى أداء واجبهم فأساءوا إليه بهذا التقصير وإن تمنوا نصره . خانوه . وهل التقصير هكذا إلا خيانة ؟ . قد كانوا جميعا أثيرين عنده ، رفعهم على هام الناس ، وقدمهم حين أخر من عداهم من خيرة المسلمين ، وكانت له فيهم ثقة تامة لا يشوبها شك ، وبقدرتهم إيمان راسخ عميق ، وبحذقهم فى سياسة شؤون الدولة يقين ثابت ، فليته علم قبل اليوم أنه كان مخدوعا فيهم فنظر إليهم كنظرة الأمة ، لو أنهساير الشعور العام نحوهم لكان نحاهم عن مقاعدهم ولكان جنب نفسه هذه الأزمة ، ولكنه ظل متعلقا بهم أبداً ، رابطا مصيره بمصايرهم ... وها هو يرى الآن كيف كانوا أكفاء ! .

أثمة حاكم ، يقدر تبعته ويعلم واجبه حق علمه ، يعرف أن نفراً من رعاياه أرادوا شراً برئيس الدولة ثم لايهم بهم ويزجرهم عنه ؟ . عبد الله ابن أبى سرح كان ذلكم الحاكم ، علم أن قوما من المصريين ممن عرفوا بشدة العداء لعثمان دبروا أمرهم فيما بينهم على شر مبيت فسكت عنهم ، كل ما فعله أن أرسل من لدنه رسولا للخليفة يخبره بنبأهم ، ويقول إنهم أظهروا الرغبة فى الحج والعمرة ، ولم يكونوا بضعة نفر يستطاع أن يؤمن جانبهم وإنما كانوا عدة مئات .

وخرج الثوار من مصر بجموعهم الجيشة ، ومشى فى ركابهم زعيم خطير لهم يشيعهم حتى عجرود . . لقد كان سير هذا الزعيم وإياهم خير كاشف عن الغرض الذى اضمروه ، فلم يكن مجهولا عداؤه لعثمان . ولا حقده البالغ عليه وإن كان قريبه وولى نعمته ، ولكن ابن أبى سرح حاكم لا يعرف تبعته ، ولا يقدر عظم المهمة الملقاة فى يديه ، وكان فيما يبدو واهن العزم

شديد التردد . ولو أنه كان فى شك من المهمة التى أرادوا الاضطلاع بها لـكان شكه وحده موجباً لحـذره منهم وتحوطه للأمر قدر وسعه ؛ وللزمه أن يقطع شكه فيهم بيقين ثابت ما دام قد عرفهم من أعداء سيده . ولـكنه كان شديد التردد ، يضطرب عند النوازل وتعوزه القدرة على الحسم .

وكذلك خرج أولئك وأكثرهم من السبأية ، تحت أنفه وعينه ، ومضى فى ركابهم محمد بن أبى حذيفة حتى ودعهم بعجرود ، ومضت جموعهم المائجة صوب الجزيرة كالسيل المنحدر . . أما ابن أبى سرح ، فقد كان يعلم أنه مامن شىء يعصم عثمان عنهم لو أنهم أرادوه . . ليس هناك جيش يحميه ، ولا أعوان أعزاء الجانب يحيطون به عند الخطر ، وليس له جدار منيع بمقامه فى المدينة لأن العبدان والموالى فيها ينقمون منه ومع ذلك فحاكم مصر حسب أنه بلغ الحـكمة كلها حين أرسـل إلى الخليفة يعلمه بالأمر . . وخرج رسوله فى أثر القوم ، واستبق دونهم الطريق إلى المدينة يركب البيد إحدى عشرة ليلة طويلة فى الشتاء ، لا لشىء إلا ليحمل عنه كتابا إلى سيده منتهى ما فيه :

« إن ابن عديس وأصحابه وجهوا نحوه ، وقدخرجوا وهم يظهرون العمرة ، وشيعهم محمد بن أبى حذيفة حتى عجرود » .

وتوجس عثمان ، واضطربت نفسه ، فقد وضح أمامه الأمر كله ، ولم يملك إلا أن قال حين جاءه الرسول :

« يريدون بزعمهم العمرة ؟ . والله ما أراهم يريدونها . . ولـكن الناس قد دخـــل بهم ، وأسرعوا إلى الفتنة ، وطال عليهم عمرى . . أما والله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمرى كان طال عليهم مكان كل يوم بسنة ، مما يرون من الدماء المسفوكة »

ولعله عجب من هذا الجهد الأبتر الذى تكلفه ابن أبى سرح حيال أولئك الخارجين ، فراح يتناول الأمر بيديه ، ويبادره بالعـــلاج الذى وسعه . . . بعث إلى من بمكة يحـذرهم الفتنة التى حسب المصريين يوشـكون أن يشوها

فيهم . ثم ورد رسول عامل مصر إليها يأمر واليها أن يتعقب الثائرين .

ولكنها مبادرة كان أوانها قد فات . لقيت تدبيراً ضخماً وخطة محكمة ، فلم يذهب المصريون إلى مكة . ولم يستطع ابن أبي سرح رغم مسارعته أن يلحق بهم في الطريق ليردهم عما أرادوه لو أنه شاء ، بل هو في الحق لم يكن قد تهيأ لملاقاتهم بعدة تخضعهم . وكان من سوء إدراكه للأمور حتى بدا كأن قد خرج إلى نزهة ! . . لو أنه تلقى المسألة باحتفال وجد لدبر الأمر قبل خروجه ، ولأعد قوة صحبته يستعين بها على رد جموع الثائرين أو مناهضتهم في المدينة إذا سبقوه إلى الخليفة ، ولكنه نسي في هذا الموطن الجدير بالتبصرة والحكمة أنه كان ذات يوم رجل حرب عليما بما يتطلبه الكفاح والجلاد . ومضى في سبيله لا يتعرف مواطىء قدميه ولا ما هو مقبل عليه . . . فلما كان بأيلة فجأته أخبار مروعة : جاءه من مصر نبأ بأن محمد ابن أبي حذيفة قد غلب على البلد واستجاب الناس له . وجاءه من المدينة نبأ بأن الثوار قد حصروا فيها عثمان . وأشكل عليه الأمر . وحار أشد حيرة وقد نازع همه على الخليفة همه على المنصب المضيع . . . فإذا بلغ به الأمر حد الموازنة والاختيار فإنه اختار أن يرتد ثانية إلى مقر إمارته دون الوقوف إلى جوار عثمان ساعة المحنة ! . .

نزل الثائرون قرب المدينة على مبعدة قليل منها ، ذلك اليوم في أعقاب الشتاء . ولم يكونوا زمر المصريين وحدهم ، بل كانوا أخلاطاً منهم ومن البصرة والكوفة ألفت بينهم وحدة الغاية ، وجمعتهم دقة التدبير وحسن التأهب للأمر الذي هم بسبيله . واضطربت بخبرهم دار الإمارة . ووجفت قلوب فئة من أهل المدينة الذين طالت عليهم عهود الدعة والسكينة وبعدت عن نواظرهم عهود الصراع . ولم يأمنوا أن يقعدوا عزلا خشية أن يحدث ما يفاجأهم ، فراحوا يلبسون السلاح ويتخذون الأهبة لحماية أنفسهم إذا حزب الأمر ... هذه فترة لم يمر مثلها بالبلدة منذ أيام أبي بكر حين أحاطت بها جموع مانعي الزكاة . لم تكن مهيأة إذ ذاك للدفاع عن نفسها بعد خروج جيش أسامة

للشام . وكذلك هي الآن . ليست بها حامية . ولا للخليفة قوة حرس خاصة كما استحدث بعض عماله في الأقاليم .

وضرب النازلون خياماً على حدود المدينة : ثلاثة معسكرات قريب بعضها من بعض ، لا تفصل بينها إلا مسيرة ساعات . في المروة نزل أهل البصرة ، وفي الأعوص أهل الكوفة ، وفي ذي خشب عسكر المصريون الذين كانت لهم الكثرة وزعامة قوى الثوار . وتلبثوا جميعاً قليلا يتشاورون في الخطوة التي يجدر أن يتخذوها بعد ... كرهوا أن يبدأوا أعمالهم بالعدوان والعنف ، أو يدخلوا البلدة على أهلها عنوة وفيها أزواج النبي وخاصته وأهل بيته ، وآثروا أن يستأذنوا حتى يقابلهم الناس بالعطف والتقدير . . . هم في عمومهم لم تكن نية إيذاء الشيخ تعيش في خواطرهم وإن لاح أنها توارت في بضعة رؤوس الكبار لهم حبسوها لحين فرصة . إنما أقبلوا ولهم هدف قوامه حمل الخليفة هذه المرة على الرضوخ لرغباتهم والنزول عند مشيئتهم . الوعود اليوم أصبحت لاتلقى لديهم السمع بعد أن ألفوها دائماً بلا قضاء . بل أيسوا ونفضوا منها الأكف فجاءوا وفي نيتهم أن يقسروا الشيخ على النزوع عما كان منه أو يعزلوه . ووطدوا العزم على البقاء لا يبرحون حتى تأتيهم منه توبة يتبعها تحقيق مطالبهم وقدروا أن يستجيب عثمان لهم حين تبدو له القوى التي صفوها له دون أن يطلقوها عليه ...

ومع ذلك فلم يكونوا مجمعي رأيهم على رجل واحد يولونه أميراً على المؤمنين إن دعت الحال إلى عزل عثمان . بل كانت أهواؤهم شتى ، تفرقت تظاهر ثلاثة من أصحاب رسول الله هم خير بقية أهل الشورى وأول من تتجه إليهم الأبصار عند الاختيار ... ولقد رنت إليهم أنظار الثائرين وانطلقت من معسكراتهم على البعد ترمقهم بالإعجاب والتأييد . هوى البصرة مع طلحة ، وهوى الكوفة مع الزبير ، وعلى على التفت قلوب سكان النيل ...

ولم يكن أحد من الثوار قد دخل المدينة ، ولكن الأخبار توارت

فيها بأن القوم قاتلو عثمان . ولم تكن ثمة حركة تشي بالفتنة المرقوبة ، ولكن الناس تهيأوا لساعة الصرع أو لساعة الصراع . وكانت الرهبة تملأ الجو وتهيمن عليه . وكانت النفوس نهباً فى أيدى قلق الانتظار ، والقلوب تأكلها اللهفة وتكاد أن تسبق الزمن إلى الغد المجهول عسى أن يسفر لها عما يخفيه ...

ثم مضى رسول والليل ، ترك ذا خشب خلفه وسار قدماً إلى دار على . وكانت إذ ذاك جامدة ، يلفها من جوانبها هدوء أقوى من الصمت . وكانت الظلمة سابغة ، بدت لفرط كثافتها كأنها فراغ . وكانت الريح ساكنة سكون الرمل ، وانية لا تستطيع أن تنقل نأمة فى تلك الليلة الذاهبة فى أعقاب الشتاء ...

وبدا على لطارق الليل ، معلماً بسماته وصفاته ، تكاد بشاشته أن تنطق عنه ، وتلك الهيبة التى جللت محياه تشع سحراً يجذب إليه القلوب وإن أبقى أصحابها على قيد منه لفرط ما يحسون له من رهبة . وتكلم الرسول . وتكلم أيضاً من عساهم قد انطلقوا معه إلى هذا الكهل الذى هوت إليه الأسماع والنواظر وهفت القلوب والخواطر . فما أسرع أن تبدلت البسمة التى داعبت ثغره إلى عبسة انعقدت على جبينه . وإذا كلماته تندفع إليهم حادة صخابة . وإذا الغضب يستغرق كيانه كله فيبدو لهم بأسه . لم يكن بالثائر فيقرهم على الثورة ، ولا بالساعى إلى صولجان الحكم فيتخذهم مطية ، ولكنه طراز وحده فى الرجال . لا يقيس الأمور إلا بخلقه ، ولا يستجيب لغير نداء المثل العليا التى التزم نهجها من القدم حتى أصبح هو أكلها وأسماها مثلا . ولعله فى موقفه هذا قد تكشفت لعينيه وسائل العنف التى لا بد سيتخذها الثوار حيال عثمان ذات يوم فحرص على أن يقتل نواتها فى نفوسهم قبل أن تنمو . فما كانت الكلمة الطيبة إن نطقها فى مثل هذا المقام إلا إغراء لهم على السير فى طريقهم الشائك ...

عنف على برسول أهل مصر وهم الذين أقبلوا من ضفاف النيل يحملون

إليه تأييدهم له . وردهم عنه رداً غير جميل . وسفه موقفهم من الخليفة حين ظنوا أنهم جاءوا إلى نصير قوى يحملهم عليه ، وصاحب أولى به أن يظاهر قضيتهم التي لا تعدو في نهاية الأمر أن تكون نصراً له ... إن النصر في رأيه هو التعفف . والظفر الذى يأتيه من طريق العصيان خذلان كله وهزيمة نكراء . وما أحسبه في هذا الموطن إلا قد ذكر أمثالا له أوشك إبانها أن يجتمع في كفيه الأمر فقبض دونه يده لأنه رآه مدعاة لتفرقة شمل أمته وفتح ثغرة في صفوفها المرصوصة .

حتى هذه الرسالة السرية أباها أيضاً — هذا الكتاب الذى بعثه إليه من مصر محمد بن أبى حذيفة — رفض على أن يمسك به أو يطلع على ما فيه حينما امتدت به إليه يد الرسول ... لود طارق الليل إذ ذاك لو لم يبعثوه في مهمته . لأوشك أن يؤثر بطن الأرض على مكانه الآن أمام هذا الرجل المثالى العجيب . تجمع الدهر كله عليه في لحظة ، وغلبه الخزى حتى جرد جسمه من الحركة ... وحينما استطاع في النهاية أن يبرح موقفه ، كان كأن قد ولد من جديد . ومضت قدماه — كقدمى مولود يدرج في مهده — تصارعان موطئه . وتدأبان به ليكون بعيداً عن تلك الدار ... وكانت دهشته تفر معه — العجب من هذا الكهل الذى يأبى أن يأخذ الثمرة المشتهاة إذ قدمت إليه وغيره من الناس يجهد كل عمره ليقطفها وإن قطع من أجلها سبلا شتى مليئة بالدماء والأشلاء ! .

كان هذا الموقف لعلى ضربة قاصمة للأهواء والمطامع التى أخذت في ذلك الأوان تلعب بنفوس كثير من قادة الرأى وزعماء المسلمين . فهى سابقة لها أثرها . وخطة للعمل إزاء الثوار رسمها هو ولا يستطيع غيره من كبار الصحابة المرشحين للحكم إلا التزامها بدقة أو يثيروا على أنفسهم لغط الاتهام بالمساهمة في الفتنة . قطع على الطامعين طريقهم وحصرهم في مكان واحد لا معدى لهم عنه هو مظاهرة عثمان ومخالفة أولئك النازلين على حدود المدينة . وأصبح حتما على كل رجل منهم يرى لنفسه حقا في أن

يلى الخلافة أن يعزف عنها هـــذه المرة برغمه . . . كذلك كانت النتائج ، وكذلك وقف الزعماء موقفهم من الثوار فساروا سيرة على ، وردوا عنهم الرسل الذين جاءوهم بغرار ما جاءوا ابن أبى طالب به ، وأصبح طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ولهما موقفان إزاء أنصارهما من الـكوفة والبصرة يماثلان موقفه من المصريين .

وسمع عثمان بمـا كان من على ورســول للثوار يستأذن عليه فارتاح وهدأ خاطره . . . وأمر بالرجل فأدخل عليه ، فإذا كتاب معه يشرح له غرضهم الذى جاءوا من أجله ، قالوا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . أما بعد ، فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فالله الله ، ثم الله الله ! . . إنك على دنيا فاستتم إليها معها الآخرة . ولا تلبس نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا . . واعلم أنا والله لله نغضب ، وفى الله نرضى ، وأنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مبلجة . . . هذه مقالتنا لك وقضيتنا إليـك ، والله عذيرنا منك . . . والسلام » .

فلم يزد عثمان على أن أمر بالرسول فأخرج من الدار .

غير أن الهدوء الذى اصطنعه الشيخ لم يكن وحده كافياً لاجتياز الأزمة ، بل أن الخطر من ضيوف الضواحى وإن توقف عن الظهور هنيهة حتى يرى القوم خطوة أخرى أجدى على قضيتهم من الركون إلى الأقطاب الثلاثة ومن ترك مهمة التوجيه فى أيديهم ، هذا الخطر بدا فى لحظة لاحقة أهون شأناً ممـا ظهر من سـكان المدينة . . . كان عثمان عليماً بأحوال حاضرته وبنفوس أهليها إلى أين تميل ، يعرف أنها اليوم فى يد طوائف الموالى والعبدان والعامة التى أوغر صدرها عليه انحيازه عنها إلى الأشراف من العرب والقرشيين ، وأنها لقوى كفيلة بأن تتنمر له بعد أن زودها وقوف الثوار على أبواب البلدة بزاد

معنوى تستطيع بعده أن تظهر موجدتها على الخليفة ثم تعصف به ، وهى آمنة أن تقف لها تلك الفئة القليلة التى ما زالت تظهر العطف عليه .

تفكر عثمان هنيهة ، واستعرض الخطر أمام عينيه ثم راح يجهد لإيجاد الوسيلة التى تخرجه منه . . . لا طاقة له بقتال القوم أو أخذهم بالشدة الكفيلة بإقرار النظام وإفاءة الأمن والسلام ، إن هو توفرت له العدة والرجال فإن الجرأة لم تتوفر له . . . ولم يكن هياباً يخاف الطعان ، ولكنه كان رجلا أفسده التسامح حتى ليتحرج أن يقيم صرح أمره على دم ، وكانت الرحمة فى قلبه تسبق الحزم ، واللين يتقدم العزم .

أدار فى خاطره الأمر كله فأبى أن يتخلى عن طبيعته السمحة فيقابل الناس بالعنف الواجب فى أمثال هذه الظروف ، بل آثر أن يعطيهم من نفسه ليناً وتسامحاً ورحمة ، وأن يبذل غاية ما يستطيع طبعه من ترفق ، فلن يلقى قوائم الجيشة بأمثالها ، ولن يشهر فى وجههم عصا وإن هاجموه بعتاد الحرب وآلة الصراع .

على هذا قر رأيه ، وانتهى به التفكير إلى ضرورة فضهم عنه راضين ، ولم يكن ميسوراً أن يفوز بثقتهم فيه ، ولا بركونهم إلى كلمة يزجيها تحمل إليهم عزمه على إجابة ما يطلبون . . . إن أكداساً من الوعود القديمة تقف حائلا دون هذه الثقة ، عالماً منها برمته يفصلهم عنه . . . ولكن ساعة المحنة جديرة بأن تجلو ذهنه وترده صافياً تنعكس عليه الحقائق واضحة بغير إبهام . ولم يكن ثمة من وسيلة تؤيد وعده الجديد وتهبه قوة ينفذ بها إلى قلوب الناس إلا أن يسوقه إليهم رجل يثقون به ، له شخصية أخاذة وكلمة نفاذة إلى تلك القلوب ، ولقد نثر عثمان ذلك اليوم كنانة الرجال ، وراح يتخير من بينهم أقوامهم على المهمة وأحراهم بإنجازها على الوجه المطلوب . . . وأنسته اللحظة العصيبة هواطفه الشخصية ، ووشايات أهله ، فارتد رجلا آخر يتبلج أمامه نور الحق وهو يسرع الخطا إلى دار على متستراً بالليل .

والتقى الرجلان . . . التقى المدفوع إلى الظلم بالصاحب القديم — بالغريم الجديد المظلوم . . . وقال إذ ذاك عثمان :

« يا ابن عم . . . إنه ليس لى متركٌ . وإن قرابتى قريبة ولى حق عظيم عليك . وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم ، وهم مصبحى . وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً ، وأنهم يسمعون منك . فأنا أحب أن تركب إليهم فتردهم عنى ، فإنى لا أحب أن يدخلوا على ، فإن فى ذلك جرأة وليسمع بذلك غيرهم ... » .

فتلفت نحوه على يرمقه برهة . إن شيئاً جديداً يلوح فى وجه الشيخ . عاطفة جديدة بدت إلى جوار لهفته إلى النصرة كأنها الرغبــة المضطرمة لإنقاذ عزم يوشك أن تتحدث به عيناه ؟ . .

وقال على وهو يريد أن يستوثق منه :

— علام أردهم ؟

— على أن أصير إلى ما أشرت به على ورأيت لى ... ولست أخرج من يديك.

ولــكنها لم تــكن الأولى مع ذلك ، بل سبقتها نوايا طيبة كثيرة طالما أبداها الخليفة لشعبه ثم عدل عنها بغير ما مسوغ للعدول ... ولم يكن وعده الجديد هذا بوعده اليتيم ...

وأتاه على الأثر الرأى السافر الصريح :

— إنى قد كنت كلمتك مرة بعد مرة ، فــكل ذلك تخرج فتقول ، وتعــد ثم ترجع . وذلك كله فعل مروان وسعيد وابن عامر ومعاوية أطعتهم «وعصيتنى»

— فإنى أعصيهم وأطيعك .

وقبل على أن يركب إلى الثوار فيحدثهم ليرجعوا عن الشيخ بعد أن بانت له حرارة التوبة فى ألفــاظه . وخرج ومحمد بن مسلمة ، وطائفة من الأنصار والمهاجرين إلى ذى خشب ليحدث النــاس . وأمر الخليفة نفراً من أصحابه وأهل بيته ليصحبوه . وأمر أيضاً سعد بن أبى وقاص ليــكون رسوله إلى عمار ابن ياسر على أن ينضم عمار إلى وفد التوفيق فيــكون عوناً له بعد أن كان من

معارضيه .. بدا عثمان فى هذا حريصاً على أن يكسب إلى جانبه كل خارج عليه. ولكنه كذلك بدا متشككا كثير الريب فى أصحابه وإن كانوا من الساعين بالإصلاح بينه وبين غيرهم من مخالفيه . . . فما كاد ينطلق سعد فى مهمته حتى بعث كثير بن الصلت الكندى فى أثره ليرى كيف يكون الموقف بين الرجلين ، وليعلم فى خفية مدى إخلاص رسوله للرسالة التى وكلها إليه ، وهل هو حقاً سيحرض عماراً له أم يحرضه عليه ! . .

وجلس الرجلان يتحادثان ، ووقف كثير بنجوى عن عيونهما متجسساً يرهف السمع ... قال سعد :

— يا أبا اليقظان ، ألا تخرج فيمن يخرج ؟ . . هـذا على يخرج فقم معه واردد هؤلاء القوم عن إمامك فإنى لأحسب أنك لم تركب مركباً هو خير منه..

وتفكر عمـار برهة ، والتقطت أذنه حركة خفيفة خارج داره فارتاب فى الأمر . . . وانطلق خفيفاً إلى ثغرة الباب فإذا عين هناك ترقب فـما أسرع أن مد يده بقضيب من خـلال الثغرة ردت ذلك الجاسـوس يصرخ وهو يفر من المكان وخلفه كلمات عمار المادرة تشيعه :

— يا ابن أم قتيل ! . . أعلى تطلع وتستمع حديثى ؟ . . والله لو دريت لفقأت عينك !

ثم انثنى غاضباً إلى سعد يقول له

— والله لا أردهم عنه أبداً ...

وفسد الأمر الذى أقبل فيه ابن أبى وقاص . وضاع جهـده ، ثم لم يلق من عثمان غير الريبة والاتهام . . .

ولـكن علياً نجح فى مهمته الكبرى ، وأثمر اللقاء بينه وبين الثائرين ثمرته المرجوة . فلم يلبثوا أمام سحر حديثه أن لانوا له ، وصفت قلوبهم على الخليفة .

ولما أن تهيأ على وصحبه للعودة ، أقبل ابن مسلمة على بضعة نفر من زعماء المصريين يحذرهم الفتنة وينهاهم ثانية عن عثمان . . . قال .

— ... إن فى قتله لاختلافا عظيما ، فلا تكونوا أول من يفتحه ، ولسوف ينزع عن الخصال التى نقمتم منها عليه ، وأنا ضامن لذلك .

قالوا :

— وإن لم ينزع ؟

— فأمركم إليكم .

وقام عنهم ليلحق بوفد التوفيق العائد إلى المدينة ، فهتف به ابن عديس :

— ألا توصينا يا أبا عبد الرحمن بحاجة ؟

فالتفت إليه وقال ثانية يحضهم على الاستمساك بوعدهم الذى قطعوه لابن أبى طالب منذ قليل :

— تتق الله وحده لاشريك له ، وترد من قبلك عن إمامه فإنه قد وعدنا أن يرجع وينزع .

— إنى فاعل إن شاء الله ...

٢

قال على حين عودته لعثمان يبصره بالموقف ، ويشير عليه بالعلاج الذى يراه حائلا دون قيام فتنة جديدة بعد أن انطفأت فتنة المصريين :

— يا أمير المؤمنين .. تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ، ويشهدون عليه ، ويشهد الله على مافى قلبك من النزوع والإنابة . فإن البلاد قد تمخضت عليك فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة فتقول : يا على اركب إليهم ، ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً .. ويقدم ركب آخرون من البصرة فتقول : يا على اركب إليهم ... فإن لم أفعل رأيتنى قد قطعت رحمك واستخففت بحقك .

ثم جاء محمد بن مسلمة على الأثر فقال له هو الآخر يحذره ويبصره :

— .. الله الله ياعثمان فى نفسك ! .. إن هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون

دمك ، وأنت ترى خذلان أصحابك لك ، بل هم يقودون عدوك عليك ..

فتفكر عثمان . إن الحقـائق واضحة أمامه تحدث عن نفسها في جلاء . ولقد صـــدقه إذن على . وصدقه أيضاً ابن مسلمة ، لأن كثيراً من كبار رجال المدينة لم يمدوا له يداً معينة في ساعة المحنة كأن ضياع أمره كان أمنية تجول في نفوسهم . . وما أحسبه في هذا المقام إلا استعرض أمام عينيه كيف غاب عن نصرته اليوم طلحة والزبير وكثيرون من أعلام الإسلام لولا أن بادر ابن أبي طالب فوقف إلى جانبه ثم رد الثائرين عنه ..

وقام الشيخ إلى المسجد . أيقن الآن أن وعد اليوم ليس له ما بعده إلا القضاء . . وأن نصيحة على جـديرة بأن تجنبه كثيراً من المتاعب التي لعلها تنتظر فرصتها لتنطلق . وأن كلمات قلائل لينة كفيلة بأن تجمـع حوله ثانية قلوب أمته وتفتح في حياته السياسية صفحة نقية .. لذلك سارع يعمل بمشورة ابن أبي طالب . فوقف على المنبر يخطب الناس خطبته التي أعطاهم فيها الحق من نفسه ، ونزع تائباً عما سلف منه . . قال :

« . . إني منتني نفسي وكذبتني ، وضل عني رشدي . ولقد سمعت رسول الله يقول من زل فليتب ، ومن أخطأ فليتب ، ولا يتمادى في الهلكة ، إن من تمادى في الجور كان أبعد من الطريق .. »

ثم رفع يديه ووجهه إلى السماء ، وانطلقت عينـــاه تجودان بدمعه حتى اخضلت به لحيته وهو يتجه بالدعاء إلى الله :

« اللهم إني أتوب إليك ، اللهم إني أتوب إليك، اللهم إني أتوب إليك » .

وكان في ابتهاله حرارة ، وفي كلماته صدق ، وعلى قسمات وجهه مسحة من الطهر ساحرة أكسبتهـا الدموع رقة ودت معهـا قلوب سامعيه أن تخلف صدورهم ثم تلتف عليه . . وأجابته العيون من أنحاء المسجد . وجرى الدمع يبل كل وجه شهـده في موقفه ذاك ، وصفت النفوس للشيخ حتى نسيت كل ماسلف منه وذكرت فحسب أنه شيخ هاض جناحه وليس يرى النصرة إلا في رحاب الله..

وأردف من بعد يتم الحديث :

« أيها الناس .. مثلى قد نزع وتاب ، وأنا أول من اتعظ . أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه . فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليرونى رأيهم . فو الله لئن ردنى الحق عبداً لأستنن بسنة العبيد ، ولأذلن ذلة العبيد ، ولأكونن كالمرقوق إن ملك صبر وإن أعتق شكر . فمالى مذهب من الله إلا إليه ... أيها الناس لا يعجزن عنى خياركم أن يدنوا إلى . فو الله لأعطينكم الرضا ، ولأزيدنكم على الرضا ، ولأنحين مروان وذويه ، ولا أحتجب عنكم .. ولئن أبت يمينى لتتابعنى شمالى .. »

وتفرج عنه همه حين فرغ من مقاله . وأحس أن القلوب النافرة قد أقبلت تمنو له . ودخل منزله ذلك اليوم وهو راض عن نفسه وشعبه ، لاتكاد تشوب قلبه على الناس شائبة من ضغن أو ريبة .. ثم أمر ببابه أن يفتح حتى يدخل عليه من أراد . .

كذلك كسب الشيخ بهذه الخطبة الرقيقة كسباً جما لو عرف كيف يستعين به ، وأوشك أن يثبت له أمره . ولقد تمت بينه وبين فئة من المصريين مقابلة أرضته عنهم وأرضتهم عنه حتى لقد قال :

« ما رأيت والله وفداً فى الأرض هم خير لحوباتى من هذا الوفد الذين قدموا على .. »

وأقرهم على ما طلبوه من خلع واليهم عنهم وتولية محمد بن أبى بكر عليهم ، وإباحة العطاء مستحقيه من المقاتلة دون أهل المدينة الذين لاحق لهم فيه إلا من بقى من أولئك الشيوخ أصحاب رسول الله . وأقروا له هم أيضاً بحقه عليهم ألا يخلعوا طاعته أو يناوئوه . .

غير أن الأهواء الشخصية أبت أن تدع الريح تسير رخية طيبة . بل شاءت أن تثيرها عاصفة هوجاء مجتاحة تدمر . فما كان لأولئك النفر الذين ألفوا أن تسير الأمور فى طريق مطامعهم أن يدعوها تنحرف عن ذلك الطريق الذى لا جدوى عليهم فى غيره . . . ما كان لأولئك الذين نموا

بالسلطة أعواماً طوالا ألا يتركوا صولجانها ينفلت من أيديهم ، وأن يخلوا بين الناس وبين خليفتهم يلقونه ويلقاهم في خير ، ما دام صلاح ما بينهم لن يكون إلا على حساب تلك الأهواء . .

نظر مروان وذووه غب هدوء الحال فإذا عثمان رابح . وإذا الشعب أيضاً رابح . وإذا الخاسر وحده هو مروان وذووه . . إنهم المنبوذون اليوم من كلا الشعب والأمير . . إنهم الضحية التي توشك أن تقدم رخيصة على مذبح هذا الإصلاح ! .

وتربص الرجل الخاسر الذى أمضته مرارة الهزيمة .. تربص مروان ، الذى جزع من ضياع نفوذه وسلطانه حتى حانت له لحظة مواتية اجتمع فيها بتلك الشرذمة الجازعة كجزعه من بنى أمية ، فانطلق بمجلسهم يوسوس فى أذنى عثمان كأنه شيطان . . قال له وهو يحرص على أن يبدو فى هيئة المشير الأمين :

« ياأمير المؤمنين . . اتكلم أم أصمت ؟ »

ولكن نائلة زوج الخليفة كانت أقرب إلى شفافية النفس فى تلك الساعة ، فألهمت أن الشر كل الشر فيما سيتكلم به مروان . . لم تنتظر لحظة واحدة . ولم تدع لهذا الدساس الطامع فرصة لبث سمومه ، بل بادرت تسد عليه سبيل الكلام . . صاحت به :

« لا بل اصمت !.. لأنتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله . . إنه قد قال مقالة لا ينبغى أن ينزع عنها . . »

فثار الغضب فى جوانح مروان على هذه المرأة التى توشك أن تفسد عليه تدبيره . وأعماه حتى عن واجب التظاهر بإجلالها فى حضرة سيده وولى نعمته حتى لقد قال :

«وما أنت وذاك ؟ . . فوالله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ ! »

فلم يعجزها المنطق الذى لا يعجز فى مثل هذا الموطن أمثالها من النساء وانبرت ترد عليه .

« مهلا يا مروان عن ذكر ابى إلا بخير . أتخبر عنه وهو غائب وتكذب عليه ؟ .. أما والله لولا أن أباك عم عثمان وأنه يناله غمه لأخبرتك من أمره بما لا أكذب عليه ! .. »

وبهت الرجل . وأصابه الحصر من لسان امرأة .. على أنه ما كاد يخلو إلى الخليفة ثانية حتى راح يتهيأ للوقيعة التي فوتتها عليه نائلة .. أقبل وهو يصطنع الولاء والإخلاص ويبدو كمن يريد إزجاء الرأى الراجح السديد، فقال:

« بأبى أنت وأمى يا أمير المؤمنين .. والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أول من رضى بها وأعان عليها ، ولكنك قلت ما قلت وقد بلغ الحزام الطبيين ، وخلف السيل الزبى ، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل .. والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها ! فما زدت على أن جرأت الناس عليك .. »

فتردد عثمان . ماذا لو كان فيما بسطه صاحبه علائم كثيرة من الصواب؟..

وهمس الشيخ المتخاذل فى استحياء :

— قد كان من قولى ما كان ، والغائب لا يرد ، ولم آل إلا خيراً ..

— إن الناس قد اجتمعوا ببابك أمثال الجبال ..

— فما شأنهم ؟

— أنت دعوتهم إلى نفسك . فهذا يذكر مظلمة ، وهذا يطلب مالا ، وهذا يسأل نزع عامل . .

وسكت عنه وإن كانت نظراته ملأى بمعانى التوجيه والإيحاء ..

وقال عثمان بعد قليل :

— . . إنى أستحى أن أردهم . . فاخرج أنت إليهم فكلمهم .

وكانت هذه هى اللحظة التى ترقبها مروان ، واشتاق أن ينتهز سانحتها قبل أن تفوت فيضيع من يده كل الأمر ، ويغدو الضحية الرخيصة التى يقدمها عثمان على مذبح إرضاء رعاياه . .

خرج من الغرفة مزهواً بنصره ولو علم لعرفه نصراً أهون شأناً وأمعن في استجلاب الشر من كل هزيمة وخسران . ومضى إلى شرفة الدار يلق بنصره على الجموع التي ازدحمت بالباب كالعباب . فلما أن وسعه أن يجتر هنيهة شماتته بهم ، ويغرق فمه وملامح وجهه كلها بألوان السخرية والازدراء ، صاح بهم في جفوة وخيلاء :

« ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب ؟ . . شاهت الوجوه ! . . أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ . . أغربوا عنا ، فو الله إن رمتمونا لنمرن عليكم ما حلا ، ولنحلن بكم مالا يسركم ولا تحمدوا فيه غب رأيكم . . إرجعوا إلى منازلكم فإنا والله غير مغلوبين على ما في أيدينا . . »

وعاد وقد خلف للناس مرارة في النفوس كادت أن تتذوق طعمها الشفاه ، وحقدا على وليه سرعان ما عرف طريقه إلى الهدم وإن نجا من معوله هذا الجهول مروان ، وأصابت ضرباته القاصمة ذلك الشيخ المظلوم عثمان . . . مضى الناس عن الدار حيارى . خاب أملهم وغلبت دهشتهم كل ما سبق من إحسانهم الظن بالأمير . فما بمثل هذه السرعة يمكن أن يكون نقضه الوعود . .

ولكنهم لم يثوبوا إلى نفوسهم من الدهشة الغالبة حتى احتوتهم ثانية دهشة جديدة أزرت بكل حيرة سابقة وبكل ما تستطيع أن تتنبأ به الخواطر والظنون . فلقد صعد الشيخ إلى المنبر كأنما ليقطع عليهم الشك باليقين ، وراح يخطبهم بأسلوب مشيره وعلى السنن الذي صوره له فقال :

« أما بعد أيها الناس ، إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم . . »

فبأي لسان كان يتحدث عثمان ؟ . أتحسب أن كلماته تلك كفيلة بأن تحجب عن الناس حقائق الحال ؟ . . ولكنه في كل سني حكمه كان مقودا بيد مروان وبقي الزمام كما كان حتى وصل به إلى أسوأ ما تنتهي النهايات .

وصاح من أحد جوانب المسجد صوت مستنكر يقطع عليه الخطاب .

إنه ابن العاص يهتف به فى احتقــاد شابه الغضب لنفسه قبل الغيرة على صوالح مواطنيه :

— اتق الله يا عثمان . . . إنك ركبت أموراً وركبناها معك ، فتب إلى الله نتب . . .

فتلهب وجه الشيخ وثار به :

— وإنك ها هنا يا إبن النابغة ؟ . . قملت والله جبتك منذ تركتك من العمل ! . .

ولــكن المسألة فى عين الناس كانت قد عدت طور الخلاف على الشخصيات وأصبحت جلاداً على شأن عام يأباه عليهم عثمان . فما كادوا يلقفون كلماته حتى ضج المسجد بمن فيه ، وجاءت كلمات الإنــكار من كل جانب حتى غرق فى لجتها صوت الشيخ الواهن الضعيف .

ولغطت المدينة بما كان . وتحدثت بسقطة الخليفة وحماقة مروان . وانطلق الناس إلى على يشكون إليه فأسرع غير مصدق إلى المسجد يريد أن يستوثق . . فلقيه هناك عبد الرحمن بن الأسود . .

قال على يسأله وقد عرف أنه يعلم قصة الأمر :

— أحضرت خطبة عثمان ؟ .

— نعم

— أحضرت مقالة مروان للناس ؟ .

— نعم .

فضرب الرجل كفاً بكف وقال وهو آسف حزين :

« عيــاذ الله ! . يالمسلمين . . ! إنى إن قعدت فى بيتى قال : تركتنى وقرابتى وحقى . وإنى إن تكلمت فجــاء ما يريد لعب به مروان . . لقد صار سيقة له يسوقه حيث شاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله » .

ثم انطلق من فوره مغضباً حتى دخل على عثمان فقال له :

« أما يرضى مروان منك إلا أن يحرفك عن دينك وعقلك ؟ لأنت منه

كجمل الظعينة يقاد حيث يسار به ! والله ما مروان بذى رأى فى دينه ولا عقله ، وإنى لأراه يوردك ثم لا يصدرك . . وما أنا بعائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك . أفسدت شرفك وغلبت على رأيك » .

وخرج بغير تريث . ودخلت على الأثر نائلة ، فإذا زوجها منقبض حزين كأنما ينازعه الأسف على ما بدر منه بعد أن تبين سوء المورد الذى قاده إليه مروان ، وأيقن بالخطر الداهم الذى يوشك أن يحدق به . وقالت المرأة الوفية الذكية تدلى بالرأى الذى تعلم أنه كفيل بكشف الغمة ورفع الملمة :

« قد سمعت قول على لك ، وأنه ليس براجع إليك ، وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء » .

فألقى ببصره إلى الأرض هنيهة يفكر ، ثم رفعه فبانت لها منه نظرة مغلوب مهيض ، وهو يحدثها بصوت مازجت فيه نبرات الحيرة لهفة السؤال :

— فما أصنع يا نائلة ؟ .

— تتقى الله ، وتتبع سنة صاحبيك ، فإنك متى أطعت مروان قتلك ، وليس لمروان عند الناس قدر ، ولا هيبة ، ولا محبة. فإنما تركك الناس لمكانه . وإنما رجع عنك أهل مصر لقول على . فأرسل إليه فاستصلحه ، فإن له عند الناس قدراً ولا يعصى .

غير أن علياً كان قد بذل للناس من ماء وجهه مع وعود عثمان ما لم تعد بعده بقية لبذل . فقال للرسول الذى جاء من قبل الخليفة يطلبه :

— قل له ما أنا بداخل ولا عائد ! .

وكأنما كان لمروان عيون بين الشيخ وزوجه تنقل له ما يتساران به . . مالبث هذا الشيطان أن أسرع إلى الخليفة خشية أن يكون فى استصلاح على ضياع أمره ، فقال له :

— يا أمير المؤمنين . . إن نائلة بنت الفرافصة . . .

فلم يصبر عليه عثمان فى هذه المرة ، بل ثار به يقاطعه وقد أيقن من سوء نيته :

— لا تذكرنها بحرف فأسوىء لك وجهك ! ... إنها والله أنصح لى منك ...

على أن نتيجة اللقاء بين على وبين الرسول قد خيبت أمله . وأوشكت أن تذهب بالبقية الباقية التى مازالت تتعلق بها نفسه . وسكت الشيخ على هم . وطوى فى قلبه مرارته . وتلبث مضطرباً لا يدرى أين ينشد النصرة ولا النصيحة الرشيدة ، وهذا ابن أبى طالب قد أدار له ظهره . حتى إذا دخل الليل ، ونشر سواده على الكون كالستار ، رأى بقية من أمل تلمع فى أفقه . فما يستطيع أن يوقن أن علياً يخذله أو يتنكر له .. وانطلق فى هدأة المساء يقطع دروب المدينة ، ويسير فيها حائراً متستراً بالظلمة . وأشرف من بعد على الدار المنشودة . على الجبهة التى لا ريب تنضم على دواء دائه . طرق الباب ودخل على استحياء .

واستقبله على هناك بما يجمل به وإن بانت على محياه آثار غضبته الأولى عليه. وراح عثمان يبسط له الموقف ويلق بعذره ، ويحاول جاهداً أن يستهديه وهو لا يكف من بعد عن بذل الوعد تلو الوعد ...

ونظر ملياً إليه على . بدا كأن لا جدوى من وراء نصحه فليس الرجل بسيد نفسه . ولا قضاء لوعد يسوقه لأنه لم يعد يملك القضاء . إنما لسانه وحده هو الطليق ثم على فكره وعلى يديه رقباء ! .. وقال أبو الحسن أخيراً وهو لا يستطيع أن يخدعه :

« أبعد ما تكلمت على منبر رسول الله ، وأعطيت من نفسك ثم دخلت بيتك نخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك ؟ » .

وبانت عزمة التصميم فى وجهه . وبدا للشيخ أنه اليوم أمام قرار حاسم لا مرد له . وازدحمت فى نفسه همومه . وجاورتها أيضاً شكوكه وريبه وهو يذكر ما كان يحدثه به أهله عن على : « لو شاء لما كلمك أحد » ... ولكنه الآن لا يشاء ! ... وحضرته أيضاً مواقفه منه ، وشدته عليه كلما استهداه . لكأن كلمات مروان هذه صدقت فيه :

« هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسلفه وابن عمه . . . فما ظنك بما غاب عنك عنه ؟ . . »

وأوسعت له الذكرى فى الاسترابة . وأحس بقلبه تقبضه يد قاسية مدها خذلانه . فقام عنه متهافتاً يقول :

« خذلتنى يا أبا الحسن وجرأت الناس على » .

فالعجب له ! . . لا يزال دم خطيئته على كفه ثم يلقى بوزرها على كاهل سواه . . . وأجاب على وهو يشيعه إلى الباب :

« والله إنى لأكثر الناس دفعاً عنك ، ولكنى كلما جئتك بشىء أظنه لك رضا ، جاء مروان بغيره فسمعت قوله وتركت قولى . . . »

فلم ينبس الشيخ ، بل مضى مطرقاً بلا كلام . وغاب هيكله الضاوى عن عينى ابن أبى طالب . ولكنى أحسب تلك العينين قد غامتا برهة وهما تنظران خلفه فى جوف الليل . . .

٣

اضطربت خواطر أهل المدينة ، وقلق بالهم ، وملك نفوسهم يأس جامح من إصلاح خليفتهم بعد ما سمعوا منه ومن صاحبه مروان . ثم لعلهم أوشكوا أن يروا بعيون الخيال بوادر العاصفة التى همت أن تتجمع فى أفق البلدة .

ولم يكونوا يأسون على مصير الشيخ . ولا مالت نفوسهم إلى الرثاء له . لو أنا عنينا بإحصاء محبيه إذ ذاك لما جاوزوا عدة الأصابع . ثم لنحسبهم بضعة من الخاصة لم يربط بينهم وبينه وفاء بل استعبدتهم له الهبات والأفياء . . أما الإجماع فقد انطوت قلوبهم على النقمة منه . لعلهم اقتنعوا اليوم بضرورة مخالفة هذا الخليفة الذى لاح دائماً كالحريص على إغضاب شعبه لحساب أهله . . لعلهم رأوا صلاح الحال فى تنحيته عن الطريق ليستقيم شأن أمته . .

لعلهم جنحوا لأهواء لهم تحقيقها رهن بالخلاص منه . . على أى حال ضمت البلدة زمراً من كل أولئك وهؤلاء تحالفوا عليه .

ولم تخل أيضاً من عيون لأصحاب الثورة بثوها عسى أن تنقل لهم ما يجد بها من حركات بين حين وحين . فما نزل عثمان عن المنبر بعد أن نقض عهده حتى انطلق جار له إلى القوم ، وهو عمرو بن حزم أحد رجال الأنصار . ذهب ليخبرهم بما كان من عثمان . فما انقضت أيام حتى جاء النبأ بأن المصريين عادوا ثانية إلى ذى خشب وبعضهم بالسويداء .

أفكان أولئك الثوار قد ارتدوا حقاً عن ضواحى المدينة وركبوا الطريق إلى بلادهم بعد حديث على وابن مسلمة ، أم هم يا ترى تلبثوا بمكان قريب حتى يعلموا ما يكون من أمر عثمان ؟ . . . أغلب الظن أنهم ، وقد فقدوا الثقة فى وعوده ، انتظروا ببعض الطريق حتى يأتيهم من ينبئهم بحقيقة الحال . فإما وفاء من الشيخ وصدق توبة فترحل جموعهم ، وإما نقض كما عودهم فتكر إليه .

وريع عثمان . واختلط عليه أمره . وألقى ببصره على أصحابه وقد أوشك الخطر أن يحدق به فما وسعه أن يرسل ثانية إلى على بعد ما سلف منه فى حقه . بل حسب الخير عند محمد بن مسلمة ، فأرسل إليه عساه أن يكون أرفق به وأحنى عليه .

قال له :

— يا أبا عبد الرحمن ، هؤلاء القوم قد رجعوا ، فما الرأى ؟

فقلب ابن مسلمة كفيه حيرة وأجاب :

— والله ما أدرى . إلا إنى أظنهم لم يرجعوا لخير ! .

— فارجع إليهم فارددهم .

فهتف الرجل مستنكراً :

— لا والله ، ما أنا بفاعل ! .

— ولم يا أبا عبد الرحمن ؟ .

— لأنى ضمنت لهم أموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف واحد منها . فلا والله ، لا أكذب الله فى سنة واحدة مرتين !.

فسدت أمامه جميع المسالك أو كادت بعد أن أبى عليه هذا الرجل مطلبه . ليس له من سبيل إلى آخر غيره من أصحاب رسول الله . . . فلم ؟ . . وكيف لم يدر بخاطره أن يلجأ إلى سعد ؟ ٠٠ أما زالت نفسه تحمل الشكوك منه ؟٠٠ وأين ذهب عنه طلحة بن عبيدالله ؟٠٠٠ وفيم سكوته عن طلب النصرة على يد الزبير ؟ ٠ ٠ كلما أطلق المرء لتساؤله العنان ارتد به التساؤل ثانية إلى نقطة البداءة ، ووقف حسيراً لا يستطيع أن يرى لهذا كله إلا معنى واحداً ليس له سواه هو أن الشيخ أيقن أن النصرة لا تأتيه من هذا الاتجاه ! ٠ ٠

واستعصى الحل على ذهنه المكدود . وزاد من متاعبه أن أهل المدينة أنفسهم لم يترفقوا به فى هذه المحنة النازلة . فقد جاءه من لدنهم كتاب يحتجون به عليه ، ويقسمون فيه ليقتلنه أو يعطيهم ما يلزمه من حق ٠ ٠ ٠ بدوا كأن قد وجدوا ظهيراً لهم عليه بعد عودة الثوار .

وجمع الشيخ مشيريه من أهله وقد عز أن يجد فى غيرهم المشير ، وقال لهم عسى أن يجيئوه بالنصيحة :

— قد صنع القوم ما قد رأيتم ، فما المخرج ؟

فأجابه مروان :

— يا أمير المؤمنين ، مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب . فأعطهم ما سألوك ، وطاولهم ما طاولوك .

— إنهم لن يقبلوا التمليل ٠ وقد كان منى فى قدمتهم الأولى ما كان ٠ فتى أعطهم ذمث يسألونى الوفاء به .

— إنما بغوا عليك فلا عهد لهم ٠ ٠ ٠ فأرسل إلى على أن يردهم عنك ، ويعطيهم ما يرضيهم حتى تأتيك أمدادك . . .

فبئس النصح لا ينطوى إلا على خلف للوعد بعد خلف ! ٠ ٠ ولكنها

النفسية الأموية التي تستعين دائماً بالغدر والدهان نضحت بها عقلية مروان ! . .

وأقبل على من بعد يستجيب لدعوة الخليفة وقد علم أنه أصبح في حال توجب الدفاع عنه . . حتى إذا استقر المجلس بالرجلين قال عثمان :

— يا أبا الحسن ، إنه قد كان من الناس ما قد رأيت ، وكان مني ما قد علمت ، ولست آمنهم على قتلي ، فارددهم عني فإن لهم الله عز وجل أن أعتبهم من كل ما يكرهون ، وأن أعطيهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في ذلك سفك دمي . . »

قال له مترفقاً وهو يبصره بحقيقة الحال :

— يا أمير المؤمنين ، الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك ، ولكني أرى قوماً لا يرضون إلا بالرضى . لقد كنت أعطيتهم في قدمتهم الأولى عهداً من الله لترجعن عن جميع ما نقموا منك ، فرددتهم عنك ، ثم لم تف لهم بشيء . . فلا تغرني هذه المرة فإني معطيهم عليك الحق .

— فأعطهم يا أبا الحسن ، فوالله لأفين لهم .

وخرج ابن أبي طالب من لدنه ، فإذا طوائف من الثوار تقبل عليه بعد أن سعت تلتمسه في كل سبيل وقرأ في وجوههم علائم حنق جائح ، وفي عيونهم ومضات غضب جبار ، ولكنه لم يعن بمعرفة أسباب الفورة النفسية التي كانوا يعانونها إذ ذاك بقدر ماضاق صدره بنقضهم وعدهم له بالارتداد والرحيل .

قال مستنكراً وقد قاربوه :

— ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟

فأجابه متحدث من المصريين :

— أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا .

وسلموه الوثيقة التي عثروا عليها مع خادم للخليفة أوشك أن يجتاز بها الصحراء إلى مصر لولا أن صادفوه ، وعجب على دون أن يبدى لهم ، فهذا كتاب عثمان لعامله ، يأمره أن يقتل منهم نفرا ويحبس آخرين ،

وكانت علائم الغدر واضحة فى الكلمات . وهذا خاتم الشيخ على الكتاب ، وهــذا خادمه أيضاً بعد أن أمسكوا به قبل أن يقطع شوطه ، ويبرم لهم أسوأ مصير .

وتفكر أبو الحسن ملياً فى الأمر . . وأدار بصره بحذر فى القوم وفيمن تزاحم حولهم من الناس . . ها هنا طلحة يحدث نفرا من البصريين . . وثمة الزبير يحدث نفرا من الكوفيين . . وفى لمحة خاطفة كومض البرق قفز خاطر إلى ذهن على ، فهذه ثغرة يستطيع أن ينفذ منها شكه .

قال وهو يجيل عينه فى أنصار صاحبيه :

— وأنتم فيم جئتم ؟

فأجابوه :

— لننصر إخواننا هؤلاء ونمنعهم .

فما أسرع أن صاح بهم وهو يرمق متحدث البصريين بجانب عينه :

— وكيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل ! .

فبهتوا واستعصى عليهم أن يثبتوا لحجته ، لعلهم كانوا قد أجمعوا الرأى على الوقوف ببعض الطريق بعد أن تظاهروا أمامه أنهم تهيأوا للرحيل . . لعلهم لم يأمنوا أن يتركوا الشيخ قبل أن تبدو لهم بادرة تطمئنهم على إنقاذ وعوده . لعل بعض عيونهم بالمدينة قد علموا بأمر هــذا الكتاب وما انطوى عليه من الكيد لهم فأبلغوهم عنه فكان أن تربصوا بالرسول . . إن فرضاً من هــذه الفروض يفسر عودة القوم مجتمعين وكان كفيــلا بأن يلقى ضوءاً على القصة لولا أنهم شاءوا — لأمر من الأمور — أن تظل مجهولة التفاصيل . أما وقد رآهم على يلوذون بالصمت فلم يسعه إلا أن يقول :

— هذا والله أمر أبرم بالمدينة . .

فما زادوا على أن أجابوه فى تبرم وضيق :

— فضعوه على ماشئتم ! . . . لا حاجة لنا فى هذا الرجل ، فليعتزلنا .

ورأى منهم الجد والتصميم فراح يحاورهم ، ويعمل جاهداً ليوفق بينهم وبين الشيخ . ولعله راح يعتذر عنه بأنه مظلوم . وأن الغدو الماثل فى سطور الكتاب أولى بأن تفتضح به غير نفس عثمان . . لعله قال هذا وكثيراً مثله وهو لا يعلم أنه هو الآن مطية لغدر جديد . .

وقال لهم أخيراً وقد أنس فيهم الميل إلى الاستماع له :

« . . إنكم إنما طلبتم الحق أيها الناس ، فقد أعطيتموه . . إن عثمان منصفكم من نفسه ومن غيره ، وراجع عن جميع ما تكرهون فاقبلوا منه . . »

فأجابوا وقد لانت نفوسهم ثانية للشيخ :

« قد قبلنا . فاستوثق لنا منه فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل » .

«على ذلك لكم » .

وتم الاتفاق بين على وعثمان على أن يجيب هذا مطالب الناس ، ولا يتركها اليوم وعودا لا تساوى حروف الكلام الذى ينطق بها بل ينجزها على الفور ويخرجها إلى حياة الأفعال . . وقال عثمان يستمهله :

« يا أبا الحسن ، اضرب بينى وبينهم أجلا يكون لى فيه مهلة ، فإنى لا أقدر على رد ما كرهوا فى يوم واحد . »

« ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه ، وما غاب فأجله وصول أمرك » .

« فأجلنى فيما بالمدينة ثلاثة أيام . . »

فكتب له عهداً أجله فيه ثلاثاً على أن يرد كل مظلمة ، ويعزل كل عامل كرهوه . ثم أخذ عليه ميثاق الله أن يفى بوعده ، وأشهد عليه أناساً من الأنصار والمهاجرين . .

وكف الناس عن الخليفة . واطمأن بال المصريين فعسكروا بذى خشب ينتظرون أن تأتيهم أنباء المدينة بإنفاذ العهد . وصفت النفوس كلها ، أو هى تجردت حيناً من أضغانها واتجهت إلى المستقبل متفتحة للرجاء . ولكن فئة قليلة ظلت وحدها طاوية قلوبها على الضغن ، تشحذ همها للكيد وتود لو أسعفتها هذه المهلة القصيرة بإنفاذ خططها الغادرة . . . أولئك كانوا بطانة

عثمان وعلى رأسهم مروان مشيره وصاحب الكلمة المسموعة لديه . فلقد سل الرجل سلاح غدره ، ومضى يجيش القوى التي يستمين بها على القصاص من أولئك الذين أرادوا أن يسلبوه سلطانه . كان كل همه أن يحفظ على نفسه وأهل بيته أبهة الحكم والصولة التي حلم بها أجيالا طويلة ذووه من بني أمية. وعاونه في مهمته نفر من أهله لأن قضيته قضيتهم ، ولأنهم خشوا هم أيضاً أن تضيع هيبتهم المكتسبة من تقبض أيديهم على الصولجان .

أما الخليفة فقد ظل مغمض العينين عما يدور حوله كأن الأمر كله لا يعنيه في قليل ولا كثير . وجلس هادئاً يرقب سياسة مروان التي رسمها لفض الأزمة عنه . بل لعله كان مطمئن النفس واثقاً من خطة صاحبه أشد وثوق . أفلم يقاربهم حتى يقوى ويبذل لهم من الوعود مايسكتهم عنه ؟ ولقد وعدهم فسكنوا ، واتخذ من ابن أبي طالب مطية لهذا السكون . والرأي عنده أنهم لن يلبثوا حتى يتفرقوا عنه كما فعلوا من قبل مرات ومرات . وكان مروان في الحق رجلا لا يستطيع منصف إلا أن يشهد بحمقته إذ ذاك . فقد أوغل في الأخطاء وفي التحدي وهو يحسب القوم أهون من أن يصلوا إليه . وبدا مستصغراً لشأنهم يحمل أميره على التسويف والمطل كما يشاء . فمن عجب أن تكون هذه خطة يقره عليها عثمان مع ما انطوت عليه من الغدر ونقض ميثاق الله الذي أخذه الشيخ على نفسه . ولكنهم — فيما حدثه مروان — كانوا قوماً باغين فلا عهد لهم عليه ! !

وانقضت المهلة كما بدأت ، فلا مكروه تغير ، ولا عامل عزل ، ولا حق من حقوق الناس رد عليهم . لم تبدر بادرة من ناحية القصر تحمل الناس على إحسان الظن بما كنيه . ولغطت بالخليفة الألسن أولا بالمدينة ثم جاوز اللغط حدودها إلى منازل الثوار . وبات البناء ، الذي جهد علي دائباً حتى أقامه ، مهدداً بالانهيار . ولكن مروان ظل مطمئن القلب كما كان ، لا تختلج له جارحة ، بل لعله كان يسخر في ضميره من تلك الجموع التي أغضبها نكث الوعود ، فما لغضبها ذاك من جدوى ولا أثر في تغيير سياسته ما دام قد أعد

لها العدة وأحاط الدار بطائفة كبيرة من رقيق الخمس هياها وأحسن إعـداده بالسلاح . وإن هى — فوق هذا — إلا أيام حتى تصل الأمدات التى راحت الرسل تستمدها من البلاد .

وكان النازلون بالضواحى قد أعياهم المطل وأمضهم طول الانتظار . فما هو إلا أن حزموا أمرهم حتى هجموا البلدة بجموعهم المجيشة . وانتشروا فى نواحيها يملأونها بالتهليـــل والتـكبير ، وينادون أهلها أن كفوا أيديكم فتصبحوا آمنين . وهل كانوا بحاجة لهذا النداء وأهل المدينة من علم موقفهم من تصرف عثمان .

كذلك غدت البلدة صاخبة تمج بالجموع التى ملكها التذمر . وأشكل فيها الأمر على الناس فما يتبينون أملا فى غد مقبل أو يوم قريب ، وباتوا من سياسة خليفتهم فى ظلمة لا بصيص فيها من نور الرجاء ، ولـكن الدفعة التى تأسر عادة نفوس أصحـاب الثورات لم تأسرهم ، بل راحوا أميل إلى الهدوء والتريث . فما هجموا الشيخ الذى لعبت بهم وعوده ، ولا آذوا صاحبه الذى كان يتحين بهم الفرص للايذاء والنـكال ، وإنما حكموا العقـل فى الأمر ، ومدوا فى حبل اصطبارهم ماوسعم أن يعدوه . ومضوا إلى الرجل الذى كان دائماً الصـــلة بينهم وبين أمير المؤمنين ، وطالمـا سكن من حدتهم وسخطهم عليه . . أجـــل ، فلم يكن لهم مفزع إلا إلى على فراحوا يلاحقونه فى كل مكان ؛ ويستنجزونه أن يفى لهم بالوعود التى قطعها باسم عثمان . فما أشده موقفا لابن أبى طالب رمته به الأحـداث ، كله حرج ، لا هو به يستطيع أن يقهر هذا على الوفاء ، أو يحمل على الرضا هؤلاء ! .

ومضى الناس إلى محمد بن مسلمة يحدثونه فى الأمر وألم بهم الحديث على قصة كتاب عثمان إلى عامل مصر لينكل بهم ، فقال محمد لهم :

« وما يدريكم أن عثمان كتب بهذا ؟ »

فأجابوه مستنكرين :

« فيفتات مروان عليه بهذا ؟ . . فهذا شر . . فليخرج إذن نفسه من الأمر » .

ثم قالوا له :

« يا أبا عبد الرحمن ، انطلق معنا إليه ، فقد جئنا سعد بن أبى وقاص فأبى وقال لا أدخل فى هذا الأمر ، وجئنا غيره فقال كما قال . فانطلق معنا فقد كلمنا علياً فوعدنا إذا صلى الظهر أن يدخل عليه . . »

ووقفت جموعهم بباب عثمان فى الموعد المضروب . ودخل على وابن مسلمة على الشيخ فحدثوه :

« إن المصريين يا أمير المؤمنين بالباب ، فأذن لهم . . »

فهتف مروان كأن مرجع الأمر كله إليه :

« دعنى — جعلت فداك — أ كلمهم . . »

فما أسرع أن صاح به عثمان :

« فض الله فاك ! . . ما كلامك فى هذا الأمر ؟ . . اخرج عنى . . »

وأيقن ابن مسلمة أن الكتاب بأمر مروان لأن الغدر الذى نضح عنه هو أدنى إلى طبعه وما جبلت عليه نفسه . وأقسم الشيخ أنه ما كتب ولا علم ولا أمر ، فلما بانت لهجة الصدق فى كلامه قال على :

« فأدخلهم عليك فليسمعوا عذرك » .

فكأنما استحيي أن يواجههم وهو على ما هو فيه من النكث وقلة الوفاء بما بذله لهم من وعود ، فأجاب :

« يا أبا الحسن ، إن لى قرابة ورحما ، والله لو كنت فى هذه الحلقة لحللتها عنك . . اخرج أنت إلى القوم فكلمهم فإنهم يسمعون منك » .

فأبى هذا عليه . حسبه ما فات من بذل ماء وجهه ، فهم براضين من بعد بألف وعد ووعد . . ورضخ الشيخ أخيراً وهو كاره لمشيئة على ، فأدخل عليه الناس ، وطال بينه وبينهم النقاش فى قصة الكتاب ، وفى أحداثه ، وفى عماله ، وفى نقضه التوبة المرة بعد المرة دون أن يقرن القول بالفعل ،

وعلى وابن مسلمة لا ينى الواحـد منهما يظاهره ويؤيد جانبه مرة بعد أخرى حتى انتهى الحديث بالناس أن جنحوا إلى القهول منه .

وقالوا له :

« .. فإنا لا نعجل عليك وإن كنا قد اتهمناك ، فاخلع عنا عمالك الفساق واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا ، وأردد علينا مظالمنا » .

وأحسبهم بهـذا قد فاقوا كل مأمول ، ولـكننا لا ندرى أى يد أمسكت بلسان الشيخ فانحرفت به عن المفروض منه فى هذا المقام إلا أن يكون أحب أن يتحـدث إليهم بلسان مروان ! ..أفلم يطلب ذلك الشيطان منذ قليل أن يتحدث عنـه إلى القوم ؟ .. فـكذلك كان ، وإن نطق لسان عثمان !..

قال الشيخ الغافل وقد ركبته عزة المنصب فأنسته الحـكمة الواجبـة فى هذا المقام :

« ما أرانى إذن فى شىء إن كنت أستعمل من هويتم وأعزل من كرهتم.. الأمر إذن أمركم ! »

فبهت القوم ، وحار على وصاحبـه كيف تأتى لأمير المؤمنين أن يجىء هكذا بمنطق سقيم ، ولـكنه على أى حال المنطق الذى يفسر نـكث وعوده الـكثيرة ومطله المتواصل لمـا أخذ به نفسه . وهل يشك الآن من يحب أن يتلمس للشيخ المعـاذير فى أنه كان دائماً يقول وقد وطن نفسه على كل شىء سوى الوفاء ؟ . .

فما لبث أن أجابه ابن عديس بصوت هادىء رهيب .

« والله لتعزلن ، أو لتقتلن ! . . فانظر لنفسك أو دع ... »

ووقع هـذا الإنذار كوقع الصاعقة على نفس الصاحبين اللذين جاهدا لإنقاذ الشيخ فأبى إلا أن يحرم نفسه ثمرة الجهاد . وراحا يرمقانه عساه أن يفىء إلى الحـكمة ، ولـكنه كان أسرع من لمح عيونهمـا إلى الجواب ، فقال بعناد :

« لأن أقدم فتضرب عنق أحب إلى من أن أخلع قيصاً قمصنيه الله » .

« فلسنا إذن بمنصرفين عنك حتى نعزلك ونستبدل بك ، ولئن حال دونك من معك من قومك وذوى رحمك لقاتلناهم حتى نخلص إليك فنقتلك أو تلحق أرواحنا بالله ! . . » .

٤

تلبثوا ينتظرون أن تصل الأمداد لتكون ردءاً لهم من الناس ، فقد ساءت الأمور ، وتربص القوم بالخليفة الدوائر ، وأصبح كل يوم يمر يزيد ثغرة الخلاف بينهم وبينه .

وكانت الرسل قد مضت بكتب للشيخ إلى النواحى يستحث أهلها أن يسارعوا لنصرته ، ويكونوا عوناً له على عدوه .

قال فى كتبه هذه وهو يذكر قصة الكتاب الذى وقع فى أيدى الثوار :

« . . . إنما انتكث الشر بأهله ، وبدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب . . وازدادوا على الله جرأة حتى أغاروا علينا فى جوار رسول الله وحرمه وأرض الهجرة ، وثابت إليهم الأعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب . . فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق . . »

وأرسل إلى معاوية — ولى دمه ! يستنىء بعطفه وقوته ، ويلتمس عنده العون الذى حسب أنه لايبطىء به . . فقال :

« . . إن أهل المدينة قد كفروا ، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة ، فابعث إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول . . » .

ولكن ابن أبى سفيان كان ذا رأى آخر أمام نصرة الشيخ ، وله شأن فى البدار إليه يخالف العجلة والاسراع وإن أحس الغيلة تكاد أن تفجأ صاحبه ، وإن علم أن القتل يتربص به منذ عام !

أجل . لم يبادر صاحب الشام بالنجدة التى كانت توجبها عليه قرابته

قبل أن توجبها وظيفته . بل اصطنع الأناة بغير موجب لها إلا ما فى نفسه من غرض خفى ، وتلبث ساكناً لأنه — فيما حدثتنا الأسفار — قد كره أن يظهر مخالفة أصحاب الرسول كأنهم قهروه على هذا التريث المرذول ! . . أفكانوا إذن من القوة بحيث يخشاهم ذلك الجبار الذى عهدناه يدل عليهم بصولته ودولته ويخوفهم بعلشه كما شاء التخويف ؟ . . .

ولكنه معاوية فحسب ! ... وإذا ذكر فقد ذكرت معه التدبيرات الخفية والأغراض المشتبكة الملتوية ... أما عثمان فقد كان رجلا سليم النية شديد صفاء النفس حتى راح ثانية يستحثه ويشير فيه العطف الذى حسب ألا يلقاه عند سواه ، فبعث كرة أخرى يقول له :

« ... إن القوم طال فيهم مقامى ، واستعجلوا القدر فى . . . فياغوثاه ياغوثاه ! . . . ولا أمير عليك دونى ، فالعجل العجل يا معاوية ، وأدرك ثم أدرك ، ولا أراك تدرك . . . »

فكان الجواب أن أعد الرجل قوة أمر عليها يزيد بن أسد القسرى ، وقال يأمره وهو يتأهب بجيشه للمسير :

« إذا أتيت ذا خشب فأقم بها ، ولا تتجاوزها ، ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فإننى أنا الشاهد وأنت الغائب . . . »

فكفاه بهذا أنه كان — وإن أرسل — كأن لم يرسل ! . . فلم تدخل قواته المدينة ، ولم تنجد سيده ، ولم تفرق عنه الثوار لأنه أراد لها موقف الغريب المشاهد دون خطة الولى المجالد ! ...

وكذلك فشل تدبير الأمداد الذى علق عليه مروان كل آماله ، ودفع بعثمان إلى التهلكة فى سبيله . ومضت الأيام ثقيلة عليه وعلى سيده ، مظلمة لا يبدو فى سمائها رجاء . ومع هذا فقد ظل متشبثاً بالخيط الضئيل الذى بقى له وهو احتمال أن تصل النجدة بين حين وحين . ومضى فى غيه معصوب العين لا يحاول أن يعالج الداء بالدواء الحاضر ... وهل كان بوسعه أن يفعل وهذه جموع الناس لا تنى الآن بعد الآن تهتف بالخليفة أن يسلمها مروان ؟ ...

دون الرجل المستبد الأحمق دماء الخليفة والله ! . . . فما زال عثمان يراه جديراً بأن يضن به ويدخره ويحميه ، ولعل مروءته وحدها هى التى دفعته إلى هذا الاستمساك الخاطىء بعشير أثبتت الأحداث أنه ما من مصيبة داهمة إلا حركتها أصابعه . . .

لكم آذات أحداث هذه الفترة العصيبة عليا وأخذت منه ! . . . كلما سار تبعته الجموع تهتف له وتدعوه أن يفض هذه الأزمة الحازبة التى نالت من قدر الحاكم ومن راحة المحكوم . . . وكلما انطوى على نفسه بداره أقبلوا يخرجونه ويستحثونه أن يفرج عنهم الضائقة . ولم يكن يملك أن يفعل شيئاً ، ولكنهم لفرط ماشهدوه يسعى بينهم وبين الخليفة بالتوفيق حسبوه صاحب كلمة مسموعة لديه . أما عثمان فقد آذاه منهم التفافهم هذا بغريمه ، وحز فى نفسه أن يراه معقد الرجاء وهو ملوم محسور ، وزاد فى مرارته ما عسى أن يكون ذووه قد أوغروا به صدره على ابن أبى طالب من ألوان الوقيعة وسط الاتهام .

وقال الناس له :

« فليدفع إلينا مروان حتى نعرف كيف يأمر بقتل رجال من أصحاب رسول الله وقطع أيديهم بغير حق ، فإن كان عثمان كتب عزلناه ، وإن كان مروان كتب نظرنا فيما يكون من أمره . . . »

ولكن عثمان آثر أن يصم أذنيه دائماً عن أمثال هذا النداء ، وأحنق موقفه الناس وأثارهم فرأوا أن ينفضوا أكفهم من اللين به . حسبهم ما بذلوا له من الصبر والأناة ... وعنفوا عليه فى اللقاء والمقال ، وجروا فى سيرته بأسوأ ما تقول ألسنة ... ثم أجمعوا على أن لا يدعوه بخير ...

فلما كان ذات يوم من أيام الجمعة واقتعد المنبر ليخطبهم كدأبه ، لم يلق منهم الإصغاء الذى عودوه من قبل ، بل لغطوا ، وامتلأت عليه نواحى المسجد بالضجيج ، وأرادت طائفة أن يمنعوا العنف الذى هم يوشكون أن يضربوه فثاروا بها وأخرجوها من حرم الله ، واشتعلت الفتنة فتحاثوا

بالحصباء ، وأصيب عثمان وهو بموقفه ببعض ماتراشق به القوم فصرع وأدخل داره وهو غشيان . .

وعلم على بالنبأ — وكان قد آثر منذ مدة أن يحتجب بعيداً عن الصراع — فأسرع منى داره إلى دار عثمان . ودخل عليه يعوده ويستخبره ما كان . . قال بنبرة المطوف الملهوف .

« مالك يا أمير المؤمنين ؟.. »

فما أسرع أن ثار به بنو أمية ... وما أعجبه جزاء ما ناله من هذه الفئة التى دفع عنها كما لم تدفع هى عن نفسها قط !..

قالوا له بمنطق واحد كله موجدة واحتقاد :

« أهلكتنا يا على ، وصنعت هذا الصنيع بأمير المؤمنين . . إنا والله لئن بلغت الذى تريد لنمرن الدنيا عليك ! . . »

فأجال فيهم نظرة حيرى صوبها من بعد إلى الخليفة ، فإذا على وجهه سكون الراضى بما كان . فما كان أقل عرفانه بالجميل إذ ذاك . .

وقام على عن المجلس مغضباً ، ولم ينطق ، بل مضى لتوه إلى داره وفى نفسه مرارة . لكأن عثمان نسى هذا الجهد الجبار الذى بذله أبو الحسن ، ثم عاد قلبه سيرته الأولى من البغض له أو الريبة فيه . . كيف ياترى ينكر الشيخ اليد الطولى التى أوشكت أن تقيم ملكه لولا هذه الطغمة الحمقاء من ذويه ؟ . . أم حسب أن علياً ترك سلاحاً واحداً فى جعبته لم يسله من أجله ؟ . . أم غاب عنه أنه دافع عنه حتى خشى أن يكون قد أسخط ربه لأنه دافع عمن آثر خفر العهد ونكث الوعود ؟ . .

ومع ذلك فلا تثريب على الشيخ الغافل عما يدور حوله وهو ساكن كأن قد أغمضت عيناه . . فها هى المدينة تثور به ، وهاهم الناس يتربصون به ويتحينون كل سانحة للقصاص منه ، وهاهم أولئك أصحابه أجمعين قد سكتوا عن نصرته وقفوا من موطن الكفاح بعد الأعين المشاهدة دون الألسنة والأكف لتنضح عنه . . . ومن لم يسكت عن خير فقد تكلم

بشر ومضى ينصب من نفسه داعية للثوار ، أو قائداً لهم يسير بهم للجهاد الخليفة والنيل منه . فكثير ألبوا وأعانوا عليه ، وكثير عصفت بهم الأهواء والمطامع حين لمت لهم من بعيد شمس الإمارة . وهل فات عثمان كيف كان موقف طلحة بن عبيد الله منه ؟ .

هذا الرجل من تيم له فى الخلافة مطمع قديم يرتد إلى أيام ابن عمه أبى بكر، وهذه هى الأيام تواتيه ، والظروف الرخية عليه الشديدة على خصمه تحالفه ، وها هى الجموع تلتف به بعد أن أعجزها أن تغرى ابن أبى طالب بمقطر الصولجان .

ومع ذلك فعثمان ينسى المكروهة تأتيه من كل إنسان ، ثم يسعه أن يقابل إحسان على له بالإساءة إليه لأن بنفسه الأموية ضغناً يرتد إلى بضعة أحقاب ، ولأن أهله الأمويين يربون فى قلبه هذا الضغن ، ويتعهدونه بدسائسهم حتى يفرع عوده ويضرب إلى السماء . . ولقد سمع لهم ، وأخذ مراراً بآرائهم فأبعد علياً عن المدينة لئلا يلتف به الناس ، وأمره أن ينزل خارج المدينة بعيدا عن عواطف القوم . . . ثم لطالما بعدها أعاده ليدرقهم عنه ، ثم عاد فرده لعلهم ينسونه فلا يكون ثمة منه كبير خطر على إمارة الأمير .

ولكن الأيام وحدها كفيلة بأن تفتح عينى عثمان . . . فما استطاع الخليفة بعد يوم الحصباء أن يسير بين الناس ، ولا أن يجتمع بهم فى مكان . حتى المسجد أصبح حراماً عليه وإن كان مكثه فيه لا يزيد عن لحظات إقامة الصلاة . حرموا عليه كل موقع من مواقع المدينة ولم يبيحوه منها إلا داره . وتركوه محصوراً يكاد لا يملك من حرية المشى إلا خطوات . ولقد ثقل هذا عليه وبرح به ، ولكنه كان امرءاً مصابرا لا يعيبه التسليم بحكم الضرورات. وكان أيضاً شديد الوثوق — كما يبدو — بدهاء مروان وقدرته على حل الأنشوطة التى انعقدت بعنقه وشددت عليه الخناق ؛ فقد ظل حتى نهاية الشوط لا يفرط فى مشيره ، واستمسك به فى إصرار . وكلما مضى يوم عليه فى الحصار زادت الحلقة ضيقاً ، وزاد الثوار إمعاناً فى الضغط عليه بقدر

ما كان يزيد تأليب المؤلبين وإثارة المثيرين . وأخذت الأطماع الشخصية تلعب دورها وتأسر نفوس العامة بكل ما يستعبد النفوس الساذجة التى أضربها طول الحرمان . وكلما مرت فترة من الزمن تفتحت عينا الشيخ على صورة جديدة بغيضة من صور الأهواء التى عصفت بقلوب فئة من الخاصة ظن من قبل أنها ممتنعة على الأهواء . . . جلس الخليفة يوماً داخل بيته ومعه ضيف يناجيه ، وكان الناس كدأبهم جموعاً تلغط خارج باب الدار . فإذا عثمان يهم من مكانه واقفاً ويقول للزائر على حين غرة :

« أفلا اسمعك كلام الناس يا عبد الله ؟ »

وأمسك بيد الرجل يقوده إلى حيث لم يفصل بينهما وبين الجمهور إلا الباب . . وسرى إلى السمع حديث الناس واضحاً حيناً وحينا مبهماً مشوش الكلمات . ولكن الضجيج لم يكن يمنع الزائر أن يتبين ما أراده على تبيينه عثمان ثم يهتف كالمذعور :

« طلحة بن عبيد الله ؟ . . »

فأجابه الشيخ فى ألم بدت آثاره على وجهه كضربات سوط :

« هو والله يا عبد الله . . »

وأصغى الرجل ثانية لما يدور خارج الدار ، فإذا القوم قد استغرقهم الحديث وانتثرت زمرهم ها هنا وهناك ، كل طائفة لها رأى ولها نوع من أنواع البيان . . وسمعهم يتحاورون :

« ما تنتظرون به ؟ . . »

« بل لا تعجلوا به ، فمساه ينزع ويرجع . . . »

ثم استرسل بهم الحوار فى مصير الشيخ هكذا بين فرقة المتعجلين وفرقة المتريثين . . .

وألقى عبد الله من بعد نظره فى القوم . وراح يحدد البصر فى ناحية معلومة لا يتركها . فإذا طلحة بن عبيد الله قد انثنى إليه ابن عديس أحد زعماء ثورة المصريين فتناجيا برهة بصوت خفيض . فلما غاب طلحة عن عين الزائر كان ابن عديس قد عاد ثانية إلى أصحابه يقول :

« أيها الناس ، لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان أو يخرج من لدنه . . »

فما سمعها عثمان حتى حال لونه ، وقال وهو يرفع بصره إلى السماء :

« هذا ما أمر به طلحة ! . . اللهم اكفني طلحة فإنه حمل هؤلاء القوم وألبهم على . . والله إني لأرجو أن يكون منها صفراً ويسفك دمه ، فقد انتهك مني ما لا يحل له . . »

ولم يمض قليل وقت بعدها حتى كان هشام مولاه قد انطلق من المدينة مستخفياً قدر وسعه حتى خرج من نطاق الثوار . ومضى مسرعاً لا يستأنى إلى خيبر ؛ فبها الرجل الذي يدخر دائماً للملمات . . بها على بن أبى طالب قد اعتزل الناس حتى لا تمشى عليه ظنون عثمان ، قد خرج اليوم رسول عثمان يدعوه . .

وأسرع أبو الحسن يلبي النداء فإنها لحظة حازبة ينسى فيها كل خلاف . فما أشرف على الدار حتى هاله ما هى فيه من حصار . فلم يكن قد تركها كذلك . ولم يكن الثوار بمثل هذا الطغيان حين غادر المدينة إلى خيبر ، بل كانوا بها كأهلها وأمير المؤمنين حر الحركات حتى ليخرج إليهم ويؤمهم والناس فى الصلاة . . وأدار على فى الناس عينا تتلهب . ومضى فى بحرهم الزاخر فما وسعهم إلا أن يفتحوا الصفوف له ، وجاز حلقتهم المضروبة على الدار حتى خلص إلى عثمان .

وقال له الخليفة المغلوب يشكو ويطلب العون :

« ياأبا الحسن ، إن لى عليك حقوقا : حق الإسلام ، وحق القرابة ، وحق الصهر ، وما جعلت لى فى عنقك من العهد والميثاق . . . فو الله لو لم يكن من هذا شيء ثم كنا إنما نحن فى جاهلية لكان عاراً على بنى عبد مناف أن يبتزهم ملكهم أخو بنى تيم » .

ولم تكن الحال لتخفى على بصيرة على الذى أسرع فقال :

« أنا على ما ذكرت يا أمير المؤمنين . وسأكفيك . . »

ثم انثنى خارجاً إلى دار طلحة فلقيه قد التف به الناس واجتمعوا له حتى غص بهم المكان . . فدعاه إليه ، وقال بغير تمهيد :

« ياطلحة ، ما هذا الأمر الذى وقعت فيه وصنعت بعثمان ؟ »

فرفع الرجل حاجبه كالمستغرب ولون ثغره ببسمة دهاء ، ثم أجاب فى هدوء :

« ياأبا الحسن ، أبعد أن مس الحزام الطبيين ؟ . »

فلم يتريث على . لم ير جدوى من وراء محاورة هذا الواثق من أمره وخطره . وقام مسرعا فلقى أسامة بن زيد فصحبه ، ثم مضى وإياه إلى بيت المال . .

كانت النظرة التى ألقاها على الذين امتلأت بهم دار طلحة كفيلة بأن تكشف له عن أمور تكاد تجرى فى الخواطر مجرى اليقين . ولم يكن غراً ليشتبه عليه الأمر ، بل كان نفاذ البصيرة فى المستغلقات والمجاهيل . وكان أيضاً عليما بأولئك العامة ، عارفاً إلى أين تنزلق أقدامهم وأى الأشياء يقسرها على الانزلاق . وكان الحرمان وحده باب السر . . الحرمان المر الذى عانوه طويلا وجاهدوه طويلا ثم لم يتحرروا من قبضته بعد . وكان البذل هو مفتاح الباب . ولمن ملك المال أن تفتح له المغاليق ولا يستعصى مطلقا عليه رتاج . . .

أفايقن على إذ ذاك ان طلحة قد أوشك أن يملك أولئك العامة المحرومين ؟ . .

الرجل حقاً ثرى ، وليس مقبوض الكف ، بل هو أميل إلى إسباغ البذل والسخاء . قد فشت له فاشية من أموال اتخذ على بيوتها وخزائنها — فيما حدثتنا عائشة — مفاتيح . فهلا إذن كانت سيرته مع القوم الثوار خاضعة لجوده المعروف المأثور . .

على أى الحالات موقف القوم اليوم لا يستطيع أن يملكه غير الجود . ونفوس الكثرة الغالبة فيهم كانت أولى بأن تسارع إلى استقبال البذل بعد أن حرمت أعواما طويلة إحدى متعتى الحياة . ولم يغب هذا عن نفس على التى تعرفت نفسية الجماهير ، ولا عن ذكائه وخاطره اللماح . وأحق

بالبذل اليوم أناس حرموا أفياءهم أو انتقصت عليهم . وأنسب الساعات له . ساعة بلغ فيها التذمر من الحرمان إلى حد الثورة والجموح فى العصيان . . بهذا الخاطر مضى على إلى بيت المال ، وقال لمن حضره هناك :

« افتحوه . . »

فأرسلوا إلى خازنه . فلما وجده قد ابطأ عليه ، ضرب الباب فكسره بنفسه ، وراح يفرق ما فيه من الأموال ...

وشاع الخبر فى المدينة فأقبل الناس عليه من كل ناحية عسى أن يكون لهم فى هذه الهبات نصيب . وسمع المجتمعون ببيت طلحة فأخذوا يتسللون تباعاً حتى فرغ عليه المجلس ...

وأثمرت الخطة . وفرح عثمان أيما فرح فقد نصر على غريم قوى عنيد . وتلفت طلحة يخشى أن يفقد مكانته عند عثمان بعد أن أوشك أن يفقدها عند الناس . . . لكأنما حسب الرجل فى تلك اللحظة أن تيار الأمور قد تحول إلى غير مجراه ، وريحها جرت بما يخالف هواه ، وأراد أن يكسب إحدى الحسنيين فسارع يدخل للخليفة محاولا أن ينفى عن نفسه الظنة ، ويعتذر عما قد يساء تأويله منه ...

ولكن عثمان فى ساعة نصره المفاجئة أبى أن يلين له ، بل قال بلهجة الشامت المرور :

« أجئت تائبا ؟ .. والله ماجئت إلا مغلوباً ! .. فالله حسيبك يا طلحة .. »

٥

« لا أصلى بكم والإمام محصور ... »

هذه هى الكلمة التى ألقى بها على فى وجوه الثوار حين جاءوه يعرضون الإمامة والخليفة محصور عليه حلقة منهم حالت بينه وبين الخروج للصلاة . وهى بمغزاها بيان لرأيه فيهم ، وإنكار تام لوسيلة العنف التى ركبوها لنيل

مراميهم ... أفظننوه الرجل الذى يجنح كثلهم للعدوان ولو أريد به حق ! .
إنما دنس الذرائع منبىء عن دنس الغايات . والحق لا يستعين مطلقاً بباطل أو يكون قد خالف ذاته وأقر على نفسه بالبطلان . وهل النور والظلمة يجتمعان ؟.

كانت معنى فى خاطره قبل أن تجرى مبنى على لسانه . ما قصد بنطقها إلى دلالة الألفاظ ، ولكنها صورة من صور خلقه تنضاف فى سجله النقى إلى مثيلات ومثيلات . . . لو علموا إذ ذاك لردوها إلى أختها التى طالعهم بها عند ماجاءوه بكتاب ابن أبى حذيفة ، ولرأوها تماماً كما رأوا الأخرى ، ولأيقنوا أنهم بإزاء شخصية فريدة ديدنها سمو ، ونهجها ترفع ، وهدف حياتها كله رسم المثل العليا بمدها لكل حياة .

لم يفته أن فى الإمامة سمة سياسية قد يؤخذ عليه أنه استباحها والإمام محصور . وأنها مظهر للزعامة الرسمية قيامه بها كفيل بأن يعتبره البعض سعياً وراء تلك الزعامة . وأن قبوله إياها فى هذه الآونة أولى بأن يكون — فى الأذهان والعيون — اعترافاً خفيا بشرعية ابتزازها من الشيخ . . . فإذا سلف منه فى حق الثوار ما هو معروف من مخالفة وإنكار فقد وجب إذن أن يأبى على الفور عرضهم ويرده دون تمهل فى الإباء .

ومضى عنهم وتركهم مقهورين . . . لم يغلبهم بأسه وعدته ، بل غلبهم إباؤه وأنفته . فلقد حسبوه بحاجة إليهم فوجدوه الغنى عنهم . وجاءوه يعرضون المجد والسلطان فعلمهم أن للنفس المترفعة مجداً أخلد وسلطانا غير محدد ، دونه ما قدموه وعرضوه . ووقفت حصانة روحه ثابتة أمام زخرف الإغراء .

وكما ذهبوا من قبل يلتمسون الموافقة عند سواه فكذلك ذهبوا اليوم . ومضوا إلى طلحة بن عبيد الله يقلدونه الإمامة فقبلها فهى بلا ريب خطوة إلى الأمام ! .

وبقى عثمان قعيد داره . كأنى به نام وأسلم نفسه للأحلام ! . فلم يحرك

يدا ، ولم يفعل شيئا ، بل ظل أليف استخذائه وتسليمه ، أسيراً خاضعاً لحماقات مروان يأمل كثل أمله فى وصول الأمداد .

حتى الفرصة التى أتاحها له على حين فرق المال على العامة لم ينهزها الشيخ، بل تركها تمر دون احتفال وهى الجديرة بأن يفيد منها بعد أن هاءت بها نفوس أكثر الناس إلى الرضاء . وبقى كدأبه الأول ساكناً لا يخطو شبراً واحداً ليقترب من شعبه ، ولا ينطق بكلمة واحدة تصل ما بينه وبين هذه القوى التى أمسكت بالزمام . وغلبه دائما عناده ، وملكته كبرياؤه . وزاد من استمساكه بموقفه شعور قوى بأنه صاحب حق إلهى فى الحكم لا يملك أن يغير فيه إنسان! . أو لم يكن هو القائل للناس حين طلبوا إليه أن يعتزل الأمر :

« اتبرأ من الأمارة ! . . لأن تصلبونى أحب إلى من أن أتبرأ من أمر الله وخلافته ! . . »

وأخذت السحب الداكنة تتجمع فى الأفق فلم تعد المدينة معلمة كعهدها بالهدوء والسكينة . وصار الأمر فيها للجموع المضطربة النفوس والجوانح ، والكلمة النافذة لزعماء الثوار . حكمها عقل الثورة إن كان ثمة عقل يمسك بجماح الثورات . ثم سادتها شريعة الإرهاب حتى منع الناس غيرهم من الكلام والاجتماع . . حتى طلحة أصبح اليوم سواه بالأمس . وبدت الجماهير لا ترمقه إلا كما ترمق قناة فى أيديها إن شاءت هزتها أو شاءت تركتها معطلة حتى حين . فلقد كان رجلا — فيما يبدو — جرفه السيل ، لم يؤت القدرة على قيادة الجموع ، وكما منحوه كرامة الإمامة فى يوم فقد استطاعوا أن يسلبوه إياها فى آخر لأنهم لغير قدره منحوه ، بل ليكون هو خطوة الانتقال الوئيدة من سلطان لسلطان ، فما عادوا من بعد يحرصون على أن يؤمهم فى الصلاة بعد أن فازوا بإقراره لهم بشرعية منعها عن عثمان ، بل استوى الآن قيامه بها أو قيام سواه ، فإذا انتهوا إلى هذا فأولى بها اذن الغافقى وهو زعيم المصريين الذى دانت لهيبته طوائف أهل

البصرة والكوفة وألقت فى يديه الزمام .

عقل الثورة هو الذى كان يدبر . وشريعة الإرهاب هى التى سادت البلدة فى تلك الحقبة العصيبة من تاريخ الإسلام. أما عثمان فقد لاح كمن أعجزه الداء وأعياه أن يبادره بأى دواء. وبات لا يعرف له وسيلة يركبها سوى الإخلاد إلى السكون والإمعان فى الهدوء والركود ... لكأنما فرغت البلدة منه وفرغت أيضا من داره . لكأنما الأحداث سلبته القدم واللسان .. وأما مروان فقد ظل أسير حمقه ، كليل البصر فى العواقب والخواتيم . كان شديد الكلف بنفسه ، بالغ الأثرة ، حريصاً على سلطانه وسلطان ذويه فلم ير مطلقا أن يسارع إلى التضحية الوحيدة الكفيلة بتجنيب البلاد ويلات الانقسام ... هذه التضحية التى لم يكن يملكها سواه أباها الرجل على دينه وأمته لأن متعة النفوذ — عنده — غاية لا يعز فى سبيلها إتيان كل محظور ، ويهون دونها انتسلم البلاد وما يتبع الانقسام من وهن الإسلام .

سدر فى الغى وركب غروره ، وأبى أن يتنحى عن سلطته وإن علم تنحيه كفيلا بأن يفىء الهدوء والسلام ، وراح يصابر الزمن ما وسعه عسى أن تجيئه لحظة سعيدة بأنباء وصول الأمداد . إن أمله فيها لم يتقمد به ، وحلمه الهانىء عنها لا ينى يراوده فى اليقظة وفى المنام ، وإنه لعلى يقين من حضورها ذات يوم فيشتفى بها لنفسه ، ويقمع عدوه ، ثم يقف على أشلاء أولئك الذين أرادوا هدمه وهم لقى شائه تحت قدميه، ممزقين هامدين ، لا يستطيعون دفع بلائه ولا كبريائه.

ولكن الزمن كان عدواً له ولعثمان ، فلم تصل الأمداد ، ولم يسارع أهل النجدة بالأمصار إليه . بدا عمال الخليفة الذين علق عليهم حياته كأن قد حالفوا الثوار عليه ! ... فلقد أبطأوا ، أو هم لم يقدروا هول الخطر المحدق به حق التقدير ، أو عساهم لم يلقوا استغاثته بجد واحتفال لأنهم ظنوها أزمة كغيرها

من أزمات كثيرها لن يلبث حتى يجتازها بسلام، أو غلب عليهم ترددهم القديم المعهود فأعياهم أن يتبينوا موقفهم وما عسى يجمل بهم أن يعملوه . فإذا المرء أحسن بهم الظن فهم غير جديرين بمناصبهم ، وإذا حاسبهم فالتزم الجد فى الحساب فهم متهاونون أجرموا فى حق وليهم الشيخ ، وإذا قدمنا فى خواطرنا ما سلف من مواقفهم لما وسعنا إلا أن نراهم — كمن قبل — حريصين على ما فى أيديهم من سلطان ، يؤثرون السلامة لأنفسهم ولتلك الإمارات التى ارتفعوا بها على هام الناس .

أم هم ياترى اختاروا دور المشاهد من بعيد انتظارا لما قد تسفر عنه الأحداث ؟ .. السلامة تنادى بالموازنة بين أمر وأمر ، وبين مغامرة ومغامرة وإن كانت المغامرات لاتستهوى المعنيين بالسلامات . . . ولكن عمال عثمان قهرهم الزمن على الاختيار بين نوعى مغامرة فوجب أن يستعينوا بالحذر عند الاختيار . أعلى عثمان أم على الثوار ؟ .. أى أولئكم ياترى ينصرون — بل أى أولئكم سوف يعقد له فى نهاية الأمر لواء الانتصار ؟ . ما أحسب إلا خواطر من هذه الشاكلة طافت برؤوس ابن عامر ومعاوية وسعيد وهم يقرأون كتب عثمان . وما أراهم إلا تدبروا طويلا ، ثم ترددوا طويلا قبل أن يستقر أحدهم على حل يرضاه . ولكنى أراهم جميعا لم يسارعوا لإنقاذ الشيخ الذى حوصر عشرات الأيام وكان فى استطاعة جيوشهم أن تصل إليه فى أيام قليلات .

ثم دنت اللحظة الفاصلة التى توشك أن تحسم بين عهدين وتسير ببدء النهاية إلى النهاية .. فلقد أسرع الثوار بالأزمة إلى ذروتها ، وجردوا على الأمير أعتى سلاح ينجز الكفاح : منعوه الماء فأصبح ، وهو بداره ، كمن فى متاهة صحراء وإن كان قاطع البيد يستطيع عادة أن يعلل النفس بالسراب دون الشراب !..

سلوا على عثمان سيف العطش ، ووقفت جموعهم ببابه تحول بينه وبين من عسى تأخذهم الشفقة فيسمون إلى بل أوامه بشربة ماء . . . عذيرهم فى هذه

القسوة أن الأيام تصرمت تباعا وهو على عناده ، مسرف فيه،لا يتقدم إلى وفاق، ولا يسمع لهم وإن جأروا لديه بالنداء ، ولا تجيبهم لمطلب واحد مما طلبوا . وسعوا إليه جاهدين آنابا لنصح والملاينة ، وآنا بالعف والمخاشنة . فإذا جاءتهم الأنباء بمدطول اصطبارهم وكفهم عنه بقصة أمداد تزحف عليهم من لدن عماله، فقدرأوا إذن حقاً عليهم نحو نفوسهم ونحو مراميهم أن يراعوا ثورتهم ويتحصنوا عن أهدافها بكل سلاح .

ويعلم على فيسترجع ويأسى لحال عثمان . ويفيض به الحنق أضعافاً على الثوار ، ولكنه يفور على أصحاب رسول الله آلاف الأضعاف ، فهذه الفئة المعلمة بين الناس بالهدى والرشاد نامت عن المحنة النازلة بصاحبها وقعدت عنه ، ولم يتقدم منها واحد إلى كفاح ذلك البغى المرذول، بل لاحوا جميعاً كمن يؤثرون السكوت على تصرف الثوار عن رهبة منهم أو عن مصانعة . وهرب الكثير بأنفسهم من حلبة الصراع لتبعد الظنة عنهم . ومن لم يقم منهم بدور كأدوار هؤلاء فقد شارك أهل الثورة وركب مركبهم إن لم يكن قد ألبهم على الشيخ بزخرف الأقوال وبذل المال ...

ولكن علياً أبى عليه قلبه الكبير أن يخلى — كغيره — بين الثوار وبين الخليفة المحصور . وهاله قذر الأداة التى جردها القوم لنضاله . فما كان أى كفاح عند أبى الحسن إلا مبارزة نظيفة بين خصمين ، لاتصح بغير تعادل السلاحين . . . امتثاله لشرعة الفروسيه أملى عليه هذا ، أو قل إنها نفسه الكريمة النقية التى رسمت هكذا شريعة الفروسية . . . فلما أن رأى الثوار يجحفون ولا يلتزمون الرحمة،ويجورون فى سبيل النصر على مروءة الانسانية ، هب من فوره رجلا فرداً تظاهره مثله ويؤيده نبله ، ليناضل وحده كل هذه الآلاف .

كان يعلم أن رجال الحصار تحينوا دائماً أيام غيابه عن المدينة بخيبر أو بعاء ينبع ليشددوا حلقتهم على الأمير . ولكنه لم يكن يملك شيئا من أمر مكثه أو ذهابه ، بل هو رهين بمشيئة عثمان ، إن شاء نفاه أوشاء أبقاه . فلقد أبى الشيخ

حتى فى أحلك ساعات محنته أن ينزع أصول الشك من قلبه . وظل كمهده واجداً على على ، لا يستطيع أن يتحرر من ذلك الشعور الموروث بالنقمة منه ... لكأن مر الأعوام عجز عن استلال ما فى صدره أو إخفائه بالنسيان فى قرار سحيق . لعل شجرة الحقد لا تعرف الخريف ، بل هى مورقة أبداً ، خضراء أبدا ، تتجدد أغصانها وتخرج طلعا مع كل صباح ... أفنسى عثمان ياترى الجهود الدائبة التى بذلها على من أجله وجاوز فيها كل مأمول من ولى محالف فضلا عن غريم مخالف ؟ بدا هذا من تصرف الشيخ وعت فعاله عنه . فما زال ابن أبى طالب نفس الهاشمى القديم والمنافس الغريم . ولئن ألزمت الظروف يوما عثمان على محالفته فإنها إذن محالفة ضرورة، موقوتة بحين ... كذلك ظللت حال الخليفة نحو على بالرغم مما خبره من دأبه على صيانة حكمه المنذر بالانهيار. فإن هى إلا حال نفسية لا سلطان للشيخ عليها وليس له إلى إصلاحها سبيل . وما دمنا عرفنا إبان سطوته واستتباب أمره شديد الريبة فيه فلسنا إذن ننكر عليه ريبته . وهو فى إبان محنته وخاطره فريسة سائغة فى فم الظنون ... وكذلك راح ذهنه الكليل المكدود يراوده على النقيض والنقيض. إذا تحزبت عليه الأمور وخاف الناس على نفسه بعث إلى على فأدناه ، وإذا رآهم لانوا له وسكتوا عنه رأى فى سكونهم هذا مدى سلطان غريمه عليهم فخافه واقصاه . ثم لا ينى هكذا يدنيه ويقصيه والرجل صابر لا يبرم به ولا ينقم منه قلبه الكبير الكريم . بل يستجيب له فى النفى وفى الدعوة كليهما سواء بسواء ...

استغفره ذات مرة إلى الثوار يردهم عنه ويترضاهم له ، فلما علمهم قد فاءوا إلى السكون ، لعب الوهم بعقله وخشى مغبة افتتانهم به مادامت له عندهم هذه الكلمة المسموعة من دون الناس ... وأرسل ابن عباس يقول له :

« يا أبا الحسن ، إن أمير المؤمنين يأمرك بالخروج إلى ينبع ... »

فابتسم . ولم يزد على أن قال فى هدوء وهو يهم بالرحيل :

« ما يريد عثمان إلا أن يجعلنى جملا ناضحاً بالغرب. أقبل وأدبر !.. بعث إلى أن أخرج ، ثم بعث إلى أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث إلى أن أخرج . . . أما والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً . . . » .

ومع ذلك فلم يحمل ضغناً ، بل انطلق إلى نصرته سباقاً وقد علم أن الحصر جاوز فى الشدة كل حدود ، وأن مرد الأمر فيه لطلحة دون زعماء الثوار الذين اتخذوه ستاراً يدفع عنهم العيون والظنون ، ويضفى على حركتهم سمة الحق الجديرة بها شخصية هذا التيمى صاحب رسول الله . علم هذا كله فجاوز الجموع حتى خلص إليه ، وقال له يهيب بمروءته وأريحته :

« يا أبا محمد ، نشدتك الله إلا رددت الناس عن عثمان . . . » .

فهز الرجل رأسه بإباء ورد فى اعتداد

« لا والله . حتى تعطى بنو أمية الحق من أنفسها .. »

ولكن الساعة لم تتسع للمساومات . وإنما هى مسألة حياة حفظها رهين بأيدى اللحظات قبل الساعات . .

ولم يطل بعلى غياب ، بل أقبل على القوم من بعد تتبعه على الأثر ثلاث قرب تنضح بالماء ، فما بدت لأعين أصحاب الحصار حتى لغطوا ، وشمل الهمس شفاههم ، وملأت الدهشة نواظرهم من هذا التحدى الذى يطالعهم به ابن أبى طالب ، ولكنهم تهيبوا أن يمنعوه . ومضت أبصارهم تلتف بطلحة وتستقر على وجهه كأنها تناجيه أو تستوحيه . . .

وأقبل الرجل على على ، متمهلا كأنه يقسر نفسه على السير ، وراح يرمقه فى هدوء وسكون . وتحدث فى عينيه إباؤه على صاحبه ما جاء فيه ، ولكنه لم يقل شيئاً . وأخذ الناس يلتئمون عليهما من كل ناحية حتى ضربوا حلقة حولها ، ثم وقفت فئة متأهبة فى وجه حامل الماء تسد عليه الطريق . . .

فما أسرع أن صاح على بهم صيحة غضب واستنكار وهو يوجه حديثه إلى ذلك الزعيم :

« أدخلوا عليه الروايا أيها الناس » .

فاستخذى القوم، وانفرجت صفوفهم على كره . وأخذ الغضب من طلحة مأخذه وهو يرى القرب تدخل الدار . ولـكنه طوى فى نفسه سخطه حتى غادر على المـكان .

ولـكنها كانت مرة واحدة ، المفاجأة فيها شلت حركة الثوار وظاهرت علياً حتى أنجحت مسعاه . فلما أن انقضى الأثر الذى خلفته بنفوس القوم راحوا ثانية يحزمون أمرهم ويضيقون حلقة الحصار . . .

ثم عادت الحال إلى ما كانت عليه ، وأصبح عثمان يتلفت فلا يرى قطرة ماء بداره تبل صداه وصدى أهله وفيهم نسوة وأطفال . وأرسل كرة أخرى يستنجد بعلى . فمن عجب أن يكون رسوله إليه هو أحد أبناء الرجل الذى مهد لقتله وأعان الثوار عليه ! . . لم يكن يستطيع أن يبعث أحد مواليه لأن القوم ضيقوا على الدار ومنعوا كل خارج منها كما منعوا كل داخل إليها ، فـكان رسوله هذه المرة ابن جار له من بنى حزم ذهب عنه يطلب المعونة من على ، ثم انثنى إلى بقية الصحابة ومنهم طلحة ، فأزواج النبى ومنهن عائشة ، عسى أن يستطيع أحدهم أن يبادر إليه . .

ولـكن الحلقة كانت اليوم من حديد، وطريق الدار قد سدته كتل متراصة من الثوار لا تريم عن مواقفها . . حتى ابن أبى طالب لم تسعفه هيبته عند القوم ، بل أبوا عليه ، وحالوا دونه ودون بغيته ، ووقف يهيب بهم فلا يسمعون له ، وينصحهم فلا يرعون عنه . .

قال لهم عسى أن تنفذ كلماته إلى قلوبهم فتلين :

« يا أيها النـاس . . . إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الـكافرين . لا تقطعوا عن الرجل المـادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسق . وما تعرض لـكم هذا الرجل فبم تستحلون حصره وقتله ؟ . . » .

فما زادهم حديثه إلا عناداً ، وقالوا له :

« لا والله ولا نعمة عين ! . . . لا نتركه يأكل ولا يشرب . . . »

وكان الليل قد مضى إلا أقله ، وظلمة الغلس تلف المـكان كله فى ستار قاتم

تحجب الدار عن الأعين . وتلفت على برهة إلى ناحية بيت عثمان لعله يرى أحداً من ساكنيه فيشير إليه بأنه فشل فيما جاء فيه عسى أن يدبروا أمرهم بطريقة أو بثانية ، ولكن الظلام رد طرفه .

وتفكر هنيهة . وجب إذن أن يعلم عثمان أنه صدع بأمره وقام له ثم حيل بينه وبينه حتى لا يركن الشيخ إلى أمل وصوله ساعة بعد ساعة . وحتى لا يذهب باله إلى أنه تخاذل عنه . . . فلما أن أعياه أن يشير لأهل الدار بما أراد ، خلع عمامته ثم طوح بها إليهم لتكون مغنية عن أفصح الإشارات .

وكذلك أفلت زمام الأمر وأصبحت ثورة تنقاد كغيرها لعقل الثورات ، وزاد طغيان أصحابها بقدر زيادة الأنباء بقرب وصول الأمداد ، وعنفوا بكل مخالف وإن أتاهم بنصح أو حضهم بخير ، ولم يعودوا بعد يرعون مكانة أحد أو يجلون قدره ، بل ركبهم الغى حتى اجترأوا على أم حبيبة زوج الرسول حين أتت تريد أن تعطف قلوبهم على الشيخ المحصور ليدخلوا إليه الماء ، وضربوا بغلتها حتى ندت بها ، وأوشكت السيدة أن تتردى عن مركبها قتيلة لولا أن تلقفها بعض الناس .

بهذه الروح الجامحة وبأمعن منها فى الجموح والعصيان كانت تسير الثورة المشبوبة حتى أيقن على أن الشر النازل بات يطرق الباب ، وأن على الخليفة اليوم حقاً حيال نفسه يسبقه آخر حيال أمته ، وكلا الحقين رهين بالآخر متوقف فى البدء والنهاية عليه ، كان العلاج فى يده وحده ، فى يد هذا الشيخ العنيد الذى أبى طوال عشرات الأيام أن يأخذ بعلاج واحد يحسم سريان الداء ، ولم يكن دواء عصياً يستحيل عليه ، بل هو فى مقدوره وقيد يده ، فلو أراد الجد فى استصلاح الأمر لما أعياه أن يلتمس الخير ، ولوسعه أن يلين مرة لمشيئة الإجماع ، ولاستطاع وهو بعيد عن الخطأ كل البعد أن ينحى مروان عنه ، ويخرجه من أمره فيستقيم له الأمر . فما أحسب أحداً من الناس كان يطمع من خليفته فى أكثر من هذا الإجراء ، بل أحسبهم به جد قانعين ، وما دام الرجل

الذى كانت أصابعه تحرك أميرهم كما تشاء ، وعلى غير ما يشاءون وتشاء الأمة جمعاء قد أريد له البعد عن السياسة لغير عود ، فإنه إذن قد صلح الحال واستقر السلام . ولكن عثمان أبى عليهم مطلبهم وأوطأ رقابهم كرها صاحبه مروان ، وراح فى سبيل إبقائه يتخبط فى الوعود دون وفاء . . . أفهو يا ترى قد آمن بحسن سياسة مروان فأبى إلا إقراره ؟ . . . أم قد خجل — وهو الأريحى البر بأهله . . . أن يخذله ويقعد عن نصرته فى ساعة محنته . . أم قد أيقن أنه مظلوم تجنى عليه الناس ؟ . . لا نراه فى أى هذه الحالات قد التزم الصالح العام حين أبقاه ، لأن إجماع الرأى على عزله كان أجدر بأن يلقى عند عثمان أذناً سميعة ونفساً راضية مطيعة . وما نرى مروان إلا رجلا أعماه حبه لنفسه حتى استمسك بصالحه وإن كان دونه حتف ناصره وانقسام صفوف الإسلام .

تفكر على جاهداً فى الحل الذى يكشف الغمة عن الأمة . فما وسعه أمام عناد الشيخ إلا أن يراه فى تفريق الثوار بأية وسيلة من الوسائل عسى أن يتيح للخليفة مهلة بعد ذهابهم لإحسان التفكير ، ولم يكن يستطيع إلا أن يشير وإن كاد ليعلم أن مشورته ستكون دبر أذن فهم عثمان ، ولكنه رغم هذا رأى على نفسه حقاً نحو ضميره قبل أميره ، فهم ليسعى إليه بالرأى فى جعبته التى فرغت بعده من ذخر الآراء . . .

هم ليخرج من منفاه فاذا رسول يأتيه فينبئه باشتداد الطعن على عثمان بعد أن أبعده عن المدينة ، فقد اغتنم الزبير وطلحة كدأبهما غيابه فنشطا فى العمل ، ورجوا أن يميلا إليهما قلوب الناس . . . ثم قدم إليه الرسول كتاباً من عثمان يقول فيه :

« ... أما بعد ؛ فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين . وارتفع أمر الناس فى شأنى فوق قدره ، وزعموا أنهم لا يرضون دون دمى ، وطمع فى من لا يدفع عن نفسه .

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد كان يقال أكل السبع خير من افتراس الثعاب ... فأقبل على أولى :
فإن كنت مأكولا فكن خير آكل   وإلا فأدركني ولما أمزق »
فما شاب صفاء نفسه هذا الغمز الذى دسه عثمان فى طوايا الكلمات. بل غفره ومضى سريعاً إلى الدار وفى خاطره أن الساعة لم تعد ساعة توفيق بل ساعة جهاد وأن عثمان وقد أبى طريق الموافقة والانقياد فعليه بطريق الكفاح والجلاد ، وأن الثوار اليوم لن يسمعوا لأى كلام ولكنهم قد يذعنون للحسام وانطلق بطائفة من أهل بيته قليلة فيهم الحسن والحسين ابناه ، وعبد الله بن جعفر ربيبه وابن أخيه ، وقد اعتم بعمامة رسول الله وتقلد سيفه، وحوله وأمامه مشى أولئكم الفتية الأمجاد .

وأشرف على جموع الثوار وقد لمعت فى أكفهم النصال والحراب كأنهم فى ميدان قتال . وعلم أنهم اليوم لن يوسعوا له إلى باب الدار إلا أن يقهرهم بسيفه صاغرين ... فهجم سريعاً . وبغت بنفيره آلافهم المجيشة . وبدت الآن منه صورة صادقة لذلك الرجل الذى قال فيه رسول الله إنه جيش وحده فى سبيل الله . فما أسرع أن فرق القوم أمام هيبته وتفرقوا له . ومضى بينهم غير مدافع حتى دخل الدار ..

ولقى عثمان هناك قد أخذ منه الهم مأخذه . كئيباً محزوناً قد أثقله وقر الأحداث فراح يبين له الأمر ويهديه إلى ناحية العمل التى لم يعد له إلى سواها سبيل ..

وقال له بعد تمهيد قليل :
« يا أمير المؤمنين ، لا أرى القوم إلا قاتليك .. »
فأجاب الشيخ بتهافت واستسلام :
— حسبي الله ونعم الوكيل .
— فرنا فلنقاتل يا أمير المؤمنين .
فرفع الشيخ يديه كأنما ليحول بينه وبين ما يريد ، وقال :
— أنشد الله رجلا رأى لله حقاً وأقر أن لى عليه حقاً ألا يهريق فى

سبي ملء محجمة من دم أو يهريق دمه ..

— يا أمير المؤمنين مرنا .

وأبى عثمان . وأصر على الإباء كما أملت نفسه الرقيقة . فهل علم أن وصول الأمداد كان كفيلا بقمع الفتنة دون إراقة دماء ؟ .

وخرج على من لدنه وهو أسيان عليه ، فارغ الجعبة من كل أداة بمقدوره أن يسخرها فى عون الشيخ ، ولكن عثمان التزم دائما سياسة الإباء ، فأبى كل العروض المبذولة لإعادة السلام وإقرار النظام ، سواء بطريق القوة أو بطريق التوفيق ، فلا هو أجاب مطالب الثوار ، ولا هو اعتزال الأمر ، ولا هو قابلهم بالقتال قبل أن يقتلوه ..

ولكن علياً لم يرض أن يدع الرجل وشأنه لأنه عهده لا يحسن القيام على أمر نفسه ، بل بعث إليه ابنيه سبطى رسول الله ، وبعض أهله ، ونفراً من مواليه زودهم بالعدة والسلاح ، وأمرهم أن يلزموا باب الدار فلا يفارقوه قال للحسن والحسين وهما يتأهبان للذهاب :

« اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان ، فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه .. »

فصدع الفتيان . وتوجهت هذه الطائفة من بنى هاشم ومواليهم إلى باب عثمان يترسون بصدورهم دونه ، ويذودون عن الشيخ الضعيف المغلوب ، عن ذلك الرجل الذى غلبه تردده ووهن عزمه قبل أن تغلبه عدة عدوه وخصمه . وكانوا بهذا أول من سلوا سيفاً لرد الثوار .

وخجل بضعة من الصحابة من أن يقوم على فيما قعدوا عنه ، فترسموا خطاه وبعثوا بأبنائهم كبعث الحسنين .. حتى طلحت بعث ابنه ، وحتى الزبير أيضاً خشية أن يرميا بقلة المروءة . فما كانا فى الواقع يريدان قتل عثمان وإن أرادا نزع ملكه عنه ..

ودخل الحسن من بعد على أمير المؤمنين ، متأهباً بعدته ، وفى يده سيفه ، وعليه لباس القتال .. وقال له كأنما ينطق بلسان أبيه :

« يا أمير المؤمنين .. إنى طوع أمرك فرنى بما شئت .. »

فلم تتغير لهجة الشيخ عنها من قبل ، وأجاب :

« بل اجلس يا ابن أخى فى بيتك حتى يأتى الله بأمره .. »

ذاك رأيه الذى التزمة حيال مشورة على حين أراده على التوسل بالقوة لفض الثوار وإعادة النظام ، تقيد به الشيخ حتى آخر لحظة من عمره ، وأراد أن يلزم به مناصريه .. ولكن الحسن كان قد تلقى الأمر من أبيه فوجبت له الطاعة . وحق عليه أن يدفع عمن أبى الدفع عن نفسه وبات منها بمنزلة غريم ! !

٦

أجال عثمان بصره فيمن وقفوا ببابه ، كاملى العدة ، مشرعى الأسنة تأهباً لرد الخطر عنه إن كان ثمة حاجة للكفاح ، وراح يستعرض الوجوه النبيلة التى لم تفسدها بعد الأيام ، فكلها مرايا لهذه القلوب الفتية الصافية التى تخفق فى صدور هؤلاء الفتية الأمجاد .. هذه زهرة هاشم ، نسله الطيب الكريم ، تنم عن قدر ذلك الرجل الأول الذى أصبح ذكرى شذية تعطر التاريخ ، وتعيد الآن إلى الأذهان بموقفها النبيل صور نبله وأريحته . لا قرين إذن له ولا شبيه فى النفوس لهذه المروءة التى أنجبها على الزمن رجالا تعز فى الرجال ، وتقل فى الأشباه والأمثال ، وكفى بهم رفعة دونها تطاول الأعناق والجباه أن كان منهم سبطا رسول الله ..

ثم أدار فى عقله خواطره .. ها هو الموسم يقبل ، والناس يتهيأون فى المدينة وفى بلاد الإسلام للخروج لبيت الله الحرام . والأمة كلها توشك أن تمضى إلى مقام إبراهيم . والشوق يملأ قلبه أن يسير فى طليعة الركب فيزور دار الهجرة ودار دين الفطرة القويم . ولكنه الآن خاصمه يومه وتبدل قومه . وأصبح من بيته فى قيد حديد لا يستطيع معه أن يبرح إلى قريب أو إلى بعيد ..

وأعاد عينه ترمق الفتية ، وتمر بالوجوه النبيلة التى أحالها غضبها من أجله وجوه أشبال ، وبالعيون النقية التى انعكس فى صفائها لهب الغيرة عليه وتلونت نظراتها بإشراقه . وبالأجساد القوية التى بدت لطرفه رماحاً .. داره الآن كعرين بدر ، تلك الجنة التى أشرف منها على المعركة رسول الله ، وقام أصحابه حولها يدافعون عنه .. فيالطوباه اليوم وهو بعرين يذود عنه حفدة رسول الله ..

وهفت للذكرى نفسه . وغامت عينه برقائق دموع ، ولكنه سارع فرقأها ليفرغ لما جاء فيه . فما عاد ثمة وقت يجوز أن يضيع .

ونادى بصوت رقيق بين الجميع :

— يا عبد الله .. يا عبد الله بن عباس .

فانطلق الرجل إليه خفيفاً ليسمع منه .

— لبيك يا أمير المؤمنين ..

— اذهب أنت على الموسم يا عبد الله .

فاعترضه دون إمهال وهو يشير بسن سيفه إلى خارج الدار :

— والله لجهاد هؤلاء يا أمير المؤمنين أحب إلى من الحج .

— بل نشدتك الله أن تنطلق . إنى قد استعملت خالد بن العاص بن هشام على مكة ، وقد بلغ أهلها ما صنع الناس فأنا خائف أن يمنعوه الموقف فيأبى ويقاتلهم فى حرم الله وأمنه . فرأيت أن أوليك .

وبعث معه بكتاب ليقرأه بالموسم عسى أن يعطف عليه القلوب فيقدم الناس من مكة ناصرين . وخرج ابن عباس يلتمس علياً لينبئه ويستأذنه فى السفر والقيام بالمهمة الموكولة إليه . والقوم إذ ذاك خارج الدار قد أوهى جلدهم تواتر الأخبار بوصول الأمداد من الكوفة والبصرة والشام . كانوا يديرون الأمر فى أخلادهم فلا يستطيعون أن يجدوا حلا ينقذهم من النازلة التى أوشكت أن تدهمهم وهم على الوعد الذى قطعه لهم عثمان من زمان طويل ، وهو على النكث الذى أصر عليه ... فلقد ظل الشيخ معانداً أبداً

لا يستمع لنصح راشد . ولا لمشورة أمين . ولا يعمل من جانبه لفض هذه الفتنة التى همت أن تسيل فيهـا الدماء وقاربت أن تفرق أمر الإسلام . بل استكان لتلك الطغمة الخاسرة من ذويه حتى قال على — ذلك اليوم — فيه :

« ... ما يريد عثمان أن ينصحه أحد . اتخذ بطانة أهل غش ليس منهم أحد إلا قد تسبب بطائفه من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها ... »

فقال ابن عباس وليس يسعه فى هذا المقام إلا الاسترحام :

« فلو رأيت أن تقوم دونه يا أبا الحسن ... فإن له رحماً وحقاً . »

فتكلمت الرقة فى عينى ابن أبى طالب ، وتكلم الرثاء ... ثم تكلمت معهما قلة الحيلة بعد ما بذل فى استصلاح شأن الأمير الذى نفـــدت معه كل وسيلة .

ومضى عبد الله ، وأوشك أن يخرج من المدينة اليوم كل راغب فى زيارة بيت الله الحرام والطواف بالكعبة الغراء ... وعلم عثمان ومن بداره أن عائشة تتأهب هى الأخرى للمسير لمكة فلعله بعث إليها إذ ذاك يريد أن يستأخرها عساها تستطيع أن ترد عنه الثوار . أو لعل أحداً آخر من أهله أراد أن يرمى بهذا السهم الذى لم يبق سواه ... أو لعل مروان نفســه وقد رأى القوم يتحلبون للشر وقد أثارهم نبأ اقتراب الأمداد قد أراد أن يعمل على تسكين الناس حتى تفاجأهم الأمداد ... على أى حال لا نرانا نلبث إلا قليلا ثم نجد ابن الحكم يستطيع بوسيلة أو بأخرى أن يغادر البيت الذى ضربت عليه حلقة الحصار ، فيمضى إلى أم المؤمنين ومعه زيد بن ثابت ، يحاولان معاً أن يحملاها على البقاء وعلى تسكين الثوار .

وتصغى السيدة لما يقولان ، وتقسر نفسها على الصمت والسكون حتى يفرغا من الحديث ، ثم لا تستطيع فى نهاية الأمر إلا أن تهتف بزيد فى لهجة ساخرة مبطنة بالاستنكار .

« وما منعك يا ابن ثابت ولك الأساريف قد اقطعكها عثمان وأعطاك من بيت المال عشرة آلاف دينار ! .. »

فبهت زيد ولم يرجع عليها بحرف . وحاول مروان من بعده أن يتكلم فنهرته ، وأشارت له بالقيام ..

ونهض الرجل من مجلسها مستاء . وألق حديثها العنيف بقلبه مرارة ارتدت خلال حلقه فهمهم بكلام وهو يهم بالخروج ..

ولكنها سمعته بأذن المرأة التى لا يعز عليها سماع الهمسات .. فما أسرع أن صاحت به :

« يا ابن الحكم .. أعلى تمثل الأشعار ؟ .. قد والله سمعت ما قلت. أتراني فى شك من صاحبك .. والذى نفسى بيده لوددت أنه الآن فى غرارة من غرائرى مخيط عليه فألقيه فى البحر الأخضر ! . »

ولكنها حين خرجت فرأت كيف اشتد أمر الثوار خشيتهم على الشيخ وامتلأت نفسها بالرثاء له إلى جوار سخطها عليه .. فلم تكن لتريد له ذلك المصير المخوف الذى بات منه على قيد ساعات ، لم تكن تريد أن يراق دمه وإن جاهدت طويلا لتخرجه من أمره بعد يقينها بأنه أساء السيرة فى الأمة ولم يعطها حقها عليه .. غير أنها — مع ذلك — لم تستجب لرغبة مروان فى البقاء حين عاد إليها يقول :

« يا أم المؤمنين .. لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا الرجل .. »

فأجابت . وهى تحاول أن تواثم بين السخط وبين الرثاء :

« أتريد أن يصنع بى كما صنع بأم حبيبة ، ثم لا أجد من يمنعنى ؟ .. لا والله ، ولا أعير ، فلست أدرى إلى ما يسلم أمر هؤلاء ... »

ثم رحلت عن البلدة ، كما رحل غيرها من كبار الرجال ليكونوا بعيدين عن مهد الفتنة . فلا حقا نصروا وقاموا فيه ولا باطلا ناهضوا وأعانوا عليه . ولكنهم فروا من الميدان تهيباً من الكفاح ، وتركوا الخليفة المهيض الجناح لا يجد من يحمى ظهره أو يكفكف عنه ، بل هم فى غالب الأحايين كانوا قد ألبوا عليه من البدء لغاية عامة أو لغرض خاص وفى حسبانهم أن تسير الأمور على ما يشتهون ، فلما أن رأوا زمامها قد أصبح دونهم فى أيدى

الثوار تواروا عن الأعين عسى أن تنام عنهم الظنون .

سار بها الركب حتى شارف الصلصل فلقيها هناك ابن عباس وهو يشق طريقه إلى قبلة الإسلام ٠٠٠ ورأى لزاما عليه أن يتقدم فيحييها ، فإذا بها قد نسيت رثاءها لحال عثمان ورقتها له حين غادرت المدينة ، وهي طعمة سائغة بأيدي محاصريه ، ونسيت أيضاً استرحام مراون ومازالت كلماته في سمعها ندية لم تطل عليها الأيام ٠٠٠ وأقبلت على الزائر توغر صدره على الخليفة ، وتدعوه كسابق عهدها مع سواه للتأليب عليه .

قالت له تخاطبه :

« يا ابن عباس ٠٠٠ أنشدك الله — فإنك قد أعطيت لسانا إزعيلا — أن تخذل عن هـــذا الرجل ، وأن تشكك فيه الناس . فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ، ورفعت لهم المنار . وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم ٠٠٠ وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر ٠ ٠ ٠ »

فما أسرع أن أجابها على الأثر ، كأنه علم خلاصة عرضها فأعد له الجواب من زمان طويل :

« يا أمة ... لوحدث بالرجل حدث مافزع الناس إلا إلى صاحبنا ! ... »

واكتفى بهذه الاشارة القصيرة التي تغني دلالتها عن كل بيان . وأحست بحرارة الخيبة وقد كانت تطمع في نصرة ابن عباس ووقوفه إلى جوارها للكفاح من أجل الهدف المرموق الذي ترجوه . وبان لها هي المنار ووضح السبيل الذي سوف تسير فيه رغبات الناس ! ... فما هم إذن بناصري صاحبها ولا بمجمعي رأيهم عليه . وليس المال أداة الترجيح في هذه الحال ، ولكنها مزايا وصفات دون أثرها الفعال إغراء المـال . أفئن دهم الأمر لن يفزع الناس لغير علي ؟ ... لغير غريمها القديم الذي لا تملك إلا أن تضيق بسماع اسمه فضلا عن ضيقها به ؟. لودت في هذه اللحظة أن تكشف عن دخيلة نفسها نحوه أمام ابن عمه ... وأن

تذهب فى إطفاء موجدتها عليه إلى المدى الذى يستطيعه لسان ناطق عن قلب حانق ... فما نسيته قط منحرفا عن شد أزرها إبان قصة الافك ، ولا منافساً خطراً أراد أن يتزأباها خلافة الإسلام ، ولا شريكا لها فى حب زوجها يأخذ بعض نصيبها من قلبه الجدير بأن تضن به على غيرها من نساء ورجال ... إنها المرأة الخالدة ! .. إنها ذات الطباع والخلال والميول وإن هذبها كساء زوج الرسول ! .. وهل المرأة إلا أهواء ؟ ..

وفى هــدوء يخفى ماثار بصدرها من الضيق وشعورها بالخالان ، هتفت ترسم نهاية الحديث ،

« إيها عنك !. إنى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك .. »

وانطلقت بالركب إلى غايته : وانطلق كذلك عبد الله ليتلو على أهل مكة ومن حضرها من حجيج رسالة عثمان :

«... وجئت نسوة النبى حتى كلمتهن ، فقلت ما تأمرننى ؟ . فقلن تؤمر عمرو بن العاص وعبدالله بن قيس ، وتدع معاوية فإنما أمره أمير قبلك، فإنه مصلح لأرضه راض به جنده . واردد عمراً فإن جنده راضون به ، وأمره فليصلح أرضه . فكل ذلك فعلت . وإنه اعتدى على ... كتبت إليكم وأصحابى الذين زعموا فى الأمر استعجلوا القدر ، ومنعوا منى الصلاة ، وحالوا بينى وبين المسجد ، وابتزوا ماقدروا عليه بالمدينة .. كتبت إليكم وهم يخيروننى إحدى ثلاث : إما يقيدوننى بكل رجل أصبته خطأ أو صواباً غير متروك منه شىء ، وإما أعتزل الأمر فيؤمرون آخر غيرى ، وإما يرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيبرأون من الذى جعل الله لى عليهم من السمع والطاعة . »

ومع ذلك فلم يكن الشيخ قد أرضى حقاً الثوار وفعل كما أشاروا عليه ، بل هو أنف أن يخضع لمطالبهم ويستجيب لهــا ... وحتى عمرو بن العاص لم يكن رده بل بقى بعيداً عن الإمرة التى اختارها له .. ولو أن امرءاً فى هذه اللحظة التى قرئت فيها رسالة عثمان استطاع أن يقطع الأطوال والمسافات

فى لحظات ، لوسعه أن يرى ابن العاص جالساً بقصره العجلان بناحية السبع من أرض فلسطين ، بعد أن ألب الناس على عثمان فى المدينة ، وبعد أن راح يؤلب نفوس من يلقاهم بأى مكان وبكل مكان ، وبعد أن غادره محصوراً ببيته تهم به زمر الثوار . . . لو أن امرأ شاهده بمجلسه إذا ذاك لرآه شديد اللهفة على مصير الأمير ، لاعن خوف من خطر دائم أن ينزل به ، وإنما تعجلا لهذا الخطر أن ينزل ... يستطلع كل ركب يمر به فيقول :

« من أين قدمتم ؟ »

فإذا جاءه جواب السؤال : « المدينة » قفز قائماً وسأل بلهفة وفضول :

« وما فعل ذاك ؟ »

« تركناه محصوراً شديد الحصار ... »

هنا يطمئن باله ويهدأ خاطره ، ثم يهتف بغبطة ومباهاة :

« أنا أبو عبدالله ! .. قد يضرط العير والمكواة فى النار ... »

ثم لايمضى به سوى قليل حتى تأتيه الأنباء بمشتهاه ... فما انقضت بضعة أيام قلائل ، حتى جلس هـذا الحاقد الموتور نفس مجلسه ، بقصره ذاك ، وقد أحاط به ابناه — محمد وعبد الله — ومعهم سلامة بن روح الجذامى ، ومر بهم إذ ذاك ركب راح عمرو يسأله كعادته حتى جاء الجواب الذى فيه شفاء نفسه :

« قتل ! »

فلعله أوشك على الأثر أن يطلقها صيحة ابتهاج ... ثم قال يفخر بموقفه من الشيخ ، ذلك الموقف الذى أثمر انتصاره على غريمه بعد طول اصطبار :

« أنا أبو عبد الله ! .. إذ حككت قرحة نكأتها ! »

وتريث هنيهة يجدد فيها زهوه ، ثم أردف يقول :

« ... إن كنت لأحرض عليه حتى إنى لأحرض عليه الراعى فى غنمه براس الجبل ... »

ولقد صدق فيما قال . فلقد فعل ، ولقد ألب المدينة على عثمان ، وألب

صحبه . ومضى يعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث الخليفة ويحرضهم عليه ... صدق ابن العاص وملأ الأرض والفضاء بالدعوة إلى الخلاص من عثمان ... حتى إذا أينع ثمره ، وقتل الشيخ ،وسالت دماؤه المسفوكة ، قام هو نفسه لا يأخذه تلوم ولا استحياء ، وقد سل حسامه ليطالب بدم الخليفة المظلوم عثمان ! . .

ولكنها نفس ابن النابغة التي تبيح المحظورات حين تشاء ! وهي صورة صادقة لكثيرين من معاصريه الذين لا نحسبنا مستطيعين تخيل حال نفوسهم قبل الإسلام عادامت هذه أحوالهم بعد تعاليمه الهادية الغراء ... ولعل ما يملأ نا اليوم بالدهشة قد ملأ بعضه إذا ذاك قلب الجذامي ضيف عمرو ... فقد بهت الرجل حين سمع حديث صاحبه ، وأخذه العجب ، وهتف به في استنكار :

« يامعشر قريش . إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه ، فما حملكم على ذلك ؟ . . »

فما وجد ابن النابغة من جواب يحضره إلا التمويه والتمسح في الحق فقال : « أردنا أن نخرج الحق من خاصرة الباطل ، وأن يكون الناس في الحق شرعاً سواء ... »

أما المدينة فقد باتت بعد خروج عائشة هشيما جافا ينتظر الشرر . الناس فيها على الأهبة ، والقلوب متحفزة ، والسيوف مشرعة ... وكان زيد ابن ثابت قد راح ينشد في الأنصار مالم يفز به عند أم المؤمنين . وأطمعه في مناصرتهم إياه أنهم قومه . ولكنهم قعدوا عنه ولم يجيبوه،بل ركبوه بالسخرية وعرضوا به . وكان الجواب الذي لقيه منهم تكاد ألفاظه تكون صورة أخرى من رد عائشة عليه ، كأنهم والسيدة كانوا على اتفاق :

« تريد أن ننعمه ؟ . . . فما يمنعك يازيد أن تذود عنه وقد أعطاك عشرة آلاف دينار ، وحدائق من نخل لم ترث عن أبيك بمثل حديقة منها !؟ ... »

ووضح اليوم مدى الخذلان الذي أصابه الشيخ لدى كلا الطائفتين :

المهاجرين والأنصار . وعظمت الفتنة ، واشتد الأمر وإن بقي مروان كدأبه ينتظر أن يغير وصول الأمداد اتجاه الريح ...

ولقد جاءت أخيراً لحظته المرقوبة ، اللحظة التي ملأت قلبه ابتهاجاً ونفسه طمأنينة وثقة وردته كسالف عهده رجلا يستطيع أن يزهى ويتيه على الناس ... وصلت الأمداد ... جموعهم من الشام في طريقها الآن ، وجموعهم من البصرة تكاد أن ترى المدينة رأى العين . فقد نزلوا بصرار ولم يعد يفصلهم عنها إلا مسيرة ساعات .. لا تكاد ليلة واحدة تمضي حتى يكونوا طوع أمره وتصلى بنارهم زمر الثوار ! ..

وفزع الناس ، وانطلقت جموعهم صوب الدار ، وأحاطوا بها من كل جانب ينادون عثمان وقد ملكهم الغضب عليه . فقصة الأمداد لم تعد شائعة تجول بالخواطر المضطربة وعلى الألسنة اللاغطة ، بل أصبحت حقيقة توشك أن تدهمهم ببلاء ...

وانفلت من بينهم شيخ مهيب . طالت به أعوام عمره ، فتقدم الصفوف ، ونادى بصوت رافع جهير :

« يا عثمان ... يا عثمان بن عفان .. »

فأقبل الخليفة على النداء ومعه طائفة من أهله ومواليه . وتطلع من أعلا داره يشرف على القوم ، ويجيل عينه في الجموع الزاخرة تحته لا وفاق إذن اليوم ... ذهبت اللحظة التي كان يستطيع فيها أن يسيطر على عواطف الناس!.. جاوز ركب الأحداث ركب تفكيره وتخلف هو وحده عن الزمن السباق !.. وتطاير . وقمدت عنه ثقته بنفسه وثقته بغيره ، فلم تعد الوجوه التي يطالعها الآن تنبيء عن خير ...

وعاد يسدد بصره إلى حيث جاءه الصوت . وتفرس طويلا في هذا البحر الزاخر من العيون التي أوشكت أن تغرقه بنظرات السخط ، ومن الوجوه التي اكتست نقاب الغضب الفوار . . وتبين أخيراً بينها صاحب النداء ، فهتف بصوت أراد له الثبات فخذله ووشي بسوء ما يعانيه :

« نيار الأسلمى ! ... »

أجل نيار ، صاحب رسول الله ، قد أقلقه ما أصاب أمته من اضطراب ، وخشى عليها الفتنة ، وأوشـك أن يرى الفرقة دانية منها تهم أن تمزق وحدة الإسلام ...

« اتق الله يا عثمان ! »

« فما تريد يا نيار ؟ »

كف عنا وعن نفسك البلاء ، واخلع عنك ما ألبسك الناس ، وقل هذا أمركم فاختاروا له أيها الناس ...

لم تبق وسيلة إذن إلا الاعتزال ؟ ... لبئس ما أشـار به الرجل وأشار الثوار !.. ومع ذلك فهل من سبيل إلى اعتزال إمارة يؤمن عثمان أنها أمر له من عند الله ؟..

وغضب الشيخ . وعز عليه أن يكون شأنه على قومه بمثل هـذا الهوان . وانطلق يجادل صاحبه ويمنف به ؛ ويعنف بالناس فى المقال . ومضت لحظات على الجمع وهو صامت منصت ليرى ما سوف يسفر عنه هذا الجدال ...

فإن هى من بعد إلا لحظة خطفت كالبرق ثم اختفت كومضة ، تلفت القوم على أثرها مذعورين ، ثم سيطر عليهم وجوم رهيب .

ثم دبت الحياة فيهم بغتة . وأقبل بضعة منهم على صـاحبهم الطريح . يكذبون العيون ويقلبون جسده الهامد مشدوهين ، ولـكن نفسه فارقته حقاً . وانطوى سجله فى الدنيا فلم يعد ثمة نيار ... لشد ما أسرع به حينه ، كأنه السراج نفخته الريح !.. مضى إلى مصيره المحتوم فى لمحة ، وانتهى عهـده بالأرض وإن بقى عليها جثمانه ، وانقطع ما بينه وبين الحياة إلا جرحا ما زال يتنفس ويلفظ بقايا الحياة ... فهذه دماؤه ما برحت تنزف وتسيل تحت الأقدام تخالط الحصى والتراب ..

عادوا إلى الوعى ، وانتبه فيهم وحش الغضب على رائحة الدم المسفوك ؟ . إنهم لا يعرفون أى العصبة المجتمعة فوق الدار قد أصماه . لا يذكرون من

مصرعه إلا أن سهماً لمع فى الجو وحجراً ضخماً قد انقض ثم انطرح الصريع .. وتحركت جموعهم كموجة صوب الدار . وعلت أصواتهم المهتاجة كأن الأرض تحتهم أضحت غابا يمج بزئير أسود ...

وبهت عثمان . وتلفت ترمق عينه أهله ومواليه وفيهما نظرة حرج ونظرة إنكار . فما كان يقر هذا الغدر أو يرجو أن يتناول الأمر بمثل هذا الأسلوب . وتصايحت تحته الجموع تطلب أن يعينها على القاتل ويسلمها إياه . فليس ثمة صراع يمكن أن يستباح فيه هذا الدم الحرام ، ولا زاد نيار عن إزجاء رأى ظنه يحسم الشر وينتهى بالفتنة الناشبة إلى أحسن انتهاء ...

وتردد عثمان وهو يصغى إلى الزئير المجاج . وملكت نفسه رهبة هذه الفترة العصيبة الحرية بأن يفلت فيها زمام الجماهير من كل قائد وأمير . ولكنه عالج هيبة الموقف بإظهار العزم والتوسل بالكبرياء والصلابة . وبقى هادىء الوجه يجيل طرفه فى الناس ثم يرده إلى العصبة الملتفة به لعل أحدها أن يشير عليه . ولكن أفرادها جميعاً آثروا السكون ، وتركوا الخليفة وحده يواجه الأمر حسبما يستطيع أن يسعفه جنانه ، ويزوى لسانه .

قال عثمان للجموع برنة قليلة المبالاة فيها مروءة وفيها كبرياء :

لم أكن لأقتل رجلا نصرنى وأنتم تريدون قتلى ...

فسرعان ما تلهب غضبهم كما تلقى زيتاً على النار .

وتأهب الفتية الواقفون بالباب . وأشرعوا الأسنة فى وجوه من عسى ستحدثهم نفوسهم لاقتحام الدار إلى الأمير الشيخ ... وعصف القلق بنفس عثمان . وسرى منه إلى العصبة الملتفة به وهى توشك أن تلمس الخطر الوشيك النزول ... ولكن رجلا منهم كان راضى النفس ، بقى وحده ناعم البال فى هذا العباب المصطخب الفوار ثم انثنى يتسلل من بينهم فى هدوء ، وقد ومض ناظراه بلمعة انتصار وأوشكا أن ينما عما بقلبه من شماتة بالقتيل وأصحابه الغضاب . وكانت بسمة غامضة تلعب بشفتيه تخفى خلفها كل عاطفة ثم لا تخفى مطلقاً معانى الاشتفاء ... أفهو يا ترى الذى قدر الحساب ثم نفذ

فأصاب ؟ ... أ كانت الخطة حقاً من نتاج تدبيره ؟ ... ألاح له شبح النصر من وراء الأمداد التى باتت على مسيرة ساعات فهان عليه الآن ما كان يخشى من بطش أعدائه مناجزى عثمان ؟ ... أ أراد أن يتعجـــل ساعة الجلاء فأوحى لمن ألقى فى الميـــدان بأول سهم ليـكون البادىء بإراقة دم ؟ ... كلما سار المرء بذهنه خلال هذه الفترة استطاع أن يوسع فيه لـكل هذه الفروض التى لا تغاير طبيعة مروان . أجل مروان ... فما نحسب غيره كان وراء هـــذا الغدر وهذا العدوان . وحسبنا حماقته المشهور بهـا لتقرن به فعلته تلك . وحسبنا الرغبة الملحة التى كانت تسيطر عليه وتدفعه دائماً إلى التزام وسائله الخاصـة فى الغدر ومجافاة الوفاء . وحسبنا تلك الخشية التى أقضت مضجعه وتركته حليف هم وهو يرى كيف هدفت ثورة الثوار إلى تجريده من جاه المنصب وأبهـــة الحـكم ... ليوشك الزمن أن يطالعنا بصور شتى من أسرته الأموية التى لا يقف بها خبث الذرائع والمقدمات دون بلوغ المقاصد والغايات .. ليوشك بين عهد وعهد أن يكشف لنا فى سجلهم عن ألوان الغدر تزرى بكل إثم ووزر وإذا كان الأمس قد كشف لنا عن هند ووحشى العبد الحبشى تدفعه ليصمى أسد الإسلام ، فإن اليوم انـكشف عن مروان وعتيقة أبى حفصة اليمانى يدفعه ليصمى داعيـــة السـلام ... ثم لعل الغد لا يعجز من بعد عن مطالعتنا من هذه الصور البغيضة بأمثال وأمثال على تعاقب الأجيال .

٧

ثبت الفتية الواقفون بالباب فلم يرعهم الموقف ، ولم يذهلهم حماس الثـوار عن مراسهم وشـكيمتهم ، بل ألفوا بالرماح والسيوف سوراً دونه الحتوف ، لا يكاد يقترب منه جمع حتى يتفرق ، ولا ثائر هائج حتى يعيده إلى وعيه خيال حينه . ووقفت الآلاف المجيشة دون اقتحام الدار .

وبدا مروان من قريب ، على وجهه سمات اعتزاز ، وفي عينيه نظرات تهاون وبيده سيف مصلت حديد السنان ، يتيه به ، ويدل بقدره وحسن بلائه كأنما يحمله الحسام ملاك الحمام يوشك أن يفرقه على أخصامه كما يشاء ، ثم راح يرتجز ويقول :

قد علمت ذات القرون الميل والكف والأنامل الطفول،
أنى أروع أول الرعيل بغاره مثل قطا الشليل .

فما رآه عثمان حتى سارع إليه يحول بينه وبين ما يريد ، ويجذبه من ردائه ، ويناشده ألا يزيد في استعار النار .

« اجلس يا مروان . »

« يا أمير المؤمنين ... »

« اجلس فلا أراك تخرج . »

« والله لا تقتل ولا يخلص إليك وأنا أسمع الصوت . »

ثم انفلت خفيفاً إلى الباب يعيد ارتجازه ، بنفس اللهجة الساخرة ، وبنفس النظرة المستهترة ، وسيفه يكاد أن يمس العيون التي ودت نظراتها الملتهبة أن تحرق كيانه المقيت ، وهو لا يكف عن تحديه إلا حين أخذ يهتف في خيلاء :

«رجل رجل أيها الناس ! . ألا من يبارز ؟ . »

وخطر أمامهم في تيه وتجبر ، فما وسع القوم إلا أن يضيقوا بصلفه . وغلبت عليهم الحمية فأنشبوا القتال . وانطلقت جموعهم كالسيل المتحدر صوبه إلى ناحية الباب ، وكان ابن عديس قائماً إلى قريب يسند ظهره بمسجد الرسول ويشهد الأمر عن كثب ، فما رآه وسمع تحديه حتى أشار بهدوء إلى فتى من أعوانه وقال :

« قم إلى هذا الرجل يا غلام . »

فاستجاب للأمر شاب طوال مديد القامة ، أسرع فتمنطق بدرعه ، وسل حسامه ، ثم مضى إلى مروان .

وكأنما رأى عثمان الخطر الذي يجثم وراء هذا التحدي ، والمصير القاتم

الذى ينتظره وينتظر أهل بيته غب المبارزة . فلا الناس مردودون إن أصاب صاحبه واحداً منهم ، بل هم أولى بأن تفيض بهم فورة الغضب وحمية الثأر فينقلبوا إلى الدار كحمم النار ، ولا هم إن فازوا بمروان غير طامعين بعده فى الظفر بمن عداه . هذا خاطر كفيل بأن يجول إذ ذاك بذهن الشيخ فيبصره بعواقبه ويرده إلى اصطناع الحذر قدر ما يستطيع . ولقد انكشف له من خلاله مصير ليس يحمد معه السكوت فهم يحاول درأه ، ويعمل جاهداً على الخلاص منه قبل استفحال الأمر . ولكن الحمية المروانية — أم الحماقة ؟ — كانت قد تناولت وحدها الزمام ووجد الناس فيها جسراً للعنف فعبروا عليه . فإذا الموقف فى لحظات قليلات ينتكث فيقابل الكيد بالكيد ، والصمام الذى حكم حتى الآن بغضاء الثوار يفسد فلا يمسكها شىء .

الحماقة المروانية أرثت النار النائمة تحت الرماد ، ودفعت الناس فى ركاب الأحقاد . فما رفع الرجل سيفه فى وجه الثوار حتى فتح على نفسه وصحبه باباً للفتنة ليس ثمة من يستطيع أن يسده اليوم ، وانطلقت الجموع إليه مشتعلة النفوس تزأر وتصخب ... وتنادت من كل جانب تطلب الثأر ، وتطلب قبله الظفر بالشيخ الذى جرأ هكذا عليها صاحبه ، وركب حقها — الذى طالما أقر لها به — بباطله الذى أبى إلا الإصرار عليه ... أما عثمان فقد أوشك صوته أن يضيع فى ضجة المكان وهو يصيح بحواليه :

«من أغمد سيفه فهو حر أيها الناس ... نشدتكم الله ... من أغمد سيفه ... »

ولكن حماسة الجلاد أصمت دونه الآذان ، وراحت طوائفهم تتبع الفتية القلائل الذين وهبوا أسنتهم للذود عنه . ولم تحل النار التى أنشبها الثوار بالباب وبالسقيفة بين كتيبة الدفاع وبين ما أخذت أنفسها بالاضلاع به ، بل لعلها كانت سياجاً حائلا دون الناس وولوج الدار ... ووقف الحسن فى اللهيب المشبوب يضرب بسيفه ، ويشد أزره صحبه الشبان من أهل بيته

ومواليه وأبناء صحاب رسول الله ، لا ينكلون ، ولا تنبو فى أيديهم السيوف ، وتصايح بهم ثانية عثمان :

« الله الله ! .. أنتم فى حل من نصرتى ... من كانت عليه طاعة فليمسك داره ، فإنما يريدنى القوم ... »

ولكنهم لم يسمعوا له . واستغرق الكفاح وعيهم كله ... حتى إذا رأى الشيخ أن شجاعة الحسن وحسن بلائه اماهما أغريا الفتية على الثبات ، أقبل وقد بدت فى عينيه نظرة تقدير وبانت خشيته عليه يناشده أن يكف ليجنب أباه رزأه فيه ، فيقول :

« يا ابن أخى ، إن أباك الآن فى كرب عظيم ... فأقسمت عليك لما خرجت ... »

فما ألقى الفتى بالا إليه ، ولا توقف عن القتال سيفه كأنما كان نذره لرقاب الثور ! . . ولم يقعد به جرحه عن مواصلة الجلاد ، بل هو كان أدعى لإثارة حماسه . ولم يلق الخشية فى قلبه أن أصيب الحسين وأصيب قنبر خادم أبيه وهما ذراعاه والذائدان عنه وعن عثمان فى آن . بل الدم السائل دعاهم داعيه فلبوا النداء ... ومضوا غير هيابين فى قلب المعركة يختلط فى وجوههم العرق بالدماء وهم من النار التى التفت بهم كأنهم فى إتون .

وعسر على الخليفة أن يحسم القتال الناشب . فما استجاب له إلا نفر من مواليه آثروا السلامة مع العتق على المناجزة مع الرق ، ومضى مهموماً إلى حجرته يفىء إلى كتاب الله فيستروح به . وجلس والمصحف بحجره يرتل حتى غاب مع التنزيل فى عالم من الفكر بعيد .

وعسر أيضاً على الثوار أن تفشل حركتهم ، وأن يكون فشلها هكذا على يد بضعة نفر من الفتيان قربوا صدورهم للأسنة المشرعة فأخطأتها ، وقدموا للموت رقابهم فنكل عنها الموت واجتبتهم الحياة . . . وراحت الجموع الزاخرة خارج الدار تجهد الأذهان فى بلوغ غايتها ، وتفرقت هنا وهناك طوائف ، بعضها يجالد الحماة ؛ وآخرون يدبرون وسيلة لإنجاز ملجاءوا

فيه ، وثالثة تعلق الأنظار بهذه الصــــورة الجديدة التي أراد أن يرسمها لهم مروان .

أجل ، كان مروان إذ ذاك قد خرج يصــاول ، والتأم سيفه بسيف غريمه الغـلام ، وكانت فئة واقفة لا تنشب قتالا قد راحت تلتف بهما لتشهد لأيهما سوف ينعقد النصر ، وتمنى الجميع أن يسقط الخصم المبغوض ، وأن ينزف — مع دمه — صلفه من جرح قاتل يصيب قلبه ، وأن تنجاب المبارزة عن جسده لقى على الأرض لعل نفوسهم أن تشتفى به ، ولـكن أمنياتهم هـذه كلها ظللها خوف على غلامهم ألا يكون ندا لهذا الشقى وقد رأوه يدل بسيفه كالواثق من قدره وخطره .

وتصاول الخصمان ، وحسب الناس أن سيشهدوا مبارزوه تجل فى النظائر ، وعلقوا الأنفاس من خشية ومن رجاء ، ولـكنها كانت لحظة مضت كلمح الطرف تحرك فيها السيفان ثم سقطا ، وسقط بعدهما الغريمان .

وبادر الثوار إلى صاحبهم ، فاطمأنوا إذ وجـدوه قد أخطأته ضربة مروان فلم تصب إلا من قدمه ، وأسرع بعضهم إلى غريمهم ليشتفوا منه فأزعجهم أن سيف فتاهم لم يسلبه حياته وإن قطع بعض عنقه . وانطلق إليه على الأثر رجل منهم رأى السلامة فى اقتضائه كل نفس ما زال يتردد فيه .

فـسرعان ما أنقذه حسن طالعه كأنما الأقدار أرادت أن تملى له وتبقيه على هـذه الأرض حتى يفرغ كل ما فى جعبة طغيانه ! . بدت فى التو فاطمة ابنة أوس كأنها نبت أطلعته أنفـاس الشيطان ، ووقفت بهيكلها الذاوى لتحمى الطريح وتدفع عدوه . ثم مالت عليه تجره إلى مأمن وتبتعـد به ، فما كانت حياته لتهون عليهـا وهى ظئره التى ألقمته فى مهده ثديها فأصبح منها بمثابة ابن .

وصاحت بالرجل الذى عدا خلفها يحاول أن يدفف على الجريح :

« يا ابن رفاعة حسبك ! إن كنت إنما تريد قتـل الرجل فإنه قتل ، وإن كنت تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح . »

فكف يده عنه وفى حسبانه أنها صدقته . وردته عن الشق خديعة العجوز . .

غير أن القتال لم يتوقف ، بل تسعر واشتد ، فما صبر رجال عثمان حين رأوا مروان بادىء الأمر يخرج إلى الوطيس ، ولا تريثوا عساه يصيخ لنداء الخليفة . بل انطلقوا عصبة خلفه يحملون على جموع الثوار ، ومضى فى أثره سعيد بن العاص فى طائفة تحاول أن تشق حلقة الحصار . وخرج بعدهم المغيرة ابن الأخنس بن شريق يصول صولتهم . وينضم إليهم بين فترة وثانية من وسعهم أن يغادروا الدار ليظاهروهم ويرجعوا كفتهم ، فما هى إلا سويعة حتى تفرقوا فى الغمار كالقطرات ، ولقوا من شكيمة القوم ما ردهم عنهم فآثروا أن يلوذوا ثانية بالدار أو يستخفوا بدروب البلدة من الثوار . وبدا الميدان بعد قليل خالياً إلا من أشلاء فريق منهم ودماء آخرين ... أما الفتية حماة الباب فلم يبرحوا ، ولم تكل فى أيديهم السيوف ، وإنما ظلوا ينضحون عنه كأنما تعاقدوا بأرواحهم عليه ، وجرح سبطا رسول الله ، وشج قنبر مولى على ، وأصيب عبد الله ابن الزبير ، ثم جرت دماؤهم تحت مواطىء أقدامهم كلون اللهب المشبوب فوق رؤوسهم بالسقيفة ، فلا فرقتهم ألسنة النار ، ولا أرهبتهم أسنة الثوار .

وتفكر زعماء الثورة فى الأمر وهم يرون هذه الحفنة من حماة الباب ثابتة لا يفل عزائمها لسع ضرام أو حد حسام . وأوشك اليأس يقعد بهم دون ولوج الدار ، وأوشك أيضاً أن يعصف بقلوبهم القلق من مصير مجهول يكاد أن يفجأهم بعد قليل ، فما نسوا أن جيش الأمداد فى الطريق لا يفصله عنهم إلا ساعات ، وأن أنباء المعركة دخلت الآن كل بيت وهى حرية من بعد أن تخرج سراعاً من المدينة فيلقفها الجيش وينبرى يناجزهم حتى تذهب ريحهم إلى غير بقاء ، وما نسوا أيضاً أن خطراً آخر يكاد أن يدهمهم من داخل البلدة ثأراً لصرعى سيوفهم وجرحاها ، إن قريشاً لن تصبر لهم على إيذائهم رجالها . وإن بنى هاشم قبلها لن يدعوا دماء زهرتهم تجف على الأرض دون أن ينهضوا

لـكفاح مريقيها . وإذا ذكرت هاشم فقد ذكر على ووجفت قلوبهم لذكره ، ثم أيقنوا بانتقاض أمرهم عليهم وضياع ثمرة نصرهم هـذا وثمرة ثورتهم .

أداروا الفكرة فى رؤسهم فما رأوا غير البدار إلى اقتحام الدار ليحفظوا عليهم نتائج الـكفاح . ولـكن دون الباب فتية كالليوث الغضاب ، وقفوا يمنعون الخليفة الشيخ من أيدى قدره . وما نحسب عثمان فى هذه الآونة وهو يرتل مصحفه إلا كان هادىء البال إذ أودع أكفهم مصيره . إنه بسيوفهم فى قلعة وإن ولى عنه أكثر أهله ومواليه ، وبصدورهم فى جنة حصينة لا يخترقها أشجع مناجزيه . قد أمن بمجاسه أن يناله سوء وقد سدت السبيل الوحيدة التى يجتازها الخطر إليه .

ولـكن النازلة لا يعيبها التماس الأبواب والمسالك إذا فرغ الأجل ولم تعد فيه بقية لإمهال ... ثمن مأمنه أتى عثمان . تسورت عليه داره عصبة من الثوار نفذت خلسة من دار جيرانه بنى حزم أولئك الذين كانوا أحيانا يعدونه بالماء حين تضيق عليه حلقة الحصار . وكان إذ ذاك هادىء البال قد استراح إلى مصحفه فوضعه بين يديه وراح مع الآيات فى عالم روحى بعيد عن هرج الناس ، وبعد عن الحومة باله ، وفنى فكره فى السطور التى كان يطالعها بصره ، وصفت نفسه فما عاد يشغلها هم دنياه ولا هذا الخطر الذى أخذ يزلزل تحته الدار . فالموت والحياة إبان صفاء الروح سيان ، بل لعله فى هذه الآونة كان جد مشغوف بالرحيل عن الأرض ، يود لو استطاع تعجل قدره واستباق الزمن إلى اللحظة التى ستكون مجازه إلى العالم الأخير ، لشد ما طال عمره فطال به شوقه إلى لقاء الرسول ! وما أبطأ زمنه اليوم من أداة لهذا اللقاء !.. إن روحه لتهفو إلى محمد وتحن حنيناً لم تعرف له من قبل هذه الحلاوة ، وإن قلبه ليكاد أن يثب إلى دار الخلد ويخلف جسده لو استطاع ، وإن سمعه ليستطيب الآن الـكلمات القلائل الرقيقة التى سمعها بحلم ليلة الأمس فيستعيدها مشوقاً فتنساب إليه شجية بغير صوت لأنها حديث روح لروح .. هذه هيئة محمد ، تبدو له فلا يراها بعينه فحسب

وإنما يستشعرها بكل كيانه وقد ملأت عليه مسرى أنفاسه ، لا تغيب عن خاطره ولا ناظريه ، بل تلوح له فى فضاء حجرته ، وعلى صفحات المصحف ، وفى حينما امتد بصره ، ثم لا ينى يسمع منها نفس الدعوة التى أسمعته بالأمس أثناء الحلم :

« ... افطر عندنا الليلة ... »

ومضى فى التلاوة وقد زاده الصوم رقة وصفاء . يتنقل بين السور والآيات ولا يكاد أن يلقى نظرة إلى ما يدور فى الخارج . وأحس بالشغب يقترب منه وترامى إلى أذنه صوت كلام مضطرب كأنه الهمس أخذ رويداً رويداً يبين له ... ولكنه كان مشغولا عنه بما فى يديه . فما كرثه ما سمع ولا نال من هدوئه ، بل طفق صوته يرتل كلام الله .

ووضح الضجيج بعد قليل يختلط بصوت الخطا السائرة فى اضطراب ، وعلت الحركة ، وسادت الردهة خارج الحجرة ضوضاء فيها لغط وفيها وقع أقدام كلها تنم عن طائفة استطاعت أن تقتحم على الشيخ داره وتخلص إليه ، وكلها يومىء إلى الخطر الداهم الذى يوشك أن ينقض عليه . ولكنه فى هذه الآونة كان فى عالم من صفاء الروح ، القرآن فيه حاديه ، قد سار به أشواطاً باعدت بينه وبين الناس حتى نسيهم فلم يأبه لما يتوه من شرور ، بل كان هادىء الوجه ، عامر القلب بالطمأنينة وقد بلغ من تلاوته إذ ذاك قول الله :

(... الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ...)

ثم بدا من فرجة الباب رويجل كأنه ذئب ، صاغ الله وجهه على هذه الشاكلة ليكون مرآة صادقة للغدر الذى ينطوى عليه قلب إنسان ، تطلع بعينيه الماكرتين برهة فى الحجرة ، ورمى بنظرة صفراء إلى عثمان ، ثم ارتد سريعاً كما جاء ، أكان هو يا ترى طليعة الطائفة التى دخلت الدار ؟ .

وفاتت لحظة ، وتبعتها ثانية كأختها فى هدوء . ثم امتلأت على الأثر الحجرة بالجمع الغدار ... ولم يرفع عثمان إليهم عينيه ، ولم ينح المصحف عن

موقعه من حجره . ولم تصمت شفتاه مطلقاً عن التلاوة بل ظل يردد الآيات في هدوء ، حتى حين تعاوروه بالأذى كان كمن غاب عنهم بوعيه وإن حضرهم جسمه . وأقبل بعض نسوة الدار على الضوضاء . وصرخن وقد شهدوا الواقعة فانجفل عنه العادون . ولكن خلفوه هامد الحركة وقد حسبوا أنه فارق الحياة.

ولكنها كانت غشية أفاق منها الشيخ بعد قليل ، فما فتح عينيه حتى دخل عليه محمد بن أبي بكر ... في البدء ظن الفتى — وقد سمع الصراخ — أن عثمان قد انطوى من الدنيا سجله . فلما اجتاز باب الحجرة إليه ورآه معافى ، صاح به وهو لا ينسى موجدته عليه مذ أوشك أن يغري عامل مصر بالفتك به :

« أما أخزاك الله يا نعثل ؟ » .

فابتسم عثمان بسمة مرة ، فقد أوشك في هذه الآونة أن يسمع عائشة بلسان أخيها ! .. ثم قال يجيب الفتى في هدوء :

« ما أنا بنعثل ، ولكني أمير المؤمنين » .

فابتدره محمد بقهقهة ساخرة ، وقال في استنكار :

« فعلى أي دين أنت ؟ .. »

« على دين الإسلام » .

« بل بدلت كتاب الله » .

« كتاب الله بيني وبينك » .

ومد بالمصحف يده وهو هادئ الوجه فأثار غضب الفتى حتى قفز يمسك بلحيته مستهيناً بشأنه ويصيح :

« ما أغنى عنك معاوية ؟ .. وما أغنى عنك مروان ؟ .. وما أغنى عنك ابن عامر ؟ .. إنا لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل .. »

فما دفعه عثمان ، ولا حرك يده نحوه ، بل قال بصوت هادئ رقيق وعينيه تبعث نحوه بنظرة عتاب وحنان :

« يا ابن أخى ، دع لحيتى فقد كان أبوك يكرمها ، ووالله لو رآك لبكانى ، ولساءه مكانك منى ... »

فكأنما الزمن قد ارتد بمحمد إلى طفولته وكلمات الشيخ لم تجف على شفتيه ، انتفض الفتى ، وهزته الرقة التى خاطبه بها عثمان . وبدا كأن عاد ثانية إلى محضر أبيه قبل عشرين عاماً، طفلا طرى المظام يتهيب مجلس أبى بكر ولا يكاد من حيائه أن يصوب إليه بصره ، لاح كأن أباه اليوم قد امتدت عينه من خلال الماضى فرمقته بإنكار ، وتقبلت فعلته بالزراية الواجبة لكل فعلة تنطوى كثلها على إغفال التوقير المفروض على الصغار حيال الكبار ، من خلف الأعوام مثل أبو بكر فى خاطر ولده فرده كما كان فى حياته ، يستشعر الرهبة والخشية فى حضرة أبيه ، ويتوقى أن يمد لسانه فضلا عن كفه بما يثير غضبه عليه ، فى مثل اللمح فنيت شخصية الفتى القوى الصخاب فى صورة الطفل الحيى الهياب فغاب عن باله كل جبروته ، ومضى عنه اعتداده بنفسه ، ولم يبق منه إلا الطفل الآثم أمام عينى أبيه وقد كادتا أن تتسعرا عليه .

فإن هى إلا تلك الكلمة الرقيقة نطقها عثمان حتى سلبت الذكرى محمد ابن أبى بكر كل إرادته ، وجاءت بطفل الماضى على جناحها ، ضعيفاً أخزاه إثمه فاخفى وجهه فى كفيه عساه ينأى عن نظرات أبيه الغضبى ، ثم أسرعت به قدماه إلى الباب ودمعه يبتدر ، وقلبه من فرط الحزن يكاد أن ينفطر ، ولقى هناك عصبة تهم أن تخلص إلى الشيخ فتنال منه مالم تنل طليعتهم، فوقف يسد أمامها المجاز . لقد انقلب الآن غيره بالأمس ، وارتد آخر يستشعر واجباً جديدا نحو عثمان . إن ذكرى أبيه حملته رسالة واجبة الأداء نحو هذا الصديق المخذول فى ساعة المحنة التى عز فيها الناصر وولى الولى الأمين .

جاهد محمد أصحابه ودفعهم عن الباب بعنف أنكروه منه وملأ نفسهم بالعجب قبل الغضب . ولكنهم ما كانوا ليدعوه يحرمهم ثمرة جهادهم وهى دانية تهد الأنامل . أو يركنوا إلى النصح الذى محضهم إياه إذ ذاك وإن عرفوه

من قبل ثائراً كثلهم يمنى بنجاح خطتهم كنثل عنايتهم ، ولـكن المداورة التى انتهجوها بادىء الأمر حياله لم ترده عن عناده ، بل جعلته أشد مراساً وأصلب شكيمة كأن أبا بكر كان على رأسه إذ ذاك ! .

غالبهم الفتى ما وسعه ، وردهم عن باب الشيخ الذى أقدموا يحملون له الموت فما أغنى غلابه ولا كفاحه ، وما أغنى عنه ندمه أو حياؤه اللذان سددا تصرفه فى هـذه الآونة التى كان القدر قد أتم فيها رسم طريقه إلى مصير عثمان ... فقد ظفرت العصبية أخيراً بما شاءت ، وغلبت محمداً على موطىء قدميه ، ثم جاوزت الباب إلى الخليفة المستسلم لقدر الله .

وبدأت فى التو المعركة التى سادت فيها فوضى الجمهور ، ليس يسيرها عقل، ولا تمسكها حكمة ، الحيوانية البشرية وحدها هى التى كانت تعمل ، والهمجية الرابضة فى نفس الإنسان استوت مارداً عاتياً يشبع شهوته من الحقد والضغن والانتقام ... لـكأن كل واحد من أولئك الثلاثة عشر الذين اقتحموا على الشيخ حجرته كان شيطاناً لم يعرف قلبه طعم الرحمة ، ولم يستشعر مطلقا عاطفة نبيلة جرت فى جنبيه ، بل انطلق بهم جميعا الغل إلى غايته حتى لودوا لو كان منهم مائة كف فى كل كف مائة حربة ، لـكل حربة ، مائة ذؤابة يطعنون بها الخليفة الأعزل ! .

كان الشيخ مأدبة لذئاب نفوسهم المهومة ! . أهوى عليه أحدهم بحديدة، وعاجلة ثان بلـكزة من نصل حسامه ، ووجأ ثالث بمشقص فى ترقوته ... فلما هاض وأوهى قوى لم يمهلوه ، ولم تأخـــذهم الشفقة بضعفه ، بل أمعنوا فى قسوتهم كأن لون الدم الذى أخذت تلفظه جراحه زاد وحشيتهم ، وتعاوروا عليه بكل أداة ملـكتها أيديهم ...

ثم جاء رجل قد أفرغ من قلبه الإيمان فتقدم بسيفه إليه،وضرب المصحف برجله فأطاحه ... وحز الألم فى قلب عثمان وقد رأى قرآن الله يمتهن هـــذه المهانة ، وعز عليه ان يدعه لقى فوق الأرض فجهده وسعه ليلتقطه . فإن هى إلا

حركة دارها النصل حتى انفصلت الأصابع الراعشة عن كفها ، وسقطت تنتفض إلى جوار الكتاب .

وألقى عثمان عينا دامعة على سلامياتة الملقاه ، وعض على شفتة من فرط وجمه ، ثم رفع إلى جلاديه وجها يفضح بألمة العميق ، وهمس بصوت خافت لاتكاد أن تلقفه الأسماع وهو يهز أمامهم كفه البتراء :

« أما والله ... إنها لأول يد خطت المفصل ... وكتبت آى القرآن ... »

وأقبلت نائلة على الأثر ولهى ، تحاول أن تحاجز بين زوجها وبين عداته ، حتى خلصت إليه ... واحتوته فى صدرها كطفل وهو يفوء ، وأكبت عليه حين سقط فسترته عنهم ، وجعلت من جسمها درعا تقيه ، ورأت سيفاً يلمع نصله كالشهاب فوق رأسها ويهم أن ينقض على الشيخ فسارعت بكفها تتلقاه وتدرأ ضربته الصاعقة عن زوجها المهيض ، ولكنها لم تغن شيئاً عنه فى النهاية بل لقداندفعت من الغرفة تولول ويقفوا أثرها خيط من الدم الذى نبع من منابت أصابعها المقطوعة . . . ومضت لاتتبين طريقها بعد أن خلفت عثمان هامد الأنفاس ، قد نال جلاده الوطر وإن بقى يتمتع نفسه بالمثلة كما يشاء ، ويضع السيف فى البطن المبقور ، ثم يتكىء بصدره على مقبضه ليغوص فيه النصل كله ، كأنما أراد أن يسمع قرقعة عظام ظهره وهى تتقصف تحت وطئه كقطع الخاف .

وقضى الأمر ، وانطوى سجل عثمان .. وبدت الحجرة بعد قليل فارغة إلا منه إن بقى من جسده الشائه ما يفىء عنه ، وكان الدم لازال دافئاً لما يبرد ، سيالا يفيض من جراحه ، ويتحدث بلسان صامت عن الهمجية التى لم تستأصل جذورها من النفس البشرية قوة دين ركين ناشىء لم يجف بعد المداد الذى كتبت به تعاليمه ! .. فلقد رقد المصحف بجوار الجثة غير بعيد منها ، عنوانا على السلام الذى أراده الله ورسمه فى آياته للانسانية ، إلى جانب الوحشية التى أبت إلا أن تنضح عنها النفس البشرية ، حتى المصحف المقدس أصابه من عنت الإنسان بلاء ، ومن كفرانه اعتداء ... ولكنه فى صمته كان أبلغ من كل حديث يستطيع

أن يصوغه ناطق مبين ، فلقد حدثت فى هذه اللحظة آية لمن أراد التماس العبرة من هذه القصة الفذة فى العدوان ٠٠٠ كان دم الخليفة لايبى ينبع وئيداً من جراحه ، وينطلق قليلا قليلا قليلا فى نفثات كأنفاس النزع ، ويتجمع قطرات تتساقط على صفحة مفتوحة من الكتاب ، حتى إذا غاض النبع ، وجمدت الجراح وجف سيل الدم المراق على الآيات ، بدت هى من تحته مكتسية لونه ، حمراء قانية كأنها تومىء إلى غضب الله الساهر الذى لا ينام ، فتقول بغير لسان فى أوضح بيان :

« فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »

ونفذ القاتل — وسيفه مازال يقطر من سنانه دم الخليفة الشهيد — فاندفع فى غمار الثوار ، على وجهه سمة الذئب المرتوى من دم فريسته ، وفى عينيه بسمة شماتة كريهة ، وبقلبه قد استراح وحش الغدر وطاب مهده ٠٠٠ مازال يتفرس فى الوجوه المتطلعة نحوه ، ويحث خطاه بين الجموع ، ويشق طريقه غير مبال بما يثيره فى النفوس مظهره المريب إذ يصيح :

« قتل عثمان ! ٠ مضى الرجل أيها الناس ، فأين طلحة بن عبيد الله ؟ »

ولكنه لم ير طلبته ، ولم يستطع أن ينبئه الخبر الذى كان يزجيه كالبشرى السارة ٠٠٠ فقد غاب عن الحومة طلحة ، وانزوى بعيداً حتى لاتلصق به الشبهات ، ففاته أن يشهد بعينيه الثمرة التى طالما تعهد غرسها الخبيث .

٠٠ وغام ضوء الحجرة مسرح المأساة ، وأخذ لون السماء خارجها يتحول دامياً وقد صبغه الشفق ، وكان الأفق البعيد يوشك أن يتلقى الشمس التى أوهنتها رحلة النهار وهى تنزلق نحوه وئيداً لتخفى وجهها المحزون فى نقاب المساء . ثم راحت أطياف تنفذ خلال الشرفة ، خافتة كخفقة السراج الخاف ، وإنساب شعاع وان إلى جثمان الطريح يمسه ، ويمر عليه فى ترفق كأنه أم حانية مدت كفا لتوقظ وليدها الوسنان ، فلقد طال رقاده ، وآن له أن ينتبه ويتهيأ لموعده المرقوب مع الرسول الحبيب ٠٠٠ أليس الغروب قد آذن الآن بانتهاء الصيام ؟ ٠٠٠

الإمام

١

كان المساء قد ألقى ظلاله على الدار وامتد يلف ما حولها من رحاب ، وكانت جموع الحصار حيرى ، قد ألقت السلاح ووقفت واجمة تعلق الأبصار بموئل الخليفة الصريع ، كأن قد هالها ما أقدمت عليه ، شملتها الرهبة التى غلقت المكان كله ، وعمها الصمت حتى لم يسمع تردد الأنفاس .

وكانت الغرفة التى شهدت المصرع ساكنة كأنها قبر وإن وسمها ظهر الأرض ، معتمة وإن طوفت بها أضواء النجم السارية من خلال الغرفة ، لا يبدو شاغلوها إلا كأشباح . مذ انجاب ضجيج المعركة لم تمتد لها يد بالتغيير ، بل بقيت كحالها ، فى جانب رقد جثمان عثمان ، لف من دمائه فى ثوب . وعلى مقربة منه المصحف المضرج ، مازالت إلى جواره سلاميات الأصابع ، مختلطة لا يعلم أيها للشيخ وأيها للزوج الثكلى . والأرض كلها حمراء قانية ، لونها ما سال من جراحه وجراح جلاديه ، فإلى الباب رقدت ثلاث من جثث الثوار دفع أصحابها من حياتهم ضريبة الجريمة ، وقيد خطوات منها بضعة قليلة من موالى عثمان آثروا أن يثأروا لسيدهم فقاتلوا عنه حتى تبعوه إلى المصير المحتوم .

ثم تحركت فى الغرفة ظلال حيرى ، انبعثت عن نفر دخلوها بغير ضجيج كما تتحرك الأشباح . لكأنما كل حاضر نبا به الآن موطىء قدميه فليس يستقر على أرضها القانية بمكان . الرهبة ملكتهم ، والأسى عصف بقلوبهم فما زالت قوة اضطرابها فى جنوبهم تهز كيانهم فتردهم إلى وراء أو تدفعهم إلى أمام . العواطف سيطرت على خطوهم ، والمشاعر الجياشة كانت النوء الذى يلعب بالقارب السارى فى غمار العباب . والحزن الفاجع غشى عيونهم بدمع كثف على مآقيهم حتى أخفى عنهم المرئيات إلا ماتنقبت به من ضبابه . قد سكنوا إلا همسة ، وصمتوا إلا نفسا غير موصول ، فلا تنبىء عن حياتهم سوى الزفرات التى تتردد عنهم . وألقوا السمع والبصر جميعاً إلى الجثة المسجاة التى غللها فوق وب دمائها دمعهم السيال . وألقوا الفؤاد ايضاً إلى ذلك الهوكل المطرح من

اسى إلى جوار عثمان . وأمسكوا أنفاسهم يرقبونه بإشفاق ، ذلك على قد غلبته الفجيعة وأودى به حزنه ففامت عينه ، وهمد حسه ، وراح فى غمرة غشية عاتية أحالته صامتاً صمت الموات . . .

ومضت اللحظات بهم كأنها الدهر الخالد . أو كأن الفلك السيار قد توقف عن دورته فجمد الزمان على حافته جمود المكان . . . وثقلت عليهم نفوسهم حتى غدت شيئاً يحسونه وينوءون تحت وقره ، وتأرجحت أنفاسهم فى الجو تتردد ولا تتبدد . كلهم شغلتهم الواقعة وأذهلتهم عن كيانهم . وقاربت بينهم وبين خمود العدم . وأوشكت أن تميد بهم فتطرحهم كصاحبهم الراقد إلى جوار جثة الخليفة ، لولا مسكة من شعور أبقت عليهم فتعلقوا منها بالوعى بما يشبه الخيط الرقيق . ولم تزل دماؤهم تسير فى عروقهم وانية كأنها تتردد بين التوقف وبين التدفق ، حتى رأوا عليا يتحرك وينفض عنه غشيته فدبت فيهم الحياة . .

وتبعوه فى وجوم وصمت وهو يقهر قدميه على المسير . وكان ابناه واقفين فى صحيهم الشبان ، ناكسى الرؤوس حين جاء الخبر إليهم بمصرع الخليفة . . فما أشرف عليهما حتى سارعا إليه ، وخفت اللغط الدائر على ألسنة القوم . ودار على بنظرات غضبى فى وجوه الفتية . وتلهبت عيناه وانعقد ما بين حاجبيه فى عبسة يكاد ان ينبجس منها الدم . . . ثم أهوى بكف على وجه الحسن وبالأخرى على وجه الحسين . وثار بأصحابهم يلحاهم فانطووا على أنفسهم لا ينطقون هيبة منه لولا أن انبرى له طلحة يقول :

« مالك يا أبا الحسن تضرب وتشتم ! . . . »

فصاح ولم تخف سورة غضبه :

« يقتل أمير المؤمنين وهم بالباب ، ولم تقم عليه بينة ولا حجة ؟ »

« لو دفع مروان ما قتل . . . »

فصمت على . إنه ليعلم أن الخطر على الخليفة كان يجثم دائماً خلف أهل

بيته ، أولئكم العصبة الأموية التى كان على رأسها مروان . فلقد أساءوا توجيه الشيخ ولم يخلصوا له النصح ، وكانوا أقدر على تجنب الفاجعة لو سلكوا سبيل الرشاد . ولكن صلفهم أعماهم ، ومطامعهم الشخصية أبت عليهم إلا التضحية بكل شيء فى سبيل مآربهم . حتى فى هذه الأزمة الأخيرة كان فى مقدورهم إنقاذ سيدهم ، ولكن حماقة مروان أرثت النار الهامدة فى نفوس الثوار ، ولم يكفه أن كانت سياسته من البدء مدعاة لإثارة سخط النـــــاس حتى صار كلما هم الخليفة بإصلاح الأمور يوسوس له فينقض وعوده ويعدل عن الخطة المثلى التى كانت كفيلة بالتفاف القلوب عليه . فلما أن بلـغ الحنق فى النفوس مداه ، وأيقن أن القوم غـير تاركى عثمان حتى يعـزل مشيره الخبيث ، تعجل بنفسه الخاتمـة وقد سبق إلى وهمـه أنه غالب عليهم ، وموطد سلطانه بقوة السلاح مادامت جيوش الأمداد قد باتت من المدينة على مسيرة ساعات . . .

ولكن تقديره خذله ، وانتهت دولته أسوأ انتهاء ، وبات وأهله لا يستطيعون أن يملكوا لأنفسهم نفعاً ولا مضرة . ومن بقيت بقلبه بقية جلد استخفى عن عيون الناس بمعزل خشية أن يظفروا به فيقتلوه . ثم راحوا يتحينون السوانح للفرار من حاضرة الملك التى شهدت لهم صوراً من السيطرة والطغيان ظلت ماثلة فى أذهان الشعب الموتور لا تريم .

واختلط الأمر بالمدينة ، وخرج لتوه من أيدى قريش التى قسمتها الأهواء ، فأصبحت مزقا محاولة بعد أن وحدها قصى من أجيال وجعلها كتلة ترهبها العرب فتعنو لها الجباه . فما بقى منها اليوم قبيل يشعر بشعور أخيه ، أو يمـد كفه ليأخـذ بناصره ، بل تفرقوا جميعهم أمام القوى المتحدة من أهل الأمصار ، وراحت مطامعهم تتجمع لتأخذ لنفسها السلطان ، وكما كانوا فى حياة عثمان يعملون جهدهم لنزع أمره منه ، فقد راحوا الآن يدأبون على الحيلولة بين السلطة وبين كل من أحسوا أنه بسبيل الفوز بها لمزية توشك

أن تؤهله للسيادة . ركبتهم ثانيه عصبية الجاهلية . وغلبتهم على حقهم المشترك بين قبائلهم تلك الرغبة الجامحة التي جاشت بنفوس كل فرع منهم للتفرد بالإمرة من بقية الفروع .

وساد الإرهاب بلدة الرسول ، لايكاد أهلها أن يثبتوا أمام أصحاب الثورة رأى وإن كانوا قد أعانوهم على غايتهم ، فلم يكن ثمة فى أيديهم سلاح يستطيعون به أن يملكوا الزمام ، ولم يكن بينهم رجل واحد يرضون جميعاً أن يلتفوا عليه بعد الخليفة القتيل ، بل مزقت المطامع شمل وحدتهم . حتى قوى الأمداد التي جاءت من الشام لنصرة عثمان لم تتحرك حين بلغها مقتله إلا لترتد على أعقابها كأمر معاوية عائدة إلى الشام ، فقد انتهى الآن واجبها الفعلى ، وأحسنت القيام بدور الغائب الذى أرادها عليه إن وقع المصرع تحت سمعها وبصرها ، لأنها ما بعثت لتنصر وإنما لتبدو فحسب فى ثياب النصير ! ..

ودانت الرقاب لرجال الثورة ، وأصبح الحكم بحاضرة الإسلام فى كف الغافقى أمير المصريين يصرف الأمور ويؤم الناس فى الصلاة ، ولم يكن هذا لأنه طمع فى الخلافة ، ولكنه أيس من تقليدها رجلا يرضاها ويرضاه الناس فلقد أباها على وعزف عنها ، وظل يباعد القوم كلما جاءوا يعرضون البيعة ، ويلوذ بفضاء المدينة بعد أن هجر داره حتى لايلحقوا به ... كان يرى أن يؤول إليه الأمر على يد الطائفة التى توسلت إلى غايتها بالعدوان ، فلما أن طال احتجابه عن الناس تفكرت طائفة من أهل البصرة أن تدلى بالبيعة إلى طلحة ، وأخرى من أهل الكوفة أن تدلى بها إلى الزبير . ومضت كل إلى صاحبها تحاول أن تقدم له هديتها ، ولكن غمرة الحماس كانت قد ولت مع الصباح ، وعادت إلى السيطرة دولة العقل بعد دولة العواطف ، فما إن رأى القوم صاحبيهما يضمهما المسجد حتى صاح فيهما من صاح :

«أيها الرجلان .. إنكما وقعتما فى أمر عثمان فخليا إذن عن أنفسكما ، ودعا الأمر ! ..»

ولعلها كانت دعوة من خبير بخفايا الانقلاب أحب أن يبعد بالخلافة عن كل ذى مطمع ركبت به أهواؤه سبيل الحيف على الخليفة القتيل ... ولعلها من حكيم شاء أن ينهى عهد الطغيان بقطعه الطريق على ذينك اللذين أعانا عليه ... ولعلها من صاحب رأى فى الصاحبين يضن بالإمرة على كليهما وهو مؤمن أنهما أهون شأنا من أن يصلحا لقيادة شعوب الإسلام ... على أى حال لقيت هذه الدعوة عند الجموع المزدحمة بالمسجد ذلك النهار هوى جعلها تتقبلها أحسن القبول . وترددها جادة غير هازلة . وتطلق أحاديثها المتجاوبة فى أبهاء المكان تجبه الرجلين بأشنع اتهام ولا تتحرج أن تلقى على رأسيهما تبعة قتل عثمان ...

وفزع طلحة فقد رأى الناس يثوبون إلى عقولهم بعد أن انجابت عنهم غمرة العواطف ، ويندمون أشد الندم على ما انتهى إليه مصير الخليفة الشهيد ، ويأسون لحاله أسى ودوا معه لو كانوا استطاعوا التريث به وإمهاله لعله ينزع عما عابوا عليه . وفى كل قلب منهم إذ ذاك نقمة من الزمن الذى جرى بهم شوطة إلى نهاية كريهة تعجلها فى البدء غضبهم ثم أنكرها وعيهم حين لم تعد ثمة جدوى من الإنكار ... فزع طلحة من هول الاتهام الموجه إليه وتبين شناعة الصورة التى تجلت منه لأعين المسلمين ، فقام إلى المنبر لعله يستطيع أن يضفى ظلالا كثيفة تحجب عن أذهان الناس ماتمثل فيها من صورته الشوهاء ...

قال يوضح لهم حقيقة موقفه من عثمان :

« ... أما بعد ، أيها الناس ، إنا والله ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس . إن عثمان خلط الذنب بالتوبة حتى كرهنا ولايته ، وكرهنا أن نقتله ، وسرنا أن نكفاه ، وقد كثر فيه اللجاج ، وأمره إلى الله » .

وهب الزبير على الأثر يدفع عن نفسه ، ولكنه فى دفاعه كان أحكم من صاحبه ، وأعرف منه بالوسيلة تشغل عنه ظنون الناس لأنه كان أقدر على توجيه انتباههم إلى قضية آثر عندهم من قضية الاتهام ، هى الاستخلاف قال .

« أيها الناس ... إن الله قد رضى لكم الشورى فأذهب بها الهوى ، وقد تشاورنا فرضينا علياً ، فبايعوه ... » .

وتهامس القوم ، وتنقلت نظراتهم الدهشة بين الصاحبين ، قد أجمعا إذن الرأى ، وخرجا من البيعة لمن رأياه أولى بها عند الاختبار فألفا بين تيارات الأفكار المختلفة التى كانت تتفرق بها آراء أهل الأمصار ، لامدعاة الآن إلى الخلاف بين الكوفة والبصرة ومصر مادام الزعيمان قد دانا فى النهاية وأقرا بالإمرة للثالث العظيم .

وراح الزبير يتم حديثه عن عثمان والناس بحسبانى يشغلهم عن الإنصات لخاتمة بيانه جلال ما أزجى إليهم فى مقدمته .

« ... أما عثمان فأنا أقول فيه إن أمره إلى الله ، وقد أحدث أحداثا ... والله وليه فيما كان »

ولكن علياً لم يستجب لهم ، وظل مؤثرا الاعتزال ، يرد كل من جاءوه منهم يعرضون البيعة ، ومضى يوم،وتبعه آخر والأمر على ما هو عليه ،لا يستبين الناس لهم مخرجا من الحرج الذى أصبحوا فيه . وثقل على الثوار أن يسير فى البلاد نبأ مقتل عثمان ولا يسير معه نبأ اختيار خلف له على الأمة فتفسد الأمصار ويتناحر أصحاب الهوى والأغراض فتنحل عرى الدولة . وكانت الحيل قد أعيتهم من قبل دون حمل أحـــد من أصحاب رسول الله المقربين على قبول الخلافة .

فلقد آثر سعد الحيدة ، وأبى ابن عمر إلا إعتزال السياسية والبعد بنفسه عن خضمها الصخاب ، ووضح لهم موقف الزبير وصاحبه وما بدا من تهيبهما إدخال أنفسهما فى أمر يرى الناس أنهما جنحوا فى سبيل الفوز به إلى العدوان . ثقل على رجال الثورة أن يذهب جدهم هذا عبثاً فأجمعوا الرأى على سلوك طريق العنف والإرهاب،عساهم به يستطيعون توحيد الكلمة وإنهاء مشكلة الاختيار .

وتنادوا فيما بينهم ، وانطلقت رسلهم بالمدينة إلى كل صوب يجمعون من

يلقون من أصحاب رسول الله ومن كبار المهاجرين والأنصار، ونشطت الرسل فيما طلب إليهم ، وأخذو تباعاً يعودن بذوى الشأن فى البلدة ومنهم من قد أوشك أن يبرحها إلى مكة أو استخفى فيها بحائط أو بناحية ... فلما حشدوهم جميعاً فى مكان واحد ، وفيهم طلحة وسعد والزبير والكثرة الغالبة من الصحابة قام فيهم متحدث عن المصريين يقول :

« ... يا أهل المدينة ، إنكم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الإمامة ، وأمركم عابر على الأمة ، فأنظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبع » .

فتهاتف الناس من كل جانب :

« على ... على بن طالب ... نحن به راضوان . »

« فدونكم ، وإنا لمؤجلوكم يومين اثنين ، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً من رجالكم كثيرين ! ... »

وشهد مسجد رسول الله لثالث مرة منذ وفاة محمد تلك الفئة الخالصة القلوب من الشوائب ، الذائدة عن الحق للحق ، تجتمع لتجأر بالدعوة التى أشربتها نفوسهم الصافية، وغلبهم الزمن عليها أعواماً حتى أوشكت ان يحتويها النسيان ، شهد المسجد أولئك النفر من أصحاب محمد الأوفين الذين لم تفسدهم الأهواء والمطامع ، يقومون ثالثة لنصرة القضية التى قاموا فيها ساعة استخلاف أبى بكر، ويوم اختيار عثمان ، ويرفعون أصواتهم فى الملأ اليوم يطلبون بها النصف عند كل حريص على إقامة الحق ورفع دعامانه، لم ينتقص مر الأعوم من شجاعتهم،ولا إخلاصهم لصاحبهم الذى آمنو بحقه ومزاياه ، ولم يفكل عنهم واحد من جمعهم القديم إلا من كان التراب قد طواه ، وإنا لنراهم الآن من خلال الماضى كما كانوا من قبل ، لولا أن الزمان جرى بهم أشواطا طويلة فى خريف العمر ، ولكنهم مع ذلك ظلوا ذوى قلوب فتية وأرواح قوية قوية . قد التأم جمعهم القديم كسابق عهده لتحقيق هدفهم المرموق ، فيهم عمار ، وأبو الهيثم ، وأبو أيوب

ورفاعة ، ومالك بن العجلان ومن لف لفهم من أصحاب على الغيورين على حقه أشد من غيرته عليه .

التأم جمعهم بالمسجد ذلك النهار كاجتماعهم بفضاء بنى بياضة تلك الليلة الأولى من عهد أبى بكر ، يتدارسون الحال ، ويتذاكرون الوسيلة الكفيلة بإعادة الحق القديم إلى صاحبه وصاحبهم صفى حبيبهم رسول الله ، وكانت طوائف من أهل المدينة قد علمت بأمرهم فأقبلت عليهم ، ثم طفقت الجموع من بعد تفد فتمتلىء بها رحبات بيت الله حتى ضاق المكان بمن فيه .

ووقف أخيراً فيهم عمار يقول :

« أيها الأنصار ، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه . وأنتم اليوم على شرف من الوقوع فى مثله إن لم تنظروا لأنفسكم ، وإن علياً أولى الناس بهذا الأمر ، لفضله وسابقته » .

فامتلأ المسجد بصوتهم الداوى ينطلق كمن فم رجل واحد :

« رضينا به » .

فالتفت صوب الحشد الزاخر وفيه كثيرون من المهاجرين وقال :

« أيها الناس ، إنا لن نألوكم خيراً وأنفسنا إن شاء الله . وإن علياً من قد علمتم . وما نعرف مكان أحد أحمل لهذا الأمر ولا أولى به » .

فجاءه على الأثر من الجموع الحاشدة الجواب الذى أثلج صدره وطيب خاطره وباله :

« قد رضينا ، وهو عندنا على ما ذكرتم وأفضل » .

فانطلقت طوائفهم إلى على وفيهم الزبير وطلحة تتبعها زمر من أهل المدينة ومن رجال الأمصار على السواء . وكان معتزلا بداره فضربوا عليه بابه حتى أخرجوه وهو مستكره . والتفوا عليه من كل جانب يهتفون له ، ويهيبون به أن يقبل بيعتهم ، قالوا له :

« يا أبا الحسن . إن هذا الرجل قد قتل . ولا بد للناس من إمام . ولا نجد

اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله ».

فأبى أن يستغل عاطفتهم الكريمة التي دفعتهم الآن إليه . بل قبض دونهم كفه ، وأجاب :

« لا تفعلوا ولا أفعل ، فإني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً » .

فتهاتفوا به ثانية :

« أنت لنا رضى » .

فهز لهم رأسه إباء وقال :

« لا حاجة لي في أمركم أيها الناس . أنا معكم ، فمن اخترتم فقد رضيت به » .

وصاح به من بينهم الأشتر مالك بن الحرث أحد زعماء أهل الكوفة :

« والله لتمدن يدك نبايعك أو لتعصرن عينك عليها ثالثة ! » .

فلعله حسب أنه بصدد رجل يأسى على ما فات من نصيبه في هذه الحياة ، أو يعنى بعرض من عروضها جل أو هان .

ولكن علياً لم يعجل به ، ولم يستسلم للغضب عليه ، بل قال في هدوء يخاطبه ويشرك القوم في الخطاب .

« دعوني والتمسوا غيري أيها الناس ، إنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان ، لا تثبت عليه العقول ، ولا تقوم له القلوب » .

وأحس الأشتر على الأثر بسوء ما كان منه . وشعر أنه حيال رجل ليس كسواه بل من طراز فذ في الرجال يستقبل الأمر بالنظرة الجادة التي تستطيع النفاذ إلى أغواره واستكناه خفاياه ، ولئن كانت الخلافة هدفاً له منذ قديم فإنها لم تكن مطلقاً كل أهدافه ، ولم تكن غاية رنا إليها طموحه ، بل هي وسيلة إلى غايات أعز عليه من السيادة وحكم الناس هي العمل لإعزاز الدين والسمو بنفوس الناس ، أما مظهرها ، وجاهها الرفيع ، والمجد الذي قد تسبغه على شاغل مقعدها ، فكلها هنات لا تملأ من قلب ابن أبي طالب مثل ما تملأ شعرة .

ورفع الأشتر إليه وجهاً يفيض بالإكبار . وراح فى توسل يهيب به باسم الإســلام واسم الأمة أن يستجيب لثقة الناس به فيقبل الواجب الذى لا يستطيع غيره القيام به فى هذه النازلة التى توشك أن تدك صرح الدولة الفتية . . ثم أردف توسله فى ختام حديثه بأن قال :

« ننشدك الله ، ألا ترى ما نرى ؟ . ألا ترى ما حدث فى الإســلام ؟ . ألا ترى الفتنة ؟ . ألا تخاف الله ! ؟ . . »

وأنصت القوم من بعد صامتين ، وقد تعلقت عيونهم بشفتي الكهل الذى تجسمت فيه آمال أمته ، وانتهت إليه مشيئتها وقد أشفقوا أن يجيئهم جوابه بغير ما يشتهون . ولــكنه قال بعد روية وتفكير :

« قد أجبتكم لما أرى منكم . . . ألا فاعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم ، بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم » .

فصاحوا به هاتفين وقد تفرجت منهم الصدور :

« ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك » .

فابتسم لهم ابتسامة رقيقة ، وقال وهو لا ينسى خطته فى التزام مثله العليا حتى فى هذه اللحظة التى أجمعوا فيها رأيهم على تقليده إمارتهم :

« إن كان لا بد من ذلك ففى المسجد ، فإن بيعتى لا تكون خفياً ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين ، وفى ملأ وجماعة » .

واتعدوا الغد ، وتفرقوا عنه وكلهم راضى النفس يكاد أن يرى الخير فى ركاب المستقبل ، فلما أشرق نهار الجمعة ساروا والشمس إلى قبلة أنظارهم ومهوى عواطفهم ، وطفقت جموعهم تزيد وتتكاثف حول داره حتى غص بها الفضاء ، وخرج إليهم فتداكوا عليه تداك الإبل الهيم على وردها حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً من فرط ازدحامهم عليه وشدة رغبتهم فى الخلوص إليه كأنما لم يشاهدوه إلا اليوم . . . ثم انطلقوا وإياه إلى المسجد وأصواتهم لا تكف عن التهليل والتكبير .

وصعد المنبر ، وألقى بصره هنيهة على الجموع الزاخرة التي ضاق بها المكان فوقفت خارجه كأنها البنيان المرصوص ، ورفع صوته بالكلام ، فحبسوا الأنفاس.

قال بصوته الرصين :

« ياأيها الناس . . عن ملأ وإذن ؟ . . إن هذا أمركم ، ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم ، وقد افترقنا بالأمس على أمر ، فإن شئتم قعدت لكم ، وإلا فلا أجد على أحد » .

فزلزلت الأرض بالهتاف له ، ثم بان جوابهم الصريح كالهزيم :

« نعم . . نحن على ما فارقناك بالأمس » .

«ألا أني كنت كارهاً لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم . . رضيتم ؟ »

« نبايعك على كتاب الله » .

« اللهم اشهد عليهم » .

فتدافعوا إليه كالموج ، يلتفون بالمنبر وقد سبقهم نحوه كبار المهاجرين والأنصار . . . كل يرجو أن يكون له شرف البدء بتحيته قبل غيره بسلام الخلافة .

ووقف حبيب بن ذؤيب على كثب منه ، وقد منعه تدافع القوم من الوصول إليه فآثر التريث حتى تبين له فرجة بين الجموع ، وراح يرقب البيعة ، ويتلهى بتصفح الوجوه التي اجتمعت حول المنبر وأصحابها يهمون أن يعلنوا ولاءهم للأمير الجديد . وأخذت نشوة الفرح بقلب الرجل . وطابت نفسه وهو يشهد وحدة قومه بعد تفرق ، لتكاد المدينة كلها أن يحتويها المكان . وأوشك ألا ينقص الجمع الزاخر أحد من أصحاب رسول الله . بدت البيعة ذات جلال ، جامعة ، قوية العمد إذ تستند إلى إرادة الشعب ، فلم يتخلف عنها السادة ولا الجمهور . وقاربت روعة هذا أن تنبيء عن عصر زاهر سعيد يلتئم فيه شمل الأمة ويعلو شأو الإسلام .

ولكن ابن ذؤيب قعد عنه أمله ، وذبلت فرحته ، فإن هي إلا عين رفعها

إلى المنبر حتى غاص قلبه وأوشك أن يكف عن وجيبه ، إن هاتفاً راح يهمس له الآن فى أذنيه ، تلك اللحظة التى رأى فيها طلحة يصعد درج المنبر إلى على ، هاتفاً عاتياً ، مدوى الصوت فى سمع ضميره أخذ يلح عليه بوسوسته حتى ماملك أن طفق يردد لنفسه فى ذهول :

« أخلق بها أن تنكث » .

ثم ثاب . فلما أن وقعت عينه على المنبر ثانية ، ورأى هناك يد طلحة تمسك بكف الإمام ، أحسها تعتصر قلبه فى قبضتها ، وتستنزفه ما بقى فيه من قطرات أمانيه فى العصر الزاهر السعيد المأمول ، وقال وقد غلب عليه التطير :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، أول يد بايعت أمير المؤمنين شلاء ؟ . لا يتم إذن هذا الأمر » .

٢

ترك عثمان تراثاً من العوسج فى أيدى خلفه ؟ . . الأهواء تلعب بنفوس السادة حتى لا يتفق اثنان فيهم على رأى . والتذمر يأكل قلوب العامة وهم يرون الخاصة قد استلبوهم حقوق المساواة التى أقرها لهم الإسلام ، والفرقة تضرب بين أقطار الدولة حتى ليحسب كل قطر أنه الجدير بالسيادة دون بقية الأقاليم .. حتى أولئك الذين هيأهم الزمن منذ قديم لقيادة العرب كانوا قد مزقتهم المطامع ، وأصبحوا الآن فرقاً تعرف بأسرهم بعد أن كانوا كتلة تعرف بقبيلتهم فترهبها بقية القبائل وتدين لها بالطاعة . فما عادت اليوم ثمة قريش التى عنت لها الجزيرة فى الجاهلية وإبان الأيام الأولى من ازدهار الإسلام ، بل غدت بيوتاً محلولة لا يؤلف بينها ذلك الهدف القديم الذى استوحته من ماضيها المجيد والتزمته فسادت به على الرقاب . فلقد صحت أحقادها ثانية . ورجع إلى الحياة ما كان قد نام من أضغان بعضها على بعضها الآخر . وأصبح الرجل منها لا يأخذ نفسه

بانتهاج السياسة العامة لقريش فى سيادة العرب بقدر ما يأخذها بانتهاج السبيل الذى يرفع شأن بيته وحده . ثم قد لا يتوانى عن طرح هذه السياسة الجزئية واعتناق أخرى فردية إن ظن هذه كافلة له سيادته هو على بقية أهله وذويه . .

كذلك كانت الدولة الإسلامية حين تسلمتها يدا على . وكذلك كانت النفوس فيها تتقاسمها النوازع والأهواء الشخصية ولا يربط بينها غرض عام ولئن بدا من بعد أن كثيراً من فروع قريش قد اصطفت جيشاً واحداً تناجز الفرع الهاشمى فى شخص على ، فلغير مصلحة عامة كان هذا التجمع ، بل كانت جميعها تعمل وفى بالها أن تزيح من طريقها منافسها الخطر الذى لا تستطيع — متفرقة — أن تقدر عليه . فإذا فرغت منه فأيسر اليسر بعد هذا أن يستقيم الأمر لأحدها إن عرف كيف يخضد شوكة بقية الفروع . . .

هذا هو الطابع الذى وسم خطط منافسى على ووحد كتلهم على كثرة ما كان بينهم من اختلاف ، فلقد كان لكل فئة منهم هدفان : واحد عام يسدد خطوها وخطا زميلاتها جميعاً ، وآخر خاص تنفرد وحدها به ، وتعمل جاهدة لبلوغه بغير معونة سواها وإن وطئت فى سبيله بقية الأحلاف . فليس عجباً إذن أن ينتظم معاوية والزبير وطلحة وابن العاص وغيرهم من حساد على عقد واحد ، يجمعهم كلهم حرباً عليه كى يكاثروه فيغلبوه ما دامت كل طائفة منهم ستجهد لتكون وحدها المنتصرة فى نهاية المطاف . وما نحسب هذه الظاهرة إلا جلية تمام الجلاء فى تصرف الزبير وطلحة اللذين نكثا بيعة الإمام واعتسفا الأسباب للشغب عليه . فلقد وحد بينهما حسدهما فقاما فى جيش لجب يحاولان انتزاع الأمر من يد على ، وإنهما ليختلفان فى الطريق على أيهما تكون له الإمرة بعد الانتصار .

تراث من العوسج خلفه عثمان ! ولكن علياً لم يكن الرجل الذى يرهب الشدائد أو تنقصه القدرة على الكفاح . فمنذ اللحظة الأولى تبين

خطر المهمة التى تنتظره . ولم يخف عنه شىء مما فى نفوس القوم أو خلف الأحداث . بل استشف الحقيقة كلها فعلم أنه مقبل على أمر له وجوه وألوان لاتثبت عليه العقول ولاتقوم له القلوب ، يوشك أن يفتتن فيه الناس ويتفرقوا شيعاً شتى ، تتناحر فرقهم ، ويضرب بعضهم بعضاً ، لم يغب هذا عن عين بصيرته ، ولم يكتمه عن أمته بل طالعها به منذ اللحظة التى أدلت فيها إليه بالبيعة حتى لكأنما كان يقرأ من كتاب مفتوح وهو يخطب الناس فيقول :

« .. ألا إن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم ... والذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدرحتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم . وليسبقن سابقون كانوا قصروا ، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا . . . والله ما كتمت وشمة ، ولا كذبت كذبة ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم ... »

ولكنه قرن به واجب لزام عليه أن ينهض به . فليس يعفيه من التبعة أن ينكل عما وكل إليه وإن استشف النتائج الكفيلة بتثبيط عزمه . . . كلا . فإن هو إلا صاحب رسالة واجبة الأداء فى دنياه لا يقاس فيها إخلاصه بالنتائج وإنما بالجهد المبذول فى سبيل الوصول إلى الغاية التى من أجلها كافح كفاحه . والخير له أن يناضل الباطل بلسانه وكفه وسيفه ثم يقع فى الميدان من أن يقبع صامتاً دون أن يحرك جارحة ويفىء بالأمن والسلامة .

كلفه بالحق لذات الحق هو الذى قسره فى النهاية على قبول الولاية . فلم يكن يعرف أحداً فى الناس أصلح منه لقيادة شعبه ، ولا أقوى على حمل الأمانة التى تضمها تبعات الحكم على كواهل الحكام ، ولا أعلم منه بمعاقد الطرق التى تؤدى به إلى العدالة الشاملة التى كانت الغاية من رسالة الإسلام . وقد كان هذا الشعور دائماً مفتاح صراحته وشفافية نفسه ، ومركبه إلى غاياته بغير مداورة ولا التواء . . . سئل غب مقتل عثمان عن رأيه فلم يكتم عن الناس ما يحسه . ولم يحد عن ديدنه فى المجاهرة بما يرى فى وضوح

لا يتلبس بمجاملة الشيخ القتيل أو يتملق الجماهير المادية عليه وإن كانت إذ ذاك صاحبة الكلمة العليا والجناب المهاب . بل قال :

« . . . أنا جامع لكم أمره : استأثر فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع. ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع . »

وتلك الصراحة السافرة التى ميزت أقواله قد وسمت بطابعها أيضاً فعاله . فكما جعلته من البدء يعلن على الملأ حين أرادوا بيعته أنه سيركب بهم ما يعلم ولا يصغى إلى قول قائل أو عتب عاتب ، فكذلك أتبع القول بالفعل حين بايعوه ولم يصبر عليهم بعض يوم حتى بادرهم بما يعلم ، وسار سراعاً إلى الخطة التى آمن من قديم أنها الأقوم ...

لم يصبر عليهم سوى بعض يوم تهيأ فيه لإلغاء النظام القائم منذ عهد عمر نحواً من عشرين سنة نحالته الرسوخ فى الخواطر كرسوخ الإيمان . . . فلقد كان على ثقة من أن عمر ، حين أمر بتقسيم الفىء وفق أقدار الناس وقدمتهم ، قد استجاب لعاطفته أكثر مما استجاب لعقله . وأنه بنحوه ذاك فى التقسيم قد استحدث نوعاً من العدالة الخاصة جنح به عن العدالة المطلقة . أما هو فقد أبى اليوم أن يقر السياسة العمرية ويسير عليها كما سار سلفه . لم يصده عن إبائه أن أصبح لها بمر الزمن مثل قداسة العقيدة فى بعض الأذهان، ولا الغضبة التى لا بد سيثيرها التغيير فى قلوب أولئكم الفئة التى ميزها بالعطاء عمر وعثمان . . . إنه ليعلم أنهم سادة ، وأن خلفهم زمراً من الأهل والنصراء يغضبون لهم ، وأن ملكه الجديد غير وطيد قد تعصف به أية معارضة يشنها عليه القوم . غير أنه وقد آمن أن طوائف الشعب كلها فى الحق شرعاً سواء ، لم يروجها لتمييز الخاصة ، بل وضعهم مواضعهم حيثما وضعهم قبله النبى على ذات الدرجة التى تبوأتها العامة . وقام فى المسجد ثانى أيام بيعته يدلى برأيه ، ويبسط السياسة التى شاء كافه بالعدالة المطلقة أن تكون قوام عهده وقال :

« . . . أيها الناس . . . إنما أنا رجل منكم ، لى مالكم ، وعلى ما عليكم .

وإنى حاملكم على منهج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به ... ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود فى بيت المال ... فإن الحق لا يبطله شىء . ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك الإماء ، وفرق فى البلدان لرددته . فإن فى العدل سعة ، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق ... أيها الناس ... ألا يقولن رجال منكم غداً — قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار ، وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيل ، واتخذوا الوصائف المرققة — إذا مامنعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون : «حرمنا ابن أبى طالب حقوقنا » ... ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته فإن الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله ... ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله فصدق ملتنا ، ودخل ديننا ، واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . فأنتم عباد الله .. والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء ... فإذا كان الغد فاغدوا علينا إن شاء الله ، ولا يتخلفن أحـــد منكم ، عربى ولا عجمى كان من أهل العطاء ... »

وبهذا الوضوح رسم لهم سياسته القائمة على العدالة الشاملة التى تسع جميع الناس سواء بسواء ، ولا تضع حواجز من المزايا تفرق بينهم أدنى تفريق . وهدم بها ما كان قائماً حتى اليوم من شرعة عمر فى التقسيم . بل هو فى الحق حقق حلم عمر الذى كان يراوده فى أيام عهده الأخيرة لما تبين أن سياسته فى توزيع العطاء قد جرت إلى قيام حواجز مالية واجتماعية بين طبقات أمته كانت فيما بعد ذات أثر هدام فى بناء الدولة الوطيد ...

ونشط فى إنفاذ ما عزم عليه فصادر ما أقطعه عثمان بعض آله ورجاله من أراض وأموال .. وتتبع كل درهم بذل فى غير وجهه ولغير مستحقيه فأعاده إلى بيت المال . وغدا الناس عليه فى الموعد كما أمرهم فقال لكاتبه ابن أبى رافع :

« ابدأ بالمهاجرين يا عبيد الله ... »

وما زال قائماً معهم يفرق عليهم أنصبتهم حتى أخذ كل رجل من المسلمين حقه كاملا غير منقوص من العطاء ، لا فرق فيهم بين كبير وصغير ، ولا بين أصيل ودخيل ، ولا بين سوقة وخاصة ، بل استووا كلهم لديه وإن اختلفوا في الجنس والمقام ، فكذلك جعلهم الله في الشرع سواء .

فمن عجب أن تنكر عليه بعض النفوس هذه العدالة الجديرة بأن تلقى منهم أطيب الثناء ... ولكنهم كانوا فئة ألفوا أن يتميزوا على الناس وتكون لهم من دون الشعب طبقة رفيعة تتميز بالمزايا المادية كما تتميز بالمزايا المعنوية التي ورثتها في قطرات الدم الأصيل الذي تمتلىء به خدودهم المزهوة ، فما العرب كقريش ! وما العجم كالعرب ! وما الدهماء المغمورون كالسادة الأمجاد ذوي الأنساب ..

ولقد بلغ من شدة إخلاص هذه الطائفة لتقاليدها الجاهلية أن نسيت أنها وقد اعتنقت الإسلام قد أقرت لغيرها من المسلمين بحقهم مثلها في التمتع بقوانينه وإن فرقت بينهم وبينها فوارق من اختلاف اللون واللسان ، وغلب عليها الصلف حتى حسبت أنها إذ تمشي إلى الإمام تبلغه إنكارها هذه السياسة الجديدة فإنه سيبادر مسرعاً إلى استرضائها وإعادة الأمور على ما تريد .

وكذلك اجتمع له جمع منهم كانوا أحرص على دنياهم ، فلما أن سألهم عما جاءوا فيه ، ألبسوا مطالبهم ثوب النصح ، وراحوا يبدون كمن يخشى عليه الثورة التي توشك أن تؤججها سياسته في نفوس من أودت بمزاياهم من علية القوم .. فقال لهم وهو لا يخفي عنهم دهشته وإنكاره لما يطلبون :

(أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ . والله ما أطور به ما سمر سمير وما أم نجم في السماء نجما ! .. لو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله ؟ ... ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير ، وإسراف ، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة) .

أفغاب عن هذه الطائفة إذ ذاك أنها كانت تتشبث بحق موهوم لا سند

له من دين الله أم هم يا ترى غضبوا للدنيـــا وحرصوا على عروض الحياة ؟ أم المال كان فتنة طغت على الصفاء الروحي الذى كان قد أوشك الإسلام أن يهبهم إياه ؟ . لئن التمسنا لهؤلاء العذر فى تحيفهم على الحـق الأبلج وركوبهم هوامم ، فهل ثمـــة عذر واحد نستطيع التماسه لصاحبي رسول الله — لطلحة والزبير — اللذين اعانا الدين إبان محنته ، وناضلا عنه حتى انتشرت ألويته فى الآفاق ، ولم يتوانيا فى سبيله عن البذل بالدماء والأموال ، وعرفا قبـــل غيرهما أنه شرعة إيثار وتضحية وناموس عدالة وتسوية ؟ . . لقـد يجهد المرء فى البحث عن الأسباب التى حملتهما على معارضة الإمام فى نظام التقسيم الجديد ، فلا يستطيع مع إحسان الظن بهما إلا ان يجـدها سبباً واحداً ، هو الهوى الشخصي ، دفعهما إلى مناجزة على وهو على حقه ، وإلى اعتساف الدواعى التى تشغب عليه امره وتضع فى سبيله العوائق والعراقيل .

ولـكن أمير المؤمنين لم يثر بهما حين جاءا يـكشفان له عن أولى بوادر الخلاف التى أوشكا أن ينشباها فى صرح حكمه . . لاحا كأنمـا هما أن يشيرا عليه مشورة خير ويلقيا أمامه بالعتاب الناعم الذى يرجوان من ورائه استقامة الأمر له ، ولـكنه كان على بينة من حقيقة المشاعر التى يخفيان . . . قال بصوت هادىء يسوق فيه العظة والملام فى آن :

« أماما ذكرتما من أمر الأسوة يا إخوتاه فإن ذلك أمر لم أحـكم أنا فيه برأيي ، ولا وليته هوى مني ، بل وجدت — أنا وأنتما ! — ما جاء به رسول الله قد فرغ منه ، فلم أحتج إليكما فيما فرغ من قسمه وأمضى فيه حكمه ، فليس لـكما والله — ولا لغيركما — عندى فى هذا عتبى » .

فلما أوشكا أن يبرحا عنه ، لم يفته أن يزجى إليهما النصح الواجب والحـكمة البالغة ، وكلاهما يفصح عن موقفهما منه وموقفه منهما أتم إفصاح .

قال وهو يشيعهما إلى البـاب :

« ألا رحم الله امرءاً رأى حقاً فأعان عليه ، أو رأى جوراً فرده وكان عوناً بالحق على صاحبه ! » .

ومع ذلك فقد مضيا مع الهوى إلى الغاية ، وخرجا من لدنه إلى السادة ورؤوس الناس يحرضانهم عليه ، وينقمان منه أنه خالف سنة عمر فى التقسيم ، كأن عمر حرى بأن يصيب دون رسول الله ! . . ولقد لقيت دعوتهما صدى فى النفوس الصاغية للدنيا فالتف بهما قوم ميزهم التوزيع العمرى ووضعهم العلوى حينما أرادت شرعة المساواة . . ووقفوا جميعاً يتحينون اللحظات عساهم يستطيعون أن يديلوا دولة هـذا الرجل الذى لا يأبه فى حكمه بعراقة الأنساب أو مفاخر الأحساب ! . . والذى نزل بأقدارهم إلى مثل الدرك الذى كانت عليه أقدار الفرس والمصريين ونحوهم من الأجناس الدنيا حتى أمس القريب ! .

ولكنه لم يلق بالا إليهم ولا إلى ما لغطوا به ، فقد كانوا أهون عليه من أن يثير بينه وبينهم فتنة على خلاف لم يتعد بعد حيز الدعوة الخافتة التى تجبن عن رفع صوتها بين الناس ، وآثر أن يصبر عليهم ، فإن فاءوا إلى الرشد فخير ، وإن لجوا فى الغى فليس يعيى حقه أن يقوم لباطلهم ، وبحسبه أن ينهض اليوم لنشر رسالة الإسلام بالتمكين لتعاليمه فى القلوب قبل نشر بنوده وأعلامه فى أقطار الأرض ، وإنه لآخذ بهذه السياسة منذ اللحظة الأولى التى بدأ بها حكمه ، عامل على إقرارها لأنها المبدأ الأسمى الذى بعث الله به رسوله وجعله الوسيلة إلى جمع العالم كله فى دولة ، الأجناس البشرية كافة فى وحدة إنسانية لا تفاوت بين طبقاتها وأفرادها رغم اختلاف الألوان ، إنها العالمية ، قبل أن تتحرك بها ألسنة الدعاة والمصلحين ، دعا بها محمد بين الناس ، والأخوة الشاملة لجميع الخلق ، رسم خطوطها القرآن وأقامها على عالم مرجو فاضل ، عماده المساواة فى الحقوق والواجبات ، لقد جاء اليوم على ينفض عنها ما علق بجوهرها من آفات الأهواء ، وأخذ نفسه بالتمكين لها فى قلوب أنصارها الأولين ليكونوا لها دعاة هادين تدين بمثلهم العليا أقطار الأرض ، فلقد علمه الزمن أن الحياة بلا هدف سام عبث مرذول تأباه كل نفس مشرقة تؤمن بوجودها قبل أن تؤمن بوجود الأديان

ولقد كفى الإسلام هذه النفوس المشرقة مؤونة استقصاء الأهداف المثلى لأنه وضعها تحت بصائرها صريحة واضحة فى غير تلبس ولا إبهام ، وجمعها كلها فى كلمة واحدة نمت عنها آيات كتابه ، وبدت جلية حتى فى شعائره ... ولعل ثمة شعيرة من شعائر الإسلام لا تنطق بالمساواة ولا تدعو إليها بأفصح لسان؟.. إنا لنلمسها بينة فى الصلاة يستوى فيها العزيز والذليل ويقفان موقفاً واحداً بمكان واحد ، ينطقان بنفس الألفاظ ، ويأتيان نفس الحركات . ونلمسها فى الزكاة التى تأخذ من الغنى بعض عروض الحياة لترده على الفقير حتى يشعر كلاهما — وإن باعدت بينهما الأنساب — بشعور الإخاء . ونلمسها فى الحج تزدحم بأرضه المقدسة أقدام الرجال والنساء ، فلا يميز بينهم فارق واحد من الفوارق الاجتماعية التى قد تملى لها أهواء الإنسان ، بل تراهم عند القيام بمناسكه حفاة شبه عراة ، لا يسترهم إلا ذات اللباس يستوى فيه كافة الناس ، أردية الأكفان ! . التسوية الحقة هى جماع الإسلام والغاية التى هدفت إليه شعائره وتعاليمه وأتاح لهم جميعاً تكافؤ الفرص فى موقفهم أمام الله ، لافضل لعربى على عجمى ، ولا لخاصة على عامة ، ولا لأمير سائد على عبد مملوك بل لعل أبلغ مظهر من مظاهر التسوية أن هداهم إلى رب واحد — وكانوا من قبل يتجهون إلى آلهة شتى — لتكون المساواة بين الخلق أجمعين تامة فى كلا الروحانيات والماديات .

هذا هو الهدف الأمثل الذى عنى على بإخراجه من حيز الكلمات المنقوشة فى الأسفار إلى الحياة العملية ، وأخذ نفسه من البدء بتطبيقه على شعوب دولته المترامية لتكون شعباً واحداً كرجل واحد ، فتتحقق به وحدة العالم الوسيع الأطراف .

العالمية كانت الغاية التى سعى إليها مهتدياً فى طريقة بنواميس الشريعة وبما جبلت عليه طبيعته المنطوية على إنسان كامل يريد أن يطبع على شاكلته كل إنسان ، ولقد عاش عهده كله وهذا رائده ، فكان قويا كالرمح ، عادلا

كالميزان ، تستجيب له كل نفس كلفة بالمثل العليا كنفسه ، مؤمنة بحق الإنسانية الفاضلة عليها ، وبحق الأخلاق السامية ، المتجردة من أوشاب الأهواء ...

٣

كيف استقبلت قريش بيعة الإمام ؟ ... ليكاد أن يبرز وجه الماضي سافرا من خلال الحاضر . فالحسد هو الحسد . والحقد هو الحقد . والوسائل الخفية التي جيشت من قبل الحرب بني هاشم هي ذات الوسائل . ولو كان خلي بين قريش وبين الأمر لوسعها اصطناع الأساليب الكفيلة بإقصاء علي عن الحكم قبل أن يصل إليه ، ولكن الشعب وقف دونها هذه المرة ودون ما تريد ، ومارس حقه الطبيعي في الدعوة للرجل الذي يرضاه مادام النظام السائد إذ ذاك قصر حق الانتخاب على أهل المدينة من المهاجرين والأنصار دون بقية أهل الأمصار ، وتمت البيعة هكذا لعلي لأنه كان أولى الناس بها من أعوام ولأنه كان وحده الجدير بأن تلتف حوله إرادة الأمة الإسلامية بما ضمت من أجناس شتى ، آمنت كثرتها العظمى بأن إليه منتهى رجائها ، وعليه تنعقد الآمال في أن يقودها إلى الأهداف المثلى التي لاريب ستحقق لها ما تنشده من حياة كريمة في أكناف الحرية والكرامة والمساواة

أرادت هذه الوفود القادمة من أطراف الدولة فاستجابت لها حاضرة الإسلام ، وهتفت باسم علي فرددت المدينة خلفها الهتاف ، أقبلت كلها إلى الإمام في زمر متدفقة كالأمواج تدعوه أن يتسلم زمامها ويقودها إلى حيث يريد .... ولم تسمح له بمجرد التردد في القبول ، ولم توافقه على أن يدع قيادة أمورها لغيره ، بل إن الحرية التي مارستها لأول مرة هذا اليوم في الاختيار سلبته إياها ، إذ أبت عليه أن يكون هو حراً مثلها ، يرفض

البيعة إن شاء . . . قهرته على التسليم لها ، وأجبرته على الرضوخ لمشيئتها لأنها رأت فيه القائد الذى لا يصلح أمر الأمة بسواه .

وكانت قريش فى الأيام القلائل السابقة للبيعة جالسة تنظر ، يمنعها الخوف أن تجهر بالرأى الذى تحب أن يصير إليه الإجماع ، ويملأها الأمل فى أن تصدف الجماهير عن هذا الذى ظل يراوغها ويبتعد عن طريقها لتفوته الإمرة .. فلما أن غلبت عليه إرادة الأمة وحملته على قبول ما تريد ، لم تر قريش بدا من مسايرة الشعور العام خشية أن تثير على نفسها ثائرة الشعب ، وسارعت تبايع علياً بالخلافة وهى تخفى بقلوبها غير ما تبديه .

ومع ذلك فأحسب أن ثمة طائفة منها ما لبث الندم أن راح ينهش قلبها غب بيعتها للإمام، وأخذت تنحى باللائمة على أكفها أن امتدت نحوه بتحية الولاء ! . . . لو أنها صبرت لجنبت أنفسها مؤونة نكث العهد الذى لزم رقابها له ، ولكانت إذن حرية بأن تخالفه وتجاهر بخلافه إن شاءت وهى آمنة اتهام التاريخ . . . ولكن ما غلب على أذهانها من رهبة الجماهير أشاع فى قلوبها خوفاً أركبها ما تكره ، وقهرها على البيعة دون بادرة واحدة من الشعب تحمل معنى الإقهار ، وجعلها من بعد تقف موقفاً — إن رضيته هى — فليس يرضاه لها الوفاء ، فما كان على بالرجل الذى يأخذ لنفسه البيعة من امرىء أباها عليه وإن كان ذلك الإباء وليد موجدة قديمة أو سوء إدراك لحقائق الأمور . . . ولقد جىء له بابن أبى وقاص وإنه لمتوقف عن الدخول فيما دخلت فيه جماعة المسلمين لغير سبب معقول سوى قوله :

« لا أبايع حتى يبايع الناس ... والله ما عليك منى بأس »

فلم يثربه . بل سمع منه حجته الواهية ثم قال للناس :

« خلوا سبيله . . . »

وأباحه الأمن والطمأنينة كمن والاه . . .

وكذلك كان موقفه من عبد الله بن عمر ذلك النهار ، فلم يكرهه على البيعة

بل أخذ موثقه ألا يشغب عليه . وطالبه أن يختار له من بين القوم رجلا يضمن التزامه هذا الوثق وعدم خلفه . . . وقال له :

« ائتنى بحميل. . . »

فأدار ابن عمر عينه لحظة فى الجمع الصاخب عليه ، ثم ردها بغير عناء إلى على تلق عليه نظرة وسنى . . . وقال بصوت لعله اشتمل نبرة تحد إلى جوار قلة المبالاة :

« لا أرى لى حميلا . . . »

فالتهبت عليه موجدة القوم . وضاقت صدورهم بموقفه ، فلو شاء لفاء إلى الحق وله معدى عن تجاوزه بما لقيه من أناة الإمام وترفقه به ، ولكنه كان قد عقد النية على الخلاف لغير سبب يوجب عليه هذا الخلاف .

وصاح الأشتر وهو بادى الغيظ وقد رفع فى يده سيفه :

« خل عنى أضرب عنقه يا أمير المؤمنين ! . . »

فاستمسك الإمام جهده ، لقد أبى أن يستجيب للغضب الذى جاش بصدره ، وداور نفسه ، حتى إذا صل منها سخطها على غريمه وأبدلها مكانه الصفح عنه . . قال :

« بل دعوه . . . أنا حميله . . . »

وقيل له بعدها عن نفير قلائل من أهل المدينة احتجبوا عن بيعته وأبوا الظهور للناس حتى لا يدفعوهم إليه . . . فلقد أراد أعوانه أن يأتوا بهم إليه راضخين مقهورين ليرى فيهم رأيه ويبايعوه ، فنهم وقال :

« لا حاجة لنا فيمن لا حاجة له فيها ... »

أحسب هذه الصور الشتى من ترفق الإمام بمخالفيه قد تبدت الآن أمام أعين بضعة من قريش كانت سارعت فبايعته وهى تخفى له غير ما تبديه ، وأحسبهم وقد شهدوها ودوا لو كانوا صورة منها فلم تسبقهم إليه أكفهم بالولاء ... أما وقد عاهدوه على الطاعة ، وعقدوا فى رقابهم بيعته ، فقد باتوا يعدون اللحظات ويتعجلونها أن تسرع بهم عسى يستطيعون اعتساف

الدواعى التى تحررهم من عهدهم وتردهم إلى الموقف الجديد بهم والذى هم به جديرون . . . وهل ثمة أليق بقريش من مسايرة مشاعرها القديمة على بنى هاشم ، لاينجو من عنتها سليل هاشمى حتى تتربص بسليل بين كل جيل وجيل ! ؟ .

تكتلت إذن الأحقاد العصبية ثانية . وتوحدت بيوتات قريش — المتنافسة فيما بينها — أمام سليل سيدهم القديم . فالغاية اليوم أن تطيح به ثم تفرغ بعده للتغالب على السلطان ، يستوى فى هذا من بايع له ومن قعد عنه ، ومن قام من بداية الأمر يناجزه ويحرض عليه الناس ، فمن عجب أنهم نسوا جميعاً الدواعى التى تفرقهم عن بعضهم بعض — على كثرتها — وذكروا سبباً واحداً اتفقوا عليه هو الحسد الذى لم تحرر نفوسهم من براثنه بعد . وقاموا يدعون علانية وخفية لفض المسلمين عنه . ويتعسفون العلل الكفيلة بتأييد دعوتهم وترسيخ هواهم فى نفوس القوم ولو بالإعنات والتضليل دون التدعيم والتدليل ، ويتذرعون بكافة الذرائع التى يكون من ورائها بث العوائق والعراقيل فى سبيل الإمام . لاغاية لهم إلا الشغب عليه وإفساد أمره ، وإظهاره للملأ آونة فى مظهر العاجز الضعيف وثانية كالمستغنى بقوته عن كل قوة ، وثالثة كالمتثاقل عن إقامة حدود الدين ، وأخرى كالشديد فى غير هوادة والعنيف فى غير لين ، إلى غير هذا وذاك من أوصاف متقاربة ، تصل بين أطرافها المتباعدة أنواع الاتهام ، ثم لاتكون فى رأى الحقيقة إلا حجة له تدفع باتهامها كل أولئك الأخصام .

ثم لاتكاد تنطوى من دورة الزمان إلا أيام حتى يبادر جمعهم إلى الشغب على الإمام لكل فريق منهم طريقة فى النيل منه تختلف والأخريات وإن التقت وإياها فى نهاية المطاف ، فابن أبى وقاص الذى وعد من نفسه إحسان السلوك لم تسكن نفسه وإن سكن جسمه . ولم يضع قلمه وإن أغمد سيفه . بل لاتلبث حتى نراه قد أرسل إلى ابن العاص كتاباً يصف الأحداث حسبما

رأى هواه ، ويكشف عن خفايا دخيلته ببيانه مالم يكشفه بمنطق لسانه ، قال في الخطاب :

« ... إنك سألتني عن قتل عثمان . فاعلم أنه قتل بسيف سلته عائشة ، وصقله طلحه ، وسمه ابن أبي طالب ، وسكت الزبير وأشار بيده ، وأمسكنا نحن ، ولو شئنا لدفعنا عنه » .

هذه الرسالة تلقى ضوءاً على جانب من حلقة الواقع التي حدثت أثناء تلك النازلة التي دهمت الإسلام ، وتكاد في مجموعها تكون صورة صادقة لموقف قريش . رسمتها ريشة رجل منها يستبعد منه أن يتجنى عليها ويظلمها أمام التاريخ ، ومع ذلك فلسنا نرى فيها إلا تحيفاً ظاهراً على على ، مرده فيما نحسب إلى تلك العاطفة التي ما فتئت تثور بجوانح سعد وأمثاله ممن جرت في عروقهم الدماء القرشية .فليست الحقائق السافرة هي وحدها التي أنطقت قلمه وأرسلته يرسم هذه الصوره الفذة لأبطال تلك الحقبه المليئة باصطراع الأهواء . فإنما قريش هي التي سلت السيف وصقلته وسمته ثم دفعت به في نهاية المرحلة الفاصلة إلى أيدى العادين ليضربوا به الضربة التي خجلت هي أن تضربها . وامتلاء نفوسها بالمطامع هو الذى دفع بها إلى ذلك السبيل . وتفرق هذه المطامع بينها هو الذى ضرب بعضها ببعض ، وردها آخر الأمر إلى فرق تتنازع السيادة وتتذرع بكافة الذرائع للفوز بما تريد . وما كانت حين نقمت من عثمان فعاله بالغاضبة للحق بقدر ما كانت موكولة بتحقيق مراميها من حب السطوة ومظهر السلطان .

ولقد كانت منها فئة قليلة آثرت اعتزال الصراع الناشب بين بقيتها وبين الخليفة القتيل . وجلست صامتة ترقب الأحداث التي أخذت تتجمع رويداً رويداً كسحب الغيث قبل حلول أوان العاصفة المجتاحة ... وكان سعد من هذه الفئة المنتظرة ، فقعد يشهد ما يدور حوله ولا يمد يده إلى شيء منه . لقد فاء من نفسه إلى همة فترت بعد طول نشاط وخمدت جذوتها بعد وفرة تسعر . لم يتحرك مطلقاً لنصرة حق أو لدفع باطل ، كأنما الأمر لايعنيه فلما

بدا له الختام الحزين الذى أسفرت عنه الوقائع ، ملكه الندم على ما سلف منه إلى جوار شعوره بالنقمة على قومه الذين أعانوا بالفعل واللسان على تقويض دولة ابن عفان . وأبى عليه إحساسه القديم ، الذى هو صدى المشاعر القرشية تجاه البيت الهاشمى ، إلا أن يتحيف على على . . . وإلا فكيف نسيغ هذا الحكم من رجل قعد وآثر السلامة على رجل طالما ناضل وكافح من أجل عثمان كما لم يفعل مطلقاً سواه من الخلصاء والأعوان ؟ أم ترى لسان ابن أبى وقاص أرفع صوتا وأعلى جرسا من حديث الحقائق الواضحة والواقع الثابت الذى لايفيد فى نقضه وانتقاصه سوق أوهام وإزجاء إيهام ! ؟ .

ولكنه كان واحداً من بين بقية أهل الشورى الباقية فى الأحياء ، والتى لم ينس لهم موقفهم من ابن طالب حين كان فى مقدورهم ترجيح كفته لوشاءوا السير على المنهج القويم . بل لعله اليوم أرفق بالحق منهم وإن لم يكن ألصق به ... بل هو أقدرهم على امتلاك ناصية مشاعره القرشية حين أفلت منهم زمامها ولم يسعهم كبحها بعنان . ولقد يكون مرجعه إلى عقدة نفسية غرسها فى واعيته فشله مرتين فى إحسان القيام بمنصبى الحكم اللذين وكلا إليه : مرة فى عهد الخطاب وأخرى على أيام عثمان ، ولقد يكون مرجعه إلى غير هذا أو ذاك من أسباب ، ولكنه فى الحق لم يسلس القياد لهواه كما فعل صاحباه بل لعله فى عين كل منصف يقدر سطوة الدوافع النفسية ولايفوته إدخالها فى الحساب ، لم يستجب لعاطفته إلا بمقدار قد يغتفر له ولا يلام عليه إلا أيسر الملام ...

أما الآخران فكانا على النقيض تجمعت فيهما شهوة النفس وشهوة الحس حتى أصبحا على غير ما يجمل بخدينين مثلهما من خيرة صحب رسول الله . مال بهما الهوى القديم وغلب حبهما الدنيا على حبهما الحق ، وهو واضح أمامهما ، مشرق ، سافر الوجه ، لا يخفيه عن أعينهما إلا الكلف بالذات كلفاً تعشى به النواظر وتطمس العقول والبصائر ، ولسنا بهذا نتطاول على مقام الشيخين أدنى مطاولة ، ولكننا نثبت الحالة النفسية التى كانت لهما فى ذلك الزمان

والتى لم يستطيعا أن يتحررا من قبضتها الحديدية إلا إن استطاع أن يتحرر من خفق فؤاده كائن حى ثم لا يهجره بعده عامل الحياة ! فقد تأصلت فيهما عاطفة الميل عن على كما تأصلت فى الأسلاف القرشيين من عدة أحقاب وجرت فى عروقهم كجرى الدماء . ولكنهما بغير شك كانا أدنى مرتبة من صاحبهما سعد بمقدار وأحرص منه على عروض الدنيا . ووسعه هو ما لم يسعهما . فحكم عاطفته وبالغا هما فى إسلاس القياد .

وجرى ابن عمر أيضاً على سياسة ابن أبى وقاص ، فلم يصغ لهواه كل الإصغاء . وجانب الفريقين المختلفين طوال مدة الخلاف وإن كان الأولى بمن هو مثله أن يظاهر الحق ويتبعه حيثما يسير . ولكنه هو الآخر صورة قرشية ، قعد عن نصرة الحق لما وجده فى جانب ابن أبى طالب ، أفلو رآه فى قومه أ كان يتوانى لحظة عن القيام فيه ..

لقد يعيي المرء أن يستقصى أسماء أولئكم السادة الذين بادروا علياً بالسيف واللسان يضربونه على حقه بباطلهم ، ويحشدون له صفوفاً من التعلات تغرى به جهال الناس ، ولكنا نعلم أن هذه التعلات لم تكن وقفاً على طائفة منهم دون طائفة ، بل اشتركوا جميعاً فى صوغها على الشاكلة التى تستهوى ضعاف القلوب . وأن المدينة لم تكن وحدها مباءة أولئك المناوئين ، بل انتشروا بكل مكان كان فيه مقام لنفس مريضة أو لضمير مثلوم ، أو لعل أكبر هذه المباءات وأفسحها رقعة بلاد الشام ، تلك التى غدت مسرحا . يمثل عليه مأساة هاشم وأمية كرة ثانية : الإمام على والنهازة معاوية ! ..

٤

بالشعب وللشعب .

ما من خطة احتذاها على فى حياته السياسية إلا كانت تسير وفق هذا

الشعار . حتى من اللحظة الأولى التى تقلد فيها البيعة وحتى فى أحلك ساعات تاريخه القصير ظلمة . . دفعه إلى هذا تكوينه الخلق وسجاياه . ثم ظروف الأحوال التى أحاطت به وسايرته يوما فيوماً .

هذه حقيقة ثابتة يستطيع المرء أن يستشفها من خلال حياة الإمام . . وإن عرضا موجزاً لقصته لكفيل بأن يرينا كيف كان للأحداث أثرها البالغ فى طبع نفسه بالنزعة الشعبية التى هى صورة صادقة لمشاعر الشعب كالحال فى الأصال والخيال . . . ففى طفولته الباكرة لا نحسبه أحس مطلقاً كما يحس أمثاله من أبناء الأشراف . فقد فتح عينيه على عيش ضيق أوقر كاهل أبى طالب حتى دفعه إلى توزيع أولاده على طائفة من أهله ليحملوا عنه بعض عبئه . وخرج على من دار أبيه إلى دار محمد وإن بقلبه لشعور الطفل الذى لم يرتو بعد من عطف أبويه . وإذا كانت الأيام ما لبثت أن كشفت له عن فيض من حنان الأبوة والأمومة لا يتسع لمثله قلبان ، فإنه بداره الجديدة لم يعرف العيش المترف الذى كانت تحياه السادة فى ذلك العصر ، بل هو فى أغلب الأحايين كان أدنى إلى حياة الخشونة من أفراد الطبقة الفقيرة ، إذ عاش فى كنف رجل لم يلق باله إلى نعيم دنياه ، وإنما راح يهيئ نفسه وآل بيته لرسالة سامية ارتفعت ألويتها بأيدى المحرومين ، لأنها جاءت لتنشلهم من وهدة الهوان النفسى الذى خلقته الحاجة ، لتكسر الحواجز القائمة بينهم وبين ذوى الثروات وأبناء البيوتات ، ولتقيم للناس عالما جديداً على أساس مغاير هو صفاء الروح . بعد أن كان عالمهم قائماً على المادة الصماء .

وجلى بعد هذا أن سنى الطفولة طبعته على الغرار الذى شهدناه فى صباه وفى بدء شبابه . وأن هذا الدرس الأول كان له فى نفسه أثر خالد . فلما سارت به الأيام فى طريق العمر أخذت تبدو أمام ناظريه عوامل أقدر على تشكيل الخلق من النظرة العابرة التى تلقيها على الدنيا عينا حدث . وبدأت مقومات شخصيته تتجمع مما استخلصه من سيرة محمد قبيل وفى

مستهل الدعوة السماوية . فلقد كان النبي وحده مثله الأعلى ، وكانت أعماله كلها هي النبراس الذى سار على ضوئه ، سواء فى هذا ما اتصل منها بمظاهر الحياة المادية كالمشى والأكل واللباس وما كان ينم عن اتجاه خلقى معين أو نزعة نفسية ذات طابع خاص .

لقد اتسع دائماً قلب محمد للرحمة . والرحمة لاتبذل إلا لمحروم . والحرمان كلمة تستطيع أن تشمل كل شقاء البشرية ؛ فالضعيف حرم القوة والحول ، والمريض حرم نعمة العافية ، والمظلوم حرم حماية العدالة ، وكل أولئك وأمثالهم ألوان من إنسان يحيى حياة لم تكتمل لها بعد أركان الإنسانية الصحيحة ، قد سلبه المجتمع بعض حقه عليه . . .

هذه صور حية للحرمان الذى يعيش عادة فى وكر الفاقة ويمتص غذاءه من دم الفقير . لا تتعدد مثيلاتها إلا فى الطبقات الدنيا التى تؤلف الكثرة الغالبة فى كل مجتمع آدمى . ولا تتلقى الرحمة إلا من قلب اتسعت جوانبه لمشاعر الإنسانية وما انطوت عليه من آلام . ولقد عاشر على أرحب قلب أنجبته البشرية ، وعرف آيات صفائه وعطفه . فإذا الرحمة التى أضفاها محمد تجد لها صدى فى قلبه . وإذا الألم لهم يهز كيانه ويملأ نفسه بالأمل فى تخفيف ويلاتهم حين يستطيع ، مرة ليستجيب للشعور الكامن فى أعماقه ، وأخرى ليضيف إلى مقومات شخصيته دعامة أخرى من خلق الرجل الكامل الذى أصبح له مثلا أعلى فى هذه الحياة .

ثم جاءت رسالة الإسلام . ومضت دعوتها تشق طريقها جاهدة إلى أرواح الناس . وتفتح بها وعى على ، وآمن بها قلبه ، وصفت لها روحه صفاء لم يعد له فى غيرها صفاء . فما تكشفت له عن تشريع وتقنين بقدر ما تكشفت عن رحمة سابغة تستوعب كل الرحمات وتتناول الشقوة الإنسانية بالدواء الذى يحسم أدواء البشر فى كل زمان ومكان . فإنما الدين هدى . والهدى رحمة تمحو ظلمة الجهالة التى رانت على بصيرة الإنسان . والجهالة فى نهاية الأمر حرمان من النور الروحى أيما حرمان . . .

جلاء الروح كان الغاية المنشودة فى الدعوة المحمدية لأنه الطريق الوحيد إلى إسعاد البشرية . وأيما تشريع نزل به القرآن فهو وسيلة لتنظيم المسائل المنبثقة عنه انبثاق الفروع عن أصل الدوحة . أو هو رياضة دائمة للنفس حتى يتمكن فيها الصفاء كما يمكن الرى للبذرة فى النماء . وقد حرص الإسلام على أن يرفع ظل الحرمان عن الأرض فدعا إلى التحرر من عبودية الدنيا . . دعا إلى السمو عنها ، والارتفاع بالنفس إلى آفاق يتضاءل فيها جبروت المادة فلا يكون لها ثمة سلطان . بل تنقلب فى النهاية مطية طيعة للانسان الكامل الذى تهم أن تصوغه الدعوة الجديدة .

الرسالة السماوية رسمت إذن للناس النهج الأمثل . ونادت نصوص آياتها وروح معانيها بالتزامه لتصل البشرية إلى الخير المطلق — أو الخير الممكن ما دامت لا تتوفر العصمة لإنسان . وكان جماع مبادئها حرب الحرمان فى كافة صوره ، وغايتها محو آثاره عن هذه الدنيا التى اتخذ منها مباءة . وما دام الصفاء قد شمل روح البشر فقد انجلت البصائر ، وصفت الأذهان ، وخلصت النفوس من شوائب الهوى التى هى ركام المادة • وأيسر اليسر بعد هذا أن تتوحد مشاعر الناس من كل جنس وفى كل عصر . فوحدة الشعور هى الخطوة الأولى اللازمة لبناء البشرية على أساس سليم . أو هى فى الحق كل الخطوات . والأعمال المنبعثة عن إحساس واحد متسقة بدون ريب ، لاتفاوت بينها ولا اختلاف ، لأنها صادرة عن نبع واحد كما ينفث القلب الدم إلى الجسد ، لا يؤثر عضواً ولا يحرم آخر لأن البلاء فى التمييز وفى الحرمان على سواء .

جاء محمد رحمة للناس من لدن رحيم . فى يمينه تنزيل يبدد ظلمة الجهالة ، وينير بصائر الخلق للحق . ومن استوعب لب الإسلام فقد عرفه دعوة صريحة لسيادة الصفاء على النفس الإنسانية ، وتبييناً للأساليب التى تمكن له ، وتنظيما للأعمال التى تنبعث عنه . إنه هداية إلى حقيقة الصلة بين الخالق والمخلوق ، وبين الخلق بعضهم حيال بعض ، وما يتبع هذا كله من حقوق

وواجبات . وهو فى مجموعه عرض يشمل كل مشا كل المجتمع البشرى ما بقيت على الأرض حياة إنسان . ويصف لكل منها العلاج الذى تستتبعه به .

وما من امرىء عنى باستقصاء أصول هذه الأدوية الناجعة إلا وجدها مشتقة من الرحمة . وهل ثمة عاطفة أولى منها بتوحيد شعور بنى الإنسان، وأجدى فى النهاية على آحادهم ومجموعهم ماداموا بها وحدها يرون أنفسهم أعضاء فى بدن واحد ليس يصح كله إلا بصحة أفراده ؟ .

ما من ريب فى أن سعادة البشرية وقف على وحدة الشعور ، وأن هذه الوحدة بدورها وقف على جلاء الروح الذى هدفت إليه تعاليم الإسلام . ولقد استطالت الأعصر بعد محمد وتوالت على الأرض . وتعددت مآسى البشر وويلاتهم وفق تعارض ما يتصل بنفوسهم من أهواء ، ثم حفزت البلايا طوائف من دعاة الإصلاح إلى اصطناع الأساليب التى عساها تحسم عن الإنسان ما يقاسيه ، فما نرى عقولهم أسعفتهم بوصف حلول تحوم كلها حول ما فصله القرآن . ولقد استيقن على قبل مئات الأعوام جدوى تعاليم الإسلام وتشريعاته فى شفاء الشقاء البشرى فكان أحرص الناس على تطبيقها فى مجتمعه ، فى البدء ببذل الرأى لذوى الأمر ، ومن بعد بقيادة أمته على هذا النهج الأقوم إذ علمه السبيل الوحيد لاستكمال جوانب الإنسانية . ولم يخف اتجاهه هذا عن العيون من قبل أن يلى السلطان . بل كان باديا منه هذا الحرص لكل صحبه ولجمهور الناس حتى قال عمر فيه إنه أحرص قادة الأمة الإسلامية بأن يحملها على الحق الواضح والمحجة البيضاء .

ولم يكن إيمان على بالرسالة الإسلامية إيمان انقياد وتسليم ، وإنما كان وليد بحث ودراسة عميقة . وإذا كنا فى البدء رأيناه يبادر إلى اعتناق الدين الجديد وهو فى سن لعلها لا تصاحب النضج الفكرى التام ، فإن قسوة التجارب التى مرت بها الدعوة فى أعوامها الأولى كانت كافية لتصقل ذهناً كذهنه دل دائماً على التبكير فى النضج . وكانت المشاهدة من بعد كفيلة بأن تريه جدوى الإسلام على النفوس التى تفتحت له — على هذه

الحفنات القلائل من الرجال والنساء الذين اعتنقوه فهذبهم أيما تهذيب حتى بدوا بين قومهم الجاهليين كما تبدو الزهور النضرة بين الأوحال ! ومع ما لقيت هذه الفئة الصغيرة من نكال وتعذيب ، فإنها استمسكت دائماً بعروة الدين لأنها استثمرت منه سعادة لم تتذوق مثل حلاوتها فى حياة الرذيلة والأنانية وقلة المبالاة التى كانت تحياها من قبل . فلأول مرة أحست بإنسانيتها الكاملة لأنها ربطت هناءة كل فرد منها بهناءة الآخرين .

نضج تفكير على بالمشاهدة ونضج أيضاً بمعاشرته لصاحب أنضج تفكير أتيحت له الحياة فى هذا الكون . ثم انطلق على الأيام يشبع ميله إلى نهل الحكمة من نبعها الأول : كتاب الله . فما استظهره كما كان يفعل الرواة والحفاظ ، بل استوعبه استيعاب تأمل واستقصاء . وراح يستشف ما وراء ظاهر النصوص ، ويقيس الآية فيه بمثيلاتها ليستخلص أتم الأحكام . وبلغ فى هذا غاية الشأو حتى أصبح عند أهل زمانه صاحب الرأى الاخير فى التفسير ، وصاحب الحكم القاطع فى الفقه والشريعة . وبقيت من بعده آراؤه ودراساته أصولا ثابتة للعلوم الإسلامية فى كل الأجيال .

وبقدر إيمانه بكمال الشرائع التى تضمنها الاسلام ، وكفايتها لتنظيم المجتمع الإنسانى على أساس سليم ، فكذلك كان إيمانه بسنة الرسول . فإن هى إلا تبع للأصل ، وتفصيل لما أجمله القرآن . وإن طاقة العقول البشرية بعد هذين النبعين لمحدودة ، وجهدها فى اصطناع الأساليب التى تستطيع إصلاح العالم لقاصر أيما قصور . فما ثمة أحد أرحم بالناس من الله ، ولا شريعة أكمل من شريعته ، ولا علم بأحوال خلقه كعلمه .

كذلك أخذت نظرة على إلى مجتمعه تنعكس من نظراته العميقة إلى لب الدين . وإذا كانت الرحمة هى الوسيلة الوحيدة لتوثيق الصلة بين المجموعة البشرية ، فهى نور يهب المعرفة ، ومعرفة تبصر الإنسان بأوصابه وأوصاب إخوانه من بنى الإنسان . وعاطفة نبيلة لاتنبعث إلا عن نبيل وبكل نبيل من الخصال والفعال . وأولى العالم بها مجتمع ضعف شعور أفراده بإنسانيتهم

فغلب عليه الحرمان من العلم أو العدالة أو أمثال ذلك من ألوان الحرمان

وطبيعي أن تتعلق رحمة علي بأوساط العامة لأنهم أدنى طوائف المجتمعات إلى الحرمان ، فحيثما كانت الفاقة نبلت مآبي البشر ، وحيثما استشرى الفقر فسدت المجموعة الإنسانية التي تحتويه ، لا لأن الفقر في ذاته رذيلة ، ولكن لأنه مظهر من مظاهر فساد خلقي جدير بالكفاح ، هو انعدام العدالة الاجتماعية بين أبناء المجتمع الواحد ، وإن مرد هذا بلا ريب إلى انعدام وحدة الشعور .

على أن الرحمة التي استشعرها علي حيال الطبقات الدنيا لم تكن وحدها ما علا قلبه ، بل جاورها إعجابه بنبلهم ، وإكباره لما بدت عليه نفوسهم من صفاء . لكأن الحاجة صهرت قلوبهم وطهرتها مما يعلق عادة بالقلوب من أدران . . لكأن حسهم أرهفته قسوة الآلام التي أذاقهم إياها المجتمع الظالم وجلت عنه ركام الهوى والمطامع .. فهذه الفئة المحرومة التي كانت إذ ذاك نفاية الطبقات كانت أول طوائف العرب إلى تقبل الهداية ، وأسرعها إلى تلبية دعوة السماء حين جاءها محمد برسالة الإسلام ، ولقد شهد لها علي ألواناً من الإخلاص لم تطف ظلالها بنفوس السادة والأثرياء ، ورآها دائماً أقرب إلى الرسول من بردته ، تلتف به ، وتفتديه ماوسعها الفداء ، وتبذل في سبيل رفع لواء دينه كل ما استطاعته من جهود وتضحيات ، بينما وقف الخاصة يناجزونه وقد حسبوا أنهم قادرون على النيل منه والقضاء على رسالة الهدى والنور .

قد كان لهذه العوامل وأمثالها أثر فعال في صبغ علي بصبغته الشعبية ، وفي توجيه وجهته إلى أحضان الشعب ، حتى من قبل أن يصلب عوده ويعرف لنفسه حقها في زعامة الأمة . ثم تلتها من بعد أمور وحادث له إيمانه بالشعب وزادته اقترابا من الطبقات الفقيرة التي تؤلف الجانب الأكبر منه ، فلقد لقي بعد وفاة محمد عنتاً من قومه أيما عنت ، وغلبته أهواؤهم الجامحة على حقه الواضح لأنهم نفسوا عليه أن يفوز هاشمي مثله بالخلافة ،

وعملوا جاهدين على ابتزاز سلطانه كلما آن له أن يلي هذا السلطان . . وما من مرة مد بصره إلى صفوف مناوئيه إلا شهدها قد انتظمت أبناء الطبقات المربقة وذوى الأحساب والشرف العريض ، يقفون منه كوقفهم من محمد فى أمسهم القريب . . وما من مرة رد طرفه إلى من وقفوا خلفه يظاهرونه ويرتجون نصره إلا وجدهم من ذات الفئة المستضعفة التى صهرت نفوسهم نار الحرمان — أولئك الذين سارعوا إلى الهداية ، ونشروا الإسلام باستمساكهم به وثباتهم على عقيدته قبل أن ينصروه بأسنة الحراب ورموا بأوطار الدنيا وآرابها دبر ظهورهم إذ لا غاية لهم من هذه الحياة فى مال أو جاه .

ومضت هذه الفترات التى كرثته فيها الحوادث ، والتى عنت فيها رقاب أولئكم السادة لشريعة الحسد والأحقاد ، وانطوت فى الزمن السيار كانطواء الغل فى قلوب أهله . . ثم انتشرت على أثرها صحيفة جديدة من تاريخ الإسلام كانت حرية بأن تكون ألمع صفحاته إذ انتهت مقاليد الأمر إلى أولى الناس به وأصلحهم له بعد رسول الله ، فما يغيب عنا حين نستذكر بيعة الإمام ، ونستعرض العوامل التى أدت إليها ، أن نرى كيف كانت مشيئة طبقات العامة هى الغالبة ذلك اليوم ، وكيف قامت دولة على وحكمه على أكتاف جمهرة الشعب الإسلامى فى كل الأقطار وإن كرهت الخاصة وكره الأشراف .

بالشعب وللشعب .

شعار دائم لم يتغير . وعلم ظاهر على سياسة الإمام لم تبدله الأحداث . وخطة واضحة استمدت وحيها من الماضى بتجاريبه ومشاهداته ؛ ومن الدين بتعاليمه وروح آياته ، ومن الحاضر بتبعاته والتزاماته . وبحسبنا أن نصحب أعمال الرجل الذى سوده شعبه لنعرف إلى أى مدى كان مخلصاً للمبدأ الذى اختلط بدمه وأصبح جزءاً من كيانه . . . حتى من أول خطوة حين قوض التقسيم القديم القائم على التفرقة على توزيع الأعطيات على

الطبقات ، ورده إلى نظام المساواة ليقيم صرح العدالة الاجتماعية التى استهدفها الاســلام . . . وحتى فى ثانى خطوة حين استجاب لشكوى المحـكومين من الحـكام فراح يعمـل على بناء حكم صالح لا يقوم بغير صلاح الحاكم ورضاء المحـكوم .. وحتى فى كل خطوة بعد هذه وتلك سارها إبان عهده القصير الذى اصطلحت عليه الفتن والخلافات ، وغالته المحن والشدائد فلم تصب أيها منى جلال صاحبه ولامن رعاية قلبه واتساعه لأمته ، ولا من صفاء روحه الذى عاش ومات وهو يجهد أن يطبع الناس على غراره النبيل ..

٥

كاد الناس أن يتبينوا فى أفق الحاضر سمات الانقلاب الذى يوشك أن يتولى الأوضاع المـألوفة ، فما غابت عنهم نظرة الخليفة الجديد ، ولا آراؤه فى الحالة القائمة بكافة أركانها فى السياسة والاجتماع والاقتصاد . ولاخفى ما تميزت به أخلاقه من نزعة مثالية لا تهدأ إلى ما كانت عليه الأخلاق العامة من رخاوة حين ذاك . ولأولى بمن كان على شاكلته ألا يصبر يوماً وبعض يوم على هذا الانحراف الخلقى وهو يعلم أن دعامة الأمم الأخلاق .

ولقد بادر الإمام بتنفيذ خطته المثلى فى ذات اللحظة التى رقى فيها منبر الخلافة أول أيام عهده. وفجأ القوم بسرعة البت فى الأمور وحسمها على النسق الذى يؤمن به ويرضاه . ولم يكن ثمة قانون يلتزمه سوى تشريع الله وسـنة الرسول لأنهما غاية ما تستطيع أن ترقى إليه العقول ، فهمـا نهجه الواضح ، والقبس الذى يضىء أمامه الطريق إلى بلوغ الـكمال . وهو بنصوصهما والروح التى انطوت عليه جد عليم . ليس ينقصه بحث ولا دراسة ليتبين الوسائل التى تقىء الاصلاح المنشود .

استشف القوم بشائر الانقلاب الشامل الذى آذن به اختيار على لولاية أمر الدولة الاســلامية واختلفت نظراتهم إليه بين إكبار وإنكار . فلقد

كان جمهور الأمة يتوقع الخير من خلافته لأنه آمن بأن الإمام رئيس أمة قبل أن يكون حاكم دولة . يعنى بشئون الناس كعنايته بشأن أسرة . ويستلهم صالحهم العام بوصفهم مجموعة بشرية لها مشاعرها ، ولها حقوق حياله قبل أن يتقاضاها ما عليها من التزامات . وكان الكيان السياسى فى نظر على تبعاً للكيان الإنسانى ، ونتيجة مترتبة عليه . وكانت وحدة الشعور وحدها بين أبناء المجتمع الواحد هى الكفيلة بضمان الوحدة السياسية . ولن تجد دولة تستطيع أن تعز وتسود إن لم تسد بين أفرادها شريعة الإخاء .

وبقدر ما استقبل العامة عهد الإمام بالترحيب فقد عبست له طبقة الأشراف ، وساءهم منه أن يبدأ بتقويض المزايا المادية التى كتبوها فى عهدى سلفيه . وبإنزالهم عن المكانة الاجتماعية العليا التى كان التقسيم العمرى أحد مظاهرها . وكفى بهم حنقاً عليه أن قد سوى بينهم — هم السادة ذوى الأحساب — بالدهماء والأوشاب . ووضعهم وإياهم أمامه بمنزلة واحدة كما هم فى حقيقة الأمر أمام الله . .

لا ريب أن مبعث غضب الخاصة على الامام كان نظامه الجديد فى التقسيم ، أو عوده — بأدق تعبير إلى ذات النظام الذى أستنه رسول الله . فلقد استيقنوا أنه خطوة لن تلبث أن تتلوها خطوات تحرمهم بأسهم وما كانوا عليه من نفوذ وجاه . وإذا كانوا قد ارتضوه خليفة وبايعوه على ملا من الناس فمن غير طواعية اختاروه ، بل انقياداً لسطوة الشعور العام . أما وقد انتهت فورة النفوس الآن ، وأوشكوا أن يطمئنوا إلى هدوء الحال ، فخيرهم إذن معقود بيث المراقيل فى سبيله . أو على أقل القليل — يبذلهم الجهد للابقاء على بعض الأوضاع التى كانوا يعلمون أن الامام سوف يتناولها بالتغيير . .

بغير هذا لا يساغ فهم موقف المغيرة بن شعبة حيال مشيئة على فى تغيير ولاة عثمان . فلم يكن المغيرة من أنصار الامام . ولم يعلم عنه أنه أضمر له شعور الولاء . بل هو لم يبايعه وإن بايع له كثير غيره من الكارهين .

فمن صعب أن يتكلف — رغم هذا — بذل النصح لعلى ويبدو كالمشير الأمين حين لا تكون المشورة من مثله إلا إغراء مستتراً على ارتكاب الأخطاء . . .

قال الداهية وهو يداهن الإمام :

« إن النصح رخيص ، وأنت بقية الناس ، وإن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد ، والضياع اليوم تضيع به ما فى غد » .

وأمسك برهة ليرى مدى تأثير قوله . فلما رأى علياً جانحاً إلى السكون عاد فاستأنف الحديث :

« . . إنى مشير عليك أن ترسل إلى عمال عثمان بعهودهم . أقرر معاوية على عمله . وأقرر ابن عامر على عمله . وأقرر العمال على أعمالهم ، فإنهم يبايعون لك ، ويهدئون البلاد ، ويسكنون الناس » .

فبادره الامام برأيه القاطع فى أولئك الولاة :

— والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيى . ولا وليت هؤلاء ، ولا مثلهم يولى .

— .. اكتب إليهم بإثباتهم ، فإذا أتتك بيعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت .

فجاء الجواب الحاسم ، الولى به خلق على :

— لا أدهن فى دينى ، ولا أعطى الدنى فى أمرى .

ولكن المغيرة لم ييأس بعد ، بل حسب أنه مستطيع أن ينفذ بعض مشيئته بشكل من الأشكال . . فقال :

— فإن أبيت فانزع من شئت وأقرر معاوية ، فإن لمعاوية جرأة ، وهو فى أهل الشام يسمع منه . ولك حجة فى إثباته ، إذ كان عمر بن الخطاب قد ولاه . .

— لا والله . . لا أستعمل معاوية يومين أبداً .

فخرج المغيرة مغلوباً على دهائه ! .

غير أنه — كغيره من الوصوليين — رأى أن يأخذ بالشمال ما لم يستطع

أخذه باليمين . فما هى إلا ليلة حتى عاد ثانية إلى مجلس الامام يعتذر مما سلف منه بالأمس . ويعلن أن رأيه الذى ناضل عنه طويلا وأراد به إقرار ولاة عثمان كان بعيداً أيما بعد عن الصواب . . لقد آثر الداهيــة أن يبدو فى ثياب المؤيد لسياسة أمير المؤمنين وإن لم يكن فى صفوف أعوانه ومناصريه ، وكفاه أن يقف موقفاً لا يثير عليه نقمة الامام ولا يبعده عن عطف أعدائه ليستطيع حين تسنح الفرصة أن يكون صديقاً لا تقفل فى وجهه أبواب الفريق الغالب ! .

فما كان أرخص دهاءه ، وأفضح رياءه ! . . ومع ذلك فقد استمــع له على حتى أتم اعتــذاره ثم شيعه إلى الباب ببسمة ساخرة فيها رثاء بين للحالة التى تدلت إليها رجولة الرجال ! . . وتلاقى المغيرة حين خروجه بابن عباس وقد عاد لتوه من الحج حيث كان أميراً من قبل عثمان . وتبادلا التحية ثم مضى أولهما لشأنه ودخل الثانى على الخليفة الجديد .

وقال ابن عباس ولم يخف عنه أن الدهية الذاهب إنما كان بمجلس الامام لأمر له فيه شأن .

— يا أمير المؤمنين . . ما قال لك هذا الخارج من عندك الآن ؟ . .

فابتسم على . وقصل له ما كان .

— يا أمير المؤمنين . . أما فى الأولى فقد نصحــك ، وأما فى الثانية فقد غشك . .

— نصحنى ؟ .

— نعم . وإنك لتعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر . .

— ويحــك يا ابن عباس ! . . إن الذى يلزمنى من الحق والمعرفة بعمال عثمان لا يجعلنى أولى منهم أحداً أبداً . فإن أقبلوا فذلك خير لهم ، وإن أدبروا بذلت لهم السيف .

فــكأنما لم تلق هذه الــكلمات مسمعاً لدى الشباب ، لأنه عاد يقول :

— . . أنا أشير عليك بأنْ تثبت معاوية ، فإذا بايع لك فعلى أن أقلعه من منزله — » .

— لا والله .. لا أعطيه إلا السيف ! .

— يا أمير المؤمنين ، أنت رجل شجاع لست بأرب الحرب . أما سمعت رسول الله يقول الحرب خدعة ؟

— بلى .

— فوالله لئن أطعتنى لأصدرن بهم بعد ورد ولأتركنهم ينظرون فى دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها فى غير نقصان عليك . ولا إثم لك .

فلم يزد على — بعد هذا الرأى العجيب الذى أبداه ابن عباس وكاد أن يكون صورة من نصيحة المغيرة — لم يزد على أن أجاب بحزم وفى إيجاز :

— يا ابن عباس ، لست من هنيآتك وهنيآت معاوية فى شيء .. تشير على وأرى ، فإذا عصيتك فأطعنى .

— أفعل . إن أيسر مالك عندى الطاعة .

قد كان معاوية وأصحابه من ولاة عثمان أهل دقيا فى نظر الناس ، أفكان على كذلك يا ترى فى نظر ابن عباس ؟ .. بل التوفيق جانب الشاب الهاشمى هذه المرة نتيجة لشدة حرصه على توطيد إمرة ابن عمه ، ونتيجة أيضاً للأثر الذى تركه فى نفسه رأى المغيرة الذى كان موسوماً بالدهاء إذ ذاك . وأوشك الفتى ، مقوداً بهذه المؤثرات ، أن يتخذ من المقاييس الخلقية المنحرفة وسيلة لقياس أخلاق الامام كأنه أنسى أى طراز من الرجال كان . .

ولكن النهج الواضح الذى اختطه على لنفسه لم يكن بحاجة إلى رأى مشير لايضاحه أو لادخال تعديل عليه هنا أو هناك ، فما كان يصدر فى أعماله إلا عن دستور قويم واحد ، لا يمكن أن يتناوله التحريف ، هو الدستور الالهى الذى نزل به القرآن وكانت غايته إصلاح المجتمع الانسانى كله بإصلاح الأخلاق . ومن العبث أن تأخذ الفروع بالعلاج وأنت تدع

الأصل فريسة للداء . وكان الأصل فى الدولة الإسلامية أولئكم الولاة الذين أشفت البلاد تحت إشرافهم على حافة انهيار روحى يوشك أن يكون فاتحة كل انهيار . فما كان حكمهم قائماً إلا على استثارة النزعات النفسية الوضيعة فى المحكومين تارة بالترغيب وتارة بالإرهاب ، حتى وصلت بهم الحال إلى سلطان هو الطغيان . فقد ضمر فيهم الشعور بقوة المبادئ السامية والمثل العليا وأوشك على الزمن أن يموت . وإذا فتر هذا الإحساس فإنهم أقرب إلى تضارب الأهواء منهم إلى توحد الغاية ، وانطلق كل فى طريقه نحو هدف خاص يشغله عن الهدف الأمثل الذى يجدر أن يلتمسه مجموع الأمة الإسلامية التى أرادها دين الله على قيادة البشرية كلها إليه .

المثل السامية التى دعا إليها القرآن كان أثرها وشيك الزوال إذ ذاك من قلوب الناس . وكان عثمان عن هذا أول المسئولين . فهو الذى مكن لنقائضها فى النفوس بسياسته الرخوة ، وأقام ملكه على أكتاف عمال أهلتهم للولاية قرابتهم دون كفايتهم . وكان ضعيف الرقابة عليهم . بل هو فى الحق كان يطلق أيديهم فى العمل كما يشاءون ، فانتهجوا من الأساليب كل مايحفظ عليهم سلطانهم ويوفر لهم مظاهر السطوة والجاه ، وإن عارضت هذه الأساليب لب الإسلام ، واتخذوا من بعض رعاياهم أعواناً على البعض ، فقدموا فئة وأخروا ثانية ، وميزوا بالهبات والمناصب رجالا لا يفوقون بقية الأمة إن سلكوا وإياها فى عقد الموازنة ، بل هم أولى بأن يتخلفوا إلى ماوراء الصفوف ، وبعد أن كان العمل وحده هو أساس التفضيل والتقديم ، اصطنع أولئك الولاة أسسا شتى لاجتباء الأعوان : فيها صلة القربى ، وشرف الأنساب ، والزلفى إليهم بكل طرائق المداهنة والرياء . وبعد أن كانت المساواة هى النبع الذى تستقى منه العدالة ، وكان الناس سواء كما وضعهم الله ، أصبحوا فى نظرة الحكام طوائف وطبقات ، وبات التمييز لطبقة دون غيرها هو العدالة السائدة . وكذلك نبت الجور على حقوق أغلبية الشعب من أجل تمييز قلة فيه . ولم تعد

هناك حاجة بالولاة لأخذ الأمة جماء بشريعة المساواة مادام اختيارهم هم أنفسهم للقيام بشئون الولايات لم يكن مرده إلى هذه الشريعة التي لا تعرف المحاباة .

كانت القرائن كلها تدل دلالة بينة على انحراف السياسة العامة عن الجادة التي أوضحها الله . وكان كل عقل يستلهم في تفكيره روح الإسلام يرى — دون تردد — وجوب تغيير هذه السياسة . وهدم النظام الفاسد الذي أقامته وأملت له في البقاء . ولم يكن علي يعرف هذا فحسب ، بل آمن به تمام الإيمان . وحزم أمره على تجييش كافة قواه الذهنية والمادية لإقامة صرح دولته على ذات الأساس الوطيد الذي انطوت عليه نصوص رسالة السماء . لقد بدا جلياً تعذر التعاون بينه وبين عمال عثمان لاتساع ما بينه وبينهم من هوة فكرية ، ولاختلاف مبدئه ومبادئهم اختلاف النقيض والنقيض . وهل كان بمقدوره أن يكل إليهم إنفاذ نهجه الجديد وهو يعلم أنهم لا يؤمنون به ؟ ... وكيف يسعه أن يأتمنهم على سياسة قوامها نبذ الأهواء وإنكار الذات هم الذين أشربوا الهوى واستعبدهم حب الذات ؟ . . فإذا استطاع — رغم هذا — أن يتقبل مشورة المغيرة ، وينزل على رأى ابن عباس في إقرار أولئك الولاة مع ماعرفه من كراهة رعاياهم لهم وثوراتهم المتواترة التي انتهت بمقتل عثمان ، أفكان إذن يأمن ألا ينتقض عليه أمره بهذا الإقرار في كافة الأقطار ؟ ..

لا حافز غير الحرص على توطيد دعامة الحق دفع علياً إلى الاستمساك برأيه في إقصاء العمال الذين ولاهم سلفه . ولا هدف رمى إليه سوى إعادة سلطان الأخلاق إلى مكانه في قلوب الناس كما كان على عهد رسول الله . ولئن وجب عليه أن يقصى ابن أبي سرح وابن أبي عامر عن أريكة الحكم استجابة لرغبة المحكومين ، فقد وجب أن يقصى قبلهما معاوية وإن دانت لطاعته الشام . فما من ريب في أن هذا الرجل كان لا يستلهم في كل أعماله غير ذاته ومنافعه الشخصية ، وكان لا يتجه إلا حيثما ناداه طموحه ، ولا يتوسل لهدفه إلا بالوسائل التي يراها ذات جدوى في مجتمع رانت عليه الأطماع وغلب فيه

سلطان المـــادة . ذلك أن الشام كانت أدنى أرض المسلمين إلى الأمبراطورية الرومانية التي اضمحلت شوكتها وأخذ كيانها السياسي ينهار نتيجة لانحلال الأخلاق . وكانت بقربها هذا مرتعاً خصبا لـكافة الآفات الخلقية التي تصيب النفس الإنسانية . وإذا كان ثمة حاكم إسلامي قد أفاد من وراء هذا الانحلال الخلقي فماوية ذلك الحاكم لأنه وجده أداة طيعة يستطيع أن يصل بها إلى السيادة بأيسر مجهود . وما علية إلا أن يعرف جوانب الضعف في نفوس رعاياه ثم يستعبدهم بنوع الإغراء الذي يستجيبون له . أما استكمال هـذه الجوانب وسد ثغرات النقص الخلقي بالوسائل التي أوضحها الإسلام فذلك كان أبعد عن استعداده وأعسر على نفسه الموكولة بتحقيق أهدافها الشخصية دون التقيد بالتزام سبيل الهدف الإسلامي العام . ولعله من قسوة القدر على الدولة الفتية أن عنت جبهتها ذات يوم لمعاوية . ودانت لحـكمه رقاعها الممدودة لأنه — وإن نشر ظلها على أقاليم جديدة من الأرض — قد قلص في نفوس أبنائها سطوة الـكمال الخلقي الذي كان الغاية الأولى لدعوة الإسلام ...

على إذن كان منطلق النظرة إلى بعيد . أرسلها تخترق الحاجز إلى المستقبل وتسبق التاريخ قبل أن رسم أحداثه ، وتستشف من هذه الأحداث التي لم تكن قد كتبت بعد صدق رأيه في الرجال الذين أبى أن يدع في أيديهم مصاير الأمة الإسلامية ، ومصاير السمو البشرى الذى كان الهدف الأسمى للرسالة المحمدية . وكانت نظرته أصدق ما تكون في معاوية . وكانت سريعة كأنها الفكرة الملهمة لم يعوزه لصوغها كثير تدبير . وبقدر ما حوت من الغيرة على مصير الشريعة الهادية فإنها لم تخل من غيرة على مصير الـكيان السياسي الذي أصبح هو الآن رجله الأول . فما غاب عنه أن في إقرار ولاة عثمان ضياع الدولة الناشئة وتفتيت وحدتها . ما دام بقاؤهم في أعمالهم سيلاقى حتما بثورة رعاياهم عليهم وعليه . وأولى به إذن أن يجلوهم عن مناصب الحـكم ، لخير الحق ولخير الخلق .

لذلك لم يتلبث أقل القليل ليحسم الأمور ، بل بادر فكتب إلى أمير الشام :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان .

« أما بعد — فقد علمت إعذارى فيكم ، وإعراضى عنكم ، حتى كان مالا بد منه ، ولا دفع له . والحديث طويل ، والكلام كثير . وقد أدبر ما أدبر ، وأقبل ما أقبل . فبايع من قبلك . وأقبل إلى فى وفد من أصحابك ٠ ٠ ٠ »

وطوت الدابة رقعة الصحراء بغير إبطاء . وقطعت الطريق من الجنوب المجدب إلى الشمال الأخضر النضير ، ثم اجتازت أسوار دمشق إلى القصر الباذخ . وأجال الراكب عيناً حائرة فى الترف الذى طالعه من كل مكان فليس له شبيه فى حاضرة الإسلام ، حتى إذا انفرجت له صفوف الحراس فى ثيابهم الأنيقة ، وبأسلحتهم الشاكية البراقة ، قيد من باب الدار إلى ردهات خلص منها إلى قاعة الإمارة . فإذا ثمة بطانة كبيرة من رجال وعبيد . وإذا بصدر المكان وسادات من حرير اتكأ عليها معاوية تحفه مظاهر الجلال والخيلاء ، تعيد هيئته إلى الأذهان ما تسامعت به الأذن من ملك الروم .

وقدم الرسول كتاب الإمام . وفض الأمير الخاتم ثم ألقى على السطور نظرة ووجهه جامد لا ينبىء عما بقلبه من شعور . ولكنه إذ غاب القادم عن عينيه بعد قليل ، استطاع أن يبتسم فى ازدراء . وفى اتئاد وهدوء وضع رسالة أمير المؤمنين بجواره . ومد يده فالتقط أخرى كانت غير بعيد ، نشرها تحت بصره ؛ وراح يقرأها وشفتاه لا تكفان عن ذات البسمة التى لونتها قلة المبالاة .

« من عمرو بن العاص ، إلى معاوية بن أبى سفيان :

« أما بعد ... ما كنت صانعاً فاصنع ، إذ قشرك ابن أبى طالب من كل مال تملكه ، كما تقشر عن العصا لحاها ! .. »

وصدق ابن النابغة . فهاهى الأخبار قد جاءته بما انتواه على من مصادرة القطائع والأموال التى بعثرها عثمان .

٦

الشام غضبى ... حديث القلوب فيها لوعة ، وحديث الأعين دموع ، يوشك رجالها أن يجردوا السيوف ، ويتدفقوا عبر الصحراء كالسيل صوب الجنوب ... ولكن زمام عواطفهم كان بالقصر — فى يد الأمير الشحيم ، المندحق البطن الواسع البلعوم ! ... فهو وحده يستطيع أن يسير آلة الحقد الضخمة التى يؤلفون أجزاءها ، يدفعها إن شاء ويوقفها إن شاء ، أصابعه فيها الحركة وفيها السكون ، كأنها أذرع الأخطبوط تتحرك إلى كل وجهة وهو ثابت فى مكانه .

كان تاجر أهواء . كل نزوة نفسية لها فى قائمته ثمن معلوم ، وكل هوى يلقى فى سوقه من الرواج بقدر ما يجره عليه من الربح . يستعرض العواطف كما يستعرض السلع ، وينتقى منها أجداها عايه ، ومن وراء أسوار قصره المنيف كان يلعب بأحاسيس الناس . ويربط بين قلوبهم وأطماعه كما ترتبط الدمى بأصابع مهرج قابع خلف ستار . . . وكان حاذقا يجيد التمثيل ، يكاد أن يرى الأثر الذى ينشده من الاعيبه آخذا سبيله فى النفوس ، بالغاً منهسا أعمق أغوارها وإن بقى هو ساكنا إلى وساداته ، ساجى الطرف ، يشبع نهمه من الأطعمة الشهية التى كانت — بعد أطماعه السياسية — أحب هوية إليه فى الحياة .

أصابعه الماهرة استطاعت أن تحرك الجماهير . وتلعب على أعصابهم حتى ملكتهم العواطف الجياشة وأشفت بهم على حافة الجنوح . ولم يكن يخشى أن يفلت منه الزمام فما للدمى مشيئة سوى مشيئته هو الذى يمسك الخيوط . ولم يخش أيضاً فتور المشاعر المشبوبة ، فقد أحسن إمدادها بالوقود . ولن يفتأ الناس كل مطلع شمس أن تضطرم فى قلوبهم نار اللوعة حين يدخلون مسجد دمشق ، ثم تعصف بهم ثورة الغضب حين يبرحون أبوابه ولن يكف شعورهم عن التذبذب

بين هاتين العاطفتين بضع مرات فى اليوم بعدد الصلوات . فثمة على المنبر مشهد تغلى له دماء الرجال ، وتتقد نخوتهم . وما دامت فيهم عين ترى فلن تهدأ لهم ثائرة قط . فهذه بقايا المأساة التى شهدتها المدينة قائمة أمامهم تتلقفها الأبصار كلما تولت شطر القبلة . إنها شعيرات من لحية عثمان تجمد عليها دمه ، وقميصه قد بدت فى ديباجته الدامية تلك الخروق التى نفذت منها أسنة الثوار إلى قلبه وحملت إليه الموت ، وسلاميات أصابع جافة برزت من بين ألفافها كأنها تهيب برجولة أهل الشام أن يبادروا للانتقام ! .

إثارة النزعات النفسية كانت تجارة معاوية سليل التجار ! ... وقد أثارها كما شاء وملأ بها قلوب رعاياه حتى لم يعد ثمة رجل منهم إلا يتحفز للثأر ممن أشعلوا نار الفتنة على عثمان . وبحسبهم أن تطالعهم آثار المأساة فى كل ساعة من الليل والنهار لتظل موجدتهم مشبوبة لايخمد لها ضرام . فما استطاعوا أبدا أن يعرفوا الأسباب الحقيقية للثورة ، ولا مدى المسئولية التى كانت واقعة على الخليفة تجاه أمته وأدى تهاونه فى الاضطلاع بها إلى اندلاع لهيب العصيان. ولكنهم ألقوها نظرة عابرة على حادث المصرع كشفت لهم من الناحية السطحية منه — الناحية الحزينة العاطفية التى يبدو من خلالها شيخ واهن أثقله العمر ، قد اقتحمت عليه مأمنه فئة باغية لم تأخذها فيه شفقة وراحت تستمتع باعتصار بقايا الحياة من جسده الضعيف .

بذلك القميص الذى مزقته الأسنة ، وبالسلاميات الجافة ، وبالشعيرات اللاصقة بمنبر دمشق استطاع معاوية أن يصل من قلوب رعاياه إلى مالا تستطيع بلوغه أبلغ خطب التحريض وأشدها حرارة . الآثار الثلاثة كانت باعث غضب جامح مجتاح عصف بالنفوس كأنها الخرقة الحمراء حين يلوح بها أمام ثور! ... غير أن حاكم الشام لم يجن من وراء عرضها إثارة سورة الغضب المائج فحسب، بل وسعه أن يبدو بها بطلا ماجدا فى عيون شعبه لا يقعد عن الثأر لضعيف مظلوم .

بدا فى ثوب الناقم على قتلة الخليفة ، الحزين غاية الحزن لمصرعه . ولكنه إلى هذه اللحظة لم يكشف عن خطته ولا عن الطريق الذى يريد أن يوجه فيه نقمة هذه النفوس الغضبى . لم يكن قد أكل نسج شباكه فآثر التريث ، غريزته التجارية دلته على أن التمهل أجدى على أهدافه المريضة وأدعى إلى تحقيقها على الوجه الذى يرتضيه . ولئن لاح سخطه واضحاً على مثيرى الفتنة التى سالت فيها دماء عثمان فإنه لم يبين « من » هو أولاهم بتحمل تبعة هذه الدماء المهراقة . واكتفى بأن ظل ينفخ فى النار التى أججها بصدور أهل إقليمه . عساه يستطيع — إن أسعفته الظروف — أن يدفعهم عبر الصحراء صوب الجنوب ! .

ثم أخذ رويدا رويدا يتبين السبيل الذى يصل به فى نهاية الشوط إلى مراميه . وراحت الأخبار تترى عليه من كل جانب فتزيده استمساكا بأطماعه ، وأملا فى قرب تحقيقها على النحو الذى يريد . وكانت عينه دائماً على المدينة . ترقب كل ما يحدث فيها . وعلى الجالس الآن بمسجدها يحاول أن يوجه سياسة الدولة المترامية التى آل حكمها أخيراً إليه . ولم يفته اضطراب الأحوال بالحاضرة الإسلامية غب مقتل عثمان . ولا القوة التى ظلت فى أيدى الثوار كالسيف المصلت على الرقاب . فقد بقيت لهم شوكتهم عزيزة مرهوبة بعد أن حققوا بالأسنة ما أعياهم تحقيقه بالوسائل السلمية . وباتت لهم فى النفوس رهبة ، إذ ظلوا على اجتماعهم ولم يتفرقوا إلى أمصارهم كما كان المتوقع منهم بعد إنفاذ مشيئتهم . وكان من العبث أن يقهروا على الخروج وهم يملكون من السلاح والعتاد مالو شاءوا لكروا به ثانية على أهل البلدة العزل الآمنين .

ومن حق غالبية الثوار أن ننصفهم أمام التاريخ . فلم يلجئوا إلى الثورة حباً فى الفتنة والعصيان ، ولكنهم كانوا فى الحقيقة أفرادا أثارهم الظلم الذى وقع على مجتمعهم بأيدى ولاة عثمان وبأسباب نظمه السائدة التى دب إليها الفساد فى أخريات أيامه . فلما أن ثقلت عليهم وطأة العنت هبوا يلتمسون

عنده الخلاص . وساروا إليه حيث كان بمحاصرة الدولة يحملون ظلاماتهم عسى أن يرفق بهم وينزع عن سياسة الوعود المتوالية التي لا يفرغ لها معين . ولم يكن لهم مطلب قبله سوى أن يوفر لهم الحياة الإنسانية الكريمة التي وعدهم إياها الإسلام . ولكن السبأية انتهزوا الفرصة السانحة فأشعلوها فتنة مشبوبة تحقق لهم أغراضهم الهدامة وترد الدولة الفتية مزقا محلولة كما كانت قبل الرسالة ، واستطاعوا بأساليبهم الملتوية أن يوجهوا الوفود الساذجة النازحة من البلدان وفق هواهم ، ويتخذوا منها آلة هدم وتقويض . حتى إذا انتهت الفتنة ، ورأوا دماء الخليفة الصريع تبلل أيديهم ، خشوا إن هم انفضت عنهم جموع أهل الأمصار أن يسهل تناولهم بالقصاص ، فراحوا يوقعون في روع كل رجل شرك في الثورة أن أمنه رهين بأمنهم ، وسلامته موقوفة على بقائهم في الحياة .

وكذلك تماسكت هذه الوفود ، ووحدت بين أفرادها خشية النهاية كما جمعتهم في بادىء الأمر وحدة الغاية ، ووقفوا عن كثب يرقبون نظرة أهل الحاضرة ونظرة الخليفة الجديد فيهم ، وكانت طوائف كثيرة من موالي المدينة وعبدانها قد انحازت إليهم إبان الثورة وظلت بعدها لا تميل عنهم ، بل ساكنتهم معسكراتهم المنتشرة على أطراف البلدة .

على أن اضطراب الأحوال ، وتقلقل الأمن بالمدينة لم تكن وحدها ما يهيج خاطر حاكم الشام ، فقد علم أنها عارض عابر كتلك الاضطرابات التي تجيء عادة في أعقاب الثورات وتهدأ حدتها على الزمن . وعلم أيضاً أنها عائق — كبقية العراقيل الطارئة — كفيلة أقدام ابن أبي طالب أن تسحقه لو أمهل له في تناولها بحنكته وتدبيره ، ولكنه رأى بثاقب نظرته من خلالها أحداثاً شتى تهم أن تسير سيرها وتفسد على الأمير الجديد أمره إن وجدت اليد التي تعرف كيف تحركها وتدفع بها إلى الأمام ، وكان قدر معاوية في عونه ، والظروف إذ ذاك تتواتر وفق رغباته في ذلك الوسط الذي كانت الكلمة العليا فيه للأهواء والمطامع ، حتى لكأنما كل شيء كان

يتحرك بإملائه ، فما عدم قط اليد المحركة وإن لم يدفعها هو إلى الحركة ، ولم تنم عينه اليقظى عن تتبع أصابعها التى كانت تعمل دائبة فى السر والعلانية من أول يوم تسنم على فيه مقعد الخلافة . وكان الرجل بمجلسه فى قصر دمشق وهو يرقب الحوادث دائم الرضا عن زمانه ، موفور الثقة فى المستقبل الخصيب القريب ، يكاد يتبين حلمه القديم ينفلت من ألفاف الماضى — من قبر أمية وحفرة ابن حرب — ويثب قائماً على قدميه ينفض نثائر أكفانه . . ويوم أتاه كتاب عمرو بن العاص ، لمعت فى أفقه بوارق آمال رأى على أضوائها كافة العوامل التى يسعه تجنيدها لتنطلق به نحو النصر ! .

إن ثمة رجالا شردتهم الثورة قد ضربوا واجفى القلوب فى زوايا الأرض وما زالوا يحلمون بتبوؤ مراكزهم تحت الشمس ، وثمة آخرون من أقرباء الخليفة القتيل وخلصائه ينقمون اليوم من على قراره بحرمانهم الهبات والقطائع التى منحهم إياها عثمان ، وثمة طوائف الأشراف والسادة الذين أخذت من زهوهم شرعة المساواة الشاملة ونزلت بهم إلى صفوف أبناء الشعب ، وهؤلاء جميعاً ينتظرون ساعتهم ، ويستطيع معاوية أن يلحقهم به ويؤلف منهم كتلة العصيان التى تناهض الحاكم الشرعى للدولة ، ولم يكن ينقصه لنسج خيوطه وحبك مؤامرته إلا أن يبدو بطلا أمام التاريخ أو على الأقل بطلا فى عين رعاياه وأعين سواهم من سذج البلاد الإسلامية ليمهدوا له طريقه إلى تحقيق حلمه القديم فى السيادة

كان ينقصه العلم الذى يلتف حوله أنصاره — الفكرة السامية التى تظهره مناضلا من أجلها ، باذلا فى سبيلها وحدها الجهد والدم والأموال ، لا فى سبيل منفعته الشخصية أو مأربه الخاص ، ، فما أتيح قط لحركة أن تنجح إلا إذا هدفت لغرض نبيل أو تظاهرت بأنها قامت تهدف إليه .

وقد وسعه أن يستخلص الغرض الذى يبدو فى مسوح النبل لكل مفتون بظواهر الأمور لا يعنى بتقصى جواهرها ولا بالغوص إلى ما عساها تنطوى عليه ، وكان هذا الغرض هو الغضبة لعثمان ، والأسى على مصيره ،

وما يتبع هذا وذاك من لزوم السعى للأخذ بثأره والاقتصاص من قاتليه العتاة . نبه لاح موكولا بمحاربة البغى الذى وقع الشيخ المهيض فريسة لعدوانه ، وكان هو ولى دم القتيـــل ، فهو إذن أولى الناس بالانتصاف له ، وإذ كان أقوى أهله وأبلغهم سطوة ، فإنه أقدرهم على بلوغ هذا الهدف الإنسانى النبيل ، وكان فى حاجة إلى معونة الجمهور أكثر من حاجته إلى معونة أصحاب المطامع الذاتية ، الذين لا بد سيحتويهم وإياه نفس الطريق المؤدية إلى مناجزة الإمام . فلما أثار فى الأول حميــة النخوة ، ولوح للآخر بالمنافع المنتظرة ، كان قد استطاع أن يخضع لأهوائه أنبل العواطف البشرية وأخسها فى آن .

من قصر دمشق امتدت عينه ترقب حوادث المدينة فلم يفته منها شىء ، وإذا كان عمرو بن العاص قد نصب من نفسه هادياً يوضح الأمور له ويدعوه للمبادرة إلى العمل المنتج الفعــال ، فهذه منة لعلها تستحق أن يذكرها سليل الأمويين بالشكر وعرفان الجميل . ولـكنا لانحسب معاوية إلا مزج الشكر بالسخرية . وافترت شفتاه عن بسمة ماكرة صفراء فما خفيت عنه نفس صاحبه القابع هناك بحـدود فلسطين يشم الريح كما تفعل الضبع فى وكرها ، إذ ترهف أنفها لتتعرف إلى أين تدب لتستمتع بأشــلاء جيفة ! . . . الوصولى الثانى فى الإسلام كان هو الآخر يخضع قلبه وعقله لقواعد الحساب . ولا يبذل الحركة والـكلمة إلا بثمن معــلوم ، وإنها لناحية من نفسه مكشوفة بغير شك لعين معاوية سيد الوصوليين ! .

كأنهما شق رحى ، أحــدهما كفء الآخر ، قد جمع بينهما نفس المحور ، بل هما جدولان انحدرا من ذات النبع ، لا يتميز المرء منهما علامة خــلاف ، ولقد بلغ من استمساكهما معاً بشرعة المنافع وتقديمها على ما وضعته الإنسانية من اعتبارات أدبية ومقاييس خلقية أن قرنا فى الصف الأول من عبــــاد المادة وأسرى الطبيعة الآدمية التى كبلتها قيود الغرائز البدائية ، وكانا شكلين ، عطفت قلبيهما الأهواء الدنيوية ، ومازجت بينهمـــــا حتى لاحا فى

الناحية النفسية كتوأمين . فما نلوم بعد هذا من رد نسبهما إلى صلب واحد خرجا به إلى هذه الحياة ! . . وثمة صحيفة من صحائف فجور الجاهلية تنتشر عن النابغة أم عمرو كامرأة تلقفتها آونة مضاجع الرجال ، فلما خرج ابنها إلى النور تهامست الألسن عن أبيه ، وتاهت حقيقة نسبه بين بضعة نفر من سادة العرب إذ ذاك ، منهم العاص ، ومنهم أبوسفيان .. ولكن الأم حزمت أمرها على أن تلصق وليدها بأول الرفيقين ، إذ كان أوفر النفر ثروة ، وأسخاهم عليها في الإنفاق ، فكأنها بهذا الاختيار قد ضربت لابنها أول مثل في تغليب المادة على أوثق العلاقات ، وإنه لمبدأ رضعه من ثدييها ، وظل يدين بناموسه مدى عمره المديد ، حتى غاب جثمانه في التراب ! ..

على أن معاوية رأى في ابن العاص نموذجا للرجال الذين يؤيدون له قضيته حين تدعوه الحاجة إلى حشد جيوش الأباطيل . وكان لم يزل بعد في دور الإعداد فادخره إلى ساعته . واكتفى بأن يرقب الحوادث السيارة بقلب الدولة ، ويجهد قدر وسعه للإفادة منها وتحويلها إلى صالحه الخاص . كان شديد الحذر كدأبه ، لا يكشف عن غاياته إلا إذا حان الوقت المرقوب . لذلك لم يبادر الإمام بالخصام حين أتاه كتابه ، بل آثر التريث فلم يستجب لدعوته ولم يجاهره بالعداء . وإنما ظل ساكناً يداور الرسول الذي ينتظر ببلاطه بضعة أشهر دون أن يفوز منه بالرد المطلوب . فلعله خشي إن هو أظهر الخلاف أن تستقيم الأحوال لعلي فيستطيع أن يهدم تحته إمارة الشام فضلا عن تقويضه صروح آماله العريضة في حكم دولة الإسلام . وبقي رابضاً بقصره يلقي سمعه وبصره كليهما على المدينة ويدبر خططه حسبما يأتيه من الأنباء .

ولم يطل به الانتظار فإن الهوى ابتنى عروشاً في قلوب كثيرة سوى قلبه . ولكن خبراً واحداً كان له في نفسه فعل الخمر . أحس على أثره بنشوة فتحت له باب أحلامه على مصراعيه . . . لقد أوشك الزبير وطلحة أن يتمردا ويرفعا علم العصيان . . .

اثنان من أهـل الشورى ! . . أثمة من هو خير منهما بين صحب رسول الله ؟ . . . بل الثالث الباقى على قيد الحيـاة لم يبايع هو الآخر ! . . بل عائشة أيضاً تلك المؤلبة الأولى ضد عثمان ، المنادية بالثورة عليـــه بصوتها الجهير ، الداعية إلى قتله بكل مكان ، قد أصبحت اليـوم تذرف الدمع ، ورأيت باطلا ما رأته حقـاً بالأمس ، ثم مضت تسير على رأس فتنة جديدة لن يصلى نارها سوى الإمام ! . .

ماذا فعل على ليبوء بنقمة هذه الصفوة المختارة من بناة الإسلام ؟ . . . التاريخ لا يعلم . . صحائفه فى هذه الناحية بيضاء ، ليس بها نقطة واحدة تشين الخليفة الجديد . ولـكن سفر النفوس الناقمة كان شديد السواد ، ملأته أحقاد الماضى إلى دفتيه . والناس فى كل زمان ومكان هم الناس ، أسرى ماضيهم . تجرهم خلفها الأهواء المنبعثة عنه دون أن يتبينوا إلى أين تسير . .

كل ما بدا من أسى عائشة لمصير عثمان ليس بغريب . بل هو أدنى إلى الرقة التى ينطوى عليها قلب المرأة ويتفجر نبعها إذا ما جرحته الملمات . ولقد كانت عائشة — فيما يلوح — امرأة فوارة الأحاسيس . لا تعرف القصد فى عواطفها ، بل تطلقها إلى أقاصيها . فلما غضبت على عثمان استرسلت على سجيتها إلى ذروة الغضب فدعت إلى قتله . حتى إذا جاءها نبأ مصيره الفاجع لان قلبها ، وعطفها عليه رحمـة دافقة فياضة مسحت غضبها القديم منه ودفعتها إلى المبالغة فى الغضب له . وإذا كانت بهذا الشعور الجديد قد استجابت لرقتها كامرأة ، فإن موقفها من على فى ذات اللحظة يبديها أنثى وفية لأنوثتها غاية الوفاء ! قد ملـكتها غريزتها الأنثوية حتى انساقت فى حقدها عليه إلى مدى لم تسيطر عليه حكمة ولم يحده عقل .

لعلها قلبت سفر المـاضى ، ذلك اليوم من ذى الحجـة ، وركبها المنطلق الى المـدينة قد وقف بالطريق ينتظر أمرها بالمسير . والذكريات ماثلة أبداً للواعية اليقظى ؟ والمشاهد التى تبعثها تنبثق عنها كما ينبثق النور عن ومض البرق ، سريعاً ، لاتستغرق من الزمن إلا لمحة من لحظة . . . فما إن سمعت

أن البيعة انعقدت لابن أبى طالب حتى حضرها كل ماضيها وانكشف أمام عينيها كلوحة مرسومة . . .

وصاحت بالركب الواقف ودماء وجهها من بغتة الخبر تكاد أن تغيض : «ردونى ! . . ردونى ! . . »

واستدار الركب . وراحت القافلة تضرب فى عكس اتجاهها الأول ، عائدة صوب مكة التى لم تكن برحتها إلا منذ قليل — تماماً كما انطلقت الآن مشاعر السيدة إلى عكس مسلكها السالف . فما أعجب أن تكون أحاسيسها طيعة هكذا فى يديها ، تحركها فى ذات اللحظة من أقصى النقيض إلى أقصى النقيض ! غير أنها طبيعة أنثوية دافقة ، لا سلطان للعقل على عواطفها الجياشة. وما كانت عائشة لتستطيع أن تملك نفسها فى تلك اللحظة إلا أن استطاعت أن تمنع بكفيك انحدار سيل ! . .

وهتفت وهى حانقة مغيظة وبصرها يشير إلى السماء ثم ينخفض فيشير إلى الأرض :

« والله ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لابن أبى طالب ! . . . قتل عثمان والله مظلوماً . . والله لأطلبن بدمه »

فحركت كلماتها فضول من سمعها ، فإذا رجل منهم يقول لها فى استنكار :

— ولم ؟ .. فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ! .. ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد فجر . .

— إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول.

ولكنها حجة لا يبررها ما سلف به لسانها فى حق عثمان ، كما لا يبررها قعوده عن صد أذى أهل الأمصار وإصراره على إبقاء ظلاماتهم معلقة بدون علاج . وعائشة أنكرت هذا منه وظلت ناقمة عليه حتى لقد أبت أن تبقى بالمدينة لتكف عنه الناس حين حصروه بداره ومنعوه الماء . بل ودت لو ألقته بيدها فى البحر لتخلص الأمة من عهده ! وتمضى على الأثر إلى مكة

فلا يمنعها خروجها لأداء واجب دينى مقدس من محاولة التخذيل عن الشيخ وبث كراهيته فى نفوس الحجيج القادمين من كافة الأقطار . ولولا أن أبى عليها ابن عباس أن يكون لسانها الداعى بدعوتها لشهدت البلدة الحرام ناحية أخرى من نواحى حقدها على عثمان . . . ثم راحت وهى بموطن الإحرام لاتنى تستنبىء كل قادم وتتنسم أخبار المدينة بلهفة عسى أن تعلم ما يهدىء خاطرها ويجنبها قلق الانتظار . فلما أن ألقى إليها ذات يوم بنبأ مكذوب ثم عن انتصار الشيخ على خصومه وقتله المصريين صاحت فى غضب واستنكار:

« . . . أيقتل قوماً جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم ؟ . . والله لا نرضى بهذا . . . »

فما كان أعجب غضبها له بعد قليل ! . . ومع ذلك فهل اقتنعت هى حقاً أنه تاب ؟ . . وهل التوبة عن حيف يكفى أن تكون بلفظة لسان دون تغيير الحيف ؟ . . وإلى أى مدى نزع عثمان عما أثار عليه سخط عائشة وسخط الناس ؟ . . وماذا يا ترى منعها من النهوض لنصرته حين كان فى حاجة إليها وهى بالمدينة ما دامت قد آمنت بصدق توبته ؟ . . وكيف وسعها البقاء بمكة دون أن تستعدى أهلها على الثوار لصالح هذا التائب الذى تركته فى مأزق لا يرجى له منه خلاص ؟ . .

لا حجة لها فى الدفاع اليوم عن عثمان سوى حقدها على الإمام . فما زالت نفسها مقروحة منه . وما زالت مشاعرها ، بكل ما تنضح به النفسية الأنثوية التى تجمع النقائض ، تزدخر بالكره له . فهى امرأة قبل أن تكون عائشة ، لها خلائق المرأة ، ولها طبيعتها . وهى جامحة الأحاسيس تنقاد لشعورها حتى غاياتها ولا تملك أن تحد من غلوائه . وقد زودها الماضى بذخر من البغض ادخرته لابن أبى طالب مذ الساعة التى شهدته فيها لا يقف إلى جانبها حين حاكت حولها الألسن الباغية حديث الإفك . وهى أيضاً مشبوبة الغيرة ككل حواء ، لا تستطيع أن تحرر قلبها من سلطانها القاهر .

وكأية أنثى كان صدرها يجيش بعواطف أمومة مختزنة تنتظر أن يعينها الزمن على إطلاقها لتحبو بها صغيراً تسعد به، فلم يسعفها القدر بتحقيق حلمها الجميل وبقيت طوال الأعوام التى عاشتها زوجاً عاقراً لا تستطيع أن توثق الزوجية برباط من البنوة. لكم ودت لو دفعت إلى محمد طفلا من دمها ومن صلبه يضفى عليه فيض حنانه، وتعيش هى على مدى الأحقاب فى ذراريه ! . .

ولكنها نعمة حرمتها فأحزنها الحرمان. وما أحسبها إلا كانت تشعر بشىء فى صدرها يشبه الحسرة وهى تنقل بصرها فترى زوجها الحبيب يهب رعايته فتاته الزهراء. ويوليها عطفاً كانت تود عائشة لو أولاه طفلة تمتزج فى عروقها دماء الزوجين. غير أن خديجة نعمت دونها بهذه الميزة. وعاشت فى ذرية محمد بعد الموت إلى نهاية الأبد. خديجة الزوج الأولى، التى عاشرت رسول الله ربع قرن لم تغضبه خلاله مرة ! وتزوجها وهو شاب وهى فى طريقها إلى الكهولة فلم يجمع بينها وبين زوجة أخرى، ولم تسعده امرأة بعدها بمثل ما أسعدته ! خديجة هذه تنال من حب محمد ما لم تستطع عائشة نيله وإن كانت فتاة حلوة صغيرة السن ؟ وتهبه من الولد وهى عجوز ما عجزت عنه الجميلة الصغيرة ؟ وتبقى على الدوام ماثلة فى خاطره بعد موتها لأنها لم تبرح أبداً قلبه ! وما أكثر ما سمعت عائشة رسول الله يذكرها أمامها بعبارات إعزاز كانت تشعر معها أن هذه الغائبة عن وجه الدنيا تستأثر دونها بأكبر نصيب من حب زوجها العظيم ... ولندع عائشة تفصح بلسانها عن شعورها الحقيق إذ تقول :

« ما غرت على أحد من نساء النبى ماغرت على خديجة . . . وما رأيتها، ولكن كان النبى يكثر ذكرها. وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها فى صدائق خديجة. فربما قلت له كأنه لم يكن فى الدنيا إلا خديجة . . فيقول إنها كانت . . وكانت . . وكان لى منها ولد » .

فهى باقية وإن ذهبت . تعيش اليوم فى خاطر محمد كما عاشت بالأمس فى دنياه. وتكاد أن تملأ عليه آفاق فكره لا يشغله عنها وجود عائشة ،

ولا حسنها ، ولا صباها . باقية أبداً فى الزهراء الرقيقة ، وفى الحب الأبوى الكريم الذى يفيض به قلب رسول الله . باقية أيضاً فى خلجات نفس عائشة بقاء شعور الغيرة العجيب الذى لا ينى يراودها فى كل لحظة . وهل آلم على نفس الزوج الصغيرة من إحساسها بالخوف من امرأة ماتت ••• وضعفها أمام شبح يطل على بيتها من خلل الماضى ويلقى ظلالا قاتمة على سعادتها الزوجية •• الزمن لم يستطع أن يشفيها من هذا الخوف ، أو يحجب عنها صورة ضرتها الخطرة وراء ستر النسيان • بل قد حالف خديجة ، ومضى يعيدها إلى الحياة مرات ومرات • ويكررها فى أحفادها كما كررها فى بناتها وأولادها • فإذا هى صور شتى تطالع عائشة كل يوم ، وتطوف عليها بيتها فتملأ سمعها وبصرها بعد أن كانت صورة واحدة لشبح يعيش فى وهم الذهن • فأى خليط من المشاعر كان يجتاح نفسها كلما ألقت العين على محمد وهو يداعب أحفاده ويوليهم حنان قلبه الرحيب ! أهو الغيرة على الزوج الأولى التى صارت اليوم فى أشخاصهم حقيقة تتجدد بعد أن قاربت أن تكون ذكرى !•• أم الحسرة على حرمانها الولد الذى حلمت أن يكون نسلا لها من رسـول الله تعيش خلاله على مدى الزمن السيار !•• أم الحقد على غريمها ابن أبى طالب وقد تفرد وحده بنقل سلالة زوجها الحبيب إلى الأحقاب !••

كانت أنثى كأية أنثى ، تسمع لوحى قلبها وتلبى نداءه فما خالفت طبيعة المرأة حين غارت ، وحين ملكتها الحسرة ، وحين حقدت • فإن هى إلا واعيتها التى تكلمت — برغمها — وتحركت ، ودفعتها إلى موقفها العدائى للإمام • وإذا نطقت الواعية فلها الكلمة المسموعة ، وضاع صوت العقل الهادىء الخفيض فى ضوضاء المشاعر الصخابة •••

٧

جاز ركب عائشة دروب مكة فاجتذب إليه الأنظار . وملكت الدهشة نفوس الناس حين رأوها تعود ثانية ولما تبرحهم إلا من قليل . فعهدهم بها قد خرجت تروم المدينة بعد أن قضت عمرتها . ولكنها الآن قد غيرت وجهتها ، وسار ركبها والألسن تلغط حوله . ويتحدث كل امرىء بظنه عن السبب الذى عادت من أجله أم المؤمنين . ولم تفصح هى عن شىء . بل جنحت إلى الصمت . وكانت الأعين قد انتبهت إلى الموكب فتبعته الأقدام وسارت خلفه إلى باب المسجد . وأناخت السيدة بعيرها ، وترجلت ، ثم انطلقت إلى الحجر فاستترت فيه ، ومن ورائه قامت تخاطب الجموع :

« يا أيها الناس . . »

فألقوا إليها الأسماع . وهل عساها تعود فتخطبهم إلا فى أمر خطير عظيم ؟.

« . . . إن الغوغاء من أهل الأمصار ، وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب ، واستعمال من حدثت سنه ، وقد استعمل أسنانهم قبله ، ومواضع من الحمى حماها لهم ، وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها ، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم . فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خلجوا ، وبادروا بالعدوان ، ونبا فعلهم عن قولهم ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام . والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ! . . فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ، ويشرد من بعدهم . ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه ، أو الثوب من دونه إذا ماصوه كما يماص الثوب بالماء . . . »

وتفرق الناس بعد حديثها هذا شيعاً ، وكان أولى بهم أن تتوحد كلمتهم فى هذه المحنة الحازبة التى أصابت الإسلام . ففيم تدعوهم اليوم أم المؤمنين ؟

وإلى أية غاية تريد أن تسير بهم ؟... لحرب الغوغاء ؟... للزحف على المدينة وفيها الأمير الشرعى للبلاد؟... قدأوشكت كلماتها أن تشكك الناس فى مسلك على حيال أصحاب الفتنة إن لم تكن قد ألقت فعلا ظلالا سوداء على نواياه وهى بعد فى قلب الغيب. وراحت البلدة الحرام — وهى مباءة قريش تطن بالضوضاء حول اسمه طنين الخلية .

وتلقف القوم خطاب عائشة فلاكوه فى أفواههم وخرجوا منه ما شاءوا من أقاويل ، فكذلك وجهتهم كلمات الذائدة اليوم عن دم عثمان . وهل عسام يستخلصون من حديثها ومن عودتها الفاجئة حين علمت ببيعة ابن أبى طالب إلا أنها — لأمر لابد يتصل بدعوتها الجديدة من قريب أو من بعيد — قد آثرت أن تتجنبه وتلجأ فى الانتصاف للخليفة الشهيد المظلوم إلى غيره من الناس ...

وكانت مكة إذ ذاك تمج برجال الحكم المهدوم من ولاة عثمان وخلصائه وأقربائه . فما سرت إلى أسماعهم صيحة أم المؤمنين حتى رأوا فيها القشة التى قد تنقذ بجدهم الغريق. وأسرعوا جميعاً إليها . يلتفون حولها ، ويضمون أنفسهم فى خدمة الغرض الذى قامت فيه . ولو أنها دققت نظرتها لوأتهم أجمعين أقبلوا لخدمة مآربهم وإنقاذ سلطانهم القديم أن يضيع . والتحقت بها أيضاً طوائف كثيرة من الأهلين الذين استهوتهم من دعوتها ناحية المروءة فيها ودفاعها عن مظلوم ، واستهوتهم أيضاً شخصية عائشة وما لها من مكانة عالية فى القلوب . وكان بنو أمية لاريب أول من لحقوا بها ، وانضووا تحت رايتها . فإن هى إلا ساعات حتى اجتمعت بها رؤوسهم الذين شردتهم الثورة ، فيهم سعيد ابن العاص ، والوليد بن عقبة ، ومن كانت مكة موئلهم فى ذلك الحين ، وهم على شبه يقين أن دولتهم لن تلبث حتى تعود ثانية إلى الحياة .

وانطلق إليها الحضرمى أمير البلدة الحرام من قبل عثمان يسألها ويقول :

« ما ردك يا أم المؤمنين ؟ »

فأجابت وقد ملكتها غلواء عاطفتها حتى ما درت أنها بهذا الجواب

تخالف موقفها الذى وقفته من عثمان من بضعة أيام ، وتنتقل به من النقيض إلى النقيض :

— ردنى أن عثمان قتل مظلوماً .

— فما ترين ؟

— أرى أن الأمر لايستقيم ولهـــذه الغوغاء أمر . فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام ...

فما أبرأ مظاهرها من كلمات فى باطنها فتنة مشبوبة . . إنها بها قد هدمت أول دعامات الحكم الشرعى فى الدولة بأن اغتصبت حق توجيه الولاة ، وإلقاء الأمر إليهم دون تفويض بهذا ممن له وحده حق التوجيه . واستغلت قدرها عند الناس فى امتلاك ناصية سلطان ليس لها وليست تقدر عليه . فما أوتيت العلم بأمور السياسة . ولغير هذا أهلها طبعها الحاد الذى يقفز بها دائماً إلى أقاصى الغايات دون إفساح الطريق لحكمة العقل . وكماها خطأ أن غضبت لفتنة أوشكت أن تخمـــد فقامت تعالجها بفتنة جديدة لن تلبث أن تتأجج نارها وتندلع ألسنتها المحرقة حتى تعم الدولة الإسلامية كلها وتلهبها بسياطها فى كل مكان .

ويعجب المرء لهذه الهمة الفائقة التى راحت عائشة تبذلها لجمع الناس تحت رايتها . ولهذا النشاط البالغ الذى وسعها أن تبديه فى هذه الآونة العصيبة ؛ هى التى ظلت طوال عمرها قعيدة دارها تكاد لا تساهم فى الحياة العـــامة بأى نصيب . فما زاد دورها من قبل عن خبرة بالشئون الدينية ترشد بها من أراد علمـــاً ومعرفة . وقد انقضى عليها بعد وفاة رســول الله نحو ربع قرن من الزمان كان أثرها خــلاله مجهولا تماما عن صحائف التاريخ لولا ما بدر من نقمتها على عثمان فى أواخر أعوام عهده . حتى هـــذه النقمة لم تنفرد بها ولم تثرها وحـــدها عليه . بل سايرت فيها الشعور العام الذى أجمع عليه جمهور الأمة الإسلامية . أما هـــذه الدعوة الجريئة الجديدة فقد بدت وثبة عالية إلى النشـــاط السياسى غير متوقعة منها ، يكاد المرء أن يتساءل معها محيرا :

أكانت ابنة الصديق تقفزها لو أن الجالس على مقعد الخلافة كان رجلا آخر سوى الإمام ؟ . .

غير أنها كانت وثبة على أى حال ... وثبة موفقة فى نظر المشاعر التى اضطرمت بنفسها على الأمير الجديد ، ذلك الرجل الذى امتلأ قلبها بالبغضاء له وناصبته العداء لأنه ذات يوم لم ينصرها على الشبهات التى التفت بها وإن يكن لم يرمها أيضاً بكلمة اتهام . ولكنها طبيعتها الجامحة مع العواطف التى دفعتها إلى هذا الموقف تقودها إليه عوامل شتى من السخط والغيرة والحسرة ، حتى انتهت الفتنة التى أشعلتها بالحوادث إلى أسوأ انتهاء . فما يمكن أن ينسى أثر موقفها فى المصير المحزن الذى اختتم به عهد الإمام ، بل اختتم به عهد السلطان الروحى الذى كان يرجى من ورائه كل خير للدولة الإسلامية الناشئة لو كان أجله قد امتد بضع سنين . وهل من ريب فى أن فتنتها كانت سلاحا حاداً فى أيدى الأهواء والمطامع ، تلقفه بنو أمية وغيرهم من الوصوليين ليبلغوا مآربهم ، ويقيموا دولة زمنية على أنقاض الحكم المثالى الذى قصد إليه الاسلام ؟ .

كانت دعوتها نداء عالياً أيقظ فى النفوس أهواءها النائمة ، وكانت أيضاً دعوة إلى التمرد على الحاكم الجديد ، وإلى تهوين شأنه عند رعاياه ، وعند الولاة القائمين على الولايات حينذاك ، فقد لاح طلبها بدم عثمان فى بادىء الأمر دعوة إنسانية بريئة ، ولكنه فى حقيقته كان خطة سياسية بعيدة الغور تحمل فى قاعها الانتقاص من قدر على بوصفه الأمير الأول الذى يجب أن توجه بلسانه أمثال هذه الدعوات ، وعليه دون غيره الانتصاف لكل مظلوم من ظالميه ، وله وحده الكلمة النافذة عند شعبه وعماله . وقيام عائشة بدورها هذا جعل كثيراً من الناس يحسبونها ماقامت قومتها إلا لأن أمير المؤمنين قد أبى أن يبدأ القيام ، أو فترت همته دون إيقاع القصاص بقتلة عثمان ، بل إن منهم من رأوا فيه رجلا قعد عن نصرة حق وجب أن ينصر لأن له مأرباً من وراء هذا القعود ، وجرت ألسنتهم فيه بالظنون الظالمة حتى أظهروه فى أحاديثهم

شريكا للثوار نقع على رأسه مثلهم دماء القتيل ، وكان هذا أرهف سلاح أمدت عائشة به معاوية وأنصاره ، فما زالوا يشهرونه فى يد باطلهم حتى نالت الأقدار من على نيلها وغيبته عن ميدان الصراع .

ولم تكن دعوة عائشة ذات أثر فحسب على نفوس ذوى الأطماع الذين رأوا فى قيام حكم علوى ما يبدد أحلامهم فى النفوذ السياسى ، بل تجاوزتها إلى كل من رنا إلى هدف شخصى ومنى نفسه بلوغه ، وإلى طائفة من ضعاف العزائم الذين لا يثبتون عند رأى ويميلون مع النزعات المتضاربة كل ميل ، وإلى السذج الذين يستهويهم فى الأفكار المبثوثة زخرف سطحها دون قيمة جوهرها ، وإلى المغلوبين على مشيئتهم ممن بايعوا علياً انسياقا مع الرأى العام دون رغبة حقة فى تنصيبه للخلافة . . فكل أولئك جرفتهم دعوة عائشة فى غمارها فانطلقوا معها إلى آخر الشوط ، واستجاب لهم من كانوا على شاكلتهم بغير مكة ، كلما سرت أنباء صيحة أم المؤمنين إلى بلاد الدولة الإسلامية مع الركبان ، وكانت مدينة الرسول أول بلدة صك سمعها صوت الفتنة إذ جاءها على ألسنة العائدين من زيارة بيت الله الحرام ، فما نشب أن وقع فيها خلاف بين على فى ناحية وبين طلحة والزبير فى الأخرى ، أدى فى النهاية إلى ضياع ما قاما فيه وحاربا عليه من أيديهما ، ووقوعه طعمة سائغة لابن أبى سفيان .

يكاد المرء كلما أجال ذهنه فى شأن الصاحبين أن يجزم بأنهما لم يخلصا النية حين بايعا الإمام . هما حقا تقدما إليه صفوف الناس ، وبادرا فسلما عليه بتحية الخلافة قبل أن تمتد إليه كف أخرى ، ولكنهما — مع ذلك — لا نراهما فعلا هذا انسياقا لشعورهما الخالص بقدر ما فعلاه مجاراة للشعور العام . ولقد يبدو أنهما رأيا السلامة فى البيعة له ، وخشيا على نفسيهما من غضب الجمهور إن جاهرا بالامتناع ، فآثرا إعلان غير ما يحسان . ولكنها أيضاً خشية معزوة إلى الوهم واضطراب الخيال وليست إلى الحقيقة التى أثبتتها من

قبل ومن بعد قرائن الأحوال فما علم قط عن على أنه دفع الناس للتحزب له أثناء الأزمة التى انتهت بمقتل عثمان ، ولا اتخذ دعاة يروجون لتوليته ويأخذون معارضيهم بالعنف كى يناصروه . بل الثابت أنه كان أبعد الزعماء عن ميدان التنافس على السلطان ، وأزهدهم جميعاً فى السعى إلى الخلافة ، وأكثرهم اعتزالا للجماهير التى ظلت بضعه أيام تهتف باسمه، حتى إذا قهرته على الاستجابة لمشيئتها لم يقبل منها البيعة إلا أن تكون بالمسجد ، على مسمع ومرأى من الخاص والعام ، ليرى الكافة رأيهم فيه قبل أن تسند إليه الإمرة ، راجياً من وراء هذا أن يوفر حرية الرأى للجميع على السواء ، يؤيده من شاء ويرفضه من شاء . وتمت له بيعته على النحو الذى أراد . فما علمنا أن أحداً خالفه قد أخذ بالعنف الذى يؤخذ به العصاة ، بل تركهم أحراراً وبالغ فى الترفق بهم وإن واجهوه بالرفض والإباء .

ومع ذلك فقد لاح أن الندم لم يكف عن الطواف بقلبى طلحة والزبير منذ اللحظة التى أدليا فيها بالبيعة إلى الإمام . فما غادرا المسجد ذلك اليوم حتى تبينا إلى أن مدى غمط كلاهما حق نفسه حين مسحا بكفيهما على يد الرجل الذى أصبح على الأثر أميراً للمؤمنين . وبدا لهما أنهما قدماه بغير موجب وآثراه بأمر هما أولى به . فما سعى سعيهما إلى الخلافة ، ولا نشط كنشاطهما فى تأليب الناس على عثمان وتحريض الثوار حتى حصروه وقتلوه ، بل قد كانت حياة الخليفة القتيل أدنى إلى النجاة لو أنه استمع لرأى على واستجاب لإرشاده . وكانت خطط الصاحبين وتدبيرهما لبلوغ السلطان أقرب إلى الفشل لو أقره عثمان على قتال الثوار وأخذهم بالعنف قبل اشتداد ضغطهم عليه .

وفى الحق لسنا نرى إلا أن الندم هو أولى الانفعالات وأجدرها بسكنى هاتين النفسين بعد الذى أصاباه من خيبة الرجاء . فقد ذهبا يدأبان لابتزاز سلطان عثمان فما أفادهما الدأب . بل سقطت الثمرة المشتهاة فى حجر على وهو ساكن لا يرفع إليها بنانه . وعجيب أن يهدم القدر صروح

أملهما المنشود فى اللحظة الأخيرة ، ولكن الأعجب منه أن يتخذ منهما معول هدم . . . منيا النفس طويلا بخلافة يشتركان بها فى حكم الدولة الإسلامية العريضة ، أو لعلهما اتفقا على قسمتها دويلتين تدين كل منهما لأحدهما وحده ، أو ربما استنبطا نظاماً جديداً من الحكم ادخراه ليوم النصر ، ولكنهما أحالا النصر المرقوب إلى خذلان لم يدر ببال ، ومزقا بكفيهما ستر الحلم الجميل ، الذى ظلا طويلا يرنوان نحوه ، فانهتك عن حقيقة شوهاء طالعتهما من خلاله .

كانت فرصة ذهبية ، أتاحتها لهما الظروف المواتية فى الوقت الحاسم ، فضيعاها . كانت فرصة العمر كله ، جاءتهما ذلولا وقدم على لم تثبت بعد على درج المنبر ... فى هذه اللحظة الفاصلة كانا أدنى إلى إمرة المسلمين منه ، وأقرب إليها كما لم يكونا مطلقا من قبل . وأوشكت أن تنعقد البيعة لأحدهما أو كليهما حين خيرهما ابن أبى طالب بين أن يبايع لهما أو يبايعاه . . . بل قد مد إليهما كفه يكاد أن يحييهما بتحية الخلافة . وكانت البيعة إذ ذاك حرية أن تتم بيده لو قبلاها . حرية أيضاً أن تلق رضاه الشعب الذى كان يلقى السمع والطاعة إليه . فلو قبلاها ...

ولكن الخشية التى نزلت بقلبيهما فى تلك اللحظة أضاعت الفرصة ، وقلبت النصر هزيمة ، وما أمر الخذلان ساعة ارتقاب الفوز ! . . الخشية من الجماهير المفتونة بحب على دفعتهما إلى التردد فى قبول عرضه السخى الكريم ، ثم إلى الإحجام عن قبوله ، ثم إلى رفضه بمنطق اللسان وإعلان غير ما يحسان . وما نحسب طلحة إلا يذكر تلك اللحظة وهو آسف محسور ، ويجيل بذهنه مادار فيها من حديث قصير ونفسه تقطر ندماً .

يقول له على :

« ابسط يدك يا طلحة لأبايعك »

فتندفع الكلمات إلى طرف لسانه بالجواب غير المرقوب :

« بل أنت أحق بها ... أنت أمير المؤمنين فابسط يدك ... »

فلعله نطق بها دون أن يريد : ولعله لم ينتبه إلى خطرها على آماله إلا بعد أن انفلتت من بين شفتيه وسمعها كأنها آتية من غير فه ! ... ولكنها كانت قاطعة كالسيف . ما أسرع أن قررت مصيره وقصفت عود أطماعه فى الخلافة بعد أن ظل يتعهد نضرته وأزهاره منذ عهد الصديق . ومضت تلك الساعة خاطفة ، لا تستأنى ، ولا تمهله ليصلح سقطة لسانه ! .. وراحت حوادثها تعرق كالسموم ، وتتدفق كالسيل المتحدر من شواهق الجبال . ولو استطاع الرجل لجهد ليسترد كلمته ثم يخفيها عن الناس فى قرار سحيق ! ... لكنها كانت شيئاً كلحظات العمر ، يذهب إلى غير مآب . يملكها صاحبها مرة واحدة إذ هى هامدة الحس خلف شفتيه ، فإذا عرفت اليقظة فإنها كفيلة بأن تملكه على مدى الدهر مرات تزيد وتتجدد بقدر الأسماع التى تستقبلها ، ما دامت قد تحررت من أسر الصمت وسرت مع أنفاسه إلى فضاء الانطلاق .

ما ونت هذه الصورة تبدو لطلحة وزميله وتفسد عليهما صفو الأيام ، وتعكس فى نفسيهما ظلالا قاتمة من حسرة هى نتاج الندم المر الذى أصاباه . وهل آلم على المرء من أن يمكن لغريمه فى أسباب التفوق عليه ، والفوز دونه بالنجاح المأمول ؟ ..

ولكنهما جاهدا الحسرة ، وأحالا طاقتها المستعرة إلى نقمة حاقدة تطوف بالإمام ، وكلما عادت بهما الذكرى — فيما بعد — إلى ذلك اليوم الذى ضيعت فيه كلمة عجلى غرس الأعوام ، راحا يهربان من عتبى النفس ، ويحاولان التأسى على ما فات باعتساف سبب من الأسباب يعزوان إليه ضياع الثمرة المشتهاة ... وما كان أكثر تحدثهما بهذا السبب الموهوم ، فى كل زمان ومكان ، جهرة وفى الخفاء ، كلما سئلا فى قصة البيعة ... كانا دائماً يقولان :

« .. إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا ، لقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا ! ... »

ولقد سبق إلى يقينهما عقب انعقاد الأمر لعلى أنه لن يكون لهما فى

عهده شأن معلوم ، ولن يصبحا كبيرى أثر فى توجيهه إلى معالجة الأمور كما يريان ، لأنهما يعرفان اعتداده بقدر نفسه ، وشدة وثوقه فى صدق نظراته ورجاحة رأيه ، وعسير عليهما إذن أن يجدا عنده غير مايلقاه سواهما من أصحاب رسول الله ، فما هو بمتهافت الإرادة فيستعير منهما العزم ، ولا بالجبان فيسألهما الشجاعة ، ولا بالغر فيطلب منهما المشورة ، وليس ثمة ثغرة فى شخصيته يمكن أن تسدها ميزة يملكها دونه أحد الصاحبين ، بل هو أدنى النـاس — بعد محمد — إلى الكمال بألوانه العديدة ، وأقربهم إلى التزام منهاجه . . عرفا هذا فى خلقه ، وفى علمه ، وفى سداد رأيه ، وفى كل صفاته ومزاياه ، فعلما من أول لحظة أنه مستغن عنهما بما زودته به طبيعته وفطره عليه تكوينه ، وأيقنا بضآلة الأثر الذى سيكون لهما فى نظام هو القائم عليه ، وما يتبع هذا من ضعف نفوذهما فى دولته ضعفاً أفصح عنه طلحة فأحسن الإفصاح حين قال :

« مالنا فى هذا الأمر إلا كحسة أنف الكلب ! » .

فهذه مشاهد من نفسيهما تضاف إلى ذلك المشهد القديم الذى يطالعنا من خلال الماضى وتنطق خطوطه وألوانه بالحسـد للإمام ، والغيرة على المكانة التى بلغها بسجاياه وميزاته من قلب محمد وبرز بهـا على كافة قادة الإسلام . وهى تفسر لنا كل ما يصدر عن هذين الصاحبين من تصرفات كانت فى الواقع صدى لمشاعرهما التى ظلت آونة محتبسة فى صدريهما من خشية . . فلما أن رأيا من على ترفقـا بمن رفضوا بيعته ، وجاءت على الأثر صيحة عائشة تحمل فى طواياها الانتقاص من قدره ، اتقـدت فى قلبيهما جذوة النقمة ، ومضيا يهدفان — علانية وخفية — إلى النيل منه . فما تركا أبداً موقف المتربص به الذى يحتمل جاهداً أن يتصيد له الهنات ، بل راحا ينتهزان كل فرصة عابرة لإظهار معارضتهما له ، التى قصدا فى الواقع أن تكون خطوتهما إلى العصيان وإعلان التمرد عليه . وما نراهما كانا مدفوعين بدوافع صادقة تستلزم سـيـاسة الشغب التى انتهجاها حياله ، ولو أننا

استعرضنا محاور الخلاف بينهما وبينه لم نجد فيها واحداً يدعو إلى الخصام بالكلام فضلا عن امتشاق الحسام ، ولكنهما سارا كما قادهما السخط ، وكما دعّتهما الفتنة التى انطلقت من مكة ، فاندفعا بغير تبصر فى سبيل العداء ، حتى ليبدو لكل عين أن إفساد أمره عليه كان وحده الغاية التى يبغيان .

على أن من حق الشيخين علينا أن ننصفهما فنقول إنهما ذهبا إلى الإمام ينذرانه قبل أن يجاهراه بكل هذا العداء ... أجل قد فعلا . وانطلقا إليه بعد البيعة يحدثانه بغير استحياء ويكشفان طوية نفسيهما فى وضوح وجلاء .. قالا له :

« أتدرى يا أمير المؤمنين علام بايعناك ؟ . . »

فأجابهما بالجواب الذى ليس ثمة سواه :

— على السمع والطاعة وما بايعتم به أبا بكر . .

— كلا ... ولكن بايعناك على أننا شريكاك فى هذا الأمر ..

شريكان ؟... فهذا نوع جديد إذن من المساومة على اقتسام السلطان ! ..

وطبيعى أنه رفض ما عرضاه . وطبيعى أنهما أيضاً ثارا لرفضه الذى انقطع به كل أمل لهما فى السيادة ، فانطلقا يعلنان سخطهما ، ويغلوان فيه بغير تبصر وإن حمل فى ألفافه معانى الاتهام لهما دون اتهام الخليفة . . . بل لعل حديثهما ذاك كان خير شهادة منهما بنقاء صحيفة على مما أعلقوه بثوبه — فيما بعد — من قطرات دماء عثمان ...

. . . وقف الزبير فى حشد من قريش يشكو إليهم عسف الإمام ، وقلة بره به فقال بصوت ممرور :

« هذا جزاؤنا منه . . . قمنا له فى أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب وسببنا له القتل ، وهو جالس فى بيته قد كفى الأمر ، فلما نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا ... »

ونهض طلحة على أثره فقال :

« ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى . كرهه أحدنا ، وبايعناه وأعطيناه ما في أيدينا ومنعنا ما في يده ، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجوناه . . »

وما كان لهما من رجاء بعدأن أبى عليهما هذه الخلافة المشتركة إلا أن يبعثهما واليين على بعض الأقاليم ! فما زال لهما حزبان بالبصرة والكوفة وشيعة عسى أن يتسربا بها ذات يوم إلى احتلاب النفوذ كله في الدولة الإسلامية . ولكنه بعث دونهما ولاة آخرين فحق إذن أن يلحياه ! . .

وشاعت مقالتهما هذه في الناس حتى بلغت مسامع الإمام . ولعل شيوعها كان بعض خطتهما عسى أن يغنما من ورائه ما كانا يطمعان فيه . ولكن علياً ظل ثابتاً على رأيه فيهما ولم يزد على أن أرسل إلى ابن عباس يستشيره فيما كان ...

قال له :

— بلغك قول هذين الرجلين ؟

— نعم ياأميرالمؤمنين .

— فماذا ترى ؟

« أرى أنهما أحبا الولاية . فول البصرة الزبير وول طلحة الكوفة ، فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان . . »

فضحك علي وأجاب بهدوء :

« ويحك يا ابن عباس ! . . إن العراقين بهما الرجال والأموال . ومتى تملكا رقاب الناس استمالا السفيه بالطمع ، وضربا الضعيف بالبلاء ، وقويا على القوى بالسلطان . . ولو كنت مستعملا أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام . . »

٨

الوقت عليهما ثقيل ، لا يكاد يتقلص ظله . فى حسبان الشعور عاشا أحقابا طويلة تحت راية هذا العهد الذى أبغضاه ، وتحت حكم هذا الرجل الذى سادهما فى غفلة منهما ودون انتباه . . . وفى حسبان الزمن ماعاشا سوى ليلة أو ليلتين كل لحظة فيهما كانت الدهر بطوله .

ولكن الليلة الواحدة تستطيع أن تتسع لشغب العمر ، وتفيض خلالها نقمة الصدور المقروحة فى دفعة . فما يطيقان التريث ولو إلى غد ، ويرميان بصرهما إلى المستقبل الفسيح أمام كل نفس تتعلق بالغد القابل بعد أن تودع الأمس الراحل فيريانه أضيق من كف بخيل . . . بل لعلهما لم يرياه على الإطلاق ، وحسبا الشمس ستكف بعد لحظتهما هذه عن البزوغ ، وأن الكون سيسكن ويقف وقفة الأبد . . . وإن فى قلبيهما لسخطا فياضا ماله حدود ، قد يستغرق الزمن بأكمله إن أطلقاه رويداً رويداً على مدار الأيام . فأولى إذن بهما أن ينفضاه الآن .

الآن ؟ ... إنها الكلمة ! ... وهى الزمن كله وليس بعدها آنات أخرى ولا أزمان ! ... وهى الجعبة التى تتسع لحشد كل ما يحسان ! وهذا شعورهما: فى النفوس عذاب ، وفى القلب نار حامية ذات لهب مشبوب . كلما أكلت من القلب ذكت وعلا ضرامها الطاغى فالتهم التبصر وحكمة العقل ، ودفع الصاحبين المعنيين فى الخصومة إلى غمار الخلاف كما يندفع المحروق إلى الخلاء على غير هدى وإن علم قبل أن تعلق بأذياله النيران أن لفح الهواء يسرع به إلى مهاوى الهلاك .

ولم يكن قد فات سوى يومين على البيعة — على العهد الذى ارتبطا به أمام الله وأمام الناس . ومع ذلك فلم يكفا عن معارضته والشغب عليه . وأطاعا النفس الحاقدة فى عصيان من وجبت له عليهما الطاعة . بادراه

بالخلاف من أول لحظة ، ولو أتيحت لها الفرصة المواتية لبادراه به أثناء البيعة ... فكأنى بهما — وهو على المنبر — قد أخذا يده ليقطعاها لا ليشدا عليها ويصافحاها برهاناً على الولاء .

ولكنها نزوة تملكت نفس طلحة ، وأعدت الزبير بعدواها .وسقطة وقع فيها الأول بدافع شهوة الحكم التى نمت بقلبه أعواماً طويلة،وانساق إليها الثانى بدافع حسده للإمام المعروف عنه منذ عهد الشباب ، وبدافع الإغراء أيضاً الذى زينه له ابنه عبد الله — ابن أسماء بنت أبى بكر وربيب عائشة أم المؤمنين . فأعجب بها من زمرة تنتهى فى النهاية إلى أصل واحد هو أول الخلفاء — أول منازعى على على تراث رسول الله — وتتصل به صلة قربى من بعيد ومن قريب!.

هذا حزب من تيم ! . . . اجتمع فيه طلحة ابن عم الصديق ، وعائشة ، وأختها أسماء ، وزوج هذه وابنها الزبير وعبد الله . قد ربطت بينهم عصبية الأسرة قبل أن تربط بينهم غاية مشتركة . ثم قرنتهم الموجدة على الإمام فى سلك واحد لأنه من بيت يطولهم إن ذكرت مفاخر الجاهلية ، وأمجاد الإسلام ثم ألف قلوبهم على منازعته أنه نازعهم ذات يوم سيادة كانت له وابتزها منه شيخهم الأول . ثم لعبت بأحدهم شهوة الحكم حتى رأى نفسه أولى بالإمرة من كل أمير . وجنحت واحدة لوحى قلبها الملىء بالغيرة على غريمها القديم . ومال الفتى كميل خالته التى رعته كابنها وقد حرمت الولد فكره مثلها ذلك الغريم ، وهفا إلى المجد إذ كان حفيد خليفة رسول الله وفرع أسرة أصبح لها اليوم فى أعين الناس مكان مرموق ، وأطوع المجد إليه هو ما يأتيه من خلال أبيه : ابن عمة محمد وصهر الصديق ، وأحد أصحاب الشورى المرشحين للخلافة ، فهلا يستجيب الزبير لإغراء ولده ، ولدعوته إلى الكفاح من أجل السيطرة إذا دعاه وفى نفسه بضعة من حسد لابن أبى طالب راسبة منذ عهد الشباب .

يقول على :

« ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشئوم عبد الله ... »

وقد صدق الإمام . وجاءت الحوادث من بعد فأيدت حديثه . وبدت خلالها أصبع الفتى توجه الرجل إلى كل خلاف . وتكاد فى كثير من الأحايين أن تصفو نفس الأب فيهرع الولد إلى تعكير صفوها بتحريك النزوات التى رسبت وكادت تستقر فى القاع لتطفو على الصفحة وتعود ثانية إلى الظهور .

كلها عوامل شخصية تلك التى حملت الزبير وطلحة على مخالفة على وإبداء العداء له ... مشـــاعر ذات ألوان ، لها على النفوس سطوة عاتية ... نقمة أسرة !... وقد استجاب الصاحبان لها ، وانساقا أمام التيار النفسى بغير روية يحاولان هدم الإمام وتقويض إمرته تحته . ولغير غاية عامة انطلقنا مسرعين فى هذه الطريق المحفوفة بالأغراض والمطامع . فكأنما رانت الأهواء على بصائرهما فلم يميزا بين الخطأ وبين الصواب ، بل راحا يعارضان الإمام فى كل عمل قام به أو أوشك على إنفاذه حين كان يجدر بهما أن يؤيداه ويشدا أزره . وليس أبلغ فى الدلالة على انسياقهما مع الضغن من تحريضهما الناس عليه لمـــا سوى فى القسمة وهما يعلمـان تمام العلم أنه لم يأت ببدعة من لدنه وإنما أقر نفس النظام الذى سنه رسول الله .

ومع ذلك فقد أغضى كريماً عن هذا الاجتراء ، واكتفى بأن قابلهما بحجته القاطعة ومنطقه الدامغ . ولكنهما لم يكفا عنه ، ولم يقعدهما عن دعوة الفرقة والشغب وضوح حقه . بل انطلقا يؤلبان عليه أصحاب الأفياء الممتازة والأعطيات السخية من ذوى الأنســاب العريقة — أولئك الذين نقموا منه تسويته إياهم ببقية أبناء الشعب . فهل ترى غاب عنهما أنهم جميعاً كانوا أنصار قضية يخذلها الحق تضعهم أمام عيون التاريخ فى صف الباطل ...

نوشك أن نتهم ذكاء الرجلين لو حسبنا فطنتهما إلى هـــذا الحد من القصـــور . ونوشك أيضاً أن نعطهما القدرة على استحداث كل أساليب الفتنة والخلاف التى حذق استحداثها طلحة على أهون تقـــدير . وتنطق

الحوادث نفسها بغير هذا الافتراض الذى ينقص من مهارة الشيخين وتشهد لهما تبييت النية وإتقان التدبير . فقد كانا أبرع من أن يرميا بسهم واحد ولا يرميان بآخر على أثره حين أرادا إصابة الهدف المطلوب . . . وكل ما جرى فى الفترة القصيرة التى قضياها معه بالمدينة يكاد ينبىء عن سياسة مرسومة جماعها إحكام التصويب وكيل الضربات المتتالية إلى الرجل الذى ناجزاه . فما انطوى من عهده سوى يومين اثنين حتى طالباه بما يكفل — فى وهمهما — تقويض إمرته . كأنهما استبطآ ألا تنشب عليه الثورة بعد انقضاء فترة كهذه — طويلة ممطولة ! — وهو ما زال فى مقعد الحكم !

يومان اثنان انقضيا على البيعة ، وعلى مجاهرتهما بالولاء للإمام تحت رأى العيون وسمع الآذان فى أقدس موضع تتجه فيه القلوب إلى الله ... يومان اثنان فى حساب الزمن ولكنهما فى حساب المشاعر المنبعثة عن الأنفس المليئة بالحقد والضغينة أطول من الدهر الخالد والأبد الآبد . فإن هو إلا أن حل ثالث نهار بعد بيعته حتى انطلقا إليه ، كأول مرة ، فى ثلة من كبار أهل المدينة وأصحاب الكلمة المسموعة بين الناس ... انطلقا وفى وفاضهما بذور فتنة جديدة ، الأرض التى تصلح لاستنباطها هذه المرة هى نفوس العامة ونفوس الخاصة بهذه البلدة وغيرها على سواء ...

فكأنما كان حديثهما صدى لصيحة عائشة بمكة ، يكاد ينقل دعوتها فى أمانة وحرص ... قالا له، وشاركهما فى بث مكنون الصدور بقية الوفد الأمين الذى رأساه :

« يا على ... إنا قد اشترطنا إقامة الحدود . وهؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل . وأحلوا بأنفسهم ... »

فبدت له الفتنة النائمة تنفض عن نفسها غطاء الركود ، وتتحرك على أطراف ألسنتهم ثم تهم بالانطلاق واتسعت حدقتاه كمن بوغت بسلاح يمتد إلى صدره من خلال الظلام . ثم ألقى بصره إلى الخارج : إلى طرقات المدينة التى كانت تعج إذ ذاك بطوائف الثوار من أهل الأمصار ،

وبأصحابهم من موالى البلدة وعبيدها الذين آزروهم أثناء الثورة ، وبالأعراب وأهل المياه الذين انحدروا من أراضيهم على الحدود وكان لهم فى الفتنة نصيب... كل أولئك مثلوا فى خاطره تلك اللحظة وإن لم تطف بهم نظرات عينيه . ومثل غيرهم كثيرون منهم كانوا قد انبثت معسكراتهم على تخوم المدينة وأقاموا حولها فى شبه حصار ...

وكما أغضى عن الخلاف الذى أنشبه الصاحبان عليه بالأمس حين جاءاه يمارضانه فى السياسة التى رسمها للتقسيم ، فكذلك آثر أن يغضى اليوم ويبدو كأنه يملم عنهما سلامة الطوية وبعدهما عن إرادة تدبير فتنة جديدة عاتية هوجاء ... وراح يتذرع بالهدوء والصبر وهو يقول :

« يا إخوتاه ... إنى لست أجهل ما تعلمون . ولكن ... كيف لى بقوة والقوم المجلبون على حد شوكتهم ، يملكوننا ولا نملكهم ؟ .. »

ومد يده يشير بها إلى ناحية الطرقات والدروب ، وإن بصوته لرنة سخرية وهو يعاود الكلام :

« ... ها هم هؤلاء.. قد ثارت معهم عبدانكم . والتفت إليهم أعرابكم. وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ... فهل ترون موضعاً لقدرة على شىء تريدونه ؟.. »

وران الصمت على المجلس هنيهة كأنهم يدبرون فى أنفسهم ما قال ، ويستوعبون منطقه الذى لا تنفذ إليه كلمة اعتراض . ولكنه لم يعدم أن يسمع صوتاً من بينهم يقول :

« ... فلو عاقبت قوماً ممن أجاب على عثمان ... »

كأنما أخذ بعض الثوار بالعقاب دون البقية الآخرين فيه علاج الحال ...

وأسرع إليهم بالجواب الصواب ، يبين لهم ثانية حقيقة الداء ويصف أنجع دواء... قال بلهجة حاسمة ، وصوت تبدو من خلاله نبرات الحزم والتصميم:

« ... إن لهؤلاء القوم مادة . والناس من هذا الأمر — إذا حرك —

على أمور : فرقه ترى ما ترون ، وفرقه ترى مالا ترون ، وفرقه لا ترى هذا ولا ذاك . فاصبروا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق مسمحة . فاهدأو عنى ، وانظروا ماذا يأتيكم به أمرى . . . ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة ، وتسقط منة ، وتورث وهناً وذلة . »

على أن هذا الحديث الواضح المبين ، وهذا التحليل الدقيق لموقف الشعب حيال الثوار ، وهذا العرض الأمين لحقيقة الحال ، كلاهما لم تقنع المخالفين ، ولم تستطع أن تهدئهم عنه . فبالرغم من أن الجمهور كان ينقسم فرقاً بعضها يعطف على رجال الثورة ويرى فيهم مجاهدين خلصوا الأمة من شر مستطير ، وبعضها الآخر يراهم عصاة خارجين على القانون ... وبالرغم من تجمع قوى الثوار بالمدينة وعلى حدودها الدانية ، وامتلا كهم ناصية الحال فيها بقوة السلاح فوق مالهم فى نفوس أهلها من قوة الرهبة ، وبالرغم من أن الزمن هو الكفيل وحده بتهدئة الخواطر المبلبلة فى كلا الثائرين والأهلين ، ويحمل الفرق المختلفة أدنى إلى تكوين رأى صحيح عن الثورة ورجالها بعيد عن التأثر بالعطف أو بالخوف ... وبالرغم من هذا كله يبدو أن الوفد لم يستجب لنداء على لهم أن يمهلوه ثم يحكموا بعد قليل على ما يأتى منه . بل والوا الضغط عليه . وظلوا يضغطون عسى أن يقطع فى الأمر بقرار ، ويخطو خطوة حاسمة فى سبيل تنفيذ ماجاءوه فيه وإن كان الوقت لم يحن بعد للحسم . وإن كان الحسم فى غير أوانه كفيلا بزيادة الموقف تعقيداً واستعصاء على الحلول .

لاح هذا لأنا لانلبث أن نشهد الإمام فى ذات اليوم يخرج إلى المسجد وحوله أولئك الصحاب ، فيقف فى الناس يخطبهم ثم يهب بهم فى حرارة وابتهال ، فيقول فى ختام الكلام :

« ... أيها الناس ، برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه . . . أيها الناس ، أخرجوا عنكم الأعراب ... يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم ...»

فإذا الهمهمة تسير فى أفواه الجماهير ، وإذا البغتة تبين على الوجوه ،

وإذا السبأية يلمحون فى الأفق نذراً لاتطمئن نفوسهم إليها . وإن هى إلا لحظة حتى تنادوا من كل جانب ، واتحدت الأصول والذيول . وأبى أى رجل من الجمع أن يطيع النداء لا فرق فى ذلك بين طوائف العبيد أو السبأيين أو الأعراب .

فكأنها دعوة إلى لم الشمل،وتكتل القوى التى أراد أن يفرقها أصحاب الوفد وعلى رأسهم طلحة والزبير ! وألقى على نظرة حانقة على الصاحبين ومن معهما . فهذه هى النتيجة التى خشيها منذ البدء وحاول جاهداً أن يتجنبها ... ومضى غاضباً إلى داره وهؤلاء خلفه يسيرون ناكسى الرؤوس كأنما أخزاهم سوء ما أسفرت عنه مشورتهم الهوجاء ... وفى غيظ مكظوم ، وبهدوء قاس تكاد أن تجمد له الدماء فى العروق قال لهم وأصبعه تشير إلى الجماهير التى تكتلت فى جموع :

« دونكم ثأركم فاقتلوه ! ... »

فما تحرك فى أفواههم لسان ، بل غلب الخزى عليهم حتى سكنوا فى مواقفهم كأنهم ظلال . . . وعاد هو ثانية يجيل فيهم عينيه ، ويلقى نظراته الغضبى على وجوههم التى تقطر جموداً . ثم هز رأسه ، وقال بصوت ممرور :

ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم أمرتهم أمراً يديخ الأعاديا

فكأنما وجدا مخرجا لما أصبحا فيه . أو بأصدق تعبير وجدا وسيلة إلى تحقيق مأربهما القديم . . . تقدم إليه طلحة وهمس له فى هدوء كمن يشير بالدواء الذى يميت الداء :

« يا أمير المؤمنين . دعنى آت البصرة فلا يفجأك إلا وأنا فى خيل . . »

وأسرع الزبير يهمس كصاحبه ، وبذات كلماته :

« ... دعنى آت الكوفة فلا يفجأك إلا وأنا . . . »

البصرة لطلحة ، والكوفة للزبيرحيث أعوان كليهما الداعون لهما بالخلافة منذ أيام ؟ ..

ولكن الإمام قال دون تردد وهو يبدى لهما غاية ما يستطيع إبداءه من قلة المبالاة :

« حتى أنظر فى ذلك » .

وقطع جوابه عليهما سبيل الأحلام ! . .

٩

قويت شوكة أصحاب الثورة ، وازدادوا اتفاقا حول أنفسهم ، وحرصاً على لم قواهم وحشدها بمكان واحد بعد الذى لمسوه من انقلاب الأفكار عليهم وسيرها فى اتجاه عدائى سافر . ولم يكونوا فى البدء يوجسون خيفة ولكنهم اليوم وقد لمحوا نذر النقمة عليهم تتجمع فى النفوس وتوشك أن تنطلق كالإعصار ، لم يروا معدى عن التزام الحيطة ، وإرهاف حواسهم كلها خوفا على سلامتهم العامة . وبقيت جموعهم حيث هى بالمدينة وعلى تخومها ، متراصة لاتبرح ، لأن هلا كها المحتوم فى التفرق .

كان هـذا هو الشعور الذى سادهم ، وطبع حركاتهم بالنفور من كل هيئة نظامية يوشك أن يكون لهـا سلطان عليهم ، من كل حكومة تستند إلى غير سواعدهم ... وفى اليومين السالفين كانت لهم آمال كبار علقوها على الخلافة العلوية لأنها — فى ظنهم — حصاد ثورتهم . ولعل كثيرين منهم حسبوا أن هذه الدولة الجديدة دولتهم ، وأن علياً يدين لهم بالإمرة التى أفلتت من يديه بضعة وعشرين عاماً غبرت وكانت موشكة أن تفلت بضعة أخرى قد تمتد إلى انتهاء عمره لولا الضربة التى وجهوها لعثمان . ولـكن هـذه الآمال كانت قصيرة الأجل ، لم يمهلها القدر لتعيش وتثمر ، بل انقصفت أعوادها فى ذات الساعة التى بزغت فيها شمس العهد الجديد . وتلفت أصحابها فإذا الإمام ليس كما ظنوه ، وإذا أول عمل سياسى يأتيه هو إغفال شأن الثوار ، والانطواء عنهم ، والضن على زعمائهم بأن يكونوا من أعوانه المختارين لإقامة حكمه أو تدعيمه فى الأمصار .

بدأ هذا حينما أرسل عمالا من لدنه إلى البلاد يخلفون ولاة عثمان فما بعث قط برجل شرك فى الثورة أو عرف بأنه أيد أصحابها وظاهرهم وإن كان دونهم نقى الذيل لم تعلق به قطرة واحدة من دماء الخليفة الشهيد . ومع ما كان معلوما من ولاء أكثرهم له ، وشغفهم ببذل كل مايسعهم فى سبيله ، وإيثارهم إياه على نفوسهم بغاية ما تطيقه نفس بشرية ، فإنه لم يستعمل أحداً منهم فى عمل من أعمال الدولة كأنما تعمد أن يحول بينهم وبين النفوذ . بل قد كان فى سياسته هذه جانحاً إلى الغلو الشديد ، حتى إنه ولى قيس بن سعد إمرة مصر وقبضها عن محمد بن أبى بكر الذى اختاره أهلها وكاد يصبح عاملا عليها قبيل مصرع عثمان . ولم يكن محمد ممن وقعت على رؤوسهم دماء القتيل ، بل لم تعلق به من هذه الناحية شبهة ، ولم تضطرب حوله الروايات ، وإنما ثبتت براءته ثبوتاً قاطعاً بشهادة نائلة . ومع هذا فإن علياً لم يدفع به إلى عمل رسمى يتولاه من قبله . وضن عليه بالمنصب الذى كان من حقه أن يناله برضاء زعماء الرأى فى مصر لأنه رآه ضالعاً منذ البدء مع الثوار ، فرأى توليته — فى هذه الآونة الحرجة التى تفتحت فيها الأذهان لاستقبال الظنون — كفيلة بأن تطلق ألسنة خصوم الإمام بالتقولات الظالمة فى نظام يريد له أن يكون فوق الشبهات .

كانت كبرى المسائل الشائكة التى اعترضت سبيل على من اليوم الأول لخلافته مسألة رجال الثورة المسلحين الجاثمين بمدينة الرسول . وقد أمعن النظر فى الأمر وقلبه على وجوهه فوجد من الحكمة إرجاء البت فى شأنهم بقرار حاسم خشية أن تنقسم الأمة حيالهم إلى معسكرين : بين مؤيدين ومعارضين ، يجر تناحرهما إلى حرب أهلية قد تودى فى النهاية بقوة الدولة . وما من ريب فى أنه توخى بهذا الرأى الصالح العام ، وجنب الإسلام نيران فتنة عاتية كانت حرية بأن تندلع فى كل الأمصار ، بل كانت حرية بأن تجعل الطوائف الثائرة تقبض بيد من حديد على صولجان السلطة بالحاضرة الإسلامية فى بضعة أيام ما دامت تملك — دون الحكومة الشرعية —

السلاح والعتاد . فمن هذا المصير المخوف كان يحذر طلحة والزبير ، ويدعوهما إلى الاصطبار حتى تهدأ النفوس المهلبلة ويقر اضطراب الخواطر فلا تستعصى الأزمة بعدها على الحلول . ولهذا جنح أيضاً إلى الغلو الشديد عند اختياره رجاله ، فلم يستعن فى شئونه بأحد من الثوار . وبالغ فى اجتنابهم توقياً لمظنات خصومه وأقاويلهم المجترئة التى أوشكت أن تنطلق فتسلكه ظلماً فى عقد أعداء عثمان .

وهكذا أوجس رجال الثورة خيفة من على ، وباتوا على حذر منه . وضاعف من خوفهم على سلامتهم أن الأنباء راحت تترى بالتنكر لهم فى كل مكان .. فى مكة ، وفى الشام ، وفى مصر أيضاً نبتت فيها نابتتهم وامتدت منها فروعها إلى بقية الأقاليم . حتى طلحة أيضاً تنكر لهم وقاب جلده الأملس .. ولو أن ثمة رجلا كان يجدر به أن يستمسك بهم ، ويوليهم من صفوه وتأييده لوجب أن يكون طلحة الرئيس المقنع لحركاتهم الثورية !.. ولكنه اليوم غيره بالأمس قد أفلته الهدف الذى ركبهم إليه ، فراح يلتمس مطية أخرى لعلها تصل به إلى أغراضه من طريق سوى الطريق !..

غير طلحة إذن إهابه ، وأبدى لأصدقائه القدامى ما كان يبديه من قبل لعثمان . ففى جوار الحرم الآن أصدقاء آخرون — مطايا أخرى تمدها له داعيته !.. هناك عائشة قد استبدلت بعلمها القديم آخر راحت تلف حوله الجموع ، وترفعه عالياً فوق رأسها يرفرف كألسنة النار .. وإذا كانت لا تهتف اليوم صراحة باسم طلحة ، ولا تدعو إلى تنصيبه خليفة للمسلمين يتبوأ مقعد غريمها الجديد كما دعت منذ قريب أن يتبوأ مقعد غريمها القديم .. إذا كانت قد أكسبت الآن صيحتها رنة تفجع على الأمير القتيل بعد أن كانت نداء مدوياً للخلاص منه ، فإن الغاية التى لا بد ستنتهى إليها هذه السياسة ذات الوجهين لن تعدو أن تكون ملكا لتيم يتسنم عرشه رجل لا تحس السيدة التيمية نحوه بمثل البغضاء التى تحسها حيال الإمام .

ولا تنى الأحداث تطالعنا بالأسانيد التى تثبت أن الطالب بدم عثمان

ما كان إلا أقصوصة اشترك فى صوغها كل منافس لعلى ، حاقد عليه قدره وسلطانه . . . فلم تكن قط دعوى جدية ، أو هى فى القليل لم تسر فى طريقها إلى هدفها الذى رمت إليه . بل نراها فى تبدل وتغير بين يوم ويوم حتى تفقد روحها ولا يبقى منها سوى ألفاظ جوفاء . وقد وسعت كل شىء ، ووصلت إلى كثير من الغايات إلا الثأر للشيخ المقتول . ولكنها فى عين خصوم الإمام كانت مبدأ أخاذاً يعينهم على حشد الأنصار ، وعلماً خفاقاً يستهوى بعض النفوس البريئة الكامنة بالمروءة ، وكل النفوس الزائغة المفتونة بنصرة الأباطيل !

ولم تبق دعوة عائشة محصورة بمكة ، بل سرت مع الركبان إلى بلدة الرسول ووجدت بها آذاناً صاغية . وكان أول من استجاب لها بنو أمية وأحلافهم ، فتسللوا واحداً فى أثر الآخر وهم يرجون أن يستردوا من ورائها ملكهم المفقود . وتبعتهم طوائف شتى من الأشراف القرشيين . أولئك الذين أضافت إمرة على إلى قلوبهم ضغناً جديداً يجاور الأحقاد القديمة . وكانت تدفعهم أيضاً إلى الخروج لمكة خشيتهم جموع الثوار الذين يمثلون على وجه من الوجوه سلطان الطبقة الفقيرة ، واليقظة القومية فى الشعوب الدخيلة .

وبدأت رقعة المتاعب تتسع أمام أمير المؤمنين . فقد كانت هذه الهجرة مشكلة لا بد سينجم عنها ضياع هيبة الدولة عند رجال الثورة . ولتوشك أن تكون لهم فى حاضرة الإسلام الكلمة المسموعة النافذة واليد المحركة للسياسة العامة إن خلا الميدان من العناصر العربية الصميمة التى تشد من أزره عند الحاجة ، وتضمن تكافؤ الأصلاء والدخلاء إلى حد معقول . ولو حدثت هذه الهجرة فى ظروف عادية لما تبرم بها ، ولوسعه أن يقبلها راضياً لأن جميع طبقات شعبه فى نظره سواء . ولكنها وقعت فى أعقاب فتنة ، وفى وقت يخشى فيه طغيان الثوار على النظام العام إن رأوا منه الميل إلى كبح جماحهم عند حد محدود ، وإلى بلدة تتهيأ هى الأخرى لفتنة إطلاق

حرية الهجرة إليها بغير قيود كأنه وقود جاف يلقيه فى قلب حريق .

لذلك بادر على إلى حسم الشر قبل استفحـاله . فحرم على قريش الخروج وحبسها فى أسوار المدينة كما فعل قبله ابن الخطاب . واشتد فى هذا الأمر غاية الشدة حرصاً على سلامة الدولة ، وعلى وحدة أمته أن تتمزق . فكأنه إذ ذاك عمر قد عاد كرة ثانية إلى الوجود وراح يردد قوله المأثور :

« ... إنى قائم دون شعب الحرة . آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار .. »

ولـكن قريشاً أبت اليوم إلا أن تضمر الخلاف للامام، وتبديه كلما وجدت سبيلا إلى المجاهرة بالعـداء . فما عادت تقف منه موقفها السالف من عمر ، ولا رأت فيه رجلا يجدر بها طاعته والحرص على إنفاذ مشيئاته ، وإنمـا ظلت تنظر إليه بنفس عيون أسلافها القدامى فترى فيه هاشمياً آخر أولى بها أن تحسده على سطوته الزمنية وقد حسدته من قبل على سطوته الأدبية . لذلك جهدت فى استنباط كل وسيلة تؤدى إلى عصيانه . وإلى إهدار هيبته بين رعاياه كما كم يجب الائتمار بأوامره والانتهاء عند نواهيه . ولم يكن دورها الطبيعى فى الدولة الإسلامية كبقية أبناء الأمة من المحكومين . ولـكنها كانت ذات كيان خاص له أثره فى توجيه السياسة العامة للدولة يكاد سادتها أن يكونوا نوعاً ما من مجلس نيابى أو هيئة استشارية تعاون الخليفة بما تبذل له من آراء كلما دعته الحاجة إلى التماس المشورة . فهى إذ تنتقض على هيبته فإنما يحمل انتقاضها معنى من معانى انتقاض بعض الهيئة الحاكمة على بعضها الآخر ، وتضرب للشعب أسوأ مثل للتمرد على السلطة الشرعية .

ومع ذلك فلم تر حرجاً فى إفساد الأمر على الامام بين كل يوم ويوم . ومضت تستحدث الأسباب التى تنتقض على هيبته فى نفوس أمته ، وتـكيل الضربات إلى النظام الرسمى الذى كان يجدر بهـا معاونته والتمـكين لسلطانه حرصاً على الصـالح العام ، فأخذت تتسلل من المدينة وتلحق بأصحاب الفتنة

التى أرثتها عائشة فى البلدة الحرام . ثم لا تنى تبث فى الطريق وفى الأسواق دعوة التأليب عليه . ومن مكة التى كانت مركزاً تتفرع الدروب منه إلى الشمال والجنوب انطلق بهتانها إلى بقية البلاد فبنى فى كل منها عشاً للفتنة .

أما الذين حالت الحوائل دون خروجهم عن الحاضرة الاسلامية فلم يقعدهم عن ثلبه قربهم منه ، بل ملأوا أوقات فراغهم بالطعن عليه والدس له بين الناس يحرفون كلمه ، ويفسرون مقاصده دائماً بالنقيض ، ويتربصون بأعماله عساهم يقعون فيهــا على هنة يجسمونها أمام العيون ، فإذا أعوزهم الكيد له فى هذه الناحية راحوا يخالفونه جهرة فى أمور جلية لا يختلف فيهــا إثنان . وما دام الناس لا يشهدون مجالس النقاش الذى يدور بينه وبين خصومه بل يسمعون فقط بنتائجه وهى فى الصيغة التى تروق أولئك الخصــوم ، فإن تواتر الخلافات إذن كفيل فى نهاية الأمر بأن يشكك فيه الجماهير .

كان طلحة دائماً على رأس هذه الفئة التى أصبحت شوكة مسنونة تدمى جنب الامام . وكان الزبير يقفوه كظله ، ويتبعه إلى حيث يريد . فقد توحدت خطة الرجلين . واتجها معاً إلى غاية مشتركة لا يبلغانها إلا بعزل على من الخلافة . وهل ثمة غاية هدفاً إليها سوى ابتزاز الحكم من بين يديه واحتجازه لهما معــا يتبوآن مقعده الأثير الخلاب ؟ .

ولكننا إذ نلقى البصر إلى الأحداث لا نشك لحظة واحدة فى أن الزبير كان ضحية لأطماع طلحة . وكان أيضاً مطيته ... فما نحسب الصاحب التيمى كان مقاسماً زميــله السلطان لو نجحت خططه وآلت إليه مقاليد الخلافة الاسلامية ، بل هو أقرب إلى التفرد بها دونه واحتجازها لنفسه لأن هــذا أشكل بطبعه وأدنى لشغفه البالغ بامتلاك نواصى النفوذ . وهل تراه يكافح أعواماً طويلة لتحقيق أطماعه ثم يقتسم الثمرة الشهية وآخر فى نهاية المطاف ؟ .

ونكاد أيضاً نرى الزبير مغلوبا على رأيه ، قد خرج حتف أنفه على ابن خاله ، وسار خلف طلحة على طريق الشغب وكأنه مسحور ، فما نحسبه نسى كلف صاحبه بالسلطان . ولئن نسيه فالعهد غير بعيد بكلمات عائشة ودعوتها السافرة

إلى عزل الخليفة القائم على الحكم إذ ذاك وتنصيب قريبها مكانه . وهل مضت سوى أيام قلائل على قولها لابن عباس :

« ... قد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح ، فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر ... »

الزبير بلا ريب مغبون الصفقة . ضياعه فى مأدبة السطوة أمر محتوم .. وما تزال كلمات عائشة هذه تذكره بدوره . وترسم لنا صورة منه . ولكنه — فيما يبدو — رضى متهوراً بنصيبه فى الفتنة . وقنع ببوارق الآمال التى لوحوا بها أمام عينيه وإن أيقن فى صميم قلبه أن ليس له إلى تحقيقها سبيل . ثم انطلق فى ركاب طلحة ، مشدوداً إليه بأهواء آسرة! .

وتمضى الأيام والصاحبان يجهدان فى إثارة خلاف جديد مع الامام ، فلا تسعفهما الظروف به ، ولا تدع أعمال ابن أبى طالب ثغرة واحدة ينفذان منها إلى الطعن عليه . وقد لاح لهما فى البدء أن معارضتهما إياه فى التقسيم بالسوية كفيلة بأن تثير عليه العناصر العريقة ذات النفوذ فى الأمة . فاذا بهما اليوم قد رأيا قريشا تفر وتدعهما منفردين فى الميدان ... وكان حتما عليهما — فى شرعة الشغب — أن يبدلا من هذا الركود الذى ساد الجو السياسى بالحاضرة ، ويعدا الناس بمادة جديدة للخلاف بينهما وبين الامام تسبح فيها الشائعات والأقاويل فذهبا إليه يجادلانه فى أمر لم يتمخض الزمن بعد عن دواعيه ... ذهبا يعتبان عليه أنه لا يستعين بهما على مشكلاته ولا يشاورهما فى أموره وإن علما أن العون والمشورة كليهما رهينان بنشوء مسائل تقتضيهما ولم تنشأ بعد ، أو على الأقل نشأ منها ما لم تدع الحاجة عليها الى التماس معونة أحد أو رأيه فى علاجه .

وقد بدا من حديثهما أنهما لا يعنيان أمراً بعينه ولم يحددا مسألة واحدة وجب أن يطلب على رأيهما فيها ثم أهمل فى استنباطهما الرأى المطلوب . بل ألقيا إليه العتبى مطلقة بغير تحديد ، وبدون إشارة الى أمر واحد دفعهما إلى إزجاء هذا العتاب ... فما سمع مقالتهما حتى بادرهما

بالجواب الكفيل بأن يسد عليهما باب التعلات والجدال ... قال :

« ... ألا تخبرانى أى شىء لكما فيه حق دفعتكما عنه ؟ .. وأى قسم استأثرت عليكما به ؟ ... أم أى حق رفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه ؟ أم جهلته ؟ أم أخطأت به ؟ » .

فما أظنهما فى هذه اللحظة إلا أدارا الذهن فيما عرفاه من أعماله ثم عاد إليهما الذهن كليلا لا يحمل فى وفاضه أمراً واحداً يستطيعان به أن يردا عليه حجته الغلابة . ولعلهما آثرا الصمت ، ولعلهما قد أصاب كليهما الحسر أمامه فلم ينطقا بحرف . ولكنه قرأ من مكنون القلبين ماسترته قسمات وجهيهما الصامتة . فان هو إلا الهوى قد دفعهما لمثل هذا الموقف . وإن هى إلا المطامع والآراب فى ابتزاز الحكم من يديه تسوقهما دائما إلى معارضته والشغب عليه . وقد ألم حديثه بطرف من هذا ، ولمس لمسات خفيفة مشاعرهما نحوه حين عاد يستأنف الكلام :

« ... والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة ، ولا فى الولاية أربة . ولكنكم دعوتمونى إليها وحملتمونى عليها . فلما أفضت إلى نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته ، وما استسن النبى فاقتديته . فلم أحتج فى ذلك إلى رأيكما ولا رأى غيركما . ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخوانى المسلمين . ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما ... »

لم تكن له فى الخلافة رغبة ، أفما كانت لهما رغبة فيها دفعتهما إلى اعتساف كل هذه التعلات ؟ .

ستنجاب السجف . وينهتك الستر . وتبدو خفايا النفوس واضحة للأعين بغير حجاب .

عمارة بن شهاب عامل على الجديد على الـكوفة ، ظهر ثانية بمدينة الرسول ولما تمض على خروجه منها إلا فترة وجيزة ، وصار يشق الطريق إلى دار الإمام وإن فى وجهه لوجوما ظلل قسماته بلون خذلانه ، وعلى ثوبه غبار رحلته الشاقة المزدوجة التي قطعها بين الحاضرة الاسلاميه وبين مقر إمارته دفعة واحـدة فى الذهاب والعودة ، فقد امتنعت عليه الـكوفة ، وحال بينه وبين دخول أرضها نفر رأوا أن ينقضوا أوامر الامام .

ويسير الرجل مهموماً إلى أمير المؤمنين ليحـدثه مما لقيه ، فما نسمع طرفا من حـديثه حتى نراها عودة كفيلة بإثارة التوجس فى الأنفس لأنها تنبىء عن بوادر الانقســام فى الدولة ، وبدء هبوط هيبة الخليفة فى عيون بعض رعاياه ، واجترائهم على مخالفته والتمرد عليه ... ثم مايتبع هذا كله من وجوب العمل الحاسم لخضد شوكة العصاة .

ولـكننا أيضاً لا نملك أن نمنع بسمة ســاخرة يطيب لها الطواف بثغر كل منصف يحاول أن يستقصي أسبــاب كل فتنة ، ويرد مظاهرها البادية إلى أصولها الخفية ... فاذا وسعنا هـذا الاستقصاء فانا نعجب لأصابع القدر ، التي نسجت شباك العصـيان حول الامام أثناء حـكمه ، كيف استطاعت ان تستمد كل خيوط هـذه الشباك من مادة واحدة — من غل الأنفس التي أكلتها الأحقاد ؟ . . . لم يعد عصياً على العين المتجردة من الهوى أن ترى فى باطن كل امرىء ناجز عليا ، ووقف منه موقف عداء ، قلبا مظلماً كليلة فى الشتاء غائرة النجم ! إنما الحســد هو الذى ناجزه ، والضغينة الجائعة والنقمة العمياء ... وتعدد الخصوم والأعداء ، فلا نراهم إلا صــوراً شتى لأصل واحــد فى مختلف الأوضاع ، خلفهم دوافع من الهوى الشخصى يسوقهم — قسراً أو طواعية — إلى محاربة رجـــل كل جريرته أنه على :

الوريث الشرعى للأحقاد والضغائن التي عاشت أزماناً فى صدور مقروحة ، ولفحت نيرانها هاشمات ذات يوم ، ثم محمداً من بعده ، حتى حسمها عنه رحمة الله ! . .

لا أحد ممن عادى الامام كان يبتغى من خصومته نصرة صالح عام ، بل كانوا يسيرون صفين يقود أحدهما الحسد ، وتقود الآخر ضمائر مدخولة ، وما منهم إلا من زخرت واعيته برواسب قديمة من مشاعر هوجاء لم يسعفه الزمن بالتنفيس عنها ولم يسعف آباءه ، أو من له تاريخ مشوب الصحيفة فاضت سطوره بالموجدة على رسول الله ، وقد جاء يوم على أولئك الواجدين قهروا فيه على الخضوع للاسلام ، واضطرهم السيف أو اضطرتهم الحاجة إلى الدخول فيه فأسلسوا قياده لمحمد،ولكن نفوسهم المدخولة لم تتطهر بل رسبت مواجدها زماناً فى القاع كأنها النار المخبوءة تحت الرماد .

وكان على هو الشخص الذى ادخروا له نيران الأحقاد . وإنه إذن لطعمة ميسورة ، فليست له قداسة كقداسة ابن عمه تحميه من حسد الصدور المقروحة أو غل الضمائر المدخولة ، ولكن الصدفة وحدها أعجز من أن تؤلب عليه هذه الصور المتشابهة من الخصوم ، وتصف جموعهم كلها جيشاً عابثاً يكيد له : بل هو التبييت والاتفاق على الغدر ، فما من امرىء عاداه إلا نستطيع إذا رددنا الطرف أعواماً إلى الوراء أن نراه قد عادى الرسول قبله وكاد له . . وعمارة ابن شهاب رأى هذا أيضاً ذلك اليوم وهو على باب الكوفة يهم أن يدخلها عاملا من قبل على ، ولمسه بنفسه حين برزت له حفنة من الرجال يحملون السيوف ويأبون عليه دخول مقر إمارته . مخالفين بهذا إنفاذ أوامر الامام .

ويرفع عمارة بصره والبلدة بادية له من قريب ، فإذا على رأس القوم الذين قطعوا طريقه إليها رجل هو الخزى بذاته لو كانت للخزى قدمان . ولا يستطيع عمارة أن يفعل شيئاً فليس يملك عتاداً ولا رجالا يضرب بهم هؤلاء الخصوم ، ولكنه يسمع صامتاً وعيد زعيم القوم إذ يقول :

« ارجـــع . . . فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلا ، وإن أبيت ضربت عنقك ! . . . »

فيكظم العامل غيظه ، وينطلق راجعاً إلى الحاضرة الإســلامية ليخبر أمير المؤمنين . ولـكن الذكريات تنثـال على مخيلته كما تراود الآن الخواطر النافذة إلى ما وراء ظواهر الأمور . إنه حقيق بألا يدهش من تصرف ذلك الزعيم ، ومن إعلانه العصيان والتمرد على الامام لأن عصيانه حلقة تضاف إلى ما سبقها من حلقات ، فالرجل الذى تمرد على محمد إذ كانت فى يده رسالة السماء خليق بالتمرد على على وهو لا يملك برهاناً من السماء ، والنفس الآثمة التى سول لها البهتان أن تتحدث بلسان الله لايعجزها أن تتحدث بلسانأهل الـكوفة ! وليس ببعيد عن الأذهان موقف بالأمس لهذا الزعيم الزنيم ، وقفه فى حيـــاة محمد ، مدعياً أنه نبى آخر من عند الله ! فإن لم يكن حسده مكانة رسول الله بين الناس ، وتوسله بكافة الأساليبالتى قد ترفعه فى العيون ، وإن كان أسلوبه هو الافتراء على الله ، وزيغ قلبه عن جادة الحق الإلهى إلى الهوى النفسى الممعن فى الضلال حتى غاية الحـدود . إن لم يكن هذا كله هو المشاعر المقيتة التى دفعته إلى ذلك الموقف البعيد عن كرامة العربى العادى فضلا عن كرامة مسلم مثله أقر ذات يوم بالإيمان ، فأى المشاعر إذن كانت توجه فيه خطاه ؟ . .

إنها لعاطفـــة انبعثت عن أحط الانفعالات فى نفس ذلك النبى المزعوم ! فى نفس طليحة بن خويلد متنبىء بنى أسد ، الذى ارتد عن الاســـلام فى حيـاة محمد وادعى نبوة جديدة حين أبى عليه حسده أن ينفرد محمد دونه برسالة السماء ! . . فذلك الرجـل الذى تصدى بسيفه لامارة بن شهاب ومنعه من دخول قاعدة حكمه ، كان يتحدث بلسان أهـــل الـكوفة بغير تحرج ، وفى يسر عجيب لا مثيل له إلا تحدثه من قبل بلسان الله ! . . وقد نم هذان الموقفان عن حقيقة قلب طليحة وقدر الايمـان الذى يعيش فيه . كان أشبه شىء بالتربة القاحلة الصلبة ، لا تطلع زرعاً وإن بولغ فى تعهدها أزماناً طويلة

بالسقيا . وإذا كان التاريخ ينبئنا أنه ادعى النبوة وارتد بعد إسـلامه ، فإن الأولى بنا أن نقول إنه ادعى الإسـلام من البدء ، ولم يعرف قلبه طعم الإيمان . ولا نخالف بهذا القول حقيقة الحال ! ..

لقد ذهب طليحة وأشباهه من المتنبئين أمثـلة خالدة فى تاريخ الافتراء ، ورسمت نبوءاتهم صوراً من الغدر بالغة الضخـامة لأنهم غدروا بالله وناموسه ورسوله فضلا عن غدرهم بأحلام الناس . ولقد عاد الرجل ثانية إلى الإسـلام فما نراه دخله إلا مقهوراً بسيف أبى بكر الذى سله على عنق الردة ، وما زالت بنفسه بقية من الشـك فى الدين المنتصر وبقية من التمرد مدخرة إلى حين — هو يحدثنا عنهما بذات لسانه حين يجىء إلى عمر مبايعاً بعد وفاة الصديق . . .

يقول له ابن الخطاب وهو لا ينسى بهتانه القديم :

— يا خدع ! . . ما بقى من كهانتك ؟

— نفخة أو نفختان بالـكير ! . .

ولا يكاد ينطلق الزمن فى أبراجه حتى نرى الـكذوب طليحة صادقا هذه المرة ، يختص ببقايا إفـكه وحسده على ابن أبى طالب وخلافته بعد أن فشـل بالأمس فى الـكيد لمحمد ورسالته . وإذا هو حين تجيئه الأنباء بقيام حزب الثأر لعثمان يرى الفرصة مواتية لينفخ بكيره — نفخة أو نفختين ! — فى رماد الفتنة عساه يؤجج النار على وريث الرسول . .

عاد عمارة بن شهـاب إلى المدينة مردوداً عن إمارته . ولـكنه لم يكن آخر عامل للإمام دفعه الناس عن دخول قاعدة حكمه بل نرى على أثره سهل بن حنيف قد رده أيضاً فريق من أهل الشام . وتبدو علائم التمرد سافرة لعينى أمير المؤمنين . وتبدو معها سمات الانقســام فى صرح الدولة واضحة كأنها الصدوع فى البنيان . . فهذه بغير شك الثمار المرة التى أطلعتها صيحة عائشة فى وديان البلد الحرام .

تكاد أن تتفق الآراء الصائبة الرشيدة على الحل الوحيد الذى ليس ثمة

سواء لأمثال هذه المحنة وهو قمع الفتنة وقتلها فى المهد قبل أن يتم لها النضج . وإنه للرأى الذى جال بخاطر على إذ ذاك غير أن الامام كان كعهدنا به رجلا لايسارع إلى إذكاء نار العداء ، بل يؤثر الهوادة كخطوة أولى فيمهل ولا يهمل. ويمد فى حبل اللين ما وسعه عسى أن يتبين مناوئوه سواء السبيل . كان دائماً لا يبادر بالضربة حتى ينذر . وقد عزم من البدء على معالجة الحال كما تملى عليه مصلحة أمته التى أصبحت أمانة فى عنقه ، ووفق ماتوجبه عليه مسئوليته أمام الله وأمام الأجيال كرئيس دينى وزمنى للدولة . ولكنه رأى لزاما عليه أن يعمل بحذر وحيطة حتى لا يدع فى قراره أية ثغرة قد تنفذ منها عناصر الشغب من النهازين وأصحاب المطامع والغايات .

وكان اول من حسب حسابهما طلحة ورديفة الزبير ، فأحب أن يشاركاه فى القرار الذى يتخذه . ذلك لأنه عرفهما لايرضيهما الرضا ولا يقران حياله على حال . بل هما دائماً أقرب إلى الشغب عليه من سواهما وأدنى السادة إلى أفئدة الجمهور المفتون عادة بالشخصيات البراقة وهما بدأ بهما أبدا على الشكوى منه والضيق بكل تصرفاته دون موجب ، أدعى الى مخالفته وإثارة الاعتراض عليه إن حزم أمره وعالج الموقف الجديد دون أن يشاورهما فيه . ثم لعل أول مادفعه إلى إشراكهما فى الرأى رغبته فى تنقية جو المدينة من الشغب الذى لا بد سيثيرانه لو أنه أغفل شأنهما حتى يستطيع أن يجابه مناوئيه فى الخارج وهو مطمئن الى التفاف الجبهة الداخلية حوله فى حاضرة الدولة .

لذلك أرسل اليهما ليعرض أمامهما المحنة الناشبة كيلا تكون لهما عليه حجة . وليسألهما الرأى المدخر الذى يستطيعان بذله . فلما حضرا مجلسه ، راح يبسط لهما الموقف لا يدع صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووصفها بما كاد أن يجعلها مرئية رأى العين ... ثم أردف فقال :

« ... ان الذى كنت حذرتكم قد وقع ياقوم ... وإن الأمر الذى وقع لا يدرك إلا بإماتته . وإنها فتنة كالنار ، كلما سعرت ازدادت واستنارت »

فأى الردود كان حقيقاً بأن تنفرج عنه شفاه الصاحبين ... وبأى لسان ينطلقان ؟ ..

أحسبهما لم يجدا القدرة على الجواب بعد أن تحدثت قبلهما الأحداث . ولعل خواطرهما جرت سراعا إلى خارج نطاق الدار ... ثم بعيدا عن أسوار المدينة .. ثم إلى بلدة الحرم حيث نزلت عائشة ولحق بها كلُ مناوىء للإمام من بنى أمية وأحلافهم ومن تعلق بأذيالهم من ولاة عثمان ... كانت هناك مسلحة تامة الجهاز فيها أموال ورجال وسلاح ، قد أخذت أهبتها للانطلاق عبر الصحراء على بريق السيوف ، بل سبقتها دعوة التمرد على الحاكم الشرعى للبلاد مجللة بنقاب الثأر للخليفة المقتول ، تمهد الطريق أمامها للجيوش المجهزة ، وتقتحم على الرعايا الوادعين ثقتهم بالإمام قبل أن تقتحم بلادهم صفوف الجنود .

أفأسف الرجلان وقد شهدا الآن نتائج هذه الدعوة الهدامة ، أم رأيا فيها أولى خطواتهما الى إدراك مايبغيان ؟ ... إنهما على أى حال قد آمنا بصدق فراسة علي ونفاذ نظره إلى عواقب الأمور ، فتكشف لهما اليوم الى أى مدى كان محقاً فى مخاوفه حين جاءاه يريدان قهره على الاقتصاص من قتلةعثمان .. فى ذلك اليوم حذرهما مغبة التسرع . وأهاب بهما أن يصبرا حتى يهدأ الناس ، وألا يجاهرا بدعوة ، الخطر الجاثم وراء بثها لن يصطلى منه الثوار بقدر ما تصطلى الأمة كافة ويصطلى نظام الاسلام ، وهل فاتهما إذ ذاك أنها دعوة فرقة ، حرية أن تتشعب حيالها الآراء وتتمزق وحدة الأمة ، ثم تنجاب آخر الأمر عن حرب أهلية بين أبناء الشعب الواحد تندلع نيرانها فى كل إقليم ؟

على أنهما الآن لم يدليا إليه بجديد ، ولم يسعفاه بالرأى السديد الذى ثارا من قبل لأنه لم يلتمسه ... بل قالا له :

« فأذن لنا أن نخرج من المدينة . فإما أن نكابر ، وإما أن تدعنا . . »

فإلى أى مكان أرادا الخروج ؟ ... قد يقف المرء وقفة تفكير طويلة

عند هذا الجواب الذى لايحدد الغرض منه تحديداً واضحاً يكشف عن نواياها للاذهان ، ولكنه حين يزن الألفاظ التى ألبست ثوب غموض يراها أدنى إلى ذلك الغرض القديم الذى انطوى على رغبتهما فى ولاية العراقين وأباه عليهما الإمام . ولعل هذا هو ماعلق بذهن على إذ ذاك ورأى معه أن يكفيهما مشقته، لأنه مالبث أن قال :

« . . . سأمسك الأمر ما استمسك . فإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكى . . . »

وكذلك آثر أن يمهل العصاة الذين ردوا عماله عن الكوفة والشام . واختار اللجوء إلى الوسائل السلمية فكتب إلى أبى موسى وإلى معاوية عسى أن يظفر منهما بجواب يتضمن نزوعها إلى سبيل السلام .

ولم يلبث أن جاءه الرد المرقوب من أبى موسى يعلن فيه طاعته وطاعة أهل الكوفة — أولئك الذين تحدث بلسانهم منذ أيام طليحة بن خويلد وأعلن تمردهم . . . ولكن ابن أبى سفيان لم يرسل حرفا . وظل ضاربا فى صمته حتى يتبين أى الطريقين أجدى على مطامعه : طريق الوفاق أم طريق الشقاق .

ثم حانت أخيرا ساعة البت ذات يوم خلال الشهر الثالث لمقتل عثمان . . . فى غرة ربيع الأول اخترق دروب المدينة راكب جذب إليه أنظار الناس . فقد كان معتدلا على راحلته ، ممدود الرأس إلى أقصى مايستطيعه عنقه المطوط ، لاينزل بصره إلى المارة أو الجالسين . وكانت يده مرفوعة إلى أعلى ، بها طومار مختوم يلوح به بين لحظة وأخرى كأنه يشير به انتباه كل متطلع إليه . . . وقد كان حقاً خليقاً بأن تتعلق به العيون ثم تهمس على أثرها الشفاة فى دهشة واستنكار ، ناطقة بالكلمات القليلة المكتوبة عليه :

« من معاوية إلى على » .

من معاوية ؟ . . . بغير هذا اعتاد العمال أن يكتبوا إلى الخلفاء . . . بغير هذه القحة وهذا الاستعلاء . . . ولكن ابن أبى سفيان لا يضيره

أن يدهش الناس ويغضب عليا ، لأنه قد اختار طريقه وأعلن العصيان . .

وأدخل رسول المتمرد إلى الإمام . وتقدم إليه بالطومار المختوم ففضه ، فإن هى إلا نظرة واحدة حتى رفع بصره إلى الشامى يستوضحه الأمر .

كانت الرسالة فى جوفها بيضاء لا تحمل كلمة واحدة . . .

— ماوراءك يا رجل ؟ ...

فتلفت الرجل حوله فى حذر ثم قال:

— آمن أنا ؟ . . .

— نعم إن الرسل آمنة لا تقتل .

- وراثى أنى تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود ..

— ممن ؟

— من خيط نفسك !

فلم يغضب الإمام لهذا الاتهام الظالم ، بل تذرع بالهدوء والتريث ليسمع بقية الحديث وأردف الرجل يقول :

— .. وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قيص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق .

— منى يطلبون دم عثمان ؟

— نعم .

— ألست موتورا كترة عثمان ؟ .. اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان .

ولم تعد ثمة بقية فى الكلام ، فأشار للرسول :

— اخرج .

— وأنا آمن ؟

— وأنت آمن .

ومضى عائدا يجتاز دروب البلدة وإن الناس ليهمون به لولا أن سبقت له كلمة الإمام بالأمان ..

١١

معاوية أسفر عن دخيلته ، وسدد أولى ضرباته . ولكنا نراها ضربة أصابت الإسلام قبل أن تصيب الإمام . وقضت فى النهاية على السلطان الروحى الذى مكنت له العقيدة فى القلوب والخواطر . أما الصرح الشامخ الذى وضع محمد نواته ، ورعاه من بعده خلفاؤه الذين ترسموا خطاه ، فقد أوشك أن يصبح ظلا للماضى ، يطوف به الذهن كما يطوف بالطلل الدارس .

بهذه الضربة انفتح السبيل أمام الأهواء والمطامع ، وكسر القيد الذى كان يحبسها فى نطاق ضيق من خشية الله ومبادىء الأخلاق القويمة . وانطلقت الأنانية بغير حاكم تسود النفوس والضمائر ، ويتحكم ناموسها فى الأفراد الذين وهنت فيهم سطوة الإيثار والتضحية وحب الحق . فإن هى إلا أعوام حتى نرى الدولة الإسلامية تستند إلى قوى ظاهرية بين مال وعتاد وإرهاب ، بعد أن كانت تستند إلى الإيمان بحقها فى هذه الحياة ، وبواجبها الذى يفرض عليها نشر رسالة ترفع البشر من وهدة الظلام ، وبقدرتها الكامنة فى قلب كل مواطن — لا فى سيفه — على سيادة العالم . ولئن ظلت لها زمانا رقعة الأرض التى أظلتها أعلامها الخفاقة ، فإن بقية من القوة الدافعة التى انبعثت عن قوة الدين فى عهده الزاهر هى التى حفظت لها هذه الأرض . وما نلبث كلما تقدم الزمن أن نجد الوهن يسير فى عظامها بقدر ابتعادها عن جوهر العقيدة وخضوعها لأهواء النفس . ذلك أن سلطان الروح بدأ يفتر فى القلوب حتى دالت أخيرا دولته وأخلى عرشه لسلطان المادة . وما كان لنظام سياسى أن يعيش ويأخذ فى النماء إذا لم توطد المثل العليا أركانه ، وتمسك ما بينها كما يمسك الملاط ما بين أحجار البنيان . .

إن جريرة معاوية لا تقاس بنتائج عصيانه للإمام وتمرده على خلافته ،

وإنما تقاس بالنتائج البعيدة التى أصابت صرح الإسلام حتى اليوم . ولسنا نشك فى أن الأقدار هى التى شاءت لهذا الدعى أن يشق طريقه . ولكننا نؤمن بأن الدولة الإسلامية كانت حقيقة بأن تبقى على الزمن خالدة ، تنشر أجنحتها حيثما أشرقت الشمس لو أتيح لها أن تعيش كحالتها الأولى خاضعة لناموس الروح . على أن ابن أبى سفيان كان لا يستطيع أن يعيش إلا فى جو أطماعه . وقد علم أن عليا رجل مستقيم المنهج ، لا يدين بغير شرعة الله ، ولا يقر للأنانية بالحق فى الحياة . بل قد خبره يأخذ نفسه قبل إمرته بتسويد المثل العليا وجعلها الهدف الذى يجب أن يلتزمه كل إنسان مؤمن بإنسانيته ، فهو إذن بعد أن انتهت إليه مقاليد الحكم أحرص على هدفه وأقدر على نصرته . وما دام هذا طابع عهده فليس ثمة اختيار لمن يدين بغير هذه المثل إلا أن يختفى أو يعمل على اختفاء هذا المثالى من الميدان .

كان الطومار الفارغ الذى قطع الصحراء من الشام هو الدعوة السافرة لأصحاب الفتنة المتآمرين ليبرزوا من أوكارهم ويعملوا علانية . فقد اطمأنت به خواطرهم ، وعرفوا أنه عنوان قوة من الرجال والعتاد تربض فى الشمال يستطيعون أن يركنوا إليها فى شد أزرهم إذا أعلنوا هم أيضاً العصيان ، وقد تقووا فعلا بتمرد معاوية ، واستشعروا شجاعة ، كانت تخونهم قبل اليوم تتدفق ثانية فى عروقهم كما تتدفق الدماء . ولعل المدينة لم تسمع لغطاً من قبل للائتمار بالنظام القائم كما سمعته فى هذه الفترة وكما همست به ألسنة الحاقدين على الإمام . ولعلها لم تشهد هجرة كهجرتهم من جنباتها إذ ذاك وفرارهم منها كلما استطاعوا الفرار . كان أولئك النفعيون عباد الذات ينظرون إلى تمرد ابن أبى سفيان كفاتحة عهد جديد ، آن أن يظفروا فيه بتحقيق الأوطار وبلوغ أجدى الغايات .

. . . ثم نرى طلحة بن عبيد الله يبرز ثانية على رأس الصفوف هذه المرة لا يسير جدلا جديدا بغير طائل ، ولا يتصدى لمعارضة كلامية تخونه فيها حجته أمام منطق الإمام . إن الظروف قد تغيرت والريح تسير له رخاء كما يلوح ودوره

اليوم أصبح غيره بالأمس ، حين كان لا يعدو تجسيم الهنات ثم الانتظار . لم تعد به الآن حاجة للتربص ولا للسكوت قاعداً يشهد موكب الحوادث الذى أخذ يسير ، ووجب عليه أن يكون فى ركابه أو يضيع .

وجب أن يلحق بموكب النضال ويعمل لجده ، وهاهى عائشة بمكة قد انتشرت دعوتها ونمت الحركة التى بدأتها منذ أربعة شهور ، وزاد أتباعها حتى ليسهل أن يكون منهم جيش مرهوب . أما ميلها السياسى فمعروف . وأما الخليفة المرجو الذى لن تدعو لسواه فليس سواه . فمن البدء كانت داعيته ، أو ستظل كذلك فى قرارتها حتى يتبين لها أن تعاود النداء باسمه مقرونا بلفظ الخلافة الجليل ؟ .

على أنه لم يعدم شعوراً خفياً يزحف إلى صدره كزحف الحية الرقطاء وهو يتجه بعينه صوب الشام . هو حقاً فرح بتمرد معاوية على الإمام وعده خطوة واسعة نحو النصر ، ولكنه مع ذلك كان قلق الخاطر وخياله تطوف به صورة سليل الأمويين . فهذا الأمير منافس خطر بغير شك يجب أن يحسب له ألف حساب . إنه فضلا عن حسن تأهبه بالعتاد والرجال وامتلاكه ناصية رعاياه ، له فى السيادة مطمع قديم . وهو أيضاً ولى دم عثمان الناهض الآن لأخذ الثأر من كل امرىء شرك فيه . فاذا ذكر دم القتيل لم ينس القاتل ، ولم ينس أعوانه وإخوانه ، ولم ينس قبلهم من دفعهم بتحريضه إلى ارتكاب الجرم . فهل يستطيع طلحة أن يخفى عنه كفه الحمراء ؟

نحسبه جاهد ليبعد هـذا الخاطر عن ذهنه حتى لا يفسد عليه أمره ، واكتفى بالفرصة التى أحسها حين علم بتمرد معاوية وإعلانه العصيان على الإمام . . . إن قوة عاتيـة فى الشمال تؤيد إذن خطته ، وتهب لذات الدعوة التى استحدثتها عائشة بمكة . . . تهب لمناجزة الخصم المشترك وإدالة سلطانه ، وتهيأ لضربه الضربة التى ينتظرها هذا التطلع إلى مقعد الحكم وكل متطلع مثله إلى النفوذ أو إلى إشباع هواه . ويوم يتحقق لطلحة أمله ويخلو الميدان من خصمه المرهوب ، يهون عليه بعده أمر كل خصم سواه !

أما الآن فقد وجب أن يلحق بموكب الضلال ويعمل لمجده ! . . وإذا كانت نفسه أكبر عنده من أن يحملها على الفرار فإنه لا يعدم وسيلة أخرى يخرج بها من المدينة ولا تنقص من قدر كبريائه . وأيسر هذه الوسائل ما كان يتعلق بالدين ، لأنه به يستطيع الفوز برضاء الخليفة وإقراره . . . كذلك صحب رديفه الزبير ، وانطلقا معا إلى على يطلبان منه الإذن بالخروج .

قال له :

« إيذن لنا يا أمير المؤمنين . . . »

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى طلبا فيها السماح بمغادرة المدينة ، منذ جاء طومار ابن أبى سفيان ! .

— نريد العمرة .

فرمقهما هنيهة بنظرة نفاذة ، ثم قال برنة المستريب :

— والله ما العمرة تريدان ! .

— والله مانريد إلا العمرة .

— بل الغدرة ونكث البيعة ! .

انكشفت له مغاليق القلبين كما ينكشف عن الصحائف غلاف كتاب ، فأى شعور يا ترى اجتاحهما وقد نزلت كلماته عليهما كلسان السوط ؟ .

لوددنا لو كان الزمن لم يطلع على الصاحبين تلك اللحظة ، أو جنبهما الهوان الذى زخرت به ، ولكنها كانت مشيئة نافذة جرت بها يد القدر فى سجله ، وكتبت على الزبير وطلحة مايرجو كل عارف لقدر أمثالهما من قادة الإسلام لو تنزها عنه . فقد مضى الشيخان يؤيدان قولهما ، ويدفعان عنهما تهمة أمير المؤمنين بأيمان مغلظة هما يعلمان بغير شك أنها قسم حانث . . ولكن الحلف وحده كان الوسيلة التى تبلغهما ما يريدان .

وقال على وما زالت نفسه مترعة بالشك والريبة :

— فأعيدا البيعة لى ثانية . . .

ففعلا دون تردد ؟ وبايعاه كرة أخرى وهما يعقدان له المواثيق والعهود بأيمان جديدة . . . ثم مضيا عنه خفيفين كأنما أتيح لهما الخلاص من نار ، وانطلقا إلى درب مكة ، وإن بصدر كل منهما آمالا مبسوطة الرقعة كامتداد الفضاء الفسيح . .

وكانت المدينة إذ ذاك صامتة ترقب سير الحوادث ، وتنتظر القرار الذى لا بد سيتخذه الإمام حيال متمرد الشام . لقد جاءت الأخبار بطاعة أبى موسى فى الكوفة وببيعته وبيعة أهل إقليمه لأمير المؤمنين ، وها هو الزمن يمر ولا جواب يأتى من قبل معاوية رغم ترفق على به ، ورغم إرساله إليه يعظه ويبصره ويهيب به أن يستجيب لمشيئة جماعة المسلمين . . . انقضى الزمن وابن أبى سفيان موغل فى صمته وموغل فى عصيانه ، فدل بهذا على إضماره العداء ، وانطوائه على نية الخلاف . وإن الناظر إلى سياسة على حيال ولاة عثمان ليعلم الآن مدى صوابه حين أبى إلا اخلاءهم وتولية سواهم ممن يؤمنون بمبادئه ومثله ، ويعلم أيضاً أنه كان نفاذ البصيرة ، مؤمناً باستجابة البلاد كلها له لأنه لم يعمل إلا ما أملاه عليه شعور أهل الأمصار نحو أولئك الولاة . وها هو الزمن قد أثبت فراسته ، فجاءته الطاعة من كل إقليم . أما الشام فلها وحدها شأن تنفرد به لأنها فى قبضة رجل مفتون بالسلطان ، إقراره عليها — كعزله سواء بسواء — لن يسفر إلا عن عردة لأنه لا يرضى بغير احتلاب السلطان الذى وقع فى كف غريمه القديم . ولعله لو أثبته الإمام فى حكم الشام لوسعه أن يبدو فى أنظار الجماهير أقوى منه فى حالة العزل ، لأنه يستطيع حينئذ أن يقول للناس إنه يأبى البيعة لمن ولاه ، ولا يعتبرها إلا ثمناً يشترى به أمير المؤمنين صمته عن اتهامه بمقتل عثمان ! . .

ولم يبق ثمة أمل فى إصلاح الحال برد معاوية عن غيه بوسائل الترفق . فقد كشف عن وجه الغدر وأسفر عن دخيلة نفسه . وكانت الأخبار تطالع المدينة بين كل يوم وآخر بتأهبه واستعداده . وكان أنصار على يترقبون

أمره وينتظرون ما ينجاب عنه تقريره ، والحدس يتراوح بهم بين انتصار سياسة الإمهال أو سياسة القتال . فلما أن انقضى الزمان فى ركود ، وملكتهم الحيرة ، دسوا إليه زياد بن حنظلة عسى أن يعرف لهم حقيقة الخطة التى سينتهجونها فى النهاية . فما هو إلا أن دخل عليه زياد وراح يحاول الطواف بحديثه حول الموضوع ، حتى بادره الإمام :

— يا زياد تيسر ...

— لأى شىء يا أمير المؤمنين ؟

— لغزو الشام !

— بل الرفق والأناءة أمثل ...

« ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم »

فما جله أمير المؤمنين بقوله :

« متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم ! »

ووضح بهذا ما خفى هنيهة عن الأذهان . بانت الخطة التى لم يبق اليوم معدى عن اتخاذها حيال متمرد الشام .

وخرج زياد فاستقبله الناس بالباب :

— ما وراءك ؟

— السيف ياقوم ؟

على أن ابن أبى سفيان حالفه زمنه ، فيسر له أمره ، وفرش طريقه أمامه بالورود ! .. فلم يكد على يطالع أصحابه بما عزم عليه ، حتى امتدت أصابع القدر إلى ذلك العزم فطوته ، وإلى الضربة القاصمة التى كان وشيكا أن يوجهها إلى خصمه فأرجأتها ... ذلك أن القسم الغليظ الذى حلفه طلحة والزبير كان خدعة ، وكان سترا أريد به حجب الغدر الذى بيتاه ... فقد جاءته أخبار مكة تحمل إليه بداءة « العمرة » التى انتواها الشيخان ! ... إن النبأ قد صورهما يدعوان الناس إلى الإصلاح .

وقال لأعوانه الذين سألوه :

« ... ألا إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالأوا على سخط إمارتى ،

ودعوا الناس إلى الإصلاح ، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم ، وأ كف إن كفوا ، وأقتصر على ما بلغنى عنهم . . . »

ولكنه فى قراراته كان لا يسلم من الشك . ولا يستطيع أن يقسر نفسه على الهدوء ، والاطمئنان . وقد صدق شعوره . فقد جاءته الحقيقة الواضحة بعد قليل ، وعلم أن حزبهم بمكة قد تعبأ للقتال ، وهم بالسير إلى البصرة . . . فإلى أى شىء يسيران إن لم يكونا قد اعتزما أموراً أهونها حمل أهلها — مثلهم — على نقض إمرة الإمام ؟ . . .

وهتف على وهو يكاد أن يرى بعينيه لهيب الفتنة يعم أقطار الدولة :
« إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين . . . »

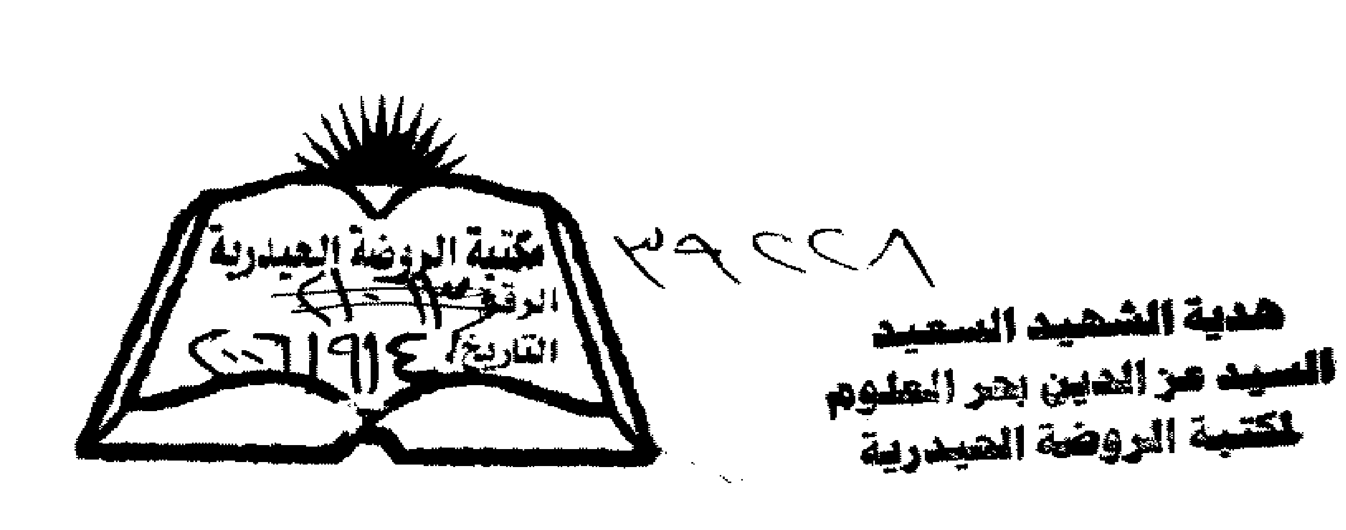
وقد فعلوه . وتواترت الكتب والأخبار بما عزموا عليه . ولم يعد فى نفسه ظل ريبة من حقيقة الموقف الذى اختارته عائشة وصاحباها ، ومسارعتهم إلى تقويض بنيان الدولة بهذه الدعوة التى خرجوا بها من حيز القول باللسان إلى المناجزة المسلحة بالسيف والسنان . علم على كل هذا وأيقنه ، ولكن أمراً واحداً لم يكن قد علمه بعد ، وكان إذ ذاك بعيداً عن ظنه .. ولو استطاع أن ينفذ ببصره إلى مغاليق السر عند الشيخين ، لعرف السبب الحقيق الذى دفعهما إلى تعجيل حربه ، ولرآه ممثلا فى كتاب صغير قطع الصحراء من الشام إلى مكة حتى صار إلى يد الزبير يقرأ فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« لعبد الله الزبير أمير المؤمنين . من معاوية بن أبى سفيان .

سلام عليك ، أما بعد فإنى قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب . فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليهما ابن أبى طالب ، فإنه لا شىء بعد هذين المصرين ، وقد بايعت لطلحة بن عبد الله من بعدك . فأظهروا الطلب بدم عثمان ، وادعوا الناس إلى ذلك . وليكن منكما الجد والتشمير . . أظفركما الله وخذل مناوئكما ، والسلام . »

(تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث)


مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم
التاريخ

توزيع الهيئة العامة للكتاب
القاهرة - بيروت
المجموعة الكاملة ٤٠ ل.ل.